

تاريخ الحركة الشيوعية المصرية

المجلد الأول

(من ١٩٠٠ إلى ١٩٤٠)

د. رفعت السعيد

اسم الكتاب: تاريخ الحركة الشيوعية المصرية

المجلد الأول (من ١٩٠٠ إلى ١٩٤٠)

اسم المؤلف: د. رفعت السعيد

الطبعة السابعة: القاهرة ٢٠١٢ م.

رقم الإيداع: ٢٨٠٦ / ١٩٨٧

الناشر: شركة الأمل للطباعة والنشر

al_amal@alamalprintshop.com

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للمؤلف.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن
كتابي من المؤلف.

تاريخ الحركة الشيوعية المصرية

(١٩٤٠ - ١٩٠٠)

- الطبعة الأولى: دار الفارابي - بيروت ١٩٧٢ .
- الطبعة الثانية: دار الثقافة الجديدة - القاهرة ١٩٧٥ .
- الطبعة الثالثة: دار الفارابي - بيروت ١٩٧٥ .
- الطبعة الرابعة: دار الطليعة - بيروت ١٩٨٠ .
- الطبعة الخامسة: دار الثقافة الجديدة - القاهرة ١٩٨١ .
- الطبعة السادسة: شركة الأمل للطباعة والنشر ١٩٨٧ .

إلى أجمل بسمات الحياة.. أحفادى
نيقين ورامى خالد السعيد
يوسف وليلى حسام فهمى
أملأ فى أن تكون مصركم أكثر جمالاً وإشراقاً.. وحرية

وبعد

ها أنا إذا أعود لأمسك بيديّ أوراق حلمى القديم، الجميل، بل الأكثر جمالاً من بين كل ما كتبتة.

فالطبعة الأولى من الكتاب الأول من هذه الموسوعة صدرت ١٩٧٢ أى منذ أربعين عاماً وصدرت منها ست طبعات وهذه هى السابعة وبعد أن أكملت هذه الموسوعة (سبعة كتب عن تاريخ الحركة الشيوعية المصرية واثنان عن تاريخ مناضليها) وبعد أن كتبت أكثر من سبعين كتاباً آخر لم تزل هذه المجموعة أكثر قرباً إلى نفسى.

قال ابن سينا فى إحدى جلساته «ما نظرت إلى واحد من أبنائى السبعين إلا وقلت لو عدلت هذا لكان أفضل ولو حذفت هذا لكان أفضل» ولأن تلاميذه لم يكونوا يتجاسرون على سؤال.. صمتوا، حتى ابتسم إذ أدرك دهشتهم وقال «الكتاب كالابن، وكما أن ثمة ابن صالح وابن ليس كذلك، فكذلك الكتب».

أما كتب هذه الموسوعة فهى الأعز إلى قلبى. فى غمارها قضيت أكثر من عشرين عاماً.. أقرأ - أبحث - أكتب - أجوب بلادا بحثاً عن وثائق أو رجال يحملون فى قلوبهم وذاكرتهم بعضاً من معلومات. أكثر من عشرين عاماً قضيتها صاعداً إلى أرشيف القلعة

أو مقيماً في دار الكتب بباب الخلق.. أيام وأشهر وسنوات، حتى أصبحت دار الكتب كبيتى بل وأكثر. فلسنوات كنت أقضى فيها وبين أرففها وأوراقها ساعات تبدأ مع فتح أبوابها وتنتهى بانتهاء يوم العمل فيها. حتى بدوت وكأئننى واحد من موظفيها. وتوالت كتب هذه الموسوعة حتى صدر آخر كتبها وهو التاسع «مناضلون يساريون المجلد الثانى» منذ فترة وجيزة.

ولقد أصبحت هذه الموسوعة مرجعاً حقيقياً لكل كتابة عن هذا الموضوع وهو ما منحنى تعويضاً عن كل جهد بذلته، وتصورت فى بدايته أننى أحاول فقط أن أرد على بعض ما يكتب خطأ سواء عن عمد أو عن جهل، أو تصورت أننى فقط أستنقذ هذا التراث التاريخى من براثن الإنكار، أو التجاهل أو النسيان، ولكن ها أنا إذ أقلب كتب هذه الموسوعة أكتشف وأدهش أننى كتبت معها تاريخ مصر.. أو بالدقة بعضاً مهماً من تاريخ مصر.

فقد حذرنى أستاذى البروفيسور لوثر راتمان قبل أن أبدأ هذه الرحلة، من أن أسلخ تاريخ الحركة الشيوعية عن تاريخ الوطن الذى نشأت فيه. قال مبتسماً: لا تصف شجرتك وحدها ولكن تأملها كجزء من الغابة، فأية حركة سياسية لا يمكن فهم منهجها وأسلوبها ومرجعيتها وتصرفاتها دون دراسة كل ما يحيط بها من تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية وفنية وأدبية. يجب أن تدرسها كجزء متلاحم مع الوطن وإلا أتت بلا مذاق.

وبالفعل تأملت هذه الزهرة عبر تأملى للحديقة بأكملها. وبهذا اكتست هذه الدراسة بمذاق وعمق خاصين. كذلك علمنى أستاذى ألا أنظر إلى مراجع الدرجة الثانية أى تلك التى تتحدث عن حدث نقلاً عن آخرين تحدثوا عنه، إلا مضطراً وساعاتها يكون لزاماً أن أسند القول إلى قائله أو الرواية لمن رواها، وبعد أن أبذل أقصى جهد فى استقصاء. لكننى كنت أستغرق فى البحث والقراءة والكتابة والمراجعة فى حالة من سعادة غمرتني إلى درجة أننى كنت أخشى أن أنتهى من هذه الدراسة. ولم يفلتنى منها إلا حاجتى إلى الانغماس فى بئر جديد من المعلومات عن تاريخ الحركة الإسلامية السياسية، ومن ثم جماعة الإخوان وما أتى من روافدها.

* * *

وها أنا أضع مجلدات هذه الموسوعة التسع أمامى مستشعراً بعضاً من الرضى فى زمن صعب يحتاج فيه الإنسان إلى استشعار بعض من رضا، حتى ولو كان منتسباً إلى

الماضى ولا يكون بعض الرضى من مجرد تقليب الصفحات فأنا لا أقرأ فقط مجرد الكلمات وإنما أستعيد فيها خيالات الماضى وأنا أعثر على هذه المعلومة وأفنى ساعات بحثاً عن حقيقتها سواء فى تقليب مجموعات صحف أو وثائق أو محاورات يلح أصحابها على منح أنفسهم أكثر مما فعلوه أو يرفض أصحابها البوح بما فعلوا، ترفعاً أو حتى تصوراً أنها أسرار لا يجب البوح عنها.

والآن يكون الإلحاح مصرىً وعالمياً بحثاً عن نسخ من هذه الكتب. وأنا الذى تصور أنى قد نسيت بعد أن طبع من كل كتاب منها ما يكفى ويزيد، وتلاشت من المكتبات أو نامت على أرفف دور الكتب فإذا بالإلحاح يوقظ الناشر «دار الأمل» على إعادة طبعها من جديد.

ومع الطبعة الجديدة أعود لأتذكر أستاذى راتمان ممتنا لما علمنى إياه من أدوات البحث وأساليب التحليل العلمى للحدث التاريخى. بينما هو يعترضنى لأصبح كما كان يردد جديراً بالحصول على درجة الدكتوراه فى فلسفة التاريخ، ثم يزداد ضغطاً وأنا ألح فى الماضى تحت جناحيه وعبر أربعة عشر عاماً أخرى أنتج فيها أربعة عشر كتاباً منشوراً وإذا به يعتبرها مجرد محاولة لاستحقاق التسجيل ضمن الباحثين عن الحصول على درجة دكتوراة العلوم فى التاريخ.

ويطوف ذلك كله فى خيالى وأنا واقف فى قاعة الاحتفالات الكبرى فى جامعة أثينا العريقة وأستاذ آخر هو البروفيسور مازيس يتوجنى بقراءة المرسوم الذى منحت بمقتضاه درجة الدكتوراة الفخرية. وكانت هذه الموسوعة واحدة من المفردات التى استحققت بموجبها هذا الشرف. وقد تلمس البروفيسور مازيس جانباً عشته وبعثه دون أن ألتفت إليه إذ قال «هناك دارسون ومفكرون يبحثون، وهناك مناضلون سياسيون يتحدث عنهم هؤلاء الباحثون وعن نضالهم. لكن كليلو آلهة المعرفة الإغريقية وقفت أمام ازدواج الأمرين فى شخص واحد».

وارتبتك. حقيقة ارتبتك وطافت بذاكرتى صور راتمان الذى منحنى من علمه بسخاء منقطع النظر. وزوجتى «ليلى» التى إحتملت الأمرين معاء العكوف المستمر طوال سنوات على البحث تاريخاً لها كل المهام الثقيلة الأخرى التى تحملتها بسخاء، ورضى مدركة لأهمية ما أكتب وأهمية ما أعمل - فالفعل قرأ يصبح بحث ثم كتب ثم فعل ثم سجن وكل

منها ينأى بى عن أثقال الأسرة والأولاد وهى راضية بل وسعيدة، وكذلك خالد وغادة
أبنائى ولدا وأنا أكتب، كبرا وأنا أكتب، ومازالا وقد تقدمت السنين وأتوا لى بأحفادهم
أجمل ثمرات الحياة يجدوننى وأنا أكتب.

* * *

ويقلب الناشر أوراقه ليطلب إعادة طبع هذه الموسوعة فثمة من يطلبونها بإلحاح. وأعود
لاستمتع ببهجة استعادة كل ذكريات هذا العمل الذى كان عبئاً ثقيلاً وجميلاً. وأستعيد
امتنانى الممتد لأستاذى خالد محيى الدين الذى شجعنى وحثنى وعنفتنى إذ تثاقلت،
وأستعيد أيضاً امتناناً للأستاذة الدكتورة سهير القلماوى التى ذهبت إليها وهى مسئولة
المؤسسة العامة للنشر مطروداً من أخبار اليوم وسألتنى فى دهشة ماذا يمكنك أن تفعل
عندى. لدى أمر بأن أمنحك وظيفة ولكن أى وظيفة؟ قلت: أى عمل لا يحتاج إلى وقت كثير
فأنا مشغول بإعداد رسالة الدكتوراة، سألت عن الموضوع وأجبت. فابتسمت قائلة: الآن
فهمت لماذا أبعدوك، والآن ماذا تريد؟ قلت: وقتاً، فقالت: كل الوقت لك. خذ مرتبك وواصل
دراستك وفقط. ثم قالت وبحزم: حذار من أن تخذلنى. سمعاً وطاعة. وعندما حصلت على
الدكتوراه الأولى كانت السبل قد تفرقت.

... والآن ها أنا ذا أستشعر إحساساً بأننى وبرغم كل ما عانيت عبر عدد من السنين
من صعاب وسجن وتعذيب إلا أنى كنت حسن الحظ.. فقد عشت مدفوعاً بحنان وحماس
ورضى عدد من الأشخاص.. بروفيسور راتمان - بروفيسور مازيس - د. سهير القلماوى
- د. كرياكو نيقولا وقبل هؤلاء أستاذى خالد محيى الدين وزوجتى لىلى. وأبنى خالد
وغادة.

إليهم جميعاً خالص امتنانى..

د. رفعت السميد

.. وكانت البداية

منذ أكثر من عشرين عاما..

طرحت أمامي كل ما يمكن أن يغلفني من أحلام وطموحات، وبدأت أنتقي منها ما أعتقد أنه الأجمل والأكثر بهاء، والأكثر جدارة بأن أمنحه بعضا من ذاتي..

وكانت الأيام صعبة، الغابة تناثرت أشجارها، قرار «الحل» يخيم مثل كابوس قدرى مخيف، «يوم يفر المرء من أخيه، وأمّه وأبيه» وكان البعض يرفض أن يعود بأبصاره إلى الخلف، خشية أن يسىء «السادة» فهم هذه الالتفاتة، وكان البعض وكأنه يريد أن يغتسل مما مضى، والبعض يؤمن في «الحاضر» وحده.. والبعض الآخر يرتجف من هول أن يكون وحيدا فيسعى إلى دروس الماضي تعلما واكتسابا للدفع، واستعدادا للآتي من الأيام..

وبينما كان أكثر من حلم يتألق في خاطري، برز من بينها أمل أن أعد دراسة أكاديمية متكاملة عن تاريخ الحركة الشيوعية المصرية.. منذ أيامها الأولى.. أى ما قبل مطلع القرن العشرين..

وامتزج العام بالخاص.

أن يصبح الحلم طموحا، وأن يتحول الطموح إلى قطعة من الهم الذاتى كل يوم بل وكل لحظة.. ولقد أشفق الكثيرون من هذا الحلم.

البعض أشفق منه على، فهو عبء أكبر من أن يحتمل فرد كل أثقاله. والبعض أشفق على منه، خشية ألا أكون بالقدرة المطلوبة، ولا بالحياد المفترض.

ونصحنى البعض أن أنتظر، وألح البعض أن أتخلى حتى لا يساء فهمى، أو فهم ما أريد، وكشر البعض من «السادة» عن أنياب غير راضية.. وأكثر من مرة وقفت أمام النياحة والقضاء لأفسر وأبرر «لماذا» و«ما الدافع» وما القصد والهدف؟

ولكن.. ما أمتع أن يخوض الإنسان معركة يمتحن فيها نفسه وقدرته على الفعل، وقدرته على التعلم وقدرته على التحدى.

وما أمتع أن يتحصن الإنسان فى ساعات الشدة، ولحظات الإحباط بحلم يتألق دوما فى سماء فعله اليومي..

طرحت كل المحاذير، كل التحذيرات، كل المخاوف.. وخضت غمار التجربة. لم أكن أتخيل أنها بكل هذه الصعوبة، ولا هذه الخصوبة، ولا هذا الدفء. فى أقسى ساعات الشدة حيث قشعريرة الوحدة تمنح كل الأجساد ألما باردا وقاتلا، كنت أشعر بدفء الماضى وعطره، وأمتحن قدرتى على التطلع للمستقبل. وانغمست حتى أعماق أعماقى فى هذه الغابة الجميلة من المعرفة الممتعة.

صرت أتابع الحدث.. وأصحابه وأتوحد معهم، أعایشهم، أحلم بهم، أحمل همومهم فوق كاهلى، أفكر فى مشكلاتهم ناسيا أن قرابة القرن قد مضت.. صرت أتعرف على الأسماء وألح فى متابعة التعرف عليها حتى كدت أبني فى مخيلتى ملامح متكاملة لكل من هؤلاء الرجال.. وباختصار شدتني التجربة أكثر مما توقعت، وبأكثر مما توقع أحد..

وأنجزت الجزء الأول من هذه الدراسة.. وحصلت به على درجة «دكتوراة الفلسفة فى التاريخ الحديث» وأثار صدوره ضجيجا، وصخباً.

ولقد أوشك أن يحبطنى وأن يحبط كل مشروعى أن الكتاب قد منع طبعه بمصر، وكذلك منع تداول الطبعة البيروتية منه. فما جدوى أن تحكى عن العاشق والمعشوقة لا تعلم؟

إن مصر.. وطبقتها العاملة هى محور الحلم الذى عشقت، فما جدوى أن أكتب للآخرين؟.. لكننى ومع ذلك قررت أن أواصل. هل هو الإصرار؟ أم هو الإلهام الذى وفد

إلى عبر همسة أبلغتني أن بعضا من الشباب ينسخ الكتاب بخط يده وينظم تداوله مخطوطا؟ أم هو حلم التطلع إلى مستقبل ينسج خيوطه من الماضي؟

وواصلت.. وتواصلت الدراسة، كل حلقة منها تسلمني للأخرى، تأمرني أن أواصل، الدراسة الأكاديمية تجبرك على أن تتكامل معرفتك بموضوعها. وتحتم أن أدرس مع تاريخ الحركة الشيوعية تاريخ صحافتها، وحدود موقفها من القضية الفلسطينية، ورؤيتها لقادة العمل السياسى المعاصر..

تواصلت الدراسة، وتواصلت معها حتى توجت بحدثن كانا تتويج حلمى الجميل.. صدر الجزء الأخير من هذه الدراسة «تاريخ الحركة الشيوعية المصرية - ١٩٥٧ - ١٩٦٥».. وأكاديميا قدمت دراسة مضية حصلت بها على «دكتوراة العلوم فى التاريخ الحديث».

أخيرا تنفست الصعداء.

وقبل أن أستشعر تمام الراحة.. كان الحلم الجميل يتململ، وكانت عيناى تتوقفان أمام ملفات عديدة تحتوى على بيانات إضافية تراكمت عبر السنوات العشرين.. إضافات، وثائق، تصحيحات، انتقادات تتعلق بما كتبت.

وأحسست أننى لم أزل مدينا..

للقارئ الذى استنفد كل ما صدر من طبعات بحيث أصبح من الضرورى إعادة طبع كل ما صدر منها مرات عدة.. وللحقيقة التى تظل تلح حتى تتكامل.

.. أحسست أننى لم أزل مدينا..

للقارئ الذى يستحق أن أقدم له كل ما تجمع لدى من معرفة وألا أضن عليه بشيء منها. ولأبطال الملحمة القدامى والمعاصرين.. بأن أقدم تاريخهم بأكبر قدر من التدقيق والتصويب.. فعدت مرة أخرى أراجع كل حرف وكل موقف، وأضيف وأمحو وأصحح، وأحاول أن أقدم الحقيقة فى صورتها الحقيقية.

وأعود فأتى للقارئ من جديد..

وكأن عشرين عاما لا تكفى.. هكذا عاتبني البعض ممن أحب.

وأجبت: ولا حتى كل ما تبقى من عمر يكفى كى يفى بالدين..

وهكذا ستصدر هذه الكتب جميعا فى مجلدات متتابعة.. يضم المجلد الأول منها:

* تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ - ١٩٢٥

* اليسار المصرى ١٩٢٥ - ١٩٤٠

ولقد طبع من الدراسة الأولى خمس طبعات.. وها هى السادسة.. أما الدراسة الثانية فقد طبعت ثلاث مرات، وقد نفذت منذ أمد بعيد لكننى رفضت إعادة طبعها لأننى أحسست أننى قد امتلكت عليها إضافات مهمة، ولما كنت منغمساً بكليتى فى متابعة حلقات الدراسة فقد وعدت نفسى أو توعدتها بأن أرجئ إعادة طبعها حتى أنتهى من الجزء الأخير ثم أعكف عليها بالتعديل والإضافة.

وها قد أوفيت بوعدى ووعدى... معا.

.. وبعد

ما من كلمات يمكنها أن تصف امتنانى للقارئ الذى كان لإلحاحه المستمر سؤالاً وضغطاً بل وتوعداً أكبر الأثر فى أن أواصل - حتى فى سنوات الزمن الصعب - البحث والكتابة، وفى أن أنتزع الوقت الضرورى لها وهو كثير من براثن الانشغال بالحاضر وبالمستقبل معا...

وما من كلمات يمكنها أن تفى بدينى لأستاذى البروفيسور راثمان عميد جامعة كارل ماركس بألمانيا الديمقراطية ومعاونيه، فقد تعلمت على يديهم الكثير، سواء فى مجال المعرفة العلمية بالتاريخ، أو فى مجال البحث الأكاديمى وأدواته..

وما من كلمات يمكنها أن تصف العرفان بالجميل لأسرتى.. زوجتى وابنائى خالد وغادة.. فقد تحمّلوا منى كل ما تطلّبه دراسة طويلة الأمد كهذه من انشغال بهمومها، وانطواء على أدواتها..

وما من كلمات يمكنها أن تكشف عن عمق المحبة التى تحتشد فى وجدانك وأنت تتابع عبر أجمل سنوات حياتك سيرة ونضال وعذابات ومعارك رجال.. وهبوا حياتهم للمبدأ وللشعب وللوطن..

وما من كلمات يمكنها أن تصف كون إنسان يحقق حلمه.. بل أجمل أحلامه.

القاهرة - ١١ أكتوبر ١٩٨٦

تاريخ الحركة الشيوعية المصرية

١٩٢٥ - ١٩٠٠

إلى
خالد محيي الدين
أخا وصديقاً وأستاذاً

مقدمة الطبعة الخامسة

ثمة مناسبتان وليست مناسبة واحدة.
الطبعة الخامسة من هذا الكتاب تصدر..
وهى تصدر فى الذكرى الستين لتأسيس الحزب الاشتراكى المصرى الأول.
والكلمة عاجزة تماما عن التعبير.
فالإحساس وأنت تكتب مقدمة كتاب مختلف تماما عن الإحساس وأنت تقدم كلمة
للطبعة الخامسة منه.
تماما مثل الاختلاف بين أن تحرر شهادة ميلاد ابنك أو ابنتك، وأن تحضر حفل زفافه.
خمس طبعات.. شئ لم يكن أحلم به ولا أملك إزاءه إلا أن أحنى رأسى احتراما
 للقارئ الذى غمرنى باهتمامه وتشجيعه.
ثمة أيام كان فيها هذا الكتاب ممنوعا فى مصر، وفى هذا البلد العربى أو ذاك، وكان
القارئ يتابعه برغم المنع، يغامر بحياته، أو حتى مجرد قراءته، لكنه مع ذلك ظل متمسكا
بحقه فى أن يتعرف على تاريخ هذا العمل الفذ.. المحاولة الأولى لتأسيس حزب اشتراكى
مصرى..

* * *

وتتوالى الطبقات فتصبح خمسا، ورغم تعددها ورغم سنوات عديدة تمضى يظل ثمة دين معلق فى عنقى أشعر أنه لا بد من الوفاء به. كلمة تحية لعالم جليل، واحد من آباء التاريخ الحديث فى عالمنا المعاصر البروفسور لوثر راثمان عميد جامعة كارل ماركس بألمانيا الديمقراطية.. ذلك الرجل الذى فتح أمامى بسخاء وتфан أبواب التعرف على ممكنات علم التاريخ، ومناهج البحث فيه والذى أشرف فى صراحة العالم وحنان الصديق على رسالة الدكتوراة التى اعتمدت أساسا على موضوع هذا الكتاب. عنه تعلمت كيف أبحث وأكتب فى التاريخ. وإليه أهدى تحية وفاء.. واحترام.

والعام الستون يأتى..

رحلة طويلة وشاقة خاضتها أعلام الاشتراكية عبر الشوك ووسط أحضان الجماهير.. سنوات ستون من التفانى المخلص والوفاء المتبتل للوطن والشعب.. وللإشتراكية.. الرحلة الشاقة هى موضوع معاناة الآلاف من أولئك الرجال والنساء الذين تمسكوا براءة مبدأ آمنوا به وتقبلوا فى سبيل هذا الإيمان تضحيات لا حصر لها.. تضحيات يصعب على المؤرخ أن يتناولها بالوصف.. فعلم التاريخ علم صارم لا يعرف اللين أمام العاطفة حتى ولو كانت صادقة، ولعل الدور يأتى الآن على الأدب والفن بنغماته المختلفة ليقدم لنا صورا شتى من هذه الرحلة الطويلة..

لعل المؤرخ يلعب فى هذا العمل دور المستكشف.. الباحث المدقق المتخطى لحاجز الحب والشوق، والمتمسك بأكاديمية البحث والجرأة على الانتقاد والتقييم وإعمال مقاييس الصحة والخطأ، ولعله يتجاسر بذلك على تضحيات رجال خاضوا الصعب، بذلوا الدم والعرق.. والحياة فيأتى الآخرون فى جلساتهم المسترخية فيمسكون بقلم المدرس محاولين إجازة هذا الموقف وتخطئة ذلك ناسين أن كل موقف كان بذاته معركة تطلبت عرقا ودما وجهذا.. وحياة.

الدور الآن على الأدب كى يقول كلمته بأعمال درامية تسجل تلك الأحداث. ليس لأننا أنجزنا مهمتنا- فلم يزل أمامنا الكثير- وإنما لأن الأدب قد تأخر كثيرا عن المجيء فى مواعده.

.. وتمضى رحلة البحث تستهدف أن تغطى هذه الحقبة المريعة البالغة الثراء.. تحاول.. وستحاول.

لكن التقدم للأمام لا يحل المشكلة.

فالمؤرخ إنسان كتبت عليه معاناة البحث الدائم، وأنت تتقدم للأمام فى بحثك تشدك معلومات جديدة إلى الخلف تستكمل ما اعتقدت يوما أنه قد اكتمل. وهكذا وعبر السنوات التى مضت منذ الطبعة الأولى تجمعت معلومات ووثائق إضافية.. كان لا بد من إعادة النظر فى موضوع هذا الكتاب على أساسها، ومن تضمين ما هو مهم، وملفت للنظر، فى إطار الطبعة الجديدة. وفى الطبعات الأربع كان الإهداء دوما لخالد مجيى الدين أبا وصديقا وأستاذا. وتمضى السنوات وأشعر أنه يستحق أكثر. إليه أيضا أهدى هذه الطبعة.. ولكن ثمة بسملة تضىء الآن فى إشراقة باهرة.. بسملة تشق ظلمة الحياة.. وتغرس الأمل. هل يغفر لى أن أشركها معه فى إهداء هذه الطبعة..؟

والرحلة لم تنته..

لا رحلة البحث ولا رحلة النضال..

وسيبطل المؤرخ دوما مطالبا بأن يوزع نفسه - إن استطاع - بين معالجة فترة جديدة - هى بذاتها جزء من الماضى - وبين التطلع إلى ما يجرى الآن - استكمالا وتطويرا للماضى.. وبين الأمل فى المستقبل والإسهام فى صناعته.

القاهرة ٣ سبتمبر ١٩٨٠

القسم الأول

مصرفى مطلع القرن العشرين

التجمعات الطبقية والقوى الاجتماعية المختلفة

دخل الإنجليز مصر على بساط من خيانة الإقطاع للثورة العربية، والحقيقة أن ارتقاء الإقطاع بهذه الصورة السافرة في أحضان القوات الإنجليزية الغازية كان خير دليل على النضج الطبقي لهذه الفئة، فقد أدركت على الفور - دون أى تردد- أن الخطر الحقيقي الذى يهددها هو ثورة الفلاحين الذين يقودهم عرابى، وأن أى عدو لهذه الثورة أيا كانت أهدافه هو بالضرورة صديق. وهكذا نسى سلطان باشا وعلى مبارك باشا وشريف باشا وغيرهم، كل ما كانوا ينادون به من مطالب إصلاحية ودستورية.. وارتموا تحت وطأة الخوف من ثورة الفلاحين فى طريق الخيانة السافرة.. وباعوا أنفسهم للإنجليز.. وباعوا معها مصر. وقد بنى كرومر خطته فى مصر على عدة أسس أهمها دعم طبقة كبار الملاك، والاستعانة بها أتباعا مطيعين وسياطا تلهب ظهر الشعب المصرى. وهكذا بدأ كرومر فى دعم هذه الطبقة التى أسماها «طبقة أصحاب المصالح الحقيقية» وفى ديسمبر ١٨٨٣ صدر القانون المدنى الأهلى ليرسئ دعائم حق الملكية فينص فى مادته الثامنة: «تسمى ملكا العقارات التى يكون للناس فيها حق التملك التام وتعتبر فى حكم ذلك الأطنان الخارجية التى دفعت عنها المقابلة».

وفى عام ١٩٨١ يحذف من القانون المدنى الأهلى شرط دفع المقابلة وأصبح المنتفع بالأرض مالكا لها ملكية تامة دون قيد أو شرط^(١).

ثم إن هذه الطبقة قد نالت على الفور ثمن خيانتها للثورة العرابية وتواطؤها مع الاحتلال.. وعلى سبيل المثال «منح سلطان باشا عشرة آلاف جنيه هدية لما حصل له من الضرر والتعدى من العصاة على شخصه وأقاربه وإتلاف موجوداته ومقدار جسيم من مزرعاته^(٢)».

وثمة عامل آخر ساعد على سرعة تدعيم هذه الطبقة وراثتها هو أن تقدم الزراعة وعمليات استصلاح الأراضي فى أطراف الوادى سواء فى البحيرة أو الشرقية قد دفع عددا من قبائل البدو إلى الاستقرار والاشتغال بالزراعة، وبطبيعة الحال أصبحت الأرض ملكا لشيخ القبيلة بينما عمل بقية أفرادها مزارعين أو مستأجرين أو أتباعا للشيخ^(٣).

والحقيقة أن عمليات استصلاح الأراضي قد نشطت نشاطا كبيرا بعد الاحتلال، فكرومر الذى أراد مصر مزرعة خصبة للقطن اللازم لمصانع لانكشير قد طور وسائل لرى والصرف، فما كان من كبار الملاك إلا أن انتهزوا الفرصة واستصلحوا مساحات كبيرة من الأراضي.. وفى مديرية البحيرة وحدها زادت الأرض المنزرعة من ٤٣٩،١٨١ فداناً إلى ٥٨٧،٤٥٥ فدان أى بنسبة ٣٦،٨٪. وذلك خلال الفترة من ١٨٩٣ حتى ١٩٠١. وإذا كانت مساحة الأرض المنزرعة قد زادت فى البحيرة أكثر من غيرها من المديريات الأخرى (كانت نسبة الزيادة فى مصر كلها ١١٪) فإن نسبة الملكيات التى تزيد عن ٥٠ فداناً إلى مجموع الملكية الزراعية كانت فى البحيرة أعلى أيضا من أية مديرية أخرى فقد بلغت ٦١،٦٪ بينما كانت نسبتها فى القطر كله ٤٥،٦٪ وهكذا يتضح أن اتساع المساحة المنزرعة كان مرتبطا بزيادة الملكيات الكبيرة فكبار الملاك والشركات العقارية كانوا يستولون فى الحقيقة على كل ما يستصلح من أراضي جديدة..^(٤)

وهناك عامل آخر أدى إلى زيادة ملكية هذه الطبقة، هو بيع أملاك الدائرة السنية. وقد ذكر المؤرخون عديدا من الأسباب لبيع أملاك الدائرة السنية، لكننى أعتقد أن السبب الأساسى فى بيعها هو أن الصدام بين الخديو عباس حلمى الثانى وبين سلطات الاحتلال قد نبه كرومر إلى ضرورة إضعاف الأسرة المالكة وتخفيضها من مرتبة الحليف إلى مرتبة التابع المطيع.

وأسهل وسيلة لإضعاف الأسرة المالكة فى مجتمع كالمجتمع المصرى هو تجريدها من ملكياتها الكبيرة.. وهكذا بدأت فى نهاية القرن ١٩ عملية تصفية أملاك الدائرة السنية.. وقد بيع أكثر هذه الأرض فى الفترة من ١٩٠٠ حتى ١٩٠٦.

وفى عام ١٩٠٠ بيع ٦٦٠٠٠٠ فدان.

وفى الفترة من ١٩٠١ حتى ١٩٠٥ بيع ٢٢٤,٠٠٠ فدان..

ثم أنجزت العملية ببيع ١٦٠,٠٠٠ فدان فى الفترة من أكتوبر ١٩٠٥ حتى مارس ١٩٠٦.^(٥)

ولقد كانت هذه السنوات الست فرصة العمر لكبار الملاك، فإن معظم هذه الأراضى أو كلها قد بيع لهم. وكان هذا هو السر فى نشاط هذه الطبقة.. واتجاهها المحموم فى هذه الفترة بالذات لتكوين حزب سياسى لها.. بل لقد أحست هذه الطبقة بقوتها إلى الحد الذى دفعها إلى الاصطدام فى بعض الأحيان بسلطات الاحتلال.. وسوف نرى ذلك تفصيلا فيما بعد..

فقد اشترت أسرة سلطان عدة قرى من تفتيش المنيا، وكذلك أسرة عمرو شعراوى.. كذلك اشترت مساحات كبيرة أسر إقطاعية أخرى مثل بشرى حنا ولطف الله ويوسف كمال.

ويمكننا أن ندرك الأثر الحقيقى لبيع أملاك الدائرة السنية على توزيع ملكية الأرض من الجدول التالى:

نسبة مساحة الملكيات التى تزيد عن ٥٠ فدانا إلى المساحة الكلية للأراضى^(٦).

السنة	النسبة
١٩٠١	٣٤,٤٪
١٩٠٦	٤٥,٦٪

والحقيقة أن هذه الطبقة كانت غنية بالفعل، وكانت تكتنز مدخرات ضخمة.. وسوف أكتفى بإيراد بعض الأمثلة..

يروى محمد فريد فى مذكراته عن يومى ١٩ و ٢٠ فبراير ١٨٩٣: «وفى هذه الغصون باع الدومين كثيرا من أطيانه.. باع تفتيش البدرشين لإخوان سوارس بثلاثة وثمانين ألف جنيه وكانوا قد اشتروا منذ سنتين تفتيش بنى رافع بالصعيد لأحد أقباط أسيوط الأغنياء

بمبلغ ١٢٢ ألف جنيه وغيره من الأراضي المتفرقة فاشترى رياض باشا نحو أربعمائة فدان بمديرية بنى سويف»^(٧).

ويروى كرومر قصصا أخرى فيقول «يجرى كنز المال فى مصر بدرجة لا يصدقها أوروبى.. لقد بلغنى منذ قليل من الزمن أن ثريا مصريا توفى عن تركة مقدارها ٨٠,٠٠٠ جنيه ذهب مخبأة فى أقبيتته، وبلغنى أيضا أن فلاحا ميسور الحال اشترى ضيعة بنحو ٢٥,٠٠٠ جنيه، وبعد نصف ساعة من توقيعه على عقد المباحية إذا بقطار من الحمير قد أقبل يحمل المال المطلوب، وكان قد خبأه فى حديقته»^(٨).

وهكذا يحقق كرومر الشق الأول من هدفه وهو دعم طبقة «أصحاب المصالح الحقيقية» وزيادة ثرائها كى تزداد تبعية.

لكن واقع الأمر قد غير من النتيجة، فالذين ازدادوا ثراء ازدادوا تطلعا للمزيد من الثراء، ودفعهم هذا التطلع إلى الصدام مع المحتلين. فكبار الملاك الذين أسكرتهم نشوة الخلاص من عرابى ومن ثورة الفلاحين بدأوا يفيقون ليجدوا أن مصر تفلت من أيديهم وتتسرب بكل ثرواتها إلى الأجانب.

فالاستثمارات الأجنبية تزداد زيادة ضخمة.

السنة	الاستثمارات الأجنبية بالجنيه ^(٩)
١٨٩٢	٧,٣٢٦,٠٠٠
١٩٠٧	٨٧,١٧٦,٠٠٠
١٩١٢	١٠٠,١٥٢,٠٠٠

لكن هذه الاستثمارات الأجنبية تنمو نموا مشوها عن عمد. فقد استهدفت بناء اقتصاد يعتمد على الاستيراد من الخارج. وفى عام ١٩١٤ كانت ١٢٪ فقط من هذه الاستثمارات موجهة إلى مشاريع صناعية بسيطة بينما اتجهت ٧٣٪ منها إلى الاستثمارات الزراعية والرهونات^(١٠) وكافة الاستثمارات الصناعية تنمو ببطء شديد للغاية وفى مواجهة مقاومة شديدة من الاحتلال البريطانى^(١١) وبينما كان القطن وبذرة القطن يمثلان ٧٩٪ من مجمل الصادرات المصرية فى أعوام ١٨٨٥-١٨٨٩ نجد أن الحال يزداد سوءا فترتفع النسبة فى أعوام ١٩١٠-١٩١٣ إلى ٩٠٪^(١٢).

وفى عام ١٩١٦ كان هناك فى مصر كلها خمسة عشر مصنعا فقط تدار على النسق الأوروبى الحديث بعمة يبلغ مجموعها ٣٠,٠٠٠ - ٣٥,٠٠٠ فقط^(١٣).

وقد بدأ كبار الملاك يتطلعون إلى آفاق جديدة من الثراء مثل شركات الأراضي.. والشركات المساهمة والسندات والأسهم.. إلخ، وبدأت صورة الأرباح الوفيرة تداعب خيالهم فتتسيهم ولاهم للسيد المطاع وتدفعهم إلى محاولة إنشاء شركات مصرية.

ويروى محمد فريد في مذكرته: «وفي يوم ٢٣ فبراير ١٨٩٣ أشيع أن جماعة من ذوات مصر وفى مقدمتهم البرنس حسين باشا عم الخديو ووحيد باشا يكن وعمر باشا مصطفى شرعوا فى إنشاء شركة زراعية يكون رأسمالها ٢٥٠ ألف جنيه لشراء أراض من الدومين أو الدائرة السنية واستغلالها وجعلها شركة مساهمة قيمة كل سهم منها عشرة جنيهات مصرية.. وقد اكتتب كثير من الوطنيين، وبلغت قيمة المبلغ المكتتب به ٢٠٠,٠٠٠ جنيه»^(١٤).

والحقيقة أن هذه المحاولة تستحق التأمل فهى توحى بأن طبقة كبار الملاك قد بدأت تدرك أهمية أساليب الاستثمار الرأسمالى.. وأن محاولات خلق أشكال هذا الاستثمار لم تقم بها فى الأساس الفئة البرجوازية التى كانت تفتقر إلى المدخرات الوفيرة وإنما قامت بها طبقة كبار الملاك..

المهم أن كرومر قد أزعجه هذا الاتجاه فكتب فى عام ١٩٠١ محذرا: «أما فيما يخص أصحاب الأسهم من المصريين فإنى أعتزم هذه الفرصة لتكرار التحذير الذى قلته من قبل وهو أن الذين يضيعون أموالهم فى الشركات يحسن بهم أن يتبصروا»^(١٥).

ولم يكن هذا هو المظهر الوحيد للتمرد.. ففى عام ١٨٨٩ عندما يحاول كرومر فرض ضرائب جديدة على الأراضي الزراعية قيمتها ١٥٠,٠٠٠ جنيه مقابل إلغاء السخرة ترفض الجمعية العمومية ذلك..

ويرتفع فيها أكثر من صوت رافضا فرض ضرائب جديدة^(١٦)..

لكن التمرد لم يكن سياسة الجميع، فثمة فئة من بين الذين تربعوا فى أعلى قمة السلم الطبقي كانت تنتهج أسلوب الخضوع الدائم والمستمر: تلك هى فئة كبار الموظفين. والحقيقة أن الوزراء وكبار موظفى الدولة، كانوا هم أيضا كبار ملاك لكن مكانتهم فى قمة السلم الطبقي كانت تعتمد أساسا على استمرارهم فى سلك الوظيفة.. أى استمرار رضى سلطة الاحتلال عنهم.

وثمة مثال يوضح هذا التفاوت بين موقف الفئتين.. ففى ١٩٠٨ ثار نقاش فى مجلس شورى القوانين حول مسألة وجود المجلس النيابى.. وتعلق جريدة المؤيد على النقاش فنقول:

«ويوجد فى المجلس الآن فريقان مختلفان.. فريق يضم كل الأعضاء المنوبين تقريبا.. وهؤلاء يطلبون الحكومة النيابية على كل حال.. ويعارضهم قليلون منهم سعادة طلبة باشا سعودى الذى تردد فى عدم طلب المجلس النيابى من أصله أو فى طلب توسيع اختصاصات المجالس النيابية الحاضرة وأيده سعادة موسى باشا غالب قاطعا بعدم طلب المجلس النيابى أصلا.. وكذلك مفتاح بك معبد، وهؤلاء الثلاثة كانت الوكالة البريطانية قد رشحتهم لعضوية المجلس...»^(١٧).

ويعترف جورست بهذا التفاوت بين موقف النظار - كبار الموظفين - وموقف مجلس شورى القوانين - كبار الملاك - فيقول:

«إن السياسة التى يقصد بها حكم مصر بمعاونة نظار من الموظفين لا تتفق الآن مع السياسة التى ترمى إلى تنشيط السعى فيما يسمى بالمجالس النيابية فلا بد من اختيار إحدى السياستين».

ويواصل جورست حديثه مفضلا النظار على كبار الملاك «فالنظار يختارون من أقدر المصريين وأعظمهم كفاءة.. وهم أدرى برغائب أهل وطنهم وإرادتهم الحقيقية من أعضاء مجلس لا ينوبون فى الحقيقة إلا عن فئة البكوات والباشوات الأغنياء»^(١٨).

بقى أن نعرف التركيب الاجتماعى لإحدى الجمعيات العمومية التى هاجمها جورست وهى الجمعية العمومية التى انتخبت عام ١٩١٣.

٤٩	الملاك
٨	المحامون
٤	التجار
٣	المهندسون
١	رجال الدين

وفى إحدى هذه الجمعيات وقف إسماعيل باشا أباطة قائلاً: «إننا لم نتقدم سوى فى مجال النفاق والثرثرة والديون.. إن الأمور تتدهور فما هو العلاج؟ العلاج هو الحكم الذاتى لكننا طوال الثلاثين عاما الماضية لم نتقدم خطوة واحدة نحو الحكم الذاتى...».

وهكذا فإن متمردى هذه الطبقة كانوا يرفعون شعارات باهتة ومتخاذلة يرفضها الشعب ويعتبرها خيانة فهم يطالبون بالبرلمان (فى ظل الاحتلال) وبالحكم الذاتى (فى ظل الاحتلال أيضا)..

ومع ذلك يهاجم غورست فى تقريره قائلا: «صدر تقريرى السابق فى زمن حرج.. والمظاهرات العنيفة التى جرت ضد الإنجليز على سبيل الحماسة والجهالة حتى بلغت شدتها برفض الجمعية العمومية لمشروع قناة السويس بلا مناقشة حقيقية».

ويقول فى مكان آخر: «إن مجلس شورى القوانين هو والجمعية العمومية أظهرتا فى سنة ١٩٠٩ وفى النصف الأول من سنة ١٩١٠ ميلا متزايدا إلى أن يكونا ألتين بأيدى الحزب الوطنى يستعملهما فى تحريضه وتهيجيه ضد الاحتلال البريطانى، فإن طلبهما المتكرر لحكومة دستورية تامة، وخملاتهما المنكرة على الحكومة فيما يتعلق بالميزانية والسودان، والعداوة والريية اللتين أظهرهما فى مشروع قناة السويس وتجاوزا فيهما حد الاعتدال.. كانت كلها فى جوهرها مظاهرات ضد الإنجليز.. إن الجمعية الوطنية ومجلس شورى القوانين قد اتخذتا ما نالاه مؤخرا من علو الشأن سلاحا لقتال الذين هما مدينان لهما بإنالتهما إياه.. وعليه لم نجد فى مجلس شورى القوانين جماعة تعين الحكومة على عملها بالمناقشات المعقولة بل وجدنا فيه جماعة معادية للهيئة الحاكمة أى لمجلس النظار - ومستشاريهم - عداوة شديدة ومتعمدة لإحباط مساعيهم وتثبيط همهم وجعل العمل متعذرا على الحكومة وقد رضيت الأقلية المعتدلة فيه - إن صح أنه كانت فيه تلك الأقلية - أن يسودها الغلاة المتطرفون ويمحقوها».

.. لكن تمرد كبار الملاك لا يطول مداه.. وفى تقرير عام ١٩١٣ يسجل كتشنر ثناءه على الجمعية العمومية لأنها «بدأت طورا جديدا هو طور الأعمال النافعة التى يذكر خبرها بالرضى والسرور»^(١٩).

والحقيقة أن هذه الطبقة كانت بالرغم من التمرد العاجز الذى أبدته كانت أعجز عن أن تعبر عن مصالح الجماهير.. والشعارات التى رفعتها لم تنجح فى التأثير فى الجماهير ولا فى إثارة حماسها.

وعندما حاولت هذه الطبقة أن تكون حزبا لها بإيعاز من سلطات الاحتلال وحشدت فيه كل قواها من أغنى عائلات مصر.. سلطان، الهالى، أبو على، الباسل، فوده، أبوحسين، الشريعى، الإتربى شعراوى، سيف النصر، البدراوى عاشور، أباطة، الطرزى، إلخ^(٢٠).

وحشدت فيه أفضل مفكريها أحمد لطفى السيد، محمد محمود إلخ، فإن هذا الحزب ما لبث أن اختنق بصورة سريعة بعد أن فشل تماما فى أن يجذب الجماهير أو حتى جزءا

ضئيلا منها إلى تلك الأفكار التى حاول لطفى السيد مفكر الإقطاع فى مصر - أن يصوغها..

والحقيقة أن لطفى السيد لم يخف موقفه فهو يتحدث بصراحة غريبة.. إنه يؤكد «ما من علاج سريع لما تعانيه مصر.. وكان يعلن دوما معارضته لهؤلاء السياسيين الذين يحرضون الجماهير على التحرك السريع فيقودونها بذلك إلى الفشل السريع فليس من الممكن مقاومة الاحتلال ولا مقاومة الخديو.. ولذا فليس هناك سوى طريق واحد للتقدم الحقيقى هو طريق التطوير التدريجى للعادات الجديدة، وللأخلاقيات الجديدة للمجتمع»^(٢١).

.. وفى سنة ١٩١٤ كتب لطفى السيد يرثى صديقه فتحى زغلول فقال «كان فتحى يؤمن بالتقدم عن طريق التطور وكان يكره الثورة، حتى ولو كانت مجرد فكرة»^(٢٢).

ولتوضيح الهوة الواسعة التى تفصل بين هؤلاء الذين يكرهون الثورة حتى ولو كانت مجرد فكرة وبين جماهير الشعب يكفى أن نتذكر كلمات قالها كرومر حاول أن يصف بها حالة مصر فى ذلك الحين فقال «إن مصر تذوب شوقا إلى الثورة...».

ولم يكن ممكنا أن يلتقى هؤلاء الذين يكرهون الثورة بهؤلاء الذين يذوبون شوقا إلى الثورة، وهكذا أشهر كبار الملاك إفلاسهم وحتى محاولاتهم للتمرد، ما لبثت أن تلاشت بعد أن هزم الخديو عباس، وبعد حادثة فاشودة، وبعد الوفاق الفرنسى الإنجليزى.. وبعد الإضرابات العنيفة التى خاضها العمال، تلك الإضرابات التى أرعبتهم وجعلتهم يلوذون بحمى الاستعمار.. وبعد إعلان الحماية على مصر وما صاحبها من قوانين استثنائية، كل ذلك دفع كبار الملاك إلى الخضوع بغير تمرد. ومات حزب الأمة بالسكتة القلبية وأغلقت جريدة «الجريدة» وتفرغ لطفى السيد برئاسة الفلسفة..

وباختصار، فشلت هذه الطبقة فى أن تصبح قيادة لمصر.. وظلت عاجزة تماما عن أن تفعل شيئا حتى تحركت فجأة عام ١٩١٩.

وإذا كان كبار الملاك قد أفلسوا فماذا عن الطبقة الوسطى؟

ولا بد للحديث عن هذه الطبقة أن يتشعب مستقيضا فهى ليست فئة واحدة متجانسة وهى أيضا قد غيرت مواقعها أكثر من مرة.

لكن أهم ما يميز هذه الفئة هو:

أولا: عداؤها للاستعمار.. وتأكيدا بشكل أو بآخر وبدرجات متفاوتة على أهمية الاستقلال..

ثانيا: أنها خاضت معركة العداء هذه معتمدة على اللعب على الحبال وليس على الجماهير فهي تعتمد تارة على الخديو وتارة على السلطان وتارة على فرنسا، لكنها لم تلجأ إلى الجماهير إلا فى حالات نادرة.. وعلى أية حال فإن فئاتها المختلفة قد اتخذت وعلى الدوام مواقف متناقضة كل التناقض..

ففى داخل هذه الطبقة كان هناك ثلاثة أجنحة اليمين.. والوسط.. أما الجناح الثالث فأننا أخشى أن أسميه اليسار فيظن البعض أننى أعنى به جناحا يميل إلى الاشتراكية لكننى أعنى باليسار هنا قربه من الجماهير وتفهمه لبعض قضاياها، ووطنيته الصحيحة والصادقة وعلى أية حال فلنسمه جناح الوطنية المتطرفة.

والشيخ على يوسف هو قائد يمين هذه الطبقة بلا منازع فهو زعيم فئة من مثقفى الأزهر وكبار التجار الكلاسيكيين..

والحقيقة أن الشيخ على يوسف كان يعبر - بالرغم من نفوذه الواسع فى ميدان الصحافة- عن فئة ضعيفة التأثير فى المجال الاقتصادى والاجتماعى.. وهى فئة لا تستطيع أن تسير مجريات الحياة الجديدة ولا أن تحول تراكمات أموالها نحو الاستثمارات الجديدة.

وهى فئة لا تثق فى الجماهير ولا تهتم بها لكنها تشعر بوطأة التحكم الأجنبى وترى الأموال والأرباح الطائلة التى يجنيها التجار والمستثمرون الأجانب فيستغل لعبها.

وأنها ضعيفة اقتصاديا واجتماعيا وأنها لا ترتبط بالجماهير فليس أمامها سوى اللعب على الحبال.. بين الخديو والاحتلال والسلطان وفرنسا.

ويقدم جمال أحمد تحليلا غاية فى العمق لهذه الفئة ولحزبها «حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية» فيقول:

«كان الحزب يبدو منظما لكنه لم يكن فى الواقع سوى إعلان لسياسة الشيخ على يوسف نفسه فهو الذى كتب البرنامج وكون التنظيم وجمع الأعضاء.. وكانت نقطة الضعف الأساسية فى الحزب هى التناقض والارتباك فى التفكير السياسى للشيخ على يوسف.. فقد طلب من الحكومة أن ترسل ممثلا لها فى الحزب، لكنه فى نفس الوقت أعلن مساندته للخديو. وقد أحدث هذا الموقف المتناقض ارتباكا شديدا لدى الأعضاء.. وقد أشار العقاد

إلى أن طبيعة هذا الحزب تبدو واضحة من الاسم الذى اختاره فهى توحى بأنه يريد اللعب على جميع الحبال فكلمة «ستورى» موجهة للمهتمين بالشئون السياسية بينما كلمة «إصلاح» تستهدف كسب الإنجليز.. والنتيجة هى أن الحزب قد فشل فى كسب أى من هذه القوى.. لا الوطنيين ولا الخديو ولا الاحتلال.. وكانت النهاية الحتمية هى الفشل»^(٢٣).

ونظرة واحدة على برنامج الحزب توضح هذا التحليل..

ويمكن تلخيص البرامج فى سبع نقاط أساسية^(٢٤):

١- الدفاع عن العرش.

٢- احترام إنجلترا لتعهداتها.

٣- إنشاء جمعية تشريعية.

٤- نشر التعليم الابتدائى إجباريا بالمجان.

٥- جعل اللغة العربية أساسية فى الدراسة.

٦- زيادة عدد الموظفين المصريين فى الإدارات الحكومية.

٧- محاكمة الأجانب جنائيا أمام المحاكم المختلطة.

ولقد تعمد واضع البرنامج ألا يشير بكلمة واحدة للاستقلال أو الجلاء مكتفيا بعبارة

مطاطة ترضى الإنجليز أكثر مما ترضى غيرهم وهى «احترام إنجلترا لتعهداتها».

ومع ذلك فإن «المؤيد» تشن حملتها الشهيرة على اللورد كرومر عندما يصرح فى

خطابه الوداعى أن الإنجليز باقون فى مصر.. وترد عليه قائلة:

«فما بال إنجلترا بعدما كررت مواعيدها الحلوة المرة تركت عميدها العظيم فى وادى

النيل يختم أعماله بالتصريح بأن الاحتلال فيه باق إلى الأبد.. إن جناب اللورد جاء مصر

مرشدا فصار حاكما مستتبدا يخرب مبانى الآمال.. ولم يخدم اللورد الأمة المصرية إلا من

جهة الثروة فاشترك فى التنعم بها الأجانب بل نالوا القسط الأوفر منها ثم هو يريد أن

يجعلهم أصحاب الأمر والنهى فى إدارة مهام البلاد.

كان اللورد كرومر كل مدته فى مصر معارضا لكل ما تريده مصر من مطالب الرقى

الأدبى فلم يؤيد لها مطلباً منذ ٢٤ سنة ولا أحسن بها ظناً ولا رد عنها تهمة، بل كان أول

رجل مسموع الكلمة قال عنها قولاً منكراً واتهمها بتهم غريبة وغرس فى عقول أوروبا أنها

أمة قاصرة متعصبة ليس فيها رجال أكفاء ولا تصلح أن تكون أمة أبدا»^(٢٥).

لكن الشيخ على يوسف يعود فيحدد موقفه صراحة فهو يتحدث عن الجرائد وموقف كل منها فيقول:

«ومنها الجرائد المتطرفة التي لا ترى في الإنجليز والاحتلال خيرا على الإطلاق ثم هي أحيانا تتجاوز الحد في غيرتها الوطنية، ومنها الجرائد المعتدلة التي تحترم الحقيقة وتريد أن تكون المرأة النافعة للوطن وأهله في كل حادث، ومنها الجرائد المتطرفة من جانب آخر فلا ترى في الإنجليز والاحتلال سوءا أو خطأ على الإطلاق ثم هي تتجاوز الحد في ميلها إلى الإنجليز وأكثر الأحيان في نكاية المصريين وإيلامهم»^(٢٦).

والحقيقة أن الشيخ على يوسف قد وضع نفسه وجماعته في موضعها الصحيح فهي «معتدلة» لا تعادى الإنجليز على طول الخط ولا تؤيدهم على طول الخط..

بل إنه يؤكد في مكان آخر «أن الإنجليز يستطيعون أن يستميلوا هذه الأمة بالمعاملة الحسنة فيستولوا على القلوب بدلا من الاكتفاء بالاستيلاء على الطوب»^(٢٧).

المسألة إذن هي حسن معاملة الإنجليز للمصريين وليست جلاء الإنجليز عن أرض المصريين. وكان طبيعيا أن موقفا كهذا لم يكن ليرضى الجماهير التي تتطلع إلى الثورة بل لم يكن ليرضى الفئات الأخرى من الطبقة الوسطى..

وقد هاجمه أعضاء الحزب الوطنى هجوما شديدا قاسيا فتحدث عنه الشيخ جاويش قائلا: «ما بلغت الرذيلة ولؤم الطبع من رجل مقدار ما بلغت من صاحب المؤيد...»^(٢٨). وعندما مات الشيخ على يوسف كتب محمد فريد في مذكراته «توفى الشيخ على يوسف يوم ٢٥ أكتوبر فانتهى بموته ركن النفاق والذنبذة»^(٢٩).

لكن الطبيعة المعقدة لموقف الطبقة الوسطى تفرض نفسها على أى تحليل.. ولا بد لنا هنا أن نتذكر ما نشره الشيخ على يوسف في جريدته «المؤيد» من أحاديث وطنية.. بل ولا بد لنا من أن نتذكر أنه أفسح صدر مجلته فى عام ١٨٩٠ لبعض الاشتراكيين ليسجلوا على صفحاتها بعض آرائهم..^(٣٠).

لنتحدث الآن عن الوسط فى هذه الطبقة..

وتزداد الصورة تعقيدا إذا أدركنا أن الوسط لم يكن فئة متجانسة.. فهناك متوسطو الموظفين والمتقنين الليبراليين المستنيرين الذين أحسوا بثقل القهر الاستعماري فتفجر سخطهم على الاحتلال مقالات وقصائد وإضرابات طلابية..

وهناك أيضا الرأسماليون المستنيرون وهم جناح ضعيف كان يجاهد لينمو ويشق طريقا باحثا عن الربح «لنفسه» - أيضا - رافعا شعار «مصر للمصريين» بمعنى أن خيرات مصر يجب أن تكون للرأسماليين المصريين، بل إنهم فى كثير من الأحيان كانوا يقبلون مجرد المشاركة مع الأجانب فى هذه الأرباح..

والحقيقة أن أكثر من عامل قد دفع هذه الفئة إلى اتخاذ موقف المعارضة من الاحتلال. ولقد كانت معارضتها أكثر إيجابية وأكثر عنفا.. لكنها أيضا لم تصل إلى حد الارتباط الوثيق بحركة الجماهير.

.. ولنلق نظرة سريعة على تلك العوامل التى تواجدت ففجرت سخط هذه الفئة.. كانت الأسعار ترتفع باستمرار.. وجاءت سنوات الحرب ليزداد الغلاء بصورة لم يسبق لها مثيل، فبالمقارنة مع أسعار عام ١٩١٤ ارتفعت الأسعار ٢١١٪ عام ١٩١٨، ٣١٢٪ عام ١٩٢٠. ونقصت نسبة الموظفين المصريين فى الوظائف الكبيرة من ٢٠,٧٪ سنة ١٩٠٥ إلى ٢٣,١٪ سنة ١٩٢٠، فى حين ارتفع نصيب البريطانيين من ٤٢,٢٪ إلى ٥٩,٣٪ فى نفس المدة»^(٣١).

وإذا كان الموظفون يسوؤهم ذلك فقد وجدت الفئة الأخرى ما يسوؤها هى أيضا.. فالأجانب بدأوا يحكمون قبضتهم على مصادر الثروة الحقيقية فقد أنشئت فى الفترة ما بين ١٩٠٠ - ١٩٠٧ أكثر من ١٦٠ شركة برأس مال قدره ٤٢ مليونا من الجنيهات وتزايد رؤوس الأموال المستثمرة فتصل إلى ١٥٢,٠٠٠, ١٠٠ جنيه^(٣٢). ولست بحاجة إلى أن أقرر هذه الاستثمارات كانت جميعها تقريبا استثمارات أجنبية، وثمة إحصاء يقول أن ٩٢٪ من هذه الأموال كان أجنبية و ٨٪ فقط أموال محلية.. وكلمة «محلية» هذه ذات مغزى فهى تختلف عن كلمة «مصرية».. وعلى أية حال فإن معظم الـ ٨٪ هذه كان ملكاً لأجانب متمصرين أمثال سوارس وموصيرى ومنشه وسليم وصيدناوى لكن ثمة جزءا ضئيلا من هذه النسبة كان مملوكا لمصريين أصلا كانوا نواة الرأسمالية المصرية.. ونواة هذه الفئة التى نتحدث عنها..^(٣٣).

ولعل خير دليل على وجود هذه النواة ونشاطها هو قيامها فى عام ١٩١٧ بتأسيس «لجنة التجارة والصناعة» من بعض المصريين والأجانب المتمصرين وكان من دعايتها الأول طلعت حرب وإسماعيل صدقى.

وكان من أغراض هذه اللجنة الوقوف على مبلغ تأثير الحرب فى صناعة البلاد والنظر فى التدابير التى تؤدى إلى إحلال بعض المصنوعات المصرية محل الأصناف التى انقطع واردها.. وأعدت اللجنة تقريراً جاء فيه «إن مصر فى حاجة إلى قيام الصناعة بجانب الزراعة حتى لا تضطرب الحالة الاقتصادية إذا انخفضت أثمان المحاصيل الزراعية، وإذا حدثت حرب تؤدى إلى قطع العلاقات التجارية.. وإن الصناعة وعلى الأخص الصناعة الصغيرة متأخرة جداً.. ومن الممكن قيام كثير من الصناعات المصرية ونجاحها»^(٣٤).

وقد كان اندلاع الحرب العالمية سبباً فى إنعاش الصناعة المصرية.. ومن ثم إنعاش هذه الفئة النامية.. فقد أدى انقطاع المواصلات وازدياد حاجيات المجهود الحربى إلى إجبار سلطات الاحتلال على تشجيع بعض أنواع الصناعة.

وتورد «لجنة التجارة والصناعة» فى تقريرها أن شركة السكر قد زاد إنتاجها إلى ١٠٠ ألف طن عام ١٩١٧ وقامت بتوسيع ورش الأشغال التابعة لها «فأصبحت فيما يختص بمعدات الصناعة وآلاتها مستقلة بعض الاستقلال عن المصانع الأجنبية، وهى من هذه الوجهة تؤدى إلى القطر خدمة جلية بتكوين صناع وطنيين ماهرين فى جميع الحرف والصناعات.

وظهرت صناعات جديدة مثل صناعة النشا، ورفعت شركة الغزل الأهلية بالإسكندرية إنتاجها بما يتراوح بين ١٥ و ٢٠٪ كما أنشئ مصنع للملابس لمواجهة احتياجات الجيش البريطانى...».

وهكذا ازدهرت الصناعة وازدادت أرباحها زيادة مذهلة.. وازدادت بالتالى غلبة هذه النواة التى تحدثنا عنها، والتى كانت تحلم بهذا السيل من الأموال يتدفق إلى جيوبها هـى وليس إلى جيوب الأجانب..

وثمة أسباب أخرى أثارت استياء الشعب كله وعلى الأخص المثقفين الليبراليين.. منها موجة الإرهاب الواسعة التى شنتها سلطات الاحتلال ضد حرية الصحافة وضد حريات المواطنين جميعاً..

وتبدأ سلطات الاحتلال بتقييد حرية الصحافة كتمهيد طبيعى لتقييد حرية المواطنين جميعاً، وفى مارس ١٩٠٩ أصدرت قراراً بإعادة العمل بقانون المطبوعات القديم وعللت ذلك «بتمادى الجرائد فى التطرف والخروج عن الحد حتى أدى ذلك لشكوى الناس».

«ثم أصدرت قانونا يجعل القضايا الصحفية من اختصاص محاكم الجنايات بدلا من محاكم الجنح ذلك أن محاكم الجنايات أحكامها أشد ولأن أحكام محاكم الجنح يمكن استئنافها أما أحكام محكمة الجنايات فهي نهائية لا تقبل طعنا.. إذ لم تكن محكمة النقض قد أنشئت بعد»^(٣٥).

وسرعان ما وضعت سلطات الاحتلال هذا القانون موضع التطبيق الفعلى فعطلت جرائد الحزب الوطنى وغيرها من الصحف.

ثم كانت الخطوة الثانية وهى تعديل قانون العقوبات، فبعد حادثة اغتيال بطرس غالى باشا ادعت سلطات الاحتلال أن ثمة نقضا فى القانون فمرتكب الجريمة «شاب ثبت أنه ينتمى لجمعية سرية معينة وأن آخرين اشتركوا معه فى التفكير فى ارتكاب الجريمة، ولكنه انفرد دونهم بالتنفيذ ولم يجد القضاء يومئذ سبيلا إلى معاقبة أولئك الشركاء الذين تبادلوا الرأى مع القاتل ولم يكونوا محرضين له أو شركاء معه فى التنفيذ..

وأضيفت مادة إلى قانون العقوبات هى المادة ٤٧ مكرر وهى مادة شهيرة فى تاريخ التشريع الجنائى المصرى لأنها وضعت فى ظروف سياسية معينة من النشاط السياسى. وجاء فى المذكرة الإيضاحية لوزارة الحاقانية أن الحكومة أرادت بهذه الإضافة «أن تضرب على يد الاجتماعات أو الاتفاقات التى يكون العبث بالنفس أو الأموال أو الهيئة الاجتماعية غرضا من أغراضها أو وسيلة من وسائل تحقيق الغرض المذكور»^(٣٦).

والحقيقة أن هذه المادة قد لعبت دورا مهما فى تاريخ مصر السياسى فقد أصبحت سيفا مسلطا على كل الجمعيات السياسية التى يثبت أنها تتكون من «شخصين أو أكثر» والتى كثيرا ما يسهل أن تلصق بها تهمة «العبث بالنفس أو الأموال أو الهيئة الاجتماعية». ولا شك أن لهذه المادة علاقة كبيرة بموضوع هذه الدراسة فقد ظلت ولزمن طويل سبيلا لإرهاب أى تجمع للقوى الاشتراكية.

وليس من قبيل المصادفة ما سنلاحظه فى كتابات الاشتراكيين - وبلا استثناء - فى هذه الفترة.. وهو إعلانهم أن هذه الآراء التى ينشرونها لا تعنى الدعوة لتكون حزب أو جماعة أو ما شابه ذلك.

وعلى أية حال فإن المادة ٤٧ مكرر لم تكن القيد الوحيد، فثمة قيود أخرى على الحريات تضمنها القانون ٢٨ لسنة ١٩١٠ منها ما يجيز للمحاكم.. «فى كل الأحوال التى يمكن أن

يكون من وراء نشر المرافعات فيها خطر على النظام العام بسبب نوع الجريمة، أن تمنع نشر المرافعات كلها أو بعضها وتعاقب من يخالف ذلك بالحبس مدة لا تتجاوز ستة أشهر أو بغرامة لا تزيد على مائة جنيه لأنه إذا كان يجب إطلاق الحرية التامة للدفاع وقت المحاكمة، فإنه يجب أن لا يسمح بأن يصبح استعمال هذه الحرية مصدر خطر على الأمن العام.. والمحاكم تبيح أحيانا إيراد نظريات ثورية فى المرافعات أو شهادة الشهود فى أثناء المحاكمة بناء على أن لها شيئا من العلاقة بالدفاع عن المتهم ولكن يجب أن لا تتحول هذه المرافعات أو الشهادات إلى وسيلة لنشر المبادئ والأفكار الثورية»^(٣٧).

وفى سنة ١٩١٤ أعلنت الحماية البريطانية والأحكام العرفية وقانون التجمهر الذى يمنع اجتماع أكثر من خمسة أشخاص سواء فى طريق عام أو فى محل عمومى.. وفتحت المعتقلات وبلغت موجة الإرهاب قمته.

فماذا كان أثر ذلك كله..؟

لقد كانت الجماهير تغلى حقدا ورفضاً لهذه القيود.. وللغلاء الشديد وكان استمرار زيادة الموظفين الإنجليز وزيادة سيطرتهم على المناصب الكبرى يزيد الموظفين سخطا، لكن قيود وظيفتهم تعوقهم عن العمل الجدى ضد الاحتلال الذى دفع شباب الحزب الوطنى وقادته إلى الاعتقاد بأن الوظيفة تتنافى مع الوطنية الحقة..

ولكن السخط كان يتجمع فى نفوس الموظفين، فإذا ما انتفض الشعب فى عام ١٩١٩ سارع الموظفون ليفجروا هم أيضا سخطهم إضرابا واعتصاما ورفضاً للتعاون مع المحتلين..

والتحكم الأجنبى فى الاقتصاد يثير غضب النواة الرأسمالية الوليدة. لكنها ضعيفة اقتصاديا وأقصى ما تتمناه أن يسمح لها بالمشاركة فى جنى الأرباح ومع ذلك فهى تظل أيضا تحتزن السخط وتخشى من المواجهة حتى يثور الشعب.

لكن هناك جناحا من هذه الطبقة يرفض التهادن ويرفع صوته بالاحتجاج وهو الجناح الممثل للفئات الدنيا من الطبقة الوسطى. أو كما أسميناه سابقا جناح الوطنية الصادقة.. وهو يضم صغار التجار ومتوسطيهم.. والمتقنين الليبراليين.. وبعض الفئات الدنيا من النواة الرأسمالية وبعض متوسطى الملاك الزراعيين وأصحاب المهن الحرة.. المحامين والأطباء والمعلمين وبعض ضباط الجيش^(٣٨).

ولم يتخذ نضال هذه الجناح طريقا واحدا بل اتخذ سبلا مختلفة..
فهناك الطلاب الذين نظموا سلسلة من الإضرابات والاعتصامات العنيفة والذين
اصطدموا صداما مباشرا مع قوات الاحتلال..

وقد بدأ الطلاب سلسلة إضراباتهم فى «يناير ١٩٠٦ عندما وضعت وزارة المعارف
نظاما لمدرسة الحقوق كان الغرض منه استفزاز شعور الطلبة والتضييق عليهم نتيجة
لتظاهرهم بالشعور الوطنى.. ويهدف تقييدهم وكبح جماحهم»^(٣٩).

واعتصم طلاب جميع المدارس العليا تأييدا لإخوانهم وتكونت لجنة لقيادة الإضراب
باسم «اللجنة العامة للمدارس» ثم توالى الإضرابات بعد ذلك فى مناسبات وطنية عديدة:
عقب حادثة دنشواى.. وعقب إصدار قانون المطبوعات.. وبدأت تتكرر المصادمات بين
الجموع المتظاهرة وقوات البوليس.. إنها «بروفات» ١٩١٩.

وهناك أيضا جماعات الشبان الذين كانت تغلى صدورهم حماسا بكرهية الإنجليز
والذين كانوا يؤمنون بضرورة تطهير الوطن منهم.. والذين افتقدوا - رغم حماسهم
الشديد ووطنيتهم الدافقة - النظرية الواعية والثقة بالعمل الجماهيرى.. فلم يكن أمامهم
من سبيل للعمل ضد الاحتلال سوى الإرهاب السياسى متأثرين بطبيعة الحال بموجة
الإرهاب والحركات الفوضوية التى انتشرت فى أوروبا فى ذلك الحين.

وتكاثرت الجمعيات السرية التى تهدف إلى الانتقام من المحتلين واغتيل الخونة ويؤكد جورست
«أن التحقيق فى حادثة الوردانى قد أظهر أن الجمعيات السرية قد نمت مما توجب الأسف»^(٤٠).
وتبدأ هذه الجمعيات عملها..

ويذكر محمد فريد فى مذكراته سلسلة من هذه الأعمال.

* «سبتمبر ١٩١٢ اطلعت فى جريدة لايورس على خبر من مصر يقول بأنه ضبط
بعض المواطنين فى الفيوم بتهمة تشكيل جمعية سرية بقصد استعمال الإرهاب».

* «٩ أبريل ١٩١٥ نشرت الجرائد تلغرافا من مصر بأن شابا مصرية أطلق الرصاص
على البرنس حسين الخائن.. والضارب اسمه محمد خليل تاجر من المنصورة وقد حوكم
أمام محكمة عسكرية وشنق رحمه الله»..

* «٩ يوليو ١٩١٥ أُلقيت قبلة على البرنس حسين أثناء ذهابه إلى الصلاة ولكنها لم
تنفجر وملقيا لم يقبض عليه بل فر من الأسطح بعد أن ألقتها من شباك «أوضة»

استأجرها لهذا الغرض من شهرين.. وهذا العمل يدل على وجود جمعية منظمة للانتقام من الخونة الذين باعوا الوطن للإنجليز..».

* ثم يذكر بعد ذلك بأيام أسماء المتهمين فى حادث القنبلة وهم تسعة أشخاص..
* « ٤ سبتمبر ١٩١٥ ضرب شخص اسمه «صالح أفندى عبداللطيف» «إبراهيم باشا فتحي» بسكين فى رقبتة قاصدا قتله وذلك على رصيف محطة مصر وبينما كان يقف بين كثيرين من الضباط المسافرين إلى السودان لكنه لم يمت ويظهر من الجرائد المصرية أن المعتدى قال أنه كان يريد قتله، وأن هناك اتفاقا على قتل كل الوزراء..

هذا المعتدى عمره ٣٥ سنة وهو صراف فى المالية.. الجناية سياسية محضة وتدل على أن الأفكار الإرهابية تسربت من الشباب المتهمين بالتهور إلى من هم أكبر منهم سنا.. وتدل على أن التذمر والفكرة الثورية عمت أو ستعم قريبا جميع طبقات الأمة رغما من الشدة التى تستعملها الحكومة فى حبس كل من تشم منه رائحة الميل إلى هذه الأعمال..

وارتعد الموظفون البريطانيون.. وعملاء البريطانيين خوفا من هذه الموجة الإرهابية وتعتمد سلطات الاحتلال إلى تعديل المادة ٢٨٤ من قانون العقوبات لأن النص السابق كما يقول جورست فى تقريره «لم يكن يعاقب على التهديد إلا إذا كان بقصد سلب المال.. وكان مجرد التهديد ولو - بالكتابة - غير معاقب عليه مهما بلغت شدته فكان لا بد من سد هذا النقص نظرا إلى تكاثر رسائل التهديد.. وواضح أن نوى الأمزجة العصبية الذين يتلقون يوميا رسائل تتهددهم بالقتل قد يستولى عليهم الرعب من جراء ذلك ويحتمل أن يتحولوا عن القيام بواجباتهم إذا كانوا من موظفى الحكومة..»^(٤١).

وإذا كان هذا هو رأى جورست وهو المسئول الأول فى سلطات الاحتلال فإن رد الفعل كان عنيفا جدا فى الأوساط المالية الأجنبية..

«إن لجنة غرفة التجارة البريطانية فى مصر تنظر بقلق وانشغال بال إلى حاسات القلق وعدم الأمن التجارى فى مصر، لأن ذلك يؤثر فى مصالح البلاد التجارية كثيرا..

وترى الغرفة أن هذه الحالة ناتجة بالأكثر من أفعال المحرضين الوطنيين فتلج - مع مراعاة واجب الاحترام - على حكومة جلالة الملك فى اتخاذ التدابير المبطة لهذا التحريض ورد السكنية اللازمة لرواج التجارة ولخير مصر عموما»^(٤٢).

لكن موجة الإرهاب هذه بالرغم من استفحالها لم تحقق مكسبا حقيقيا للأمة بل إن الأعمال الإرهابية كانت على الدوام وسيلة لتعلل سلطات الاحتلال بفرض مزيد من القيود..

وهكذا لم تستطع الحركات الإرهابية بالرغم من عطف الحزب الوطنى عليها أن تؤثر فى الاتجاهات العريضة للجماهير ولا فى أفكارها..

وإذا كانت سلطات الاحتلال قد نجحت فى إسكات مناورات الخديو عباس حلمى ثم نجحت فى خلعه، ونجحت فى إرهاب كبار الملاك وإقناعهم بأن الموقف الأفضل هو السكوت، ثم أرهبت بسيف الحماية وقوانين الطوارئ قطاعات كبيرة من الطبقة الوسطى.. فإن ثمة قطاعا من هذه الطبقة كان مصمما على النضال.

ويصمد المثقفون الوطنيون الذين يمثلون فى ذلك الحين الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى.. والحقيقة أن الذين صمدوا بعد انهيار الخديو وبعد حادثة فاشودة كانوا قليلين جدا وكانت الصورة بالغة القتامة.. أو هكذا خيل لمصطفى كامل. وهو يحاول أن يصور الموقف لصديقه ورفيق نضاله محمد فريد.

«أخى العزيز فريد.. وصلنى خطابك الكريم وإنه لا يسعنى إلا أن أشكر ودك الصادق النادر المثال فى مصر فهو تعزيتى عن هموم بلادى، وتسليتى عن قعود بنى وطنى عن إجابة ندائى والاجتماع حول راية الوطن لإنقاذه وإسعاده..

.. وإنه يحزننى حقا أن أرى الفرص مناسبة لخدمة الوطن ولا أجد غيرك فى المصريين نصيرا يساعدنى على ذلك، فتجدنى إن تكلمت أو دعوت أتكلم كئيبا أسفا وأدعو وأنا عارف بأنه ليس فى مصر من يساعدنى على القيام بالواجب وإكرام الضيف إن وافى. أخى.. سأسافر إلى برلين بالرغم من شدة كدرى من عدم وجود إرادة مشتركة بين من يريدون أو يدعون خدمة الوطن وعدم وجود خطة ثابتة يجرى الكل عليها.. وما على إلا الامتثال لإرادة الخالق جل شأنه الذى كآئه أراد أن أكون الوحيد فى خطتى، الفرد المطلب بالاستقلال»^(٤٣).

هذه الرسالة غنية عن أى تعليق وهى توضح كيف تسارع النزوات والاقطاعيون وكبار الموظفين وأبناء الطبقة الوسطى إلى التسليم للاحتلال بعد أن فقدوا الثقة فى فرنسا.. والأمر ليس بحاجة إلى تفسير فهم جميعا يسقطون جماهير الشعب من حسابهم، بعضهم يقف منها موقف المستغل والبعض الآخر يحتقرها ولا يثق فيها.. فإذا ما انهار الحليف الأجنبى انهار كل شىء..

لكن لماذا صمد مصطفى..؟

لأنه كان الوحيد الذى ارتبط بال جماهير والذى بادلته الجماهير حبا بحب، والذى منحته تأييدها وثقتها ومساندتها واستقبلته فى الإسكندرية استقبال الفاتحين فزاره فى اليوم الأول لوصوله أكثر من ثلاثمائة شخص..

وعند مغادرته الإسكندرية كان فى وداعه فى المحطة «نحو ثمانية آلاف نفس وفى مقدمتهم رائدو الوطنية وحمايتها وفوق رؤوسهم الأعلام وقدموا له نيشاناً من الفضة رسم على أحد وجهيه صورة النخيل المصرى ومسلة الثغر وكتب على الوجه الآخر هذه الجملة «برهان الإخلاص من أهالى الإسكندرية للوطنى الغيور مصطفى كامل»^(٤٤).

ولقد كان مصطفى كامل يستحق كل هذا التأييد فهو وطنى دافق الوطنية، يحب مصر حبا ملك عليه كل وجدانه، ولقد أثر إخلاصه المتفانى فى الجماهير التى تعلقت به.. وكان لا بد لهذا التعلق من جانب الجماهير أن يترك أثره أيضا على شخص الزعيم.

لكننا يتعين علينا ألا نبالغ فى دور هذه الجماهير.. فقد كانت الحركة الجماهيرية عموما ضعيفة تفتقر إلى التنظيم وإلى الثقة بنفسها.. وكانت أيضا وهذا هو المهم ذات نوعية خاصة فقد تركزت أساسا فى جماهير الطبقة الوسطى والبرجوازية الصغيرة فى المدن وهى ذات طاقة ثورية محدودة وخاصة فى ظل ظروف يسودها بطش الاحتلال.. وفى ظل انتكاسة الثورة العرابية تلك الانتكاسة التى كانت لا تزال تلقى ظلالة من الشك على جدوى حركة الجماهير..

وقد تردد مصطفى كثيرا فى تكوين حزب بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة، ولفترة طويلة ظل الحزب الوطنى مجرد لافتة تضم جماعة من الوطنيين غير المنظمين، ولم يعلن مصطفى تكوين حزبه إلا فى ١٩٠٧ وكنتيجة لإعلان حزب الأمة وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية. هنا وهنا فقط أرسل مصطفى إلى فريد يقول:

«إن ظهور حزب الأمة من أولئك الذين خبرنا نفسياتهم وميلهم إلى مسaire المحتلين وأن ما علمته كذلك من عزم صاحب المؤيد على تأليف حزب باسم الإصلاح لخدمة سياسة السراى هذان الأمران يحتمان علينا كل التحتيم أن نظهر حزبا الوطنى بالرغم منا فى مظهره الحقيقى، حتى يعلم العالم كافة أن للوطن المصرى حزبا يطلب بعزيمة صادقة الجلاء والدستور»^(٤٥).

وهكذا وفى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ احتشد فى مسرح زيزينيا بالإسكندرية ٦٠٠ شخص يمثلون الكتلة الجماهيرية لهذا الحزب. وارتفعت هتافاتهم عالية «لتحى مصر».

واعتلى مصطفى كامل المنصة ليصب في آذان مصر كلها أنغاماً من الحماس الدافق والوطنية الصادقة «بلادى. لك حبى وفؤادى، لك حياتى ووجودى، لك دى ونفسى لك عقلى ولسانى، لك لبى وجنانى، فانت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر».

ويحدد مصطفى فى خطابه أهداف حزبه..

«إننا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحداً بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا كونوا أسعد حظاً منا، وليبارك الله فيكم ويجعل النصر على أيديكم ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية والأهلية والاستقلال المقدس». ويتحدث عن التعليم: «نقول للأمة خذى من العلم أوفر قسط وتسلى بأسلحته واملئى وادى النيل من نوره، وردى إلى الفقير حقه ونصيبه من المنهل العذب، ما فائدة الأموال التى تجمع والخزينة التى تملأ بالذهب الوهاج إذا كانت الأسوار قائمة بين الفقراء والعلم..».

وتحدث عن الدستور فقال «إن إعطاء المصريين مجلساً نيابياً حقيقياً لا صورة يراد بها السخرية.. وذر الرماد فى العيون، هو تجريد للاحتلال من كل سلطة. المصريون يطلبون اتباع المبادئ الوطنية وتعميم التعليم وإقامة الدستور مقام الظلم والاعتساف وينادون بأنهم لا يرضون بحكومة الرجل الفرد سواء كان مصرياً أو أجنبياً...».

وتحدث بعد ذلك عن موقف الحزب من تركيا فقال: «رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطىها لتركيا فما هذه التهمة إلا تصريح بأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيداً أرقاء».

فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة بأن من اتفقت مصالحهم يتجمعون ويتناصرون.

إننا نعلن للملأ كله أن الحزب الوطنى مستقل عن كل الدول والحكومات والموك والأمراء... وتحدث عن الفلاح فقال:

«الفلاح الذى قضى القرون من السنين وهو معتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له، فأسمى عمل نقوم به هو إنهاء ذلك الفلاح العزيز وإعلاء مكانته فهو ممثل النشاط

المصرى ومصدر كل خير ونعيم، فليحى عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية وصار رجلا حرا بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته...».

ولست أعتقد أنني بحاجة إلى أن أتحدث عن مدى التقدم الذى أحرزه العمل الوطنى بإعلان برنامج كهذا.. فهو يختلف اختلافا كبيرا عن برامج الأحزاب الأخرى.. وهو يمثل نقطة انطلاق جديدة للنضال الوطنى بأسره.

لكنه مع ذلك لم يحدد أهدافا واضحة تمثل مطالب الجماهير.. وحديثه عن النهوض بالفلاح يتناول أمالا غامضة بلا معالم محددة.

على أن إعلان الحزب الوطنى كان علامة مهمة.. كان فيصلا بين الوطنية الصادقة وبين العمالة أو التهاون أو المناورة.. أو التقرب من سلطات الاحتلال.

كما أن الحزب الوطنى قد لعب دورا مهما فى كشف العناصر الضارة فى حقل العمل السياسى وشن حملات قاسية على خصومه السياسيين كاشفا أمام الجماهير سياستهم المتهاذنة أو العميلة.

ولنتأمل هذه العبارات التى هاجم بها الشيخ جاويش جريدة المقطم.. تحت عنوان: «لا كرامة لمأجور.. ليخرس المقطم».. «ما بال أولئك الغرباء -عن جميع الأوطان- كلما رفع وطنى صميم صوته فى شأن من شؤون وطنه صاحوا بأنكر صوت ناقلين؟ وما حكمه طاعنين؟ وسخروا منه حاقدين؟ عرفت الأمة هؤلاء الأعداء الذين لا يهنا لهم عيش إلا إذا ضاع لها حق.

وعرفت صحيفتهم الصفراء بوقا للاحتلال يصوت فيها فتردد صداه وآلة يديرها فتستدير.. ألا ليخرس المقطم فإنه أحقر عند الأمة من أن تلقى له بالا أو تقيم لحماقته وتضليله وزنا»^(٤٦).

ويشدد اللواء هجومه على حزب الأمة.. و«الجريدة» قائلا: «إن سياسة الجريدة تدلنا على أنها أشد الجرائد تعلقا بالاحتلال وحسبنا قدحها فيمن استنكروا الاحتفال بالورد كرومر، أعدى أعداء المصريين والطاعن على الإسلام والمسلمين»^(٤٧).

ثم توجه «العلم» هجومها الساحق إلى لطفى السيد أيضا فتناديه.. «أى عدو بلاده.. مكانك مكانك أيها الجبان فما لك بميادين تميّك صورتها وتضعفك ذكراها.. فخير لك أن تحفر الأرض بأظفرك، وأن تتردى فيها ثم اطم رأسك بالحجارة حتى يخرج من دماغك ذلك المخ الذى كان سبب شقائك وأصل بلاتك»^(٤٨).

حتى الخديو لم يسلم من هجماتهم عندما باع نفسه للإنجليز..
وردا على تصريح أدلى به الخديو لجريدة الديلى تلجراف أيد فيه الاحتلال الإنجليزي،
قالت جريدة «ليتندار» جريدة الحزب الناطقة بالفرنسية:
«إننا نصرح جهارا بأن الخديو حر فى تفكيره ولكن لا نقب أن نكون مقيدين بهذا
الكلام، إن مصر لا يمكن أن تحكم بواسطة الخديو فقط أو بواسطة المعتمد البريطانى أو
بهما معا.. يجب أن تحكم مصر بمعرفة أبنائها.. لقد تكلم الخديو عن الازدهار المادى ولم
يقول كلمة واحدة عن الازدهار الأدى، ذلك لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة إرادة الشعب
المتمتع بكامل حقوقه»^(٤٩).

كما أن الحزب قد نجح بفضل علاقاته الخارجية وبفضل ارتباطاته بجماعات المثقفين
المصريين الذين كانوا يتلقون العلم بالخارج.. فى أن يربط بين القضية المصرية وبين
الحركة العالمية المناهضة للاستعمار والحرب.. وفى كثير من مؤتمرات السلام والمؤتمرات
المناهضة للاستعمار، وفى عصبة الشعوب المظلومة، ومؤتمر الأجناس المضطهدة ارتفع
صوت أعضاء الحزب مطالباً بالاستقلال لمصر والجلء التام عنها.. ومعلنا تضامن الأمة
المصرية مع كل الشعوب والأجناس المضطهدة..

كما أن الحزب قد نجح فى أن يقدم لأول مرة فى تاريخ مصر نموذجا للعمل الحزبى
السياسى الذى يعمل بوعى لكسب الجماهير وتنظيمها والوصول إليها من خلال
احتياجاتها اليومية والملحة.
وهناك أمثلة عديدة..

وضع الحزب صيغة موحدة للمطالبة بالدستور.. وطبع منها عشرات الآلاف من النسخ
ودعا الشعب إلى توقيعها وإرسالها إليه ليقدمها إلى الخديو وذلك فى محاولة لإظهار مدى
تأثير الحزب على حركة الجماهير وارتفع عدد التوقيعات إلى رقم مذهب ٦١،٠٠٠ توقيع.
كما أظهرت قيادة الحزب فهما عميقا لأهمية العمل الجماهيرى.. فقررت الاستفادة من
المعركة الانتخابية التى جرت فى ديسمبر ١٩١٣ لانتخاب الجمعية التشريعية.. ويكتب محمد
فريد فى مذكراته: «جميع الاجتماعات الانتخابية التى حصلت بالقاهرة وبعض جهات
الأرياف كان الصوت العالى فيها لرجال الحزب الوطنى فالحركة فى الحقيقة من أعمال
الحزب وإن كانت الظروف السياسية منعت اللجنة الإدارية من الظهور فيها»^(٥٠).

وكانت هناك أيضا فكرة التعاون.. التى اهتم بها. الحزب اهتماما كبيرا كوسيلة لحل المشاكل اليومية للجماهير والارتباط بها.

وهناك أيضا مدارس الشعب وهى مدارس ليلية كان الغرض منها تعليم الفقراء والعمال مجانا، وقد تطوع شباب الحزب للتدريس فيها وفقا لبرنامج أعده الحزب يتضمن المواد التالية: القراءة والكتابة ودروس الدين - قانون الصحة والاحتياجات الصحية- القوانين الخاصة بالمعاملات اليومية- الحساب- الشؤون الاجتماعية - تاريخ مصر والتاريخ الإسلامى- جغرافية وأداب.. وقد افتتح الحزب أربع مدارس فى أقسام بولاق وشبرا والعباسية والخليفة، وكان محمد فريد يقوم بنفسه بالتدريس فيها^(٥١).

ثم إن الحزب قد اهتم اهتماما كبيرا بالطبقة العاملة.. والحقيقة أن هذا الاتجاه لم يصبح ملحوظا إلا بعد أن تولى فريد قيادة الحزب..

ويكتب فريد سلسلة من المقالات دفاعا عن حقوق العمال معلنا أنه:

« لا يوجد بمصر قوانين خاصة بحماية العمال ولا قوانين تحدد سنهم ولا عدد الساعات التى يجب أن يقضوها فى العمل فنجد العمال مثقلى الكواهل بلا رحمة..»^(٥٢).

وعندما أضرب عمال الترام ساندتهم جريدة اللواء معلنة «إن المتأمل فى المطالب التى عرضها هؤلاء العمال يعرف مبلغ عدلها وصوابها فإنهم لم يفتتنوا على الشركة ولم يطلبوا منها المستحيل وإنما طلبوا أن يحفظ التناسب بين الحقوق والواجبات وأن يأخذوا الكفالة الكافية لهم، وألا يضاموا ولا يرهقوا، وأن يكون الأجر على قدر العمل، وللعمل وقت محدود، وهذه الروح التى سرت فى أولئك العمال فأشعرتهم أن لهم حقوقا ضائعة وجمعت صفوفهم لطلبها بطريقة عادلة روح تبشر بدخول طوائف العمال عندنا فى عهد جديد من الحياة الحية والتضامن الاجتماعى»^(٥٣).

كذلك كَوَّن الحزب نقابة الصنائع اليدوية وهى أكبر تنظيم عمالى شهدته مصر حتى ذلك الحين. والحقيقة أن فريد باتجاهه هذا نحو العمال والتشكيلات النقابية كان متأثرا ببعض القادة العماليين الأوربيين وخاصة الزعيم العمالى كيرهاردى أحد مؤسسى حزب العمال الإنجليزى ويتضح هذا التأثير من كلمات فريد نفسه..

«نقابات العمال قوة هائلة تخضع لها الحكومات وتطأ على رأسها أمامها ولقد أصبح حزب العمال فى إنجلترا من الأحزاب مسموعة الكلمة بهمة من كرسوا حياتهم لخدمة هذه الطبقة من الأهالى مثل كير هاردى وإخوانه»^(٥٤).

وفوق كل ذلك فإن قادة وكوادر الحزب الوطنى قد قدموا للحركة النضالية المصرية نماذج رائعة من الإباء الثورى.. والتعالى على مغريات المحتلين والتضحية بالذات فى سبيل الوطن.. مسلحين الجماهير بطاقات كبيرة من النضال وبالقدرة على رفض أساليب الجماعات والأحزاب الأخرى المتهادنة.

ولنتأمل هذا الحديث الذى دار بين مصطفى كامل وبين «السير كامبل بانرمان» رئيس وزراء بريطانيا..

فبعد محاورة طويلة سأل بانرمان «هل تقبل تكوين نظارة بمعرفة؟»
ولنتأمل جواب مصطفى كامل «إن وطنيتى تفرض على رفض كل مركز فى الحكومة طالما ظل الاحتلال فى البلاد»^(٥٥).

وكذلك فريد.. يعرض عليه المحتلون الوزارة ملوحين له بضعف مركزه المالى وباستعدادهم لتسوية كل مشاكله المالية فيقول لندوبهم «إن ضياع ثروتى لا يؤثر فى مبادئى وإننى أرفض أى مركز فى الحكومة مادام الإنجليز فى مصر .

وعندما يلح عليه الرجل يصمم فريد معلنا «إننى سأصر على الرفض حتى مماتى»^(٥٦).
ولما حكم عليه بالسجن زاره فى سجن الاستئناف الدكتور عثمان غالب موقفا من قبل الخديو ليخبره أن الخديو مستعد للعفو عنه إذا قدم طلبا بذلك.. فرد عليه فريد «أنا لا أطلب العفو ولا أسمح لأحد من عائلتى بطلبه.. وإذا صدر العفو فلن أقبله»^(٥٧).

وهكذا كان الحزب الوطنى- فى كثير من الأحيان- مدرسة للتطرف الوطنى الذى يجابه سياسة المهادنة والملاينة والضعف وموالة الإنجليز..

لكن كل ذلك لم يتح للحزب أن يقود جماهير الشعب، فقد كانت حماسه حماسة البرجوازية الصغيرة التى تتوهج عاليا ثم سرعان ما تنطفىء.. الأمر الذى لم يمكنه من أن يقدم الصياغة الفكرية الملائمة التى تعبر عن آمال الجماهير.. وأن يحشد هذه الجماهير بصورة فعالة دفاعا عن المبادئ التى صاغها.

ومنذ البداية كأن مصطفى كامل يدعو إلى انتهاج خطة معتدلة.. والحقيقة أن دعوة مصطفى للاعتدال كانت خطة متكاملة تعبر عن إيمان محدود بطاقات الجماهير وقدراتها، وعن خوف شديد من حركتها الواسعة، وباختصار لقد كانت ظلال فشل ثورة عرابي تشوب فكره ومواقفه..

وعندما أتحدث عن الاعتدال فإننى أعنى أن مصطفى كامل قد تعمد - عن وعى - الابتعاد عن الأساليب الثورية فى الكفاح مكتفيا بالاعتماد على الكتابة والخطابة والتشهير بالاحتلال محليا وعالميا..

وحتى عندما التفت حوله جموع الإسكندرية لتمنحه دفئها أرسل إلى أهالى الإسكندرية رسالة شكر جاء فيها:

«وقد برهنتم فى هذه المظاهرة المعدودة على أنكم ألد أعداء الدخلاء فحاربوهم بأقلامكم وألسنتكم حتى تتبدد طغمتهم»^(٥٨).

وفى مرة ثانية وجه مصطفى كامل حديثه للجماهير قائلا:

«الغيرة التى تستعمل فى غير موضعها تكون دوما أضر من البلادة والخمول فلذا أناديكم مناداة محب لبلاده أن تنفوا باعتدالكم وسكونكم تهمة من يرمونكم بحب الهياج والاضطراب، ومثل مصر مثل مريض قارب على الشفاء ينصح له الطبيب بزيادة التحفظ وعدم التعرض للهواء لئلا ينتكس بالعلة فتعود عليه بويل أشد من ويلها الأول»^(٥٩).

وفى عام ١٨٩٦ نشرت إحدى الصحف النمساوية حديثا لمصطفى كامل جاء فيه:

«ولما كانت الأمة المصرية متألة ولها حقوق الخلاص من النير الإنجليزى فترى للوصول إلى غرضها سبيلين.. سبيل الثورة.. والسبيل السلمى..

فأما سبيل الثورة فنحن لا نريده، لأننا قبل كل شئ قوم مشهورون بالدعة وحب السكينة ونبغض المذابح والجرائم. ومن جهة أخرى فإن لأوروبا عندنا مصالح تضر بها الثورة لذلك أعرضنا عن سبيل الثورة الذى نكره بفطرتنا واخترنا السبيل السلمى»^(٦٠).

ويدلى مصطفى بحديث آخر لمراسل نيويورك هيرالد يقول فيه:

«لقد قمنا نلفت أنظار أوروبا إلينا بالقلم واللسان، ولسنا بغير القلم واللسان نريد أن نخاطب أوروبا ونستفزها للنظر فى مصلحة بلادنا..»^(٦١).

وثمة مواقف أخرى كثيرة تحمل نفس المضمون.. لكن أهم ما لفت نظري موقف ذو أهمية خاصة فى اعتقادى.. فهو يعبر عن موقف مصطفى كامل من قوة مهمة فى المجتمع وهى ضباط الجيش.. فقد كان أخوه - على فهمى كامل- ضابطا بالفرقة المصرية فى سواكن وعندما قدم مصطفى عريضته الشهيرة إلى البرلمان الفرنسى بلغ حماس ضباط الجيش المصرى فى سواكن ذروته فكتبوا لمصطفى رسالة زاخرة بالشجاعة والوطنية والإقدام:

«إلى الشهم الغيور الوطنى المصرى مصطفى كامل أفندى أيدد الله..

السلام عليكم.. إن الذين يخاطبونك يجدون أنفسهم أمام وطنيتك النادرة وتفانيك فى حب مصر المقدسة صغارا، لأن قلمك الحق أمضى من سيوفنا، وحججك القوية أفعل من رصاصنا فإن قصرنا فى شكرك فلنا من عملنا أكبر عذر وفى عفوك أعظم أمل.

إننا نشكرك أيها السيد المبجل شكر المصرى الصميم لأخيه الحميم فاقبل شكرنا واعلم أن أرواحنا طوع إشارتك فى خدمة بلادنا العزيزة».

ثم ٣١ توقيعا..

فماذا كان رد مصطفى كامل؟

«من الحكمة ألا نمكّن العدو من رقابنا.. وإنى لا أود أن يدخل الضباط فى حركتنا السياسية دخولا ظاهرا لأن هذا يضر بالمسألة المصرية ضررا بليغا حيث يجد الاحتلال مسوغا لخلق التهم الثورية بمصر، وغير ذلك مما لا يخفى عليكم»^(٦٢).

ولم تكن هذه هى الوقفة الوحيدة للشجاعة لضباط الجيش مصطفى ودعوته بل لقد أعلنوا فى مرة أخرى استعدادهم للعمل رهن إشارته..

ولنستمع إلى على فهمى وهو يروى بنفسه قصة وقفة أخرى شجاعة لضباط الجيش بعد أن لفقت له تهمة باطلة وحكم عليه مجلس عسكري بتجريدته من رتبته وسجنه..

«وقد استقبلنى الضباط المصريون متأثرين لما لقيت من هذا الظلم، بل لقونى غاضبين صاخبين لما أصابنى من اعتداء وافتراء ورأيت منهم حركة هى التى كنت أنتظر أن أراها منهم.. وتقدم إلى أحدهم وهو الشهم المرحوم شفيق بك الحضرى وقال:

يا أخانا المظلوم.. إننا نعتقد أن رئاسة الجيش المصرى قد مثلت اليوم رواية من أشنع وأفظع الروايات.. إذ ظلموا ضابطا مصريا بريئا وتحاملوا زورا وعدوانا على رجل ذنبه أنه أخو مصطفى كامل، فمرنا فإنا طوع إشارتك..

فلم يسعنى إلا أن شكرت لهم عنايتهم بشأنى وأشرت عليهم باستعمال الحكمة والروية حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا»^(٦٣).

كذلك فإن الحزب كانت تمرزه خلافات فكرية عنيفة.. فهناك اتجاه يمثل الشيخ عبد العزيز جوايش وهو ما يمكن تسميته باتجاه «الجامعة الإسلامية» وهو اتجاه ينادى بحق الأمة المصرية فى الحرية والدستور والجلء فى ظل وحدة العالم الإسلامى ممثلاً فى الدولة العثمانية التى «يتعين الحفاظ على وحدتها ومقاومة تمزيقها فإن فى تمرزها ضياع الوطن كله»^(٦٤).

والحقيقة أن اتجاه الشيخ جوايش الذى كان مسئولاً لفترة من الوقت عن أهم أجهزة الحزب وهى جريدة اللواء قد أوقع الحزب فى حيرة شديدة.. فإذا كانت الدعوة الإسلامية ترضى البعض فإنها توقع المطالبين بالحرية والاستقلال والديمقراطية فى حيرة.. إذ كيف يمكن تحقيق كل ذلك فى ظل الوحدة مع الدولة العثمانية وبكل ما تحمله سلطة هذه الدولة من جبروت وتسلسل وقهر؟

ويلحق «جمال أحمد» على هذا الاتجاه قائلاً: «إنه قد أكسب الحزب بعض الجماهيرية التى مكنته فى بعض الوقت من أن يملأ شوارع القاهرة بمظاهرات صاخبة لكنه - وفى نفس الوقت - قد أفقده تأييد عناصر كثيرة»^(٦٥).

أما الاتجاه الآخر فهو اتجاه محمد فريد الذى قاوم آراء الشيخ جوايش قائلاً: «إن حبه للدولة العثمانية أدى إلى نسيان مصر ومصالحها، فأصبحوا يقولون إن مصر للمسلمين لا للمصريين وقد وصلت الحالة بالشيخ جوايش إلى أن ينصحنى بعدم حمل الدبوس الذى عملناه فى جنيف والمكتوب عليه «مصر للمصريين» والذى قررنا أن يكون شعار المصري المخلصين وقال: إن منظره فى صدرى وصدر إخوانى يغيظ العثمانيين كما يغيظهم محافظتى على قومية مصر»^(٦٦).

ويمضى محمد فريد متحدثاً فى مذكراته عن معارضته لآراء جوايش قائلاً: «إن جوايش لم يزل يحارب فكرة الوطنية فى الإسلام وقد قال أخيراً فى برلين لأحمد بك أن يقلع عن فكرة الوطنية أو الجنسية المصرية قائلاً: إنه لا وطنية فى الإسلام»^(٦٧).

ولم يكن هذا المظهر السلبي الوحيد فى الحزب.. لكن سياسة عدم التعاون مع الاحتلال تطرفت إلى شعار يمنح الوطنيين من قبول الوظيفة فى ظل الاحتلال.. ولم يبق أمام الكثيرين من مثقفى الحزب سوى الهجرة إلى الخارج..

ثم ارتكب قادة الحزب الخطأ القاتل فهاجروا هم أيضا تاركين شعبا أحبهم وأعجب بهم، والتف حولهم، ومنحهم من التأييد ما لم يمنحه لحزب سياسى آخر..

وفى البداية هاجر جاويش وبعدها بشهر واحد تبعه فريد.. ثم الكثيرون: عبد الملك حمزة، إسماعيل كامل، عوض البحراوى، الدكتور أحمد طاهر وعشرات غيرهم..

وهكذا وبالتدريج انتقل مركز الكفاح من وسط الجماهير، من مدارس الشعب الليلية وجمعيات التعاون ونادى طلبة المدارس العليا ونقابة الصنائع اليدوية وشوارع القاهرة وغيرها من المدن، إلى الآستانة ودول أوروبا، وكان طبيعيا أن تتبعثر جهودهم وأن تسودهم وهم فى المنفى وفى عزلة عن العمل اليومى المنظم وسط جماهير الشعب روح الفرقة والخلافات الشخصية والمؤامرات والمناورات الصغيرة.

والحقيقة أننى فكرت فى هذه الهجرة الجماعية التى اندفع إليها هؤلاء القادة وأكثر ما حيرنى هى هجرة فريد وهو زعيم واع ومخلص يترك كل شئ هربا من قضية حكم عليه فيها «بالحبس لمدة سنة»..

وأيا كانت الدوافع، وأيا كانت المبررات فهى فى اعتقادى خضاً فادح هدم كيان الحزب وأفقدته قدرته على التأثير فى الجموع التى كانت تغلى غضبا..

وكان طبيعيا أن تتبدد قوى هذا الحزب بعد أن تركها القادة مبتعدين بأنفسهم عن بطش سلطان الاحتلال.. وكان طبيعيا أن يرسم المحتلون سياسة تهدف إلى «إبعاد» القيادة إلى الخارج وضرب القاعدة فى الداخل..

وتتوالى الأحداث سريعا وفى أغسطس ١٩١٥ تنشر الأهرام خطابا مفتوحا من محمود بك فهمى سكرتير الحزب يعلن تبرأه من الحزب..

كذلك تنعكس هذه الأحداث على تفكير محمد فريد وهو فى عزلة القاسية بعيدا عن شعبه وعن وطنه وعن جماهيره.. وبعد أن شهد كيان حزبه وهو يتهدم، فيكتب فى مذكراته معبرا عن يأس لا حدود له «اتضح لى من كثرة اتصالاتى ومساعى أنه لا أمل من جهة فى قيام الجامعة الإسلامية باسم الدين، ومن جهة لا أمل فى أن ألمانيا تساعدنا ضد الترك لأنهم محتاجون إليهم لا يريدون أن يغضبوهم فى شئ.. ونحن فى مثل هذه الظروف نفضل بقاء الإنجليز والاتفاق معهم على أخذ الدستور ولو تدريجيا»^(٦٨).

وكان طبيعيا بعد كل ذلك أن تجرى أحداث ثورة ١٩١٩ بعيدا عن الحزب وحتى بعيدا عن خيالات قاداته.. وكان طبيعيا أن يكتب فريد فى مذكراته معلقا على أحداث هذه الثورة فيقول: «من الأمور التى كانت غير منتظرة، ما حصل بمصر فى شهرى مارس وأبريل من هذه السنة وهو قيام ثورة عامة اشتركت فيها الأمة بجميع طبقاتها واتخذ فيها الأقباط والمسلمون مطالبين باستقلال مصر التام..».

وهكذا.. ورويدا رويدا أدركت الجماهير أن آمالها ليست حبيسة إرادة ولا شعارات المثقفين ولا الفئات الوسطى وأن ثمة قوة أخرى أكثر قدرة على الصدام وأكثر قدرة على الصمود وأكثر قدرة على المجابهة.

الهوامش

- (١) محمد صبيح- مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية- ص ٢٠٥
- (٢) زكى فهمى- صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر- الجزء الأول.
- GABRIEL BAER - A HISTORY OF GANDOWNERSHIP IN MODERN EGYPT (٣)
- P.56
- IBID - P24 (٤)
- EDI. LA VORTUNE IMMOBILIERE DE L'EGYPTE ET SA DETTE HYPOTHE- (٥)
CAIRE, PARIS. 1907.F. 108
- (٦) باير- المرجع السابق- ص ٢٢٤
- (٧) صبرى أبو المجد- مقال بالهلال عدد ديسمبر ١٩٦٤
- (٨) روثشتين- دمار مصر.. ترجمة على شكرى. حاشية ص ٤٤٩.
- (٩) صبحى وحيدة- فى أصول المسألة المصرية- الطبعة الثانية ص ٢٢٤- (وهذه الإحصائية لا تشمل الدين ولا رأس مال شركة قناة السويس).
- A.E. CROUCHLY - THE INVESTMENT OF FOREIGN CAPITAL IN EGYPT- (١٠)
TIAN COMPANIES AND PUBLIC DEBT. (NEW YORK - 1977) P. 105
- Roger Owen - Lord Cromer and the development of Egyptian industry 1882- (١١)
1907 - Middle Eastern Studies - July 1966 - p.283.
- Roger Owen - The Middle East and the world Economy - (London- 1981) p.214. (١٢)
- Charles Issawi - The Economic History of the Middle East - 1800- 1919 (CHICAGO- (١٣)
GO 1966) - p.453.
- (١٤) صبرى أبو المجد - الهلال - ديسمبر ١٩٦٤
- (١٥) رشدى صالح - كرومر فى مصر - ص ٩٥.
- (١٦) راجع نص محضر الجمعية العمومية فى انتخابات جريدة المؤيد عن عام ١٨٩٠ ص ٩٠ وما بعده.
- (١٧) المؤيد - ١ - ١١ - ١٩٠٨.
- (١٨) جورست - تقريره عن عام ١٩١٠ صفحة «ز».
- (١٩) كتشنر - تقرير ١٩١٣ - ص ٩
- (٢٠) القائمة الكاملة منشورة فى د. حسين فوزى النجار - أحمد لطفى السيد - حاشية ص ١٣٥.
- J.A AHMED- The INTELLECTUAL ORGINS OF EGYPTIAN NATIONALISM (٢١)
- P.69.
- (٢٢) المرجع السابق - ص ٨٩.

- (٢٣) جمال أحمد - المرجع السابق - ص ٨١.
- (٢٤) أحمد رشاد - مصطفى كامل حياته وكفاحه - ص ٢٥٢.
- (٢٥) مقالات قصر الدوبارة - وهو كتيب يضم ما نشرته جريدة المؤيد من مقالات عن اللورد كرومر وسياسته - ص ٢٩.
- (٢٦) المرجع السابق - ص ٩.
- (٢٧) المرجع السابق - ص ٢.
- (٢٨) العلم - ٢٥ مارس ١٩٠٩.
- (٢٩) محمد صبيح - المرجع السابق - ص ٣٧١.
- (٣٠) لمزيد من التفاصيل راجع - رفعت السعيد - تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر - ص ٢٧٨ وما بعدها.
- (٣١) فوزى جرجس - دراسات في تاريخ مصر السياسي - الطبعة الأولى (١٩٥٨) ص ١٢٩.
- (٣٢) المرجع السابق - ٩٤.
- (٣٣) المرجع السابق - ص ٩٦.
- (٣٤) المرجع السابق - ص ١٣١.
- (٣٥) أحمد بهاء الدين - أيام لها تاريخ - ص ٦٩.
- (٣٦) محمد عبد الله عنان - تاريخ المؤامرات السياسية - دار الهلال - (١٩٢٨) ص ٣٥.
- (٣٧) غورست - تقرير عام ١٩١٠ - ص ٨١.
- (٣٨) يلاحظ أن قائمة الوطنيين المعتقلين عقب إعلان الحماية كانت تضم عددا من الضباط من بينهم اليوزباشى حافظ محمود قيودان واليوزباشى أحمد حمودة.
- (٣٩) عبد الرحمن الرافعى - مذكراتى - دار الهلال (١٩٥٢) - ص ١١.
- (٤٠) جورست - تقرير عام ١٩١٠ - ص ٨١.
- (٤١) جورست - تقرير عام ١٩١٠ - ص ٨٣.
- (٤٢) المرجع السابق - ص ٢.
- (٤٣) عبد الرحمن الرافعى - مصطفى كامل - ص ١٢٤.
- (٤٤) غلى فهمى كامل - سيرة مصطفى كامل - ج ١ - ص ٣٨٨.
- (٤٥) أنور الجندى - عبد العزيز جاويش - ص ٢٧.
- (٤٦) المرجع السابق - ص ١٠٥.
- (٤٧) اللواء - ١٧ / ١١ / ١٩٠٧.
- (٤٨) العلم - ٣١ / ١٠ / ١٩١١.
- (٤٩) ليتندار - ٢٦ / ٥ / ١٩٠٧.
- (٥٠) عبد الرحمن الرافعى - محمد فريد - ص ٣١٨.
- (٥١) عبد الرحمن الرافعى - مذكراتى - ص ١٦.
- (٥٢) أمين عز الدين - تاريخ الطبقة العاملة منذ نشأتها حتى ١٩١٩ - ص ١٢٥.
- (٥٣) اللواء - ١٨ / ١٠ / ١٩٠٨.
- (٥٤) أمين عز الدين - المرجع السابق - ص ١٢٨.

- (٥٥) أحمد رشاد- المرجع السابق- ص ٣٢٢.
- (٥٦) محمد على غريب- الفدائي الأول- ص ٧٤.
- (٥٧) أحمد بهاء الدين- المرجع السابق- ص ٧٨.
- (٥٨) على فهمي- المرجع السابق- ص ٢٢٧.
- (٥٩) أحمد رشاد- المرجع السابق- ص ٥.
- (٦٠) على فهمي كامل- المرجع السابق- ص ٢٨٧.
- (٦١) المرجع السابق- ص ٣٠٠.
- (٦٢) المرجع السابق- ص ٥٥١.
- (٦٣) المرجع السابق- ص ٢٣٥.
- (٦٤) أنور الجندى- عبد العزيز جاويش- ص ٨٢.
- (٦٥) جمال أحمد- المرجع السابق- ص ٨٧.
- (٦٦) صبيح- المرجع السابق- ص ٧٨٩.
- (٦٧) صبيح- المرجع السابق- ص ٣١٨.
- (٦٨) صبيح- المرجع السابق- ص ٣٦٨.

الحركة وسط الفلاحين

والحقيقة إن ثمة طبقات أخرى كان الفقر يطحنها، وكانت ظروفها الاجتماعية والاقتصادية تدفعها إلى التمرد، وإلى تبني شعارات ثورية حقا.. وكانت هذه الشعارات وتلك المواقف أكثر مما يمكن أن يحتمله حزب البرجوازية الوسطى أو الصغيرة.

ولنبداً بالفلاحين هؤلاء الناس الذين قال كرومر: إنهم أكثر من استمتعوا بنعم الاحتلال.. لقد رأينا في البداية كيف استحوذ كبار الملاك على كل شبر يستصلح من الأرض فارتفعت بذلك أرقام الملكيات الكبيرة ومساحتها بصورة مخيفة.. ولم يبق شيء للفلاحين الصغار سوى مساحات ضيقة من الأرض ترهقها ديون متراكمة وضرائب تتزايد كل يوم ومحصول ضعيف ورجال يختطفون للعمل في السلطة.

والحقيقة أن الحالة التي عاشها الريف المصري في مطلع القرن العشرين بحاجة إلى مزيد من التأمل والدراسة.. فبدون دراستها دراسة تفصيلية لن يمكننا أن نفهم حقيقة الدوافع التي كمننت وراء العنف المسلح الذي انفجر فجأة عام ١٩١٩.

وإذا كان صعبا أن نورد هنا دراسة تفصيلية لهذه المسألة، فإننا سنحاول أن نقدم بعض الملاحظات السريعة.

ولنبدأ بهذه الصورة التي أوردتها مراسل الأهرام فى مطويس..

«كان هبوط الأثمان الذى أصاب الزراع فى هذه السنة أنكى الضربات التى نزلت عليهم، وقد أصاب هذا الهبوط محصول الأرز مع وفرة نفقاته وقد ساءت حالتهم كثيرا بكيفية تسليم الأرز للدائنين، فإنهم لا يقبلون أخذه إلا بزيادة نحو الخمس على كل أردب. والزراع لا يسعهم إلا التسليم على كل حال لأنه لا توجد جهة لتوريد هذا الصنف غير ثغر رشيد، ثم يرجع الزارع لبلده خائبا حزينا فيعامله الحاكم بقسوة وصرامة فى طلب الأموال الأميرية وهو لا يستطيع وفاءها إذ لا شئ لديه لقوته وقوت عياله»^(١).

وإذا وصل الأمر بالفلاح إلى هذا الحد، فإنه لا يجد أمامه سوى أن يستدين، أو أن يبيع محصوله الشتوى قبل أن ينضج، ويستغل السماسرة والتجار «ومعظمهم من الأجانب» حاجة الفلاح الملحة إلى المال ليشتروا منه محصوله الشتوى ببخس الأثمان.. وسرعان ما يقبل الخريف ويحتاج الفلاح إلى زراعة المحاصيل الشتوية فيضطر إلى أن يشتري من التجار ما باعه لهم بالأمس.. لكنه يشتريه بسعر أعلى بكثير.

ويؤكد أحد الاقتصاديين الأجانب أن الفلاحين كانوا يخسرون فى فروق الأسعار هذه مبلغا يصل إلى مليون جنيه سنويا عندما يشترون فى أكتوبر ما باعوه فى مايو^(٢). أما الطريقة الثانية فهى أن يستدين مبلغا بالربا.. وفوائد الربا خيالية ٥٪ شهريا، أى ٦٠٪ سنويا.. وإذا لم يرد أن يلجأ للمرابى فأمامه الاستدانة من بنوك الرهون العقارية، التى اتسعت أعمالها كثيرا فى تلك الأيام.

والحقيقة أن نظام المحاكم المختلطة قد شجع كثيرا على انتشار رهن الأراضى، فهى من ناحية أتاحت للفلاح أن يقدم أطيانه كضمان قانونى للدين.. ومن ناحية أخرى أتاحت للدائنين الأجانب سهولة بالغة وحقوقا واسعة فى بيع الأطيان المرتبنة.

وتتراكم الديون بصورة مخيفة يوضحها الجدول التالى^(٣):

عدد الملاك المدينين	جملة الأرض المدينة بالفدان	جملة الدين على مالكى الخمسة أفدنة فأقل	جملة الدين على كل فدان قرشا جنيه
٦١٩.١٠	٦١٩.٢١٤	١٦.٩٩٠.٦٦٠	٨٧ ٢٥

وكان طبيعياً أن يعجز الفلاح عن السداد، وتبلغ متأخرات الفلاحين لدى البنك الزراعى وحده ٤١٦,٨٨٧ جنيهها فى يناير ١٩١٠، ويباشر هذا البنك وحده إجراءات التقاضى لنزع ملكية الأرض من ٢٥٤٤ مديناً^(٤).

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فهناك نكبات أخرى..

فمواشى الفلاح يحصدها الطاعون البقرى بصورة لم يسبق لها مثيل، وكان معدل الخسائر فى المواشى من هذا المرض ١٠٠ رأس فى الأسبوع، وقد بلغت الخسائر فى عشر سنوات (١٩٠٧-١٩١٧) ٤٠,٠٠٠ رأس قيمتها ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه^(٥).

كذلك تلاحق دودة القطن المحصول الرئيسى للبلاد وتتلف فى عام ١٩٠٤ ما قيمته مليون جنيه «وافتقر لذلك عدد كبير من صغار الفلاحين وهلكوا هم وأسرههم جوعاً، وانتابت الفلاحين مثل هذه النائبة فى عامى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ فقد قيل: إنهم خسروا فى العامين المذكورين ٨ مليون جنيه».

بل إن الكارثة تكمن فى الهبوط المستمر فى إنتاج الفدان «فقد دلت الإحصائيات الرسمية على أن متوسط محصول الفدان من القطن فى عام ١٩٠١ كان خمسة قناطير وكسور، ثم هبط فى ١٩٠٢ إلى ٤,٥٨ ثم هبط مرة أخرى فى ١٩٠٤ إلى ٤,٣٩، ثم استمر الانخفاض فبلغ فى سنة ١٩٠٥ إلى ٣,٠٨ وفى سنة ١٩٠٦ هبط إلى ثلاثة قناطير فقط»^(٦). لكن كل هذه الكوارث كانت تهون إلى جانب الكارثة الكبرى «السلطة العسكرية».

حيث ساق المحتلون مليوناً من الفلاحين والعمال المصريين ليعملوا تحت سوط الإرهاب فى خدمة جيوش المحتلين فى سيناء وفلسطين وسوريا وأماكن أخرى كثيرة. والحقيقة أن قصة هؤلاء الرجال الذين ذهبوا بأعداد غفيرة، وعاد منهم القليلون، تستحق هى أيضاً مزيداً من الدراسات التاريخية والفنية والدرامية.

ولست أريد أن أطيل هنا، لكننى سأكتفى بوصف أوردته جريدة إنجليزية لعملية السخرة هذه، فقالت «وضع نظام للتطوع ظهر عدم كفايته فصدرت الأوامر بأخذ العمال من الحقول بالإكراه، والطريقة هى أن يدخل رجال الحكومة القرية وينتظرون رجوع الفلاحين إلى منازلهم فى الغروب فيحيطوا بهم وينتقوا خيرهم للخدمة، فإذا رفض أحدهم هذا التطوع الإجبارى جلد حتى الإقرار بالقبول، وعلى هذا النحو ساقوا صبياناً من سن أربعة عشر عاماً وشيوخاً فى السبعين.. وكانت الجموع المريضة المنهكة تساق لتأدية

الأعمال الحربية والكرباج كفيل بتسخيرهم من غير حساب.. وأصبح الجلد من الأعمال اليومية، وكان المكلفون بالجلد هم الأطباء أنفسهم حتى أن المرضى كانوا يخافون أن يختلط الأمر فينقلوا خطأ من طابور المحتاجين للعلاج إلى طابور المحكوم عليهم بالجلد...»^(٧).

والآن ماذا بقى للفلاح سوى أن يتمرد..؟

هذا الفلاح الذى خاض عشرات الهبّات المسلحة، والذى أثبت دوماً أن إحساسه الطبقي أكثر حدة مما يتصور الكثيرون، والذى سارع ليحتضن ثورة عرابي ويحولها إلى ثورة فلاحين يقوم رجالها بتوزيع أرض كبار الملاك.

هذا الفلاح لم يكن ممكناً أن تقوده شعارات معتدلة، ولا أساليب غير ثورية.. ربما كانت تنقصه القدرة على المبادرة، لكنه ما إن اشتعلت أحداث الثورة حتى مارس العنف الثوري إلى أقصى مداه.. إلى الحد الذى أزعج قادة الوفد أنفسهم وجعلهم يصرون بيانا يقول: «إن الاعتداء على الأنفس أو على الأملاك محرم بالشرائع الإلهية والقوانين الوضعية.. وإن قطع طرق المواصلات يضر أهل البلاد ضرراً واضحاً، إذ يحول بينهم وبين مباشرة مصالحهم ويوقف حركة نقل المحاصيل والأرزاق.. ومثل هذا العمل يضيع على المصريين ما ينتظرونه من عطف عليهم»^(٨).

وكان طبيعياً أن ينزعج قادة الوفد من حركة الفلاحين هذه.. فالحقيقة أن الثورة قد تحولت على أيدي الفلاحين البسطاء من مجرد حركة وطنية إلى معركة طبقية يقف فيها الفلاحون المسلحون ضد الاحتلال وضد كبار الملاك معا.

وفى كثير من الأماكن التى أعلنت التمرد المسلح كان السلاح يوجه ضد الإنجليز والأغنياء معا.

ويحاول فكرى أباطة - وهو من رجال الحزب الوطنى - أن يصف أحداثاً شاهداً فى مديرية أسيوط، فيقول: «ويزحف البؤساء العزل زحف الأسود الكاسرة على مستودعات الذخيرة المحلية وعلى سلاح البوليس فيتخاطفونه تخاطفاً، ويتقلدونه فارغاً ومملوءاً.. ويتكون فى لمح البصر جيش الثورة من أصحاب الجلابيب»^(٩).

ويرتعد الأجانب ويرتعد معهم كبار الملاك، فالفلاحون المسلحون شىء مخيف حقاً. «فالببوت الكبيرة أوصدت أبوابها وأوقفت حولها الحراس خوفاً من الثورة.. الثورة ضد

الإنجليز، والثورة ضد الثروة.. نعم كانت هناك حقا ثورة ضد الإنجليز يقودها بعض المتنورين.. وثورة ضد الثروة يقودها الأشرار الفقراء».

لكن ثورة الفقراء ضد من؟

«كانت صفائح البنزين تكوم على محاذاة جدار القصر - قصر محمد محمود باشا أحد قادة الوفد المنفيين إلى مالطة - ويوشك الثائرون أن يشعلوها بعيدان الكبريت.. وقلت لهم: هذا قصر محمد محمود.. ولأجل حريته وحرية بلاده ثرتم.. وقال وحش من الوحوش: اسكت.. هل وزع محمد محمود أرغفة العيش على الجائعين؟ نحن طلاب قوت..

وكانت صدمة لي.. خلط عجيب بين طلاب الاستقلال وطلاب القوت.. وخلط غريب بين الكفاح الوطني والاشتراكية السانجة»^(١٠).

ولقد تعمدت أن أروى القصة كاملة، ليس فقط لأوضح الأساس الطبقي لحركة الفلاحين.. وإنما أيضا لكي أوضح مدى عزلة ونفور رجال الحزب الوطني من هذه الحركة الطبقيّة.

وثمة رواية أخرى يرويها واحد من رجال الحزب الوطني أيضا، هو عبد الرحمن الرافعي.

وكان يعود أثناء الثورة من القاهرة إلى بلدته في قارب بالنيل، بعد أن قطعت خطوط المواصلات.. ويصف حالة القرى التي مر القارب بجوارها، فيقول «شاهدنا معالم الثورة، فكنا نسمع نداءات: لتحي مصر.. ليحي الاستقلال.. لتحي الثورة.. واسترعى سمعى بوجه خاص نداء كنت أسمعه بين حين وآخر (ليحي العدل) وقد تساءلت أولا عما يقصد من هذا النداء؟ وهل ظنونا قضاة جننا بينهم بالعدل؟ ثم أدركت شعورهم الحقيقي وأنهم لا يطلبون العدل لأنفسهم بل يطلبونه لمصر»^(١١).

ولقد كانت الثورة عنيفة أكثر مما يتصور الكثيرون، وأكثر بكثير مما صور المؤرخون، فلقد قدم الفلاحون ثلاثة آلاف شهيد (وفقا لإحصاء الرافعي).

وإن كان هارموث وكيل الخارجية البريطانية قد قال في بيان له أمام مجلس العموم أنهم ١٠ قتلى فقط و ١٦٠٠ جريح و ٣٧٠٠ سجين أعدم منهم ١٤٩ شخصا وحكم على ٤٧ بالأشغال الشاقة المؤبدة»^(١٢).

وقد قدم الفلاحون بطولات خرافية، فقد حاربوا قوات الاحتلال بفئوسهم وأنزلوا بها هزائم منكرة، واضطروها إلى أن تستعمل الطائرات الشراعية فى إلقاء قنابل حارقة عليهم (فى منطقة دير مواس وديروط).. وفى دير مواس هذه قبض على ٥١ شخصا بتهمة قلب قطار عسكرى وقتل ثمانية من ضباط وجنود الاحتلال وحكم على ٢٤ شخصا بالإعدام.. وظلت سلطات الاحتلال تطلب إلى المحكوم عليهم أن يطلبوا العفو عنهم- مجرد طلب- يلغى على أثره حكم الإعدام.. ورفض الفلاحون الأبطال، وأعدموا.

ومذابح أخرى كثيرة فى تفهنا العزب وميت القرشى، وعشرات من القرى الأخرى.. كل هذا والفلاحون يواصلون الثورة، بل ويعلنون تشكيل جمهوريات مستقلة فى زفتى والمطرية وفارسكور والمنيا.. معلنين تمردهم ليس فقط على الاحتلال، وإنما أيضً على النظام الملكى كله.. والحقيقة أن سلوك قادة هذه الجمهوريات خلال فترة استقلالها كان سلوكا يستحق الإعجاب، ويدل على وعى طبقي راق يعبر عن أحلام الفلاحين فى مجتمع جديد.. ففى جمهورية زفتى أصدرت «لجنة الثورة» وهذا هو اسم قيادة الجمهورية التى انتخبها الفلاحون فى اجتماع عام- سلسلة من البيانات يقول أحدها «لابد من حماية الأمن من كل عابث، ولا بد من تحقيق العدالة لكل ساكن، ولا بد من إقامة منشآت جديدة...».

واحتشدت جموع المتطوعين من الفلاحين لتردم البرك والمستنقعات المحيطة بالمنطقة، ولتصلح الجسور.. وتكونت فرق من الطلاب لحماية الأمن ونظمت دوريات لمراقبة الحدود، وكان عمر الجمهورية ١٩ يوما فقط لم يترك قادتها فيها حلما من أحلامهم إلا وحققوه.. حتى أنهم أقاموا كشكا تعزف فيه الموسيقى كل يوم.

وانزعجت السراى خوفا على النظام الملكى، وانزعج كبار الملاك من هذا التمرد الفلاحى الذى لا يهدد الاحتلال وحده.. وإنما يهدد النظام الاجتماعى من أساسه.

وأرسلت سلطات الاحتلال فرقة من الجنود الأستراليين لتحصن الجمهورية المتمردة.. وكان موقف لجنة الثورة من القوات الأسترالية دليلا على وعى عميق بحقيقة الحركة التى يقومون بها، فقد طبعوا منشورا باللغة الإنجليزية وزعوه على الجنود الأستراليين يقول لهم «أيها الجنود.. إنكم مثنا.. وإنما ننور على الإنجليز لا عليكم أنتم، إننا ننور من أجل الخبز والحرية والاستقلال»^(١٣).

الخبز والحرية والاستقلال؟! إنه شعار يختلف تماما عن شعار «المطالبة باستقلال مصر بالوسائل المشروعة» الذى رفعه الوفد.. يختلف فى المحتوى الطبقي، وفى الأسلوب.. وفى كل شىء..

وهكذا كان الفلاحون يتحركون فى الظاهر تحت قيادة الوفد، لكنهم فى الواقع كانوا يمارسون ثورتهم هم التى طالما حلموا بها.. الأمر الذى أزعج قيادة الوفد إزعاجا شديدا، ودفعها أكثر من مرة إلى إدانة التمرد المسلح واستنكاره.

أما رجال الحزب الوطنى، فقد شهدنا كيف أن أحدهم- وهو فكرى أباطة- وصف الفلاحين بأنهم وحوش وأشرار.. وأنهم يخلطون خلطا عجيبا بين الكفاح القومى والاشتراكية السانجة.

وإذا كان الفلاحون بحكم تكوينهم الاجتماعى قد صبروا حتى تندلع الثورة كى يعلنوا تمردهم المسلح، فإن العمال- بحكم تكوينهم الاجتماعى أيضا- لم ينتظروا بل رفعوا شعارات النضال عالية منذ فجر القرن العشرين.

الهوامش

- (١) الأهرام - ١٨٩٢/١٢/٢٢.
- (٢) عبد الرحمن الرافعي- نقابات التعاون الزراعية- ص١٧٦٦.
- (٣) كتشنر- التقرير السنوى لعام ١٩١٢- ص٢٥.
- (٤) كتشنر- تقرير عام ١٩١٠.
- (٥) عزيز خانكي- شئون مصرية- ص٣٥٠، ٣٤.
- (٦) روشتين- المرجع السابق- ص٤٥٦.
- (٧) أحمد بهاء الدين - مرجع سابق- ٨٩.
- (٨) صبيح- مرجع سابق- ص٣٩٢.
- (٩) فكرى أباطة- الضاحك الباكي- ص٤٣.
- (١٠) المرجع السابق- ص٤٥.
- (١١) الرافعي- مذكراتي- ص٣٥.
- (١٢) صلاح عزام- مارس ١٩١٩ الدامى والفلاحون- ص١٤.
- (١٣) المرجع السابق- ص٣٩.

النضال النقابى والسياسى للطبقة العاملة

والحقيقة أن أهمية حركة الطبقة العاملة فى ذلك الحين تكمن فى أنها كانت معلما للشعب كله، وملهما لعدد من الفئات الأخرى التى رأت الطبقات الأخرى وهى تتهاوى تحت ضربات الاحتلال..

وطوال السنوات العشر الممتدة من ١٩٠٩ حتى ١٩١٩ كان الكثير من الأصوات قد تلاشى، وكان الصوت الأعلى هو صوت الإضرابات العمالية والاعتصامات ومظاهرات العمال العاطلين التى أثرت فى كثير من المثقفين ولفقت انتباههم نحو فكر جديد وطبقة جديدة لم تستسلم ولم تهادن ولم تهرب من ميدان الكفاح.

من هذه الزاوية يتعين تقييم دور الحركة العمالية فى ذلك الحين.. ومن هذه الزاوية يتعين دراستها..

ولسنا نستطيع أن نقدم دراسة واقية عن هذا الموضوع، لكننا سنكتفى بخلاصة سريعة^(١).

والحقيقة أن الطبقة العاملة كانت تعاني من ظروف غاية فى القسوة. فالأجور منخفضة إلى حد لا يصدق.. كان أجر العامل غير الفنى بالمحالج ثلاثة قروش يوميا، وأجر عامل

الترام ٨ قروش يوميا.. هذا مقابل ساعات عمل يومية تبلغ ١٣ ساعة فى مجال النقل و١٧ ساعة فى محالج القطن و١٦٦ ساعة فى المطابع^(٢).

ذلك فى الوقت الذى ارتفعت فيه الأسعار ارتفاعا فاحشا، فقد ارتفع ثمن نصف كيلو اللحم من قرشين إلى أربعة قروش، وارتفع سعر أردب القمح من ١٤٥ قرشا إلى ١٥٠ قرشا بالإسكندرية وبلغ ٢٤٠ قرشا بالأرياف، وارتفع سعر الفول من ١٢٥ قرشا إلى ١٤٠ قرشا.

كما ارتفعت أجور المنازل بنسبة ١ : ٩.. وهكذا^(٣).

وحاول العمال أن يلفتوا أنظار الرأى العام إلى قضيتهم، وأمطروا الجرائد برسائل تشرح حالتهم وبؤسهم. وكتب أحد عمال السكة الحديد إلى جريدة الأهرام يقول:

«إن أعمال مصلحة السكة الحديد صعبة جدا وخطرة للغاية، وعمالها جميعا محفوفون بالأخطار، والوردية تمكث ١٢ ساعة متوالية.. وإذا مرض أحدهم لا يجد طبيبا ولا دواء حتى يموت»^(٤).

وعامل آخر من شركة الترام يبعث برسالة فى الأهرام بتوقيع ن. ف. محب للإنسانية، تقول:

«إن شركة ترام القاهرة تشغل عمالها أكثر من ١٤ ساعة فى اليوم وتنقده مرتبا ثنين جنيه فى الشهر، وإذا مرض يوما من شدة التعب والسهر والقيام المبكر تخصم منه أيام الانقطاع وتأمّر بإيقافه ورفته لأسباب واهية.. إن شركة مثل هذ لا تسرق أوراقا ولا تختلس مليما واحدا، ولكنها تسرق أرواح العمال وتتسبب فى قصف حياتهم.. إن العمال كثيرا ما قدموا شكواهم ولا حياة لمن تنادى، فلا الشركة تجيب ولا الحكومة تصغى.. ولو كان لهؤلاء العمال وأمثالهم بمصر جمعيات أو أحزاب لما كانت الشركة تعاملهم هذه المعاملة السيئة، ولخشيت من بأسهم»^(٥).

ولعل هذه الرسالة توضح - إلى حد ما - وعيا طبقيًا وفهما لأهمية التنظيم النقابى والسياسى فى تقوية نضال العمال ودعم حركتهم.. والحقيقة أن الطبقة العاملة قد بادرت منذ مطلع القرن إلى تكوين سلسلة من النقابات والجمعيات لتوحد دسوفوها..

وفى سرعة غريبة تكونت عشرات النقابات والجمعيات.. نقابة عمال السجاير ١٨٩٩، اتحاد عمال الخياطين ١٩٠١، نقابة الحلاقين ١٩٠١، جمعية عمال المطابع ١٩٠١، جمعية

عمال الأدوات المعدنية ١٩٠٢، جمعية كتبة المحامين ١٩٠٢، وفيما بعد تشكلت نقابة عمال الصنائع اليدوية ونقابة عمال الترام ونقابة عمال السكة الحديد^(٦).

بل إن الأمر قد وصل إلى حد تكوين جمعيات سرية عمالية مثل «الجمعية السرية لبؤساء السكة الحديد».. وقد تصدت هذه الجمعية لقيادة عدة إضرابات واعتصامات ضد تعسف الإدارة.

وفي ١٣ أغسطس ١٩٠٨ عندما أصدرت مصلحة السكة الحديد منشورها رقم ٤٥٧ الذى يقضى بالعمل يوميا لمدة ١٢ ساعة متواصلة يعقبها ١٢ ساعة راحة^(٧)، تقدمت هذه الجمعية على الفور لقيادة العمال وإذا بتلغرافات ذات صياغة موحدة تنهال على الإدارة والصحف.. تقول:

«منشور الإدارة نمرة ٤٥٧ صارم وغير مستطاع.. نرجو تقليل ساعات العمل وتحسين رواتبنا، ولا نهدأ حتى ننال مطالبنا...».

وتشكلت قيادة سرية الإضراب وحددت قائمة بالمطالب التى يناضل العمال من أجلها.. ومن بينها:

١- ٨ ساعات عمل بدلا من ١٢ ساعة عمل (وهى أول مرة يرفع فيها شعار ٨ ساعات عمل).

٢- يوم راحة فى الأسبوع.

٣- تحسين الماهيات والرواتب بقدر صعوبة الأعمال.

٤- الامتياز فى المعاش بحسب صعوبة وخطر الأعمال.

٥- ترقية العمال بحسب الأقدمية.. وليس بالخواطر.

وفى منتصف شهر أكتوبر، عندما حاولت المصلحة الانتقاص من حقوقهم مرة أخرى، قرر العمال الإضراب يوم ١٨ أكتوبر مطالبين بالمطالب السابقة.

وأمام وحدة العمال وتنظيمهم.. تراجعت الإدارة ومنحت العمال بعض ما يطلبون.

وفى نفس الوقت كان عمال الترام يعدون العدة لإضراب كبير حددوا له أيضا يوم ١٨ أكتوبر.. وهذا التحديد ذو دلالة واضحة، فهو يعنى تفهم العمال لأهمية وحدتهم النضالية، وهو يوحى بجنين فكرة الإضراب العام.

ومنذ يوم ٤ أكتوبر صاغت لجنة عمال الترام مطالبها ووزعتها على الصحف^(٨).

وتتلخص فى «خفض ساعات العمل إلى ثمانى ساعات فى اليوم بدلاً من ١٢ ساعة، زيادة المرتبات بنسبة ٤٠٪ مع زيادتها مرة كل عام، ومنح العمال إجازة فى حالة المرض وإجازات اعتيادية سنوية، وإعادة العمال المفصولين إلى العمل، وتآليف لجنة للتحقيق فى شكاوى العمال على أن يمثل فيها العمال».

وقام العمال بإخطار الشركة ومحافظة القاهرة بمطالبهم، معلّنين عزمهم على الإضراب إن لم تجب مطالبهم، محددين يوم ١٨ أكتوبر موعداً لإضرابهم.. وإذا كان البوليس قد تمكن من تصفية الإضراب بالعنف وباعتقال ٧٢ من قادة العمال، فإن عمال الترام قد حققوا مطالبهم.. وقد لفتوا الأنظار إلى مطالب العمال.

والحقيقة أن العمال قد خاضوا قبل ذلك سلسلة من الإضرابات والاعتصامات.. ففى عام ١٩٠٠ أضرب العمال الإيطاليون بخزان أسوان، وفى نوفمبر ١٩٠١ أضرب عمال التريزية «فقد اجتمع العمال فى قهرة ألف ليلة وليلة بالأزبكية وكانوا قد أعدوا لهم علماً خاصاً، فأقسموا أمامه يمين الطاعة، وقرروا الإضراب عن العمل حتى يجابوا على طلبهم، وهو تعيين أجر على كل قطعة. وساروا فى مظاهرة يهتفون بحياة العدل وسقوط الظلم. فقبض رجال الشرطة على ٢٧ عاملاً، وزجوا بهم فى السجن، وأخيراً أجيب العمال إلى طلبهم، وانتهى الاعتصام»^(٩).

وفى أوائل ديسمبر ١٩٠١ أضرب عمال مصانع السجاير، وساروا فى مظاهرة عظيمة بجهة باب الحديد، ثم تجمعوا بعد ذلك فى شارع نوبار، فأرسلت المحافظة ثلاثين خيلاً لمطاردتهم وتفريق جموعهم فدارت معركة أصيب فيها كثيرون بجروح بليغة ولم يحقق هذا الاعتصام نتيجة، لأن مصانع السجاير فصلت العمال المشاغبين»^(١٠).

«وفى يناير ١٩٠٢ أضرب الحلاقون الذين يعملون عند أصحاب محلات الحلاقة، مطالبين بتخفيض ساعات العمل، وإعطائهم إجازة نصف يوم الأحد. واجتمع سبعون منهم فى شارع المهدى بالأزبكية، ومروا على محلات الحلاقة فى بعض الأحياء لتحريض عمالها على التضامن معهم، أما أصحاب محلات الحلاقة فقد رفضوا أن يجيبوا العمال إلى طلبهم بحجة أنهم يتكبدون خسائر، وبذلك انتهى الاعتصام إلى غير نتيجة»^(١١).

وفى يناير ١٩٠٢ أضرب عمال شركة الغزل الأهلية بالإسكندرية. وفى مارس ١٩٠٢ أضرب عمال مطبعة الكوربيري أجسيانو بالقاهرة.. وفى نفس الشهر أضرب عمال السجاير بالإسكندرية»^(١٢).

وفى أبريل ١٩٠٧ أُضرب عمال الفحم فى ميناء بورسعيد وتضامن معهم عمال ورش قناة السويس وعمال النظافة..

ومرة أخرى يعود عمال السكة الحديد إلى التمرد، وتنتشر اللواء خبرا يقول «اعتصام هایل فى عنابر السكة الحديد فى العاصمة».

وقد حدد العمال مطالبهم بعزل المستر بكيت وكيل المهندس المشرف على العنابر والنزى كان يعطيهم الأعمال بالمقولة بعد أن كانوا يشتغلون باليومية وطالبوا أيضا بزيادة رواتبهم كل ثلاثة أعوام وتأييف لجنة للنظر فى شكاوى العمال تضم ثلاثة منهم..

وفى صباح يوم الإضراب وضع العمال بيانات على جدران الورش تحدد مطالبهم وشعارات تقول «لا نريد بكيت» «لا نريد بكيت لأنه يظلمنا»..

وبدأ العمال أولى الخطوات الإيجابية بمنع القطارات من مغادرة العنابر وبقطع خطوط السكة الحديد.. لكن البوليس تدخل بوحشية لينهى الإضراب فى يومه الأول..

وفى أكتوبر ١٩٠٨ أُضرب عمال الترام، وجلسوا على الخطوط فى مخزن شبرا والعباسية والجيزة، وكانت مطالبهم تنحصر فى أن تكون مدة العمل ٨ ساعات بدلا من ١٣ ساعة، وزيادة المرتبات، وحققهم فى الإجازات الاعتيادية والمرضية.. وعدم جواز فصل العامل إلا بناء على أسباب معقولة، وأن يعفى العمال من دفع ثمن البدل والأحزمة والشنط والنمر النحاسية التى تصرفها لهم الشركة. وقد استعانت الشركة برجال البوليس الذين انهالوا على العمال المضربين بالعصى والكرابيج حتى أجلوهم بعيدا عن الخطوط ومن ثم خرجت عربات الترام يقودها سائقون كانوا يعملون بالشركة من قبل ثم فصلوا.. ولكن البوليس لم يستطع التغلب على المضربين فى مخزن الجيزة لما أبدوه من مقاومة عنيفة، وفى اليوم التالى توجه إليهم حاكمدار العاصمة على رأس قوة ضخمة من رجال البوليس وعربات الإطفاء وأوسعوا العمال ضربا ثم قبضوا على ثمانين منهم.. وبهذا انتهى الإضراب^(١٣).

وفى أكتوبر ١٩١٠ وعندما أضربت عنابر السكة الحديد يكتب صادق عنبر فى جريدة اللواء قائلا: «إن الاعتصام هو خير درس لحكامنا، يوقفهم على تطور فكر المصرى، ويظهره لهم بثوبه الجديد، ثوب العليم بمصلحته الحريص عليها، المتفانى فى المطالبة بها. وبتعبير آخر: إننا قد رأينا اليوم مظهرا من مظاهر الاشتراكية، لا يبعد أن يصير هلاله على توالى الأيام بدرا كاملا»^(١٤).

ولعلها المرة الأولى التى تشهد فيها الصحف المصرية هذا الربط الذكى والواعى بين الإضراب.. والمطالب العمالية والاشتراكية. ولعلها أيضا تكتسب دلالة مهمة، تلك الأمنية التى نشرتها جريدة اللواء.. بأن يصير «هلال» الاشتراكية «بدرا كاملا»..

بل إن مجلة محافظة وهى «الجريدة» كتبت هى الأخرى تقول «تسرى عدوى الأفكار كما تسرى عدوى العلل والأدواء، من فرد لفرد، ومن بلد إلى بلد، ويكون لها من النتائج فى كل بقدر ما تجد من الاستعداد فى نفوس الناس.. وإذا فكرنا فى اعتصام عمال الترامواى فى العاصمة ثم قيام زملائهم اليوم بالإسكندرية بإعلان اعتصام جديد، حكمنا، مع الاعتقاد التام، بأن ما يجرى هو نفحة من تلك الرياح الاشتراكية التى تجوب المعمورة بلدا بلدا»^(١٥).

ويكون مقال «الجريدة» تعبيرا عن الفزع من وصول الموجة الإضرابية إلى ذروتها فى عام ١٩١١ بأضخم إضراب شهدته البلاد وهو إضراب عمال الترام الذى بدأ فى ٣٠ يوليو ١٩١١ والذى نفذه ٤٠٠٠ عامل وموظف، وردا على هذه الوحدة الإجماعية أصدرت الشركة بيانا تطالب فيه العمال بالعودة للعمل خلال ٢٤ ساعة وإلا اعتبروا مفصولين وستعين الشركة بدلا منهم عمالا جدد، وقرأ زعماء الإضراب المنشور على العمال المضربين، فقرر الجميع رفضه والاستمرار فى الإضراب، ورابط العمال فى مجموعات عند مخازن عربات الترام ليمنعوا الشركة من تسييرها.

ويتميز هذا الإضراب بعدة ظواهر مهمة:

أولا: التنظيم الدقيق.

ثانيا: الوحدة الشاملة بين العمال..

ثالثا: وهذا هو المهم.. اهتمام قيادة الإضراب بأهتتام واعيا بكسب تأييد ومساندة الرأى العام.

وهكذا نظم العمال المضربون عددا من المظاهرات فى باب الحديد وبولاق والجيزة والعباسية وكانوا يحملون لافتات تقول «إن العمال المعتصمين يطلبون من الجمهور عد يد المساعد إليهم» كذلك كانوا يحملون صناديق لجمع تبرعات من المواطنين..

ويواصل العمال إضرابهم أياما عديدة كانت الشركة تخسر فى كل يوم منها ١٢٠٠ جنيه^(١٦). وفى اليوم الخامس أرادت الشركة أن تسيّر إحدى قطاراتها بالقوة تحت حماية البوليس واصطدم بها العمال وحدثت مصادمة عنيفة اشتركت فيها الجماهير التى تقدمت

لتحىى العمال المضربين من تعسف البوليس وإذا ما نجحت الشركة تحت حماية حراب البوليس أن تسير إحدى عرباتها على خط العباسية فى طريقها إلى العتبة وبينما خيل للجميع أن الإضراب قد فشل إذا بالجماهير تتقدم مرة أخرى لتساعد العمال المضربين «وخرج أهالى حى الحسينية وأوقفوا العربة وضربوا ركبها وأشعلوا فيها النار ولم يلبث هذا الأسلوب أن انتشر فى جميع الأحياء الشعبية كلما حاولت الشركة تشغيل أحد خطوطها وخاصة فى حى بولاق والعباسية وهكذا عجزت الشركة والبوليس عن تسيير الخطوط بفضل تأييد الشعب للعمال»^(١٧).

والحقيقة أن صدام العباسية هذا.. أو كما أسمته الصحف مذبة العباسية، قد أثار مشاعر الجماهير، وأن بسالة العمال قد ألهمت الكثيرين الشجاعة وتقدم الكثيرون لإدانة الحكومة والبوليس وارتفع أكثر من صوت دفاعا عن حقوق العمال..

وتكتب اللواء قائلة «أحدث البوليس مجزرة فى العمال، وداس الشعب فى ساحات المدينة بسنابك خيله، وأوسع ضربا وإغراقا بالدماء وعامل الجمهور معاملة السيد لعبيده، وداس القوانين فلا نعلم لم نكست نحن ونقف عند الحدود التى لا تقف عندها الحكومة والبوليس والشركات؟. هم يدوسون النظام وينتهكون حرمة القوانين ويعاملون الشعب معاملة العبيد فلا نعلم نحن لماذا لاندوس - ولو مرة وعلى الورق - على ذلك الظلم الفاضح والهمجية، ولذلك نقول للعمال: إنهم يخيفونكم ويرهبونكم ويريدون التهويل عليكم لظنهم أنكم من غير طينة العمال فى أوروبا وأنهم إذا عاملوكم بالشدة جبنتم وخضعتم، وتستمر الشركة فى حلب البقرة الحلوب والبوليس يمسك رأسها تسهيلا لحلبها، ولكن فاعلموا أن الاعتصام حق من حقوقكم الطبيعية وإذا أردتم الاستمرار فيه فما من قوة قادرة على التأثير عليكم. إن قضيتكم ليست قضية عمال الترام فقط بل هى قضية جميع العمال فى مصر.. وقد جاءت حادثتكم بعد حادثة عمال السكة الحديد دليلا على أنه أصبح فى مصر قوة لا يستهان بها وهى يقظة العمال فى البلاد الشرقية وتنبيههم إلى مصالحهم وحقوقهم ورغبتهم فى أن يكونوا بشرا كسائر البشر»^(١٨).

ويواصل الشعب فى كل مكان تأييده للعمال المضربين وتنهال برقيات الاحتجاج على الصحف: برقية من أهالى دمنهور تقول: «العدل يندب حظه وملاك الرحمة ينتحر على ربوة الأهرام من إجراءات البوليس إزاء عمال الترام»..

وبرقية من طنطا تقول: «نطلب من ناظر الداخلية أن يعين بوليسا جديدا لمراقبة البوليس فى أعماله، قد أصبح الناس فى مصر بحاجة إلى الحماية.. وإلا اضطروا للدفاع عن أنفسهم».

وبرقية أخرى بتوقيع فلاح تقول.. «إن الشعب أصبح يكره البوليس لهذه الأفاعيل بعد أن كان يظن أن البوليس حماية له».

وقد وجه العمال المضربون نداء إلى عمال المرافق العامة لمساندتهم فى إضرابهم والإضراب تضامنا معهم.. وفى ٦ أغسطس أعلن عمال ترام الإسكندرية إضرابهم التضامنى..

وعندما انتشرت موجة البطالة بين العمال عامى ١٩١٤ و ١٩١٥ كانت مظاهراتهم العاصفة تهز القاهرة والإسكندرية.

وفى يوم ٢١ أغسطس ١٩١٤ تجمهر بالإسكندرية ١٥٠٠ من العمال العاطلين يطلبون «قوتا أو عملا».. وفى يوم ٣ سبتمبر ١٩١٤ اجتاحت القاهرة موجة عارمة من مظاهرات العمال العاطلين الذين ساندتهم جماهير الشعب أو كما اسمتهم بيانات الحكومة «بالراع».. وتصدى البوليس لهم وقبض على ١٥٠ شخصا..

والذى يوضح انتشار هذه الموجة من الإضرابات أن النيابة قسمت المتهمين إلى ثلاث قضايا.. قضية مظاهرة درب الأحمر والخليفة، وقضية مظاهرة بولاق وقضية مظاهرة الجمالية وباب الشعرية^(١٩).

بل إن العمال لم يكتفوا بذلك فقد حاولوا أن يؤسسوا حزبا لهم..

وفى ١٢ يوليو ١٩٠٨ نشرت كل من الأهرام واللواء بيانا عن دعوة عامة يوجهها «حزب المقاصد المشتركة للعمال» ويقول البيان «إن محمد أحمد الحسن أحد مؤسسى الحزب قد قرر إلقاء خطبة عمومية فى حديقة الأزبكية موضوعها وجوب انضمام أصحاب الحرف المصرية والأجنبية على اختلاف طبقاتهم إلى حزب مشترك المنافع.. ليتكون منه جماعة قوية مسموعة الرأى والصوت فى الأعمال النافعة.. وإقامة جريدة يومية «الوضاح» لسان حال للحزب»..

ولعلها لم تكن المحاولة الأولى لتأسيس حزب اشتراكى..

ففى مارس ١٩٠٨ نشرت جريدة الإقدام تحت عنوان «حزب الاشتراكيين» تقول: «علمنا

أنه قد تأسس هذا الحزب برئاسة الدكتور شبلى شميل، وعضوية كل من الدكتور شدوى، وسامى أفندى جريدينى وتوفيق حبيب، ونجيب أفندى أبكاريوس، وغرضه كبح جماح الغنى العاتى ليكف عن دوس الفقير بقدميه»^(٢٠).

وإذا كانت محاولة المثقفين الشوام هذه لم يكتب لها الاستمرار، فإن محاولة العمال المصريين قد وجدت فيما يبدو سبيلا للاستمرار ولو لبعض الوقت.. وعبرت عن نفسها وعن وجودها بشكل أو بآخر.

فعندما صدر قانون المطبوعات فى ١٩٠٩ نشرت الأهرام بيانا صادرا عن هذا الحزب يقول «بالنيابة عن حوالى خمسين ألفا من العمال نحتج إلى ظهور قانون المطبوعات القاتل للحرية ونطلب إلغاءه وسوف يحتج العمال احتجاجا فعليا إذا لم تتدارك الحكومة الأمر وتحترم صوت الشعب»^(٢١).

وفى ١٦ يوليو ١٩٠٩ نقرأ فى الأهرام بيانا عن محاولة جديدة لتأسيس حزب للعمال والبيان بتوقيع محمود أبو عثمان ويقول «كلنا يعلم مركز العمال فى أوروبا، فالعامل هناك لا فرق بينه وبين القاضى والمحامى. ولما كان الإنسان من فطرته الطبيعية ميالا إلى الارتقاء قام جماعة من خيار عمال المصريين الذين يقدرون الأشياء وأسسوا حزبا باسمهم ليربط كلمتهم..».

ويقول البيان «إن الجلسة الأولى انعقدت وحضرها جمع غفير من العمال والوجهاء وإن الحزب انتخب السيد أفندى على مديرا له، والسيد محمد أحمد الحسن رئيسا..» (وهو مؤسس الحزب الأول).

والحقيقة أن صحف هذه الفترة لا تحمل لنا أخبارا ذات قيمة عن هاتين المحاولتين لتأسيس حزب عمالى..

لكن ثمة مسألة مهمة يتعين الإشارة إليها.. هى أن السيد أفندى على مدير الحزب قد ظهر اسمه من جديد عام ١٩٢٠ كصاحب لمجلة «النظام» وهى مجلة ذات ميول يسارية وإن كانت تميل إلى الوفد، وثمة مسألة مهمة أخرى هى أن أحد محررى مجلة «النظام» هذه هو رفيق جبور. وسوف تشهد فصولا قادمة من هذه الدراسة دور رفيق جبور كواحد من قادة الحزب الشيوعى وك رئيس لتحرير مجلة الحساب التى أصدرها الحزب عام ١٩٢٥.

وهنا يتعين علينا أن نسأل أنفسنا هل يمكن أن نربط بين محاولة السيد أفندى على لتأسيس حزب عمالى عام ١٩٠٩ وبين علاقاته باليسار وبرفيق جبور على وجه التحديد.

ولسنا نستطيع أن نقدم إجابة دقيقة لكننا نطرح السؤال كواحد من الاحتمالات التي يتعين البحث الدقيق عن إجابات واضحة لها..

كذلك أدرك العمال أهمية الصحافة كسلاح فى معركة الدفاع عن مصالحهم الطبقيّة وفى عام ١٩٠٨ صدرت «الوضاح» جريدة حزب العمال.. وفى نفس السنة صدرت مجلة عمال السكة الحديد وفى عام ١٩١٢ صدرت فى طنطا مجلة «التعاون» معلنة أنها تبحث وراء منفعة العامل..»^(٢٢).

والحقيقة أن الطبقة العاملة كانت بسعيها المتواصل ونضالها المستمر تقدم نموذجا فريدا فى مجتمع شهد عديدا من الطبقات تمر من ميدان المعركة ضد الاحتلال، وعديدا من الأحزاب تنشأ ثم تنهار. وخلال السنوات المظلمة التى تلت إعلان الحماية وطوال الفترة التى نجح فيها الاحتلال فى تكميم كل الأفواه.. كان ثمة صوت يرتفع أقوى وأقوى هو صوت الطبقة العاملة.. التى استطاعت أيضا أن تلهم كثيرا من المثقفين الثوريين الشجاعة والقدرة على التطلع نحو فلسفة جديدة ونظرية جديدة للعمل الثورى والوطنى..

إن نضال الطبقة العاملة الجاد والمتواصل والذى اتسم بصبغة طبقية واضحة كان نموذجا جديدا استطاع أن يقدم البديل عن التهاون والقرار وحالة التمزق والضياع التى عانى منها كثير من المثقفين.

ومع ارتفاع رايات النضال العمالى ارتفعت جنبا إلى جنب صيحات عديد من المثقفين الثوريين معلنة فى دوى كلمة الاشتراكية..

وهذه هى القيمة الأساسية للنضال العمالى فى هذه الفترة، لقد كان مدرسة حقيقية لجيل من المثقفين.

ولعل هذه الحقيقة هى التى أزعجت الرجعية المصرية من الإضرابات العمالية ففى عام ١٩٠٢ تهاجم مجلة «الجريدة» - لسان حال حزب الأمة- فكرة الإضراب وتصفها بأنها «داء جديد جلبه الغرب إلى الشرق، وهذا هو مبدأ الفوضى وأول مراتبها»..

وفى نفس العام تقول الأهرام عن العمال المصريين المضربين «إنهم يقلدون العمال الأوروبيين تقليد القردة ولكنه تقليد فاسد ومضر بهم»..

وفى عام ١٩٠٨ وعقب إضراب عمال الترام تهاجم «المقطم» -لسان حال الاحتلال- الحكومة على تهاونها إزاء هذه الطبقة قائلة:

«إنه إغفال شديد لا يقبل فيه عذر لمعتذر، ولا يدعو الناس للاطمئنان بعد الآن، إن قيام العمال بالاتفاق السرى فيما بينهم على الإضراب ودن علم الحكومة وبوليسها العلنى والسرى وعيونها وأرصاها لأمر خطير.. فماذا يمنع أن يدبر العمال المكاييد والمؤامرات ليضرموا فى البلاد نيران الثورات قبل أن تعلم الحكومة بأمرهم».

وهكذا تتيقظ الرجعية منذ الوهلة الأولى وتترك خطر حركة العمال وتترك مغزاها الطبقي، بل إن «الجريدة» تصف إضراب عمال السكة الحديد بأن فيه «شىء من روح الاشتراكية».

.. وثمة مقال آخر نشرته الجريدة بقلم يوسف البستاني بعنوان «بين مصر وأوربا على ذكر الاعتصام الأخير»^(٢٣) جاء فيه:

«إن التشبه بالمتطرفين الأوربيين فى مقاومة الحكومة وبال على العامل وعائلته».

ثم نشطت الحكومة لتسن سلسلة من التشريعات منها قانون التجمهر وقانون التشرد الذى يمكّنها من فصل أى عامل، ثم تطبق عليه هذا القانون باعتباره عاطلا لا عمل له.

.. وبدأت السلطات فى اعتقال ونفى القادة النقابيين.. ومن بينهم أحمد لطفى عضو شرف نقابة عمال الترام، وأحمد رمضان زيان رئيس نقابة الصنائع اليدوية بالإسكندرية، ومحمد عوض جبريل سكرتير نفس النقابة.. وعشرات غيرهم.

لكن ذلك كله لم يكن قادرا أن يوقف الزحف المجيد للطبقة العاملة التى أكدت التجارب أنها أصلب الطبقات وأكثرها ثباتا فى مواجهة سلطات الاحتلال.

وهكذا تأتى ثورة ١٩١٩ لتجد جيش العمال مستعدا ومجهزا ليخوض غمارها، وإذا كان أبناء الفئات العليا هم الذين قاموا بالمواجهة الأولى من أجل السعى للاستقلال بالوسائل المشروعة فإن العمال قد انطلقوا بالثورة إلى أقصى مداها.. وتاما كما فعل الفلاحون امتزج صراعهم ضد الاحتلال بصراع طبقي واضح المعالم.

وقد بدأ الطلاب الحركة بمظاهرة صاخبة تصدى لها البوليس، وفى اليوم التالى دخل العمال المعركة.. دخلوها بعد أن ارتعدت قيادة الوفد من الانتفاضة الثورية، وبعد أن صاح عبد العزيز فهمى فى المتظاهرين «إنكم تلعبون بالنار.. دعونا نعمل فى هدوء ولا تزيدوا غضب الإنجليز» لكن العمال يلهبون الثورة ويثيرون إلى أقصى حد غضب الإنجليز..

وفى يوم ١٢ مارس ١٩١٩ بدأ عمال الترام وعمال المترو وعمال ترام هليوبوليس إضرابهم الكبير الذى شل حركة المواصلات تماما فى العاصمة والذى استمر حتى ٢

مايو.. ولقد ارتبط الإضراب بالأهداف العامة للثورة لكنه ارتبط فى نفس الوقت بمطالب اقتصادية تتضمن:

١- جعل الأجرة اليومية خمسة عشر قرشا.

٢- أن تقدم الشركة الملابس للعمال مجانا.

٣- أن تكون مدة العمل ثمانى ساعات يوميا.

٤- يمنح كل عامل راتب شهر سنويا.

٥- عدم اضطهاد العمال النقابيين.

- يوم عطلة كل أسبوع.

٧- منح علاوة غلاء معيشة ٣٠٪.

ومطالب أخرى عديدة..

وكانت أهم نتائج هذا الإضراب هى استجابة الشركات لبعض هذه المطالب، وتكوين نقابة عمال الترام.. التى جاء فى المادة الأولى لقانونها الأساسى أنها تأسست «للدفاع عن حقوق أعضائها وترقية حالتهم المادية والأدبية، وتقديم كل مساعدة ممكنة لهم بالطرق المشروعة»^(٢٤).

وفى ١٥ مارس أعلن عمال عنابر السكة الحديد الإضراب وساروا فى مظاهرة صاخبة قوامها ٤٠٠٠ عامل، واستمر الإضراب حتى ٢ مايو.

وفى ١٨ مارس انضم عمال المطبعة الأميرية إلى المضربين وسارت مظاهراتهم تهب شوارع العاصمة، واستمر الإضراب حتى شهر مايو أيضا..

وفى ٦ أبريل انضم عمال شركة الغاز إلى المضربين متقدمين أيضا بمطالب اقتصادية..

كذلك أضرب عمال الكنس والرش فى العاصمة.. وبعد أن استمر إضرابهم عدة أيام قاموا بإعلان مطالب اقتصادية، أعلنوا أنهم لن يعدلوا عن الإضراب دون تحقيقها.

كذلك أضرب عمال ورشة البوستة الخديوية وعمال ورش جبل الزيتون التابعة لمصلحة السكة الحديد وسائقو وعمال السكك الحديدية.. وبهذا شلت كافة مظاهر النشاط فى البلاد، وكانت التجربة الأولى لإضراب عام شامل يستمر أكثر من شهر ونصف يشل الحركة الاقتصادية تماما ويوقف كل مظاهر النشاط فى البلاد.

والظاهرة الأساسية التى تلفت النظر فى هذا الإضراب العام هى:

أولاً: أنه وللمرة الأولى أدرك العمال أهمية اتحادهم على النطاق القومى كله، وأدركوا أن الإضراب ليس مجرد سلاح هين وإنما هو سلاح قادر على إرغام المستغلين على الخضوع.. كذلك فإن الإضراب قد زاد عن ثقة الطبقة العاملة فى نفسها، وقد زاد من ثقلها الاجتماعى تجاه الطبقات الأخرى، ولفت أنظار كثير من المثقفين الثوريين إلى أهمية الطبقة العاملة فى المعركة من أجل الاستقلال ومن أجل الديمقراطية.

ثانياً: أن العمال قد دخلوا المعركة دفاعاً عن الحقوق الوطنية، لكنهم كانوا فى نفس الوقت يدركون الأبعاد الحقيقية للثورة الشعبية وأنها يجب أن ترتبط بتحقيق مطالب اقتصادية واجتماعية لهم ولجماهير الشعب.

ثالثاً: أن الإضراب الشامل الناجح الذى استمر طوال هذا الوقت قد حقق وحدة عمالية قوية اكتسبت اتجاهها يسارياً، بحكم أنها قد أفلتت من الإطار الذى رسمته قيادة الوفد للانتفاضة، وبحكم أن المثقفين اليساريين كانوا على اتصال وثيق بهذه الحركة وكانوا أكثر المشجعين لها..

وهكذا، وعندما بدأ الاشتراكيون الدعوة لتأسيس اتحاد عام العمال تسارعت النقابات للانضمام إليه.. وأصبح اتحاد العمال هذا سبيلاً لخلق رابطة قوية بين القوى الاشتراكية وبين الطبقة العاملة.

رابعاً: أن هذه الحركة لم تكن تتم فى مواجهة المحتلين وحدهم وإنما فى وجه كبار الملاك الذين تصدوا للقيادة.. وبينما كان الإضراب الشامل يهز كيان الاحتلال، فإنه كان أيضاً يهز - إلى حد ما - كيان الطبقات العليا فى المجتمع.. التى أصدرت عدة بيانات متخاذلة تحاول أن تسكب ماء بارداً على الثورة الملتهبة.

وعندما وصل الجنرال اللنبى فى ٢٥ مارس ١٩١٩ معلناً أن واجبه الأساسى «أن يضع حداً ونهاية للإضرابات الحالية».. أصدر قادة الوفد المتبقون فى القاهرة بياناً ضعيفاً يناشدون فيه الشعب «ألا يخرج أحد فى أعماله عن حدود القوانين، حتى لا يسد الطريق فى وجه الذين يخدمون الوطن. وعلى الجميع أن يقوموا بالواجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فيسارعوا إلى اتخاذ جميع ما لديهم من الوسائل لمنع وقوع كل ما ينجم عنه ضرر للبلاد»^(٢٥).

وقد صدر هذا النداء يوم ٢٦ مارس.. وأفرج عن سعد ورفاقه يوم ٧ أبريل، ومع ذلك فإن الإضراب العام قد استمر حتى ٢ مايو. بل إن إضطرابات شديدة قد وقعت أيام ٨ و٩ و١٠ أبريل راح ضحيتها مئات القتلى والجرحى.

وإذا كان الإضراب العام قد توقف فى ٢ مايو، فإن هذا التوقف لم يكن غير هدنة لأمد قصير تسترد فيها الطبقة العاملة أنفاسها.. فما لبثت أن خاضت معارك إضرابية عديدة أخرى.

وفى آخر يونيو ١٩١٩ أضرب عمال الغاز، وفى ١٢ يوليو أضرب الحلاقون فى مدينة الإسكندرية مطالبين بزيادة الأجور بنسبة ٤٠٪، وفى ١٦ يوليو أضرب عمال شركة السكر وعمال تفتيش كوم أمبو، وفى ٢٨ يوليو أعلنت نقابة عمال القهاوى الإضراب، وفى ٤ أغسطس أضرب عمال الشحن والتفريغ فى ميناء الإسكندرية ثم أضرب عمال الترام فى ١٠ اغسطس. وتوالت الإضرابات لتصبح شيئاً شبيها بالإضراب العام فإلى جانب كل هؤلاء المضربين أضرب عمال السجاير وعمال الترام فى الإسكندرية وعمال شركة «بونداستورز» وعمال مصنع السفن النيلية والتجارية وعمال شركة النور فى الإسكندرية^(٢٦).

والحقيقة أن هذه الموجة الثانية كانت موجة طبقية، فقد امتحن العمال قواهم فى الجولة الأولى واكتسبوا مزيداً من الثقة فى أنفسهم.. ثم ها هم يشنون الآن معركة طبقية عنيفة تقوم أساساً على المطالبات الاقتصادية والاجتماعية.

وتنشر جريدة «الأهالى» رسالة لأحد القراء تقول «اشتدت الحرب القائمة بين العمال وأصحاب الأعمال طلباً لزيادة الأجور زيادة تتناسب مع ما وصلت إليه الحالة المعيشية من الشدة والضيق».

وفى نهاية الرسالة يقول كاتبها «وبعد.. فقد حدا بنا لكتابة هذه السطور ما نشاهد من أعمال أصحاب الأملاك والمتاجر وزيادة الأثمان وزيادة مطردة وما نراه من إغفال أصحاب الأعمال أمر الصغار من موظفيهم إغفالاً فاق حد النسيان..»^(٢٧).

وثمة إحصاء يقول: إنه خلال الفترة من ديسمبر ١٩١٩ وحتى نهاية عام ١٩٢١ نظم العمال ٨١ إضراباً كبيراً شملت مختلف فروع الاقتصاد من بينها ٦٧ إضراباً شل كل منها فروعاً متكاملة من أفرع الصناعة^(٢٨).

وهكذا ارتفع صوت العمال عاليا بصورة تكفى لإيقاظ قطاعات كبيرة من المجتمع، وبصورة تطرح الصراع الطبقي واضحا وعنيذا وحاسما.

وكان لا بد لرأية الصراع الطبقي هذه أن تؤثر فى الكثيرين وأن تدفعهم - فى وقت مبكر جدا- إلى أن يختاروا إلى أى المعسكرين ينحازون.

وكان طبيعيا بعد كل ذلك أن تنشط المساعى لتكوين حزب اشتراكى ليتوج هذا الصراع ويقوده.

الهوامش

- (١) لمزيد من التفاصيل راجع:
- * أمين عز الدين - تاريخ الطبقة العاملة منذ نشأتها حتى ١٩١٩.
 - * عبد المنعم الغزالي - تاريخ الحركة النقابية ١٨٩٩ - ١٩٥٢.
 - * رؤوف عباس - الحركة العمالية في مصر ١٨٩٩ - ١٩٥٢.
- (٢) الغزالي - ص ٢٤.
- (٣) الأهرام - ١٩١٠/١/١٥.
- (٤) الأهرام - ١٩٠٨/٨/١٩.
- (٥) الأهرام - ١٩٠٧/٢/١٢.
- (٦) أمين عز الدين - المرجع السابق - ص ٦٩.
- (٧) الأهرام - ١٩٠٨/٨/٣.
- (٨) الأهرام - اللواء - المؤيد ١٩٠٨/١٠/٤.
- (٩) محمد سيد كيلاني. ترام القاهرة - دار الفرجاني - القاهرة - (د-ت) ص ٦٤ - نقلا عن المؤيد ١٩٠١/١١/٢٦.
- (١٠) اللواء ١٩٠١/١٢/٧ وأيضاً: ١٩٠١/١٢/٢٣.
- (١١) محمد سيد كيلاني - المرجع السابق - ص ٦٥ نقلا عن: اللواء ١٩٠٢/١/١٩.
- (١٢) رؤوف عباس - المرجع السابق - ص ٥٢.
- (١٣) المقطم ١٩٠٨/١٠/١٨.
- (١٤) اللواء ١٩١٠/١٠/٢٢.
- (١٥) الجريدة ١٩١١/٨/٦ - نقلا عن: د. سليمان محمد النخيلي - الحركة العمالية في مصر وموقف الصحافة والسلطات المصرية منها من ١٨٨٢ إلى ١٩٥٢ - ص ١٦٦، ص ٧٣.
- (١٦) اللواء - ١٩١١/٨/٢.
- (١٧) أمين عز الدين - المرجع السابق - ص ١٠٦.
- (١٨) اللواء - ١٩١١/٨/٥.
- (١٩) أمين عز الدين - المرجع السابق - ص ١٣٩.
- (٢٠) الإقدام: ١٩٠٨/٣/٢٠.
- (٢١) الأهرام - ١٩٠٩/٣/٢٧.
- (٢٢) قسطاكي عطارة - تاريخ تكوين الصحف المصرية - ص ٣١٢.
- (٢٣) الجريدة - ١٩١٠/١٠/٢٣.
- (٢٤) الغزالي - المرجع السابق - ص ٦٥.
- (٢٥) صبيح - المرجع السابق - ص ٤٣١.
- (٢٦) الغزالي - المرجع السابق - ص ٧٥.
- (٢٧) الأمل - ١٩١٩/٨/١٣.
- (٢٨) suliman bachar - communism in arab east - 1981- 1928, (london - 1980) p54.

المثقفون طريقان تؤدي إليهما الليبرالية

كان المثقفون يخوضون هم أيضا نضالا مريرا ضد قوات الاحتلال، وتفجرت إضرابات الطلاب في مدرسة الحقوق والأزهر وغيرها، واتجه البعض إلى الإرهاب - كما رأينا - واتجه البعض الآخر إلى تأسيس جمعيات فوضوية.. وأخذ الكثيرون يبحثون عن طريق جديد.

وفي هذه السنوات الحاسمة من تاريخ مصر الحديث كانت تقع أشياء غاية في الغرابة وغاية في الأهمية..

فالأفكار تنتقل سريعا إلى مصر من كل أنحاء العالم.. أفكار تولستوى، داروين، كروبتكين، برنارد شو، ماركس، أوين.

وعدد من كتب الاقتصاد السياسى تصدر.

الاقتصاد السياسى لخليل غانم عام ١٨٢٩.

أصول الاقتصاد السياسى لرفلة جرجس عام ١٨٨٩.

الاقتصاد السياسى لجيوفتس - ترجمة جمعية التعريب عام ١٨٩٢.

مبادئ الاقتصاد السياسى تأليف محمد حسين فهمى.

الموجز فى علم الاقتصاد لبول لروا بوليه - ترجمة حافظ إبراهيم و خليل مطران^(١).
ويكتب سلامة موسى كثيرا عن تولستوى، غاندى، إبسن، شوبنهاور ويصدر كتابا عن
نظرية داروين، ويترجم قصة الجريمة والعقاب لديستوفسكى.
ويقدم طه حسين رسالة الدكتوراه عن «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية».
وتجذب الداروينية التى دعا إليها شبلى شميل وفرح أنطون ومجلة المقتطف كثيرا من
الباحثين عن الحقيقة، وتدفعهم إلى الإيمان بالعلم وإلى خلق مدرسة فكرية جديدة ذات
منهج جديد لفهم الحياة ونشأتها.

يقول إسماعيل مظهر فى مقدمة كتابه «مذهب النشوء والارتقاء»:
«إنى مكب على ترجمة كتاب أصل الأنواع والاطلاع على ما كتب فى مذهب النشوء
الحديث واستجماع مواد البحث فيه منذ أوائل عام ١٩١١، حيث كنت آنذاك مكبا على
الفلسفة القديمة أنهل من موارد العرب بأقصى ما تصل إليه استطاعتي.. حينذاك وقعت
فى يدى نسخة من كتاب دكتور شميل «فلسفة النشوء والارتقاء» فأحدثت قراءتها فى ذهنى
من الانقلاب والأثر ما تعجز الكلمات واللغة عن التعبير عنه أو وصفه، فدلقت بقدمى إلى
مفازة الآراء المادية»^(٢).

والحقيقة أن جهود د. شميل فى نشر النظرية الداروينية والأفكار المادية قد أثمرت بسرعة،
الأمر الذى يؤكد أن المناخ الفكرى وسط المثقفين كان مستعدا للتمرد على القيود القديمة.
فسلامة موسى يكتب كثيرا فى مجلة المستقبل عن داروين ونظرية أصل الإنسان ويصدر
فى ١٩٠٩ كتاب «مقدمة السوبرمان» ويترجم رسالة «جرانت ألين» عن «نشوء فكرة الله»^(٣).
وخليل جبران يصدر كتابا بعنوان «شبلى شميل العالم والفيلسوف»^(٤).
وكان فرح أنطون يواصل رسالته فى نشر الفكر التقدمى فى جريدة «الأهالى» وفى
كتابات أخرى عديدة.

ونقولا حداد أيضا يقدم مقترحاته لمجتمع جديد.. وتشهد سوق الثقافة سيلًا من الكتب
عن الاشتراكية والأنظمة الاجتماعية.
وإذا كانت الاتجاهات التقدمية فى الثقافة قد بدأت تعلن عن نفسها فى العقد الأول من
القرن العشرين، فإن الرجعيين لم يقفوا مكتوفى الأيدى ويتقدم دعاة الرجعية ليترجموا
عديدا من الكتب ضد الثورة وضد الاشتراكية وضد التقدم.

ويصبح جوستاف لوبون إماما لكثير من المثقفين الرجعيين يترجمون كتبه ويتعاهدون على إنجاز ترجمة كل مؤلفاته، فيترجم فتحي زغلول «روح الاجتماع» و«سر تطور الأمم» عام ١٩٠٩ ويعد قراءه بأن يترجم «روح الاشتراكية» و«روح السياسة».

لكنه يموت قبل أن يفي بوعده، فيتقدم آخر لإنجاز هذه المهمة هو عادل زعيتر الذى يترجم «روح الاشتراكية» و«الثورة الفرنسية وروح الثورات».

وهذه الكتابات جميعا هى فى الأساس دعاية مضادة للاشتراكية.

ولنحاول أن نلقى نظرة سريعة على بعض ما كتبه لوبون وما ترجمه «فتحي زغلول» أو «عادل زعيتر».

«إذا نظرنا إلى الاشتراكية من حيث انتشارها رأينا أنه لا يأتبه لمثل هذه النظرية، لأن عقول الجموع لا تستمرئها»^(٥).

«فلما كذبت الحوادث صحة مبادئ ماركس الذى ظل زمنا طويلا حبر الاشتراكية الأعظم، اضطر أشد أشياعه إخلاصا إلى تركها»^(٦).

«إن أكثر نظريات الاشتراكية يناقض مقتضيات العالم الحديث، وإن تحقيقها سيقودها إلى أدوار الهمجية التى قطعناها منذ زمن بعيد، ولهذا قررنا أن مستوى الأمم على سلم الحضارة يقاس بدرجة مقاومتها لمنازع الاشتراكية»^(٧).

«وينسى أنصار الاشتراكية أن مبتكرات العلم والفن والصناعة هى سر قوة البلاد وسعادة من فيها من ملايين العمال، وأن هؤلاء العمال مدينون لأصحاب العقول السامية الذين أتوا بتلك المبتكرات»^(٨).

وتحاول هذه الكتابات أن تستثير الطبقة الوسطى محذرة إياها من خطر الاشتراكية..

«إن أشد أوهام الاشتراكيين بطلانا هو حكمهم بالقضاء على الطبقة الوسطى»^(٩)، بل إن هذه الكتابات كانت تهاجم أبسط قواعد العدالة..

«فالمساواة شئ لا يمكن تطبيقه إلا بين المنحطين، وهى مطمح آمال صغاليك العقول، يحلمون بها وهم بأحلامهم من التعساء»^(١٠).

كذلك فإنه «لا حاجة لأن يكون الإنسان ضليعا فى علم النفس ولا فى علم الاقتصاد لينبئ بأن العمل بمقتضى مبادئ الاشتراكية يفضى بالأمم إلى أرذل درك الانحطاط، وأخرى صور الاستبداد».

وثمة مؤلف مصرى هو فريد وجدى حاول هو أيضا أن يتصدى لتيار الفكر المادى، فأصدر كتابا فى ثلاثة أجزاء بعنوان «على أطلال المذهب المادى».. وهو هجوم شديد على الفكر المادى، استند فيه أساسا إلى حجج وبراهين شوبنهاور.

وقد استقبل العقاد هذا الكتاب بتهليل كبير قائلا: إنه مخصص لنقض المذهب المادى وإيراد أقوال طائفة من كبار الفلاسفة والعلماء على بطلانه والدلالة على قصر نظر المتشبهين بالمادية البحتة يظنونها آخر ما يعرف من حقائق هذا العالم، ويخيل إليهم أن «لا» التى يقولونها ليس بعدها «نعم» ولن يأتى بعدها جواب آخر».

ويمضى العقاد مؤكدا «إن فائدة كتاب وجدى الوطنية والأخلاقية أكبر من فائدته الدينية، لأننا نعلم أننا لم نصب فى نهضتنا الوطنية أضر من ضعف اليقين وقلة الثقة بمبادئ الأخلاق السامية، وهى عيوب فى النفس - كما قلنا - قبل أن تكون عيوباً فى طرق التفكير.. ولولا هؤلاء الهلافتين الذين ملأهم جهلهم حتى لم يبق فيهم فراغا لجهل أو لعلم لما كانت حالتنا الآن ما نرى»^(١١).

ولست أريد أن أستفيض فى التعليق على هذه الظاهرة.. ظاهرة إصدار كتابات معادية للاشتراكية، مكتفيا بالإشارة إلى أنها لا بد أن تكون رد فعل لتلك الحركة الجارفة التى كانت تجتاح الفكر المصرى فى ذلك الحين دافعة إياه فى طريق العلم والتقدم والوعى الطبقي.

ولعلها أيضا دليل على اليقظة الشديدة والإحساس الطبقي لكبار الملوك والرجعيين المصريين الذين سارعوا إلى مقاومة التيار الجديد بسيل جارف من الأفكار المعادية.

وثمة ظاهرة أخرى تستلقت النظر هى خفوت صوت الاشتراكية الإسلامية فى تلك الأيام، فإن ارتفاع درجة حرارة الصراع الطبقي وتقدم الشيوعيين إلى الميدان، كذلك انتصار البلاشفة الروس فى عام ١٩١٧.. كل ذلك قد دفع الكثيرين إلى الخوف من الاشتراكية، بعد أن تحولت من مجال ممتع للبحث النظرى والتفلسف العقائدى إلى خطر يهدد، ويستثير المشاعر الطبقية.

وتردد الصحف والمحافل المصرية فى مرات عديدة الفتوى الشهيرة التى أصدرها شيخ الإسلام بالأستانة ضد الاشتراكية والبلشفية قائلا: «يشتمل الدين الإسلامى من الأحكام الأساسية ما يناقض جميع المسالك الاشتراكية، وخصوصا البلشفية، التى هى عبارة عن شكل خطر لها لأن من شأنها الإخلال بالملكية الشخصية وحقوق التصرف فيها»^(١٢).

كذلك سوف نشهد فتوى شرعية أخرى تصدر في مصر عقب تأسيس الحزب الاشتراكي، وسوف نشهد هجوما شديدا من الشيخ التفتازاني وغيره من كبار العلماء.

وقد كان ذلك كله - في اعتقادي - إحدى الدلائل على نضج الصراع الطبقي، وعلى أن الاشتراكية قد أصبحت مسألة واقعية تمس الحياة اليومية، وليست مجرد أبحاث نظرية لا تتعلق بالواقع الفعلي للبلاد.

لكن تيار التقدم كان أعمق من أن يقهر، ونزعة التجديد والإيمان بالعلم وبضرورة التخلص من تقاليد وقيود الماضي كانت جارفة وشاملة لميادين عديدة في الأدب وأسلوب الكتابة ومنهج التفكير، وحتى في صياغة الشعر والأدب.. ويكتب حافظ إبراهيم:

أَنْ يَا شُعُورَ أَنْ تَفْكُ قِيُودَا
قَيِّدْتَنَا بِهَا دُعَاةَ الْحَالِ
فَارْفَعُوا هَذِهِ الْكُمَائِمَ عَنَّا
وَدَعُونَا نَشْمُ رِيحَ الشِّمَالِ
(يقصد ريح الحضارة الغربية)

ولقد خاض المثقفون معركة ضارية من أجل حرية الفكر وحرية التعبير وثمة نماذج عديدة.. لكننا سنكتفي ببعضها.. هـاك أبيات من الشعر قالها مطران:

شَرِّدُوا أَخْيَارَهَا بِحَرَا وَبِرَا
وَاقْتُلُوا أَحْرَارَهَا حَرَا فَحَرَا
إِنَّمَا الصَّالِحُ يَبْقَى صَالِحَا
أَخِرُ الدَّهْرِ وَيَبْقَى الشَّرُّ شَرَا
كَسِّرُوا الْأَقْلَامَ.. هَلْ تَكْسِرُهَا
يَمْنَعُ الْأَيْدَى أَنْ تَنْقُشَ صَخْرَا
اقْطَعُوا الْأَيْدَى هَلْ تَقْطِيعُهَا
يَمْنَعُ الْأَعْيُنَ أَنْ تَنْظُرَ شَذْرَا

أطفئوا الأعين.. هل إطفأوها
يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا
أخمدوا الأنفاس.. هذا جهدكم
وبه منجاتنا منكم فشكرا
ويكتب خليل مطران ملحمة نثرية يدافع فيها عن الجماهير وحرقاتها، محتجا أشد
الاحتجاج على قانون المطبوعات الذى يقيد حرية الكتابة فيقول:
«فى مصر وفى الأستانة العلية خطتان رسمتا للتضييق على الصحافة يراد بهما أن
تصدر الجريدة كما يخرج الكلب العقور من بيت صاحبه وفى فمه كمامه».
«إن التقييد للأفكار قلما زادها إلا قوة وانتشارا».
«أليس الشعب قوى شتى: قطرات سيل عرم، شرر لهيب أكل، مجال ألوف العقول..
متكاتف أجساد لو اجتمعت لدكت الرواسي؟»^(١٣).
«إن أخص معنى وأشرف معنى من معانى الحرية هو حرية الصحافة». بل إن ثمة
لمحات فى شعر مطران تهاجم الأغنياء والملكية الخاصة..
أن يجهل الشعب فالحكم الخليق به
حق العزيزين من والٍ وسلطان
أو يرشد الشعب يمسى الأمر فى يده
ولا اعتداد بأملأك وأعيان
والحقيقة أن الشعر قد لعب دورا كبيرا فى معركة النضال ضد الاستغلال ومعركة
الدفاع عن حقوق الكادحين..
فهؤلاء الشعراء والمفكرون الذين خاضوا معركة الدفاع عن حقوق الوطن وعن الحرية
والديمقراطية وجدوا أنفسهم يخوضون -بالرغم منهم- معركة طبقية ضد كبار الملاك الذين
تعاونوا مع المحتل وضد كبار الملاك من الأجانب..
وهكذا ظهر إلى الوجود شعر ثورى وطبقى يمكن اعتباره سلاحا فى معركة التوعية الاشتراكية..
ففى عام ١٩١٤ عندما تشتد أزمة البطالة وتخرج جموع العمال العاطلين تحمل رايات
حمراء تطالب «بالخبز أو العمل» يصرخ الشاعر عبدالرحمن سالم فى جموع العاطلين
صائحا^(١٤):

برح اليوم بالظهور الخفاء
 فكـالوا الأغنياء يافقراء
 امضغوهم وعلقوا الإثم فى
 جـيدى فهم بانـتـحـارنا الأثماء
 وابـلـعـوهـم.. وكـلـكـم مـسـتـعـد
 لابتلاع الأحجار لولا الحياء
 وثمة قصيدة أخرى كتبها الشاعر القروى ووجهها إلى «الأغنياء الجائرين» تقول^(١٥):
 مضى عصر النخاسة من زمان
 ولاح على البرية غير شمس
 زمان كان فيه العبد يشقى
 ليس بعد قلب سيده بنحسه
 لقد حان الزمان لوضع حد
 لظلم المستبـد وسحق رأسه
 وثمة نماذج كثيرة لمثقفين من أبناء هذا العصر بدأت خطاهم على طريق
 المطالبة الليبرالية بالحريات والدستور، ثم قادتهم خطاهم إلى الصدام
 بالاحتلال وبأعوان الاحتلال ثم اتخذ موقف طبقى صريح ضد هؤلاء الملاك
 الكبار والأغنياء الكبار المتعاونين مع الإنجليز فانتقلوا من الليبرالية إلى الدفاع
 عن الكادحين..
 ولنقدم نموذجا واحدا من هؤلاء وهو ولى الدين يكن..
 ويكن أديب ليبرالى التفكير عشق الحرية بإحساس مرهف وتغنى بها تغنى المحب
 بمحبوبته «يا حرية أنا عرفتك وهمت بك هيما، فأنا أحبك من قبل ومن بعد ولن أخاف منذ
 اليوم رقبيا»^(١٦).
 بل هو متنزل فيها شعرا^(١٧):
 نشـتـاق حـريـة فـيـؤسـيـنـا
 من دهرنا عن حالها ضنن
 أو هـنـنـا حـبـهـا وتـيـمـنـا
 حـتـى تـرـانـا وشفـفـنـا الوهن

ويمضى فى حديثه عن الحرية:

«الحرية طافت بلاد الله فكلما دخلت أرضا أعتقت المعتقلين فيها فلما طرقت تركيا اعتقلوها فى سجنها بيلدن»^(١٨).

لكن دفاعه عن الحرية يقوده للنضال ضد المستبدين:

«الحرية حبيبة الشعوب وعدوة الملوك».

وهو يهاجم الحكام المستبدين قائلا:

بغال تسوس الأسد شر سياسة

ما ساس أسدا قبل ذاك بغال^(١٩)

وهو يشن هجوما قاسيا على رجال الدين:

«فالعامة تحب الشئ إذا حبه إليها زعمائها وتبغضه إذا بغضه إليها زعمائها، وزعماء العامة عندنا رجال الدين وهؤلاء لا يرغبهم فى الشورى شئ فهم يحبون أن يظلوا متحكمين على الرقاب وأن يبقوا عيالا على الأمة وأن يلثم الناس أيديهم ويملنوا أكياسهم»^(٢٠).

وهو يتهم عليهم فى جراءة.. قائلا:

«لو جمعنا العثمانيين التى بالبلاد العثمانية وجعلناها بعضها فوق بعض بنينا حصنا يعجز عن هدمه أسطول إنجلترا بأسره»^(٢١).

وهو يرفع صرخة المظلومين عالية:

«أيتها النفس.. بلغى خالك أنا مظلومين.. أفضى إليه بحاجتنا.. هو يعلمها ولكن لا بد من نوحه لديه»^(٢٢).

لكن الأمر لم يقتصر عند هذه الحدود فيكن الذى دفعه حبه الدافق للحرية إلى مجابهة الظالمين والمستبدين تدفعه هذه المجابهة للظالمين إلى مساندة الكادحين فى معركتهم ضد الاستغلال..

ولعل أهم ما يلفت النظر فى هذا الصدد مقالين وردا فى كتابه «الصحائف السود» الأول بعنوان «مقتل فر» و«فرر» هذا مناضل إسباني دافع عن حقوق شعبه فحكموا عليه بالإعدام. وتتعلق كلمات ولى الدين يكن حاسمة قوية صارخة:

« هن ثلاث رصاصات رميت بأسبانيا فجاءت دويها بلاد الله فى أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا.. ثلاث رصاصات رمتها حكومة متمدنة بمشهد من حكومات متمدنة

فقتلت رجلا متمدنا، حرا أشقته حريته، عارف أجهدته معرفته، ومنصف أرداه إنصافه، أبى زعامة الفرد على الجمع، وكره أن يرى أناسا يرفلون في ثيابهم المخملية يجرون أسياقهم وتخفق على رؤوسهم خرق فوق قضبان يسمونها أعلاما، وأن تكثر حكومات الأرض من جمع هؤلاء في أزيائهم المضحكة لتقتل أمثالهم، أنف أن يرى إخوته أبناء آدم يتنازعون أكتافا من الأرض ليست لهم ولا لغيرهم ولكنها لكل الناس، فما يجزع على فرر سكان القصور العالية ولا المدخرون للذهب والفضة ولا سراة القوم ولا الوزراء ولا كبار الموظفين وإنما يجزع عليه المنفيون إلى أقاصى سيبيريا حين يعرض الحديد على سواعدهم، والمقيمون فى ظلمات السجون فى سائر أقطار الأرض بل يبكى عليه كل من ذاقوا مرارة الظلم والاستبداد فى أسر المستبدين، الأرمنى الذى قتل أقربوه فى مذابح الأناتولى، والتركى الذى ألقى ذووه فى لجج البوسفور والعامل فى أعماق الموانى محروما من نور الشمس ولطف الهواء، والفقير الذى يحس بالفاقة ولا يتجاسر على شكايتها.. كل يندب فرر وكان فرر يندبهم»^(٢٣).

إن أهم ما يلفت النظر فى هذا المقال هو الروح الأممية الدافقة والإحساس الطبقي الواضح..

أما المقال الثانى فهو بعنوان «العمال فى البلاد العثمانية»^(٢٤) كتبه ولى الدين يكن ردا على رسالة وصلته من عامل عثمانى يدعو إلى نصرة العمال فقال:

«أيها الأخ العامل.. لبيك ألفا، هذا يمين الإخاء أمدته إليك فإن كنت خاطبا ودا الود لك، وإن كنت شاكياً ظلماً فيراعى لسانك وبياني ترجماتك، وأنا وحياتي دريئة لك من المخاوف».

ويمضى ولى الدين مهاجما الأغنياء والحكام:

«ادخل حجرة الوزير تلق بها الأوانى المذهبة فى نقوشها وتصاويرها وهو مضطجع على سرير أقل مسمار فيه أغلى من مالكة ثمننا وأنفس قدرا هو يحسب أن العامل يدور كاللؤلؤ لا يجهد تعب ولا يضمنه كد ولو رآه فى معمله متصبباً جبينه عرقا مشمرا عن ساعدين مفتولين عزما، متهللا فرحا فى حزنه، شاديا فى مناحة حظه، لأخذه الروع ولخارت تلقاء ذلك المشهد المهيّب قواه».

ثم هو يقدم صورة بشعة لحياة العامل التركى..

«إن بين الحيطان السود تحت سحب الدخان، أمام النار يذكىها الكير الزافر وتحت أعماق من الأرض زرعها ثلاث مائة ذراع أو أكثر رجالا شعث النواصي، غير الوجود، نبا عن أجسادهم النعيم وأجفلت عنهم السعادة يخدمون بنى الإنسان كأن لم يكونوا من بنى الإنسان».

ثم تملو صيحة ولى الدين:

«من أراد أن يجور على العمال فليستغن عن العمال، ليقبل هؤلاء الكبراء والأوسمة تشرق على صدورهم والأثواب المخملة تكاد تلتهب على أجسادهم وهم نجوم أفق الدولة ودرر عقدتها المنظوم، إننا فى غنية عن العمال، وإذا نزعنا عنا هذه الحال الباهرة ملنا إلى المعامل وشمرونا عن ساعدنا وصنعنا لأنفسنا وليصنع العمال لأنفسهم هنالك يعلم كل عمله».

..ويختم ولى الدين رسالته مخاطبا العامل قائلا:

«إن كان هذا يكفيك أيها الأخ العثماني فالحمد لله على خدمتك وخدمة إخواني».

وقد كان ولى الدين يخوض هذه المعركة وهو يحلم بمجتمع جديد قدم له صورة غاية فى الشاعرية، مجتمع أمواله كثيرة ولو أحسن إنفاقها لصارت «أعمدة النور فى الطرقت من الفضة، ولو بذلت فى تعليم الأبناء لصاروا كالأنبياء، ولو بذرت فى الأرض لنبتت السنابل ذهباً، ولو أنفقت على الفقراء لأصبح السائلون يشترون ملابسهم من «ريبو» ويفطرون على «الشكولاتة»^(٢٥).

وبعد.. فإن ولى الدين لم يكن هنا أكثر من نموذج لهذا التحول الذى طرأ على مواقف كثير من المثقفين الليبراليين الذين تحولوا فى خضم الصراع الطبقي العنيف ونتيجة لإفلاس الطبقات المالكة وللصمود الشجاع للطبقة العاملة، تحولوا من الليبرالية إلى معركة الصراع الطبقي منحاكين إلى صفوف الكادحين.

ولم يكن ولى الدين وحده هو الذى تحول.. فهناك كثيرون غيره..

وإذا كان ولى الدين يمثل جيلا من هؤلاء الليبراليين الذين تودسوا بعواطفهم المرفهة وأحاسيسهم النبيلة ومواقفهم الأخلاقية إلى الدفاع عن الكادحين فثمة ليبراليون آخرون دافعوا عن الديمقراطية بل وعن الاشتراكية فى بعض الأحيان، ثم انساقوا بعد ذلك فى طريق آخر..

أحد هؤلاء عباس العقاد..

ولعل هذا يبدو غريبا بعض الشيء؛ فنحن نعرف موقف العقاد الطبقي وموقفه من الفكر المادى، وتمجيده لكتاب فريد وجدى.. لكننا مع ذلك لا نملك إلا أن نتأمل كتابات العقاد عن الاشتراكية ومحاولاته الظهور بمظهر المدافع عنها..

ولنبداً بتعليقات سريعة أوردتها عرضاً فى بعض مقالاته..

فهو مثلاً يقدم دراسة عن أبى العلاء المعرى ويفرد فيها فصلاً عن «اشتراكية المعرى» ويورد عدداً من قصائده يدافع فيها عن الفقراء والمظلومين لكنه لا يلبث أن يعلق عليها بجملة ذات مغزى كبير فيقول «نعم إن الاشتراكية لا تعتمد فى حقوقها على الرحمة ولكنها لا تطلب من شعرائها أكثر مما قال المعرى»^(٢٦).

إنه يحاول أن يقدم فهماً متقدماً لمعنى الاشتراكية.

لكن أهم ما كتبه العقاد بهذا الصدد هو محاولة لانتقاد كتاب «سر تطور الأمم» لغوستاف لوبون وذلك عقب نشر الترجمة العربية التى أشرنا إليها فيما سبق..

ويهاجم العقاد الكتاب، يهاجم فيه تعنته ضد الاشتراكية واعتراضه على فكرة المساواة.. فهو يقول «والكتاب بجملته حملة منكرة على المساواة والاشتراكية، يخيل إليك أن الدكتور لوبون يكتب عن المساواة بقلم شارل الأول أو لويس السادس عشر وأنه يكتب عن الاشتراكية بإيعاز من روتشيلد أو روكفلر، فتراه ينعى على مبدأ المساواة ولكنك لا تعلم منه كيف يبرر عدم المساواة، وتراه يتشائم من الاشتراكية كما يتشائم الناس من نعيم اليوم لا يعلمون لذلك التشاؤم سبباً»^(٢٧).

ويمضى العقاد قائلاً: «الحقيقة أن نظام مجتمعنا الحاضر مشتمل على نقائص ومثالب لا ينفرد بالسخط عليها وطلب تبديلها الاشتراكيون. ومن العلماء من لا يحسبون أنفسهم من الاشتراكيين ولا يحسبهم الاشتراكيون منهم.. وهم مع هذا يشكون ظلم النظام الحاضر شكوى غلاة الاشتراكية ويرون رأيهم فى بعض الحلول التى يقترحونها».

«إن الاشتراكية الصحيحة ليست أسطورة من الأساطير ولا هى وعد خيالى يبشر الناس بالتعادل فى الأقدار والتشاكل فى المنزلة والأرزاق كلا، فليست المساواة بين الناس من همها ولكنها تدعو إلى المساواة بين الأجر والعمل وتطلب أن تعطى كل عامل ما يستحقه بعمله، وأن ينتفع المجموع بأكثر ما يمكن الانتفاع به من قوى الأفراد فإذا كانت

الدنيا قد حل أجلها وقارب يومها لأن جائعها يريد أن يشبع ومنهوكها يتمنى أن يستريح ومظلومها يود أن ينتصف، فلشد ما هزلت هذه الدنيا».

وكالعادة يلجأ العقاد إلى التراث الإسلامى ليستمد منه سندا فى دفاعه عن الاشتراكية فيقول:

«قال عبد الله بن معاوية: ما رأيت تبذيرا قط إلا وإلى جانبه حق مضيع.. ولو شاء زعيم من زعماء الاشتراكية اليوم بأن يتخذ لمذهبه شعارا لما زاد على تلك الحكمة حرفا فالاشتراكية الصحيحة تقوم اليوم لتسترد ذلك الحق المضيع».

وكذلك فإن العقاد يهاجم النظام الرأسمالى «فالنظام الاقتصادى الحاضر قد صير العامل قوة آلية وسلبه كل وسيلة لاستخدام ذكائه وحذقه، وهذا النظام الاقتصادى المودى بالمواهب المعطل للعقول هو النظام الذى تثور عليه الاشتراكية. فما قامت الاشتراكية إلا لترقى مدارك العامل وترفع عنه حيف صاحب العمل وتجعله إنسانا ذا رغبة فى عمله وغيره عليه.. وليس كما هو الآن آلة تدير آلة».

وهو يهاجم الرأسماليين قائلا: «ومنذ أخرج العلم للناس تلك الآلات الضخمة أصبح كل صاحب معمل يتمتع بتعب الألوف من الصناع الذين يستخدمهم فى معمله، فكان التعب والحرمان من نصيب فريق، والراحة والربح من نصيب الفريق الأقل».

وهو فى النهاية يؤكد «لا بد للأمم من معتقد جديد، أفتردى ما هو هذا المعتقد؟ تحسبه هو وحدة الإخاء أو هو التضامن الإنسانى أو هو- فى بعض مظاهره التى يفهمها الناس سواء- الاشتراكية».

.. لكن العقاد بالرغم من ذلك كله لم يكن داعية للاشتراكية الحقة فهو يفهم الاشتراكية على نحو خاص.

فهو يتحدث عن اشتراكية أمريكا.. قائلا: «إن حكومة الولايات المتحدة قد طاردت منذ سنوات أكبر شركات الاحتكار فحلقتها وألزمته غرامة فادحة فإن كان لوبيون يعنى بالاشتراكية مظهرا أقوى من هذا فليهدأ فليس فى أمريكا ولا فى أوروبا، بل ولا فى الدنيا جميعها اشتراكية(*)».

وكل ما ينادى به العقاد هو بعض الخطوات الإصلاحية «فالواجب على ولاة الأمر فى كل أمة أن يعترفوا بنقائص المجتمع ولا تفتنهم عن إصلاحها عصبية الطبقات، لأن الكثير

من هذه النقائص قابل للإصلاح والتخفيف لولا تعنت من بعض الطبقات القوية يجر إلى تعنت الطبقات الأخرى وتفاقم النزاع على غير جدوى».

ولست بحاجة إلى التعليق على كلمات كهذه فهى تتصور أن حل قضايا الصراع الطبقي من أجل الاشتراكية يمكن أن تحل من خلال بعض التسهيلات أو الإصلاحات.. تقدمها الطبقات الغنية..

وفى عام ١٩٢٣ يخطو العقاد خطوة أخرى.

فهو يقدم لقرائه فى جريدة البلاغ كتابين لماكس نوردو^(٢٨) «الاضمحلال» و«الأكاذيب المقررة فى المدنية الحاضرة».

وحول الكتاب الثانى يقول العقاد أنه «حملة على المجتمع فضح فيها نوردو كل ما ظهر من أكاذيب الحضارة الأوروبية كأكذوبة الدين وأكذوبة الحكم الملكى المطلق. وكان نوردو حين أصدر كتابه هذا عظيم التفاؤل كبير الأمل فى مستقبل الإنسانية، فتنبأ بمجىء عصر تمحى فيه العيوب فى حضارة العصر وتحل محلها حضارة قائمة على الحب والإخاء والتضامن بين الناس وقال فى ختام كتابه:

«إنى لأنظر إلى هذه المدنية مدنية اليوم التى شعارها التشاؤم والأكاذيب والجشع فأراها تتوارى وت خلفها مدنية أخرى قائمة على الحق والسعادة يومئذ تصبح الإنسانية حقيقة واقعة لا فكرة مجردة فطوبى للأجيال القادمة التى سيكون من نصيبها أن تحيا فى جو المستقبل الصافى مقدمة عليها أنواره المشرقة.. إنها ستحيا فى ذلك الإخاء الدائم فى أفق من الصدق والمعرفة والصلاح والحرية».

ونوردو يهاجم فى كتابه هذا أسس الحكم البورجوازى أو كما كانت تسمى فى ذلك الحين الحكم الديمقراطى «فليست حكومة الديمقراطية بحكومة الشعب كما يقولون ولكن هى حكومة فئة قليلة من ذوى المطامع المهيمنين على تنظيم الأحزاب ونشر الدعوة ومخادعة الجمهور واستجلاب الأعوان بالوعود والمكافآت والمناصب. فالديمقراطية طراز جديد من الحكم المطلق القديم أو هى خمرة عتيقة فى أنية جديدة».

وكان هناك آخرون غير العقاد انغمسوا فى نفس الاتجاه الليبرالى ثم انساقوا خطوة تحت ضغط الصراع الطبقي وتحت تأثير الخوف من حركة الطبقة العاملة إلى النقيض.

ومن بين هؤلاء كثيرون من أبناء الإقطاع الذين سافروا إلى أوروبا وتأثروا بالفكر الليبرالي الفرنسي والأوروبي عموماً.. ثم عادوا يناقشون موضوعات الحرية والديمقراطية والاشتراكية من قبيل الترف الفكري والمتعة الذهنية، حتى إذا جد الجد وبرزت الطبقة العاملة والتجمعات الاشتراكية عملاقاً يتحرك في سرعة وشجاعة إبان ثورة ١٩١٩ بدأ الجميع يعودون إلى صوابهم، بل إنهم انطلقوا متراجعين إلى موقعهم الطبيعي في أقصى اليمين.. حزب الأحرار الدستوريين..

ولطفى السيد.. هو أحد الذين بشروا طويلاً بفلسفة تولستوى.. وحتى جريدة «الجريدة» التي كان يصدرها حزب الأمة كانت سبباً لبعض لمحات ديمقراطية وليبرالية.. ويرثى مصطفى عبد الرازق الجريدة قائلاً:

«استبشرنا بها راية يلتف حولها الجوهر المصفى من شبابنا، وتسير في ظلها دعوة الحرية والتقدم بين جاه العلم والعقل، وجاه العصبية والغنى ثم ماتت الجريدة وتفرق عنها أصحابها غافلين لاهين بمظاهر ألقابهم وأموالهم، إن المرزوين في الجريدة هم أهل الجد من فتيانها الذين كانت صحيفة الأعيان مظهرها لمذاهبهم الحرة وأفكارهم الجديدة»^(٢٩). وبعد الجريدة.. كانت هناك «السفور» و«السياسة» و«الجامعة».

ويصدر د. هيكل قصة زينب وهي أول قصة تتحدث عن حياة الريف ومآسيه. وباختصار فإن المثقفين من أبناء الذوات قد استطاعوا أن يحدثوا ضجة ثقافية هزت الركود الفكري الذي نسجته سنوات الحرب والحماية الإنجليزية واستطاعوا أن يوقظوا كثيراً من الأذهان ويحركوا عديداً من المشاعر.. وإذا كانوا قد تخلوا عن ذلك كله فيما بعد، فإن ما قدموه قد ترك أثراً لا تمحى في عقل وذهن المثقف المصري.

لقد كانت هذه السنوات سنوات من البحث المضنى عن طريق الفكر والوطنية والقومية والمنهج الفلسفي، وكان المثقف المصري قد استيقظ فجأة ليجد سوق المذاهب والأفكار والمعتقدات مزدحماً فانشغل طويلاً في التأمل والدراسة والتنقل بين هذا وذاك.. وبعد هذه الموجة العارمة من البحث المختلط. السريع التقلب.. ونتيجة للتمايز الذي حددته بصراحة مواقف العمال المصريين في ١٩١٩، وبيانات الاشتراكيين وبرامجهم.. انطلق كل من هؤلاء الباحثين المترددين إلى موقع طبقى يتحصن فيه.

وهكذا فإن كثيرا من المواقف التي اتخذت في ذلك الحين يجب ألا تدفعنا إلى تحديد تقييمات سريعة ومتعجلة لهذا الشخص أو ذاك فقد كان الجميع منغمسين في غمرة الاختيار والمفاضلة والتنقل بين الأفكار. ولكي يكون التقييم موضوعيا يتعين عليه أن تأتى سنوات قليلة بعد ثورة ١٩١٩ ليرى كل من هؤلاء وقد اتخذ موقعه الصحيح.

والحقيقة أن مثقفى هذه الفترة كانوا يدركون ذلك، كانوا يشعرون أن ما يجمعهم هو الرغبة المشتركة في البحث عن شيء جديد وأن الأيام لن تلبث أن تفرقهم في طرق مختلفة بل ومتصارعة..

ويقدم العقاد صورة لهذا الإحساس عندما يتحدث عن فرح أنطون.. راويا قصة لقائه الأول به في جريدة الأهالي.. وقوله له «إنك يا فرح أفندى طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة العاملة وسيعرف لك المستقبل من عملك ما لم يعرف الحاضر، وستكون - حين يفترق الطريقان - خيرا مما كانت في هذا الملتقى المضطرب»^(٢٠).

ولقد تحققت نبوءة العقاد فسرعان ما افتترقت الطرق واتجه البعض يسارا واتجه الكثيرون يمينا.. بل وإلى أقصى اليمين..

الهوامش

- (١) عمر الدسوقي - فى الأدب الحديث، ص ٢٩٩.
- (٢) إسماعيل مظهر - مذهب النشوء والارتقاء - الجزء الأول - ص ٤.
- (٣) محمود الشرقاوى - سلامة موسى - الفكر والإنسان - ص ١٠٧.
- (٤) المرجع السابق - ص ١٠٧.
- (٥) جوستاف لوبون - روح الاشتراكية ترجمة عادل زعيتير - ص ٦.
- (٦) المرجع السابق - ص ٥.
- (٧) المرجع السابق - ص ٣٠٢.
- (٨) جوستاف لوبون - روح الثورات - ترجمة عادل زعيتير - ص ١٥٨.
- (٩) جوستاف لوبون - روح السياسة - ترجمة عادل زعيتير - ص ١٢٦.
- (١٠) جوستاف لوبون - سر تطور الأمم - ترجمة أحمد فتحى زغلول.
- (١١) عباس العقاد - على أطلال المذهب المادى مقال فى جريدة الأفكار ١٠/٣٨/١٩٢٢.
- (١٢) جريدة الأخبار - ١٩٢٠/٩/٢٠.
- (١٣) طاهر الطناحى - حياة مطران - ص ٢٥٧.
- (١٤) أمين عز الدين - المرجع السابق - ص ١٤٣.
- (١٥) مجلة الهلال مجموعة عام ١٩١٩.
- (١٦) ولى الدين يكن - المعلوم والمجهول - الجزء الثانى - ص ٤.
- (١٧) محمود الشرقاوى - مقال بالهلال - مارس ١٩٦٧.
- (١٨) ولى الدين يكن - المعلوم والمجهول - الجزء الأول - ص ٦٣.
- (١٩) سامى الكيالى - ولى الدين يكن - ص ٤١.
- (٢٠) ولى الدين يكن - المعلوم والمجهول - الجزء الثانى - ص ٩.
- (٢١) ولى الدين يكن - التجاريب - ص ٣١.
- (٢٢) ولى الدين يكن - عفو خاطر - ص ٥٨.
- (٢٣) ولى الدين يكن - الصحائف السود - ص ٥٢.
- (٢٤) المرجع السابق - ص ٥٧.
- (٢٥) محمود الشرقاوى - مقال مجلة الهلال - المرجع السابق.
- (٢٦) نظرات فى فلسفة المعرى - مقال فى المقتطف - عدد نوفمبر ١٩١٦.
- (٢٧) عباس العقاد - الفصول - طبعة عام ١٩٢٣ - ص ١٥٥.
- (*) يلاحظ أن العقاد كتب هذا المقال بعد ثورة أكتوبر.
- (٢٨) البلاغ - ١٢ فبراير ١٩٢٣.
- (٢٩) مجلة مجمع اللغة العربية الجزء ١٤ سنة ١٩٦٢ ص ٢٠٧ كلمة الأستاذ شفيق غربال فى تأبين الدكتور محمد حسين هيكل بجلطة مجمع اللغة العربية فى ١١/٤/١٩٥٧.
- (٣٠) عباس العقاد - مطالعات فى الكتب والحياة - ط ٢ - ص ٦٥.

القسم الثانى

المنابع الفكرية للعمل الاشتراكى فى مصر

وفى هذه السنوات الخصبة، التى شهدت فيها مصر صراعات فكرية وطبقية عنيفة والتى خاض فيها كثير من المثقفين المصريين غمار التجربة، تجربة البحث، ومحاولة اختيار موقع فكرى أو منطلق فلسفى لآرائهم السياسية والقومية.

فى هذه الفترة وفدت إلى مصر عديد من الاتجاهات الفكرية والفلسفية وقد استطاعت بعض هذه الأفكار أن تؤثر فى المناخ الفكرى العام تأثيرا متميزا، بينما اكتفى البعض الآخر بتأثير عابر.. فى حين عجزت بعض هذه المدارس عن أن تكسب لها أنصارا برغم كثرة ما قدمت من كتابات وما بذلت من جهود.

فالفابية كسبت فى مصر واحدا من أبرز مثقفيها هو سلامة موسى الذى نشر مئات المقالات وعديدا من الكتب، وترك فى الفكر المصرى أثارا مهمة.. لكن فابيته عجزت عن أن تجد لها أى نفوذ حقيقى.

واشتراكية الدولية الثانية - وبالتحديد الجناح اليميني منها- وفدت إلى مصر على أكتاف المثقفين الذين تلقوا العلم فى أوروبا واحتكوا بأحزابها الاشتراكية الديمقراطية.

ولأن الكثيرين منهم كانوا أبناء الطبقة الأرستقراطية وهى الطبقة التى كانت تملك القدرة على إرسال أبنائها للتعليم فى الخارج.. فقد تأثروا بأشد أنواع هذه الاتجاهات إصلاحية وأكثرها اعتدالا..

بينما وجدت الماركسية اللينينية لها هى الأخرى أنصارا عديدين تأثروا بالمناخ الثورى العام وبالطاقات الكبيرة التى ولدتها الحركة النشيطة للبروليتاريا المصرية والفلاحين المصريين، وتأثروا أيضا بانتصار الثورة البلشفية فى روسيا وما حققته هذه الثورة من منجزات.

ولسوف أكتفى فى هذا الفصل بالحديث عن هذه الاتجاهات الثلاثة رغم أنها لم تكن الوحيدة..

فهناك مثلا التأثير الهيجلى المباشر والذى انعكس فى أفكار د. على العنانى أحد مؤسسى الحزب الاشتراكى، والذى حاول أن يصوغ فكرا متماسكا أسماه «النظرية الاشتراكية العلمية العملية»، لكن صحف هذه الفترة لا تحمل أثرا لأى مجهود فكرى للدكتور على العنانى الذى اكتفى بإعلان اسم مذهبه فى أكثر من مناسبة دون أن يهتم بعرضه تفصيلا على القراء..

لكن البحث فى الصحف الصادرة فى الثلاثينيات مكننا من العثور على مقالين للدكتور العنانى يمجدا فيها الفلسفة الهيجلية ويشير بالتحديد إلى إيمانها بدور الأديان ويبدى إعجابا شديدا بالمديح الذى أزجها هيجل للدين الإسلامى مشيرا بالتحديد إلى فكرة التوحد عند هيجل محاولا ربطها بالوحدانية فى الإسلام.

وهكذا يمكننا أن نفهم مطالبة العنانى فى كتاباته القليلة خلال فترة تأسيس الحزب الاشتراكى باشتراكية تلتزم بتعاليم الشريعة..

إلا أن العنانى لم يستطع أن يشرح أفكاره ولم يكن فى نشاط سلامة موسى ولا فى قدرته على التأثير ولا فى مثابرتة على نشر آرائه.

وهكذا لم يكن «للاشتراكية العلمية العملية» وجود يذكر..

كذلك وجدت بعض الاتجاهات الفوضوية وخاصة وسط النقابيين الأجانب ووسط شباب الحزب الوطنى الذين أسسوا جمعيات عديدة للاغتيال، لكن هذا الاتجاه لم يكن قائما على

أية أسس فكرية واكتفى بالنشاط الإرهابى العملى دون الخوض فى أية تفسيرات أو تبريرات أيديولوجية^(١).

وهكذا يمكننا- دون أن نقوم بتجاهل أى فكر جاد- أن نكتفى بتقديم اتجاهات ثلاثة:

*** الفابية.**

*** اشتراكية الدولة الثانية (الاتجاه اليسئى).**

*** الماركسية.**

الهوامش

(١) ثمة تفصيلات مهمة ومثيرة عن التوجهات والأنشطة الفوضوية نشرت في مصر في منتصف عام ١٨٩٩ حول محاكمة عشرة من الفوضويين بتهمة محاولة اغتيال إمبراطور النمسا.. وذلك في مجلة كانت تصدر في مصر باللغة الإيطالية هي: l'im,pazzial وذلك في الأعداد الصادرة ما بين ١٠ يونيو، ٢١ يونيو ١٨٩٩ ومجموعة هذه المجلة مودعة بدار الكتب والوثائق المصرية تحت رقم (دوريات ١٨٣).

الفابية

إذا كان الفكر الفابى قد لعب دورا فى مصر، وفى التكوين الفكرى لعدد من مثقفها، فإن صاحب هذا الدور هو سلامة موسى بغير منازع.

والحقيقة أن سلامة موسى شخصية محيرة، فقد اجتمعت فيه صفات عديدة وتراكمت فى كتاباته كل التناقضات التى يتحتم عليها أن تتراكم فى أفكار شخص يعيش فى مجتمع متخلف ومقهور ومستعمر.. لكنه ينادى بالفابية.

وفى اعتقاده أن سلامة كان فابيا ذا طابع خاص فهو شىء يختلف عن فابىي إنجلترا رغم أنه عاش أربع سنوات فى إنجلترا كان خلالها عضوا فى «الجمعية الفابية» هناك ورغم أنه تأثر كثيرا جدا ببرنارد شو، بل لعله قد استعار منه كثيرا من تشبيهاته وأحكامه. لكنه لم يكتف ببرنارد شو فلقد تأثر بأخرين.. نيتشه، ابن خلدون تولستوى، غاندى، أوين، أبسن.. وحتى كروبتكين تأثر به وترجم له «نداء إلى الشباب»^(١).

كذلك تأثر سلامة موسى بماركس تأثرا كبيرا وإن كان قد ظل لفترة طويلة يتحاشى الإشارة إلى ذلك.. وأخيرا وبعد ثورة عام ١٩٥٢ كتب سلامة موسى يقول:

.. ومع أنى فى كتاب «هؤلاء علمونى» قد ذكرت نحو عشرين من الأدباء والعلماء والمفكرين الذين وجهوا نشاطى الذهنى وربوا نفسى فإنى لم أذكر معهم كارل ماركس داعية الاشتراكية، والآن أحب أن أعترف أنه ليس فى العالم من تأثرت به وتربيت عليه مثل كارل ماركس وإنما كنت أتفادى ذكر اسمه خشية الاتهام بالشيوعية».

وهو يعترف مرة أخرى فيقول «ولو كنت قد وجدت الحرية أيام الحكومات الملكية السابقة لألفت عن الاشتراكية بما كان يوجه ويرشد»^(٢).

وثمة قصة أخرى يرويها عنه أحد أصدقائه لعلها بالغة الدلالة فى الكشف عن شخصية سلامة موسى «فى عودته من إحدى رحلاته إلى أوروبا سنة ١٩٥٠ كان يقرأ «إنجيل ماركس» (رأس المال) فى السفينة سرا وكان لقلقه وخوفه من التجسس والمطاردة يلقي فى البحر كل ورقة يقرأها بمجرد الانتهاء منها»^(٣).

وسلامة موسى هو واحد من أول دعاة الاشتراكية فقد أصدر فى ١٩١٣ كتابا بعنوان «الاشتراكية» لكنه مجرد داعية، رجل يقول كلمته ويمشى، يؤمن بالاشتراكية لكنه فابى، فالاشتراكية سوف تنتصر لا بالنضال ولا بالثورة ولا بالتنظيم الحيدى، وإنما بنشر التعليم وتحرير المرأة وتنظيم الزواج والعمل من أجل تحسين النسل وإتاحة الحرية للأفراد. وهو يصدر كتابه هذا عام ١٩١٣ محدثا دويا كبيرا، ثم لا يلبث بعد عام واحد عندما تعلن الحماية البريطانية ويشتد الإرهاب أن يحذو حذو الآخرين فيهرب، رجال الحزب الوطنى هربوا إلى الخارج أما هو فقد كان أكثر تواضعا فقد هرب إلى عزبته فى الريف حيث قضى هناك كل سنوات الحرب منقطعا عن كل شىء.

كذلك فإن أفكار سلامة موسى قد اختلطت كثيرا بأفكار غريبة، وخصوصا فى بداية حياته ففى «مقدمة السوبر مان» (١٩١٠) ردد فى الأساس أفكار نيتشه بكل ما فيها من عنصرية وتخبط.. فهو ينصح المصريين بعدم الزواج من مصرىات (حتى يحسنوا النسل) وهو يؤيد سيادة الأبيض على الزنجى ويقول إن الزنجى كان منذ مائة سنة فقط يأكل الإنسان ومن المستحيل أن تكون مشاعره كمشاعرنا مهما طلى نفسه بأداب السلوك^(٤).

لكن ذلك كله لا يقلل من قدر سلامة موسى كمتقف موسوعى المعرفة آمن بالعلم وبالاشتراكية ووهب حياته كلها دفاعا عما آمن به من أفكار..

كذلك فإن فابية سلامة موسى ومسالته للأعداء الطبيعيين وإعلانه عن رفضه لفكرة الثورة.. «من الغلو أن نعتمد على الثورة الحاسمة التي تفصل بيننا وبين الماضي»^(٥) كل ذلك قد أتاح له فرصة مكنته من أن يستمر في نشر أفكاره خلال سنوات طويلة على صفحات عشرات الصحف والمجلات والكتب وخلال عديد من الجمعيات..
والآن، وبعد هذه المقدمة القصيرة، لنحاول أن نقدم عرضاً سريعاً لفكرة سلامة موسى عن الاشتراكية كما أوردها في كتاباته الأولى..

لنبدأ بكتابه الأول (مقدمة السوبرمان) وقد صدر في عام ١٩١٠.. وفي هذا الكتاب يتحدث سلامة موسى عن الاشتراكية..

«فالعلمانية نزعة أوروبية تشمل جميع الأمم المتمدنة تقريباً.. وهذه النزعة هي علة نزعات أخرى منها نزعة الاشتراكية التي انتهت في أقصى أوروبا بالشيوعية وليس في العالم قطر متمدن إلا وبه حركة اشتراكية قوية مصبوغة بصبغة الوسط الذي نشأت فيه.. وكل الدلائل تدل على أن العالم يتجه نحو نظام اشتراكي، إن لم يكن في جميع صناعاته نفى نحو النصف أو الثلثين»^(٦).

ويقول «ومما يساعد رقي الأمة أن نجعل ناموس تنازع البقاء يجري بلا إحفاف بين الناس ولا يكون ذلك إلا إذا استوت أمامهم الفرص المعيشية بحيث لا يمتاز أحدهم عن الآخر إلا بكفايته الذهنية أو الجسمية، فيجب أن يتساوى الناس في فرصة الإثراء.. وذلك باصطناع نظام اشتراكي أو شبيه بالاشتراكي حتى لا يولد واحد غنياً وآخر فقيراً.. وقد يكون الغنى أخط ذهنًا وجسمًا من الفقر، ولكن امتيازاه بالمال الموروث يعينه على زيادة نسله في الأمة من حيث أن فقر ذلك يمنعه من الزواج»^(٧).

لكنه مع ذلك يردد مجموعة من الأفكار الغريبة.
فهو يرى أن الإنسان السليم القوى هو الذي يستحق أن يعيش أو على الأقل هو الذي يجب أن يسمح له بأن ينجب أطفالاً.

«فالرقي الذي نجده في كفايات الحيوان إنما لأنه يقوم بقتل الضعيف أولاً بأول، فلا يبقى غير الأقوى الذي ينسل نسلًا على غرار حاصله على كفايته..

والإنسان حيوان ولكنه يختلف عنه من حيث إن نسله العاجز يعيش، فالغزال الأعرج يموت والأسد البطيء يهلك جوعاً في الغابة ولكن الإنسان الأعرج يعيش بالصدقة

والإنسان البطئ يعيش أيضا بأى عمل هين.. وليس فى مقدورنا أن نعود بالإنسان إلى توحش الطبيعة فى الغابة، وإنما نعرف أنه يمكن أن نقصر الزواج على الفئات السليمة فى الأمة ونعرف أيضا أن أهم مخترعات القرن التاسع عشر وأخطرها لمستقبل الإنسان هو كما قال شو التعقيم الاختيارى»^(٨).

وثمة رأى آخر:

«فالأخلاق يجب أن تكون حرة، لأن حرية الأخلاق تدعو إلى انقراض الفاسد منها وبقاء الصالح.. وليس من مصلحة الإنسان أن يعيش فى قفص من الواجبات الأخلاقية لان من طبيعة الأخلاق الفاسدة أنها تقتل صاحبها، فلنترك السكير يسكر كما يشاء لأن سكره ينتهى بموته المبكر، ولنترك النهم يشربه إلى كل طعام فإن معدته تسوقه إلى قبره بنسرع مما نتصور...».

وهكذا تاهت أفكار سلامة موسى التقدمية وسط ضباب من أفكار أو مقترحات غريبة وغير معقولة.

وهناك أيضا الموقف المرتبك الذى اتخذه سلامة موسى من قضية الدين. فهو مادي داروينى.. وهو ينتقد «الأديان الراهنة لأنها تتدخل فى أمور العالم وتعرقل سير الترقى لأن الترقى يقتضى التغيير، ولا تغيير بدون بدعة جديدة.. ولكن الأديان للصفة المقدسة التى تتصف بها تقف جامدة لا تقبل تغييرا فتعمل بذلك لجمود الأمة...».

«والدين إذا خرج من دائرة علاقة الإنسان بالكون وأخذ يقرر أصول المعاملة بين الناس من تجارة وزواج وامتلاك وحكومة ونحو ذلك فإنه عندئذ يقرر الموت لكل من يؤمن به».

لكنه مع ذلك يؤكد فى إصرار «أن الدين ضرورى لكل أمة ولكل فرد.. ولا يمكن أن يعيش الإنسان بلا دين، لأنه مادام قد شرع يفكر فى الكون زمانا ومكانا فقد شرع يفكر فى الدين.. ومن ينظر إلى السماء فى ليلة صافية ويتأمل فى أبعاد النجوم والكواكب يعجب كيف يمكن لإنسان أن يجزم بهذا المذهب أو بذلك عن أصل هذا الكون ونهايته»^(٩).

ويكتب سلامة موسى مقالا عن ويلز بعنوان «أديب ينشد ربه» يتحدث فيه عن دين جديد يؤمن بوجود الله لكنه إله «لا وجود له من حيث المادة أو الفضاء، لكن له وجوداً رمزياً كوجود التيار الفكرى وهو ينمو بنمو الإنسان وينظر بأعيننا إلى هذا الكون ويعمل بأيدينا فيه.. وكل ما لنا من حقائق وكل ما لنا من قصد أو عمل عظيم يجمعها فى نفسه.. فهو

الذاكرة الإنسانية التي لا تموت وهو الإرادة الإنسانية الدائبة فى الازدياد.. وليس للديانة الجديدة وحى وليس لها مؤسس، ومن ينشدها ينشد حقيقة لا يرشده إليها غير ما فى نفسه من القداسة»^(١٠).

وأفكار كهذه، وبارتباك مثل هذا، لم يكن بإمكان أحاديث سلامة عن الاشتراكية أن تصل إلى كثير من الأذهان..

لكنه وبالرغم من كل شيء لعب دورا كبيرا فى إرساء قواعد الفكر الاشتراكي..
ففى عديد من المقالات رفع سلامة موسى لواء الاشتراكية، مستخدما حديثه العذب وسعة اطلاعه وطريقة برناردشو فى العرض.. ولنتأمل هذه الفقرات التى وردت فى مقال بعنوان «الآلات والحضارة».

«فى أوروبا الآن حركة اجتماعية تهزها من أقصاها إلى أقصاها هى حركة العمال الاشتراكية، هذه الحركة التى ستقلب الجمعية للبشرية رأسا على عقب هى ثمرة آلات الإنتاج التى اخترعت فى القرن التاسع عشر والذى اخترع هذه اللفظة التى سمى بها فى أوروبا لم يكن فيلسوفا أو كاتباً أو أديبا وإنما كان صاحب معمل.. رأى أن مبدأ الملكية كما هو متعارف عليه فى زماننا قد مضى وقته وحان تعديله أو إلغاؤه.

كان الخزاف قديما يصنع الخزف بيديه ويطلية بنفسه بمختلف الألوان ويحرقه ويبيعهه وقلما كان يستخدم عاملا فإن فعل رجا هذا العامل أن يكون خزافا يوما ما وكثيرا ما كان يتحقق رجاؤه فكان المالك فى ذلك الوقت عاملا وتاجرا لا يستغله أحد..

فلما جاء القرن التاسع عشر وكثرت الآلات وعظم حجمها انقسم الناس فئتين، فئة أصحاب المعامل وفئة العمال وزال أمل العمال فى أن يكونوا أصحاب معامل وتعذر جمع المال اللازم لشراء الآلات العظيمة.. وصار أصحاب المعامل لا يشتغلون، فتغير بذلك مركز العامل الاجتماعى إذ كان قديما يطمع فى أن يكون صاحب معمل فيكون. أما الآن فلا مجال لهذا الطمع، وكان صاحب المعمل قديما لا يحصل إلا على الكفاف، أما الآن فصار يحوز الألوف بل الملايين من كد العمال وكدهم.

فالآلة هى العلة فى الاضطرابات الاجتماعية الحاضرة وهى أصل الاشتراكية، ومن العبث والجور أن نطبق مبدأ الملكية القديم على طريقة الاستغلال الحاضرة فقد تغيرت الأحوال فينبغى أن تتغير المبادئ».

ثم يمضى سلامة موسى مهددا:

«وكما زالت سلطة الإشراف فى أواخر القرون الوسطى فكذلك ستزول سلطة أصحاب رؤوس المال فى هذا القرن.. ومن يعيش يرى»^(١١).

وهناك أيضا الكتيب القيم الذى أصدره سنة ١٩١٣ بعنوان (الاشتراكية) وهو كتيب صغير فى ثلاثين صفحة أشبه ما يكون بمقال متوسط الطول.. يبدأه سلامه موسى بفتحة تقول «يدعونى إلى كتابة هذه الرسالة الوجيزة كثرة السخافات والغباوات التى تحكى عن الاشتراكية.. فغرضى الأول منها تنوير الرأى العام عن ماهيتها مع بيان أغراض الاشتراكيين فى أوروبا وأمريكا وذكر مآثرهم فى التشريع وما وصلت إليه حالة العمال من الرفاهية بمساعيهم».

وكالعادة ينفى سلامة موسى فكرة وجود الحزب وإن كان لا يستبعد وجوده فى المستقبل.. فيقول:

«ولست طامعا أن تعد هذه الرسالة دعوة للجمهور إلى الاشتراكية ولا أن تكون سببا فى تأليف حزب أو جمعية، ولكننى أطرحها أمام الجمهور القارئ عسى أن تكون خميرة تختمر بها الأفكار إلى حين تستعد البلاد للاشتراكية»^(١٢).

ويبدأ سلامة موسى دراسته بأسطر معقدة لا يمكن أن تجذب القارئ العادى إلى تكملة الكتاب فالكلمات الأولى تقول:

«لما قام لوثيروس بدعوته كانت الأفكار الأوربية قد تنبعت بعض التنبيه إلى أثر اكتشاف أمريكا وترجمة الكتب اليونانية بواسطة المهاجرين البيزنطيين الذين فروا من وجه الاتراك، وكانت الدعوة اللوثرية فى الحقيقة إحدى نتائج هذا التنبيه»^(١٣).

وهكذا كان العيب فى كتاب سلامة موسى هو أنه حاول أن يشرح الاشتراكية بكلمات شديدة الغموض، ولجأ إلى انحناء طويلة مارا بأسماء لم يسمع عنها سوى غلاة المثقفين. ثم إن سلامة موسى يكتب متأثرا بالأفكار الفابية، بل وينكاد ينقل بعض كلمات برناردشو فى شرحه للاشتراكية.. فيسمى تملك الحكومة المصرية فى ذلك الحين للسكة الحديد بأنه عمل اشتراكي النزعة.

«وعندنا الآن من الأعمال التى تعملها حكومتنا ما هو اشتراكى النزعة مثل مصلحة السكك الحديدية الأميرية.. فإن هذه المصلحة تدار الآن لفائدة الأمة ويجمع الفائض من إيراداتها ويصرف على مرافق الأمة»^(١٤).

«وعندنا أيضا بلديات كثيرة توزع المياه والضوء على سكان المدن وتنشئ المتنزهات العمومية وتؤلف الجوقات الموسيقية للذة الجمهور»^(١٥).
وإذا كان الأمر كذلك..

«فإن غاية ما يطلبه الاشتراكي أن تتدرج البلد من امتلاك المياه والضوء كما هو حاصل عندنا الآن إلى امتلاك الترامات والمخابز والتياترات والمساكن والمكاتب العمومية. ويطلب أن تتدرج حكومتنا من امتلاك السكك الحديدية إلى الأراضي والمعامل والمناجم وتديرها كما تدير هذه السكك الآن..»^(١٦).

هكذا وبكل بساطة يتخيل سلامة موسى الفرق بين المجتمعين وبين الحكومتين.. حكومة ومجتمع الرأسمالية وحكومة ومجتمع العمال..

لكن النزعة الفابية تبدو واضحة غاية الوضوح في الأسطر التالية التي يحدد فيها أسلوبه في العمل «يطلب الاشتراكيون ذلك على سبيل التدرج الوئيد لا الطفرة السريعة؛ وكل خطوة نخطوها نحو الإصلاح الاشتراكي تكون مصحوبة دائما بل ومتوقفة على درجة التنوير السارية في الأمة»^(١٧).
وحتى عندما يتحدث عن مصر يتخذ موقفا فابيا واضحا.

فهو يتساءل كيف تكون الاشتراكية في بلاد كمصر؟
ويجيب «تكون بتربية الجمهور على الحكم النيابي الديمقراطي أولا، ثم نشر المبادئ الاشتراكية وإدخال بعضها بالتدرج في جسم الحكومة حتى تتشرب بها الأمة وتصبح عزيزة فيها فتتوجه فكرة الإصلاح إلى وجهات اشتراكية ثانيا.. هذا مع تقدم العلم وتنوير الأمة دائما بالمطبوعات عن مصالحها الحقيقية».

وهو يقدم صورة مغرقة في الخيال للمجتمع الذي يريد.
«فبدلا من أن يحكم القرية عمدة ليس لأهل القرية رأى في تعيينه، يحكمها مجلس منتخب من سكان القرية الراشدين ذكورا وإناثا.. ويعين هذا المجلس خفراء القرية وقضاتها ومهندسيها وأطبائها.. وتؤسس المدارس الزراعية العالية فلا يشتغل في الأرض إلا من نال شهادة منها، فتزرع على أصول فن الزراعة»^(١٨).

ولنتأمل هذه الصورة ولنتخيل وقعها: على فلاح يتقدم إليه الاشتراكيون ببرنامجهم قائلين: لا يزرع الأرض إلا من يحصل على شهادة من مدرسة الزراعة العليا.. أعتقد أنه ليس هناك أبعد من ذلك إغراقا في الخيال ولا عزلة عن الواقع..

وهو يحاول أن ينفي عن الاشتراكية «تهمة» الثورية فيقول:

«ومن الاعتراضات أيضا القول بأن الاشتراكيين ثوريون ينوون الاستيلاء على الحكومة عنوة ويعملون بعد ذلك على مصادرة الأملاك ومطاردة الأغنياء. فإن هذا الكلام أولى أن ينسب إلى تخطيط المعتوهين منه إلى تفكير العقلاء، وجهاد الاشتراكيين في الانتخابات البرلمانية دليل على أنهم يدخلون البيوت من أبوابها.. ويريدون الوصول إلى أغراضهم بالوسائل الشرعية»^(١٩).

وتبدو نزعته الإصلاحية الفابية واضحة عندما يسمى كل ما يحدث في أوروبا من إصلاحات كقانون الثماني ساعات والتأمينات الاجتماعية بأنها مجهودات اشتراكية. لكن الرجل يقدم بالرغم من كل هذه العيوب دفاعا مجيدا عن الاشتراكية ويؤكد أنها منتصرة حتما، ويصد عنها اتهامات المغرضين قائلا: ومن اتهامهم اتهام الاشتراكيين بأنهم ضد الدين ينوون إلغائه عندما يستولون على أزمة للحكومة، وهذه فرية لا أساس لها فإن الاشتراكية تضم بين دعايتها المؤمن والمعتل، والمسيحي واليهودي على السواء، وهي قبل كل شيء نظام لا دخل له في الدين^(٢٠). وهو يشن هجوما ساحقا على النظام الرأسمالي موجهها إليه سلسلة من الإدانات والاتهامات لا بد وأنها قد فتحت أعين الكثيرين على مساوئ النظام وضرورة تغييره.. ويبدأ سلامة موسى قرار اتهامه الشجاع قائلا: «سأذكر بعض نقائص النظام الحاضر متوخيا الاختصار والاكتفاء بإشارة عن التطويل والإيضاح.

١- إننا كلنا باستثناء صغير نشغل أولا وآخرنا لجمع المال بحيث لا يبقى هذا الشغل مجالا لعمل آخر.. إننا مدفوعون كلنا إلى التنافس والتحاسد والتكاثر بالمال على قلة قيمته الحقيقية، وهناك ما كان يجب أن يشغلنا ويملاؤ وقتنا كتأليف كتاب أو اختراع آلة أو تصوير صورة أو اكتشاف حقيقة خفية أو التمتع بالسياحة أو غير ذلك من الأعمال التي يكاد يكون كل الشرف الإنساني معلقا بها.

٢- إننا انقسمنا إلى فئتين: فئة غنية تكتظ معها بالماكولات الدسمة والأخرى فقيرة ترمق العيش رمقاً، والفئتان تشتغلان بجمع المال حتى الغنية منهما فأصبحت لذلك تترانا قدرة ببيوت الفقراء وعمالنا ضعفاء لقلة الغذاء.. وأصبح الأغنياء في حيرة كيف يصرفون أموالهم، فممنهم من يركب متن الشهوات فيشجع الناس على البغاء وإيجاد المسكرات، وممنهم من يخزن أمواله فيضيق على الناس معاشهم.

٣- لقد أوجد نظامنا الحاضر جملة وظائف غير طبيعية وغير لازمة لجمعية بشرية منظمة مثل المحاماة والبغاء والمقامرة.. إلخ ، فإن هذه الوظائف وجدت كنتيجة للنظام الحاضر، وهى أول ما يلغى فى نظام اشتراكى، وذلك اقتصاد كبير.

٤- إن نظامنا الحاضر أضاع من النفوس شرفها ومن الضمائر حيائها، فالتاجر يكذب ويخدع ويغش مصنوعاته، حتى إنه ليسم الخبز إذا رأى فى ذلك ربحا.. ويبنى البيت وكل همه أن يؤجره بأعلى أجره دونما نظر لحالته الصحية أو الجمالية.. لأنه لغاية المال، يبرر كل واسطة.

٥- إن أكثر الجرائم الحاضرة وما تكلفنا من سجون منشؤها الفقر.. فالجوع كافر والبرد أكفر والعراء أنكى من الاثنين، وهذه تلقى الحقد فى صدور الفقراء وتدفعهم إلى الإجرام.

٦- إن جمع المال يحتاج إلى أشياء كثيرة من خراب الذمة وموت الضمير وضعف الإحساس، والذين يبيزون أقرانهم فى جمعه بهذه الوسائل يبرهنون على حطة طبائعهم.. ومع ذلك فهم الذين يبيع لهم ثراؤهم إنسال النسل فى الأمة.

٧- إن الحروب الحاضرة على ما فيها من بشاعة وشناعة وتوحش وخسائر فى الناس والمال والوقت لا تنشب إلا لأجل المال.. وليس الاستعمار إلا إحدى نتائج نظامنا الحاضر مع ما فيه من الظلم والاسترقاق.

٨- أقذر وأحط ما يدفع الناس إليه نظامنا الاقتصادى الحاضر هو الزواج المالى.. فإن الشيخ الفانى يتزوج بالصبية الحسناء الفتية شاريا عرضها بالمال.. ولو لم تكن للمال قيمته الحاضرة لما اضطرت فتاة إلى قهر عواطفها والرضى بالمعيشة مع من هو فى عمر جدودها^(٢١).

ولكن، وبعد هذه الإدانة الجريئة للنظام الرأسمالى تشتعل الحرب وتعلن الحماية، ويبدأ الكثير من المثقفين مسيرة الهرب.. ويلجأ سلامه موسى إلى الريف.

ومع تصاعد المقاومة الشعبية والعمالية تعود إليهم الثقة فى أنفسهم وفى أفكارهم، فيعود سلامة موسى من جديد ليخوض غمار الدعوة إلى الاشتراكية.. أكثر جرأة فى هذه المرة.. فلماذا الحذر والعمال يرفعون رايات النضال، ويخوضون بشجاعة نادرة إضرابهم العام.. ولماذا الحذر والفلاحون يحملون السلاح، ويقاومون قوات الاحتلال، ويعلنون

جمهورياتهم المستقلة ويحققون جزءاً من أحلام سلامة موسى.. فيقيمون أكشاكاً للموسيقى لتعزف ألحاناً لم يسمعوها من قبل.

وهكذا يبدأ سلامة موسى فترة جديدة من حياته هي فترة العمل الحزبي من أجل الاشتراكية، وهي فترة وجيزة جداً، ذلك أن قصرها مرتبط بقصر الانتفاضة الثورية، والمد الثوري العظيم الذي صاحبها.. فما أن يبدأ الجذر.. حتى يعود سلامه موسى أدراجة، ليكتب في الصحف محاولاً أن يستلهم من أفكاره الفابية أملاً لا لعد مشرق.. كتابات شخص وحيد في بعض المجالات.

ولن نستفيض هنا في الحديث عن «الحزب الاشتراكي المصري» الذي شارك سلامة موسى في تأسيسه، فلهذا الحديث فصل مستقل.. لكننا سنعرض بعضاً من مواقف سلامة موسى حتى تستكمل الصورة معالها.

فسلامة موسى واحد من أربعة وقعوا النداء لتأسيس الحزب الاشتراكي المصري، وكان توقعه دليلاً على تطور هائل في موقفه وانعكاساً لتأثره بأحداث النضال الثوري العام التي كانت مصر تموج بها في ذلك الحين.

والحقيقة أن سلامة موسى كان يسعى في ذلك الحين إلى تأسيس «جمعية» اشتراكية غايتها الدرس أكثر من السياسة^(٢٢). لكن روزنتال أقنعهم بتأسيس حزب يضم جميع الاشتراكيين.. وسرعان ما تأسس هذه الحزب ليضم بين صفوفه لماركسيين واشتراكيي الدولة الثانية والفابيين.

لكن الرجعية المصرية لم تترك لهذا الحزب فرصة يتنفس فيها.. فبادرته بهجوم مركز ساهمت فيه أطراف عديدة، من بينها رجال الدين.

وهنا يعود سلامة موسى ليتحصن في فابيته، فيكتب رداً على هذه الهجمات المركزة يقول فيه^(٢٣):

«ربما كان الوقت أسوأ الأوقات لتأليف هذه الجمعية لاعتبارين:

أولهما: أن البولشفية الروسية قد أخفقت إخفاقاً يكاد يكون تاماً ونشرت على ربوع البلاد الروسية ألوية الخراب والدمار.

وثانيهما: أننا في مأزق سياسي لا ينبغي أن نزيده حراجة بما يكفي أن يترزع به المعارضون لاستقلالنا في إنجلترا من أن في مصر شيوعيين وبولشفيين، وهذه ألفاظ تستطير لب ساسة الإنجليز.

وقد بحث مزمو تآليف هذه الجمعية هذين الاعتبارين، وقر رأيهم على أن التخوف من أن إقامتها قد يكون عائقا فى سبيل المفاوضات الحاضرة، أو فى نشر المبادئ الاشتراكية المعتدلة، لا محل له.. وذلك لأن البولشفية قد صرح كثير من الاشتراكيين بعدم موافقتهم عليها، لأنها لجأت إلى تحقيق غايتها طفرة وغالت فى تطبيقها.. والاشتراكية ينبغى أن تكون بطبيعتها وبالوسائل التى تنزرع إليها والتدابير التى تتخذها فكرة نشوء وتطور، بحيث لا يمنع منها للأمة شىء إلا بمقدار ما حصلت عليه من التربية.. فيشرب أفراد الأمة مبادئ الإيثار والغيرة على المصلحة العامة.. أما من جهة المفاوضات فإن أكثر أعضاء الجمعية المزمع تأليفها يحسنون اللغات الأوروبية المهمة ويجيدون كتابتها، ولن يقصروا عندما يرفع الاستعماري عقيرته ويندد بها فى الرد عليه وإفحامه.

وبيدهى أن الغاية القصوى من الاشتراكية هى إلغاء الملك الفردى واستبداله بالملك العمومى، ولكن دون هذه الغاية مراحل ينبغى أن تقطع وهذه المراحل هى فى الواقع غايات صغرى أهمها: نشر التعليم بين عمال الأمة حتى يدخلوا فى دور الوعى الاقتصادى ويتكاتفوا على العمل لمصلحتهم، ثم تسعى الجمعية بواسطة النشر فى إقناع أولى الأمر أيا كانوا لكى يقننوا القوانين اللازمة لتحسين مساكن العمال وزيادة أجورهم من الأصلاحات.. ونحن على علم تام بأن علاقة الأجير الزراعى مع الممول المصرى هى علاقة إنسانية أكثر منها اقتصادية، بل هى بعيدة عن تلك العلاقة الجامدة التى تربط، الممول الأجنبى بالعامل الذى يشتغل فى معمله.. والمالك المصرى فى الواقع ينبغى أن تكون له مكانة الموظف العمومى من حيث المسئولية الأدبية والقانونية، لأن سعادة العائلات المصرية الفقيرة وشقاءها متوقفان على كيفية نظرتهم لطرق الاستغلال.. استغلال الأرض واستغلال العامل.

فلهذا السبب لن تقف الجمعية موقف العداء ضد الملاك المصريين.. وإنما هى صديق يدلهم على مصلحتهم، كما يدل العمال على مصلحتهم أيضا، لأن مصلحة الاثنين واحدة. والكلمات واضحة الدلالة.. ولا تحتاج إلى تعليق.. ولكننى فقط أريد أن ألفت النظر إلى أن سلامة موسى ظل حتى بعد إعلان الحزب يستخدم كلمة «جمعية».

وبعد أيام يعود سلامة موسى ليعلن بأعلى صوته «نحن فابيون».. فيقول فى مقال نشره فى الأهرام ردا على هجوم شنته جريدة «الأحباشيان جازيت»: إن حملتكم على الحزب

الاشتراكي المصري لا مبرر لها، فإننا لم نؤلف حزبا جديدا وإنما انضممنا إلى الحزب الاشتراكي الذي عاش ونما منذ مدة بعيدة في الإسكندرية وكان أول ما فعلناه في القاهرة أننا أنكرنا البولشفية بكل صراحة وجددنا مبادئها بلا قيد ولا شرط.. وقد كنت أنا نفسى عضوا في الجمعية القابية الإنجليزية، وهى جمعية الاشتراكيين المعتدلين فى لندن، وغايتنا ووسائلنا هى غايات هذه الجمعية ووسائلها.

وقصدنا الحاضر أن نجمع المعلومات المفيدة عن النظام الاقتصادى الحاضر، وسنأتم بالدعاة الإنجليز أمثال «شو» و«ويلز» ونعنى بهم أكثر مما نأتم بماركس وإنجلز، وسكون شعارنا التطور والنشوء لا الثورة والانقلاب.. وسنبداً عملنا متواضعين بالسعى فى إيجاد القوانين من معاشات للشيخوخة ومساكن العمال وتعليم للأطفال، وأمثال ذلك، وسنسترشد فى كل ذلك بالقوانين الإنجليزية».

وهكذا.. ومع كل هجوم من جانب الرجعية.. كان سلامة موسى يتخذ خطوة إلى الخلف، متراجعا عن المبادئ التى وقع عليها بنفسه فى بيان تأسيس الحزب الاشتراكي.. وكان طبيعيا بعد ذلك كله أن يكون سلامة موسى من بين هؤلاء الذين أثروا السلامة، وانسحبوا من الحزب منذ البداية.. معلنين رفضهم الانتماء للدولة الثالثة.

لكن البعض ينسحب من الحزب ومن العمل العام أيضا، بينما يبقى سلامة موسى فى الميدان محاولا أن يؤدى رسالته على الوجه الذى يراه هو ملائما..

وإذا حاولنا أن نتبع سلامة بعد الانسحاب من الحزب فسوف نجد أنفسنا أمام سلامة موسى القديم، القابى كما كان قبلا، الذى يدعو إلى الدارونية والالتزام بالعلم ويهاجم الخرافة ويدعو لحرية المرأة وإلى التصنيع، معتقدا أنه يمكنه بذلك أن يهيب الأذهان للاشتراكية.

ولقد كان سلامة موسى فابيا حقا، فاختر طريقا طويلا جدا.. مؤملا أن يصل إلى غايته..

وهو على أية حال يوضح حقيقة منهجه فى هذه الفترة فى كلمات ذكرها عرضا حول الجمعية القابية فى مقال بعنوان «اللورد الاشتراكي وزوجته الديمقراطية» فيقول^(٢٤):

«تألفت «الجمعية القابية» لنشر الاشتراكية فى إنجلترا عن طريق التسرب والانسلال، فقد رأت طائفة من رجال الأدب والاجتماع أن ينشروا الأفكار الاشتراكية بين جمهور إنجلترا دون أن يحتاجوا إلى مصادمة وجهها لوجه بآراء غريبة تفارق المؤلف مفارقة

كبيرة.. فيكون من نتائج هذه المصادمة الصدود بدلا من القبول والفشل بدلا من النجاح.. فعمدوا إلى تأليف هذه الجمعية واشتقوا اسمها من «فابيوس» القائد الرومانى الذى حارب هانيبال القرطجنى وأضعفه بمناوشات جانبية بدون أن يصدمه وجها لوجه.. واتخذت الجمعية هذه الطريقة، فكان أعضاؤها يكتبون المقالات ويؤلفون الرسائل ويخالفون الأحرار.. فينشرون الاشتراكية من حيث لا يشعر أحد بالخطر المختبئ حتى استطاعوا أن يستولوا على الحكومة وتباع فى القاهرة مجلة يحررها أعضاء من هذه الجمعية لا يمكن للقارئ أن يحس بأنها تعمل لنشر الاشتراكية إلا بعد أن يوالى قراءتها لبضعة أعداد، وهذه المجلة هى «ذى نيوسيتيسمان» وهى أدبية علمية تشتمل الشيوعيين وكانت مدة الحرب تشتمل الألمان وهى الآن أجراً على الدعوة الاشتراكية مما كانت قبلا..

هذه هى بالضبط خطة سلامة موسى ومنهجه فى العمل، وكأنه قد حاول فى هذه الأسطر القليلة أن يلخص خطته وآراءه تلخيصا واعيا..

مرة أخرى سنحاول أن نلقى مزيدا من الضوء على أفكار سلامة موسى لنعرف بالتحديد ماذا كان يعنى بالأفاز مثل الاشتراكية والشيوعية والبولشفية..

وفى أحد أعداد المجلة الجديدة ثمة سؤال من القارئ ع.ح. من الإسكندرية يسأل ما الفرق بين هذه الأفاز: الاشتراكية. الفابية. البولشفية. والشيوعية؟^(٢٥).

والجواب الذى قدمه سلامة موسى هو:

«الاشتراكية هى التدرج بالطرق البرلمانية القانونية إلى جعل العقارات المغلة التى تحتاج لاستغلالها إلى استخدام عمال الأرض والمصانع والمناجم ملكا للأمة.. فالبريد والسكك الحديدية والتعليم والمستشفيات هى فى مصر إلى حد كبير جدا اشتراكية، لأن الحكومة تقوم بها دون الأفراد.. ولسنا نحب أن تكون هذه الأشياء فى أيدي الأفراد دون الحكومة.

أما الشيوعية والبولشفية فكلتاها مسمى لشيء واحد، وهى تشبه الاشتراكية فى النتيجة ولكنها تختلف فى الوسيلة، لأنها تعتمد إلى الثورة والانقضاض كما حدث فى روسيا.. بينما الاشتراكيون يطلبون التدرج عن طريق السبل القانونية، ولذلك فهى تمثل استبداد العمال بالمالكين.

أما الفاشية فهى نقيض الشيوعية، وهى تمثل استبداد المالكين بالعمال.. وكل منهما، أى الفاشية (كما فى إيطاليا) والشيوعية (كما فى روسيا) لا يبدأ بالقوانين وإنما يحقق أغراضه اغتصابا وقهرا.. وفى ذلك من الضرر بالناس ما فيه».

ولقد انسحب ممثل الفابية الأول من الحزب الاشتراكي.. ليعمل رئيسا لتحرير مجلة «كل شيء» التي كانت تصدر عن دار الهلال.

وفى مجلة «كل شيء» يكتفى سلامة موسى بالحديث عن العلم والتعليم وتحرير المرأة. وفى بعض الأحيان يهاجم البلاشفة تحت عنوان «المظلومين يظلمون».. «ليس ينكر أحد أن حكومة القيصر كانت ظالمة.. ولكن هل من ينكر الآن أن الحكومة الشيوعية ظالمة أيضا.. لقد حكمت إحدى محاكم البولشفيين أن كتب تولستوى يجب مصادرتها وإحراقها، وهذا مع العلم بأن تولستوى كان ينصر العمال فى كل ما يكتب ويجهر بمظالمهم.. ولكنه لم يكن يدري أن المظلوم يعود ظالما»^(٢٦). وفى عدد آخر يؤكد أن اليهود يحكمون روسيا، وأن ٩٥ بالمائة من أعضاء السوفيات يهود^(٢٧).

وفى نفس العدد من «كل شيء» خبر طويل بعنوان «الجريمة فى بلاد السوفيت».. وفى بعض الأحيان كان سلامة موسى يفقد كثيرا من حذره... فتراه مثلا يمتدح فوردي قائلا:

«إنه يعنى بالعمال فيبني لهم البيوت ويؤسس لهم المطاعم، حتى الملاهى فقد عنى بها.. هذا إلى زيادة الأجور زيادة فاحشة»^(٢٨).

بل هو يفقد حذره إزاء هتلر.. فيكتب فى مقال بعنوان «الوطنية العاملة»: «وفى أوروبا أخذت الوطنية الجديدة أشكالا مختلفة، ففى ألمانيا حركة وطنية ولكنها فى الوقت نفسه حركة اشتراكية يقودها الزعيم هتلر»^(٢٩).

لكنه بالرغم من هذه الأخطاء كان يتخذ فى الأساس موقفا مخلصا وصادقا.. فهو يدعو للديمقراطية والحرية.. ويكتب افتتاحية بعنوان «ركنا الحضارة.. العلم والديمقراطية»^(٣٠) معلنا «أن الديمقراطية هى الركن الثانى الذى تقوم عليه هذه الحضارة».

ثم يقدم تفسيره لكلمة الديمقراطية قائلا: «إن فكرتها الأساسية هى التسوية بين البشر فى الحقوق والواجبات، وإلغاء الأثرة التى نالها فريق من جراء اجتياز الأموال وتوارثها جيلا بعد جيل، حتى يتسنى لكل فرد أن ينال ثمرة تعب الحق.. فلا يكون امتياز إلا لأقدر الناس على خدمة الناس.. وقد نفدت هذه الفكرة نفوذا سريعا فى البشر، وكان من نتيجة انتشارها أن اتجه التقدم الاجتماعى ثلاث وجهات رئيسة:

١- وجهة إلغاء الفوارق بين الطبقات الاجتماعية.

٢- وجهة إلغاء امتيازات الرجل على المرأة.

٣- وجهة إلغاء استغلال الشعوب القوية للشعوب الضعيفة.

ولا شك أن كلمات كهذه كانت عظيمة الأثر، جمة الفائدة.

بل هو ينتهز الفرصة في بعض الأحيان ليمتدح على استحياء بعض مواقف البلاشفة..
ففي افتتاحية عدد آخر من كل شيء يقول^(٣١):

«إن البلشفيين - بين سيئاتهم الكثيرة - حسنة واحدة يحق لهم أن يفتخروا بها، وهى أنهم أدركوا شأن المعلم فى المجتمع.. فجعلوا له المكانة الأولى فى نظامهم.
فقد طالعنا أنهم قسموا المهن إلى بضعة أقسام باعتبار فائدتها للمجموع، فجعلوا فى مرتبة واحدة - وهى المرتبة الأولى - المعلمين والوزراء وساووا بينهم من حيث الأجر والمكافأة».

وعلى صفحات نفس المجلة - وفى أعداد لاحقة - كتب دفاعا عن الفلاح بعنوان «أبونا الفلاح»^(٣٢) يطالب فيه بتحديد القيمة الإيجارية للأرض الزراعية.

وفى كلمات تلتهب حماسا يدعو سلامة موسى إلى مقاطعة البضائع الأجنبية فيقول:
«إننا فى حاجة إلى أخلاق مصرية جديدة تكون لها قوة الإيمان الدينى فى النفوس..
فلا نذوق كسرة خبز نعرف أنها خلطت بدقيق أجنبى ولا نأذن بدخول شيء من الطعام الأجنبى فى منازلنا، فلا لحم ولا جبن ولا فواكه أجنبية تمسها اليد المصرية.. بهذا وحده نحقق لبلادنا كرامة اقتصادية تزيدنا ثروة وقوة»^(٣٣).

ولقد واصل سلامة موسى مسيرة طويلة ومجيدة حقا..

فحدث قراءه كثيرا عن غاندى، ودعا كل فلاح إلى أن يكون له مغزله الخشبى ليصنع ملابس.. وأسس فى المدينة جمعية «المصرى للمصرى».. ودعا إلى التصنيع وإلى التعليم وإلى أشياء كثيرة جدا.

ولقد مضت على الأمة المصرية فترات عصيبة ومظلمة، كان صوت سلامة موسى هو الوحيد الذى ارتفع فيها.. منددا بالظلم مدافعا عن الحق والعدل والديمقراطية.. أحيانا فى جرأة.. وأحيانا فى مناورة.. يدعو إلى ما يظن أنه اشتراكى.. لكنه فى واقع الأمر مجرد خيالات فابية لا يمكنها أن تتحقق بغير نضال حزبى جاد..

لكن صوت سلامة موسى كان بغير شك صوتا شريفا وإنسانيا ومخلصا.. كما إنه - وبغير شك أيضا - قد أثر تأثيرا بالغا فى دائرة واسعة من المثقفين المصريين.

ولهذا فإن الحديث عن سلامة موسى لن ينتهى بهذه الصفحات، ذلك أننا سنتحدث عنه كثيرا فى صفحات قادمة.. فهو جزء أساسى من تاريخ النضال المصرى الذى امتد بعد هذه الفترة.

يبقى بعد ذلك سؤال هام: لماذا عجزت الفابية عن أن تجد لها أنصارا فى مصر بالرغم من المحاولات الدؤوبة والمتفانية لمثقف مرموق كسلامة موسى؟ والإجابة على هذا السؤال ليست سهلة فهى بحاجة إلى تحليل عميق لطبيعة المجتمع المصرى الذى حاول سلامة موسى أن يزرع فيه الفكر الفابى.

ولطبيعة موقف الجماهير المصرية والمثقفين المصريين اليساريين من هذا المجتمع. إن أساس الفابية يقوم على فكرة إصلاح النظام القائم والسير بعملية إدارة الحكومة لبعض المنشآت (السكة الحديد والبريد والبرق) بحيث تمتد لتشمل قطاعات أوسع فى مجال الإنتاج..

لكن المصريين كانوا قد حددوا موقفا صارما من النظام ككل، والنظام نفسه كان فاسدا بحيث لا يمكن مجرد بث الأمل فى إصلاحه، وإدارة الحكومة للمشاريع التى تمتلكها لم تقدم صورة قادرة على جذب أى اهتمام بها.

وباختصار لقد حاول سلامة موسى أن يزرع أحلامه عن الإصلاح التدريجى للنظام فى أرض كانت ترفض النظام برمته..

ولقد بذل سلامة موسى كثيرا من الجهد المباشر بالاتصال بعشرات الشبان والمجموعات، وغير المباشر بما كتبه من مئات المقالات وعشرات الكتب مستهدفا إقناع قرائه، وأصدقائه بفساد النظام القائم وضرورة إصلاحه وتطويره لكن الكثيرين ممن تأثروا بسلامة موسى تأثرا مباشرا أو تتلمذوا على كتاباته اكتفوا بالشق الأول من تعاليمه فاقتنعوا بفساد النظام القائم لكنهم ساروا فى ركب المطالبين بالإطاحة به، وإقامة مجتمع اشتراكى حقيقى بدلا منه..

وليس هنا مجال ترديد الأسماء فهى عديدة.. أسماء هؤلاء الشبان الذين التفوا حول سلامة موسى فى الثلاثينيات سواء فى جمعية المصرى للمصرى أو فى جمعية الشبان

المسيحية، وكونوا معه حلقات للدراسة وندوات مستمرة ربما وصلت في بعض الأحيان إلى حد إيجاد شكل شبه تنظيمي.. لكن هؤلاء جميعا ما لبثوا أن انفلتوا من يدى سلامة لينضموا إلى المنظمات الماركسية..

والغريب فى الأمر أن سلامة موسى لم يكن يعارض هذه الخطوات من جانب تلاميذه.. بل إنه لم يخف ارتياعه تجاه المنظمات الشيوعية التى نشأت فى الأربعينيات..

ذلك أن سلامة موسى كان فابيا من نوع خاص.. وربما كانت فابيته مسألة متعلقة بقدراته الشخصية على مواجهة النظام وتحديه..

الهوامش

- (١) محمود الشرقاوى- المرجع السابق- ص١٢٢.
- (٢) تربية سلامة موسى- ص٢٩٠.
- (٣) هو الأستاذ محمود الشرقاوى. ويرويها فى كتابه سلامة موسى المفكر والانسان- ص٤٤٠.
- (٤) المرجع السابق- ص١٠٥.
- (٥) مقدمة المجلة الجديدة- ديسمبر ١٩٢٩.
- (٦) سلامة موسى- مقدمة السبرمان- الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢- ص.
- (٧) المرجع السابق- ص٩.
- (٨) المرجع السابق- ص٢٧.
- (٩) المرجع السابق- ص٣١.
- (١٠) مختارات سلامة موسى- منشورات مكتبة المعارف (بيروت) الطبعة الثانية- ص٢٢.
- (١١) المرجع السابق- ص٨٠.
- (١٢) سلامة موسى- الاشتراكية- الطبعة الثانية- ص٥.
- (١٣) المرجع السابق- ص٧.
- (١٤) المرجع السابق- ص٢١.
- (١٥) المرجع السابق- ص٢٢.
- (١٦) المرجع السابق- ص٢٢.
- (١٧) المرجع السابق- ص٢٢.
- (١٨) ص٣٠.
- (١٩) ص٢٨.
- (٢٠) ص٢٨.
- (٢١) المرجع السابق- صفحة ١٥ وما بعدها.
- (٢٢) الأهرام- ١٩٢١/٨/١٨.
- (٢٣) رؤوف عباس- المرجع السابق- ص٢٣٦.
- (٢٤) المجلة الجديدة عدد مايو ١٩٣٠ ص٨٦٧.
- (٢٥) المجلة الجديدة ١٩٣٠/٨/١ ص١٢٨٧.
- (٢٦) كل شئ ١٩٢٦/١/٤.
- (٢٧) المرجع السابق ١٩٢٦/٢/١.
- (٢٨) جيوبنا وجيوب الأجانب ص٥٦.
- (٢٩) المرجع السابق - ص١٠.
- (٣٠) كل شئ - ١٩٢٦/١/٤.
- (٣١) ١٩٢٦/١/١٨.
- (٣٢) ١٩٢٧/٨/٢٩.
- (٣٣) سلامة موسى - جيوبنا وجيوب الأجانب ص٥٤.

اشتراكية الدولية الثانية

فى مجتمع مثل المجتمع المصرى كان من السهل أمام أفكار الاشتراكية الدولية الثانية أن تنتشر.. فالصلة الأساسية بين مثقفى مصر المتطلعين إلى التطور الاجتماعى وبين الاشتراكية تأتى عن طريق أحزاب الدولية الثانية وتأتى فى ظل سيادة الانتهازية فى صفوف هذه الأحزاب.

والحقيقة أن فكر الدولية الثانية قد تسلل إلى مصر من خلال أكثر من موقع.. وقد لعب إلى حد ما دورا إيجابيا فى لفت أنظار قطاعات واسعة من المثقفين المصريين نحو الاشتراكية.

ولسوف نرى فيما بعد أن الحزب الاشتراكى المصرى الذى تأسس عام ١٩٢١ كان تحالفا بين اشتراكىي الدولية الثانية وبين القوى الماركسية والاشتراكية الأخرى. ومن هذه الزاوية فإن دراسة المصادر المصرية لهذا الفكر، وآرائها وأوضاعها التطبيقية والمسار الذى اختارته لنفسها بعد أن بدأت مطاردة السلطات للقوى الاشتراكية كل هذه المسائل ضرورية حتى نلقى الضوء على معالم هذا الحزب الذى تكون سريعا فى مطلع العشرينيات رافعا راية الماركسية لأول مرة فى مصر.

ولقد قلنا: إن أفكار اشتراكية الدولية الثانية قد تسربت إلى مصر عبر مسالك مختلفة وسنحاول هنا.. أن نقدم بعض النماذج - وهى مجرد نماذج - للأفكار والمواقف والاتجاهات التى عبرت عنها أيديولوجية الدولية الثانية عندما تلاحمت مع فكر البرجوازية الوسطى والعليا فى المجتمع.

ولنبداً بالحزب الوطنى.. وخاصة محمد فريد.. الذى أقام علاقات وثيقة مع الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية فى أوروبا..

وقد حرص فريد على حضور سلسلة المؤتمرات الدولية التى دعت إليها الدولية الثانية فحضر المؤتمر الثامن عشر للسلام ومنع الحرب الذى عقد فى استكهولم فى أغسطس ١٩١٠ وعقب عودته إلى مصر أسس جمعية السلام العام بواى النيل برئاسة عزت بك شكرى كفرع مصرى لهذا المؤتمر..

وقد قررت اللجنة الدائمة للمؤتمر فى بون منح هذه الجمعية عضوية المؤتمر العالمى للسلام^(١).

وقد حضر فريد أيضاً مؤتمر السلام العام بجنيف فى سبتمبر ١٩١٢ ثم مؤتمر السلام العام فى لهاى فى أغسطس ١٩١٣.. ومؤتمر الأجناس المضطهدة Nationalities and subject races conference الذى عقد فى لندن (يناير ١٩١٤).

ثم المؤتمر الثانى للأجناس المضطهدة الذى عقد فى لوزان فى يونيه عام ١٩١٦. وإذا كان حزب محمد فريد ليس عضواً فى الدولية الثانية ومن ثم فإن الفرصة لم تتح له لحضور المؤتمرات العالية لأحزاب هذه الدولية فقد حرص على أن يقيم علاقات بهذه المؤتمرات وأن يقدم إليها وباستمرار مذكرات عن تطور الأحداث فى مصر.. فقدم مذكرات إلى مؤتمرات استكهولم فى أكتوبر ١٩١٧ ثم مؤتمر برن فى فبراير ١٩١٩.. ثم مؤتمر لوسرن فى أغسطس ١٩١٩.

وفى هذه المؤتمرات كان فريد يقيم علاقات مباشرة وفعالية مع كثير من ممثلى أحزاب الاشتراكية الديمقراطية ومن بينهم هندرسون رئيس حزب العمال الإنجليزى الذى تقابل معه أثناء انعقاد مؤتمر برن والذى قدم له وعداً كثيرة..

كذلك اهتم فريد بدعوة كثير من الاشتراكيين الأوروبيين لحضور المؤتمر الوطنى المصرى الذى عقد فى بروكسل ١٩١٠.. فحضر من إنجلترا كير هاردى Keir Hardi زعيم حزب

العمال ومن الحزب الاشتراكي الفرنسي جوستاف روانيه Gustave Rounanet نائب رئيس واشتراكيون آخرون من ألمانيا وبولندا وإيطاليا.

وقد تولى الرئاسة الشرفية للمؤتمر على التوالي مستر بلنت وكير هاردى وأوجانيور Augugneur النائب الاشتراكي الفرنسي عن ليون والسنير دجوبرناتى Degubernati عضو مجلس الشيوخ الإيطالى.. وقد اعتذر السنير دجوبرناتى عن حضور الجلسات لانشغاله فى أعمال المؤتمر القومى الإيطالى للسلام الذى عقد فى ذلك الحين بروما^(٢).

ومن على منصة المؤتمر وجه محمد فريد تحية حارة إلى أعضاء مؤتمر السلام العام فى استكهولم مؤكدا تقديره العميق لنضالهم^(٣) كذلك وجه تحية حارة إلى «كير هاردى الزعيم البريطانى المشهور ورئيس حزب العمال صديق المصريين والذى يعلن باستمرار تأييده العميق لكل الشعوب وخاصة للأمة المصرية، إن كير هاردى إنجليزى يكرس حياته من أجل إقرار السلم والعدل وإننى أدعو إلى تحيته تحية حارة»^(٤).

وقد تلقى المؤتمر سيلا من برقيات التأييد من القوى الاشتراكية والسلامية فى أوروبا فهناك برقية من لوسيان لوفوراى Lucien Le Foryer ممثل جمعية «السلام من أجل العدل» الفرنسية.

وبرقيات أخرى من المجر وإيطاليا وبلجيكا وأيرلندا وألمانيا..

والحقيقة أن هذا المؤتمر - الذى لم يهتم المؤرخون بدراسة أعماله - يمثل مرحلة مهمة للغاية من تاريخ نضال الحزب الوطنى فهو محاولة لأحداث التحام حقيقى بين مثقفى الحزب ومثقفى أوروبا وخاصة اشتراكييها وهو أيضا محاولة جادة لوضع أساس اجتماعى مدروس للنضال الحزبى.

إنه محاولة من الحزب الوطنى لكى يقدم لجماهيره ولأصدقائه فى أوروبا ولنفسه أيضا جهدا فكريا ممتازا ودراسات عميقة لمختلف المشكلات الاجتماعية والسياسية التى تواجهها مصر..

فقد قدمت للمؤتمر سلسلة من التقارير المهمة مثل^(٥):

- مستقبل مصر حامد العللى.
- الامتيازات الأجنبية فى مصر مصطفى الشوربجى.
- التعليم فى مصر رفعت وفتيق.

- التشريع فى مصر عبدالسلام ذهنى.

- دور الصحافة فى مصر عبدالرحمن الرافعى.

- الصناعة فى مصر على بك ثروت.

- تقرير عن حالة الجيش المصرى أعده عدد من ضباط الجيش المصرى لم يذكروا أسمائهم.

- الصحة العامة فى مصر منصور رفعت.

- الحالة الاجتماعية فى مصر طه العبد.

وفى اعتقادى أن هذه التقارير تمثل أول دراسة شاملة وعلمية يقوم بها حزب مصرى بهدف تحديد موقف واقعى من مختلف القضايا الاجتماعية والسياسية.

وفى اعتقادى أيضا أنها كانت خطوة ضرورية لإحداث تحول اجتماعى جاد فى مناهج الحزب وبرامجه وأفكاره.

كذلك فإن هذا المؤتمر كان فرصة مهمة لتجميع قوى عديدة خلف شعارات الحزب الوطنى، والذى يطالع وثائق هذا المؤتمر يلاحظ كثرة عدد المندوبين المصريين وحساسهم ويلاحظ أن بينهم شخصيات لم تكن منتمية للحزب الوطنى - أو على الأقل لم يعرف عنها ذلك - مثل محمد حسين هيكل^(٦).. وآخرين..

ولقد كان المؤتمر فرصة لكثير من اشتراكى أوروبا ليستعرضوا فيه آراءهم تجاه مسألة المستعمرات وهو موضوع تحدث فيه كير هاردى فى أكثر من جلسة من جلسات المؤتمر..

وكذلك وقف الاشتراكى الفرنسى جوستاف روانيه ليلقى كلمة مهمة قال فيها:

«أود أن أعرب لكم عن أسفى، أولا باعتبارى فرنسيا ينتقد موقف الحكومة الفرنسية من القضية المصرية وباعتبارى اشتراكيا ذلك أن حزبنا قد أسهم مساهمة كبيرة فى عقد الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا لكننى أعلن بأعلى صوتى أننا لم نكن نستهدف مطلقا إلحاق الضرر بمصر.. وإن النتائج التى ترتبت على هذا الاتفاق لم تكن سوى نتيجة لخيانة إنجلترا والحكومة الفرنسية.. لقد كان هدفنا الوحيد من هذا الاتفاق هو إقرار السلام، ولكن لا يمكن للسلام أن يستقر طالما كان هناك استعباد.. إننى كوطنى فرنسى وكاشتراكى فرنسى أتمنى تحرير الأمة المصرية تحريراً عاجلاً وتاماً»^(٧).

ونلاحظ أيضا أن محمد فريد قد أدلى بحديث هام لجريدة الأومانيته الفرنسية في أغسطس سنة ١٩١٠ وأنه واصل فيما بعد محاولاته لإقامة علاقات مع القوى الاشتراكية في أوروبا.

وفي الداخل فإننا نلاحظ هذا التحول الذي طرأ على سياسة الحزب من تأييد للعمال في إضراباتهم ومن تأسيس لنقابة عمال الصنائع اليدوية.. ثم إقامة مدارس الشعب الليلية.. ثم إنشاء التعاونيات التي ألح فريد كثيرا على الاهتمام بها.. ومن الأستاذة يرسل فريد إلى عبدالرحمن الرافعي يقول:

«لم أسمع من مدة بتشكيل نقابات جديدة أو جمعيات تعاون.. ولعلنى أسمع قريبا بأخبار ما تؤسسونه من النقابات والجمعيات.. وإنى أقترح عليك أن تكتب تقريرا عن حالة النقابات بمصر وتاريخها وبعض إحصائيات عنها وعن أعمالها لنظهر للعالم شيئا من آمالنا العملية»^(٨).

وفي برلين يدلى فريد بحديث لمراسل Berliner Tageblatt يقول فيه:

«إننا نبذل جهودنا لتعليم الشعب المصرى.. ولقد أسسنا فى المدن عددا من النقابات، وفى المدارس نقوم بتعليم العمال القراءة والكتابة.. كذلك أسسنا جمعيات تعاونية زراعية وبنكاً تعاونياً.. لقد تعمدت أن أتحدث عن هذه الجهود بالتفصيل لكى أوضح أن حركتنا ليست مجرد حركة سياسية وإنما هى أيضا حركة اجتماعية واقتصادية»^(٩).

لقد كان طبيعيا أن تترك هذه العلاقات والاتصالات باشتراكيى الدولية الثانية أثرا هاما فى مواقف فريد وآرائه.. وبدأت خطبه تتخذ اتجاهات جديدة تدافع عن العمال والفلاحين والقوى الكادحة..

وفى الجمعية العمومية للحزب الوطنى التى عقدت فى ٢٢/٣/١٩١٢ وقف فريد ليطالب أعضاء حزبه بواجبات جديدة:

«لا بد لكم من العناية بنقابات العمال وبت مبدأ التضامن بينهم والدفاع عن حقوقهم واستصدار القوانين الضامنة لهم عدم التكلف عند الشيخوخة أو عند الإصابة بما يمنعهم من الكسب. أرجعوا البصر إلى حال العمال فى مصر سواء عمال المصانع أو عمال الزراعة وأقصد بهم جماعة الفلاحين الذين لا يملكون أرضا ويعيشون من العمال باليومية أو من استئجار الأراضي.. تجدوا أنهم فى أحط دركات الفقر.. فالعامل لا يحصل على

قوت يومه إلا بعد أن يشتغل اثنتى عشر ساعة كل يوم على الأقل، والفلاح لا يصل إلى ما يسد الرمق، إلا أردأ أنواع الخبز بلا أدام وإلا بشق النفس»^(١٠).

وعلى صفحات اللواء تنعكس هذه الاتجاهات فى كتابات صريحة عن الاشتراكية «إن المصرى كان لا يعرف شيئا عن الاشتراكية قبل عهد إسماعيل من الموظف الصغير إلى العامل الفقير إلا أن تطور النظام الاجتماعى أدى إلى ظهور الاشتراكية ونظرا لأن الأموال المستثمرة أجنبية وأن هناك الدين المصرى الرسمى والأهلى فإن نظرية إدخال مبدأ الاشتراكية فى الحكم لا يمكن تطبيقها على حالنا فى مصر بدون خطر يهدد كياننا، أما الاشتراكية من حيث تعاليمها الاجتماعية فإننا فى مقدمة من يدعو إليها ويبشر بها لأننا نرى فيها الضمان لحفظ التوازن ما بين غنينا الجاهل المتكبر وفقيرنا المجد البائس»^(١١).

ولقد ثار نوع من الجدل حول طبيعة هذا المسلك وهذه العلاقات التى أقامها الحزب الوطنى تحت زعامة محمد فريد.. يحاول البعض أن يؤكد أنها كانت إرهابا لاتجاه نحو الاشتراكية.. وينفى الآخرون ذلك^(١٢) لكن الشئ الذى لا شك فيه أن هذه العلاقات مع اشتراكى أوروبا قد تركت أثارا واضحة على سلك العديد من شباب الحزب الذين سوف نراهم بعد قليل جدا من الزمن يكونون الجمعية المصرية فى باريس.. ثم نرى أسماء البعض منهم ضمن مؤسسى الحزب الديمقراطى.. وأسماء أخرى تسهم بدور فى تأسيس الحزب الاشتراكى.. ثم الحزب الشيوعى، أسماء مثل محمود عزمى، عصام الدين حفى ناصف، مجدى الدين حفى ناصف، طراف، عبده جوده، د. عبدالفتاح القاضى، ومنصور فهمى.. وآخرون^(١٣).

هذا عن أبناء الطبقة الوسطى.. والبرجوازية الصغيرة من أعضاء الحزب الوطنى والعاطفين عليه..

لكن أفكار الدولية الثانية وجدت لنفسها سبيلا آخر.. عن طريق أبناء الذوات وأبناء الفئات العليا من الطبقة الوسطى الذين أتاح لهم ثراء أسرهم القدرة على السفر لتلقى العلم بالخارج.. وعاد هؤلاء بعد عدة سنوات تعج عقولهم وكتاباتهم بالحديث عن العدالة وعن الحرية.. وعن الاشتراكية..

ولقد كان تأثر البعض محصورا فى مجرد الاتجاه نحو الليبرالية مع مفاهيم اجتماعية متقدمة، لكن عديدا من هؤلاء ما لبثوا أن تحالفوا مع دعاة الاشتراكية، فإن أفكار الدولية الثانية فى ذلك الحين لم تكن تختلف كثيرا عن أفكار الليبراليين.

ويكتب توفيق دياب ليصور موقعه وأفكاره عند عودته من بعثته الدراسية فى لندن.. يكتب موجها حديثه إلى «جون بول» قائلا: إنه عاد إلى بلاده «وفى صدره شعلة من نار الحماسة ونور المعرفة، أما الحماسة فللمثل العليا التى قرأها فى كثير من كتبكم، وأخذها عن كثير من علمائكم وأما المعرفة فبوجوه الإصلاح التى لا بد منها لكل شعب يريد النهوض، وإشعار ذوى السلطان أو العلم أو المال بأن سلطاتهم وعملهم ومالهم إنما هى أدوات فى أيديهم لخدمة المجتمع وأن قوام الحياة لأدنى المواطنين يجب أن يكون غداء يكفيه.. ومسكنا صحيا يأويه، ورعاية طبية تحميه أو تشفيه وطرفا من التربية والتعليم يسمو بإنسانيته ويحقق نفعه لنفسه وللوطن»^(١٤).

لكن النموذج المثالى للتحالف بين الليبراليين من أبناء الفئات العليا من المجتمع وبين بعض ممثلى اشتراكية الدولية الثانية هو «الحزب الديمقراطى». فالحزب الديمقراطى لم يكن سوى تجمع سريع لعناصر ليبرالية (متأثرة بالفكر الغربى) وعناصر دينية متحررة وعناصر اشتراكية.

ومحمد حسين هيكى نموذج لهؤلاء الليبراليين الذين تأثروا بالفكر الغربى وهو يتحدث عن زيارته لباريس فيقول «ومرت الأيام وأنا أرى فى مدينة النور ألوانا من الحياة تفسح أمام النظر أفق التفكير وتزيد الإنسان إيمانا بحرية العقيدة والرأى وبأن التعصب ذميم وأن أول واجب للإنسان أن يديم البحث عن الحقيقة»^(١٥).

ويترجم هيكى أجزاء من كتاب روسو ويهديها «إلى مصر الحرة، إلى القلوب الخفاقة بمعانى الحرية والعدالة والإخاء»^(١٦).

والشيخ مصطفى عبدالرازق نموذج للعناصر الدينية المتحررة التى تجمعت فى أول الأمر فى جماعة «السفور» لتدافع من أجل التحرر فى فهم الدين والحياة.. وكان هو أيضا من دعائم الحزب الديمقراطى، بل إن الاجتماع التأسيسى للحزب تم فى قصر أسرته. أما رواد اشتراكية الدولية الثانية فى الحزب الديمقراطى فيمثلهم د. منصور فهمى وعزيز ميرهم ومحمود عزمى.

ويروى محمود عزمى قصة تأسيس الحزب الديمقراطى فيتحدث عن لقاء بينه وبين د. منصور فهمى الذى حدثه عن «تأسس حزب سياسى تحدث بشأنه بالفعل إلى بعض أصدقائه من قبل وتم التفاهم فيما بينهم عليه وعلى الاسم الذى يطلقونه عليه وهو «الحزب الاشتراكي»^(١٧).

لكن محمود عزمى يقنعه بأن يعدل عن تسمية «المولود الجديد بالحزب الاشتراكى وأن يستبدل به اسم «الحزب الديمقراطى».

ولم يكن هذا هو المظهر الوحيد لصراع هذه التيارات داخل الحزب الوليد فهناك أيضا الصراع بين محمد حسين هيكل (الليبرالى ذو الميول الرأسمالية) وعزيز ميرهم (الاشتراكى الراديكالى).

يقول شفيق غربال «نشأ الحزب الديمقراطى فى جو النشاط السياسى الذى بعثته الثورة المصرية.. والطريف أن عزيز ميرهم عمل على أن يوجه الحزب نحو الاشتراكية بينما عمل هيكل على توجيهه نحو الفردية واختلف الرجلان اختلافا كاد أن يفضى إلى حل الحزب وهنا تدخل بينهما الشيخ مصطفى عبدالرازق بطريقتة الجذابة، وأكد أراه وهو يحكم بينهما، وأكد أسمع صوته وهو يسأل هيكل «أفأنت تضن على الفقراء بحقهم فى التعليم والتداوى والعيش عيشا إنسانيا؟ وأجاب هيكل بطبيعته الحال: لا.. ثم سأل ميرهم وهل أنت تريد إلغاء الملكية الخاصة فى مصر حالا فقال عزيز ميرهم لا.. قال مصطفى: أمامكما إذا ميدان فسيح مشترك تستطيعان العمل فيه متفقين فإذا جاء اليوم الذى لا مفر فيه من اختلافكما ولا أحسبه يجرى قبل سنوات طويلة نظرنا جميعا فى الأمر وفصلنا فيه بما يقضى به الحال حينئذ»^(١٨).

وبهذه البساطة أمكن للطرفين أن يتفقا وكان ثمرة الاتفاق برنامج أقرته الجمعية العمومية للحزب بجلستها المنعقدة فى ١٠/٩/١٩١٩ تحت اسم «قانون الحزب» وغد جاء هذا البرنامج خاليا تماما من أية إشارة إلى الاشتراكية لكنه يؤكد فى مقدمته أن «مبادئ هذا الحزب تقوم على أساس المساواة بين الأمم والإخاء بين الأفراد والنهوض إلى أسمى ما يتصور من الرقى وتأييد «سيادة الشعب وإقامة العدل مقام القوة».

وجاءت المادة الثالثة من قانون الحزب لتجدد عشرة أهداف تمهد الحزب بالنضال من أجلها.

والأهداف العشرة تعبر عن سيطرة الفكر الليبرالى مثل:

- تفويض الشعب سلطته إلى هيئة نيابية تنتخب على أكمل طريقة تمثله تمثيلا صحيحا، ويكون من اختصاصها التشريع وفرض الضرائب ومحاسبة الحكومة المسئولة أمامها على أعمالها.

- توحيد التشريع فى حدود مصر وتعميم تطبيقه على من يسكن البلاد^(١٩).

- الاعتراف بحق كل شعب فى حكم نفسه.

أما ما يمكن تسميته بالأفكار الاشتراكية فقد ترددت على استحياء بعبارات مطاطة مثل:

ترقية الطبقات العاملة أدبيا وماديا وإعانة من لا يستطيع العمل^(٢٠).

ويحاول عزيز ميرهم أن يضع تفسيره الخاص لبرنامج الحزب فيقول «إن الحزب لم يأخذ بالنظرية المصطلح عليها بين كثير من علماء القانون الدستوري والقانون العام، فى اعتباره الديمقراطية سياسية فحسب.. بل عدها سياسية واقتصادية واجتماعية وخلقية معا.. ولن يكون بلدا ديمقراطيا حقا إلا إذا حقق - إلى جانب نواحي الديمقراطية فى النظم السياسية - النواحي الديمقراطية الأخرى فى ميادين الاقتصاد والاجتماع والأخلاق، وعلى هذا الأساس لا نعد البلاد الكبيرة فى القارة الأوروبية - فيما عدا بلاد السوفييت - بلادا ديمقراطية بالمعنى الصحيح الصادق الكامل؛ لأن الشطر الأكبر من ثروة هذه البلاد يستأثر به نفر ضئيل من الأهلين، بينما المنتجون الحقيقيون لهذه الثروة - وهم السواد الأعظم من السكان - محرومون من كد أيديهم وثمرات أذهانهم»^(٢١).
لكنه مجرد تفسير شخصى..

كما إن الحزب - كما قال محمد عزمى - قد اهتم بحركة العمال «وكانت لا تزال بادية فى الأفق فتلقاها برعايته وأشرف بعض الشئ على نقاباتها وتأليفها وشكاوى العمال والدفاع عنها»^(٢٢).

لكن هذا الحلف الذى تجمع سريعا ما لبث أن تفرق سريعا أيضا.. اتجه البعض إلى اليمين وربما اليمين المتطرف (الأحرار الدستوريين).. واتجه البعض الآخر إلى اليسار وربما اليسار المتطرف.

لكن ذلك لا ينهى الحديث عن هذا الحزب، ولا عن تلك القوى التى تجمعت فى داخله، فثمة أشخاص يتعين على الدارس أن يتتبع مواقفهم عبر الفترة التالية كى يمكن أن نفهم حقيقة الدوافع والأفكار التى حركتهم.

ومن بين هؤلاء ثلاثة سأكتفى بالحديث عنهم فى عجالة:

هيكل.. عزمى.. ميرهم..

فكل منهم يمثل جانبا من الصورة:

هيكل: ليبرالى من أسرة إقطاعية يؤمن بالحرية ويكره الاشتراكية.

عزى: مثقف يلعب على الحبال ويتأرجح بين الاشتراكية عندما تقوى وبين خدمة الإقطاع والسير فى ركابه عندما تضعف وينتهى به الأمر إلى خدمة الخديو المخلوع.

ميرهم: أرسطوقراطى يؤمن بالاشتراكية إيمانا راديكاليا، لكنه مجرد إيمان عقلى لا يدفعه إلى اتخاذ أية خطوة إيجابية وينتهى به الأمر عضوا فى مجلس الشيوخ، وأحد وسائل الوفد لإخضاع الحركة العمالية لنفوذ البرجوازية.

هذا الحلف الذى تجمع فى الحزب الديمقراطى يستحق التأمل.. وموافقة المستقبلية تستحق الدراسة..

فهيكل.. الذى كان يظن أن قضية الاشتراكية لن تطرح إلا بعد سنوات طويلة، والذى أقنعه الشيخ مصطفى عبد الرازق بأن أمامه ميدان فسيح للعمل مع الاشتراكيين، لم تلبث أحداث الصراع الطبقي العنيق الذى فجره إعلان تكوين الحزب الاشتراكى المصرى أن تدفعه إلى أن يفصم عرى هذا الحلف، ويعلن فى صراحة معارضته لتأسيس الحزب الاشتراكى، فينشر فى الأهرام مقالا بعنوان «الاشتراكية فى مصر» جاء فيه^(٢٣):

«أريد أن أسأل إخواننا الاشتراكيين: هل ترون البيئة المصرية الحاضرة صالحة لقيام مبدئكم فيها أم أنها على عكس من ذلك معادية له، فمحاوله إدخاله إليها - فضلا عن أنها عبث غير منتج - قد يكون من ورائها ارتباك يجمل بهم ألا يجروا البلاد إليه.. لا شك أن إخواننا يعلمون عن يقين أن من أقوى ردود الفردين على الاشتراكيين أن نظريتهم إذا صحت فى الصناعة فهى لا تصلح فى الزراعة، لأن الناس فيها مبعثرون ليست بينهم جامعة ضرورية كعمال الصناعة، ولأن الملكية الصغيرة لا تزال منتشرة جد الانتشار فى النظام الزراعى.. ألا يصح أن نسأل إخواننا الاشتراكيين المصريين عن مبلغ تطور نضال الطبقات فى مصر وإلى أى حد وصل؟ وهل لامست فكرة النضال نفس العمال واستفرتها إلى حد تمكن الإحساس بها من فؤادهم؟ وإذا صح أن كان لذلك شبه وجوده فى بعض الصناعات فهل هو موجود فى الصناعات الأخرى؟ وهل يمكن أن يكون موجودا فى الأرياف؟.. فإذا قدر لحزبنا الاشتراكى أن يتولى الحكومة أول ما يتم لمصر الاستقلال أفتراه يقتصر على ترك الفلاحين كما هم، أم هو يعمد إلى إلغاء الملكية حتى الصغيرة منها؟

إننى أشارك إخواننا الاشتراكيين فيما يرمون إليه من ضرورة إصلاح الطبقات الفقيرة ووضع قوانين لضمان المعيشة وما إلى ذلك من النظم، ولكن شتان بين هذا وبين الاشتراكية.. وإن هذا كله ممكن التحقيق والملكية الفردية قائمة، ولن تكون اشتراكية إلا إذا ألغيت الملكية الفردية.. فأما إذا رأى إخواننا الاكتفاء بهذا والسعى له، حتى إذا تم كان لنا أن ننظر فى النظام الذى يجيء بعده مستلهمين الرأى من تاريخ تطور مصر الاقتصادى فهم طلاب إصلاح اجتماعى لا اشتراكية.. وأما إن كانوا يرون البيئة صالحة لنشر الاشتراكية.. فليفضلوا بإفهامنا هذا على طريقة علمية دقيقة.. وقد يمكن بعد الأخذ والرد أن نتفاهم وإياهم فما نريد إلا مصلحة البلاد..

إنها محاولة ماهرة جديدة لإعادة تكبيل الاشتراكيين فى إسار حزب كالحزب الديمقراطى.. وعندما تفشل المحاولة، يبرز هيكل قطبا من أقطاب حزب الإقطاع (الأحرار الدستوريين).. وإن كان قد ظل لوقت طويل يردد أفكارا ذات صبغة ليبرالية، لم تنس فى أية لحظة عدائها للاشتراكية والبلشفية وفتحت صدرها لأى هجوم عليها.. ولنتابع سريعا بعض أعداد السياسة..

مقال بعنوان «تولستوى والثورة البلشفية»^(٢٤) والمقال فى جوهره هجوم على البلشفية واتهام لها بأنها تنشر الحقد والإرهاب..

وفى رسالة من باريس حول احتفالات أول مايو هناك، تقول السياسة «كان الحزب الشيوعى قد أغرق باريس فى عيد العمل بمنشوراته وغطى جوانب جدرانها بإعلاناته، فتساءلت «الايكودى بارى» من أين له هذه النقود؟.. إن أحدا ليس من البساطة بحيث يعتقد أنها من جيوب العمال.. إن الحزب الشيوعى له مصادر خاصة فوق العادة، ونحن من الشجاعة بحيث نقول: إن مصادره هذه فى الخارج.. فهو وكيل أكبر مشروع مخيف للخيانة وضع ضد بلادنا المسكينة»^(٢٥).

وفى عدد آخر تقول السياسة بعنوان «سلام العالم» «لاريب أن غاية غايات السياسة الروسية هى إحداث ثورة عالمية لنشر المبادئ الشيوعية وأقطاب السياسة الروسية يبذلون جهود الجبابة لتحقيق هذه الفكرة. بل هم يستحلون الحرب ويفضلونها على السلام لتحقيق فكرتهم هذه.. وقد أدركت أوروبا هذه الحقيقة فصارت تعتمد على قواها المسلحة أكثر من اعتمادها على المعاهدات»^(٢٦).

وفى عدد آخر مقالين الأول بعنوان «القضية التركستانية، تعاضد الشعوب الروسية فى محاربة البلشفية» والثانى بعنوان «الشانق فى بلاد البلاشفة.. إمعان زعماء السوفييت فى حكم الإرهاب»^(٢٧).

وتصف «نصر الله إسماعيلوف» بأنه رئيس الشناقين البلشفيين^(٢٨). وهكذا سلسلة لا تنتهى من الهجوم المستمر والمتعدد الجوانب فى كل عدد من أعداد السياسة..

وإذا كنت سأحدث تفصيلا فى فصل قادم عن الحملة المعادية للبلشفية، إلا أننى فضلت أن أشير هنا إلى قليل من هذا الكثير فى محاولة لإعطاء الصورة أبعادها الحقيقية..

وإذا كانت هذه الكلمات كافية لتحديد حقيقة الاتجاهات والآراء التى دافع عنها شيكل، فأنها تصلح أيضا - وبنفس الدرجة - لتحديد طبيعة موقف هؤلاء الذين تعاونوا معه فى إصدار «السياسة» مثل محمود عزمى ومحمد عبدالله عنان.

أما محمود عزمى فهو مثقف يعلن اشتراكيته أحيانا ويخفيها أحيانا كثيرة، وقد كان متزوجا من روسية بيضاء لها ابن عم بلشفى معروف.. فكان يستغل الموقف على الوجهين أيضا.

ومحمود عزمى انتقل من الحزب الديمقراطى إلى الحزب الاشتراكى، لكن عزمى ظل طوال حياته يؤكد أنه ضد البلشفية.. وقد أقام محمود عزمى فى العشرينيات علاقات مع بعض الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية فى أوروبا، وفى عام ١٩٣٠ كون مع عدد من المصريين المقيمين بأوروبا «لجنة تابعة لجماعة حقوق الإنسان».. وهو يفاخر بأن الاتحاد الدولى لحقوق الإنسان قد أعلن «عداءه لكل نظام ديكتاتورى يمينى أو يسارى، فاشى أو بلشفى»^(٢٩).

وهو مرة أخرى يفاخر بأنه «مسجل عند الشيوعيين فى عداد الرجعيين، لأنى مثقف من ناحية والمثقفون فى عمومهم خصوم لذلك النظام الأحمر، ولأن لى مقالات ضد الشيوعية»^(٣٠).

وعقب بدء الحملة على الشيوعيين عمل عزمى فى جريدة «السياسة» جريدة حزب الأحرار الدستوريين^(٣١).

وعلى صفحات السياسة تحدث محمود عزمى كثيرا عن الحرية وعن الديمقراطية وعن حقوق الإنسان، لكنه يسخر قلمه فى الهجوم على الاتحاد السوفيتى والبلشفية والأحزاب الشيوعية فى أى مكان ابتداء من الصين إلى فرنسا.. إلى النمسا.

فهو يتحدث عن أحداث الحرب الأهلية فى الصين، مؤكدا «أن الشيوعيين الصينيين كانوا يتلقون التعليمات والأسلحة والأموال من الملحق العسكرى السوفيتى»^(٣٢).

وتحت عنوان «فرنسا والشيوعية» يتحدث عزمى عن «الحملة الصادقة» التى شنّها ميلران عندما كان رئيسا للوزراء على جماعة الاتحاد العام للعمل، والتى وصلت إلى حد إغلاق دار هذه الجماعة إغلاقا.. وهو يتحدث فى ارتياح عن الهجمات التى شنّها «مسيو سارو» على الشيوعية، وعن دوره الحازم القاسى فى استجواب كاشان بشأنها..^(٣٣).

ثم هو يتحدث عن مظاهرات نظمها الشيوعيون والاشتراكيون فى فيينا. ويقول «وأهم ما نذكره خلال ذلك كله إنما هو الموقف العظيم الذى وقفه رئيس الحكومة النمساوية القس «زيبل».. فقد قامت قيادة الشعب فى فيينا وكثير أعضاء بلديتها من الاشتراكيين والشيوعيين، واضطر الجيش أن يطلق رصاصه دفاعا عن نفسه ثم حفظا للنظام، وقتل فى خلال ذلك خلق كثير.. وتقدم الاشتراكيون ومن إليهم إلى رئيس الحكومة بمطالب يلحون فى تحقيقها، وكان فى أولها استقالة الوزارة أو إدخال تعديل فيها بحيث ينخرط فى سلكها ثلاثة من نوابهم.. لكن رئيس الحكومة أظهر من الشجاعة ما أعجب من أجله العالم كله، فوقف فى وجه المشاغبين وقفة عظيمة مجيدة وأبى أن يذعن لأى من هذه المطالب، إلا أن تقف الثورة ويعود العمال جميعا إلى العمل وتستأنف الحياة العادية، ورفض بخاصة أن يعترف لأولئك الاشتراكيين بأية صفة، ورفض أن يحسب نفسه مسئولا إلا أمام البرلمان وأمامه مجتمع فى جلسته لا أمام أفراد النواب.. بل ذهب إلى حد الامتناع عن دعوة المجلس النيابى إلى الانعقاد قبل أن تهدأ الحالة تماما.. وسرعان ما تقهر الشيوعيون والاشتراكيون أمام هذا الخلق المتين..».

ولا يكتفى عزمى بذلك بل هو يؤكد أن موقف حكومة النمسا هو «مثل يجب أن يحتذى إزاء كل خروج على النظام»^(٣٤).

هكذا ينتهى الرجل تماما.. فهو يهاجم الشيوعيين والاشتراكيين على السواء، وإضرابات العمال خروجاً على النظام، وتعتن الحاكم ورفضه الخضوع لإرادة الشعب ورفضه عقد الجلسات للبرلمان خلق متين وموقف شجاع.

إن عزمى قد تدهور سريعا..

وهو يواصل رحلته إلى مداها.. فيعمل لحساب الخديو المعزول لعدة سنوات «سنوات كنت أعمل خلالها إلى جانب الخديو بأوروبا بمرتب شهرى قدره مائة جنيه تضاف إليه مصاريف الإقامة فى غير باريس تجعله قريبا من المائة والخمسين»^(٣٥).

وهو مبلغ مغر بغير شك..

وإذا كان محمود عزمى قد انتهى هذه النهاية.. فإن مصير عزيز ميرهم يستحق التأمل أيضا.. وميرهم رجل يتميز براديكاليته.. يقول الفكرة ناضجة محددة واضحة وحاسمة، لكنه يكتفى بالفكرة ولا يرهق نفسه فى التنفيذ.. إنه يفكر للاشتراكية لكنه لا يحب أن يعمل من أجلها ولا أن يضحى فى سبيلها..

لكنه مع ذلك رجل يقول ما يريد بشجاعة، وتستهويه التعبيرات الحاسمة، ولا يقبل التحايل أو المناورة فى الأفكار..

وعندما اشتد الهجوم على الحزب الاشتراكى، وعندما بدأ سلامه موسى وغيره من قادة الحزب يتراجعون.. هاجمهم ميرهم هجوما شديدا معلنا أنهم قد خرجوا على الاشتراكية الحققة.. قال^(٣٦): «إنهم لم يتجاسروا على أن يتحملوا أمام رأى العام المصرى مسئولية اعتناقهم المبادئ الاشتراكية كاملة.. وإنهم بذلوا جهدهم كى يبدوا التهم التى رماهم بها خصومهم من أنهم متطرفون خارجون عن الدين هادمون لنظم البلاد الاجتماعية لقوانينها الوضعية.. فتنصلوا جميعا من تهمة التطرف.. ويؤخذ من أقوالهم أن الاشتراكيين المصريين يقررون أن النظم الحالية نظم مرضية يحتفظون بها مع تغيير بسيط لا يمس جوهرها.. وهذا وجه ضعفهم..

أولا: لأنهم بذلك قرروا أن وجودهم وإن كان مستحسنا فهو غير ضرورى.

ثانيا: لأنهم بالغوا فى رضاهم عن الأنظمة الحاضرة حتى تهاونوا فى الإصلاحات التى ينشدها الاشتراكيون الأصمام، وكانت النتيجة أنهم اكتفوا بأن يأخذوا من الاشتراكية اسمها - والاسم فقط - دون مبادئها، وكانوا فى الواقع أول الهامين لوجودهم.

ثم أدان ميرهم هجوم بعض قادة الحزب على البلشفية وقال: «وصل الاشتراكيون المصريون فى مجازاة الرأى العام أن أنكروا البلشفية وطعنوا فى مبادئها، مع أن البلشفية - أصابت أو أخطأت - هى على كل حال من الاشتراكية.. وإنى كنت أود ألا يكون إخواننا

الاشتراكيون «تفتازانيين» أكثر تفتازانية من التفتازانى(*) وألا يرموا البلشفية - رغم غلطاتها - بطعنات صدروا بها بياناتهم ولم يثبتوا منها مبدئياً.

فإن البلشفية لم تحقق إخفاقا يكاد يكون تاما - كما يزعمون- ولم تنتشر على ربوع البلاد الروسية ألوية الدمار والخراب كما يزعمون، إنما البلشفية ناهضة حية.. والبلشفيون عاملون على تعميم المدارس للمولودين وإنشاء حدائق للأطفال وملاجئ للشيوخ ومستشفيات للعموم.. وأصبح الغذاء عندهم مشاعات ومخازن البلديات تصرف للأفراد حاجاتهم، ويدفعون ثمنها من عملهم دون وساطة التجار وأصحاب المصارف، والشعب يختار نوابه وله حق إقالة من يفقد ثقته، والناس جميعا يعيشون عيشة عادية منظمة.. وأن ما يأخذه أعداء البلشفية برهانا على تخريبها للبلاد الروسية هو برهان فاسد، فالجماعة راجعة إلى أسباب جوية طبيعية محضة.. إنى لا أقول بأن البلشفيين لم يرتكبوا أخطاءً فظيعة، ولكن هذا شأن القائمين بتحقيق الأنظمة الجديدة لا بالتطور بل بالقوة، أى باستعمال العنف والقلب الفجائى.. ولكنى أرى أنه من الفضيحة بالنسبة لهم، وبصفتهم اشتراكيين، أن يطعنوا على البلشفية ويفترون عليها لكرهيتهم لوسائلهما».

وهكذا فإن كان أعضاء الحزب من اشتراكيى الدولية الثانية والفابيين قد أصبحوا «تفتزانيين» أكثر من «التفتازانى».. فإن ميرهم - وهو خارج الحزب وبالرغم من انتقاداته للبلشفية قد دافع عنها بحيث بدأ وكأنه بلشفى أكثر من البلاشفة.. وفى مجال آخر يقدم ميرهم أفكارا جريئة.. فهو يوجه رسالة إلى صاحبة جريدة الأمل بعنوان «الثائرة» يقول فيها: (٢٧)

«الجمهور يتابع ثورته التى لم تتحقق أغراضها بعد».

ويتحدث عن الثورة فيقول «ليست الثورة فى أعمال الهدم والتخريب ولا فى إراقة الدماء والقضاء على الأنفس، وإنما الثورة فى قلب القديم الفاسد المنحل وفى الإنشاء والتجديد.. فهى دليل الصحة، دليل القوة، دليل الحياة».

ويقول «بالطبع إننا نستحسن عدم الثورة، ونستحسن الأخذ بنواحي الإصلاح عن طريق التدرج والتطور.. ولكن ما العمل إذا كانت هناك مقاومة؟ ما العمل إذا كانت هناك عناصر قوية رجعية تؤخر الجماعة دون أن تسير بها حسب السنن الطبيعية للتقدم العالمى؟ ما العمل إذا تفشى الفساد فى البلاد بدرجة تجعل النفوس تئس من كل إصلاح تدريجى، فتوقن أن الهدم أسرع طريق للبناء من مجرد المعالجة».

«إن الشعب ثائر لا محالة، ثوران القوى المعتز بحقه، ثوران الصحيح الحريص على صحته، ثوران كل كائن يريد الحياة فيقاوم عوامل المرض والعناء».

وهو فى مقال آخر يعلق فيه على برنامج جريدة الامل.. يقول «إنه من أنصار التجديد الحاسم، من أنصار معالجة أمور الجماعة باستئصال الداء منها لا باستعمال المخدر أو اللطف من الأدواء»^(٣٨).

لكنها مجرد كلمات جميلة وثائرة.. فصاحب هذه الكلمات لم يسهم بأى عمل سوى هذه الكلمات الجيدة.. وفى عام ١٩٢٩ نجد اسمه ضمن أعضاء مجلس الشيوخ.

وفى عام ١٩٣٠ يحاول أن يخضع الطبقة العاملة لقيادة الوفد.. وفى عام ١٩٤١ يلقي محاضرات فى الجامعة الأمريكية.. يقول فيها: إن «الاشتراكية السمحاء بعيدة عن حرب الطبقات وعن الطفرة والعدوان ومصادرة الأموال».

ويتحدث عن العلاقة بين العمال وأصحاب الأعمال فيقول أنها «بدأت تتجه نحو الصفاء والشعور بضرورة التعاون لمصلحة الإنتاج العامة وللمصلحة الخاصة للعمال وأصحاب الأعمال جميعاً، وترفع الولايات المتحدة الأمريكية لواء الزعامة فى نشر هذه الآراء الحديثة»^(٣٩).

لكنه مع ذلك يقرر فى نفس المحاضرة «إن البلد المخلص فى مبادئه، العظيم فى اقتصاده، هو الاتحاد السوفيتى.. وهو محط الأنظار لجميع الأحرار، والموئل الذى تلجأ إليه الديمقراطية الصادقة»^(٤٠).

لكننى أستطيع أن أقرر أن عزيز ميرهم رغم كلماته الحاسمة والواضحة، ورغم أنه اكتفى بمجرد الكلمات، قد مر فى تاريخ الفكر المصرى مروراً عابراً دون أن يترك أثراً يذكر.. وربما كان ذلك لأنه اكتفى بمجرد الكلمات.

والحقيقة أن الانهيار السريع- والذى يشبه إلى حد كبير حالة الوفاء بالسكتة القلبية- الذى أصاب الحزب الديمقراطى.. لم يكن سوى تعبيراً عن عجز أفكار الدولية الثانية عن أن تنبئ فى مصر نباتاً أصيلاً.. ولسوف نرى أن انهيار التحالف الذى كونه الحزب الاشتراكى كان أيضاً تعبيراً عن نفس الظاهرة.

وقائمة اشتراكى الدولية الثانية كثيرة.

الدكتور على العنانى أستاذ الفلسفة وهو أحد الأربعة الذين وقعوا بيان تأسيس الحزب الاشتراكى، يعلن أنه «يمقتها كل المقت» وأنها تقتافر «مع طبيعة الوثام الإنسانى العام».. وهو يعلن أن اشتراكيته هى الاشتراكية العملية العملية المعتدلة^(٤١).

وهناك حسنى العرابى أحد الأربعة المؤسسين أيضا.. فهو بالرغم من أنه تزعم فيما بعد عملية تحويل الحزب إلى حزب شيوعى ينتمى للدولية الثالثة، إلا أنه يتعين علينا أن نذكر أنه قد ترجم فى مطلع العشرينات كتاب «الحركة الاشتراكية» لرامزى ماكدونالد.. وقدمه للقارئ المصرى قائلا: إنه رئيس الحكومة الإنجليزية وزعيم «الدولية الثانية».. وقد اكتفى العرابى بالترجمة ولم يكتب أى تعليق أو مقدمة، لكن مجرد ترجمة كتاب كهذا تمثل بالنسبة لنا دلالة مهمة.

ولست أريد أن أستعرض هذا الكتاب، لكننى سأكتفى بإشارة واحدة.. فى الكتاب الذى ترجمه حسنى العرابى سكرتير الحزب فصل بعنوان «ما ليس من الاشتراكية».. وتحت هذا العنوان كلمتان الفوضوية والشيوعية^(٤٢).

أما رابع الأربعة المؤسسين للحزب الاشتراكى فهو «محمد عبد الله عنان».. ومحمد عبد الله عنان «نموذج كلاسيكى لمدرسة الدولية الثانية».. وعنان واحد من الذين سارعوا إلى التراجع تحت وطأة للهجوم المحموم الذى شنته الرجعية على الحزب.. فهو ينشر مقالا بعنوان «الاشتراكية المصرية لا تدعو إلى ثورة أو فوضى»^(٤٣).

وأشاد.. فى هذا المقال بمقالى «الوفيق» سلامة موسى و«الرفيق» على العنانى.. وتحدث عن الفروق بين الشيوعية والاشتراكية فقال: «أما اقتران الاشتراكية بالفوضى والشيوعية فهو خطأ جسيم، لأن الشيوعية تقوم على اعتبار الثروة كتلة عامة يستمد منها المستهلك حاجته، لا بالنسبة إلى خدماته ولكن وفقا لحقوقه الطبيعية فى أن تسد حاجاته.. أما الاشتراكية فإنها تعلق المنح على قوة الإنتاج وقيمة الخدمات، فكل المبدأين ينفقا فى توحيد الثروة ولكنهما يختلفان فى تحديد حقوق الفرد بالنسبة إليها، لأن الاشتراكية تقرر التوزيع طبقا للكفاءة الشخصية، والشيوعية تقرره طبقا للحاجة البشرية. إن القول على إطلاقه بأن الاشتراكية ترمى إلى محو الملكية الشخصية خطأ شديدا كخطأ قرنهما بالفوضى، فالاشتراكية لا تريد إلا القضاء على النتائج السيئة التى تؤدى إليها الملكية الشخصية بشكلها الحاضر وتحقيق أنظمتها العادلة المستطاعة.

إن الاشتراكية لا تحتم إلغاء الوراثة ولا تعترض عليها إلا حيث تفضى إلى دفع السواد الأعظم.. وبالجمله فإن برنامج الاشتراكية الاقتصادية يرمى إلى تحطيم نظم الاستثمار والاستغلال بتحديد حق الملكية الشخصية.. أما المساواة فى الاشتراكية فليست مساواة فى الحالة الاجتماعية مطلقا، وما هى إلا مساواة فى «الفرص» غيبداً الطفل حياته وجميع الأبواب مفتوحة فى وجهه، فلا يغلق ثمة منها فى وجهه ما يستطيع ولوجه. إن استبدال رأس المال هنا شائن بالغ حد الإرهاق، وإن استئثار طائفة برأس المال هنا يقترن به طغيان فادح يوضحه لك عنف أصحاب الضياع بالفلاح البائس انتعس».

إلى هنا والكلمات لا غبار عليها فهى قد تكون مقبولة- إلى حد ما- من كلا الطرفين الاشتراكيين والشيوعيين..

لكن الصدام الحقيقى يبدأ عندما يقود عنان الحملة ضد الاتجاه الذى تزعمه حسنى العرابى ومارون وصفوان أبو الفتح بضرورة الانضمام للدولية الثالثة..

وانفصل محمد عبد الله عنان عن الحزب معلنا اعتراضه..

انفصل ليعمل هو أيضا فى رحاب «الأحرار الدستوريين» فى مجلة «السياسة» ومجلة السياسة ليست بحاجة إلى مزيد من الإيضاح.. لكن المهم أن محمد عبد الله عنان وأصل الكتابة فأصدر سلسلة من الكتب شرح فيها آراءه فى الاشتراكية.. والشيوعية..

والحقيقة أن عنان قد حيرنى كثيرا فهو فى أحيان يمجّد البلاشفة والماركسيين، وفى أحيان أخرى -بل وبعد صفحات قليلة- يهاجمهم. ولنتأمل أحد كتبه «تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة» (*).

فهو يتحدث عن ماركس قائلا: إنه «رجل من أئمة الثورة وأقطاب الهدم(**)» وهو من أعظم دعاة الشيوعية بل هو موضح أصولها العلمية ومنظم أساليبها الثورية»^(٤٤).

وقد أفهم ماركس وانجلز العالم أن الاشتراكية ليست عطا على بؤساء المجتمع من نوى الأفتتدة الرقيقة والطبائع البارزة بل هى بالعكس انقلاب اجتماعى هائل وأنه لا خلاص للعمال ولا فوز إلا بصراع هائل ينشب بينهم وبين الطبقات الحاكمة المستأثرة بالثروة والسيادة وكانت آراء ماركس وانجلز المنطقية ضربة ساحقة للمثالية والطوباوية فقويت الاشتراكية واشتد ساعدها حتى أصبحت صراعا ماديا واضحا بين الطبقات وارتفع ما حاق بها من الغموض وأصبحت قضية يدركها الفرد العادى.. فشعر العامل

بقوة التضامن مع رفاقه من كل البلاد ودوت فى أذنه صرخة ماركس وانجلز «ياعمال العالم اتحدوا»^(٤٥).

ويعد أن شرح شرحا مستفيضاً نظرية ماركس ولخص تلخيصاً وافياً «البيان الشيوعى» ينتقل ليقول «كلمة موجزة عن الرجل الذى استطاع بعزمه الفياض وذكائه الخارق أن يجعل مثل ماركس حقيقة واقعة وأن يقيم بمؤازرة زملائه أول جمهورية اشتراكية فى التاريخ.. ذلك الرجل هو لينين، أعظم تلاميذ المدرسة الماركسية وأعظم دعاة الثورة العالمية، ومنشئ الدولة الشيوعية الثالثة وأول رئيس لجمهورية روسيا الاشتراكية»^(٤٦).

«وقد ظهرت مواهب هذا الرجل العبقري رائعة خارقة فقد استطاع فى غمار هائلة من الصعب والخطوب أن يسير دفة المجتمع الجديد، الفذ فى نظمه وغاياته بمهارة مدهشة واستطاع أن يرعى الثورة الفتية.. ولم يمض عام حتى كانت الجمهورية الجديدة قد اجتازت أشواطاً فى سبيل النظام والاستقرار»^(٤٧).

وبعد مديح طويل للينين والبلاشفة وللاتحاد السوفيتي.. يعود عنان ليتخذ الموقف النقيض ويبدأ الهجوم بعد صفحتين فقط..

«الدولة الشيوعية قوة خفية.. فكرة يحملها جيش هائل من الدعاة يجتاحون أرجاء العالم، تشهد أعمالهم ولا تراهم، وتهيمن أشباحهم المظلمة فى أفق كل اضطرابات وثورة ويهرع إلى لوائهم كل ناقم وبأس ومغامر.. هذه هى الدولة الشيوعية التى تقبض موسكو على ناصيتها ويسيرها خلفاء لينين وتلاميذه»^(٤٨).

ويقول «ولكن الدولة لا تستطيع رغم جهودها أن تقنع السواد باعتراف أهدافها الخلابية ومثل روسيا قائم يشهد بأن التجربة الشيوعية كانت خيبة، وأن تعاليم ماركس ما زالت حلماً وحشياً لم تحقق منه إلا لمحات ضئيلة»^(٤٩).

كل هذا التناقض فى كتاب واحد.. بل وفى صفحات متقاربة.. ولعله يفسر فى ذاته ذلك الاضطراب والخلط والتناقض الذى يقع فيه واحد من اشتراكيى الدولة الثانية عندما يحتفى من موجة العداء للاشتراكية فى رحاب حزب الإقطاع.. وثمة مثقفون آخرون غير هؤلاء كانوا هم أيضاً أصدقاء مصرية لفكر الدولة الثانية ومن هؤلاء حسين نامق(*)..

وحسين نامق يقول عن نفسه وعلى غلاف كتابة أنه خريج جامعة أكسفورد، والكتاب عبارة عن أسئلة وأجوبة حول الاقتصاد السياسى.. وفي الكتاب فصل عن الاشتراكية.. ولنتأمل الأسئلة.. والأجوبة(**).

س: ما هى الاشتراكية؟

ج - هى التعاون الإجبارى فى الإنتاج.

س: ما المراد بالتعاون الإجبارى؟

ج - أن يكون منظما وتحت إشراف الحكومة.

س: فيم يكون التعاون الإجبارى؟

ج : فى جميع المرافق الإنتاجية كالسكك الحديدية والتلغراف والتليفون والبريد والطرق الزراعية والمعامل والمصانع والحقول وغيرها.

س: ما نوع الحكومة التى يكون تحت إشرافها التعاون الإجبارى؟

ج - يجب أن تكون حكمة ديمقراطية لا مركزية بمعنى أن يعطى الحكم الذاتى لكل إقليم ولكل بلد ولكل قرية.. حتى يتسنى لجميع الأفراد الاشتراك فى إدارة شئون أمتهم.
ثم أسئلة أخرى أكثر صراحة..

س: ما رأى الاشتراكيين فى الملكية؟

ج: يرون أن يقضى على التملك الفردى لتصبح الأرض وما عليها مشاعة بين الناس ينتفعون بها على السواء والملكية فى نظرهم هى السرقة والاختلاس.

س: ما رأى الاشتراكيين فى رأس المال؟

ج : يرون جعل رؤوس الأموال مشتركة بين جميع الناس حتى يصبح كل أفراد الأمة ممولا فى هذا المال المشترك.

س: ما رأى الاشتراكيين فى المرء العاقل؟

ج: العاقل غنيا كان أو فقيرا لص؛ لأنه أخذ من مال الأمة ولا يبذل لصالحها..

وتتوالى أسئلة وأجوبة أخرى كثيرة أهم ما يلفت النظر فيها أنه يقول: إن «أتباع كارل ماركس يسمون بالاشتراكيين الفنين»^(٥٠).

وإن من حسنات الاشتراكية أنها تنادى بنشر التعليم المجانى وبإبطال الحروب وبمنع الخمر..

وإن من مزايا الاشتراكية أنها «حركت فينا عواطف الشفقة والمحبة نحو الطبقة الفقيرة وأنها غير راضية عن الحكومات الاستبدادية وأنها لا تنافى الديانات الحقّة»^(٥١).

ولكن أخطر ما يقوله نامق فى كتابه هو تأكيدهُ أن الاشتراكية يمكن أن تنشأ فى ظل النظام الاجتماعى والدستورى الحالى نافيا أن الاشتراكية تسعى لتغيير هذا النظام.. فهو يسأل «هل الاشتراكية مشتقة من النظام الدستورى الحالى؟ والجواب نعم، وبيان ذلك أن كثيرا من الحكومات الآن تملك أو تدير أغلب المرافق الإنتاجية، والاشتراكية تنادى بجعل هذه المرافق تحت إشراف الحكومة ولكن على نطاق أوسع وأهم مما هى الآن»^(٥٢).

ولا ينسى المؤلف بطبيعة الحال أن يدعو لحزبه.. فثمة سؤال «هل ظهرت الاشتراكية فى مصر؟».. والجواب «نعم نهض نفر من إخوان العمل فى مصر وألّفوا حزبا يسمى بالحزب الاشتراكى المصرى»..

وسؤال آخر.. «هل لهذا الحزب مبادئ معلومة؟.. نعم له مبادئ تنقسم إلى ثلاثة أقسام وهى سياسية واقتصادية واجتماعية»^(٥٣).

ثم يستطرد فيورد تقريرا النص الكامل لبرنامج الحزب.

وإذا كانت أفكار حسين نامق هى نموذج لتأثر الطلب المصرى فى جامعة أكسفورد بأفكار حزب العمال البريطانى فثمة طلاب آخرون تأثروا بالأحزاب الاشتراكية الأوروبية الأخرى.. البعض بالحزب الألمانى مثل عصام ناصف، عبد الفتاح القاضى وآخرون.. والبعض بالتيارات الاشتراكية فى فرنسا وهؤلاء هم أعضاء الجمعية المصرية فى باريس.. والجمعية المصرية فى باريس تكونت فى الأساس كتجمع لشباب الحزب الوطنى هناك يستهدف تعبئة الجهود المصرية فى الدعاية للقضية الوطنية أمام مؤتمر الصلح، لكن هذه الجمعية سرعان ما اتخذت اتجاهها يساريا..

فمؤسسا الجمعية خليفة بوبلى وعبد جوده كانا عضوين فى الجناح اليسارى لحزب حقوق الإنسان بفرنسا شعبة الحى الخامس بباريس وقد استطاعا أن يقيما علاقة وثيقة بين الاشتراكيين الفرنسيين وبين هذه الجمعية..

فأقنعا «لوسيان باركسيو» رئيس شعبة الحى الخامس بالدفاع عن القضية المصرية فى مؤتمر الحزب»^(٥٤).

كذلك أقامت الجمعية علاقة بالحزب الاشتراكي الفرنسي، وخاصة بزعيمة مارسيل كاشان، وقد قام كاشان بزيارة مقر الجمعية معرباً عن تأييد حزبه للقضية المصرية واستعداده لمساعدتها بكل ما فى وسعه «ثم طلب من الأعضاء أن ينتدبوا أحدهم ليشرح للطلبة الاشتراكيين أصل المسألة ويفهمهم ما يغيب عنهم من تفاصيلها»^(٥٥).

«وبالفعل أرسلت الجمعية ثلاثة من أعضائها إلى مؤتمر نظمته الحزب الاشتراكي الفرنسي ليشرحوا تطورات القضية المصرية. وفى ختام الحفل هتف الاشتراكيون الفرنسيون «لتحيا مصر» ووقف المصريون والفرنسيون معا لينشدوا نشيد الدولية»^(٥٦).

كذلك قام كاشان بتقديم عدد من ممثلى الجمعية إلى بعض مساعدى ويلسون فى مؤتمر الصلح.

«وعندما وصل سعد زغلول والوفد المصرى إلى باريس أقام الحزب الاشتراكي الفرنسى وحزب حقوق الإنسان حفل تكريم يرأسه مارسيل كاشان...»

وألقي مارسيل كاشان كلمة قال فيها «إذا كنتم قد طرقتم أبواب الاستعماريين فأقبلوها فى وجوهكم فإن الشعب الفرنسى يفتح لكم أبوابه»^(٥٧).

وقد اهتمت الجمعية بإقامة علاقات بالحزب الاشتراكي الإيطالى وبكثير من القوى اليسارية فى أوروبا.

وإذا كانت ثورة ١٩١٩ قد اتخذت لنفسها راية وطنية هى رقعة خضراء وثلاثة نجوم رمزا للديانات الثلاث.. فإن الجمعية المصرية فى باريس اختارت علما أحمرًا ذا ثلاثة نجوم.

ولأمد طويل ظل العلمان الأخضر والأحمر يرفرفان فى سماء محبس.

كذلك عندما وصل الوفد إلى باريس حاول أعضاء الجمعية إقناعه بأنه لاجدوى من أحزاب اليمين وأنه لا سبيل سوى التحالف مع الأحزاب اليسارية، ورفض سعد زغلول ذلك^(٥٨).

وإذا كان الوفد يميل إلى البحث عن حل وفاقى، بينما تطالب الجمعية المصرية وهى فى الأساس تجمع لشباب الحزب الوطنى عندما يندفعون يسارا فينادين بضرورة اتخاذ موقف صارم وحاسم وهو «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء التام».

فلا بد أن يحدث صدام..

ويتزعم هذا الصدام شابان يساريان متأثران بالحزب الاشتراكي الألماني هما مجد الدين حنفى ناصف وعصام الدين حنفى ناصف.

ويقول عصام أنه قال لسعد «إننا نسحب منك الثقة، فامتعض سعد قائلاً: إنه يمثل الأمة كلها وليس حفنة من الطلبة»^(٥٩).

كذلك يبدو أن الجمعية المصرية قد أزجعت الوفد لأنها بدأت تمد نشاطها إلى مصر وتؤسس لها فرعاً بالقاهرة وتجمع التبرعات وتحرض الشعب على المقاومة ورفض التهادن ويبدو أنه عندما وقع الخلاف امتنع الوفد عن تمويل نشاط الجمعية فلجأت إلى جماهير الشعب المصري التي تبرعت لها بسخاء..

وينزعج الوفد من ذلك كله ويرسل على ماهر من باريس رسالة سرية إلى عبدالرحمن فهمي تقول: «يظهر أن مسألة الجمعية المصرية قد اتسعت أخيراً وذلك لعطف البلاد في أعضائها ومساعدتهم بالأموال وإيجاد لجنة لهم في مصر.. وظاهر أن مثل هذه التصرفات لا تتفق مع وحدة العمل ووحدة الوجهة فإنهم مهما كان شعورهم عظيماً يقعون في الأغلاط كثيرا، ولا يؤمن عليهم من غير إشراف الوفد، ولذلك يكون الأولى أن يترك الأمر للوفد فهو يقدم لهم ما يلزمهم من النقود ويشرف على أعمالهم بوجه الإجمال..

وإني من وقت وصولي كان همي ضم الجمعية للوفد حتى يعامل أعضاؤها كأبنائه ويساعدهم بكل ما يلزمهم إلا أنهم كانوا في غاية العند وأشداهم عنادا هو مجد الدين أفندي ناصف، فلذلك أرى أنه إذا عاد ليخدم القضية في مصر يكون أصلح للوفاق هنا»^(٦٠).

لكن هذا الصدام لا يعنى أن سعد زغلول لم يكن يدرك أهمية الحركة اليسارية في أوروبا أو أنه لم يحاول الاستعانة بها..

فسعد كان يحاول اللجوء إلى الحركة الاشتراكية ولكن بقدر محدد بحيث لا يسمح للإنجليز باتهامه باليسارية..

فهو يكتب مقالات في الأومانيته وفي الديلى ميرالد..

كذلك قام الوفد في ٩ نوفمبر ١٩١٩ بإرسال مذكرة إلى المؤتمر الاشتراكي الدولي تحدث فيها «عن مطالب مصر وما تنتظره من الاشتراكيين من العون والمساعدة.. وأخذ يبرهن على أن الإسلام يتفق مع روح الاشتراكية.. ثم أشار إلى روح التضامن التي بين

المزارع وصاحب الأرض وإلى مسألة الأوقاف الخيرية وقال: إن الرابطة الزوجية عندنا تعادل الرابطة الحرة التى يقول بها الاشتراكيون..

ومع المذكرة أربعة ملاحظات من التعليم والأنظمة السياسية والمالية العامة والمساءلة الاقتصادية»^(٦١).

وفى ٥ ديسمبر ١٩١٩ أرسل الوفد مندوبين رسميين عنه للإدلاء بأقوالهم أمام اللجنة المركزية لحزب حقوق الإنسان.. وكان مندوبوا الوفد أحمد لطفى السيد، مصطفى النحاس ومحمد على^(٦٢).

وعقب المناقشة قررت اللجنة المركزية تأييد القضية المصرية وعقد سلسلة من المحاضرات لشرحها.

وفى ١١ ديسمبر نظم الحزب اجتماعا جماهيريا تحدث فيه واصف بطرس غالى وفى نهاية الاجتماع أعلن المجتمعون أنهم «يرسلون إلى الشعب المصرى سلامهم وأمانهم.. ويرجون أن ينال هذا الشعب النبيل أمانيه الشرعية فى ظل السلام».

وفى ٤ أغسطس أرسل الوفد برقية إلى هندرسن رئيس المؤتمر الاشتراكى المنعقد بلوسرن وقد احتج الوفد فى برقيته على معاهدة الصلح طالبا باسم مصر عون المؤتمر الاشتراكى على الظلم القاسى الذى حاق بمصر»^(٦٣).

كذلك قرر الوفد أن يقدم نوعا من المساعدة المادية لجريدة «الأومانتية» فتبرع لها بمبلغ ١٥.٠٠٠ فرنك لكن مجلس إدارة الجريدة رفض - من ناحية المبدأ - قبول هذا التبرع، فأرسله سعد زغلول إلى اكتتاب كان مفتوحا لتخليد ذكرى الزعيم الاشتراكى «جوريس»^(٦٤).

لكن كل هذه العلاقات لم تكن أكثر من محاولة للاستفادة من اليسار دون أى ارتباط به.

وعندما أشارت الجازيت فى ١٩ مايو ١٩٢١ إلى أن سعد أدلى بتصريحات لجريدة الديلى هيرالد وألحت إلى عطفه على مبادئ حزب العمال سارع إلى نفي ذلك قائلا: «أدهشنى ما قرأته فى صحيفتكم من ارتياحى لخطة الديلى هيرالد الاجتماعية.. ولكنى أقول لكم ولقرايكم: إنى لست ممن يهتمون بالمباحثات فى هذه الشؤون الاجتماعية، وإنى لا أجهد نفسى فى أمر الكومونة أو البلشفية.. إذ ليست عندى أى فكرة عن هذه الوجهة»..

وفى الوقت الذى كان الوفد فى باريس يتلمس تأييد اليسار كان سعد يرسل سرا إلى عبدالرحمن فهمى مؤكدا «أن الوفد غير راض عن المنشورات التى تتضمن الانتصار للبشفيك، فإن هذه المنشورات يستفيد منها أعداؤنا»^(٦٥). وهكذا فإذا كانت علاقات التيارات المختلفة باليسار الأوروبى وبحركة الدولية الثانية يمكن تفسيرها بمضامين سياسية أو اجتماعية، فإن علاقات الوفد المصرى بهذه الحركة كانت موقفا عمليا بحثا يستهدف الاستفادة من هذه القوى فحسب. فسعد زغلول كان قد حسم الأمر أكثر من مرة معلنا أنه ضد الاشتراكية.

هوامش

- (١) عبدالرحمن الرافعى - محمد فريد - ص ٢٧٨
- (2) Ouvree du Congres National Egyptien tenu a Bruxelles 1910. p.10.
- (٣) المرجع السابق ص ٧.
- (٤) المرجع السابق - ص ١٣.
- (٥) المرجع السابق ص ٤٨٥.
- (٦) المرجع السابق - ص ٣١.
- (٧) المرجع السابق - ص ٤٣.
- (٨) عبدالرحمن الرافعى - مذكراتى - ص ٢٥.
- (٩) المرجع السابق.
- (١٠) عبدالرحمن الرافعى - محمد فريد - المرجع السابق ص ٢٦٦.
- (١١) اللواء ١٩١١/٧/١.
- (١٢) راجع روف عباس المرجع السابق. ومحمد عبدالعظيم رمضان. تطور الحركة الوطنية فى مصر.
- (١٣) راجع محضر النقاش مع عصام الدين حفى ناصف حيث يقرر أنه كان عضوا فى الحزب الوطنى ثم اتجه يسارا بتأثير الفكر الاشتراكى الألمانى. راجع كذلك محمد أنيس - دراسات فى وثائق ثورة ٩١٩ حول الدور الثورى المتطرف الذى لعبه مجد الدين حفى ناصف إلى لحد الذى دفع سعد زغلول إلى محاولة إبعاده عن باريس وإعادته إلى مصر لإضعاف تأثيره على جماهير الطلاب المصريين بأوروبا. ص ٢٢٩ - ٢٥٣.
- (١٤) توفيق دياب - اللمحات - المجموعة الأولى - ص ١٠٢.
- (١٥) مجلة اللغة العربية. المرجع السابق كلمة شفيق غربال فى تأبين الدكتور هيكل - ص ٢١٢.
- (١٦) المرجع السابق ص ٢١٦.
- (١٧) محمود عزمى خبايا سياسية ص ٣٦.
- (١٨) شفيق غربال - المرجع السابق - ص ٢١٨.
- (١٩) وهو مطلب هام يستهدف (أ) القضاء على امتيازات الأجانب فيما يتعلق بالتقاضى.
- (ب) إحلال التشريع المدنى الموحد محل التشريع الدينى الذى يحكم الأحوال الشخصية.
- (٢٠) راجع النص الكامل. مجلة الطليعة، عدد فبراير ١٩٦٥ ص ١٥.
- (٢١) عزيز ميرهم - الديمقراطية - ص ٢٨.
- (٢٢) محمود عزمى - المرجع السابق - ص ٤٢.
- (٢٣) الأهرام ١٩٢١/٩/١٧.
- (٢٤) السياسة الأسبوعية ١٩٢٧/٢/١٢.

- (٢٥) ١٩٢٧/٥/٢١.
- (٢٦) ١٩٢٧/٦/١٨.
- (٢٧) ١٩٢٧/٦/٢٥.
- (٢٨) ١٩٧٢/٨/٢٠.
- (٢٩) محمود عزمى - خبايا سياسية - المرجع السابق ص ٨٠.
- (٣٠) المرجع السابق - ص ٨٢.
- (٣١) المرجع السابق - ص ٧٠.
- (٣٢) السياسة الأسبوعية ١٤/٥/١٩٢٧.
- (٣٣) ١٩٢٧/٦/١١.
- (٣٤) ١٩٢٧/٨/٢٧.
- (٣٥) محمود عزمى - خبايا سياسية - المرجع السابق - ص ١٢٦.
- (٣٦) الأهرام - ١٩٢١/٩/٢٠.
- (*) الشيخ التفتازانى هو أحد الذين شنوا حملات ضارية ضد الاشتراكية وضد الحزب الاشتراكي في ذلك الحين.
- (٣٧) الأمل ١٤/١١/١٩٢٥.
- (٣٨) عزيز ميرهم - الديمقراطية - المرجع السابق - ص ٤١.
- (٣٩) المرجع السابق - ص ٥١.
- (٤٠) المرجع السابق - ص ٥٢.
- (٤١) الأهرام ١٩/٨/١٩٢١. وفي وقت لاحق (١٩٣٠) نشر د. على العنانى مقالا في مجلة كل شيء أكد فيه تمسكه بالفلسفة الهيجلية وأساسا لفكرة الأحادية Monoisem فيها ويربط بينها وبين فكرة التوحيد في الإسلام.
- (٤٢) رامز ماكرونال- الحركة الاشتراكية- ترجمة محمود حسنى العرابى - ص ٨٧.
- (٤٣) الأهرام ٢٥/٨/١٩٢١.
- (*) صدر في ١٩٢٦ عن دار الهلال.
- (**) يستخدم المؤلف كلمة الهدم كبديل لكلمة التغيير، وهو يقصد بالحركات الهدامة الحركات التي تستهدف تغيير نظم الحكم بالقوة بغض النظر عن تقويم أهدافها ذاتها.
- (٤٤) ص ١٨٦.
- (٤٥) ص ١٨٩.
- (٤٦) ص ٢٠٥.
- (٤٧) ص ٢٠٧.
- (٤٨) ص ٢١٠.
- (٤٩) ص ٢١٢.
- (*) مؤلف كتاب خلاصة الاقتصاد ونبذة من التاريخ الاقتصادى.
- (**) المرجع السابق ص ١١٤. ويلاحظ أن أسلوب الأسئلة والأجوبة كان أسلوبا معتمدا في الكتابات الماركسية في أوروبا في ذلك الحين.

- (٥٠) ص ١١٨.
(٥١) ص ١١٩.
(٥٢) ص ١١٥.
(٥٣) ص ١٢١.
(٥٤) محمود أبو الفتوح - المسألة المصرية والوفد - ص ١٢.
(٥٥) المرجع السابق - ص ٢٣٤.
(٥٦) المرجع السابق - ص ٢٣.
(٥٧) المرجع السابق - ص ٣١.
(٥٨) المرجع السابق - ص ٩٠.
(٥٩) راجع محضر النقاش مع عصام الدين حفنى ناصف. الملاحق.
(٦٠) محمد أنيس - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ - ص ٢٥٢.
(٦١) محمود أبو الفتوح - المرجع السابق - ص ١٢٩.
(٦٢) المرجع السابق - ص ١٤٩.
(٦٣) محمود أبو الفتوح - مع الوفد المصرى - ص ٨٦.
(٦٤) عبدالعظيم رمضان - المرجع السابق - ص ٢٠٩.
(٦٥) محمد أنيس - المرجع السابق - ص ٢١.

الماركسية

وكما وجدت المدارس الاشتراكية الأخرى كان طبيعيا أيضا أن تجد الماركسية لنفسها دعاة مخلصين فى مصر..

والغريب فى الأمر أن هؤلاء الدعاة قد وجدوا فى وقت مبكر جدا، فى مصر لم يكن يتخيل فيه إنسان أن الماركسية قد وجدت طريقها إلى مصر..

وليس بالإمكان - للأسف - أن يقدم الإنسان حصرا متكاملأ أو حتى شبه متكامل للأفكار الماركسية التى ترددت فى ذلك الحين.

فإن الكثيرين قد عبروا عن هذه الأفكار فى همس وسرية، والمؤرخون أجمعوا على تعمد تجاهل هذه الأفكار، وما يعثر عليه الآن يتطلب بحثا مضنيا وجهدا شاقا.. لكننا مع ذلك سنحاول أن نقدم بعض النماذج للأفكار الماركسية التى ترددت فى مصر هذا الوقت المبكر..

وأول ما نعثر عليه هو مقال بغير توقيع، منشور فى مجلة المؤيد فى عام ١٨٩٠ تحت عنوان «الاقتصاد السياسى» كل ما نعرفه عن كاتبه أنه «أحد الفضلاء القراء»^(١).

ولنقرأ معا كلمات الرجل الذى لانعرف اسمه، واضعين فى الاعتبار بطبيعة الحال أنه يستخدم أسلوب عصره فى الكتابة.

«فى مسألة اقتسام الأموال»:

«إذا كانت الأموال كمية غير محدودة، فليس من حاجة تلزمنا البحث عن كيفية اقتسامها إذا كنا نترك كل إنسان يأخذ منها ما يشاء.. نعم إن الأموال ليست كمية محدودة، ولكنها تقرب من ذلك.. فيجب حينئذ اقتسامها بالعدل على قدر الإمكان.. ولهذا تعددت المذاهب ولكل مذهب قاعدة، فمن قائل: إنه ينبغي أن يكون لكل إنسان على قدر احتياجه، ومن قائل: إنه يجب أن يكون لكل إنسان على قدر شغله.. وهذا القول يمكن توجيهه إلى معنيين: الأول اعتبار التعب والمشقة، والثاني اعتبار النتيجة فينقسم إلى هاتين القاعدتين لكل إنسان على قدر ما يتعب، ولكل إنسان على قدر ما ينتج.

وهناك مذهب آخر يقول: لا يلزم البحث عن قاعدة بها تقتسد الأموال بالعدل، لأن ذلك أمر طبيعي، فهي مقسمة بنفسها كالماء يتبع الانحدارات

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاط قسمت وجود

فنجيب على هذا المذهب الأخير قائلين: إنه إذا كان الماء يتبع الانحدار فهذا لا يمنع الجاني أو المهندس أن يفرقه كما يشاء بواسطة جداول صناعية. وحسب نواميس علم إجراء الماء وارتفاعه.. فواضع «القانون يمكنه أن يعمل ذلك فيما يختص بتفريق الأموال، لأن الملكية الشخصية والمبادرة فى الأعمال هما العاملان اللذان يحكمان تفريق الأموال فى جمعيات (مجتمعات) زمننا، وهما قانونان صناعيان وعلى فرض كونهما طبيعيين فمن الممكن تعديل ما ينتج عنهما ونحن نشاهد ذلك فى كل لحظة.

وسنشرح لك مضمون هذا.. فبينى على ذلك أن بحثنا عن الطرق التى بها يمكن تقسيم الأموال بين الأفراد بالقسطاس المستقيم ينجم عنه بلا ريب فوائد جمة حينما نبصر أن تقسيمها فى الوقت الحاضر مخالف للعدل.

ولذلك سنأتى على جميع ما ذهب إليه العلماء على التوالى فنقول:

مذهب المساواة:

هذا المذهب يريد مساواة حصص أفراد الناس معتصما بأنه لا داعى إلى إعطاء الواحد أكثر من الآخر، وبساطة هذا المذهب قد هيات له مكانة فى صدر أهل العصور الأولى.. وفى الواقع أن واضعى شرائع القدماء كمينيس المصرى وليكبرج اليونانى

وروميليس اليونانى قد قسموا الأرض بالمساواة بين العائلات، وكانوا يعيدون تقسيمها بعد زمن محدد عندما تضعف المساواة السابقة.

ولكن هذا المذهب لايمكن قبوله فعلا إلا فى جمعية صغيرة من الناس وبما يخص نوعا واحدا من الأموال التى هى الأرض.. فليس من الممكن تقسيم الأموال التى توجد فى بلد كفرنسا إلى سبعة وثلاثين جزءا.

ثم يتحدث الرجل عن الشيوعية ويدافع عنها قائلا:

«بعض دعاة المساواة يذهبون إلى دعم تقسيم الأموال ويستحسنون التمتع بالملكية اشتراكا.. وهذا هو المذهب المسمى «بالكومينزم» ولا تظن أنه غير ممكن السلوك بمقتضاه. ولا تظن أنه من الواجب على أعضاء تلك الجمعيات (المجتمعات) أن يعيشوا عيشة انضمام والتئام، بل يمكن أن تصوع لوازمهم فى أماكن معلومة على قدر الإمكان.. فكل منهم يأخذ منها ما يحتاجه مقدرا بما يأخذه الآخر كما كان جاريا فى الجمهوريات اليسوعية الشهيرة».

ويستمر الرجل فى دفاعه عن «الكومينيزم» قائلا:

«قال مخالفوا هذا المذهب أنه يضعف الغلة، وهذا خطأ.. لو تأملنا فى اجتهد أعضاء هذه الجمعيات المنتمطين فى سلك هذا المذهب، وهذا سهل الفهم إذ إن كل إنسان منهم يعرف أن ما يخصه إنما هو كل ما ينتجه، غير أن حالتهم أحسن بدون شك من حالة العامل الذى يعمل لمنفعة غيره كما هو واقع فى هيئتنا الاجتماعية لمعظم أفرادها».

ثم يمضى الرجل فى رحلته عبر مختلف المذاهب والنظم الاشتراكية، فيقدم نظاما آخر قوامه.. لكل إنسان على قدر احتياجه.

«يلزمنا أولا أن نقول: إن قاعدة هذا المذهب هكذا: أن الأموال يجب اقتسامها على قدر احتياج كل إنسان بالقياس إلى الآخر، وذلك لأن الأموال ليست كمية غير محدودة فضلا عن كونها ليست بمقدار زائد ليتسنى لكل إنسان أن يأخذ منها على قدر احتياجه».

ويتشكك صاحبنا فى إمكانية تطبيق هذا المذهب، أو على حد قوله «إخراجه من القول إلى الفعل لأننا لانجد طريقة نتوصل بها إلى تقدير احتياجات كل إنسان، بل ما هى السلطة التى تحكم برفض وقبول طلبات الناس حسب ما تكون حقيقة أو باطلة؟!...».

وبعد أن يتهم كاتب المقال على أفكار لويس بلان وعلى مناداته بمنح الرجل المتزوج حصتين ورب العائلة حصصا بقدر عدد أولاده.. يستعرض لنا مذهباً آخر هو..

لكل إنسان على قدر مشيقته..

منتقدا إياه هو الآخر قائلاً:

«لا تخفى علينا أنه إذا فرضنا أن اثنين اشتغلا بعمل واحد، وبذل أحدهما من الجهد ما بذله الآخر.. فقد يمكن أن تختلف النتيجة وتتساوى المشقة، وقد يمكن أن تتساوى النتيجة وتختلف المشقة.. فسرعة دعة هذا المذهب النظر إلى تقدير المكافأة بالمشقة لا بالنتيجة، وهذا على جانب من العدل.. ولكن لو تأملنا لوجدنا العمل به متعذراً، وسبب ذلك هو عدم وجود طريقة يمكننا بها أن نقيس عناء هذين العاملين ولو في أبسط الأعمال لاختلاف قوة الإحساس في الأشخاص».

«قد يمكننا بواسطة مقياس القوة أن نعرف قوة الإنسان، ولكن لا يمكننا أن نقدر تعب.. وقد أشار كارل ماركس أحد علماء الاقتصاد السياسي أن نقيس التعب بمقدار عدد ساعات الشغل، ولكن ذلك غير كاف إذ إن الأعمال تختلف باختلاف الرغبات والميول والإحساس وغيرها فهي متعبة وغيره متعبة، وهي كريهة وخطرة.. إلخ، لاسيما ونحن نعلم أن من يشتغل بالماقولة تكون نتيجة عمله ومقدار تعب أكثر ممن يعمل باليومية.. هذا والصعوبة تزداد عند اختلاف أنواع الأعمال، فمن يمكنه أن يقيس عمل الحراب الذي يحرق الأرض وعمل المصور بمجرد الزمن؟».

ومرة أخرى يؤكد صاحبنا أنه قد أطلع على كتابات كارل ماركس، وبالتحديد على كتاب رأس المال، فيواصل حديثه مورداً بعضاً مما جاء في هذا الكتاب..

«ولكن خوفاً من أن الكسل يمد أطنابه من نسيج هذا المذهب ارتأى كارل ماركس أن الزمن الضروري لعمل شيء ما يحدد مقدار النتيجة على ناموس الإحصاء (أو ما نقول نحن يحدد بمقدار ساعات العمل الاجتماعي اللازمة لإنتاجها).. فمثلاً لو عرفنا مقدار أرادب القمح التي أخذت من أرض في سنة من السنين، وعلمنا عدد العمال ومقدار الزمن الذي بذل في زراعتها، فبقسمة بسيطة يمكننا أن نقول مثلاً: إن الأرذب عمل رجل واحد.. وبذلك نقدر عمل الفلاح في اليوم بدينار، الذي هو ثمن الأرذب من القمح.. هذا إذا كان الفلاح قد أنتجته بعمله في اليوم الواحد.. فترجع المسألة إلى قاعدة المذهب الآتي: لكل إنسان بقدر ما ينتج...».

ثم هناك أيضا قاعدة: لكل إنسان بقدر ما يعلم..

وأول من رفع عماد هذه القاعدة القديس سيمون (سان سيمون) وأصحابه قائلين: بمقدار معرفة الإنسان وبمقدار ما يعلم يكون نصيبه، لكن صاحبنا ليس من أنصار مذهب سان سيمون، فهو ينتقده مؤكدا عدم رضاه عن توزيع ثروة المجتمع على كل بقدر علمه.. ويقول «وعلى ذلك فالمستحسن أن تستبدل عبارتهم بما قاله الإسكندر عندما حضرته الوفاة وقد سئل لمن هذا الملك؟ فقال لأكثر مستحق.. وهذه الجملة صريحة فيما يريدون، فكأن أصحاب هذا المذهب يتصورون هيئة اجتماعية تحل كل فرد من أفرادها في المنزلة التي يؤهلها لها عمله وتكافئه بمقدار تلك الدرجة.. وأحسن من ذلك لو ضمنت لنا النواميس الإنسانية تقدير درجات الأشخاص بمقدار أهليتهم.. ولكن مع الأسف أن ما نحى تلك القوة في رأى البعض هم أعضاء الهيئات الحاكمة الذين خدعتهم الأقدار وتشفعت لديهم الآمال فأحالوا الوضع في منزلة الرفيع ووضعوا المستحق في درجة غير المستحق».

ويواصل الرجل هجومه على مذهب سان سيمون، بل ويصفه بأنه أكثر ظلما مما هو كائن من أوضاع.. فيقول:

«ولو قيل لنا أن تلك الحالة هي أحسن نتيجة وأسهل احتمالا من الحالة الفوضوية المتروكة تحت رحمة الأقدار، لقلنا أن هذا الأمر مما يوجب الغرابة، فإن الشخص الذى يحرم من واجباته بدعوى أنه ليس أهلا لأسوأ حالة وأكثر مشقة ممن يحرمها علما بذلك مرتكنا إلى نحس طالعه وحضيض بخته، إذ إنه في الحالة الأولى مغضوب حقا يعمل استحقاقه له متصورا ما يتردد في قلوب مباشريه من أن ذلك لعدم أهليته وكفاحته فيكون مصابه من جبهتين، وأما في الحالة الثانية فهو ممنوع حقا يعلم استحقاقه له ولكن لا يشعر من نفسه بامتهان درجته ويسند ذلك إلى رحمة الحوادث.. فويل أهون من ويلين».

وبعد أن يفند صاحبنا حجج السان سيمونيين، يعود مرة أخرى إلى أفكار كارل ماركس ليقدمها كالنموذج الذى يرتضيه.. والذى يختاره من بين كل المذاهب التى استعرضها فيقول:

«فهللما بنا إلى أن نجعل القاعدة التى تحاولون العدل بها هكذا.. لكل إنسان بمقدار ما ينتج لا بمقدار ما يعلم، فنكون قد أخذنا بعناصر الأفراد على حين لا نجحف بقسطاس العدل. ولكن هذا هو العدل الذى لا يمكن أن يتصور العقل أكمل منه..

بعمله بدون التفات إلى عقله أو حظه أو رداءة بخته».

ويواصل الرجل تمجيده وامتداحه للمبدأ الذى اختاره قائلاً:

«ولنا على فضل هذا المذهب من الشواهد التى تجعل له محلاً سامياً تقاطر الناس أفواجا للتمسك بعروته الوثقى.. إن الهيئة الاجتماعية ملزمة بتقسيم الأموال على نواميس هذه المذاهب السابقة بعين التأمل لحمدنا مغبة هذا المذهب».

العدل المطلق، وهى مضطرة إلى أن تكافىء كل إنسان بمقدار ما يفيدها، ويمضى صاحبنا محاولاً التمييز بين القيمة والتمن فيقول:

«علمنا الآن أن هذا العصر تحلى بحلية هذا المذهب مقدماً بين نجواه قاعدة لكل إنسان على قدر ما ينتج، وكل ذى عقل يعلم أن ما يخص الإنسان إنما هو قيمة النتيجة لا ذاتها، وهذا ناشئ من تبادل النتائج على ناموس الاحتياج.. ومن الواضح البين أن منفعة الأشياء والرغبة فيها وطلبها لا دخل لها فى العمل بل لا تعلق لها بإرادة المنتج، فما دامت قيمة كل شئ تتغير حسب قانون التقديم والطلب فالمكافأة تتغير كذلك وربما لا تفى بالعمل».

وبعد..

لست أعتقد أن الكلمات بحاجة إلى تعليق، لكننى فقط أود أن ألقت نظر القارئ إلى سعة اطلاع هذا الكاتب المجهول وتعرفه على مختلف المذاهب الاشتراكية واتخاذ موقفا انتقادياً واعياً منها.

وأود أن ألقت نظره ثانياً إلى أن كثيراً من الأمثلة التى أوردها هذا الكاتب، وخاصة فى انتقاد السان سيمونيين وفى الحديث عن القيمة والتمن وقانون العرض والطلب، قريبة الشبه جداً بما أورده ماركس فى كتابه رأس المال..

وأود أن ألقت النظر ثالثاً إلى أنه كتب هذه الكلمات فى وقت مبكر جداً.. وفى عام ١٨٩٠، لكن صاحبنا قد كتب كلماته هذه فى عصر كان يتعين فيه على أمثاله أن يتحدثوا همساً.. فكتبها بغير توقيع..

كم أتمنى أن أعرف اسمه.. فهو واحد من أعمق دعاة الاشتراكية فهما ووعياً ووضوحاً.

ويتقدم الزمن، ويزداد الماركسيون جرأة فيعلنون عن أسمائهم.. ويستطيع الباحث أن يتتبع بعضاً من هذه الكتابات.

ولعل كتاب مصطفى حسنين المنصوري (ناظر مدرسة طوخ الإعدادية) «تاريخ المذاهب الاشتراكية» هو واحد من أهم هذه الكتابات التي توضح مدى العمق الذي وصل إليه الماركسيون المصريون..

وإذا كان «أحد الفضلاء القراء» قد فضل أن يخفى اسمه.. فإن مصطفى المنصوري يتحدث بشجاعة نادرة عن الماركسية..

لقد شهدت مصر قبله كثيرا من الاشتراكيين، وربما شهدت قبله عددا ممن يؤمنون بالماركسية.. لكن أحدا لم يدافع صراحة وبجراحة كاملة عن الماركسية كما دافع مصطفى حسنين المنصوري..^(٢) فالمنصوري لا يخفى موقفه ولا مذهب، بل هو يعلن صراحة «أن ماركس بلا شك هو أعظم دعاة الاشتراكية وأكبر أنصارها، فهو الذي عضد الحزب الديمقراطي الذي أسسه لاسال وحافظ على كيانه رغم هجمات بسمارك العنيفة عليه، وهو أول من وضع برنامجا لحزب اشتراكي، وهو صاحب كتاب رأس المال الذي يسميه الاشتراكيون إنجيل الاشتراكية، وهو الذي وضع قانون الجمعية الدولية.. وإلى القارئ خلاصة مذهبه»^(٣).

وبعد أن يلخص آراء ماركس يقول: «هذا مجمل آراء ماركس ومن شاء أن يطلع عليها بحذافيرها فأمامه كتاب الاشتراكية العلمية واليوتوبية بقلم فردريك انجلز أصدق أصدقاء ماركس وأكبر أنصاره، مع العلم بأن هذا الكتاب مترجم إلى معظم اللغات الأجنبية. والحقيقة أن المنصوري كان رمزا لنضج الفكر الاشتراكي ودليلا على أن الحركة الاشتراكية المصرية قد تفتحت أمامها الآفاق الرحبة للفكر العلمي.. وأنها قد أصبحت الآن قادرة على أن تناقش وعلى أساس انتقادي خلاق كل المذاهب الاشتراكية التي ماجت بها أوروبا خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

وليس مهما أن المنصوري قد أختار الماركسية كمذهب سياسي واجتماعي يدافع عنه ويروج له، لكن المهم أن الفكر الاشتراكي الذي حقق انطلاقة واسعة وجبارة من خلال التزاوج الذي تم بين الحركة الوطنية والحركة العمالية.. إن هذا الفكر قد أصبح من المقدرة ومن الرسوخ بحيث يستطيع أن يواجه انحرافات الإصلاحيين والفابين وغيرهم ممن رفعوا رايات الاشتراكية الإصلاحية.. كما أن المهم أيضا هو أن المنصوري لم يستطع فحسب أن يقدم فكرا متكاملًا للاشتراكية العلمية وبرنامجا غاية في الواقعية وغاية في الثورية.. وإنما استطاع أيضا أن يصد عن الفكرة الاشتراكية هجمات خصومها، وأن يفند كل ادعاءاتهم وانتقاداتهم..

لكننا بذلك نتخطى الأحداث.

فلنسر مع الكتاب صفحة صفحة نستعرض الفكر الخلاق لعبقري مصري..

على الغلاف كعادة كتاب عصره.. يكتب المنصوري حكمة تلخص كل ما يريد..

«لقد كنا نعتصم طوال القرون الماضية بالباطل، فجئنا ولا زلنا نجنى الشقاء والدمار..

وقد حان الوقت الذى يجل بنا فيه أن نغير طرقنا الفاسدة وأساليبنا العقيمة».

ويبدأ الكتاب بمقدمة يقول فيها: «كثيرا ما نسمع عن الاشتراكية ولكن القليل منا من

يفهم حقيقتها»..

«الاشتراكية هذا المذهب الذى ينتشر انتشارا عظيما فى قارة أوروبا، بل تعداها إلى

أمريكا واخترق المحيط الهادى ووصل إلى استراليا ونيوزيلنده الجديدة، وظهرت بوادره

فى مملكة الشمس المشرقة»..

وفى صفحات أخرى من الكتاب يتحدث المنصوري عن انتشار الاشتراكية وقوتها

فيقول: «قد علمنا الآن كيف نشأت وانتشرت الاشتراكية فى فرنسا وألمانيا وروسيا، ولكن

انتشارها لم يقف عند هذه الممالك رغم مقاومة الحكومات والأغنياء له، ولكن ما تضمنته

الاشتراكية من الحقائق وما أظهرته من عيوب هذا المجتمع لحقيقية كان خير كفيل

لنجاحها.. لأن الفكرة الصالحة لا حد لانتشارها، ولأن الحق مهسا سعى ذوو الأغراض فى

إخفائه لا بد وأن يتسرب إلى الناس يوما من الأيام»^(٤).

ثم يقدم إلى القراء جدولا ببيان عدد الاشتراكيين فى دول أوروبا

البلد	عدد الاشتراكيين	البلد	عدد الاشتراكيين
ألمانيا	٢.٥٠١.٠٠٠	انجلترا	٢٠٠.٠٠٠
فرنسا	١.٥٠٠.٠٠٠	سويسرا	١٠٠.٠٠٠
النمسا	١.٢٥٠.٠٠٠	الدانمارك	٥٠.٠٠٠
روسيا	٥٥٠.٠٠٠	السويد	٥٠.٠٠٠
بلجيكا	٤٥٠.٠٠٠	هولندا	٤٥.٠٠٠
إيطاليا	٢٥٠.٠٠٠	أستراليا	٢٥.٠٠٠

ويمضى قائلا: «يظهر من هذا الجدول أن بأوروبا ما يربو على عشرين مليون اشتراكى على وجه التقريب، وهناك ملايين غيرهم يميلون إلى هذا المذهب، ولكنهم لا يعتنقونه جهارا خوفا على مراكزهم أو لأسباب أخرى.. وبالاختصار يمكننا القول بأنه سيأتى يوم تكون فيه الاشتراكية مذهب جميع الأمم المتقدمة».

أما بالنسبة لمصر.. فإن المنصورى يؤكد:

«نحن واصلون حتما إلى ما وصلت إليه أوروبا ولا بد من مجيء يوم يكون للاشتراكية فيه شأن يذكر بيننا».

ولتعد إلى المقدمة حيث يحاول المنصورى أن يقدم تعريفا للاشتراكية.. وبعد أن يورد سلسلة من التعريفات التى صاغها عدد من المفكرين يقول:

« وبالاختصار يمكننا أن نقول أن الاشتراكية هى مذهب القائلين بافتقار النظام الاجتماعى إلى إصلاح اقتصادى واجتماعى وسياسى ودينى؛ نظرا للخلل الذى أصابه من جراء إطلاق سبل المزاحمة، سيما بعد اكتشاف قوة البخار واختراع الآلات العديدة التى حلت محل الأشخاص فى إنتاج المصنوعات وأخرجت مركز الصناع لاشتداد التنافس بينهم، وضاعفت مكاسب أصحاب الأموال حتى وصلوا إلى ذروة الغنى وتحكموا فى الصناع وعاملوهم بالقسوة والشدة، فأنزلوا من أجورهم وأطالوا ساعات عملهم طمعا فى إنماء ثروتهم.. فساء أمر العمال وفسدت أخلاقهم وانتشرت بينهم الأوبئة وفتك بهم السل فتكا نريعا وطفقوا يستنجدون بالأغنياء فلا يجدون إلا أذنا صماء، حتى قبيض الله لهم أشخاصا من نوى العقول الراجحة انتصروا لهم وساعدوهم بمؤلفاتهم وخطبهم بل وبمالهم.

ولكن ذهب صيحات هؤلاء القوم بادية ذى أدراج الرياح ولاقى أصحابها العقاب الصارم من أجلها فزج بعضهم فى السجن ونفى الآخرون إلى البلاد النائية حتى ظهر أخيرا «كارل ماركس» فتكمن من إذاعة مبادئه وتكوين حزب قوى فى ألمانيا من العمال وعقد عدة مؤتمرات دولية من عمال الأمم المختلفة بعدما لاقى فى طريقه كثيرا من الصعوبات ونفى من ألمانيا إلى فرنسا ومنها إلى بلجيكا ومن ثم أخذت الاشتراكية شكلا علميا وعلا شأنها واعتنقها كثير من كبار المفكرين والصحفيين والكتاب فهذبوا مبادئها ونذبوا منها ما كان غير قابل للتنفيذ ووضعوا البرامج الواقعية وسعوا فى سبيل تأييدها سعى الأبطال»^(٥).

وهكذا يبدأ الفكر الاشتراكي المصري على يدى المنصورى مرحلة جديدة أساسها الإدراك الواعى للمغزى العلمى للاشتراكية، مرحلة تنتقل فيها من الأمنيات والأحلام والتطلعات إلى مجتمع أفضل.. إلى الإيمان العلمى بنظرية ذات بنية محددة، مرحلة يتم فيها التمييز بين التطلعات الخيرة نحو مجتمع عادل، وبين التطلعات النضالية نحو مجتمع اشتراكى، بين الدعوة للاشتراكية كطريق عام وبين الإيمان بمدرسة محددة من مدارس الفكر الاشتراكى العلمى.

«فالاشتراكية بالمعنى الصحيح مذهب ولد وتربى فى القرن التاسع عشر.. ولكنه لم يبلغ رشده بعد، إلا أن كثيرا من الأقدمين أشاروا فى كتبهم إلى إصلاح المجتمع بعدما تبين لهم فسادهم فى أيامهم»^(٦).

ويقدم المنصورى بعد ذلك نماذج للاشتراكيين الخياليين الذين سعوا إلى بناء مجتمعات تسودها العدالة دون أن يجدوا السبيل العلمى والنضالى الذى ينير أمامهم طريق النجاح. فهناك توماس مور «الذى تحدث عن مدينة فرض وجودها فى جزيرة سماها يوتوبيا.. ووصف سكانها قائلا: إنهم متمتعون بالسعادة الكاملة ليس لأحدهم ملك خاص بل يشغلون جميعا بلا أجر معين والحكومة تتولى سد حاجاتهم بنظام مضبوط لا يعوزه نقص ويتناول الناس طعامهم على موائد مشتركة تضرب بها الموسيقى وتنتشر الأطياب، والثروة فيها محرمة على الأفراد، والحكام جميعا ينتخبون من بين الأهالى لمدة معينة.. وانتشر كتاب مور وشرع الكثيرون فى إنشاء مدن تنطبق على كلامه وإن كان أتباع هذا المبدأ أخذوا ينقرضون شيئا فشيئا لما حل بهم من الفشل فى مدنهم.. وهكذا أخفقت التجارب الأولى لإنشاء مدن على مبدأ اشتراكى ولكن لم تكن هذه التجارب لتنتهى عزم القائمين بها، وتقنعهم ببطلان ما يتطلبون بل تابروا على سعيهم وكان فشلهم درسا لمن أتى بعدهم حتى ظهر كارل ماركس فوضع المبادئ الاشتراكية على أساس علمى ولم يكتف بالإصلاح الجزئى الذى ظهر له فشله بل أراد أن يجعل الاشتراكية دولية حتى إذا توحدت الأنظمة فى سائر الممالك كان ذلك خير ضمين لنجاحها.

وقد بقيت الاشتراكية محافظة لهذه الروح الدولية التى بثها فيها ماركس إلى يومنا هذا وبذا أصبحت مذهباً معقولا قابلا للتنفيذ لا مجرد خيالات يحلو تصورها ويستحيل تطبيقها.. وأصبحت مسائل العمال تعرض فى مؤتمرات دولية وهى التى تقرر مدة العمل

اليومى وأجر العمال وطرق حمايتهم لتنفذ فى سائر البلدان على نسق واحد.. مع بعض التعديلات التى يقتضيها مركز البلد»^(٧).

ولنتأمل هذه الجملة الأخيرة.. فهى ذات دلالة كبيرة جدا على وعى صاحبنا وعلى تمرسه فى فهم النظرية الماركسية فقد ردد فى عام ١٩١٥ مسألة نظرية ردها لينين قبله بفترة وجيزة، وهى بناء الاشتراكية بطرق مختلفة فى البلاد المختلفة.. والشئ المثير بالفعل هو أن هذه العبارة لم تكن مجرد جملة عارضة، لكن المنصورى يعود فيؤكددها مرة أخرى بتفصيل أكثر عمقا وأكثر دلالة.

«وتختلف مناهج الاشتراكيين باختلاف البلاد التى هم فيها.. فتراهم فى البلاد الديمقراطية كإنجلترا وفرنسا يقدمون مطالبهم إلى ولاية الأمور ولا يتحرشون بالحكومات ولا يناوئون موظفيها.. أما فى البلاد الاستبدادية كروسيا مثلا فتراهم يجنحون إلى الشدة وسفك الدماء ولانهم رأوا أن السلطة الإدارية تطاردهم فى كل مكان، ولا تدعن لإرادتهم، ولا تلتفت إلى مطالبهم وعلى ذلك يكون من الخطأ أن نتصور أن للاشتراكية مبادئ ثابتة غير قابلة للتعديل أو التحوير وأن دعائها يظهرون بمظهر واحد ورأى واحد فى جميع الامم، وإن كانوا متفقين على الغرض الذى يريدون الوصول إليه، ولكنهم يختلفون فى الطرق التى تؤدى إلى ذلك الغرض باختلاف شكل الحكومات والنظام الاجتماعى فى بلادهم..»^(٨)

وهو يتحدث عن البيان الشيوعى قائلا: إنه «أقدم برنامج وضع للأحزاب الاشتراكية ولا يزال يرجع إليه فى بعض الأمور وإن كانت بعض مبادئه قد أصبحت عتيقة»^(٩). وهكذا وفى بساطة ويسر يردد المنصورى واحدا من أهم المنجزات الفكرية التى لم يستطع كثير من قادة الفكر الاشتراكى أن يستوعبوها.

والعبارات السابقة تستوقفنا لا لمجرد دلالتها على وعى الرجل وفهمه الأصيل والعميق للفكرة التى يعرضها.. وإنما أيضا لأنها توحى لنا أن المنصورى ربما كان قد اطلع على بعض من كتابات لينين أيضا والذى يقوى هذا الاعتقاد هو أن الرجل يشارك لينين كثيرا من أفكاره حول قضية الحرب العالمية الأولى فيقول:

«ومما يؤسف له كثيرا أن الأحزاب الاشتراكية فى أوروبا قد فشلت فى منع الحكومات عن الوقوع فى هذه الحرب الشعواء»^(١٠).

«ولا شك أنه سيكون انتشار الاشتراكية بين الناس إحدى نتائج هذه الحرب سيما بعد ما لاقوه من مصاعب الحرب ومصائبها»^(١١).

وهو بعد ذلك يناقش قضية الحرب والسلام مناقشة غاية فى الوعى والعمق.. «فالاشتراكيون أكثر الناس سعيًا فى سبيل توطيد أركان السلد فى العالم، لأنهم يعلمون أن معظم أعباء الحرب تقع على كاهل الفقراء تسوقهم الحكومات إلى ساحات الوعى وهم لا يحملون ضغينة لعدوهم ولا يعرفون سببا لتقاتلهم ولا مأرب لهم خاص يريدون الوصول إليه ولا ربح إلا بعض الأوسمة لا تغنى صاحبها شيئاً»^(١٢).

وهو يورد فقرة من قرارات الجمعية الاشتراكية الدولية (الأمسية الأولى) تطالب «بالغاء الجيوش الواقفة والاستعاضة عنها بالأهالى المدربين على حمل السلاح الذين عليهم تلبية طلب الحكومة عند وقوع البلد فى خطر».

ويعلق المنصوري على هذه العبارة قائلاً: «وقد يقول البعض: إن إلغاء الجيوش يجعل الأمة مهددة، نعم لا ينكر ذلك، ولكن الاشتراكيين يريدون إلغاء الجيوش فى جميع الممالك مرة واحدة، وبذا يزول الخوف من هجوم العدو، وإذا لوحظ فوق ذلك أن الجيوش تتطلب مصروفًا هائلاً لو صرف فى المسائل الحيوية كالتعليم لأتى بالفوائد الجمة، وإن الجيوش تحرم الأمة من أيد عاملة كثيرة، لو استخدمت فى الأعمال المثمرة لضاعفت ثروات الأمم، لكان هناك حق للاشتراكيين».

«يريد الاشتراكيون السلم التام الذى قد يتراءى للبعض حلم من الأحلام فإن الحروب أعمال وحشية محضة لا تليق بالإنسان المتمدن وإن فى وسع البشر الوصول إلى الشروط بدون اللجوء إلى السيف».

ثم هو يقدم التفسير العلمى للحرب قائلاً:

«والحقيقة أن الاستعمار ناشئ من طمع أصحاب الأموال الذين يدفعون حكوماتهم إلى امتشاق الحسام وقتل الألوف من الناس لتوسيع المجال لتجارته فلو تمكن الاشتراكيون من القضاء على هذه الطبقة لما بقى هناك صوت واحد ينادى بالحرب سيما بعدما شاهد الإنسان من آلات القتل والتدمير الجهنمية»^(١٣).

وهو بعد ذلك يحدد أهداف النظرية التى يدعو إليها ووسائل نضالها.. فإذا كان الرأسمالى يمتص دماء العامل عن طريق الآلة «فهل نحطم هذه الآلة لنعيد الإنسان إلى

فردوسه المفقود؟».. ويجيب المنصوري على سؤاله «أظن أنه ليس هناك عاقل يريد للعالم الرجوع إلى مدنية العصور المظلمة.. لذا وجب علينا جعل الآلات خادما للإنسان لا مزاحما له ولكن أنى لنا ذلك ومن المستحيل تغيير أخلاق الآلات ما دامت فى قبضة أصحاب الأموال الذين لا يراعون إلا صالحهم الخاص ولا يعبأون بما يلاقىه العمال من التعب والألم ما داموا يحصلون على معظم أرباح معاملهم ولا يتركون للعمال إلا جزءا طفيفا لا يكفى لسد حاجاتهم؟ فالطريق الوحيد لإسعاد البشر هو منع التملك الفردى وجعل رأس المال فى قبضة العمال أنفسهم»^(١٤).

ويمضى موضحا أسس النظام الذى يريد..

«إن امتلاك الأراضى يعوق دون استغلالها بالقدر الذى فى وسع الإنسان عمله فيها بعكس ما لو كانت هذه الأرض ملكا شائعا بين الناس فإننا إذا نظرنا إلى مصر نجد أن وجود مزارع صغيرة فيها قد حال دون استعمال الآلات الزراعية التى لو استعملت لضاعفت نتاج الأرض.. فالنظام الاشتراكى يقضى بإلغاء الملكية الفردية بمعنى أنه لايجوز للفرد أن يمتلك أرضا أو معملا أو منجما أو أى ثروة تحتاج فى استغلالها إلى عامل أو عمال، وعليه يجوز للفرد أن يمتلك أدوات بيته وملابسه وأمواله طالما كان لا يستعملها بواسطة عمال، بل ربما سمح له بامتلاك مسكن أيضا لأن هذا الملك لا يضر الآخرين. ولو كان الملك فى الأرض أو المسكن مبنيا على قاعدة الملك فى التأليف لما نشأت الأضرار الحاضرة.. وهذا مع العلم بأن امتلاك الأراضى والمناجم والمساكن لا يحتاج من الاستنباط والتفوق العقلى عشر ما يحتاجه اختراع آلة أو استكشاف نظرية فى العلوم.. بل على العكس من ذلك قد يحتاج إلى كثير من النذالة والحطة والضعة كما نشاهد بأعيننا فى المرايين والمغامرين والتجار»^(١٥).

وبعد أن استعرض المنصوري أسس النظرية التى يدعو إليها يحس أن واجبه يحتم عليه أن يرد عنها هجمات الأعداء وأن يحصنها ضد افتراءاتهم وأكاذيبهم.. وهو يفند بهدوء ما يردده أعداء الاشتراكية من انتقادات.. فهم يقولون: إن الاشتراكية تعنى أن الإنسان لا يؤمن بالوطن ولا يؤمن بالأسرة، ولا يؤمن بالدين.

لقد شاهدنا كيف كانت سيادة هذه المفاهيم الخاطئة عن الاشتراكية سببا فى انتكاسة خطيرة لأفكارها وقدرتها على الانتشار.

ولهذا يتصدى المنصوري لهذه الانتقادات فيفندها واحدا واحدا..

«فإذا كان الاشتراكيون قد أصبحوا بعد تعاليم كارل ماركس دوليين إلا أن العاطفة الوطنية لم تمت فى نفوسهم كما يتوهم البعض وهى لا تلبث أن تتأرجح إذا ما أغار غائر على بلادهم فهم لا يمتنعون عن الدفاع عن الوطن لكنهم يأنفون أن يكون لهم يد فى حرب يراد بها سلب حرية أمة ضعيفة»^(١٦).

«أما رأى الاشتراكيين فى نظام العائلة فهو لا يختلف عن رأينا مطلقا وإن كان قد صدر من بعض دعاة المبدأ ما يشير إلى رغبتهم فى هدم هذا النظام واستبدال الزواج الحالى بزواج حر مبنى على الحب، إلا أن ذلك لا يعتد به لأنه رأى فردى.. أما مجمل آراء الاشتراكيين فمتفقة على أن نظام الأسرة مقدس وأنه يجب أن يحفظ، غير أنهم يطلبون مساواة المرأة بالرجل»^(١٧).

ثم ينتقل المنصوري بعد ذلك إلى مناقشة القضية الخطيرة.. قضية موقف الاشتراكية من الدين، ولا بد أنه قد أطلع على كتابات شميل، ولا بد أنه قد أدرك مدى الخطأ الذى ارتكبه شميل.

فالمنصوري يقدم لنا فكرة ناضجة غاية فى النضج وغاية فى الوعى..

«بقى علينا أن ننظر فى رأى الاشتراكيين فى الدين، لاشك أن معظم الاشتراكيين قد تأثروا قليلا أو كثيرا من المبادئ المادية وهم لا يعتقدون أن الدين يكفى لإصلاح هذا المجتمع إلا أنه رغم ذلك نرى الدين والاشتراكية ليسا متناقضين وأن كليهما يرمى إلى نصرة الضعيف، فإن من يقف على حقائق الدين الإسلامى والمسيحى يجد كثيرا من المبادئ الاشتراكية الحديثة كالزكاة التى تعادل ضريبة الدخل ويقصد بها تسوية الخلاف بين الفقراء والأغنياء. ولقد قام فريق من الكهنة واللاهوتيين فى أوروبا فى القرن التاسع عشر وعدوا الاشتراكية جزءا متما للدين المسيحى ودعوا الناس إلى اعتناقها والأخذ بمبادئها ولم يعدوا هذا خروجا على الدين»^(١٨).

وفى مكان آخر يقول المنصوري:

«فإذا سمعنا الاشتراكيين يطلبون إلغاء الميزانية الخاصة بإقامة الشعائر الدينية فليس هذا دليلا على إلحادهم بل هم يرون أن هذه الأشياء تستلزم نفقات كثيرة لو صرفت على التعليم أو بناء مساكن أو مستشفيات للفقراء لأفادت النوع الإنسانى كثيرا فضلا عن أن العبادة ممكنة فى أى مكان».

«إن الاشتراكيين لا يحاربون الدين وإنما يحاربون بعض رجاله الذين كانوا سببا في كثير من المصائب ولا يزالون.. إنهم يريدون إبعادهم عن التدخل فى أمور السياسة والتعليم حتى لا يشوهوا وجه العلوم العصرية بخزعبلاتهم لكنهم لا ينكرون ضرورة الدين للإنسان إذ لولاه لامتأ العالم بالكذب والنفاق والسرقة والظلم»^(١٩).

لكن الرجل لا يكتفى بالحديث العام. فاستعراض الفكر مجردا لا يكفى، ولا يكفى أن يمجّد الإنسان الاشتراكية وأن يرد عنها هجمات خصومها ما لم يرتبط ذلك كله بالمعركة الدائرة على أرض وطنه.

ولقد رأينا كيف كان المنصوري يؤمن بأن لكل بلد طريقه الخاص.. وأن الاشتراكيين لا يمكن أن يظهروا برأى واحد فى جميع الأمم.. فلا بد إذن من حديث عن طريق مصرى للاشتراكية..

وهنا يصل بنا المنصوري إلى قمة من قمم الفهم الواعى والإدراك المتمكن، فهو ليس مجرد قارئ استوعب ما قرأ ولا مجرد داعية لفكرة عامة، لكنه يتوج كتابه القيم بفصلين غاية فى الإبداع الفكرى الخلاق.. أحدهما بعنوان «فوضى نظامنا الاجتماعى» والآخر بعنوان «مصر والاشتراكية»..

والفصل الأول إدانة ساحقة للنظام الاجتماعى السائد فى مصر.. ودفاع حار عن الكادحين المصريين.

فإن «كل من مارس الأمور وكابد الأحوال وخبر الزمان لا ينكر ما فى هذا المجتمع من تفاوت واضطراب.. هذا يرقل فى الخز والديباج وذاك يرتدى الأطمار والأسمال، وهذا يمتطى صهوات الجياد وذاك يجوب فيافى الأرض على الأقدام الحفاة، هذا يسكن القصور الشاهقة وذاك يسكن الشوارع والأزقة.. وهذا إذا سعل تسابقت الأطباء لفحصه وذاك يذوب ألما فى كوخه فلا يجد يدا واحدة تجرعه الدواء - اللهم لا انتقاد ولا إعراض - وما هذا إلا من ظلم الإنسان..»

يشغل العامل طول النهار والعرق يتصبب من جبينه وصاحب العمل جالس أمام مكتبه الجميل يشعل لفافة من وقت لآخر ويتحدث مع الزائرين عن لهوه وشجونه حتى إذا انتهى النهار كان الغنم كله له، وباء العامل ببضعة قروش لا تكاد تكفى لشراء حاجاته الضرورية. يشقى المزارع طوال النهار فى حرث الأرض وريّها وتسميدها وجنى الثمار وتقليع

الجنور حتى إذا حل الليل تآبط بندقيته وأقام نفسه لمناضلة كل من يريد الاعتداء على مزرعة سيده، فإذا أتى وقت الحصاد خرج صاحب الأرض وجيوبه منتفخة من النضار وباء المزارع بالحسرة وخيبة الرجاء..

بربك خبرنى أيها القارئ الكريم عما يخالج ضميرك.. إن كنت من نوى النفوس الحساسة عند مرورك على أحد العاطلين المعدمين وقد تكاثف عليه المرض والفقر والشيخوخة وحوله أولاده وعياله ليكون ويعولون أليس هذا المشهد كافيا لجعل الإنسان أشد الناقمين على هذا النظام؟»^(٢٠).

ويمضى المنصورى فى هجومه الساحق على النظام الاجتماعى قائلا:

«لو كانت هناك أسباب للسعادة والشقاء، لو كان الغنى غنيا لاجتهاده وجده والفقير فقيرا لتهاونه وضعفه لما تجشم الاشتراكيون متاعب الدعوة إلى مذهبهم ولما كان هناك حق للفقير فى تدمره وتآفقه، ولكن الشاهد والواقع أن الخيرات موزعة بين الناس على غير قاعدة فكم من جاهل كسول يملك القصور والضياع وتحف به العيد والإماء، وكم من لبيب فطن لا يجد فى جيبه فلسا واحدا يبتاع به لقمة تتبلغ بها نفسه.

لقد أوجد نظامنا الاجتماعى من الناس فريقين متعادين متنافرين فريق الأغنياء الذين لا يبذلون جهدا فى إيجاد طرق لإخضاع الناس وإذلالهم حتى تبقى لهم الكلمة النافذة والرأى الأعلى على مر الأزمان، وفريق الفقراء الذين لا ينفكون يبحثون عن طريق الانتقام من الأغنياء»^(٢١).

ويمضى المنصورى فى إدانته للأغنياء..

«يأتى المال بطرق شتى ولكنه من العجيب أن تكون الطرق السافلة غير المشروعة أقرب وأسرع الطرق للوصول إليه.. فالعامل والمزارع اللذان هما بناء لثروة كلها يعيشان فى فقر مدقع، والمعلم الذى يضمنى جسمه فى تهذيب الناشئين وتكوين رجال المستقبل لا نصيب له مطلقا فى السعادة المادية بينما صاحب الماخور أو الفواد سرعان ما تمتلئ جيبه من الذهب والنضار.. المرأة التى تصون عفتها تعيش فقيرة ذليلة بينما المرأة الفاجرة سرعان ما تمتلئ خزانتها ببارق الحلى وساطع اليواقيت. أليس فى هذا الخلط ما يشجع على هجر الأعمال الشريفة واللجوء إلى سافل المهر وأدنسها ما دام المال هو كل مطلوب الإنسان..»^(٢٢).

ثم يتوج المنصوري هجومه بعبارة حاسمة..

«فلا عجب بعد ذلك إذا تشبث الاشتراكيون بمذهبهم فهو البلمس الشافى لجميع أدوائنا الاجتماعية»..

وبعد ذلك.. بعد أن يوقف النظام عاريا تماما ويفضح كل متناقضاته يتقدم المنصوري ببرنامجه..

والبرنامج يستحق وقفة نتأمله فيها، فصاحبه يدرك طبيعة المجتمع الذى يعيش فيه.. ومصر كانت فى ذلك الحين مستعمرة تتخذ فيها البرجوازية المصرية الناشئة حديثا بالرغم من كونها مستغلة موقفا وطنيا معاديا للاستعمار.. ومن ثم فإن أى برنامج يطالب بنزع ملكية وسائل الإنتاج من أصحابها سوف يهدم الجبهة الداخلية ويمزق الوحدة الوطنية.. وهنا تبدو المقدرة الحقيقية للمنصوري، فبعد أن يستعرض المبدأ الاشتراكى العلمى ويحدد أبعاده النظرية، وبعد أن يهزم كل الادعاءات والانتقادات التى تساق ضده، وبعد أن يمزق كل أستار النظام الاجتماعى ويكشفه..

بعد كل ذلك يتقدم المنصوري ببرنامج إصلاحى يدعو لبعض الإصلاحات الاجتماعية والديمقراطية.

وهنا تكمن اللمحة الذكية للاشتراكى الواعى الذى يدرك ظروف وطنه وظروف جيبته النضالية.. هنا يبدو المنصوري مفكرا متعمقا دون أدنى مبالغة..

وبرنامج المنصوري بالرغم من إصلاحيته، إلا أنه أيضا برنامج حاسم وحازم معا لايزال - وحتى وقتنا هذا - صالحا كأساس للتفكير الاشتراكى العلمى فى كثير من المجالات.

ولنقرأ بعض نقاط البرنامج الذى قدمه المنصوري عام ١٩١٥.. قائلا:

«إن مجال الإصلاح واسع أمامنا وأبوابه عديدة فما علينا إلا أن نتناسى الماضى ونظهر نفوسنا مما هو عالق بها من الأدران ونشرع فى بناء مصر جديدة وشعب جديد. وإلى القارئ بعض الإصلاحات التى يمكن إيجادها بمصر فلعلها تكون عند استحسان الجمهور»^(٢٣).

وبعد ذلك ترد فقرة يبدو أنها كانت تقليدية فى ذلك العصر.. هى الفقرة التى دأب كل الكتاب الاشتراكيين فى ذلك الحين على ترديدها..

«وليس قصدى أن تكون برنامجا لحزب اشتراكى مصرى فإنى أرى الوقت لم يحن بعد للقيام بهذا العمل الذى يتطلب كفاءة علمية وأدبية لم تتوفر لدينا بعد».

والمنصورى صادق فيما يقول وهو لا يتنصل من الحزب باعتباره تهمة وإنما يتطلع إليه باعتباره أملا يمكن أن يتحقق عندما تتوفر له الكفاءة العلمية والأدبية اللازمة.

وبعد ذلك يضع المنصورى البرنامج الذى يقترحه.. ولن أوردته كاملا لكننى سأكتفى بإيراد بعض نقاط منه كأمثلة^(٢٤)..

* جعل رأى الجمعية التشريعية قطعيا.

* جعل الوزارة مسئولة أمامها.

* إصدار قوانين تكفل حرية الانتخاب.

* إصدار قانون يمنع تعدد الزوجات.

* جعل الطلاق على يد القاضى الشرعى للجميع ويتحتم إيجاد أسباب.

* تعيين حد أدنى لأجرة المزارعين والعمال بحيث لا تقل عن خمسة قروش ومعاقبة كل من يخالف ذلك من أرباب الأعمال بالحبس أو بغرامة مالية.

* يجب تقريب التفاوت الهائل بين موظفى الحكومة فى المرتبات ولا يصح بأى حال من الأحوال أن يأخذ موظف أكثر من مائة جنيه أو أقل من خمسة جنيهات فى الشهر.

* على الحكومة توزيع الأرض على المزارعين الفقراء.

* على الحكومة فرض ضريبة متدرجة على الدخل إذا زاد عن ٣٠٠ جنيه سنويا.. وكذا ضريبة على التراكات تزيد كلما بعد الوارث عن الموروث من حيث لقراءة.

* إلغاء الأقسام الأدبية فى المدارس الثانوية.

* تقرير إعانة قدرها ١٠٠,٠٠٠ جنيه سنويا للجامعة.

* على الحكومة عمل معامل (ورش) للمصنوعات التى يمكن عملها بمصر.

* إلغاء المحاكم المختلطة.

* إلغاء امتيازات الأجانب.

* إيجاد محلفين بالمحاكم الأهلية.

* تعديل القانون الشرعى حتى يتمشى مع الروح العصرية.

* إلغاء الرتب والنياشين وقصرها - من الآن فصاعدا - على ٥٪.

* على الحكومة إصدار قانون بإلزام أصحاب الأعمال الأجانب باستخدام قدر معين من الوطنيين لا يقل عن النصف.

* على مجالس المديریات تعيين الحد الأعلى لإيجار الفدان كل فى دائرة اختصاصها بحيث لاتزيد عن عشرة جنيهاً.

* إلغاء جميع القوانين التى تقيد حرية الخطابة والصحافة.

والآن لست أعتقد أننى بحاجة إلى تعليق.. لكن ثمة كلمة أخيرة هى أن هذا الكتاب القيم الذى قدمته للقارئ ليس كل ما أنتجه مصطفى حسنين المنصورى فهناك كتاب آخر أصدره بعنوان «مساوىء النظام الاجتماعى وعلاجها» وهناك كتاب مترجم آخر بعنوان «التقدم والفقر».

كذلك فإن اسم المنصورى يظهر فيما بعد عضواً فى الحزب الاشتراكى المصرى..

وبعد المنصورى يأتى مفكر آخر هو نقولا حداد..

ونقولا حداد واحد من القلائل الذين انطلقوا إلى خارج العالم العربى وتلقوا خبرة علمية على أيدي اشتراكيين أجانب..

فإذا كان سلامة موسى قد سافر إلى إنجلترا وقابل برنارد شو وانضم إلى الفابيين وعاد ليبشر بآرائهم الإصلاحية..

فإن نقولا حداد قد سافر إلى أمريكا واستقر فى نيويورك واتصل بواحد من قادة الفكر الاشتراكى الأمريكى هو أوجين دبس.. وفى عام ١٩١٠ أسس نقولا بالاشتراك مع أمين الريحانى وفرح أنطون جمعية عربية اشتراكية فى نيويورك وقد أصدرت هذه الجمعية مجلة أسمتها «الجامعة» لتبشر بآرائها..^(٢٥)

ويعود نقولا حداد إلى القاهرة ليمارس نضاله من أجل الاشتراكية.. مستعيناً بسعة اطلاعه وبتمرسه فى النضال العملى فى مجتمع رأسمالى متقدم يعادى حكام الاشتراكية عداً شديداً..

ويدخل حداد ميدان الدفاع الفكرى عن الاشتراكية والدعوة إليها.. مقدماً - فى اعتقاده - أكثر الشروح العلمية ووعياً للنظرية الاشتراكية..

إن الأهمية القصوى لكتابات نقولا حداد أنها تنقلنا من مرحلة الحماس الفكرى إلى مرحلة الفهم العلمى الأصيل والقدرة على الشرح المنطقى والكفاءة العالية فى الجدل وفى إفحام المعارضين أو المنتقدين..

إن كتابات نقولا حداد هي قمة التطور والنضج للفكر الاشتراكي في مصر في ذلك الحين وكان صدورهما في مصر إيذانا وإعلانا بأن الاشتراكيين قد بلغوا من النضج ما يمكنهم من مجابهة أعدائهم وجها لوجه ومن القدرة ما يمكنهم من أن يتقدموا لمجتمعهم بصياغة نظرية متكاملة متماسكة وعلمية.. وكان ذلك كله بداية لمرحلة جديدة من النضال الاشتراكي..

ولنطالع كتابات نقولا حداد..

وبين أيدينا مقال.. وكتاب..

ولنبداً بالمقال..

.. كتبه نقولا في عام ١٩١٨ ونشرته مجلة الهلال رداً على بعض هؤلاء الذين تصدوا للهجوم على الاشتراكية..

والمقال بعنوان «الاشتراكية ما تطلبه وما لا تطلبه»^(٢٦) ويبدأ نقولا مقاله كما يلي:

«بعد أن اطلعت على ما جاء في الهلال الماضي تحت عنوان «حل المشكلات الاجتماعية الكبرى بمشاركة العمال لأصحاب المال» رأيت أنه إذا لم نقم بإيضاح قضية الاشتراكية.. كما تنقت وتصفت أخيراً بقى الذين لا يعلمون شيئاً عن حقيقة الاشتراكية.. وهم كثيرون على ما أظن متورطين في اعتقادهم السيء بها ولا سيما أن المقالة التي أشرت إليها مستهلة بهذا النص:

ويرى الاشتراكيون أن الحل الوحيد لمشكلة العمال إنما هو انتزاع الوسائل التي تأخذ الثروة من أيدي أصحاب المال وجعلها ملكاً للعمال فيتقاسمون ربحها فيما بينهم بدلاً من أن يتقاضوا أجوراً معلومة.. فهذا القول قد يبرر جحود الذين لم يطلعوا على العقيدة الاشتراكية بل ويرجح اعتقادهم أن بغية الاشتراكيين اغتصاب أموال الأغنياء واقتسامها فيما بينهم وهو اعتقاد باطل..

لذلك لا بد من بيان موجز لحقيقة العقيدة الاشتراكية وإلا بقيت الاشتراكية مظلومة فيما يرميها به من الخطل جاهلوا حقيقتها»..

ثم يتقدم نقولا حداد ليفند عدداً من المذاهب الإصلاحية التي قد تختلط مع الاشتراكية فيها مذهب السنديكالزم وهو «مذهب استيلاء العمال على الشركات التي يعملون فيها وتقاسمهم أرباحهم فإن هذا المذهب لا يحل مشكلة التنازع الشديد بين المال والعمال.. زد على

ذلك أن هذه الطريقة لا تقطع شأفة تسيد المال على العمال لاحتمال أن جانباً من العمال يمكنهم أن يثروا ويعودوا إلى القبض على ناصية العمل والاستبداد لسائر العمال الآخرين...».

ثم يهاجم مذهباً إصلاحياً آخرًا هو «مذهب إشراك أصحاب الأعمال للعمال بنصيب من الأرباح علاوة على أجورهم فإن هذا المذهب أيضاً لا يحل المشكلة ولا ينزع زمام السيادة من أيدي الممولين ولا يخفف من غلواء استبدادهم بالعمال، وإن لجئ إليه في بعض الأحيان فلن يمس حدة العمال ويسكن ثوراتهم ويحول دون اعتصابهم.. فهو كالمورفين للمريض المتألم يسكن الألم ولكنه لا يشفى المريض..

أما المذهب الثالث فهو تقليل ساعات العمل وزيادة الأجور، وهو كسابقه لا يحسم النزاع بين العمال وأصحاب العمل بل هو مورفين آخر ورضا الاشتراكيين بهذين المذهبين مؤقتاً كرضا المريض بالعلاج المسكن لأنه ريثما يتسنى للطبيب العلاج الشافي.. فلذلك لا يعد هذا الأسلوب أو سابقه عقيدة اشتراكية ورضى الاشتراكيين به أحياناً ليس حجة عليهم بأنهم يعدونه عقيدتهم الأساسية..

أما المذهب الرابع فهو اغتصاب الثروات من أيدي ذويها «سواء كانت مالا أو مرفقا أو تجارة.. إلخ. وتوزيع هذه الثروات على جمهور الأمة بالتساوي؛ فإن هذا المذهب لم يوجد إلا في أذهان فريقين من الناس الفوضويين، والمتحاملين على الاشتراكية..».

وهكذا يبدو الأمر غريباً بعض الشيء.. لكنه مثير أيضاً؛ فإن معركة لينين التي خاضها ضد هذه التيارات بالتحديد ويمثل هذه الحجج - بالتحديد أيضاً - لم تبق طويلاً بعيدة عن مناخ الفكر الاشتراكي المصري..

وإذا كان الإصلاحيون قد تسللوا إلى مصر من خلال الفابية واشتراكية الدولية الثانية فإن خصومهم من الاشتراكيين الحقيقيين قد وجدوا سبيلهم إلى إفحامهم والرد عليهم.. وبعد ذلك يسأل نقولاً حداد ما هي الاشتراكية؟ ثم يقدم تعريفاً علمياً غاية في الوعي وغاية في التحديد والإيجاز..

«أما مذهب الاشتراكية فمَنْطَقي معقول وهو مبنى على سنة اجتماعية اقتصادية منصفة وهو يقتضى بقلب النظام الاقتصادي الحاضر ووضع نظام جديد».

فهو أولاً لا يقبل أى إصلاح أو ترقيع للنظام القائم وهو لا يقبل سوى قلب هذا النظام ووضع نظام جديد «يقضى بإلغاء ما ادعاه المال - نقداً كان أو عقاراً أو مرفقاً - من حق

الإنتاج؛ أى أن المال وإن كان ثروة ويمثل قوة - لا يجوز أن يكون منتجا ثروة أخرى لأن الوسيلة المشروعة الوحيدة لإنتاج الثروة هى العمل فقط «بعرق جبينك تأكل خبزك» فلا يجوز أن يكسب قرشا إلا من عمل عملا يساوى القرش.. ولكن النظام الحالى يأتى لكل من احتاز مالا أن يشتري أسهما فى شركة أو عقارا يؤجره أو أن يسلف نقودا فيجنى ربحا من ذلك بنسبة ماله من غير أن يعمل عملا قط.

وجه الإجحاف فى النظام الحالى الذى يشكو منه الاشتراكيون هو أنه يفضى إلى تجمع الثروة التى هى ثمرة تعب العمال وحدهم فى أيدي فئة من الناس وحرمان العمال من هذه الثروة كما هو الواقع الآن فى البلاد المتقدمة ولا سيما فى أمريكا حيث استطاع أفراد قلائل أن يجمعوا فى حياتهم من الأموال ما لا تتصوره مخيلة، فى حين أن ألوفا من العمال يتسولون ليس للرزق بل للعمل الذى يتعيشون منه فلا يجدونه..

أما النظام الذى يبتغيه الاشتراكيون فيمكن إجماله بكلمتين وهم نقل الشركات وجميع المرافق التى يقوم بها مجموعة عمال وجميع العقارات من أيدي ذوبها مساهمين ومالكين إلى يد الحكومة بحيث تصبح هذه المرافق المنتجة للثروة ملك الأمة.. وبدلا من أن تكون ملكا لفئة من الناس يبتزون أرباحها وحدهم تصبح الأمة كلها كمساهمة فيها وأرباحها تعود للأمة كلها..

فإذا تسنى ذلك لا يبقى للمال قوة الإنتاج أو التثمين بتاتا وإنما يبقى المال ممثلا ثروة فقط يمكن جماعه أو مدخره أن يتمتع بإنفاقه على ملذاته من حين لآخر ولكنه لا يمكنه من أن يجنى منه ربحا...».

وفى اعتقادى إنها المرة الأولى فى تاريخ الفكر الاشتراكى المصرى التى تطرح فيها مسألة الاشتراكية بهذا الوضوح العلمى البسيط والمنطقى.

مرة أخرى إنها دليل على نضج الحركة الاشتراكية.. وإنها تبشير مرحلة جديدة من النضال الاشتراكى..

فإذا انتقلنا إلى كتاب نقولا حداد أحسنا أن الرجل يزداد عمقا فى الفهم وقدرة على الإيضاح وكسب الأنصار والرد على المعارضين..

والكتاب صادر فى ١٩٢٠.. وتحت عنوان مباشر مكون من كلمة واحدة هى «الاشتراكية» أصدرته إدارة مجلة الهلال.. ولابد أن تصدى مجلة كالهلال وهى مجلة

معروفة بموقفها المحافظ لإصدار كتاب كهذا هو خير دليل على القوة التي كسبها الفكر الاشتراكي فى هذه الأيام.

وتتصدر الكتاب كلمة من إدارة الهلال فيها اعتذار.. وتحمل بين طياتها مغزى فهى تقول «قد أصبح للاشتراكية شأن عظيم فى حياة الشعوب ولا سيما بعد الحرب العظمى فجدير بقراء العربية أن يطلعوا على حقيقة هذا المذهب وقضاياها ومراميها إلى غير ذلك من المباحث الخطيرة الدائرة على إصلاح المجتمع العمرانى ولما كانت اللغة العربية مفتقدة إلى كتاب فى هذا الموضوع طلبنا إلى الكاتب الاجتماعى نقولا أفندى الحداد وضع مؤلف وجيز لسد هذا النقص..

وها هو ذلك المؤلف نقدمه إلى القراء ويقيننا أنه يقع لديهم موقعا حسنا ويعينهم على فهم دقائق المشكلة الاجتماعية الكبرى - سواء وافقوا على العقيدة الاشتراكية أو لم يوافقوا فإن غاية هذا الكتاب شرح تلك العقيدة.. وليست غايته نشر الدعوة الاشتراكية أو الحث على الانخراط فى سلك الأحزاب الاشتراكية..».

والكتاب يقع فى حوالى مائة صفحة^(٢٧) ولسنا نستطيع أن نستعرضه هنا فى هذه العجالة لكننى سأحاول أن أكتفى ببعض نماذج منه..

والكتاب يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام:

١- فى إجحاف النظام الأفرادى (الرأسمالى).

٢- فى النظام الاشتراكي.

٣- أوهام خصوم الاشتراكية.

أما الخاتمة فعنوانها «مصير العالم إلى الاشتراكية».

وفى مقدمة الكتاب يقول نقولا حداد:

«إن برامج الأحزاب السياسية الاشتراكية فى الممالك الديمقراطية تختلف اختلافات متعددة وبعض هذه الاختلافات جوهرى.. على أن روح العقيدة التى تحيى أبدان هذه الأحزاب واحدة وليست الفروق التى بينها إلا من الوجهات السياسية التى ترمى إلى كيفية تنفيذ النظام الاشتراكي وإحلاله محل النظام الحاضر..

إن الفكرة الاشتراكية بنت العقل المنطقى أى إنها نظرية عقلية تقتضيها الأحوال الاجتماعية وما تضاربت الآراء والأقوال فيها فى أدوار شئونها وتطورها إلا لأن النظام

الأفرادى الحاضر أصبح على التماذج أصيلا فى العقل الاجتماعى، وإحلال الدخيل مهما كان صوابا مكان الأصل مهما كان خطأ لا يتسنى بسهولة.. ولهذا تعذر على العقل الاجتماعى جحود عقيدة الأفرادية واعتناق عقيدة الاشتراكية دفعة واحدة.. هذا هو سر تدرج الحركة الاشتراكية وتطورها وسبب التضارب فى آراء أهل الحركة واختلاف مذاهبهم حتى يخليل إليك أنهم كانوا يخطبون خطباً عشوائياً إلى أن بزغت نكاء واهتدوا أخيراً فى ضيائها إلى العقيدة بعد أن تمحصت وتصفت وتنقت من شوائب الخرافات والأباطيل».

ثم يقدم بعد ذلك تفسيراً لكلمة «إفرادية» ويقول: إن المراد منها «هو النظام الحاضر الذى يطلق العنان لسنة التنازع بين الأفراد بحيث يؤذن للقوى أن يتمتع بقيمة تعب الضعيف أو على الأقل يخوله حق مقاسمته قيمة عمله، وبعبارة أخرى يسمح للقوى أن يعيش حالة على الضعيف وهى نقيض الاشتراكية التى تقضى بأن يتمتع كل فرد بنتيجة تعبها كلها، على اعتبار أن الناس وهم مشتركون فى الأعمال يجب أن يتقاسموا ثمراتها كل على قيمة عمله»^(٢٨).

وبعد هذه المقدمة يبدأ الباب الأول من الكتاب وفيه يسجل نقولاً حداد إدانة كاملة وصارخة للنظام الرأسمالى.. ويلجأ لأول مرة إلى استخدام الأرقام والأسماء والوقائع كأدلة مادية لا تدحض.

* فخمسة آلاف أمريكى، أى ١ : ٢٠٠ , ٠٠٠ ، من سكان أمريكا يملكون ثروة الولايات المتحدة كلها..

* وروكفلر يكسب من شركة واحدة من شركاتها ١٠ ملايين ريال وكسور فى العام، أى ٢٧,٧٣٨ ريال فى اليوم»^(٢٩).

ويورد بعد ذلك أمثلة عن ترف الرأسمالين ينقلها عن كتاب «الصراع بين رأس المال والعمل» وهى أمثلة صارخة أيضاً..

«سيدة غنية دفعت ١١ ألف ريال رسوما جمركية على ملابس استوردتها من باريس.. وسيدة أخرى أنفقت على ملابس كلبها ورياش غرفته نيف وألف جنيه»^(٣٠).

وهناك فصل بعنوان «المال ثمرة العمل» يشرح فيه نقولاً حداد فى بساطة فكرة ماركس عن القيمة بل يستخدم تقريباً نفس الأمثلة التى استخدمها ماركس فى كتابه رأس المال.

«لا يمكن أن يستخرج من الرزق ما يساوى جنيها مثلا إلا إذا بذل الإنسان قوة في استخراجها تساوى جنيها.. فإذا كان في حوزتك أردب قمح يساوى ٣ جنيهات مثلا، وكانت أجرة العامل تساوى ريالاً، فذلك الأردب من القمح لم يصرف في حوزتك إلا لأن عاملاً (أنت أو غيرك) اشتغل في الأرض ١٥ يوما حتى استغل ذلك الأردب من القمح من الأرض».

ثم هو يستخلص بعد هذا الشرح نتيجة غاية في الأهمية.

«وعلى هذه القاعدة التي لا غبار على صحتها يقال: إنه إذا كان في يدك مائة أو ألف أو مليون جنيه فاعلم أنه ما حصلت على هذه الجنيهات إلا لأن عمالاً بذلوا من القوة في العمل ما يساويها، فكل جنيه بذل لأجل تحصيله من التعب والعناء ما يساوى جنيها، فإذا كان زيد من الناس قد جمع في حياته مليون جنيه فهل يعقل أنه بذل من العمل وعانى وقاسى ما يساوى مليون جنيه؟.. وإذا فرضنا أن أجرة العامل ريال في اليوم اقتضى أن يعيش هذا الرجل ٥ ملايين يوم أو نحو ٣٠ ألف سنة.. هذا هو عمر صاحب المليون، فما قولك بصاحب الملايين؟.. وما قولك بعمر روكفلر؟

قد يقول البعض أن أنواع الأعمال تتفاوت قيمة.. فلا بد أن يكون زيد من الناس قد حصل على ثروته الهائلة بما بذل من العمل الثمين الغالى القيمة:»^(٣١).
وهنا يضرب نقولا سلسلة من الأمثلة..

«ف رئيس الجمهورية الفرنسية الذى يتقاضى ٢٤ ألف جنيه فى العام يجب أن يتراأس الجمهورية أكثر من ٤١ عاما متوالية، وأن يوفر كل ماهيته ولا ينفق منها دينارا حتى يجمع المليون. وكذلك الرئيس ويلسون يجب أن يتراأس الجمهورية الأمريكية ٥٠ عاما متوالية حتى يجمع المليون، لانه يتقاضى ٢٠ ألف جنيه فى السنة.. وبناء على هذا الحساب يجب أن يتراأس روكفلر الجمهورية الأمريكية ١٠ آلاف عام حتى يمكن أن يجمع من ماهيته ثروته التى بلغت ٢٠٠ مليون جنيه، هذا إذا لم ينفق سنتا واحدا منها...»^(٣٢).

وأشهد أننى لم أقرأ هدماً للنظام الرأسمالى بمثل هذا العنف، ولا شرحاً لمعاييه بمثل هذه السلاسة والاتساق.

ويمضى نقولا حداد فى شرحه العبقري ليوضح كيف استحوذ الرأسماليون على ثروة المجتمع وكيف يمضون فى استغلال العمال.. وكيف يستخدمون المخترعات الحديثة لزيادة أرباحهم ولزيادة استغلالهم للعمال..

«فإن هذا التغيير العجيب العظيم الذى أحدثته الاختراعات فى الحياة البشرية لم تغمر بنعمائه طبقات الهيئة الاجتماعية على السواء، بل على العكس كان بلا مناحة من جهة علة لإكثار النعيم والراحة والهناء لطبقة الأغنياء، ومن جهة أخرى صار علة لتمادى طبقت العمال فى الشقاء والفاقة والفقر حتى التضور والموت جوعاً»^(٢٣).

«لو ما كانت الثروة حاصل عمل جسدى وعقلى - كما أسلفنا القول - فلا يتعذر علينا بعدما تقدم أن نعلم من الذى تعب فى تحصيلها.. وبأصرح عبارة نفهم جيداً أن العمال والمفكرين جنوها وحصدوها وما وصلت إلى أيدي المتمولين إلا لأنها اغتصبت من أيادي المحصلين لها، فغنى أولئك يشيد على فقر هؤلاء.. ولولا ذاك ما كان هذا»^(٢٤).

وتحت عنوان فرعى هو «صراع المال والعمل» يروى حداد قصة اختراع الترامواي، وكيف أن مهندساً اخترع هذا الترام فذهب إلى فلان المالى وبسط له المشروع فاقتنع بالفكرة لكنه خشى الفشل.. فقال له المهندس:

«إن اسمك ومركزك المالى يكفيان لتنفيذ المشروع فإذا أعلنت أنك مقدم على هذا العمل النافع وعرضته لنوى الأموال لكى يشتركوا فيه بالمساهمة وتوزع رباحه على أسهمهم، فلا ريب أنهم يتهافتون على المساهمة فيه لأنهم سيقولون لأنفسهم لو لم يكن فلان المالى العظيم القدر ذا ثقة بنجاح المشروع ما أقدم عليه.. وفى هذه الحالة تأخذ لنفسك أسهم تأسيس بلا ثمن وتجنى ربها بلا رأس مال.. وإن حبط المشروع سقط على رؤوس المساهمين وجعلنا اللوم على مدير الشركة مهما كان بريئاً ولا ضرر ما دام لا يضحى بمال من عنده»^(٢٥).

وعلى هذا النحو تكونت الشركة المساهمة.. وهكذا يستمر نقولاً حداد فى براعة لامثيل لها فى إدانة كافة أشكال الاستثمار الرأسمالى.. فمن يقوم بالمشروع «المهندس والمدير والكاتب والحاسب والفحام والوقاد والسائق.. إلخ.. أما المساهمون فلا يدرون شيئاً عن المشروع سوى أنهم يركبون مركبات الترام تنساب فى الشوارع ولا يعملون للشركة عملاً مطلقاً...».

«فترى مما تقدم أن المال استعبد عقل المفكر وجسد العامل جميعاً واهتضم غلة تعبهما، وصاحبه ناعم البال يتقلب على أسرة الملذات.. وما اكتفى المال بهذا الاستعباد فقط، بل أفضى إلى قطع أرزاق كثيرين من هؤلاء العمال والمفكرين خدمة لسبة

«الاستقطاب المالى» لأنه لا يمكن أن يتجمع المال فى قطب ما لم ينضب من القطب الآخر المقابل له.. ومعنى نضوبه موت من هم فى ذلك القطب»^(٣٦).

وبعد أن يجهز على فكرة الشركات المساهمة يتقدم ليهاجم الاحتكار الذى يقول: إنه يرفع شعار «السمة الكبيرة تأكل السمة الصغيرة».. الشركة تقتل التاجر الصغير والشركة الكبيرة تقتل الشركة الصغيرة «فمتى تم الاحتكار بعد ذلك الصراع واستقلت شركة بمشروع ولم يبق لها من منازع تمادت فى طمعها ولم تعد تعرض ثمرة عملها رخيصا كما كانت تفعل يوم كانت تزاخم فى حلبة الصراع بل رفعت أسعاره ما استطاعت.. وقد تتصالح جميع الشركات المتخاصمة أو المتزاحمة وتتحالف لكى تقف على نهب الجمهور»^(٣٧).

ويمضى نقولا حداد بأسلوبه السهل ليطعن المجتمع الرأسمالى الطعنة تلو الأخرى، فيتحدث عن «تفريط النظام الأفرادى بالثروة العمومية».. وعن «تعطيل قسم من الثروة لرفع ثمن القسم الآخر»..

«فبينما كان جانب من العمال فى بعض ولايات أميركا يتضورون جوعا إذ لا يجدون لأنفسهم شغلا وعملا، كانت بعض شركات الأراضى وبعض كبار الملاك يرفضون أن يؤجروا قسما من أراضيهم، بل تركوها بورا لكيلا تهبط أجور الأتبان الزراعية»^(٣٨).
وفصل آخر عن «التفريط بالعمل حرصا على الثمن» وفصل عن «الإعلانات» «فشركات الصابون فى إنجلترا كانت تنفق على الإعلانات نصف مليون جنيه.. ومن يدفع هذه النفقات؟ الشارى الأخير، أى المستهلك»^(٣٩).

وأخيرا.. وبعد هذه الحيثيات الرائعة، يصدر نقولا حكمه بالإدانة على النظام الرأسمالى فهو نظام يقضى «بأن يتمتع فريق من الناس بثمرة أعمال السواد الأعظم من الناس، وقدر لهم أن يبنخوا ويبذروا ويقصفوا فى حين أن ذاك السواد الأعظم يرى ثمرة عمله ويشتهيها ولا يقدر أن يمد لها يدا.. الفلاح يربى الفرخة ويستنتج منها البيضة ولا يذوق لحم الفراخ ولا بياض البيض، يصنع الجبن ولا يأكله.. يزرع القمح ويحصده ولا يأكل إلا الذرة»..

فالنظام الأفرادى إذن لم يستطع إسعاد الجنس البشرى برمته، مع أن فى الجنس البشرى قوة للعمل كافية أن تسعد ضعفائه جميعا..

النظام الأفرادى فشل وخاب فى مهمته.. فلنرى ماذا يستطيع أن يفعله النظام الاشتراكى»^(٤٠).

وهكذا يبدأ نقولا حداد الباب الثامن من كتابه القيم فيتحدث عن المجتمع البشرى بين التنازع والتعاون، ويؤكد «أن التعاون هو دليل إنسانية الإنسان وأن التنازع بقايا من بهيميته.. فلذلك تقول الاشتراكية: إذا كان الناس متعاونين حتماً فى تحصيل الثروة، أو بعبارة أخرى فى استخراج الأرزاق واجتناء المعاش.. فلماذا لا يشتركون فى التمتع بها على قاعدة العدل والإنصاف كل على قدر استحقاقه؟

إذا كان المهندس والحداد والنجار والفاعل.. إلخ.. قد اشتركوا جميعاً فى إنشاء السكك الحديدية أو الترام فى شوارع العاصمة وهم القائمون بإدارة حركته، وتسييره.. فلماذا لا يشتركون فى أرباحه؟ وما هو شأن زمرة من العاطلين حتى يجنوا القسم الأعظم من ثمرات العمل المفيد ولا يدعوا إلا النذر القليل لأولئك الذين يقومون بالعمل؟».

قد يقول البعض: من قدر أن يعمل ما عمله المتمولون فليعمل، لأن سنة التنازع تسوغ له ذلك.. القوى بقوته.. والدنيا لمن غلب وفاز ونال وظفر.. عجباً! عجباً، إذا صرع القوى وسلب ما فى جيبه أو عزتم إلى الشرطة المأجورين أن يقبضوا على القوى ويسوقوه إلى المحكمة قائلين: يجب أن يجرى العدل فيه مجراه.. يجب أن يعاقب على جنايته، بالله ألا يجب أن يجرى العدل مجراه هنا؟.. أو لا يجوز أن يجرى مجراه بين المتمول والعامل فى قضية الترام مثلاً؟!

الساطى قوى والمتمول قوى.. المسلوب ماله ضعيف والعامل ضعيف.. فلماذا يجب أن ينصف المسلوب من الساطى عليه، ولا يجوز أن ينصف العامل من المتمول.. بالله قولوا لنا متى وأين يجب أن يستيقظ العدل ومتى وأين يجب أن ينام؟! قد نقول للسوط قانون عقوبة معروف ومدون، والقوة الحاكمة موفقة عليه ومنفذته.. لهذا يعد جريمة تستحق العقاب، لكن ليس لاغتصاب المتمول تعب العامل قانون فلا يعد جريمة.. فنقول: الاشتراكية تطالب بسن هذا القانون..

الاشتراكية تبسط هذا الحيف وهذا الإجحاف وتسعى إلى الأسلوب الموافق لإزالتها، وإقامة قسطاس العدل والإنصاف بين المتمول والعامل، حتى لا يبقى فى طوق ذلك أن يغتصب ثمرة عمل هذا ويتمتع بها، وحتى لا يعيش ذاك على جنى هذا..

وما دامت الأرزاق لا تجنى إلا بالتعاون والأموال لا تجمع إلا بالتعاون والثروات لا تحشد إلا بالتعاون، وجب أن يتقاسمها المتعاونون بجمعها على قاعدة العدل والإنصاف. هذه نواة العقيدة الاشتراكية»^(٤١).

وفى فصل بعنوان «فكرة النظام الاشتراكي» يقول:

«لقد رأينا أن الذى سبَّب البؤس والشقاء فى المجتمع الإنسانى أمرين خارجين عن دائرة الحق أفضى إليها التطور الاقتصادى المتمشى على سمة التنازع.. الأول: امتلاك الأرض.

الثانى: تثير المال المدخر.

إما أن امتلاك الأرض باطل ولا رائحة للحق فيه؛ فلأن الأرض ليست نتيجة عمل الإنسان حتى يحق له امتلاكها بل هى مشاع للجنس البشرى كله فمن اشتغل فيها جنى منها.. فيجب ألا يجنى منها إلا من اشتغل فيها.

وإما أن استثمار المال باطل فلأن المال ليس قوة عاملة تنتج عملا بل هو معبر عن حاصل عمل..

ولتلافى النتائج المجحفة يجب إبطال هذين الأمرين..

فكيف ذلك؟ وكيف يمكن تنفيذه..؟

وهنا لا بد من التنبيه إلى أمر جوهري خطير الشأن وهو أن تنفيذ المبادئ الاشتراكية يجب أن يسبقه تنفيذ المبادئ الديمقراطية فى الحياة السياسية.. لأن الاشتراكية ليست إلا ديمقراطية الحياة الاقتصادية فإذا لم تكن الحكومة حكومة الشعب فلا يمكن أن يشترك الجمهور فى الأرزاق على حد اشتراكهم فى تحصيلها..

.. لكن ما هى صورة المجتمع الذى يريده حداد..

«تكون الأرض كلها فى المملكة الواحدة ملك الأمة كلها وتكون حكومة الأمة قيمة عليها ويكون الفلاحون وسائر العاملين فى الأرض مزارعين فى أرض بالمحاصلة حسبما تجد الحكومة» أو بالأحرى لجنتها الزراعية «تعيين الحصص تعيينا عادلا».

وكما تشرف لجنة الزراعة على شيوع الأرض، تشرف لجنة الأبنية على شيوع الأبنية..

«وعلى هذا النحو يمكن أن تكون الأمة مالكة لجميع المرافق بلا استثناء.. فتكون مالكة

للتلغراف والتليفون والبريد والترام ومصلحة المياه ومصلحة الغاز ومصلحة اللبن ومصلحة

السكر ومصلحة الملح ومصلحة الصابون وجميع أنواع المعامل والمصانع والمرافق كالمخابز والمجازر والفنادق والملاهي والمتاجر حتى يمكنها أن تكون صاحبة الدكاكين والقهوات وكل مسترزق ويكون جميع أفراد الناس مستخدمين في هذه المسترزقات والمرافق ولكل أجرته حسب قيمة عمله بالتعاون والتكافؤ..

وبعد ذلك فصل عن محاسن النظام الاشتراكي يلخص فيه حداد هذه المحاسن فيما يلي:
١- سقوط دولة المال؛ أى أنه لا تبقى لرأس المال قوة التثمين مطلقاً لأن المرافق وجميع موارد الرزق ملك الجمهور بإدارة حكومته.

٢- ضمان الاسترزاق لكل فرد فإذا كان العمال أكثر من حاجة العمل وكان ذلك دليل يسر ورخاء وتوزع الأعمال على الجميع، ويمكن في هذه الحالة أن يكفى للحصول على أرزاق الأمة أن تشتغل الأمة نصف النهار وتتمتع بالراحة وحسن العشرة وترويض الأخلاق والتثقيف.. فى النصف الآخر..

٣- تواجد السيطرة على الإنتاج.

٤- يستغنى بتاتا عن إنفاق جانب من القوى العاملة فى ترويج البضائع.

٥- ينتفى الميراث بانتفاء الملكية ولا يرث الابن من أبويه إلا حسب بنيتة وعقله وأخلاقه وما فضل من النقد عندهما.. ولكنه يرث من الأمة كلها حقه فى العمل والارتزاق وحمايته من الفقر والشقاء.

٦- السخاء على المنافع العمومية كالعناية بالتعليم والصحة.. الخ»^(٤٦).

وبعد ذلك يخصص نقولا حداد فصلاً للهجوم على النصريات الإصلاحية والفوضوية تحت عنوان «ما تبرأ منه العقيدة الاشتراكية».

وفصل آخر بعنوان «أوهام خصوم الاشتراكية» ولست بحاجة إلى استعراض ما جاء فيه فقد لخصت مجمل آرائه فى هذا الصدد فى مقاله السابق الإشارة إليه.
ثم هو بعد ذلك يورد فصلاً هاماً بعنوان «مورفين النظام الأفرادى لتسكين آلام المجتمع».

يقول فى مقدمته «إن أعداء الاشتراكية بالرغم من تعنتهم فى شجب المبادئ الاشتراكية وجد هذه العقيدة شاعرون أن التيار ضدهم ولهذا لا يرون بدءاً من مماشاة هذا التيار الجارف بقدر الإمكان..

يرون أن المتألم لا يستطيع إلا أن يصرخ وصراخه يزعجهم ويخشون أن الكلب الجائع إذا اشتد جوعه أضرب وأنهب فيضطرون أن يلقموه.. يرون أن المجتمع يتألم ألما شديدة تحت نيران النظام الأفرادى الثقيل فيحاولون أن يحقنوه بمورفين تسكيناً لآلامه وإليك أنواع المورفين»^(٤٣).

ويتحدث عن عدد من هذه المسكنات ويهاجمها هجوما شديدا «نحن لا نشكر لركفلر جوده بمعظم ثروته الطائلة لكى ينفق فى المبرات والإحسان والمشروعات الخيرية لأنه ما جمع تلك الأموال الطائلة إلا بعد أن أنهك ألوف وملايين من العمال فى تحصيلها له.. فلا كان انضناك العمال فى جمعها ولا كانت هذه المنحة من يد روكفلر.. نحن نريد أن ينال العامل حقه وأن يتمتع بثمره عمله وأن يغاث وقت الضيق بحق له وليس بصدقة عليه.

ولا نشكر كارنجى الذى ملأ أمريكا مكاتب للمطالعة لأن الأموال التى أنفقتها فى هذه المكاتب ليست من عرق جبينه بل هى ثمرة أعمال ملايين العمال.. فنحن لا نريد مكتبة من يده بل من يد النظام الاشتراكى.. ولا يحتاج العامل إلى مكتبة للمطالعة بل يحتاج حقه من المال لكى يتسنى له أن يتعلم فى المدرسة ويصير أهلا لتفهم ما يطالع»^(٤٤).

وبعد أن يفند حداد كل أنواع المورفين التى ابتدعها النظام الرأسمالى يقرر «أن الرأسمالية تحفر قبرها بيديها وأنها تعد السبيل الحتمى للوصول إلى الاشتراكية».

وفى الخاتمة يؤكد حداد حتمية انتصار الاشتراكية بالرغم من كل العقبات التى تصادفها.. فمثلا فكرة الحكم الجمهورى قديمة «.. وقد حاولت الأمم منذ القدم مرة غير مرة إنشاء جمهورية لها فكانت تفشل حتى كاد يقوم فى يقين السواد الأعظم من الناس الذين لا يرون إلا ظواهر الأمور أن الحكم الجمهورى لا يثبت لأنه غير طبيعى وأن الحكم الملكى هو الثابت الدائم لخالد لأنه طبيعى بل كان فريق يعتقد بصحة دعوى الحكام أن سلطة الملك مستمدة من الله.. ولكن القرن التاسع عشر أثبت لنا أن الحكم الجمهورى الذى كان يعد بدعة فى السياسة هو الحكم الطبيعى الذى يجب أن يقوم ويثبت حتى أن بعض الأمم التى كنا نظنها عريقة فى التقاليد القديمة أخذت تنفض عنها غبار هذه التقاليد ونادت بالجمهورية كالصين واليابان.. فإذا كان شأن الجمهورية هكذا فلا بدع أن يكون شأن الاشتراكية كذلك وهى ديمقراطية كتلك تبدو لفريق من الناس نظرية مستحيلة لكنها ستصبح حين يتمهد السبيل لها حقيقة راهنة»..

ثم لم يلبث نقولا الحداد أن أصدر كتابا جامعا بعنوان «علم الاجتماع.. حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها»^(٤٥).

.. يتوج به معرفته بأسس الماركسية ورؤيتها لتطور المجتمعات.. ولنقرأ معه..
«إن الطبيعي قابل للتغير لأن عوامل الكون المختلفة مناهض بعضها بعضا، وكل ما تراه من حوادث التغير إنما هو نتيجة لهذه المناهضة»..

ثم يتحدث عن الديمقراطية قائلا: «وما دامت الديمقراطية الحاضرة ناقصة، ولا تزال تسمح بالتفاوت الاقتصادي أى ما دامت لم تشمل العالم بحسب المبادئ الاشتراكية. وما دام مباحا للأفراد أن يجمعوا الثروات الطائلة، ترى السلطة تغتصب اغتصابا من تحت ذن الديمقراطية، لأن السلطة الأولى لم تزل للمال مع أن حقها أن تكون للعلم والأخلاق»^(٤٦).

ويقول «وكان من أهم نتائج نظام الملكية الذى تطور على هذا النحو، الاستقطاب المالى، وهو تحول الثروة إلى جانب الأسياد المتمولين والفقر المدقع إلى جانب العبيد العمال.. وحركة الاشتراكيين المقاومة لاستفحال التمول تعد تطورا للرقى الاقتصادى إذ تحول إلى وجهة أخرى»^(٤٧).

ثم وبصراحة أكثر «لا يستطيع تقرير الحق الاقتصادى على قاعدة الديمقراطية ما لم تقلل جميع الأنظمة، وتترزع وتتداع، ولا يستطيع بناء نظام اقتصادى جديد إلا بهدم كل نظام ذى علاقة بالاقتصاديات القديمة.. إلا إذا ألغيت الملكية، وأصبح كل ذى قيمة ملكا للأمة بإدارة الحكومة، وصار كل شخص عاملا أو موظفا عند الحكومة يأخذ منها أجرة عمله، ويشترى منها حاجته، أو يستأجر منزله، فأى أسلوب من أساليب الحياة الحالية، لا يتزعزع، بل ولا ينتقض»^(٤٨).

وأخيرا لست أعتقد أننى أملك وحدى إصدار تقييم لهذا الرجل.. يكفى أن أقرر أنه..
«القمة».. قمة هذا التراث العظيم التى سار شعبنا مسيرته المجيدة ليشق له طريقا وسط الصخر الصلد..

قمة الفهم الواعى والفكر المستنير والإيمان العميق بالعلم والشعب والعدالة.. قمة الرحلة المجيدة التى بدأها رفاعة وخاض غمارها مئات بل ألوف من المفكرين العباقرة والكادحين البسطاء من أجل أن ينبتوا فى مصر أزهار الاشتراكية السعيدة..

وبعد الوصول إلى هذه القمة يبدأ الفكر الاشتراكي مرحلة جديدة وأساليب جديدة، يبدأ في العمل النضالي المنظم والواعي من أجل تحقيق هذه الأفكار.

إننا لا نريد أن نبالغ في مدى نقاء هذا الفكر الماركسي ودقة التزامه بالتعاليم اللينينية. لقد كان دعاة هذا الفكر مجرد رواد في مجال صعب.. بل وبالعنصرية بالنسبة للمثقف المصري، وكانوا يشقون طريقهم نحو فهم أعمق وسط صعاب جمة أهمها انعدام أية كتابات لينينية باللغة العربية، وحتى بالنسبة للغات الأجنبية المتاحة للمثقف المصري وهى الإنجليزية والفرنسية فإن الكتابات اللينينية لم تكن متوفرة أيضا.

كذلك فإن هؤلاء المثقفين الماركسيين قد ظلوا لفترة طويلة يمارسون دورا فكريا محضاً ولم تتح لهم فرصة الاحتكاك بالنضال اليومي للبروليتاريا لا الاندماج المباشر في العمل الحزبي..

كانوا مجرد مجموعات من المثقفين يدرسون ويتناقشون ويبحثون عن طريق، ولم يكن ممكناً أن تتضج أفكارهم ويصح مسارها وتتحول إلى مفهوم فكري عميق وأصيل إلا من خلال العمل الحزبي والممارسة اليومية للنضال.. وهو أمر لم يتوفر إلا مع تأسيس الحزب في أغسطس ١٩٢١.

وهكذا يمكننا أن نعتبر هذه الكتابات الماركسية مجرد خطوة في الطريق الصحيح ولا شك أننا نلطم أصحابها لو حاولنا تقييمها وفقاً للمقاييس الدقيقة للماركسية اللينينية.. فلا شك أن هناك أخطاء وشوائب ونقص في الفهم وبعض الانحراف.. ولم يكن ممكناً أن يصحح المسار إلا من خلال النضال الحزبي وهو أمر لم يتوفر إلا فيما بعد..

وهكذا فإننا - كى لا نلطم هؤلاء الرواد الشجعان - يتعين علينا أن نقيم أعمالهم تقييماً موضوعياً مرتبطاً بظروف مجتمعهم وبظروف التكوين الفكرى للمثقف المصري.. وأن نضعهم في موضعهم الصحيح رواداً في طريق صعب لم تكن قد اتضحت لهم بعد كل معالمة. لكن ذلك كله لا ينفى عن كتاباتهم أصالتها وأهميتها.

هوامش

(١) منتخبات المؤيد لعام ١٨٩٠ - ص ٢٩١.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن حياة مصطفى حسنين المنصوري راجع: أمين عز الدين - «المنصوري» سيرة مثقف ثوري - دار الغد العربي - القاهرة (١٩٨٤).

(٣) مصطفى حسنين المنصوري - تاريخ المذاهب الاشتراكية - (١٩١٥) ص ٤٩.

(٤) ص ٦٧.

(٥) ص ٤.

(٦) ص ٦.

(٧) ص ٧.

(٨) ص ٩.

(٩) ص ٤٦.

(١٠) ص ٩.

(١١) ص ٩.

(١٢) ص ٨.

(١٣) ص ٨٠.

(١٤) ص ١١.

(١٥) ص ٨٩.

(١٦) ص ٨.

(١٧) ص ١٢.

(١٨) ص ١٣.

(١٩) ص ٨٣.

(٢٠) ص ٩٢.

(٢١) ص ٩٣.

(٢٢) ص ٩٩.

(٢٣) ص ١١١.

(٢٤) ص ١١٢ وما بعدها.

(٢٥) كامل أبو جابر - مقدمة لكتاب جذور الاشتراكية - دار الطليعة - بيروت - ١٩٦٤ - ص ١٣.

(٢٦) أعيد نشر المقال كاملاً في عدد الهلال الصادر في ١٩٦٧/١٢/١ ص ٤١ وما بعدها.

(٢٧) أعادت دار الطليعة بيروت طبع هذا الكتاب عام ١٩٦٤ تحت عنوان جذور الاشتراكية لكننا سنعتمد

على الطبعة الأولى الصادرة في عام ١٩٢٠.

(٢٨) ص ٦.

- (٢٩) ص ٨.
- (٣٠) ص ٩.
- (٣١) ص ١١.
- (٣٢) ص ١٣.
- (٣٣) ص ٢٦.
- (٣٤) ص ٢٨.
- (٣٥) ص ٢٩.
- (٣٦) ص ٣٠.
- (٣٧) ص ٣٢.
- (٣٨) ص ٣٩.
- (٣٩) ص ٤٠.
- (٤٠) ص ٤٦.
- (٤١) ص ٥١.
- (٤٢) ص ٦١.
- (٤٣) ص ٨١.
- (٤٤) ص ٨٢.
- (٤٥) نقولا الحداد - علم الاجتماع - حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها - ط ٢ - ١٩٨٢ - دار الرائد العربي «بيروت».
- (٤٦) المرجع السابق - ص ١٥٠.
- (٤٧) المرجع السابق - ص ٢٣٥.
- (٤٨) المرجع السابق ص ٣١٣.

القسم الثالث

من الفكر المجرد
إلى العمل الحزبي

- ١ -

- الخلايا الاشتراكية فى مطع القرن العشرين.
- إعلان الحزب الاشتراكى.
- الاشتراكية المصرية من الدفاع إلى الهجوم المضاد.

ثمة روايات عديدة لتلك القصة المجيدة، قصة بدء النشاط الحزبى للاشتراكية فى مصر.. لكن كل الروايات تتفق على أن البداية كانت بأيد أجنبية.

والحقيقة أن الجاليات الأجنبية فى مصر التى تكاثر عددها بعد الاحتلال الإنجليزى ونتيجة للامتيازات الأجنبية قد لعبت دورا هاما فى التأثير على المحتوى الفكرى للطبقة العاملة المصرية ومتلقيها..

والغريب أن هذا التأثير قد اقتصر - تقريبا فى حدود العمال والفكر العمالى. فالمثقفون المصريون كانوا معزولين عن المثقفين الأجانب. يعزلهم تعالى الأجانب واتجاههم إلى تكوين مجتمعات خاصة بهم، واحتقارهم اللغة العربية وللمتحدثين بها.. وتعزلهم الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها.. وإحساس كل موظف أجنبى - أيا كان مركزه - بأنه جزء من فئة أكثر تفوقا وأكثر احتراما.

أما العمال فقد كانوا الفئة - الوحيدة - فى المجتمع التى امتزجت فى مجال العمل اليومى مع العمال الأجانب الذين كانوا يؤدون نفس العمل ويتعرضون لنفس القهر ويقاومون نفس المستغل.

يساعد على ذلك أن غالبية هؤلاء العمال كانوا من غير الإنجليز، أرمن، يونانيين، إيطاليين و من خلال هذا الامتزاج فى العمل، بدأ الاحتكاك الفكرى ..

لكن التكوينات الحزبية كانت فى البداية أجنبية صرفة وقد أدى إلى ذلك تخلف العمال المصريين وإحساسهم بتعالى العمال الأجانب عليهم، وعدم الثقة بهم، كما أن هذه التكوينات كانت فى الغالب تكوينات قومية مغلقة فى حدود جنسية واحدة تعمل كامتداد للأحزاب الاشتراكية فى الوطن الأم.

فالتنظيم الاشتراكى اليونانى ظل مستقلا باستمرار واحتفظ بكيانه المستقل حتى ما بعد النصف الثانى من القرن العشرين(*)..

والعمال الإيطاليون ،كان الكثيرون منهم يحضرون إلى مصر فى مواسم محددة هربا من نقص فرص العمل فى إيطاليا ثم يعودون إلى بلادهم مرة أخرى وقد أدى هذا إلى استمرار ارتباطهم بالحزب فى الوطن الأم.

لكن هذا لم يمنع من وجود محاولات لإقامة تنظيمات تضم أجانب من جنسيات مختلفة..

ولنحاول الآن أن نتتبع الخيط من بدايته..

والحقيقة أن هناك روايات عديدة، وربما كانت كلها صحيحة صالما أن كل رواية تتحدث عن تنظيم مختلف..

ولنبداً بأولى هذه الروايات..

ياناكاكاس، بيريديس - اليونانيون والأرمن

إذا كان روزنتال قد بدأ نشاطه عام ١٨٩٩ فإن هناك من بدأ قبله..

ولعل المنظمة الشيوعية اليونانية تمتلك الحق فى أن نقرر لها أنها - وفق ما هو متاح من معلومات تاريخية - كانت أول مجموعة منظمة مارست نشاطا شيوعيا فى مصر..

وتحفظ لنا صحف عام ١٨٩٤ معلومات عن واقعة «ضبط أحد اليونانيين وهو يوزع منشورا (فوضويا) فى ١٨ مارس ١٨٩٤ يحض فيه العمال على الاحتفال بذكرى نهضة الكومون عام ١٨٧١»..

وكانت كلمة شيوعية تترجم فى صحف هذه الفترة فوضوية ثم أصبحت فيما بعد تترجم إباحية.. من لفظ «إباحة» وتشير إحدى المجلات إلى محتوى هذا المنشور فتقول منه فقرة

تقول «اذكروا أن هذا اليوم هو تذكار نهضة الكومون في باريس، فهل أيها العمال المظلومون نتحد جميعا، ونهتف معا فليهلك الموسرون الضواري ولتحيا الثورة الاجتماعية ولتحيا الشيوعية»^(١).

ولابد أن نشير أيضا في هذا الصدد إلى إضراب قام به العمال اليونانيون في شركة قناة السويس في ذات العام..^(٢).

ولعل أبرز شخصية يونانية لعبت دورا متميزا ومستمر في هذا النشاط.. كانت ساكيلاريدس ياناكاكس تاجر الإسفنج الذى وصفه أحد رفاقه بأنه «ضخم الجسم متوسط القامة، رأسه ضخم كستنائى الشعر، جبهته حمراء، عريضة ومنفتحة، يغلق عينيه برود رمادى غامق لكنه مؤثر ونفاذ، يعطيك انطبعا حادا بآئك أمام شخص قوى البنية، صلب الإرادة. من أسرة أرثوذكسية يونانية متعصبة لم تغفر له أبدا أنه أصبح ماركسيا. زوجته تانيا ممرضة ضخمة الجسم.. لم يبد عليها أبدا أنها ماركسية لكنها وهبت روحها وكل حياتها لزوجها».

«كان أبوه تاجر الإسفنج الأول بالإسكندرية، وكان تاجرا مرموقا ولم يكن يريد أن يخسر مركزه الممتاز فى المدينة بسبب نشاط ابنه الذى يروج الشيوعية أكثر مما يروج الإسفنج فى أسواق الإسكندرية، لم يكمل ياناكاكس دراسته الابتدائية وتركها ليعمل فى التجارة مع والده. كانت علاقاته فى السوق تدفعه للاحتكاك بوسط راق، فالبرجوازية هى التى تستعمل الإسفنج، بعد فترة بدأ يقرأ بينهم. قال لى ياناكاكس ذلك، وقال أيضا أن الإسكندرية كانت قبيل نهاية القرن التاسع عشر الميناء الرئيسى فى البحر الأبيض تغص بالصالونات الأدبية والفنية والمنتديات واللقاءات، وكانت صفوة المفكرين والمهنيين الأجانب تقيم فيها، وكان البرجوازيون اليونانيون كبارا وصغارا يتبادلون فى المقاهى والنوادر والصالونات والمنتديات أحاديث صاخبة فى السياسة.. لا أحد يتفق مع أحد، كانوا يقولون لا يمكن أن يتفق اثنان من اليونانيين حول أية قضية سياسية، وكل اليونانيين سياسيين»^(٣).

ولم يكن ياناكاكس وحده، كان هناك أيضا مالانوس، كازانتفلكس، نيكوس نيقولايدس، جورج بيريدس، كونستانتينيدس بيريدس (الشاعر الشهير)، زربينى (وكان مليونيرا وقد قدم مساعدات كبيرة للتجمعات اليونانية التقدمية وعندما فتحت وصية زربينى بعد وفاته

فوجيء الجميع بأن يوصى بأن يشرف الرفيق ستالين على تنفيذ وصيته وطبعاً لم تنفذ^(٤). وكانت المجموعة الماركسية اليونانية تعيش في قلب الحياة الثقافية اليونانية.. أسست دار الكتب الشعبية اليونانية ومجموعة من الصالونات الأدبية وأصدر مالانوس وكان صاحب مكتبة شهيرة بالإسكندرية مجموعة من دواوين الشعر وكان كونستانتينيدس بيرديس واحداً من أشهر شعراء اليونانية الحديثة.. وأصدر نيكولايدس مجموعة من الروايات «كانت ترممها يد فنان برجوازي صغير يوناني قبرصي مصرى ينفث في أبطاله رائحة عطرة من الحب الإنساني العميق»^(٥).

وتشعب نشاط هذه المجموعة ليغزو حتى الصالونات الأرستقراطية..

يقول نيقولاى بباريدوتى «كنت موظفاً صغيراً في البنك الأهلى اليونانى ومنذ صغرى كنت ضد الأغنياء، منذ ١٩١٧ بدأت أقرأ الأدب الروسى المترجم إلى اللغة اليونانية. كنت أحضر مجموعة للدراسات الأدبية يرأسها يونانى رجعى اسمه لوكاس ديستوفيدس وتتخذ مقرها فى المدرسة اليونانية للبنات بشارع دوبريه.. وكان ديتونيدس مليكا يمضى معظم الوقت فى امتداح صفات مليكه.. وفى هذا المكان بالذات تعرفت على شيوعى كان يحضر المناقشات.. هو نيكوس نيقولايدس.. وكان ذلك عام ١٩٢٠ وأصبحت شيوعياً»^(٦).

يقول بباريدوتى.. «لسبب أو لآخر كان الأدب الروسى هو موضحة العصر، وكانت كتابات تولستوى وديستوفسكى وليرمنتوف يجرى تداولها بلهف فى أوساط المثقفين وتجرى حولها مناقشات عديدة»^(٧).

وقد اهتمت المجموعة بتقديم دراسات عن الطبقة العاملة وأوضاعها، وألف جورج بيرديس كتاباً عن «عمال القطن».

ومن الواضح أن الأدبيات الماركسية -حتى المتعمقة منها- لم تكن بعيدة عن هذه المجموعة. يقول بباريدوتى عن ياناكاكاس «كأن يقرأ كثيراً وخاصة المؤلفات عن الثورة الروسية ومؤلفات لينين وماركس وانلجز وأنا واثق أنه قرأ أنتى دوهرنج وكثيراً من مؤلفات انجلز»^(٨).

أما متى بدأ اليونانيون نشاطهم الاشتراكي؛ فإن رواية للدكتور عبدالفتاح القاضى تقول «إن الحركة المصرية للتحرر الوطنى كلفته فى عام ١٩٤٢ بكتابة تاريخ الحركة الماركسية فى مصر فاتصل بيناكاكاس الذى قال له «إن أول حركة اشتراكية ظهرت فى

مصر كانت وسط اليونانيين الذين اشتركوا فى تأسيس نقابة لعمال الأحذية وكانت مكونة أساسا من اليونانيين والأرمن»^(٩).

وعندما بدأت محاولات تأسيس الحزب الاشتراكي المصري قالت الأهرام: إن بيريدس شارك فى المفاوضات بصفته سكرتيرا للفرع اليونانى بالإسكندرية^(١٠).

ولكن لم تبد أية أسماء يونانية فيما بعد بين صفوف الحزب. ويبدو أن الأمر قد استقر على أن تستمر المجموعة اليونانية فى نشاطها المستقل..

ولكن هذا النشاط المستقل قد تعرض أيضا للمطاردة من جانب أجهزة الأمن.. فما أن وجهت الضربة للحزب الشيوعى المصرى عام ١٩٢٤ حتى كان البوليس يلقى القبض دون إذن من النيابة على مجموعة من اليونانيين ضمن حملة القبض الواسعة.. وضبطت لديهم مطبوعات تؤكد وجود منظمة شيوعية يتضمن برنامجها الإطاحة بالبرجوازية الأجنبية والمحلية وطرد الاستعمار الإنجليزى من مصر وإقامة حكم اشتراكى.

وعندما قدموا للمحاكمة صدرت أحكام بالسجن على العديدين وكان من المحكوم عليهم ياناكاكس لذى انتقل فى أعقاب الإفراج عنه إلى القاهرة حيث افتتح محلا لتجارة الإسفنج بشارع سليمان باشا ناصية عبد الخالق ثروت.. وكان هذه المحل ملتقى الشيوعيين اليونانيين والمنتدى الذى يلتقون فيه باستمرار.

والشئ المؤكد أن هذه المجموعة من اليونانيين لم تكن بعيدة عن نشاط الحزب الشيوعى المصرى.. ويقال أن ياناكاكس الذى تعرف فى السجن على عامل شيوعى مصرى هو محمد عبد العزيز خرج من السجن ليقدم له تزكيته حتى توالى تصعيده فى صفوف الحزب وأصبح أثر الضربات المتتالية التى أطاحت بالقيادات الأساسية سكرتيرا للحزب ثم اكتشف فيما بعد أنه أصبح عميلا للبوليس..

ومنذ ذلك الحين اتخذ الشيوعيون المصريون، واتخذ الكومنترن موقفا من ياناكاكس وقرروا عدم التعامل معه..

أما الأرمن الذين كان تعداد جاليتهم يصل إلى ٣٠.٠٠٠ فقد وجدت بينهم منظمات ماركسية قوية وأصدروا نشرات غير دورية. وقد لعب الأرمن دورا هاما سواء فى تأسيس الحزب الاشتراكي المصرى وفى مواصلة النشاط التنظيمى فى صفوفه^(١١).

روزنتال وابنته.. وآخرون

وروزنتال شخصية غريبة.. ترددت حوله روايات كثيرة حاولت أن تنسج عنه صورة أسطورية.. فجنسيته غير معروفة بالضبط يقال أنه سويسرى أو روسى أو إيطالى وأحيانا ألمانى.

وقد أكد البعض أنه ألمانى هاجر إلى إيطاليا حيث حصل على الجنسية الإيطالية ثم جاء إلى مصر ثم حصل على الجنسية المصرية.

لكن تقارير أجهزة الأمن البريطانية تؤكد أنه روسى الجنسية.. والحقيقة أن روزنتال وابنته شارلوت كانا محاط اهتمام بالغ ومنذ فترة مبكرة للغاية من جانب هذه الأجهزة سواء العاملة منها فى مصر أو فى كل منطقة الشرق الأوسط ثمة مذكرة سرية موجهة لإدارة الأمن العام بوزارة الداخلية المصرية مؤرخة فى ٩/٢٩ سنة ١٩٢١ تحتوى على البيانات التالية عن روزنتال.

أ- الجنسية: روسى.

ب- المهنة: جواهرجى ١٦ شارع شريف بالإسكندرية.

ج - أرفق مع هذا تقريراً منفصلاً عن نشاط المذكور حتى ٢٧ فبراير ١٩٢١ سبق أن رفع إلى مستشار وزارة الداخلية.

د- أما عن أنشطته حتى ذلك الحين فهي..».

أما التقرير المنفصل عن نشاط روزنتال حتى فبراير ١٩٢١ فقد عثرنا عليه أيضاً وهو مؤرخ فى ١٠ مارس ١٩٢١ ويحتوى على البيانات التالية:

مذكرة رقم ٠٠٧٥٤ فى ١٠ مارس ١٩٢١.

إلى مستشار وزارة الداخلية.

فيما يلى مذكرة بالمعلومات التى فى حوزتنا عن جوزيف وشارلوت روزنتال فى عام ١٩٠١: بدأ اهتمام أجهزة الأمن بالمذكور كفوضى شديد التعصب يقوم بترويج دعايات مثيرة بين اليهود المحليين.

عام ١٩١٣: ورد اسمه بشكل أساسى فى قضية آداموفتش النهيلست الروسى.

يوليو ١٩١٦: ورد تقرير من إدارة شئون اللاجئين يتهمه بأنه مثير للإضراب والمتاعب فى صفوف اليهود الروس.

نوفمبر ١٩١٨: خلال احتفالات السلام قام برفع علم الاشتراكيين وهو رقعة حمراء في وسطها كفان يتصافحان.

١٩٢٠/٧/٧: قام جوزيف روزنتال بصفته رئيسا لاتحاد المستأجرين بتنظيم إضراب لمدة ٢٤ ساعة كإعلان عن احتجاج المستأجرين على ارتفاع إيجارات المحلات وقامت ابنته بالإشراف على عدة مجموعات من الأفراد تولت مهمة إجبار أصحاب المحلات غير المشتركين في الإضراب على إغلاق محالهم.

١٩٢٠/٧/١٦٦: ورد تقرير من بوليس الإسكندرية يفيد بأن المذكور كان المنظم الأساسي لإضراب عمال التريزية كذلك اشترك في تنظيم إضراب عمال محلات الحلاقة متظاهرا بأنه اشتراكي لكنه كما يقول تقرير بوليس الإسكندرية ليس اشتراكيا وإنما هو مجرد محب للإثارة ويعمل لتحقيق أفكار خاصة به وهو يبذل جهدا كبيرا كي يصبح رئيسا للمجلس البلدي بالإسكندرية وذلك بالرغم من أنه لم يحصل في الانتخابات السابقة للمجلس البلدي إلا على أصوات قليلة.

١٩٢٠/٨/٣٠: منح بوليس الإسكندرية روزنتال وابنته تصريحاً بالسفر إلى إيطاليا وسويسرا والنمسا.

١٩٢٠/٨/٣١: أفادنا قومندان بوليس الإسكندرية بالتقرير التالي «روزنتال معروف كفوضوى سياسى خطر مدرج فى القائمة السوداء أ- معروف بأنه صريح فى التعبير عن آرائه السياسية. له علاقة بكل الحركات النقابية الموجودة بالإسكندرية يمكن القول بأنه اشتراكي ثورى «ذو ميل شيوعي».

١٩٢٠/١٠/٣: غادرت شارلوت روزنتال الإسكندرية على الباخرة كارلسباد.

١٩٢٠/١٠/٤: وصلت الباخرة المقلة لشارلوت إلى بورسعيد وأفاد قومندان بوليس قناة السويس- وبورسعيد بأنه علم أنها قد حجزت مكانا على السفينة إلى يافا بفلسطين.

١٩٢٠/١١/١٢: ورد تقرير من مساعد مدير الأمن العام بالقدس يفيد بأنه قد ألقى القبض على شارلوت روزنتال بسبب نشاطها السياسى وأن سلطات يافا تمتلك وثائق تؤكد أنها بلشفية.

١٩٢١/١/٤: عبرت شارلوت روزنتال القطرة في طريقها للإسكندرية^(١٢).

* إن هوية روزنتال الشيوعية ظلت غير معلومة للبوليس لفترة طويلة.

* إن أجهزة الأمن كانت تركز جهودا مكثفة وعبر شبكتها الدولية لمتابعة أنشطة روزنتال وابنته.

* إن روزنتال كان شخصية جماهيرية وذا نفوذ وسط الجاليات الأجنبية (اتحاد المستأجرين- نقابات العمال- إضرابات العمال) مكنته من أن يطمح لترشيح نفسه رئيسا لبلدية الإسكندرية وهو منصب مرموق للغاية فى ذلك الحين.

والحقيقة أن اهتمامات البوليس بـروزنتال لم تنته وسوف نعود إليها فيما بعد ولكن بعد أن نستمع إلى ما يقوله روزنتال نفسه أولا- بروى روزنتال فى شهادته أمام النائب العام فى ١٩٢٤/٣/٦ موجزا لجهوده المبكرة فيقول: «إننى منذ حدثتى أميل إلى المبادئ الاشتراكية وأحن إليها وقد كانت أعظم الآمال عندى أن أرى حالة العمال تتحسن بقوة التربية والنظام ولما وفدت إلى مصر منذ ٣٥ سنة جعلت أسعى لتأليف النقابات وأول نقابة اشتركت فى تأليفها كانت نقابة عمال السجاير وبعد ذلك اشتركت فى تأسيس بضع نقابات أخرى للخياطين وعمال المعادن وعمال المطابع وكانت تلك النقابات كلها تقريبا للعمال الأجانب لأن العمال الوطنيين كانوا فى ذلك الوقت أقلية فى جميع الحرف ودوائر العمل بالنسبة لزملائهم الأجانب»^(١٣).

ونلاحظ أن نقابة عمال السجاير قد تأسست عام ١٨٩٩ وروزنتال يروى فى شهادته (١٩٢٤) أنه حضر إلى مصر منذ ٢٥ عاما أى أنه حضر عام ١٨٩٩ ومعنى هذا أنه قد شرع فور وصوله إلى مصر فى خوض معركة تأسيس النقابات العمالية.. وممارسة نشاطه السياسى.. أما البوليس فقد انتبه إلى هذا النشاط كما نرى فى التقرير السرى السابق فى عام ١٩٠١ ولم يكن اختيار عمال السجاير بالذات مجرد مصادفة «فقد كان البدء فى استخدام الآلات الحديثة فى لف السجاير فى أواخر القرن التاسع عشر إيذانا بتشريد لفافى السجاير الذين كانوا يلفون السجاير بأيديهم وقد استمر الإضراب الأول للفافى السجاير شهرين كاملين»^(١٤).

ويلاحظ رؤوف عباس ملاحظة لم يجد لها تفسيراً وهى اشتراك لفافى السجاير وغيرهم من العاملين فى مهن أخرى فى إضراب الخياطين.. تأسيساً أن روزنتال كان المؤسس والموجه لمعظم النقابات فى ذلك الحين والمنسق بين حركتها وللتضامن فى صفوفها^(١٥)...

وثمة وثيقة أخرى تبدي اهتماما بأنشطة روزنتال المتعددة..

الوثيقة مودعة فى ملف خاص من ملفات وزارة الخارجية البريطانية بعنوان «مذكرات عن النشاط البلشفي فى مصر عام ١٩١٩».

تقول الوثيقة عن روزنتال «إنه معروف للبوليس منذ عشرين عاما (الأمر الذى يؤكد أنه كان تحت نظر البوليس منذ وصوله إلى مصر عام ١٨٩٩» وهو يتبنى عادة مواقف متطرفة للغاية فيما يتعلق بالقضايا الاجتماعية.

وصفه البوليس من أن لآخر بأنه فوضوى. مبيج. سياسى خطر ويقول أحد المرشدين وهو يعرفه تمام المعرفة أنه لا شك لديه فى أن روزنتال يعتنق أشد أنواع الشيوعية تطرفا وأنه يعمل بنشاط على ترويجها.. وبرغم أنه يؤمن بضرورة تغيير الأوضاع القائمة، إلا أنه لا يعتقد أنه يجب استخدام العنف. هدفه الراهن هو توحيد العمال فى مصر فى اتحاد ضخم وما من شك فى أن أحد أهدافه من القيام بمثل هذا العمل هو نشر الشيوعية فى صفوف العمال تدريجيا.

ولا شك أن اعتناقه لهذه المبادئ يدفعه بطبيعة الحال إلى تشجيع بل والإسهام فى تأسيس ناد مثل «نادى الدراسات الاجتماعية» وهو ناد ينهج نهج الدولية الثالثة، وما من شك أيضا فى علاقة روزنتال كعميل أو كمراسل فى مصر الدولية الثالثة. وهو على مراسلات متصلة بليتفينوف الذى يقال أنه ممثل البلاشفة فى ريفال بأستونيا. كما أنه يتراسل أيضا مع مكاتب الدولية الثالثة فى فينا ونيويورك. ومن المرجح أنه أيضا على علاقة بالعناصر البلشفية فى فلسطين. ويوجد فى صفوف النقابات العمالية التى يؤسسها عديد من العمال اليهود ذوى الاتجاهات البلشفية الذين لهم علاقات بشكل أو بآخر بفلسطين. وثمة شكوك تواجدت مؤخرا فى أنه يتراسل مع العناصر البلشفية فى فلسطين عن طريق أشخاص يسافرون لهذا الغرض. لكن هذه الشكوك لم تتأكد بعد. ولابد أن نتذكر فى هذا الصدد إلقاء القبض على ابنته أثناء زيارتها لفلسطين فى نوفمبر الماضى. وقد جاء فى تقرير البوليس عنها أنها تعتنق أفكارا اشتراكية متطرفة وقد ضببت فى حيازتها أوراق صادرة عن الدولية الثالثة.

وقد أدلى روزنتال بحديث إلى السيدة ترافرس سيمونس نائبة رئيس تحرير الألبسيان جازيت فى مايو الماضى وثمة أشياء ملفتة للنظر فى هذا الحديث. فقد أعرب روزنتال عن ارتياحه لما يحرزه من تقدم فى عملية تنظيم العمال فى نقابات.. وقال أيضا: إنه ما من

فرصة ولو ضئيلة لنشر الشيوعية الآن وسط الفلاحين المصريين وإن فشلت سياسة لينين تجاه الفلاحين المتوسطين (الموجيك) سوف تلقن الشيوعيين دروسا جيدة لدى أية محاولة لنشر دعاياتهم فى المستقبل فى صفوف الفلاحين المصريين.

وقد طرحت مسألة اتخاذ إجراء حازم ضد روزنتال فى شهر مارس الماضى وعرض الأمر على المستشار لكن الدكتور جرانفيل أعرب عن اعتقاده بأنه لا ضرورة لاتخاذ إجراء كهذا؛ بسبب ما يتمتع به روزنتال من تأييد وسمعة حسنة فى الإسكندرية الأمر الذى يؤهله ليطمح لمنصب رئيس بلدية الإسكندرية. كذلك أشار المستشار إلى أن روزنتال يقوم بكل أنشطته فى وضع النهار^(١٦).

وهكذا يتضح لنا أن روزنتال كان شخصية مهمة وكان محط اهتمام بالغ من مختلف الأجهزة كما كان أيضا محط اهتمام المثقفين المصريين وخاصة ذوى الاتجاهات الاشتراكية منهم.. بل لعل أهم ما سجلته أجهزة الأمن النشطة أن روزنتال كان محط اهتمام أيضا من جانب الزعامات السياسية المهمة أيضا.. وثمة وثيقة بالغة الأهمية من وثائق وزارة الداخلية المصرية- إدارة الأمن العام، مؤرخة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٢١ تسجل فى دهشة بالغة «فى ١٠ أغسطس ١٩٢١ قام مصطفى بك النحاس أحد قادة الوفد بزيارة روزنتال حيث عرض عليه بصفته رئيسا لاتحاد العمال بيانا يزعم زغلول نشره قبيل الانتخابات».

ولعل هذه الفقرة تثير المزيد من الاهتمام إذ أنها توضح علاقة- كانت مجهولة- بين زعماء حزب الوفد (سعد زغلول ومصطفى النحاس) وبين العناصر الماركسية (التي كانت قد شكلت فى ذلك الحين الحزب الاشتراكي المصري) وعلى رأسها روزنتال. والحقيقة أن روزنتال كان أيضا محط اهتمام العناصر الاشتراكية المصرية التي سعت إليه عندما بدأت فى التفكير فى تأسيس حزب اشتراكي.

يقول سلامة موسى: إنه وزملاؤه عندما قرروا تأسيس جمعية اشتراكية كتبوا إلى مسيو روزنتال باعتباره سكرتيرا للحزب الاشتراكي المؤلف من الجالية الأجنبية فى مصر يسألونه عن برنامج هذا الحزب فإذا وافقهم انضموا إليه^(١٧).

ويقول د. على العنانى: «عرفت المسيو روزنتال الذى يسعى منذ أمد بعيد لتأليف حزب اشتراكي فى هذه البلاد وعرفت عنه هذه المبادئ الشريفة العادلة...».

لكن روزنتال برغم حيويته الدافقة، ونشاطه الواسع لم يكن فيما يبدو ماركسيا أصيلا
فما لبث أن ثارت خلافات عديدة حوله وبسببه وكان استبعاده من الحزب أحد شروط
الكومنترن (الدولية الثالثة) لقبول الحزب المصرى عضوا فيه.. وإن كانت شارلوت ابنته قد
ظلت عضوا عاملا وربما قياديا فى صفوف الحزب.. وتزوجت واحدا من منظميه
الأساسيين هو أفجدور*

ولم يكن روزنتال وحده.

كانت هناك شخصية أخرى أشد غموضا وأشد إثارة.

شخص لم تستطع أجهزة الأمن الإنجليزية التعرف على اسمه بالدقة فأسمته زايدمان
أو زيدرمان

وقد عثرنا على عدد من الوثائق المهمة حول هذه الشخصية الغامضة فى الأرشيف
العام لوزارة الخارجية البريطانية.. أولاها معنونة «مذكرة عن أدوارد زيدرمان» وتقول هذه
المذكرة.

«فى يناير ١٩٢١ أبلغ الميجور كورتنى أن لندن تطلب معلومات عن شخص يسمى
أدوارد زايدمان وفى ٨/٣/١٩٢١ أفاد بوليس مدينة القاهرة بمذكرته رقم ب/س/ز/٧٢
جاءت فيها المعلومات التالية والتي أرسلت مباشرة إلى الميجور كورتنى.

«إن الشخص الوحيد الذى يحمل اسم أدوارد زايدمان وفقا لتحرياتنا يقيم حاليا فى
الإسكندرية وهو من مواليد أوديسا وقد خدم خلال الحرب العالمية تحت العلم الإنجليزى
وعندما أنهى خدمته فى الجيش البريطانى فى عام ١٩١٩ تزوج ابنة شخص يدعى أرون
روزنفولد يمنتج مكتبا للسمسرة بشارع الدسوقى بجاردن سيتى.

وليس لأدوارد زايدمان أبوان مقيمان بمصر وليس له أقارب بها سوى أسرة صهره
الذى يحرص دائما على التفصل من أية علاقة بزواج ابنته.

ويعمل أدوارد زايدمان بتجارة الأثاث فى مدينة الإسكندرية. وليس لدينا أية معلومات
دقيقة حول هذا الشخص ولا حول مسلكه أو اتجاهاته ولكن إصرار صهره على التنصل
من أية علاقة به وعلى عدم الإشارة مطلقا إلى زوج ابنته وكذلك بعض شذرات من
المعلومات تدفعنا إلى الشك فى أن ثمة شىء ما يحيط بهذا الشخص وربما كان شيئا ذا
طابع أخلاقى).

وبعد هذا التقرير أقفل الملف مؤقتاً إذ لم تتضح أية أهمية سياسية خاصة لمتابعة المدعو زايدمان.

وفى أبريل الماضى تلقينا معلومات خاصة تشير إلى محادثة شخصية تمت مع البرنس عزيز حسن وقد قال البرنس لحدثه أنه يعلم أن هناك ٤٠٠ بلشفى فى فلسطين يعملون على بث الدعايات البلشفية وسط السكان العرب وذلك برغم أنهم أنفسهم لا يوجد فيهم من يتكلم العربية وأنهم قد أرسلوا شخصا أو أكثر إلى مصر فى محاولة لتجنيد بعض المصريين وقال البرنس أنه يعرف أحد هؤلاء الموفدين وأنه يهودى روسى وقد رفض البوح باسمه لكن محدثه يعتقد أن الاسم هو روزنبرج أو روزنبلوم.

وفى أول مايو أشارت مذكرة لقومندان بوليس الإسكندرية إلى أن شخصا يعتقد أنه عميل بلشفى قد ألقى خطابا فى اجتماع عمالى عقد بهذه المناسبة وقد نفى روزنتال معرفته بهذا الشخص ويعتقد قومندان بوليس الإسكندرية أنه غير صادق فى ادعائه هذا. وفيما يلى وصف تقريبي لهذا الشخص وقد دون هذا الوصف فى المذكرة ب/س/أ/٣١٤- المؤرخة فى ١٩٢١/٥/٦.

القوام: ضئيل

الشعر: أشقر

العينان: زرقاوان

الشارب: صغير وأشقر

لون الملابس: بنى فاتح

القبعة كليفة ولونها بنى فاتح»^(١٨).

وتمضى المذكرة فتشير إلى أن قومندان بوليس الإسكندرية قد كتب مذكرة أخرى فى ٨ مايو ١٩٢١ يقول فيها أنه يعتقد أن الشخص الذى ألقى خطاب أول مايو هو نفس الشخص الذى تحدث عنه البرنس عزيز حسن.

وتواصل أجهزة الأمن بحثها الدؤوب حتى تصل إلى الحقيقة فى ٢٦ سبتمبر ١٩٢١ وتمضى المذكرة قائلة «أفاد بوليس الإسكندرية أن البحث قد توصل بشكل قاطع للشخص الذى ألقى خطاب أول مايو وأن اسمه أدوارد زايد مان وأنه صاحب مكتبة عنوانها ٢٥ شارع انستاسى بالإسكندرية» وما لبثت المعلومات أن تنالت من هذه الشخصية الغامضة.

وسرعان ما ربط البوليس بين اسم هذا الشخص وبين إلحاح لندن فى الحصول على معلومات عنه ثم ربط أيضا بينه وبين حديث البرنس عزيز حسن وأشارت مذكرة البوليس بالإسكندرية أن اعتقاد المصدر الذى نقل حديث البرنس بأن اسم البلشفي المشار إليه هو روزنبرج أو روزنلبوم هو اعتقاد نابع من الربط بين زايدمان واسم صهره روزنفلود.

وتمضى التقارير «أفاد قومندان بوليس الإسكندرية فى ١٩ أغسطس أن السيد بيتروف القنصل الروسى بالإسكندرية قد أبلغه أن شخصا يدعى زيدرمان وهو روسى يهودى ويمتلك مكتبة بشارع انستاسى يقوم بتوزيع منشورات بلشفية وسط اللاجئين الروس المقيمين فى سيدى بشر وذلك عن طريق الملازم ثان الكسندر نيكولايف الذى كان ضابطا بالجيش الأحمر والذى تم أسره بواسطة جيش دونكين»^(١٩).

وسرعان ما نجح بوليس الإسكندرية النشيط فى جمع معلومات إضافية عن هذه الشخصية وسجل ذلك فى مذكرة سرية جديدة تقول «زيدمان يهودى روسى دخل إلى إنجلترا خلال الحرب يجيد الإنجليزية قال لأحد مرشديننا السريين أنه قد افتتح هذه المكتبة خصيصا لنشر الدعاية البلشفية ويقوم ببيع كتب ومجلات ومواد إعلامية بلشفية بالإنجليزية والفرنسية فى مكتبته وقال له أيضا أنه بانتظار دفعة مكونة من ٥٠٠ كتيب بلشفى وقد تسلم منه مرشدنا السرى كتباً بلشفية هى ذاتها التى يتم توزيعها فى حلقة الدراسات الاجتماعية وجمعية «le clat» اللتان تمارسان نشاطهما بالإسكندرية وهو أيضا مراسل الجريدة الروسية البلشفية noviya mir الحياة الجديدة.

ثم يكمل قومندان بوليس الإسكندرية أوراق ملف هذه الشخصية الغامضة بمذكرة أخيرة مؤرخة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٢١ جاء فيها: بالإشارة إلى مذكراتنا السابقة حول الشخص المشار إليه نفيديكم بما توصلنا إليه من معلومات:

(أ) زايدمان هو بشكل مؤكد الشخص الذى ألقى خطاب أول مايو.

(ب) يقوم بدعاية بلشفية نشطة للغاية وسط الجالية الروسية ويوزع بينهم أوراقا شيوعية مطبوعة بالإنجليزية والفرنسية والروسية والعبرية وقد وزع أيضا صورا لتروتسكى وغيره من قادة السوفيت.

(ج) وعندما سئل زايدمان بواسطة مرشدنا السرى عن يقرأ النشرات المطبوعة بالإنجليزية أجاب بأنها توزع على المثقفين من المصريين، قال أيضا أنه يصدد الانتهاء من

ترجمة كتيب إلى اللغة العربية بعنوان «نداء إلى الشباب» وأن هذا الكتيب سوف يطبع بالإسكندرية والبحث جار عن المطبعة التي ستقوم بطبعه.

(د) أفادنا مصدر موثوق به أن زايدمان قد كتب مؤخرا إلى برلين يطلب إرسال مطبوعات شيوعية باللغة العربية.

(و) المذكور على علاقة وثيقة بجوزيف روزنتال ويعمل معه في نشر الدعاية الشيوعية.. وهكذا يتضح لنا كم كانت دوائر الأمن مهتمة ومنزعجة من نشاط هذه المجموعة.. وكيف استطاعت برغم الحرص الشديد لأفرادها من التسلل عبر صفوفها والحصول على معلومات عنها.

ويتضح لنا أيضا مدى النشاط الدؤوب الذي بذلته هذه المجموعة لترويج أفكارها ومدى اهتمامها أيضا بالوصول بمطبوعاتها إلى المثقفين المصريين ومحاولاتها المبكرة لترجمة الأدبيات الماركسية إلى اللغة العربية والآن أمامنا أسماء ثلاثة:-

- جوزيف روزنتال.

- شارلوت روزنتال.

- أدوارد زايدمان أو زيدرمان..

فهل من أسماء أخرى؟

نعم هناك اسم نلتقطه من ملفات أجهزة الأمن ورد في تقرير مرفوع من كلايتون مساعد مدير الأمن العام إلى مستشار وزارة الداخلية يتضمن معلومات حصل عليها البوليس من مراقبة البريد الوارد إلى «جون سولوسى» صاحب صندوق البريد رقم ١٨٥٥ الإسكندرية والتي تشير إلى أن سولوسى هذا كان يستورد (بشكل ما) كميات ضخمة من مواد الدعاية الماركسية ويتضمن التقرير نسخة من أحدهذه المواد^(٢٠).

وهناك أيضا اسم مثير للاهتمام هو الملازم ثان الكسندر نيكولايف الذى تقول تقارير البوليس: إنه كان ضابطا بالجيش الأحمر السوفييتى وأنه كان ينشط فى عام ١٩٢١ وسط الجالية الروسية بالإسكندرية.

ولابد أن المزيد من البحث سوف يصل بنا إلى المزيد من المعلومات والمزيد من الأسماء..

الجماعات والأندية:

وكان طبيعيا أن تصب هذه الأنشطة قبل أن تتبلور فى شكل حزبى.. فى صورة أندية وجمعيات وروابط واتحادات..

وكان روزنتال هو «المايسترو» الذى أتقن ومنذ البداية المبكرة فن إقامة هذه التجمعات الديمقراطية بمختلف توجهاتها.

فى العام الأخير من القرن التاسع عشر أسس روزنتال العديد من النقابات والروابط العمالية ثم جمع بينها جميعا فى الاتحاد العام للعمال والذى وصل عدد أعضائه إلى قرابة ٢٠ ألف عضواً^(٢١) كما تكونت فى هذه النقابات وفى المراكز العالية المهمة صناديق المعونة الحمراء... التى تستهدف جمع مدخرات عمالية استعدادا للإنفاق على العمال عند إضرابهم عن العمل.

وكان هناك أيضا اتحاد المستأجرين الذى استهدف توحيد جهود المستأجرين ضد ارتفاع إيجارات المساكن والمحال. وقد نجح فى تنظيم إضراب شهير لأصحاب المحال التجارية احتجاجا على ارتفاع الإيجارات فى ٧ يوليو ١٩٢٠. وكانت هناك أيضا الجامعة الشعبية التى نظمها الاشتراكيون الإيطاليون لتعليم العمال، والمكتبة الشعبية اليونانية التى أسسها اليونانيون وسلسلة عن الجمعيات اليونانية والأرمنية والإيطالية. لكننا سنتوقف عند جمعيتين نعتقد أنهما أكثر أهمية من غيرهما:

جماعة الدراسات الاجتماعية بالإسكندرية:

groupe d'etudes sociales

وتصفها تقارير الأمن بأنها مصدر أساسى للدوريات والمطبوعات الشيوعية باللغات الفرنسية والإنجليزية والروسية والعربية وتقول أنها تنتمى إلى مواقف الدولية الثالثة^(٢٢) وكان روزنتال رئيس هذه الجماعة.

جماعات الوضوح: clarte:

وقد ظل اسم هذه الجماعة يرد فى تقارير الأمن بشكل غامض دون توضيح لماهيتها حتى تمكنا من الحصول على تقرير كامل أعدته أجهزة الأمن عن هذه الجماعة.. يقول التقرير..

«تأسست هذه الجماعة مؤخرا فى مدينة الإسكندرية، وهى تتخذ اسمها من اسم المجلة الأسبوعية الشيوعية clarte والتى تصدر فى باريس وهى مماثلة للجماعات التى تأسست

تحت هذا الاسم فى مختلف أنحاء فرنسا وهى تتراسل بشكل منتظم مع المركز الرئيسى لهذه الجمعيات فى باريس ويوجد على رأس هذا المركز شخصيات أدبية وثقافية بارزة مثل أناتول فرانس، هنرى باربوس، رومان رولان.. الخ.
البرنامج:

تستهدف الجماعة السالفة الذكر نشر الأفكار والمبادئ الشيوعية عن طريق المحاضرات والمحادثات الشخصية مع العناصر العاطفة على هذه الجماعة والدين يتزايد عددهم فى هذه الأيام، والذى لا شك فيه أن أعضاء الجماعة هم عناصر عالية الثقافة بصورة ملفتة للنظر تماما مثل أعضاء جماعة الدراسات الاجتماعية، بينما تضم الأندية الشيوعية الأخرى التى يقيمها روزنتال مثل الاتحاد العام للعمل (c.g.t.) عناصر عمالية أساسا وإذا كانت هذه التجمعات الشيوعية الثلاثة ذات أسماء مختلفة فإنها تشكل تجمعا واحدا من خلال عناصر عديدة تعمل فى صفوفها جميعا وهى جميعا تستهدف تحقيق نفس الهدف.. وهو نشر الشيوعية.

اللجنة القيادية:

ويلاحظ أنها كالعادة فى كل الأندية الشيوعية ليس لها رئيس.
السكرتير: أوجوستى تيرنى- موظف فى شركة الملح والصودا.
أمين الصندوق: م. ستيرن.
كذلك تضم اللجنة القيادية أحد اليهود والآنسة روزنتال.
الأعضاء: تضم الجماعة حوالى ٢٥ عضوا معظمهم من اليونانيين الذين ينشطون فى صفوف جماعة الدراسات الاجتماعية مثل ياناكاكس.
جوردانيدس، بيريدس، زوتو- الخ وتضم الجماعة أيضا ثلاثة أو أربعة من اليهود الروس منهم كوب وفسكى وهناك أيضا اثنان من الأفندية المصريين أحدهم يسمى عبد المنعم.
المقر: تتخذ الجماعة مقرا مؤقتا لها فى مقر المكتبة الشعبية اليونانية شارع حمام الذهب (شارع سيدى المتولى).
الاشتراك الشهري: عشرة قروش كحد أدنى.

الاجتماعات: كان الاجتماع الذى عقد فى الساعة السابعة والنصف من مساء الخامس من الشهر الحالى اجتماعا بالغ الأهمية ذلك أنه قد تمت فيه مناقشة برنامج النشاط فى

المستقبل وقد لوحظ حضور أنسة من القاهرة لهذا الاجتماع هي الأنسة ليلي بيتاراكى lili petaraki وعنوانها طرف مكتبة ستاغرينوس (شارع قصر النيل. القاهرة) وتعتبر هذه الأنسة حلقة اتصال بين شيوعى القاهرة والإسكندرية.. وقد تلى السكرتير قسما وقع عليه الأعضاء وفيما يلى نص هذا القسم:

«إذ نستشعر القلق من انعدام العدالة فى ظل النظام الرأسمالى، ذلك النظام الذى يمكن حفنة ضئيلة من أن تستغل وتستبد بالغالبية الساحقة التى تشكل الجماهير العاملة فإننى أعلن انضمامى إلى نادى الوضوح وأقسم أننى سوف أقدم كل ما أستطيع من عون للحركة الثقافية الثورية تلك الحركة التى تفتح الطريق وتمهده نحو الثورة الاجتماعية». وبعد أن ناقش المجتمعون حالة المجاعة المتفشية فى روسيا أفاد أحد الحاضرين أن روزنتال يقوم بجمع تبرعات لإرسالها إلى ضحايا المجاعة هناك واتفق الحاضرون على الإسهام فى هذه الحملة.

ثم تلى تيرنى رسالة واردة من هنرى باربوسى إلى فرع الإسكندرية..

الآن يكون الاشتراكيون قد اجتمعوا فى حلقات وأندية.. ويكونون قد تعودوا على العمل المنظم.. ويكون المسرح معدا للانطلاق نحو تأسيس الحزب. مجموعة البلشفيك.

وقد وصلت هذه المجموعة إلى الإسكندرية عقب ثورة ١٩٠٥، ومن المعتقد أنها كانت مكونة أساسا من عدد من بحارة المدرعة «بوتومكين».

كذلك كان هناك عدد كبير من الروس الذين هربوا إلى مصر من القهر القيصرى ويؤكد مارسيل إسرائيل أنه كان من بينهم أعضاء فى الحزب البلشفى^(٢٣).

وتشير رسائل من كروبسكايا (زوجة لينين وسكرتيرة هيئة تحرير ايسكرا) إلى أن أعداد مجلة إيسكرا التى طبعت فى الفترة من مارس إلى أغسطس ١٩٠٢ فى ليزج كانت ترسل إلى ميناء باطوم بروسيا عن طريق طويل يمر من ليزج لى برلين ومنها إلى ميناء برينديزى الإيطالى ثم منها إلى الإسكندرية حيث يتم تخزينها سراً فى مخزن تابع لمطعم سباستوبل ويمتلكه روسى بلشالى هو يوسف يوزيفوفتش الذى يحتفظ بالأعداد لحين مرور وقاد بأحد السفن الروسية اسمه الحركى فيريسوتسكى واسمه الحقيقى تريتيكوف وفى

سبتمبر عام ١٩٠٢ ضبط البوليس المصرى مجموعة من أعداد إيسكرا قبل نقلها إلى السفينة الروسية بوجوم ووصل تريتيكوف إلى روسيا ليبلغ أن الإسكندرية مدينة خضرة بسبب يقظة البوليس ونشاط القنصل الروسى^(٢٤).

وثمة شخصية تستلفت النظر هى نيدور روزنشتين وهو اشتراكى روسى فر من روسيا القيصرية إلى لندن ثم جاء إلى القاهرة ليعمل محررا فى الجريدة الإنجليزية التى كان يصدرها الحزب الوطنى «دى اجيبسيان استاندارد» وقد ألّف كتابا فيما بعد عن تاريخ الاحتلال البريطانى لمصر اسمه «دمار مصر» وقد انتهى من تأليفه فى ١٩١٠ ثم غادر مصر إلى لندن ليشترك فى إصدار المجلة الإنجليزية egypt وهي مجلة منع كرومر دخولها إلى مصر.

لكن الغريب فى الأمر هو ما يرويه على أحمد شكرى مترجم كذاب «دمار مصر» والذي قال أنه يعرف بروزنشتين شخصا.. فهو يقول «وعلى أثر شبوب ثورة البلاشفة عاد المسيو روزنشتين إلى روسيا حيث اختاره لينين سكرتيرا خاصا له، ثم عينته الحكومة الروسية فيما بعد وزيرا مفوضا لها فى طهران»^(٢٥).

لكن البحث المتواصل أمكنه أن يجمع المعلومات التالية عن هذه الشخصية الفذة:

- روزنشتين من مواليد ١٨٧١ فى بولتافا بأوكرانيا.
- كان من مجموعة الشعبين حتى طلب القبض عليه فى ١٨٩٠ فهاجر إلى لندن حيث درس الماركسية وانضم إلى الحركة الاشتراكية البريطانية.
- فى ١٩٠١ انضم إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى حيث تعرف على لينين سنة ١٩٠٢ خلال وجودهما معا فى لندن.

-- أصدر كتابه «دمار مصر» ردا على كتاب كرومر «بناء مصر الحديثة».

- عاد إلى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٢٠ وبقي وزيرا مفوضا فى طهران حتى ١٩٢٢، حيث عاد ليعمل فى وزارة الخارجية السوفييتية، وفى ١٩٣٩ أصبح عضوا فى أكاديمية العلوم السوفييتية. توفى عام ١٩٥٣.

- طبع كتابه دمار مصر بالروسية عام ١٩٢٥ وصدرت له طبعة ثانية فى ١٩٥٩.

والآن ما هو الدور الذى كان يلعبه روزنشتين فى مصر؟ وهو الشخص الهام الوثيق الصلة بالرفيق لينين.

هل أثر فى الحزب الوطنى وفى فريد بالذات؟ بالإضافة إلى أن جريدة اللواء قد نشرت مقتطفات من كتابه على صفحاتها.. أغلب الظن أن هذا لم يكن كل الدور.

فثمة عبارة تستلفت النظر فى تقرير مارسيل إسرائيل فهو يقول: «عندما كان لينين فى فرنسا وسويسرا كان يرسل كل رسائله إلى الحزب البلشفى عن طريق مصر، تصل إلى مصر أولا ومنها إلى روسيا وبذلك أمكن تضليل الرقابة القيصرية».

فهل كان روزنشتين-سكرتير لينين فيما بعد- يقوم بهذه المهمة؟ ربما.

والحقيقة أن المجموعة البلشفية الروسية بالإسكندرية كانت تنشط نشاطا ملحوظا وكانت توجه اهتمامها أساسا إلى البحارة الروس الذين يصلون على السفن القادمة إلى الإسكندرية، وقد تمكنت هذه المجموعة من الاتصال بروسى يمتلك مطبعة فى حلوان حيث كانت تطبع عنده مجلة باللغة الروسية اسمها «مارياك» أى «البحار» لتوزيعها على هؤلاء البحارة الروس. ولعل هذا النشاط هو الذى يعزز فكرة أن معظمهم كانوا من بحارة المدرعة «بوتمكين».

كذلك تواجد فى بورسعيد عدد من بحارة المدمرة بيرسيفيت التى غرقت فى يناير ١٩١٧ بالقرب من بورسعيد ونجا بعض بحارتها وأقاموا فى بورسعيد، وقد أرسل القنصل الروسى فى بورسعيد سيميرنوف أكثر من برقية إلى الخارجية الروسية يبلغها شكوى السلطات المحلية من النشاط ولم يقتصر نشاط هذه المجموعة على ذلك فقد ساهمت العمال المصريين فى إضراباتهم وفى إحدى المظاهرات العمالية خرج أعضاء المجموعة يحمون علما أحمر مكتوب عليه «الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى (البلشفيك)»^(٢٦).

وثارت ثائرة قنصل روسيا فى الإسكندرية وطالب السلطات بتسليمهم فورا وألقى القبض على ثلاث منهم وتنشر الأهرام:

«ألقى القبض فى الثغر على ثلاثة من الروس اللاجئين إليه على أثر الحوادث التى وقعت فى بلادهم ويقال: إن أحدهم من حملة الأفادم (الكتاب) هناك. وسيعودون إلى روسيا محفورين وقد كان لهذا الحادث تأثير شديد بين النزلة الأوروبية فى الثغر»^(٢٧).

ويوضح هذا الخبر المنشور فى الأهرام مسألة مهمة هى أن هؤلاء الروس قد وفدوا إلى الإسكندرية «على أثر الحوادث التى وقعت فى بلادهم، ولا شك أنها أحداث ثورة ١٩٠٥ كما يوضح أيضا أنه كان بينهم عدد من المثقفين (حملة الأعلام).

ولعله من المفيد أن نتوقف قليلا عند حادثة الروسيين الثلاثة هذه.

ليس فقط لأنها تلقى بذاتها أضواء على النشاط الاشتراكي فى ذلك الحين.. ولا لمجرد أنها أحدثت ضجة كبيرة للغاية سواء فى صفوف الأجانب عموما أو الصحافة.. وإنما لأنها تعبر عن وجود أشكال تنظيمية كانت تتحرك وتحرك مختلف القوى.. ولأنها على أية حال تعطى لنا صورة عن أساليب العمل وقدرات الحشد ومجالات التأثير للجماعات الاشتراكية العاملة فى مصر فى ذلك الحين.

وبعد أن نشر الأهرام خبر القبض على الثلاث الروس فى ١٩ يناير ١٩٠٧ فنشرت المؤيد فى ٢١ يناير مجموعة من المقالات حول هذا الموضوع:

«الإسكندرية. الحادثة الإسرائيلية الأرمنية لمكاتبنا السكندرية:

وصلكم تليفونيا أمس واليوم ملخص ما حدث فى ثغرنا من الهياج واللباج ضد قنصلاتو الروسيا وإليكم التفصيل وما جرى بعد ظهر اليوم وما تلاه من المظاهرات والمخابرات الرسمية والخطب وعكسها وما اتخذته الحكومة من الحيطة لحفظ النظام.

هاجر مع من هاجروا من أنحاء روسيا ثلاثة أنفار روسيون أرملى وإسرائيلى روسى ومسيحى ويقال: إنهم من لجان الثورة المحكوم عليهم بالإعدام وحضورهم لمصر لغاية شريرة.. أبلغت قنصلاتو الروسيا ذلك إلى الحكومة المصرية فقبضت على الثلاثة المتهمين ووجدت بين أمتعتهم مواد انفجارية أيدت دعوى القنصلاتو الروسية، وبذلك لم يعد لهؤلاء الثلاثة صفة المجرمين السياسيين لينظر فى أمرهم نظر آخر بعين حكومة دستورية شعارها الحرية والأمن كالحكومة المصرية كما هو مفهوم.

نقص الرواية بجملتها دون تحيز إلى أحد ولذلك ندع لليراع مجاله ليقول ما ظهر وما بطن من الأمور. ذلك أن رؤوس الجماعة (يقصد الأجانب فى الإسكندرية) قصدوا محافظ الثغر وسألوه عدم تسليم الثلاثة إلى قنصلاتو الروسيا فأجابهم باسم الحكومة أن هذا من شأنها فعادوا إلى مجتمعهم وأوعزوا إلى بعض الصحف الإفرنجية بكتابة ما يحمل الشعب على السخط والحكومة على الرأفة بهؤلاء المتهمين.

وقبل ظهر أمس علم الجماعة بالمسألة والظاهر أن مخابرات طويلة جرت فى هذه المسألة فحضر جناب الفريد كمبوس إلى حلقة المضاربة فى البورصة وخطب فى الجمهور حكاية المتهمين وأنهم سيسافرون من بلاد الحرية والعدالة إلى بلاد الجور والاستبداد.

واستنهض هم الناس بعمل ما يفهم الحكومة عدم رضى النزلاء من هذه المجاملة الدولية التي تقضى على ثلاثة أرواح بالزهاق ظلما واستبدادا. فضج البعض لخطابه وكأنهم فى انتظار موقفه».

ويمضى المراسل ليصف كيف سارت مظاهرة ضخمة تضم «عامة الأرمن والإيطاليين والأروام والإسرائيليين لإبداء سخطهم واستيائهم مع طلب استلام المتهمين من قنصلاتو روسيا التي أوصدت أبوابها ونوافذها، ثم كانت مظاهرة أخرى يصفها المراسل فى نفس المقال وهى فى الأساس مظاهرة عمالية.

وبعد ظهر أمس أى فى الساعة الخامسة مساء انتظم سلك جمع ثان أكثر عددا وقوة بينهم بعض الفوضويين الإيطاليين والأرمن المستطيرين واليونان الموعز إليهم وبالجمله أن المتظاهرين بالحماس تشددوا بعدد من جمعية العمال المختلطة فمروا من المنشية صائحين الحرية، الحرية. فلتسقط روسيا وليسقط استبدادها وما زالوا على هذه النغمة مع الترنم بالنشيد الوطنى الفرنساوى (المرسيلين) إلى أن وصلوا إلى القنصلاتو الروسية».

ثم يصف مظاهرة ثالثة توجهت إلى الميناء الغربية «للبعث بالباخرة الروسية الرأسية فى مرساها على الرصيف طانين أن المتهمين الثلاثة قد أنزلوا إليها بقصد تسفيرهم إلى أوروبا وأنهم سينتزعونهم منها قوة واقتدارا فأحاطوا بالباخرة غير مكترثين بخفراء السواحل وحرس الجمارك وخفرائه الذين كانوا فى انتظار هذا الموكب التائر الهائج.. وقد صعد بعض المتحمسين وليسوا بالعدد القليل إلى ظهر الباخرة فقابلهم ربانها بكل لطف ودعة وأنكر وجود من يطلبونهم وسمح لهم من باب المسالمة أن يفتشوا الوابور ففتشوه فعلا ولما لم يجدوا أحدا نزلوا إلى الرصيف صاخبين مهددين فجاءت مضخة إطفاء النار ومدت خرطومها لتهدهم به فقطعوه إربا بالمدى واعتدوا على الخفراء وعندما جاءت المضخة الكبرى بمائها الحار تهيئوا للمقاومة والنشر، وجرت ملاكمة بين أحدهم ورئيس المطافى، الإنجليزى ثم انصرفوا».

ثم يصف مظاهرة رابعة جرت فى اليوم التالى حيث أحاط المتظاهرون بمبنى القنصلية الروسية «فرشقوها بالبليز والوحل والبصل والحجارة وتناول بعضهم على شارتها الرسمية بواسطة تسلقهم على عمود الترام الثابت أمام بابها فانتزعوا الشارة وألقوها إلى الأرض».

ثم توجهت المظاهرة إلى البورصة « التي غصت بالناس وكان فيهم الروسى والأرمنى واليونانى والإيطالى وهكذا من كل صبغة وجنس وإذا بالخواجأ أريبب الإسرائيلى يعتلى منصة جئ بها ليعلو بواسطتها على كل عال فصفق له القوم ترحيبا به فقال يجب على الإسكندرية أن تبطل غدا أعمالها إلى أن تبلغ غرضها تجاه المقبوض عليهم ظلما ويجب على كل فرد ألا يأكل ولا يشرب فى الغد إلى أن ينال أمنية العدل من الحكومة، فصاح الجميع الحرية الحرية وصفقوا له فاستعاد الكلام وهو يرتجف غيظا وانفعالا^(٢٨).

وهكذا.. تبدو الصورة واضحة.. كيف استطاعت العناصر الاشتراكية بالإسكندرية أن تجمع حولها مجمل الجاليات الأجنبية تقريبا فى هذه المعركة وأن تحشدها فى مظاهرات صدامية صاخبة وأن تصعد المعركة إلى الإضراب العام بل وإلى الصيام عن الطعام والشراب تضامنا مع الثوريين الروس الثلاثة.

وكذلك كان الأمر فى القاهرة فى ٢١ يناير كانت المظاهرات أيضا صاخبة وتصف المؤيد الحالة قائلة «فى الساعة الثانية عشرة تماما ابتدأت حركة الناس فى البورصة وأمامها تزداد بحيث لم تنتصف الساعة الواحدة حتى كان عدد المتظاهرين والمتفرجين نحو الألف تقريبا فوقف فى الجمع جهاراً أمام البورصة وفى الشارع العمومى المدعو باطيط وهو مهندس إيطالى فى الخامسة والثلاثين من عمره وتكلم بحماس قائلاً: إن الأمن على الحرية الشخصية فى مصر أصبح مهددا إذا صح أن يؤخذ الأبرياء الروسىون الثلاثة إلى الروسيا حيث يلقون القضاء عليهم من غير محاكمة، ولكن لا تياسوا يا نصراء الإنسانية وصيحوا جميعا بلسان واحد لتحى العدالة» ثم سارت المظاهرة وهى تهتف «لتحى العدالة وتحى الحرية وينشدون النشيد الفرنسى بحماس»^(٢٩).

وتصف المؤيد اجتماعا آخر لكبار رجال الجاليات الأجنبية عقد «فى نزل الكونتنتال.. وقد وقف فى المجتمعين ويبلغ عددهم نحو المائتين بعض منهم للخطابة وتكلم مسيو روسى ومسيو بتراكى وفورفوف وشالوم، إلا أن خطاباتهم كانت معتدلة غير هياجية وعلى أثر هذه الخطابات تألفت لجنة مكونة من مسيو بتراكى وروسى وفورفوف وفيسيه وكولرا وذهبت إلى دار القنصلاتو الروسية لمقابلة معتمد الدولة الروسية السياسى تقابلهم أحسن مقابلة».

ولكى ندرك مدى قدرات الجماعات الاشتراكية وسط الجاليات الأجنبية سواء على الحشد أو التنظيم أو سرعة الحركة نورد هذه الملاحظة التى أوردتها المؤيد فى دهشة «وفى

أثناء ذهاب هذه اللجنة إلى دار القنصلاتو طبع بعضهم إعلانا بالخط الكبير واللغة الفرنسية قيل فيه: إن جواب جناب سفير روسيا على اللجنة المشكلة فى صالح الثلاثة الروس سيبلغ فى تياترو التوفوتيه بشارع كامل الساعة السادسة مساءً، فكان هذا الإعلان الموزع على الناس فى القهاوى والمحال العمومية فى جميع أنحاء العاصمة فى بحر ساعة واحدة بمثابة استدعاء إلى المشاركة فى المظاهرة لأنه ما جاءت الساعة السادسة مساءً حتى كان عدد عظيم من الخلق أمام تياترو التوفوتيه فدخلوه حتى غص بهم»^(٢٠). كذلك توجه وفد من المتظاهرين لمقابلة اللورد كرومر طالبين عدم تسليم الروس الثلاثة لقنصلهم والتحقيق معهم بمعرفة السلطات المصرية..

لكن سلطات الاحتلال كانت قد حزمت أمرها وقررت توجيه ضربة للنشاط الاشتراكى وسط الجاليات الأجنبية المقيمة فى مصر، وبث الذعر فى صفوف القائمين به شاهرة فى وجوه الجميع سلاح ترحيلهم من مصر وتسليمهم لقناصل بلادهم. وتواصلت المعركة واستخدم فيها سلاح المنشورات.

وتنشر جريدة الأهرام نص منشور فى القاهرة «أيها الرفاق.. إذا كانت المظاهرة البادئة المنظمة التى اشتركنا بها طلبا للمحافظة على كرامة الملجأ لم تنتج النتيجة التى يريدها الإسكندريون، فمن الواجب لصالح ضحايا الظلم اتخاذ وسائل فعالة حتى تنتصر الحرية والإنسانية.. من الواجب على كل إنسان فى هذه الظروف الحرجة أن يكون مستعدا للعمل وأن يلجى الدعوة عند الحاجة لمقابلة الشدة بالشدة.. فليعش الشعب الروسى وليسقط القيصر السفاح»^(٢١).

وتواصل سلطات الاحتلال توجيه ضرباتها للتجمعات الاشتراكية تهدف إضعاف نشاطها وتخويف المنتمين إليها من الإبعاد عن مصر والتسليم لقناصلهم.. وتبدأ سلسلة من المحاكمات السريعة التى تستلفت النظر فى سرعتها فبعد مظاهرات ٢١ يناير بالإسكندرية بدأت المحاكمات فى اليوم التالى مباشرة وتنشر الأهرام:

«جاءكم أول أمس أمام محكمة الإسكندرية الأهلية.. هركيز الكسيان تريسيان الأرمنى وعمره ٢٤ سنة وحرفته خياط وديمترى استاراتى وعمره ١٩ سنة وحرفته إسكافى، ومانولى جرمانى وحرفته حمار لاتهامهم بأنهم أهانوا جلالة قيصر روسيا وأنزلوا على الأرض الشعار الروسى.. ولا يزال التحقيق جاريا عن أعمال عشرة آخرين»^(٢٢).

وفى ١٠ فبراير تنشر المؤيد «روت الغازيت أن قنصلية فرنسا فى الإسكندرية تواصل التحقيق فى القضية التى رفعتها الحكومة المصرية وقنصل روسيا على مسيو كانيشة محرر الريفورم بسبب ما كتبه فى نصرة المتظاهرين لمصلحة المجرمين الروسين. ومتى انتهت القنصلية الفرنسية من التحقيق تقرر هل القانون الفرنساوى يعتبر المحرر مذنباً ومستحقاً للمحاكمة»؟^(٣٣).

وفى ١٣ فبراير تنشر خبراً آخر «حددت قنصلاتو النمسا يوم غد لمحاكمة الخواجة الفريد كمبوس لاتهامه بزعامة المظاهرات التى حصلت ضد قنصلاتو روسيا»^(٣٤). وهكذا يتضح أن قناصل الدول قد تواطؤوا مع اللورد كرومر وسلطات الاحتلال على توجيه ضربة لتلك التجمعات الاشتراكية الأجنبية التى تواجدت فى مصر محتمية بالامتيازات الأجنبية التى تكفل لهم حق المحاكمة أمام قناصلهم فإذا بالقناصل يشددون النكير عليهم.

كذلك يبدو اهتمام سلطات الاحتلال بقص أجنحة هذا النشاط من إصرارها على تسليم الثلاثة الروس رغم عدم التزام الحكومة المصرية بأى معاهدة تقضى بتسليم المجرمين^(٣٥). بل ويبدو هذا الاهتمام أيضاً من تخصيص الحكومة لقطار خاص لنقل المقبوض عليهم الثلاثة إلى بورسعيد سرا تمهيدا لترحيلهم إلى روسيا من هناك^(٣٦).

أما هؤلاء الثلاثة الذين أثاروا كل هذه الضجة والتى لم نجد فى صحف هذه الفترة أية إشارة لأسمائهم فإن ملفات التحقيق معهم قد أثبتت «أن تاريخ حياة المذكورين وأن تحريرهم محضر ضبط لديهم يدل على تبعيتهم لإحدى لجان الثورة كذلك فإنه من الثابت أن الثلاثة المذكورين روسيون ارتكبوا جرائم سياسية فى بلادهم وحكم عليهم بحكام أقربها حكم صادر ضد أحدهم لمناسبة الاعتصام الذى وقع أخيراً فى أوديسا وأنهم جاؤوا إلى الإسكندرية محتمين فى أرض مصر»^(٣٧).

وإذا كانت المؤيد والأهرام قد اتخذتا من هذه الحادثة موقفاً فيه قدر من الانتقاد لحركة الاشتراكيين الأجانب فإن اللواء جريدة الحزب الوطنى قد اتخذت موقفاً آخرًا.

ففى تعقيب لها على ما نشرته المؤيد من وصف للمظاهرات احتتمته قائلة «وإننا نحمد الله على أنه لم يكن بينهم مصرى مسلم على الإطلاق».. شنت اللواء هجوماً قالت فيه: إن المؤيد قد تغافل كثيراً مما كان يجب عليه إزاء هذه القضية سواء من حيث خطته أو

الشعور الإسلامى فى مصر.. وإذا كان يحمد الله على أنه لم يكن بين أهل المظاهرة مصرى مسلم على الإطلاق فإنما يحمد الله على موت الشعور الحى بين مواطنيه المسلمين والحقيقة أن الوطنى المصرى الحر ينبغى له أن يبكى دما عندما يرى أن لا أثر للمسلمين فى مثل المظاهرات لأن ذلك دليل على أن المسلمين مازالوا لم يدركوا ماهى الحرية الحقيقية، وما هى الوظائف الإنسانية.. ولذلك كان ينبغى على المؤيد الذى لا تخفى عليه كل هذه الحقائق وبقدر ما لها من التأثير فى حياة الأمة المصرية والأمة الإسلامية أن يحض المسلمين من أهل مصر على الاشتراك فى مثل هذه المظاهرات»^(٣٨).

وهكذا فإن هذه المعركة لم تمض بلا أثر، حتى بالنسبة لجمهور المصريين ولعل هذا التأثير لم يكن بعيدا عن تلك المظاهرات الصاخبة التى لم تلبث أن تفجرت بعد أشهر قلائل والتى نظمها العمال المتعطلون.. وغيرهم.

الإيطاليون:

كان العمال الإيطاليون يفتدون إلى مصر بكثرة وقد اهتم الحزب الإشتراكى الإيطالى بتنظيمهم وإيفاد كوادر اشتراكية معهم، إلى حد أن لورد لويد كتب يقول «إن الحزب الإشتراكى الإيطالى كان نشطا فى مصر نشطا لا يقل عن نشاطه فى إيطاليا»^(٣٩).

والحقيقة أن لهذا النشاط تاريخا قديما، ففى أثناء ثورة عرابى ١٨٨٢ وعندما وقف معظم الأجانب ضدها أرسل العمال الإيطاليون رسالة وقعها كامينى رئيس جمعية العمال الإيطاليين بالإسكندرية إلى البارودى رئيس وزراء الثورة يعلنون فيها تأييدهم لأهداف الحزب الوطنى المصرى وأمانيه الوطنية ويستنكرون التدخل الأجنبى^(٤٠).

والحقيقة أن مجموعة الإشتراكيين الإيطاليين كانت أكثر هذه المجموعات تنظيما، ولجأت إلى الأساليب التى توحى بوجود عمل حزبى منظم خلفها.

فقد كانت منشوراتها تغمر المدن الكبرى فى عديد من المناسبات وقد طالعنا منشورهم دفاعا عن الثلاثة الروس كما أنهم أسسوا فى الإسكندرية «الجامعة الشعبية الحرة» لتعليم العمال^(٤١).

ولعل أهم ما يلفت النظر فى فكرة «الجامعة الشعبية الحرة» هذه هو أنها كانت فيما يبدو أكثر من مجرد محاولة لتعليم وتنقيف العمال، فإن نظرة على مجلس إدارتها الذى تكون فى ١٣ مايو ١٩٠١ تشير بأنه كان يضم عددا من غير الإيطاليين.. مصريين ويونانيين وأرمن..

بما يوحى بأن الهدف كان إيجاد تجمع.. من مختلف الجنسيات ومن بينها المصريين لإدارة الجامعة الشعبية.. ونشر الأفكار الاشتراكية. التى كرسست الجامعة برنامجها أساسا لتقديمها للمجمهور.

ولنطالع بعض أسماء مجلس الإدارة فإنها تقدم لنا صورة كافية: د. مودينوس، د. كاميرينى، المهندس كولو. ومع هؤلاء أسماء توحى بأنها يونانية مثل باباداكيس، ن. أ. بياجيني لكن هناك أيضا أسماء مصرية مثل عثمان أفندى.. وهناك بالطبع القاسم المشترك فى كل تجمع تقدمى ج. روزنتال^(٤٢).

ولعل أهم ما يلفت النظر هو قدم هذا النشاط.. فثمة وثيقة تشير إلى نشاط قديم للاشتراكيين الإيطاليين. هى رسالة من مهرداد خديوى مؤرخة فى ٨ جمادى الثانى ١٣٠ هجرية موجهة إلى ناظر مجلس النظار تلفت النظر إلى خطورة «نشاط جمعية الأترناسيونالى الإيطالية فى الإسكندرية»^(٤٣).

.. ولقد استمر هذا النشاط متواصلا وفاعلا ما بقيت فى مصر جالية إيطالية كبيرة العدد. وآخرون:

ولم تكن هذه هى كل الجهود التى بذلت على أرض مصر، فقد كانت هناك جهود أخرى كثيرة فهناك جندى إنجليزى اسمه فكتور استور كان عضوا بحزب العمال وحضر إلى مصر ضمن قوات الاحتلال إبان الحرب العالمية الأولى.. وقد أقام استور علاقات وثيقة بعدد من المثقفين المصريين ذوى الميول الاشتراكية.. ويشير عبد الرحمن فضل إلى وجود عدد من البلغار الذين أسهموا معهم فى العمل الحزبى من بينهم بعض سائقى التاكسى الذين كانوا يستخدمون فى نقل المواد الحزبية^(٤٤).

كذلك يقول د. عبد الفتاح القاضى: إن فتاة بلغارية اسمها «بوبوفا» اتصلت به خلال وجوده فى ألمانيا عام ١٩٢٠ ولقنته الماركسية^(٤٥).

والحقيقة أنه لا بد من بذل مزيد من الجهود بحثا عن تاريخ هذه المجموعات الأجنبية التى أسهمت فى بذر بعض بذور العمل الاشتراكى فى أرض مصر. والمصريون أيضا..

وكان لا بد للمثقفين المصريين من أن يتأثروا بكل ذلك وبتطور الأحداث فى مجتمعاتهم وبنمو النضال العمالى الأمر الذى طرح قضية الاشتراكية أمام أعينهم..

ولا شك أن علاقات الحزب الوطنى بالقوى الاشتراكية قد أثرت فى جناح من أعضائه وخاصة من الشباب فيه.

وفى ١٩٠٧ وزع منشور فى مدينة القاهرة بتوقيع شباب الحزب الوطنى «يدعو المصريين إلى دراسة الاشتراكية والاهتمام بها» ومن بين الموقعين على هذا المنشور سلامة موسى وصالح البهنساوى.

وقد تركت ثورة ١٩٠٥ فى روسيا و١٩٠٨ فى تركيا وإيران أصداء مهمة وسط المثقفين المصريين^(٤٦).

ولكم يبدو مثيرا للاهتمام والدهشة معاً، أن تجد ثورة ١٩٠٥ فى روسيا للقيصرية انعكاسا سريعا ومكتفا كذلك الذى وجدته فى مصر..

فالأمر لم يقتصر على بعض أخبار نشرت فى الصحف.. وإنما أليس غريباً أن يصدر فى القاهرة وفى نفس العام ١٩٠٥ كتاب بعنوان «أسرار الثورة الروسية»؟! يكتب مؤلفه خليل بك سعادة فى مقدمته قائلاً: «سيكون للثورة الروسية التى لا تزال حتى هذه الساعة نارا فى اضطرام وأغوارها فى استعار من تغيير شئون الجنس البشرى ونهضة الأمم ما كان لشقيقتها الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر من الضرب على يد الجور الأثيمة وكسر أغلال الظلم وقيود الاستبداد والخروج ببني الإنسان من دياجير الجهل والأوهام إلى فضاء الحرية ومناهل العمران»^(٤٧).

ويؤكد لاکور أن الخلايا الاشتراكية الأولى وجدت فى مصر فى عام ١٩١٨ وتناثرت فى المدن الكبرى مثل الإسكندرية- القاهرة- بورسعيد.

كذلك لا يمكننا أن نتجاهل إقدام المنصورى على تأليف كتابه عن الاشتراكية وانتشار الحديث عن الاشتراكية فى الصحف المصرية انتشاراً يوحى بوجود قوى اشتراكية مصرية تحركه، كذلك يمكننا تقويم النفوذ الفكرى للاشتراكية فى مصر من خلال دراسة ردود الفعل على العناصر الرجعية التى سرعان ما أحست بالخطر وأخذت تترجم على عجل كتابات معادية للاشتراكية مثل كتب جوستاف لوبون وغيره.

لكن أكثر ما يثير الانتباه فى هذا الصدد هو أن أجهزة الأمن التى كانت تتابع أنشطة الاشتراكيين الأجانب قد أشارت أكثر من مرة إلى اهتمام هؤلاء بالتعرف على عدد من المثقفين والأفندية المصريين ونشر الأفكار- الاشتراكية بينهم.

كما تشير هذه التقارير إلى اهتمام هؤلاء الاشتراكيين الأجانب بتعلم اللغة العربية كمعبر ضرورى للتفاهم مع المصريين. وتشير كذلك إلى اهتمامهم بوضع «أدبيات» ماركسية باللغة العربية.

كذلك فإن وثائق أجهزة الأمن تسجل بدايات هذا التلاحم بين الاشتراكيين الأجانب والاشتراكيين المصريين، سواء فى الاحتفالات المبكرة بعيد أول مايو حيث رصد رجال الأمن الناشطون وجود أفندية مصريين بين الجالسين أو فى صفوف الأندية الثقافية والجماعات ذات التوجه الماركسى مثل «نادى الدراسات الاجتماعية، و«جماعة الوضوح». ويقول أحد هذه التقارير «إن من بين أعضاء جماعة الوضوح clare اثنان من الأفندية أحدهم يسمى عبد المنعم»^(٤٨).

كذلك تصاعد النضال العمالى المصرى وازدادت إضرابات العمال عنفا وتنظيما، الأمر الذى يوحى بتزايد الوعى الطبقي بينهم.

ولا شك أن نجاح ثورة أكتوبر ١٩١٧ قد ترك أثارا مهمة وسط انتقطين المصريين. يقول مارسيل كولب «إن الثورة الروسية ١٩١٧ والنداءات التى وجهتها الدولية الثالثة فى السنين التالية «إلى فلاحى وعمال الشرق الأدنى» و«إلى مسلمى العالم ضحايا الاستغلال» قد تركت أصداء ذات أثر فى المراكز الكبرى وخاصة فى الإسكندرية وهى بطبيعتها مدينة دولية»^(٤٩).

وعندما اشتعلت ثورة ١٩١٩ ولعب العمال والفلاحون دوراً ثورياً بارزاً فى أحداثها أسهم ذلك إسهاما كبيرا فى دفع العمل الاشتراكى فى مصر خطوات كبيرة إلى الأمام. ولابد أن نشاطا كبيرا قد حدث، إلى الحد الذى دفع سعد زغلول أن يوجه رسالة سرية من باريس بتاريخ ٢٢ يونيو ١٩١٩ إلى اللجنة المركزية، الوفد يقول فيها «الوفد غير راض عن المنشورات التى تقيد اعتماد المصريين على الألمان أو تتضمن الانتصار للبشفيك فإن هذه المنشورات يستفيد منها أعداؤنا للقول بأن الحركة المصرية لها اتصال بالألمان وبالحركة البلشفية»^(٥٠).

وقد بدأت الصحافة الإنجليزية فى مصر حملة ضد ما أسمته بالخطر البلشفى^(٥١). وتصاعدت هذه الحملة إلى حد «أن الجنرال ولسون قائد قوات التدخل البريطانية فى القوقاز أرسل تقريرا إلى حكومته ينصح فيه بالجلء الفورى عن المناطق المحتلة فى القوقاز

لتركيز القوى اللازمة للدفاع عن بعض المناطق المهمة فى الإمبراطورية وخاصة مصر والهند اللتين يتهددهما التأثير البلشفي»^(٥٢).

وفى اعتقادنا أن هذه الحملات مبالغ فيها جدا. صحيح أن نشاطا اشتراكيا واسعا قد جرى فى مصر ذلك الحين، لكنه لم يصل إلى الحد الذى يدفع بريطانيا إلى سحب قواتها من أماكن أخرى لحشدها فى أرض مصر.

والحقيقة أن قوات الاحتلال قد بالغت متعمدة فى إثارة الفزع مما أسمته بالثورة البلشفية الوشيكة الوقوع كسبيل لإخافة قيادة الوفد والطبقات الوسطى من الحركة الثورية النشطة للعمال والفلاحين فى ذلك الحين، بل وكسبيل أيضا لإزعاج كل القوى الوطنية والإحياء إليها بأن انتشار الشيوعية فى مصر سيؤدى ببريطانيا إلى رفض منح الاستقلال ولا بد أن هذه الفكرة الأخيرة قد سيطرت على أذهان الكثيرين إلى حد أن مؤسسى الحزب الاشتراكى المصرى قد طرحوها للنقاش فيما بينهم عندما شرعوا فى تأسيس الحزب..

فقد كتب سلامة موسى قائلاً «ربما كان الوقت الحاضر أسوأ الأوقات لتأليف هذه الجمعية فإننا فى مأزق سياسى لا ينبغى أن نزيده خراجة بما يمكن أن يتذرع به المعارضون لاستقلالنا فى إنجلترا من أن فى مصر شيوعيين وبلشفيين».

ويقول سلامة موسى أن مؤسسى الجمعية بحثوا هذه المسألة وقرروا «أن التخوف من إقامتها قد لا يكون عائقا فى سبيل المفاوضة الحاضرة.. فإن أكثر أعضاء الجمعية المزمع تأليفها يحسنون اللغات الأوروبية المهمة ويجيدون كتابتها ولن يقصروا عندما يرفع الاستعمار عقربه ويندد بنا، فى الرد عليه وإفحامه ببيان لغته»^(٥٣).

ولقد شاهدنا كيف أثرت هذه الدعاية فى سعد زغلول فكتب رسالته إلى اللجنة المركزية للوفد.. وقد أثرت أيضا فى فكرى أباطة الذى كتب «إن مصر البائسة، مصر المستعبدة، مصر الراسفة فى الأغلال همها الوحيد فى الوقت الحاضر أن تبحث عن حريتها.. وأن تتوجه إلى مكان البحث كتلة واحدة ثابتة قوية التركيب، حتى إذا حصلت على استقلالها المنشود، وصفت الحساب بينها وبين المغتصب استطاعت أن تتفرغ لفض مشاكلها الداخلية»^(٥٤).

إن هذه المبالغة المقصودة كانت تستهدف تخويف كل القوى الوطنية من الاشتراكيين وإيهامهما بأن تأسيس الحزب الاشتراكى خطر على الاستقلال.

ويدخل فى باب المبالغة أيضا ما قيل من أن الفلاحين المصريين قد أسسوا خمسة سوفيات مستقلة خلال ثورة ١٩١٩.. وقد راجت هذه الفكرة فى كثير من المؤلفات غن هذه الفترة من تاريخ مصر ولا شك أن قائلها يقصدون تلك الجمهوريات المستقلة التى أعلنت فى زفتى والمطرية، المنيا، وغيرها، ولسنا نعتقد أيضا أن مؤسسيها كانوا يستهدفون إقامة سوفيات بالمعنى الصحيح للكلمة ولكنهم ربما طبقوا شعار الاسيلاء محليا على السلطة ولكن لتحقيق أهداف وطنية ويهدف خلق نقاذ ارتكاز للعمل الثورى المعادى للاستعمار والدليل على ذلك أن قادة هذه الجمهوريات المستقلة قد اكتفوا بالإطاحة بممثلة سلطات الاحتلال ولم يتخذوا أى أجزاء تتعلق بالملكية أو بأسس توزيع الثروة. وهكذا كانت ثورة ١٩١٩ والانتفاضة الثورية العنيفة التى خاضها الفلاحون والعمال خلالها واحدة من العوامل التى ساعدت وشجعت الاشتراكيين المصريين على رفع رايات النضال.

الهوامش

- (*) ظل هذا التنظيم قائما حتى صدور قوانين التمصير فى عام ١٩٥٦ ثم قوانين التأميم فى عام ١٩٦١ التى أعقبتها موجات هجرة غادر فيها معظم الأجانب مصر.
- (١) الهلال - ١٨٤ ج ١٥ - السنة الثانية نقلا عن د. عبدالوهاب بكر - أضواء على النشاط الشيوعى فى مصر - ١٩٢١ - ١٩٥٠ - دار المعارف (١٩٨٣) ص ١٨.
- (٢) دار الوثائق القومية - محفظه ١٠٥ داخلية افرنكى - تقرير محافظ عموم القنال عن بيان الحوادث التى وقعت بين شغالى الكراكات وقومبانية القناة من أول أكتوبر ١٨٩٤ لغاية ١٥ منه.. ويتخلص فى اعتصاب العمال اليونانيين بالقومبانية.
- (٣) نيقولاى باباريدوتى - تقرير عن ذكرياته ومعلوماته عن المجموعة الشيوعية اليونانية - كتبه بناء على طلب المؤلف وهو مكتوب على الآلة الكاتبة الفرنسية من اثنين وخمسين صفحة بعنوان:
Petit Resume du Movment Politique Grec En Egypte et Toute Particlierement Au Cairo.
- (٤) المرجع السابق.
- (٥) المرجع السابق.
- (٦) المرجع السابق.
- (٧) المرجع السابق.
- (٨) المرجع السابق.
- (٩) راجع فى الملاحق محضر النقاش معه.
- (١٠) الأهرام ١٦/٨/١٩٢١.
- (١١) w. laquer - communism and natioalism in middle east ibid p.232
- (١٢) تقرير بالإنجليزية مرفوع من ي. كلايتون عن المدير العام لإدارة الأمن العام بوزارة الداخلية المصرية إلى ماكنجتون. ومؤرخ فى ٢٨ سبتمبر ١٩٢١ (مودع فى الأرشيف العام لوزارة الخارجية البريطانية).
- (١٣) تقرير بالإنجليزية مرفوع لمستشار وزارة الداخلية المصرية مؤرخ فى ١٠ مارس ١٩٢١. مودع بالأرشيف العام، لوزارة الخارجية البريطانية.
- (١٤) vallet - contirbution a lettude de la conoution des ouvriers le grand industrie au caine (1991) p.141
- (١٥) رؤوف عباس، المرجع السابق، ص ٥٥.
- (١٦) f.o. 141- 779 f.g.(1919 note on rosental
- (١٧) الأهرام ١٩/٨/١٩٢١.

*اسمه الحقيقي بهيل كوسى وهو واحد من كوادى الكومنترن الأساسية الكلفة بالعمل فى منطقة الشرق الأوسط وقد ألقى القبض عليه فى مصر عام ١٩٢٥ حيث حكم عليه بالسجن. (لمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية راجع كتابنا اليسار المصرى ١٩٢٥-١٩٤٠ وراجع أيضا والتر لأكور الاتحاد السوفيتى والشرق الأوسط).

(١٨) مذكرة باللغة الإنجليزية معنونة «مذكرة عن أدوارد زايدمان (زايدمان) مودعة بالأرشيف العام لوزارة الخارجية البريطانية.

(١٩) مذكرة باللغة الإنجليزية تحت رقم ب/س/أ ٤١٩٨٩ بتاريخ ١٩ أغسطس ١٩٢١.

(٢٠) مذكرة مرفوعة من ن. كلايتون مساعد مدير الأمن العام بوزارة انداخلية إلى مستشار وزارة الداخلية مؤرخة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٢١. محررة بالإنجليزية ومودعة فى الأرشيف العام لوزارة الخارجية البريطانية.

(٢١) الأهرام ١٩٢٤/٢/٢٢.

(٢٢) f.o. 141-799 f. g. (1919).

مودعة بأرشيف وزارة الخارجية البريطانية. بالمتحف البريطانى بلندن.

(٢٣) مارسيل إسرائيل «المرجع السابق».

(٢٤) مراسلات لينين وهيئة تحرير إيسكرا إلى منظمات الحزب فى روسيا من ١٩٠٠ إلى ١٩٠٣. الطبعة الروسية (ثلاث مجلدات) موسكو- (١٩٦٩). رسالة رقم ١٤٦- ص ١٨٥.

(٢٥) روزنشتن «دمار مصر» ترجمة على أحمد شكرى. مقدمة المترجم

(٢٦) نيكولاى كوتساريف. من ألف عام على الطريق، دار الهنا. القاهرة.

(٢٧) الأهرام ١٩٠٧/١/١٩.

(٢٨) المؤيد ٢١-١-١٩٠٧.

(٢٩) المؤيد ٢٢-١-١٩٠٧.

(٣٠) المؤيد ٢٢-١-١٩٠٧.

(٣١) الأهرام ١٩٠٧/١/٢٤.

(٣٢) الأهرام ١٩٠٧/١/٢٤.

(٣٣) المؤيد ١٠/٢/١٩٠٧.

(٣٤) المؤيد ١٢/٢/١٩٠٧.

(٣٥) راجع المذكرة القانونية التى رفعها بالنيابة عن الجاليات الأجنبية فى مصر شالوم، ن. روسى إلى

اللورد كرومر بشأن طلب عدم تسليم الروس الثلاثة إلى قنصله والمؤرخة فى ١٩٠٧/١٠/٢٢

والمنشورة فى المؤيد ١٩٠٧/١/٢٨

(٣٦) المؤيد ١٩٠٧/١/٢٨

(٣٧) المؤيد ١٩٠٧/١/٢٩ مقال «الخطر من سلطة القناصل. كيف يُبقى؟».

(٣٨) اللواء ١٩٠٧/٢/١١

- (٤٠) رفعت السعيد. الأساس الاجتماعي للثورة العربية. دارالكتاب العربي ص ٢٣٥.
- (41) jacques berque - l, egypte imperialism et revolution
- (42) le phare d, alexandrie - 13 - 5 - 1901
- (٤٣) دار الوثائق القومية- محفظة ٨١ داخلية إفرنكى.
- (٤٤) راجع محضر النقاش معه.
- (٤٥) اتضح من البحث عن هذه الفتاة أن الرفيق ديمتروف كان يعمل معه خلال إقامته في ألمانيا رفيق بلغارى اسمه بوبوف.. ومن المحتمل أن تكون هذه الفتاة أخته.
- (٤٦) لأكور-المرجع السابق ص ٣٢.
- (٤٧) خليل بك سعادة- أسرار الثورة الروسية- مطبعة التمدت بمصر (١٩٠٥) الصفحة ج.
- (٤٨) الأرشفة العام- تقرير بعنوان clarte
- (49) marcel colombe - l, egypte 1924- 1950
- (٥٠) محمد أنيس، دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ص ٢١.
- (٥١) نجيسان ميل ١٩١٩/٤/١٦٦.
- (٥٢) مارسيل إسرائيل. المرجع السابق.
- (٥٣) الأهرام ١٩١٩/٨/١٨
- (٥٤) اللواء ١٩٢١/٩/٥.

إعلان الحزب الاشتراكي

كانت الظروف الاجتماعية تنضج سريعا، وتلاحقت معها الصيحات الشجاعة للعمال والفلاحين الذين واجهوا الاستعمار بالسلاح فإذا بالقيادة الوفدية ترتعد، وتصرخ وتدين هؤلاء المتمردين.

وهكذا كان لا بد من قيادة جديدة.. تمثل هذه القوى التي تحركت في عنف محطمة الإطار الذي رسمته القيادة الوفدية.

لكن كيف بدأ العمل؟

كانت هناك سلسلة من المحاولات..

وقد رأينا في فصل سابق كيف حاول البعض (منصور فهمى وعزيز ميرهم) تأسيس حزب اشتراكي لكنه تحول تحت ضغط العناصر الليبرالية اليمينية إلى مجرد حزب ديمقراطي.

ولقد حدد الحزب الديمقراطي مكانه باعتباره وسطا بين اليمين واليسار. هكذا قال عزيز ميرهم سكرتير الحزب.. «ولما كانت العناصر المتأخرة (الرجعية) شديدة المراس في البلاد المصرية كان من المصلحة أن يقوم فيها حزب اشتراكي قوى يلزم حزبنا الديمقراطي

بالتزام الوسط كما هو شأن الأحزاب الديمقراطية غير الاشتراكية فى جميع البلاد المتقدمة»^(١) وكانت هناك المحاولات التى قام بها روزنتال.. الذى يروى فى شهادته الأسلوب الذى اتبعه لتأسيس حزب اشتراكى مصرى..

«كانت النقابات مسيرة لأغراض سياسية مختلفة تتبع الأحزاب الناهضة بالقضية الوطنية فى البلاد كالوفد والحزب الوطنى وغيرهما.. وكانت من رأى أن ننشئ للطبقة العاملة مراكز للدفاع الاقتصادى والتربية الفكرية ولهذه الغاية نشرت فى غصون عام ١٩٢٠ نداء إلى النقابات العاملة لدعوتها إلى تأسيس اتحاد يضم شملها جميعا فتلقت هذا النداء بالقبول والإجماع وأرسلت إلى الإسكندرية مندوبين من قبلها يمثلون ٢٥ ألفا من العمال للاشتراك فى البحث فى المشروع، غير أن رؤساء النقابات المتشبعين بالفكرة السياسية شعروا آنذاك بأن إنشاء النقابات الحقيقية بطريقة تراعى فيها حالة العمال يؤدي إلى ضياع كل ما لهم من السلطة عليها ويحول دون الوصول إلى أغراضهم السياسية فسعوا سعيا جديدا لحمل نقاباتهم إلى عدم الاشتراك بالاتحاد وظلوا يماطلون فى التدابير الأولية سنة كاملة وفى بدء ١٩٢١ تمكنا من تأسيس اتحاد النقابات بعدد محدود لا يتجاوز ثلاثة آلاف من العمال ولما كنا نرى أن النقابات لا تستطيع أن تتدخل تدخلا فعليا فى الأمور السياسية لكونها مؤلفة من عمال مختلفين وذوى نزعات سياسية متضاربة، فكرنا فى تأسيس حزب سياسى يكون بمثابة لسان حال نقابات العمال ويكون فى استطاعته أن يدافع عن مصالحهم فى المجلس النيابى وغيره ويسعى لحمل الحكومة على إصدار قانون اجتماعى لحماية العمال المتروكين تحت رحمة الرأسمالية بظلمها، وعملا بهذه الفكرة أنشأنا الحزب الاشتراكى».

ومن هذه الكلمات نستخلص ما يلى:

- أن النفوذ اليسارى وسط الحركة النقابية كان إلى حد ما قويا.
- أن النقابيين من حزب الوفد والحزب الوطنى قد عارضوا بشدة هذا النفوذ اليسارى.
- أن الحزب الاشتراكى الذى استهدف روزنتال تأسيسه قد نبع أساسا من خلال معركة عمالية تستهدف توحيد العمال.

والحقيقة أن النضال النقابى كان سبيلا قاد الكثيرين من المناضلين العماليين إلى صفوف الحزب الاشتراكى.. وفى الكلمات التالية يحاول عبد الرحمن فضل - وهو واحد

من طلائع الاشتراكيين فى مصر- أن يروى تجربة وقصة انضمامه مع زملائه إلى الحزب الاشتراكى..

لقد زرعت فينا ثورة ١٩١٩ روح العمل الجماعى، وكنا قد تأثرنا بروح الحزب الوطنى فى تأسيس النقابات وفى تفتيش «حلق الجمل» بالبحيرة وهو تابع لشركة إنجليزية لاستصلاح الأراضى أسسنا نقابة عمالية كجزء من موجة النقابات التى انتشرت فى أعقاب ثورة ١٩١٩ روح العمل الجماعى، وكنا قد تأثرنا بروح الحزب الوطنى فى تأسيس النقابات وفى تفتيش «حلق الجمل» بالبحيرة وهو تابع لشركة إنجليزية لاستصلاح الأراضى أسسنا نقابة عمالية كجزء من موجة النقابات التى انتشرت فى أعقاب ثورة ١٩١٩ وكان يرأس النقابة عبد الحميد أفندى العتال الذى كان ينفق عليها من ماله الخاص ويعاونه محمد أفندى سلامة وأنا.. واتسع نشاط النقابة فى مواجهة ضغط أصحاب الشركات وتدخلت الاتحادات العمالية فى دمنهور والإسكندرية لتأييدنا هناك وعن طريقهم انضمنا إلى الحزب الاشتراكى»^(٢).

ولم يكن هذا هو السبيل الوحيد للعمل الجماهيرى الذى شقه روزنتال فى طريق تأسيس الحزب فقد نظم حملة جماهيرية للمطالبة بتحديد إيجارات المساكن من خلال اتحاد المستأجرين.. وقد نجحت هذه الحملة نجاحا كبيرا قال عنها روزنتال فى شهادته أمام النائب العام «لقد وافق هذا السعى فى نفس الجمهور فهبت الصحف تساعدنى فى هذا الحمل ونشرت اسمى مرارا»^(٣).

وهكذا يلتقى طريقان يولدان معا ممكنات حقيقية لنشوء حزب اشتراكى فاعل.. فالحركة الوطنية تتألق فى أوج نشاطها وحيويتها وحركة الطبقة العاملة تتصاعد.. «ولقد لعب الحزب منذ أيام نشأته الأولى دورا بارزا فى تعميق وتأكيد دور الحركة العمالية فى أيام نهضتها الأولى»^(٤).

لقد أصبح الجو مهيا للعمل وإعلان الحزب..

لكن الجميع يؤكدون أن الحزب كان موجودا من قبل وأن روزنتال كان قد أسس فعلا حزبا من الأجانب فى الإسكندرية..

أما الجديد فهو ظهور جماعة من المصريين تسعى لتأسيس حزب اشتراكى مصرى.. والأسماء كثيرة، سلامة موسى، د. على العنانى، محمد عبد الله عنان، الشيخ صفوان أبو

الفتح، أحمد المدنى، حسنى العربى، أنطون مارون، حسين نامق، حسن محيسن والشيخ عبد اللطيف بخيت.

ويقول على العنانى «إن النفس لتأثقة منذ أمد بعيد إلى وجود اتحاد اشتراكى من الوطنيين»^(٥).

ويقول سلامة موسى «إن البكتور العنانى هو جماعة من الشبيبة المستنيرة رأيا تأليف جمعية اشتراكية لدرس مذاهب هذا المذهب المتعدد»^(٦).

ويقول سلامة موسى فى مقال نشره فى اليوم التالى بالأهرام بعنوان «الاشتراكية المصرية»:

«اجتمع عدد غير قليل من الاشتراكيين المصريين وأكثرهم من الذين عاينوا بأنفسهم النضال القائم فى أوروبا بين رأس المال والعمل وقر رأيهم على تأليف جمعية تضم شملهم وتمكنهم من المذاكرة فى زرع هذا المذهب وتطبيقه على الأحوال المصرية»^(٧).

ونستمع إلى رواية أخرى من واحد من أقدم الاشتراكيين المصريين.. مصطفى حسنين المنصورى:

«وصلنى خطاب باللغة الفرنسية يدعونى إلى اجتماع سيعقد فى إحدى الدور أمام حديقة الأزبكية ويشرح فيه أحد الأجانب نظرية الاشتراكية.

وفى هذا الاجتماع قابلنى كل من سلامة موسى وعبد الله عنان ولم أكن أعرفهما من قبل. وحضر الاجتماع حوالى عشرين شخصا..»

وبعد يومين أو ثلاثة يستدعى المنصورى لمقابلة محافظة القاهرة..

«.. فلما ذهبنا إلى محافظة القاهرة وجدت من حضر الاجتماع هناك واستقبلنا المحافظ

وسألنا عن سبب حضورنا لاجتماع فعرفناه بأننا حضرنا من باب حب الاستطلاع ويدعوة موجهة إلينا فقال: إن المحاضر شيوعى ونصحنا بعدم العودة، وإلا تعرضنا للعقاب»^(٨).

وهكذا يمكن للصورة أن تتضح..

* روزنتال اشتراكى أجنبى يتمتع بخبرة واسعة وبوضوح نظرى وعلاقات قديمة بالعمل النقابى ويستفيد من ذلك ومن نفوذه وسط النقابيين بالإسكندرية ووسط الأجانب فيحاول أن يؤسس حزبا اشتراكيا بين الأجانب أساسا ومن خلال العمل النقابى والعمالى والأنشطة الأخرى.

* مجموعة من المثقفين المصريين معظمهم - كما يقول سلامة موسى - من المثقفين المتأثرين بالفكر الأوروبى لكنهم مثقفون دووا مكانة محترمة فى المجتمع آمنوا بالاشتراكية وفقا لاتجاهات متفاوتة تتراوح بين الفابية واشتراكية الدولية الثانية والماركسية اللينينية.

وهم يفتقرون إلى الوحدة الفكرية، وإلى الوضوح حتى حول حقيقة الخلاف بين هذه المدارس المختلفة، ولا يملكون معرفة كافية بأساليب ومناهج النشاط الحزبى. ولا يدركون حقيقة الهوة التى تفصلهم عن بعضهم البعض ويتصورون أن مجرد إعلان كل منهم أنه اشتراكى يكفى كى يضموا جهودهم معا فى حزب واحد. وكان من الطبيعى أن تسعى المجموعتان إحداهما إلى الأخرى من أجل تأسيس حزب اشتراكى واحد..

لكن من سعى إلى الآخر.. هناك روايتان..

يقول سلامة موسى «إنهم كتبوا إلى روزنتال.. يسألونه عن برنامج حزبه». وينكر العنانى أن روزنتال هو الذى أقنعه «لأنى مع إعجابى بهذا الرجل لست فى حاجة إلى أن أخذ عنه بل فى حاجة لرده إلى ما قد مارسه طويلا من تعرف على هذا المبدأ»^(٩). أما روزنتال فيورد الأمر بطريقة أخرى مصورا أنه صاحب الفكرة فبعد أن يتحدث فى شهادته أمام النائب العام عن تحدث الصحف عن جهوده يقول «فرايت من بعض الوطنيين عطفًا على الاشتراكية وكان من هؤلاء المتعاطفين حسنى العرابى والدكتور على العنانى وسلامة موسى وعبد الله عنان فاتفقت معهم على العمل وقررنا تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى. وقد كتبوا لهذا الغرض منشورا يحتوى على مبادئ الحزب موقعا عليه منهم ولم أشارك فى التوقيع عليه لأنى كنت أعتبر أن ظهور اسمى الأجنبى بالرغم من كونى مصرى الجنسية يمكن أن يعد بمثابة تدخل أجنبى فى مسألة مصرية».

وعلى أية حال وسواء أكانت المجموعة المصرية هى التى أرسلت رسالة إلى روزنتال أو كان روزنتال هو الذى سعى إليها بحثا عن وجوه مصرية يستند إليها، فقد اجتمع ممثلوا المجموعات الاشتراكية المختلفة حوالى منتصف شهر أغسطس ليناقشوا الأمر.

ولم يكن النقاش سهلا فالخلافات الفكرية عميقة جدا، وأى اتفاق لن يعنى سوى تلفيق بيان وسطى بين أطراف متنازعة.

وكانت المفاوضات تجري في سرير غير أن مراسل الأهرام بالإسكندرية -وهو شخص أثبت طوال السنوات التالية نشاطاً ملحوظاً واهتماماً مبالغاً فيه بنشاط الحزب- يفاجئ الجميع بنشر الخبر التالي:

«يسعى المسيو روزنتال منذ أمد بعيد لتأليف حزب اشتراكي في هذه البلاد وبدأ عمله بالمطالبة بحقوق المستأجرين ثم باتحاد النقابات، مع مواصلة السعي لإقناع جماعة من المواطنين بأن يماشوه في مشروعه وقد نجح بأن أقنع الدكتور عى أفندى العنانى بأن يكون سكرتير الفرع الوطنى كما يكون هو ذاته أى روزنتال سكرتير الفرع الفرنساوى والإنجليزى كما يكون الخواجا بيريديس سكرتير الفرع اليونانى.. ولا شك بأن هذا الحزب سيعلن برنامجه ولا شك بأن هذا البرنامج سيتضمن وعوداً طيبة ولكن الوعد شئ والعمل شئ آخر.

إن حالة البلاد الاجتماعية تقتضى علينا وعلى كل عامل إصلاحاتها برقابة حزب كهذا لا لأننا نكره التعاليم والمذاهب الاشتراكية العلمية، بل لأننا نكره النظريات المتطرفة التى تقتضى بالطفرة ونحن نود التطور رويداً رويداً ولا نعرف مذهب الدكتور العنانى من هذه الوجهة ولا ما هى اشتراكيته.. وهل هى متطرفة أو عملية ولكننا نعرف شيئاً من مذهب المسيو روزنتال، ونعرف شيئاً ما بسطه لرؤساء النقابات الوطنية فنعرف أنه اشتراكي متطرف.. وقد تجاوز حدود التطرف فهل الدكتور العنانى من مذهبه؟»^(١٠).

وسواء أكان الأمر مجرد سبق صحفى يحزره مراسل نشط أو كان وقية مأكرة بين المجموعة المصرية وروزنتال، ومحاولة لضرب الوحدة بينهما.. أو كان بداية لحملة معادية.. فإن نشر الخبر قد فاجأ الجميع وهم مختلفون..

- مختلفون حول الأسس النظرية..

- بل ومختلفون هل يعلن حزب سياسى أم جمعية علمية؟.

- ومختلفون حول من يكون السكرتير العام؟

ولقد كانت هذه الخلافات جدية وتتطلب تصفية حقيقية إذ بدى اتفاق حقيقى حولها يصبح البناء مهدداً بالانهيار فى أى وقت.. وفى محاولة لإسكات مراسل الأهرام والحملة المعادية التى فجرها، أقيم البناء على عجل وبغير اتفاق جدى. لكن ما هى حدود الخلاف بين محاولى التوصل إلى اتفاق؟.

أولاً: الخلاف الأيديولوجي:

ولقد كان الخلاف خطيراً وحاداً بين جميع الأطراف.. وقد تفجر الخلاف صريحا على صفحات الأهرام فى الأيام التالية وقد أفسحت الأهرام صدرها لتتشر آراء الجميع ولعلها كانت محاولة مكررة لتثبّت مدى عمق الخلاف بين هذه الأطراف.

فروزنتال شيوعى لا يخفى شيوعيته ولم يخفها فى يوم من الأيام.. بل إنه وعندما كان الشيوعيون يطاردون ويرسلون إلى السجون يكتب فى الأهرام صراحة «لقد كنت وما زلت ولا أزال حتى آخر نسمة من حياتى شيوعياً كاملاً ومخلصاً إخلاصاً تاماً لقضية البروليتاريا»^(١١).

وثمة شيوعيون آخرون بين المصريين لم يخفوا شيوعيتهم أيضاً منهم الشيخ صفوان أبو الفتح وأنطون مارون.

ولنتأمل الآن كلمات شخص وقع رسالته إلى الأهرام بإمضاء «اشتراكى صميم»:
«إن برنامج الحزب قد يصبح أعمالا جليلة تقضى إلى تحطيم تلك الأغلال الظالمة التى ضربها رأس المال على العمل فى مصر.. إن الحالة الاجتماعية لأى بلد لا تتنافى مع المبادئ الاشتراكية التى ليست إلا نداء بتأييد الحقوق الطبيعية للإنسان ودعوة لتحطيم تلك الأنظمة الاستبدادية التى قضت بأن تضطهد الجماعات الرأسمالية طوائف المجتمع بأسره وأن تتسع الهوة بين الرفاهية والفاقة وبين النعيم والشقاء وأن يطلق العنان للقوى الغادرة لتبتطش الضعيف المهين سواء كان ذلك المعتدى شعبا على شعب أو فردا على فرد».

ثم يواصل الاشتراكى الصميم دفاعه عن مبادئه قائلاً «إذا كنتم تريدون من طرف خفى أن تقولوا أن حزبا اشتراكيا يؤسس فى بلدنا لا بد وأن يتصل بموسكو دعامة الدعوة وفخار العمل ورعب رأس المال، فهذا ما أخالفكم فيه لأن مبادئ موسكو أو البلشفية وإن كانت مثلا أعلى للمبادئ الاشتراكية فإن عدم ملائمتها الحالة الاجتماعية فى بعض البلاد يرجع لظروف خاصة لا يتسع المقام للإفاضة فيها».

هكذا وبصراحة يصف موسكو بأنها «دعامة وفخار العمل ورعب رأس المال».. ويصف البلشفية بأنها «مثل أعلى للمبادئ الاشتراكية».

أما سلامة موسى فنحن نعرف رأيه فهو يابى ضد البلشفية وضد الثورة.
وحسنى العرابى كان منشغلا فى ذلك الحين بترجمة كتاب ماكس ورنالد زعيم حزب العمال الإنجليزى.

وعبد الله عنان طالعنا أيضا رأيه فى فصل سابق وهو فى أحسن الأحوال واحد من اشتراكى الدولية الثانية..

وعلى العنانى.. يعلن أنه يريد حزبا «يحصّر نفسه فى حدود الاعتدال للإرشاد إلى ما فى الشرائع من مبادئ المساواة والعدالة بين الناس..» وهو يدعو إلى «الأخذ بما تطلبه طبيعة البلاد وتقره الأحكام الشرعية وتسعه قوانيننا الدستورية» ويسمى مذهبه «الاشتراكية العملية المعتدلة»^(١٢) وهو لصيق بالفلسفة الهيجلية إلى حد أنه يمكن اعتباره مجرد «هيجلى يسارى» وفيما بعد شغل العنانى نفسه كثيرا بالدعوة لأفكار هيجل وأرثه.

وهكذا يتضح إلى أى حد كان الخلاف الأيديولوجى مستحكما..

فماذا عن نقطة الخلاف الأخرى؟

حزب سياسى أم جمعية علمية..

عندما فاجأ الأهرام الجميع بنشر هذا الخبر كانت المجموعة لم تتفق بعد حول هذه القضية الأساسية، بل لم تكن قد ظهرت بعد بوادر حول هل سيمكن لها أن تتفق أم لا؟ ففى ١٩ أغسطس ١٩٢١ يكتب «اشتراكى صميم» إلى الأهرام قائلا: «أرجو ألا تنقموا منذ الساعة على جماعة لم يلتئم شملها بعد».

وفى نفس اليوم يكتب د. على العنانى إلى الأهرام أيضا قائلا: «ومن أين للراوى جاءت العقيدة بتكوين هذا الحزب مثلاً؟ أفلا يصح أن يكون الموضوع قادرا على تأسيس جمعية علمية تدرس المبادئ الاشتراكية مقرة ما يناسب منها ومنقذة ما تراه ضارا؟!».

كذلك كتب سلامة موسى قائلا: إنه ما لم يتم اتفاق حول تأسيس الحزب فإنهم «يؤلفون جمعية غايتها الدرس أكثر من السياسة»^(١٣).

والحقيقة أن هذا الموقف يمكن تفسيره من خلال سلسلة من الظواهر. فإن بعض المثقفين كان يدرك مدى افتقارهم إلى الدراسة النظرية المتعمقة، وكانت طلائع المثقفين والليبراليين المصريين كما شاهدنا فى فصل سابق قد عكست فى أفق الفكر المصرى آراء وكتابات متسارعة حول مختلف المدارس الفكرية.

ولم يكن الفارق الجدى واضحا بين هذه المدارس، ذلك أن الفارق الجدى لا يتضح إلا عندما تتحدد واجبات نضالية.

ولهذا فإن الخلاف يمكن تبسيطه كما يلى:

البعض يقول لنتنظر فترة ندرس فيها ونتناقش ونختار.. ولننظم هذا الدرس وهذه المناقشة من خلال جمعية علمية..

والمجموعة الأخرى ترى أن البدء فى العمل النضالى وإعلان الحزب هو السبيل الأفضل لحسم الخلافات وتحقيق التمايز..

ثم إن هناك مسألة ثانية وهى أن النقاش كان يجرى فى عام ١٩٢١ وفى هذا العام بالذات كان الوفد المصرى - الذى جسد وحدة الأمة- تتهدده الانقسامات، وكان الشعار السائد وسط الجماهير أن أى إعلان لحزب جديد هو تفتيت لوحدة الأمة، وخروج على زعامة سعد، ولعلنا نلمح ذلك كثيرا فى كتابات معارضى الحزب الذين اتهموه بتقسيم الصفوف وبتعجيل الخلافات الطبقية قبل الاستقلال. كما أن الوفد كان بنفوذه الكبير يعرقل أية محاولة كهذه ويتهمها بالانقسامية..

وهناك ثالثا تلك الحجة التى ترددت كثيرا وهى أن إعلان حزب اشتراكى فى مصر قد يخيف الإنجليز ويؤدى بهم إلى عدم الجلاء.
السكرتير العام من يكون؟

ولقد كانت هذه المجموعة تضم عديدا من المثقفين المرموقين والمناضلين الذين أثبتوا نضاليتهم وقدرتهم على القيادة خلال أحداث ثورة ١٩١٩.

كان من بينهم كتاب مشهورون مثل سلامة موسى وعبدالله عنان.. ورجال دين محترمون مثل الشيخ صفوان أبو الفتوح..

والذين استطاع بعضهم أن يجمع نقابات تضم ٣٥ ألف عامل بناء على نداء نشره فى الصحف لإقامة اتحاد لهم. وهكذا كان من الصعب أن يفرض واحد منهم نفسه على الآخرين.

كذلك فإن الحزب لم يكن تتويجا لعمل تنظيمى قديم حتى ولو كان مبعثرا فيمكن لهذا العمل التنظيمى السابق أن يقدم مقياسا لاختيار السكرتير العام..
لكن الحزب كان بداية لعمل جديد..

ولم يتعد العمل التنظيمى الذى سبقه عن تكوين خلايا متفرقة لم ترتق إلى مضاف العمل الحزبى الحقيقى.

كان الحزب الجديد إذن بداية تتطلع إلى قائد، فمن من هؤلاء كان يتطلع إلى القيادة؟

روزنتال أعلن مسبقاً أن كونه أجنبياً يمنعه من ذلك.. بل إنه لم يوقع مع الأربعة بيان إعلان الحزب قائلاً: «في شهادته» لم أشارك في التوقيع عليه لأنني كنت أعتبر أن ظهور اسمي الأجنبي بالرغم من كوني مصري الجنسية يمكن أن يعد بمثابة تدخل أجنبي في مسألة مصرية»^(١٤).

وعلى العنان الذي رشحته الأهرام للسكرتارية العامة كتب يقول: إن هذا غير صحيح «فلو عرف المدعى حدود مهمتي وشيئاً عن مبادئ ما صح له هذا الرجم بالغيب لأن هذا العمل لا يلتئم أياً كان وفي أي دائرة وجدت مع دوائر أعمال الأصلية فما دار لي هذا يوماً ما بخلد ولا عرضه على إنسان ولن يخطر لي أبداً على بال»^(١٥).

بين من إذن انحصر الصراع؟

إن التتبع الدقيق لكتابات قادة الحزب في تلك الأيام يوضح لنا حقيقة مهمة هي أن سلامة موسى كان يريد هذا المنصب لنفسه.

وإن المجموعة الأخرى لم تكن تريده له..

هو يريد المنصب محتجاً بنفوذه الفكري والأدبي وشهرته الواسعة..

وهم لا يريدونه لأنه مجرد فابى ويشعرون بأن تسليم قيادة الحزب له خطر على الحزب وعلى اتجاهاته..

لم يكن الصراع إذن شخصياً؟ بل كان امتداداً للصراع الأيديولوجي الذي اشتعل بين القادة - الذين لا يعرفون شيئاً عن قواعد الانضباط الحزبي - على صفحات الجرائد.

هل القيادة للفابيين والإصلاحيين أم للماركسيين؟

وحاول سلامة موسى أن يفرض نفسه مستخدماً أسلوباً فريداً يستحق التأمل فما أن نشر الأهرام خبره المفاجيء عن مباحثات تأسيس الحزب في ١٦ أغسطس حتى سارع سلامة موسى لينشر في عدد اليوم التالي رسالة بعنوان «الحزب الاشتراكي» يقول فيها «ولما كنت واقفاً على حقيقة الحال أعلن للقراء أن الدكتور العنانى ليس سكرتيراً»^(١٦).

لكن سلامة موسى كان في عجلة من أمره ويريد أن يضع المناوذين أمام الأمر الواقع وانتهاز الفرصة ليصدر في ٢٢ أغسطس «نداء إلى الأمة المصرية» تنشره الأهرام موقعاً باسم سلامة موسى سكرتير الحزب الاشتراكي المصري.

وهذا النداء يستحق التأمل لا لأن سلامة موسى قد وقعه كسكرتير للحزب فقط وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي فعل فيها ذلك..

ولكن لأن سلامة موسى كان يحاول فيه أن يساوم التيار الماركسى وأن يتقرب منه مؤملا أن يقبلوا بذلك وضعه كسكرتير للحزب..

فالداء يناشد الشعب المصرى وجمعيتى الهلال الأحمر والصليب الأحمر جمع تبرعات الشعب الروسى الذى يعانى من المجاعة.. والمهم فى هذا الأمر هو أنه يقول «لقد قضى الشعب الروسى ثلاثة قرون وهو رازح تحت نير الاضطهاد والعبودية فى جهل مطبق وفقير مدقع.. وعندما استيقظ من غفلته وشاء أن يحيا حياة جديدة فاجأته الطبيعة بأفاتها»^(١٧).

ولنقارن هذه الكلمات بكلمات أخرى نشرها سلامة موسى قبل خمسة أيام فقط فى الأهرام يقول فيها «إن البولشفية الروسية قد أخفقت إخفاقا يكاد يكون تاما ونشرت على ربوع البلاد الروسية أولية الخراب والدمار»..

بينما هو الآن ينسب المجاعة إلى سببها الأسمى «الآفات الطبيعية» ويصف الثورة بأنها «استيقاظ للشعب من غفلته ورغبته فى أن يحيا حياة جديدة».. المهم أن المناورة لم تفلح واختارت المجموعة سكرتيرا عاما آخرًا هو محمد عبدالله عنان..

ولعل اختياره كان نوعا من الموازنة بين الاتجاهات المختلفة وإذا كانت عناصر الوسط قد استطاعت أن تحتل هذا المركز مستفيدة من الصراع بين سلامة موسى وبين الشيوعيين فإن هؤلاء الشيوعيين قد تركوا هذه العناصر البرجوازية الصغيرة تتصارع على اللقب بينما تمركزوا هم فى أكثر الأماكن حساسية وأهمية فالشيخ صفوان أبو الفتوح أصبح سكرتيرا عاما لاتحاد نقابات العمال وأنطون مارون مستشارا للاتحاد.

والحقيقة أن نشر الأهرام المفاجئ لخبر محاولات تأسيس الحزب قد أضر هذه المحاولات ضررا بالغا.. فقد فجر الصراع الأيديولوجى على صفحات الجرائد وأوضح للجمهور مدى الخلاف الفكرى بين مؤسسى الحزب.

ولكننا ولكى نكون منصفين نود أن نقول أن الذين انجرفوا إلى هذا التيار كانوا أقلية وكانوا فى الأساس يمثلون الاتجاهات الفكرية التى توشك أن تنهزم بتأسيس الحزب: الغابية (سلامة موسى).. الاتجاه الهيجلى (على العنانى) اشتراكية الدولية الثانية (عبدالله عنان)..

أما الآخرون فلم يشتركوا فى النقاش، ربما لأنهم وجدوا أن الاشتراك فيه ضار بوحدة الحزب الذى يوشك أن يتأسس..

وربما لأنهم كانوا أكثر خبرة بأساليب الصراع الحزبى..

المهم أن أحدا من الماركسيين لم يشترك فى هذا النقاش العلنى.

والوحيد الذى اشترك بكلمة رصينة غاية فى التحديد لم يكتب اسمه واكتفى بأن يسمى

نفسه «اشتراكى صميم».

وبالرغم من كل ذلك، وبالرغم من أن هؤلاء الناس قد صادفتهم مصاعب جمة: مصاعب تتعلق بالأيديولوجية وأخرى تتعلق بالظروف الموضوعية للمجتمع المصرى وثالثة تتعلق بالواقع السياسى للفترة التى بدأوا فيها العمل.. فقد استطاعوا أن يتوصلوا إلى ما يشبه الاتفاق..

وفى ٢٩ أغسطس أصدر الحزب برنامجه الذى سنحاول تقييمه فيما بعد..

لكننا يتعين علينا قبل ذلك أن نشير إلى بعض اللبس الذى أحاط بموضوع البرنامج..

ذلك أن الدراسات التى تتناول هذا الموضوع تشير إلى برنامجين مختلفين تماما دون أن ينتبه الكثيرون إلى اختلافهما التام فى الأهداف والأسلوب والصياغة.

والبرنامج الأول هو الذى نشره شهدى عطية الشافعى فى كتابه «تطور الحركة الوطنية» طبعة الدار المصرية للطباعة والنشر ١٩٥٧ ص ٤٢.

وقد أشار شهدى فى كتابه هذا إلى أن البرنامج قد نشر فى عدد الأهرام الصادر فى

١٤ فبراير ١٩٢١ ونقل عنه ذلك عدد من الكتاب دون تدقيق.

منهم على سبيل المثال عبدالمنعم الغزالى، المرجع السابق ص ٨٧ وقد أورد البعض

فقرات من هذا البرنامج.. دون الإشارة إلى المصدر وإنما اكتفى بالتقرير أنها فقرات من برنامج الحزب^(١٨).

وفيما يلى نص هذا البرنامج: «يعمل الحزب على استقلال وادى النيل بأسره» استقلالا

خاليا من كل شائبة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

أولا:

(١) جلاء الجنود الإنجليز عن مصر والسودان وعدم الاعتراف للغاصب بأى مركز

ممتاز.

(٢) عدم الاعترام بالمعاهدات والاتفاقات التى أجريت خلصة من الشعب وعلى كره منه.

(٣) جعل قناة السويس ملكا للأمة.

٤) تعديل الدستور وقانون الانتخاب حتى تصبح الأمة مصدر السلطة الحقيقية.

٥) إلغاء القوانين الاستثنائية والرجعية كقانون الاجتماع والأحزاب.

ثانيا:

١) الاعتراف بهيئات العمال رسميا وبحقها في الدفاع اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا عن مصالحها.

٢) تنظيم العمال غير المنظمين وضمهم في اتحادات وضم الاتحادات إلى بعضها في اتحاد عام وربطه بالاتحاد العام الدولي.

٣) الدفاع عن قانون ٨ ساعات عمل في اليوم ومساواة العمال المصريين والأجانب العاملين في عمل واحد. وعمل تشريع لحماية العمال المرضى والعاطلين، إلخ..

٤) تأليف تعاونيات للإنتاج والتوزيع.

٥) تمثيل العمال وفقراء الفلاحين تمثيلا صحيحا في البرلمان.

ثالثا:

١) للنساء التمتع بالحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

٢) المطالبة بجعل التعليم إجباريا للجميع بنين وبنات، وأن يكون مجانيا للفقراء مع إصلاح برامج التعليم الحالية.

٣) محاربة الأمية بجميع الوسائل.

رابعا:

١) تنظيم فقراء الفلاحين في نقابات وإيجاد صلات بينها وبين نقابات العمال مع العمل على ربطها باتحادات الفلاحين الدولية.

٢) إلغاء نظام ملكية العزب التي لا تختلف كثيرا عن نظام الإقطاعيات.

٣) إلغاء ديون الفلاحين الذين يملكون أقل من ثلاثين فداناً.

٤) إعفاء الفلاحين الذين يملكون أقل من عشرة أفدنة من الضرائب.

٥) وضع ضرائب على مياه الري للذين يملكون أكثر من ١٠٠ فدان.

٦) إنشاء مصارف تعاونية لصغار الفلاحين.

خامسا:

١) المطالبة بالاعتراف بحكومة الجمهورية الروسية.

٢) العمل على التفريق بين الجرائم السياسية وغيرها أمام المحاكم المصرية والإفراج عن المسجونين السياسيين دون تفرقة.

٣) طلب محاكمة أذناب الاستعمار من كبار المصريين ممن تقع عليهم مسؤولية الإرهاب والاستبداد ومعاونة الأجانب على إخماد نهضة الشعب.

لكن ثمة شيئا لفت نظري وهو أن الأهرام قد نشر أول خبر عن محاولات تأسيس الحزب في ١٦ أغسطس ١٩٢١ وأنه أشار في هذا الخبر إلى «أنه لا شك في أن هذا الحزب سيعلن برنامجه» بما يوحي بأن الحزب لم يكن قبل أغسطس قد نشر برنامجه.

وثانيا: إن الحزب قد نشر بالفعل في أهرام ٢٩ أغسطس وثيقة بعنوان «بيان الحزب الاشتراكي» وهي ما سنناقشه فيما بعد كبرنامج للحزب.

وثالثا فإنه بالبحث في عدد الأهرام الصادر في ١٤ فبراير ١٩٢١ لم نجد به أى إشارة إلى صدور هذا البرنامج.

فما هي حقيقة هذا الأمر إذن.. وما هي هذه الوثيقة التي نشرها شهدى كاملة مشيرا إلى أنها برنامج الحزب..

ذلك أنه بغض النظر عن خطأ تاريخ ١٤ فبراير ١٩٢١ فإن مؤرخا مؤتمنا ودقيقا مثل شهدى لا يمكن أن يكون قد اختلق هذه الوثيقة اختلاقا..

وثمة احتمالان أطرهما للنقاش..

الأول: أن يكون هذا البرنامج هو واحد من المشاريع التي لا بد وأن المجموعات المختلفة التي كونت الحزب قد أعدت كثيرا منها كمحاولات لإقناع الآخرين بها وإصدارها كبرنامج للحزب الجديد.. وهذا احتمال أستبعده.

أما الاحتمال الثاني: - وهو الأرجح - أن يكون البرنامج الذي نشره شهدى هو البرنامج المعدل الذي أصدره الحزب بعد انضمامه للكومنترن.. ولذى يقول لاکور^(١٩): إن الحزب قد أصدره في كراسة صغيرة باللغة العربية واللغة الفرنسية..

لكن لماذا نرجح هذا الاحتمال الثاني؟

أولا: لأن لاکور وهو يناقش هذا البرنامج الجديد الذي قال: إن الحزب أصدره بعد انضمامه للكومنترن يشير إلى الفقرات التي تتعلق بتأميم قناة السويس، وإسقاط ديون الفلاحين الذين تقل ملكياتهم عن ٢٠ فداناً.. وإعفاء الفلاحين الذين يملكون أقل من عشرة أفدنة من الضرائب..

وهذه المطالب كلها واردة فى البرنامج الذى نشره شهدى.. وغير واردة فى برنامج ٢٩ أغسطس ١٩٢١ وهى دليل على جدية الوثيقة التى نشرها شهدى.

ثانيا: أصدر أحد أعضاء الحزب الاشتراكى وهو حسين نامق كتابا بعنوان «خلاصة الاقتصاد» فى أغسطس ١٩٢٢^(٢٠) وقد نشر برنامج الحزب موردا نص برنامج ٢٩ أغسطس ١٩٢١ بما يوحى بأن البرنامج المنشور بكتاب شهدى عطيه قد صدر بعد عام ١٩٢٢.

ثالثا: إن البرنامج يتضمن نصا يقول «عدم الاعتراف بالمعاهدات والاتفاقات التى أبرمت خلصة من الشعب وعلى كره منه».

ولا شك فى أن واضعى البرنامج يقصدون تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ رابعا: البرنامج يطالب «بتعديل الدستور وقانون الانتخاب حتى تصبح الأمة مصدر السلطة الحقيقة».

إن هذا البرنامج موضوع بعد إعلان دستور ١٩ أبريل ١٩٢٣. لكل ذلك فإننا سنرجى محاولة تقويم هذا البرنامج إلى صفحات قادمة ستناقش فيها دور الحزب بعد انضمامه إلى الكومنترن وسوف نعتبر أن الوثيقة المنشورة فى أهرام ٢٩ أغسطس هى وحدها برنامج الحزب الاشتراكى المصرى إلى حين انضمامه للكومنترن. فما هى الوثيقة؟ «بيان الحزب الاشتراكى المصرى».

فى تلك الآونة التى تعصف فيها النظم الرأسمالية الفردية بحياة بنى الإنسان وأرواحهم وعقولهم وجهودهم تبث النظم والمبادئ الاشتراكية فى الأفئدة المعذبة لإنجاد الإنسانية وإغايتها من بطش القوى الظالمة وتحقيق غايات العدالة الطبيعية من تأييد عواطف التآخى والسلام فى المجتمع الإنسانى، والقضاء على آفات المستعمرين المستغلين الذين سلبوا حرية الشعوب والأفراد وسعوا إلى تحقيق رفاهيتهم بالاضطهاد المريع للأمم والمجتمعات المستضعفة وليس أبلغ إيضاحا للمأساة المحزنة التى تمثلها الآن تلك النظم المستبدة من أن أغلب الأمم قد انتهكت حريتها واهتضمت حقوقها دولا استعمارية تسود فيها تلك النظم، وأن الأغلبية الساحقة فى المجتمع الحاضر قد استعبدها أقلية صغيرة متعديّة تستأثر برؤوس الأموال وأرزاق الطبيعة ثمرة كدها وجهادها..

ولقد امتدت يد الاستعمار والأفقيات إلى مصر فاستلبت حريتها عملا بسياسة تلك النظم الرأسمالية سعيا إلى استثمار أرزاقها واستغلال جهود بنيها. وكذلك تسيطر تلك النظم على المجتمع المصرى سيطرة سحقت معها دولة العمل وبطش بها رأس المال بطشا شائنا مرهقا أدى إلى خلق الغنى الفاحش والبأساء البالغة جنبا لجنب واتساع الهوة بين الرفاهية والفاقة.

لذلك كان من الضروري أن يمتد إلى تلك البلاد صراع المبادئ الاشتراكية العادلة للنظم الرأسمالية سعيا إلى تخفيف ظلمها وويلها الفادح. وتحقيقا لتلك الغاية نهض إخوان العمل فى مصر لتأليف الحزب الاشتراكي وهذه هى مبادئه التى سيعمل على تحقيقها:

المبادئ السياسية:

- ١- تحرير مصر من نير الاستعمار وإقصاء ذلك الاستعمار عن وادى النيل بأسره.
- ٢- تأييد حرية الشعوب واختيار المصير، والتأخى مع جميع الأمم على قاعدة المساواة والمنفعة المتبادلة.

٣- محاربة الاستعمار ومقاومته أينما وجد.

٤- مقاومة العسكرية والديكتاتورية وأنظمة التسليح فى البر والبحر والهواء.

٥- مقاومة الاعتداء والحرب الهجومية.

٦- إلغاء المعاهدات السرية.

ومبادئ الحزب الاقتصادية هى:

العمل على إلغاء استغلال جماعة لأخرى ومحو التفريق بين طبقات المجتمع فى الحقوق الطبيعية وإخماد استبداد المستغلين والمضاربين والسعى إلى إنشاء مجتمع اقتصادى يقوم على دعائم المبادئ الاشتراكية الآتية:

١- توحيد الثروة الطبيعية ومصادر الإنتاج العامة لمجموع الأمة.

٢- التوزيع العادل للثمرات على العاملين طبقا لقانون الإنتاج والكفاءة الشخصية.

٣- إخماد المزاخمة الرأسمالية.

أما المبادئ الاجتماعية فهى:

١- اعتبار التعليم حقا شائعا لجميع أفراد الأمة نساءً ورجالا بجعله مجانيا علزما والعمل على نشر التعاليم الديمقراطية الصحيحة بين جميع طبقات الأمة.

٢- العمل على تحسين حال العمال بتحسين الأجور وتقرير المكافآت والمعاشات حين العجز والعطلة القهرية.

٣- العمل على تحرير المرأة الشرقية وتربيتها تربية سليمة منتجة.
وسيعمل الحزب على تحقيق مبادئه المذكورة بالصراع الحزبي والدعوة السلمية مستعينا في ذلك بالعمل على تحقيق ما يأتى:

- ١- إنشاء النقابات الزراعية والناعية الحرة ونقابات الإنتاج والاستهلاك.
- ٢- إعداد نواب اشتراكيين للبرلمان والمجالس النيابية المحلية والبلدية وغيرها.
- ٣- تحرير حقوق النيابة والانتخاب من القيود المالية وغيرها وتعميمها بالنسبة للرجل والمرأة على قدر المستطاع.
- ٤- الدعوة بطريق النشر والخطابة.

هذا ونرجو أن يوفق الحزب إلى العمل على تحقيق تلك الغايات السامية مستعينا بعطف الأمة وحسن ظنها.

على العنانى «سلامة موسى»، محمد عبدالله عنان، حسن العرابى «حاشية» طلبت الانضمام ترسل مؤقتا إلى سكرتير الحزب.
محمد عبدالله عنان - بجينة الناصرية - بالسيدة زينب.

ولسنا بحاجة إلى القول بأن هذا البرنامج هو ثمرة صراع بين القوى المختلفة داخل الحزب الوليد.. وفى ظروف كهذه تصبح الكلمات مطاطة وتحتل معانى كثيرة وتصاغ بحيث تستطيع كل الأطراف أن تفسرها على هواها.

وقد تأثرت صياغة البرنامج بطبيعة الحال بهذه الحملة التى تزعمتها جريدة الأهرام والتى شاركت فيها قوى عديدة: الوفديين.. الحزب الوطنى (فكرى أباطة) وحتى الجناح اليسارى للحزب الوطنى (عصام الدين حفى ناصف).. الجناح اليميني فى الحزب الديمقراطى (حسين هيكل).. رجال الدين (الشيخ التفتازانى).. وآخرين كثيرين.. وتأثرت أيضا بالظروف الموضوعية للمجتمع، والرغبة فى نفى صفة التطرف من الحزب، وبالمعركة الوطنية التى تسيطر على كل الأذهان..

وهكذا خرج البرنامج معتدلا إلى حد ما، مكتفيا بالصياغات العامة مثل إلغاء استغلال جماعة لأخرى ومحو التفريق بين الطبقات فى الحقوق الطبيعية.

وبعبارات غامضة مثل «توحيد الثروة الطبيعية».

وهو يحرص على تحديد أسلوب نضاله «بالصراع الحزبي والدعوة السلمية».

لكنه بالرغم من ذلك كان برنامجا اشتراكيا يعبر عن وجهة نظر اشتراكية واضحة ويتضمن مطالب محددة لعدد من فئات الأمة.. العمال المثقفين، الطلاب، النساء، رجال المهن وإن كان قد أغفل إيراد أى نص يتعلق بالمطالب الفلاحية.

ولسنا نستطيع أن نلوم الحزب الوليد على ذلك.

فالمشكلة الزراعية هي أعقد المشاكل في مصر، وجماهير التحالف (صغار الفلاحين) هم بالرغم من كونهم فقراء ومطحونين إلا أنهم ملاك، سرعان ما تتحرك فيهم نزعة البرجوازي الصغير الحريص على ما يمتلك.

وعلى أية حال فإن هذا البرنامج كان خطوة مهمة في سبيل إرساء التعاليم الاشتراكية في المناخ المصري، لعلها كانت بحاجة إلى بعض النضج، لكن الطريق الوحيد للنضج كان الكفاح اليومي بين الجماهير، جماهير العمال والفلاحين والمثقفين.. وهذا ما قام به الحزب على الفور وبكفاءة ممتازة.

كذلك لا يمكن أن تفوتنا تلك اللمحة العبقرية.. الربط بين الاستعمار والرأسمالية ومحاولة الاستفادة من السخط الوطني ضد الاستعمار لخلق سخط ضد الرأسمالية المصدر الأساسي للاستعمار.

الهوامش

- (١) الأهرام ١٩٢١/٩/٢
- (٢) عبد الرحمن فضل. مخطوط لم ينشر بعنوان «مقدمة لتاريخ الحركة العمالية في مصر» وراجع أيضا مجلة المصور ١٩٩٦/٣/١١ صبرى أبو المجد مقال بعنوان «هذا النجار المصرى تدرس قضيته فى كلية الحقوق».
- (٣) الأهرام ١٩٢٣/٣/٧
- (4) selma botman - the rise and experience of egyptian communiem studies in the comparative communism- vol . xviii, no i. spring 1985- p 49
- (٥) الأهرام ١٩٢١/٨/١٩
- (٦) الأهرام ١٩٢١/٨/١
- (٧) الأهرام ١٩٢١/٨/١٨
- (٨) أمين عز الدين، المنصوري، سيرة مثقف ثورى- المرجع السابق- ص٤٦.
- (٩) الأهرام ١٩٢١/٨/١٩
- (١٠) الأهرام ١٩٢١/٨/١٦٦
- (١١) الأهرام ١٩٢٤/٣/١٢
- (١٢) الأهرام ١٩٢١/٨/١٩
- (١٣) الأهرام ١٩٢١/٨/١٧
- (١٤) الأهرام ١٩٢٤/٣/١١
- (١٥) الأهرام ١٩٢١/٨/١٩
- (١٦) الأهرام ١٩٢١/٨/١٧
- (١٧) الأهرام ١٩٢١/٨/١٨
- (18) - Mona Hammam - women workers and the practice of Freedom as Education the Egyptian Experience - (pw.D. Thesis, University of Kansas' 1977) p.118.
- (١٩) لأكور. الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط - المرجع السابق - ص٣٤.
- (٢٠) حسين نامق. خلاصة الاقتصاد. مطبعة هندية. أغسطس ١٩٢٢ ص١٢١.

الاشتراكية المصرية من الدفاع إلى الهجوم المضاد

لقد شاهدنا كيف تعرض الحزب الاشتراكي منذ البداية - بل وحتى قبل أن يعلن - لهجوم شديد.

ولقد شاهدنا فى صفحات سابقة نماذج من هذه الهجمات ابتداء من سعد زغلول الزعيم المرموق للأمة إلى حسين هيكل أحد قادة الليبرالية المصرية فى ذلك الحين.. إلى قادة الحزب الوطنى.. إلى رجال الدين.. إلخ.

لقد كانت حملة عاتية توضح مدى الوعى الطبقي لدى كبار الملاك والبرجوازيين المصريين الذين تلمسوا الخطر منذ بداياته الأولى وحشدوا كل جهودهم لسحقه. والحقيقة أن الرجعية المصرية قد أثبتت على الدوام حساسية فائقة فى تلمس «المخاطر» الاشتراكية وفى مجابعتها.

ومنذ أن أعلن الأهرام خبر اعتزام الاشتراكيين تأسيس الحزب انهارت فى عديد من الصحف والكتب والمجلات حملات من العداء.

فكرى أباطة «الحزب الوطنى» يكتب قائلا: «إن وظيفة الحزب الاقتصادية تتلخص فى أنه سيكون من الآن فصاعدا «موقعاتى» بين أصحاب الأموال والعمال إلى أن تسنح

الفرصة فيقوم بتوزيع الأملاك على الجميع، فتصبح مالية الأمراء كمالية الفقراء سواء بسواء»^(١).

ويكتب عصام الدين حفنى ناصف (يسار الحزب الوطنى):

(١) إن بلدا كمصر تقف دائما موقف المصارعة لعدوها السياسى الكبير يجب أن تستجمع كل قواها لدفعه وبعد ذلك تتفرغ لبحث النظم الاجتماعية أما أنها تشغل مجهودها بمسائل اجتماعية ثانوية لايمكن أن تنفذ منها إلا ما لم يكن فيه معكسة للاحتلال فتضييع لقوى الأمة.

(٢) حتى لو فرضنا أن القائمين بأمر الاشتراكية يفهمون ما ترمى إليه على حقيقتها فعليهم أن يفهموا أنها تكون مضرّة جدا عند التطبيق، ليس لأن عقلية الأمة غير مستعدة لقبول هذه التعاليم فحسب بل لأنه لم توجد أى طريقة صالحة لبث الدعوة إلى هذا المبدأ فى أوروبا»^(٢).
وتمتد موجة العداء لتشمل الكثيرين.

فيكتب ادراوس حنا مقالا بعنوان «ال كهانة الجديدة» يتهم فيه مؤسسى الحزب بأنهم «دراويش جدد، أنهم يغمضون أعينهم عن كل شيء يبعث على الجد فى الحياة ولا يفتحونها إلا على الرؤى والخيالات.. إنهم كهنة لا يرون فى الأفكار والمبادئ إلا نوعا من الكرب والبطاطس تستطيع أن تزرعه حيث شئت ما داموا قادرين أن يستهوا الألباب وينتفعوا بالغفلة والجهلة، وإلا فأى رجل أمين مدقق يرضى أن يحاج العامل فى الشرق بنظريات كارل ماركس؟»^(٣).

ومرة أخرى يعود اندرواس حنا إلى الهجوم تحت عنوان «عبادة التعاليم» فيقول:
«هذا استغلال محزن للجهلة والغفلة، وما من شرف قط يكسو الذين يعملون على الانتفاع بالنظريات العامة فإن حياة الناس أكبر من النظريات والتعاليم»^(٤).

بل البعض يحاول استعداء السلطات وحثها على الفتك بالحزب مثل أحمد حلمى الذى كتب تحت عنوان «النظام الاجتماعى والخطر الذى يهدده» قائلا:

«فهل تظن الحكومة أن ذلك الحزب لو تألف فعلا وعرف العامة وسوادهم الأعظم من الأميين أن مبادئه مشروعة والحكومة راضية عنه هل يبقى فى القطر حجر على حجر، وهل يستطيع جباة الأموال بعد ذلك جبايتها، وهل يمكن احتفاظ ذوى الأموال بأموالهم عقارا أو نضارا أو يأمن ذو عرض على عرضه؟

إن عزاء الفقراء من ذوى الإيمان.. هو أن الرزق محدود مقسوم من الله.. وأن الصابرين على ما أصابهم فى الحياة الدنيا لهم حياة الدنيا ولهم حياة أخرى طيبة فى جنة عالية قطوفها دانية.. فإذا انهزم الهيكل الدينى من النفوس ولاسيما نفوس العامة كان ذلك نكبة على النظام الاجتماعى المصرى فهل الحكومة راضية عن ذلك؟ فإن كانت راضية فكم من الجند أعدت لحفظ النظام؟ بل ما هى الوسائل والتدابير التى أعدت للمحافظة على نفسها من غوائل الاشتراكيين الذين يقولون بتأليف حزب جديد للاشتراكية فى مصر؟

إننا ندعو رجال الأديان فى مصر أن ينهضوا لمحاربة هذا الخطر فإن ناره ستأكلهم قبل غيرهم وتذهب بأخلاق الشرق الجميلة المؤسسة على القناعة والذمة والعفة ومكارم الأخلاق^(٥).

ولم يتوان رجال الدين عن تلبية هذا النداء فبعد ثلاثة أيام فقط يدخل الشيخ محمد الغنيمى التفتازانى المعركة بمقال غاية فى العنف يصدره بأية من القرآن الكريم «الله فضل بعضكم على بعض فى الرزق».

ويوجه التفتازانى هجومه مباشرة «ما شاء الله» كأننا فرغنا من أمرنا، وكأننا فرغنا من البناء فلم يبق إلا الهدم.

أيها الدعاة إلى الحزب الاشتراكى الجديد، لقد كفى الشرق ما يعانى من ويلات وما يعالجه من نكباته فلا تمزقه بهذا الداء الأوروبى^(٦).

ولم يكتف التفتازانى بذلك فهو يكتب مقالا آخر أكثر عنفا بعنوان «الفتنة نائمة لعل الله من أيقظها» ويصدره بأية قرآنية أخرى «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» وهو يخاطب الاشتراكيين قائلا: «إن كنتم تعطفون على العامل والفقير مما يناله من الفاقة فاطلبوا إنشاء الملاجىء والمستشفيات والمطاعم.

إن كان العامل يشكو جوراً من الرأسماليين فحددوا هذا الجور واطلبوا إلى الهيئة التشريعية سن قانون العمل.

كل هذا معقول.. أما غير المعقول بأن تجيئونا بشرع جديد يقلب أوضاع حياتنا رأساً على عقب ويهز طبقات المجتمع هزات عنيفة ويوشك أن يقوض صرح النظام ويقضى على الدين فى نفوس المتدينين.

ثم يواصل هجومه قائلاً: «أى سادتى الاشتراكيين، بثوا سموم دعوتكم فى بلد غير مصر إن كنتم مولعين بالدعوة لذاتها، وإذا حسن لديكم فلتذهبوا جميعاً (ومع السلامة) وفداً إلى روسيا.. إلى معبودتكم البلشفية.

فإذا أطفقتم أن تسمعوا أنين الجائعين وهم عشرات الملايين وقدرتم على الوقوف فى معبد الاشتراكية العليا المتطرفة فانشروا دعوتكم هناك لتصلحوا ما أفسدت الطفرة من شئونهم»^(٧).
ويدخل الملك ميدان الهجوم أيضاً محاولين استئثار كل المالكين على الحكومة لأنها تسمح لهؤلاء الاشتراكيين بالنشاط.

وقبل إعلان الحزب بأيام وتحت عنوان «هل الاشتراكية مرغوب فيها» يكتب على متولى مزارع وصاحب أطيان قائلاً: إن الاشتراكية «ما هى إلا أمور ضد الدين والأخلاق وسرقة لمال الغير وليس لها نتيجة إلا قتل الأمة بأسرها وضياع الأديان والأخلاق كما هو حاصل فعلاً فى روسيا..

قالوا: إن العمال والفلاحين بحاجة إلى اشتراكية علمية لحمايتهم فى دائرة القانون ونحن معهم فى وجوب الحماية ولكننا مختلفون عنهم فى طرق هذه الحماية.. إن حماية العمال لا تكون أبداً بأى اشتراكية ولا بأى أحزاب بل تكون بتعليمهم الاقتصاد ومضار الخمر ومضار الحشيش وإرشادهم إلى الدين للابتعاد عن المحرمات فتتوفر لهم الأرزاق. ليعلم الجميع أن مصلحة هذا البلد وحكومته لا تسمح لكائن مهما كان وتحت أى ستار كان أن يلعب بالنار ولنا بحق أن نطلق من الحكومة عاجلاً منع الحزب المزمع تأليفه قبل انتشاره فالوقاية خير من العلاج»^(٨).

بل إن هذا الهجوم لم يقتصر على صفحات الجرائد فقد امتد إلى حد استصدار فتاوى دينية بتحريم الاشتراكية مثل فتوى شيخ إسلام الأستانة التى قال فيها «يشتمل الدين الإسلامى من الأحكام الأساسية ما يناقض جميع المسالك الاشتراكية»^(٩).

وفتوى أخرى أصدرها مفتى الديار المصرية الشيخ محمد بخيت - بناء على طلب مراسل جريدة التايمس الإنجليزية - «إن طريقة جماعة البلشفية طريقة تهدم الشرائع السماوية وعلى الأخص الشريعة الإسلامية»^(١٠).

وسلسلة أخرى من الكتب والافتراءات، والالتهام بأن هذه الدعوة ينشرها عملاء قادمون من روسيا.. والنماذج فى هذا كثيرة جداً لكننا سنكتفى بواحد منها لعله يقدم صورة عن

المبالغات والافتراءات التي حشدها دعاة العداة للاشتراكية.. ولنتأمل هذه الفقرة من كتاب صدر فى هذه الأثناء مترجما عن اللغة الفرنسية..^(١١)

«أعرف فى هذا الشأن معلومات مأخوذة من مصدر ثقة.. حاولت البلشفية أن تنفذ إلى مصر لأول مرة عام ١٩٢١ عمالا من أنقرة موفدين من رسل الشعب الروسى أو من الكمالين لنشر إنجيل الاشتراكية وغرضهم إقامة العقبات فى سبيل الإنجليز المسؤولين عن اليونان وكل هؤلاء العمال من يهود الأناضول يعمل فريق منهم فى المدن وفريق فى القرى.. ففى المدن تجرى مفاوضة نقابات العمال ونقابات عمال السكة الحديدية والترام وتحريضهم ضد المسيطرين عليهم وأرباب الأموال وإقناعهم بأن سيادة الرعاى وهى وحدها الكفيلة بتحقيق أمانى الشعوب..»

وفى القرى يخترق الرسل الحقوق أبان الحصاد يقولون الفلاحين إنه ليس من العدل أن غنيا كبيرا يملك ألف فدان بينما الفقراء لا يملكون شيئا..

فكانت هذه العبارات الساذجة عن الاشتراكية تغرى.. وقد أغرت فعلا بعض الفلاحين.. وهكذا استمر الهجوم عنيفا مقدما نموذجا فريدا للوعى الطبقي المبكر لبرجوازي مصر وكبار ملاكها، لقد تحسسوا رقابهم حتى قبل أن يعلن الحزب..

وبدأوا فى شن حملة ظالمة وعنيفة مستخدمين منطلقات غاية فى التأثير والفعالية..

– الحزب يهدد وحدة الأمة التى يتعين أن تواجه الاستعمار متحدة.

– الاشتراكية عندما طبقت فى روسيا جرت إليها المجاعة والخراب.

– الاشتراكية ضد الدين.

إننى أشفق على هؤلاء الدعاة الأول للاشتراكية الذين واجهوا هذا الإعصار ببسالة نادرة.. ولقد كان إعصارا حقيقيا كفيلا باقتلاع هذا النبات الحديث الغرس خاصة وأن الإعصار قد فاجأهم وهم مختلفون، مشتتون، غير مستعدين للمعركة.

ولكنهم ومع ذلك خاضوا معركة شجاعة تكلت بالنصر.

وعلى النطاق الأيديولوجى – أو بالدقة على نطاق المعركة الكلامية فى الصحف – انبرى بعض أعضاء الحزب يفندون افتراءات أعدائهم.. مهاجمين الاستغلال والظلم..

فيكتب عبدالله عنان «وليس أبلغ أيضا للمأساة المحزنة التى تمثلها الآن النظم الفردية من أن الأغلبية الساحقة فى المجتمع الحاضر قد جردت من الملكية وأن طائفة صغيرة

تستأثر بنعيم الملكية الشخصية فى حين أن السواد الأعظم من هذه الطائفة غارقى فى تحقيق شهوته السافلة لا يسدى للمجتمع عملا ما».

ويعلن عنان بصراحة «أنا أقرر أن استبداد رأس المال هنا - فى مصر - شائن بالغ حد الإرهاق والقتل وأن العامل مهيض مسلوب، وأن استئثار طائفة برأس المال هنا يقترن به طغيان فادح يوضحه لك عسف أصحاب الضياع بالفلاح البائس التعس»^(١٢).

ويتقدم اشتراكى آخر هو حسن محيسن - دبلوم التجارة العليا - محاولا أن يوضح العلاقة بين المعركة الوطنية والمعركة الطبقة مبينا أنه لا تناقض بينهما وأن تأسيس الحزب مفيد للفضيحة الوطنية فيقول «نحن نطالب بحقوق مهضومة مغتصبة فأما السياسية منها فنحن نطلبها من خصمنا الإنجليزى وأما الاقتصادية فمن خصمنا صاحب المال أجنبيا كان أو مصريا فلينبصر لنا نصراء الحق والعدالة، وليجمع العمال صفوفهم تحت راية الحزب الاشتراكى ليصلح ما أفسدته أيدى الزمان القديم والقرون الوسطى المظلمة»^(١٣).

ويطرح الاشتراكيون على الأمة السؤال الثانى «من الذى يمزق وحدة الأمة.. نحن أم الرأسماليون؟...».

ويوجه أحد الكوادر الاشتراكية العمالية «أديب قشعمى» سكرتير نقابة عمال النخان والسجاير «نداء إلى رأى العام المصرى» يقول فيه:

«باسم الوطن العزيز واتحادكم المfidى جئنا نستنجد بكم.. هل من الوطنية الشريفة أو من العدالة أن تتكدس الأموال الهائلة فى خزائن أصحاب الماكينات فى حين أن العمال لا يجدون القوت الضرورى مع العلم بأنهم هم الذين شيدوا تلك المعامل الضخمة بما استنزف من دمائهم الزكية وبما اغتصب من حقوقهم المقدسة..

فهل يوافق الشعب المصرى على مثل هذا العمل الوحشى والبربرية الفظيعة كلا ثم كلا.. إن مثل هذه المظالم لا تتفق مع الشمهمة والمروءة ولا شك عندنا فى أنكم ستهبون لنصرة الضعفاء وتطعنون الظلم طعنة وطنية نجلاء...»^(١٤)

وهكذا يقدم الاشتراكيون المصريون فهما جديدا لمعنى الوطنية، وطريقا جديدا لتوحيد الأمة.. ولاشك أن كلمات أديب قشعمى لم تكن لتمر بغير أثر..

فإذا كان الرأسماليون يريدون حقا وحدة الأمة ضد المحتل فليتنازلوا قليلا عن جشعهم وظلمهم، إنها صيحة معقولة ومترنة وقادرة على أن تكسب الرأى العام الذى وجهت إليه.

بل إن الاشتراكيين لم يكتفوا بالرد على صفحات الجرائد ولا بتوجيه النداءات إلى الرأي العام وبدأوا فى حملة أيديولوجية لإدانة النظام الرأسمالى ولشرح فكرة الاشتراكية ويصدر أحدهم - حسين نامق - دبلوم من جامعة أكسفورد - كتابا بعنوان «خلاصة الاقتصاد» وهو كتاب جيد يبسط حقائق علم الاقتصاد السياسى ويقدمها فى صورة أسئلة وأجوبة بحيث يمكن للقارئ أن يفهم كثيرا من القضايا المعقدة..(*)

وعن طريق الأسئلة والإجابات يشرح حسين نامق فكرة تطور المجتمع، ونشوء الملكية الخاصة وحتمية التوصل إلى الاشتراكية.

ويفسر كلمات غامضة - على المجتمع فى ذلك الحين - مثل القيمة وفائض القيمة والريع والاحتكار.. إلخ.

وبغض النظر عن بعض الأخطاء النظرية التى وقع فيها المؤلف متأثرا بأفكار الدولية الثانية فلقد كان الكتاب نموذجا لشرح الفكر الاشتراكى وإدانة النظم الرأسمالية.

وهكذا لم يبق أمام أعداء الاشتراكية سوى التحصن خلف ادعائهم أن الاشتراكية ضد الدين..

والحقيقة أن الحزب الاشتراكى المصرى قد اتخذ موقفا جيدا من قضية الدين ولاشك أن وجود عدد من رجال الدين فى صفوفه أمثال الشيخ صفوان والشيخ عبداللطيف بخيت قد لعب دورا أساسيا فى دفع الحزب إلى تكشف الجوانب التقدمية فى الدين الإسلامى واستخدامها سلاحا ضد أعداء الاشتراكية.

لقد تفادى الاشتراكيون المصريون الأخطاء القاتلة التى وقع فيها شبلى شميل وغيره وأعلنوا أن الدين معهم وإلى صفهم.. إلى صف الضعفاء والكادحين وليس إلى صف أعداء الإنسان..

ويسأل حسين نامق فى كتابه «ما علاقة الاشتراكية بالإسلام؟» ويجيب «أساس الاشتراكية مواساة الفقراء والمساواة فى الحقوق، والدين الإسلامى يأمر بالزكاة وينهى عن المنكر ويدعو إلى الألفة بين جميع الطبقات»^(١٥).

ويقول حسن محيسن فى مقاله «الاشتراكية تطلب المساواة بين طبقات البشر وإصلاح المجموع وإزالة مساوئ النظام الاجتماعى وحماية العامل من تحكم صاحب العمل وهذه مبادئ تتفق مع الإنسانية وروح الدين».

بل إن عددا من غير أعضاء الحزب يتقدم ليخوض هذه المعركة..

فنفقولا حداد يوجه رسالة إلى الشيخ التفتازانى على صفحات الأهرام يقول فيها:

«الاشتراكية عقيدة اجتماعية لا دينية ولا شأن لها بالدين، إلا أنها أكثر انطباقا على الأديان السائدة من سائر الأنظمة الاجتماعية الغابرة والحاضرة»^(١٦).

ويرد عزيز ميرهم على الشيخ التفتازانى أيضا قائلا: «لا نظن أن التعصب للملكية الفردية يصل بإنسان فيدعى بأنها ركن من أركان الدين، لأن الخضيلة وتهذيب النفس وهما أساس الدين يمكن تحقيقها على السواء فى نظام الملكية الفردية وفى نظام الملكية الشيوعية، فسلح مخالفة الدين مردود على القوم الذين يريدون الاحتفاظ بالأموال المكتسبة ظلما والتخلص من واجبهم الاجتماعى والإنسانى فهم بذلك يحدون عن الدين وينكرون مبادئه السامية»^(١٧).

لكن القول الفصل جاء من أحد كوادى الحزب من رجال الدين.. الشيخ عبداللطيف بخيت - بمدرسة القضاء الشرعى - الذى كتب تحت عنوان «الاشتراكية والدين» قائلا: «كثرت أراجيف أعداء الاشتراكية وسلخوا سبيلا يظنونه أكثر تأثير من غيره وهو تبغيضها للناس عن طريق الدين.. والذى تعجب له هو سكوت أهل الدين العميق وكأن المسألة لا تعنيهم إلا إذا قدمت لهم فتوى رسمية.. وبصفتى فى مدرسة دينية عالية أتحدى المدعين مخالفة الاشتراكية للدين بالإتيان بآية أو حديث يتعارض مع الاشتراكية بل على العكس من ذلك نجد روح القرآن والسنة تتمشى مع الاشتراكية كقوله تعالى «عبس وتولى أن جاءه الأعمى» «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ولم يقل أغناكم.. والحديث القدسى «عبدى ولو أطعنتى لأدخلتك الجنة ولو كنت عبدا حبشيا ولو عصيتنى لأدخلتك النار ولو كنت شريفا قرشيا».

فاله لم يعتبر الجاه والمال وإنما اعتبر العمل فقط..

ولما فتح عمرو بن العاص مصر وزع أرضها على الجند وغيرهم حسب ما يرى ولم يجد فى الدين ما يمنعه»^(١٨).

ولم يقبل الشيخ التفتازانى التحدى فصمت ولم يجب.

وهكذا كان تصدى الحزب للحملة الدعائية الموجهة ضده تصديا نكيا وقويا إلى الحد الذى أسكت معارضيه والتقط منهم المبادرة ثم شرع فى الهجوم عليهم من نفس المنطلقات التى حاولوا استخدامها ضده..

الوحدة الوطنية.. الدين.. إلخ.

ولقد كانت نتيجة هذه المعركة الفكرية نصراً مؤزراً للاشتراكيين ودليلاً على قدراتهم الفكرية وعلى شجاعتهم فى التصدى لخصومهم..

ولقد كانت أيام ١٠، ١٢، ١٣ سبتمبر ١٩٢١ هى قمة الهجوم المضاد الذى رتبوه ترتيباً ذكياً، حينما استخدم الاشتراكيون الدين سلاحاً فى الهجوم على خصومهم ولم يستطع الشيخ التفتازانى ولا غيره أن يردوا.

وهنا أشهر أعداء الاشتراكية إفلاسهم وأعلنوا صراحة انسحابهم من الميدان محذرين جريدة الأهرام من أن الاستمرار فى هذه المعركة التى بدأوها لن يفيد سوى الاشتراكيين ويتطوع بهذا التحذير «اندرأوس حنا» الذى نشر سلسلة من المقالات ضد الاشتراكية فيكتب رسالة إلى الأهرام يقول فيها «اسمحوا لى أن أشكو من الطريقة التى تتبعونها فى الكتابة عما يسمونه الاشتراكية والديمقراطية فى مصر فإنكم بعد كلمتكم الأولى عنها تركتم طريقة النشر غير متعادلة ولكم أن تجمعوا المقالات والبيانات التى أذاعها هؤلاء الدعاة الجدد وتجمعوا معها المقالات التى نشرت كردود عليها فينبجلى لكم أنكم كنتم مشجعين لنشر هذه الدعوة». ثم يقول «إن الاشتراكيين فى هذه المعركة لا يخسرون شيئاً لأنهم لا يملكون شيئاً»^(١٩).

ولقد كان صوت التحذير الذى رفعه اندراوس حنا كافياً لإيقاظ الأهرام وغيره من المنابر التى تعرضت للهجوم على الاشتراكية.. فتوقفت هذه المعركة الكلامية حتى لايتاح للاشتراكيين مزيد من الانتصار..

إن هذا التراجع من جانب القوى المعادية للاشتراكية يستحق التأمل، فهو دليل على عمق التأثير الذى استطاعت الأفكار الاشتراكية أن تمارسه على جماهير الشعب..

وهو دليل أيضاً عن أن الحزب الوليد كان من القوة بحيث استطاع أن يلزم أعداءه الحائط وأن يجبرهم على الانسحاب من المعركة. ولكن الحزب لم يكتف بالمعركة الكلامية فلقد كان يسرع.. وكأنه يسابق الزمن فى بناء قواعد قوية له فى أماكن عديدة..

والحقيقة أن هناك محاولة متعمدة للتهوين من قيمة النشاط الذى بذله الحزب الاشتراكى وقد تزعم هذه الحملة لأكور الذى حاول قدر استطاعته أن يبالغ فى التقليل من أثر الحزب وفعاليته ولما كانت كتب «لاكور» تعد بالنسبة للكثيرين مراجع أساسية فى تاريخ

الحركة الشيوعية والاشتراكية فى الشرق الأوسط فسوف نحاول هنا أن نتأمل ما أورده لاكور.

يقول لاكور: «إن القليلين من أعضاء الحزب كانوا يتحدثون العربية أو يكتبونها وقليلين جدا هم الذين يعرفون كيف يقيمون علاقات بالعامل الذى هو فى العادة فلاح يقوم بأعمال موسمية فى المدينة».

ويكتب فى كتاب آخر معلقا على تقرير قدم للكونغرس يقول: إن ٨٠٪ من أعضاء الحزب من المصريين و ٧٠٪ منهم عمال «وقد جاء هذا التقدير فى وقت لم يكن فيه عدد أعضاء الحزب يتجاوز عدد أصابع اليدين بل ربما لم يكن يضم آنذاك فى عضويته أى عامل» (٢٠).

واعتقد أننا لسنا بحاجة إلى التأكيد بأن هذه التقديرات خاطئة تماما..

فأولا كان لاكور يتجاهل وجود البروليتاريا المصرية، ويقول إن العامل هو فى العادة فلاح يقوم بأعمال موسمية فى المدينة وهذا غير صحيح.

ثانيا: إن الصفحات السابقة والصفحات التالية قد شهدت وستشهد سيلا لا ينقطع من الأسماء المصرية التى لعبت دورا قياديا فى الحزب الاشتراكي.

ثالثا: ليس من المعقول أن حزبا لايزيد عدد أعضائه على أصابع اليدين يقيم كل هذه الضجة.. وعلى أية حال فإن الأهرام يقول: إن «الدفاتر التى أخذها البوليس من نادى الحزب عند إقفال المكان - عند حملة القبض الأولى على الأعضاء فى ١٨ مارس ١٩٢٣ - أثبتت أن المنتهين إلى الحزب والمنضوين إلى الراية الحمراء من الوطنيين يبلغ عددهم ١٥٠٠ شخص» (٢١).

وهذا عدد كبير بغير شك فى ظل الظروف السائدة فى ذلك الحين..

والآن لنترك الادعاءات الباطلة لوالتر لاكور جانبا ولنحاول أن نلقى بعض الضوء على نشاط الحزب فى الفترة الأولى من تكوينه.

أولا - فيما يتعلق بالقضية الوطنية:

لقد فهم الحزب فهما صحيحا طبيعة المعركة التى تخوضها مصر ضد الاحتلال واتخذ موقفا صحيحا من حزب الوفد وزعامة سعد زغلول باعتبارها زعامة وطنية معادية للاستعمار.. كذلك دعا الحزب إلى تكوين جبهة وطنية شاملة تسعى للاستقلال بالإضافة إلى استمراره فى كشف القوى الموالية للاحتلال.

وفى ١٤ ديسمبر ١٩٢١ أصدر الحزب «بياناً إلى الأمة» أعلن فيه سروره بانقطاع المفاوضات مع الإنجليز وطالب فيه «الجماعات الموصوفة بالأعيان والملقبة بأصحاب المصالح أن يترفعوا عن وضع أنفسهم ستاراً للإجرام الوزارى، وحماية لما يرتكبه الوزراء من إهمال حقوق الأمة...».

ثم حدد الحزب فى هذا البيان برنامجاً من ثلاث نقاط لتوحيد النضال ضد الاستعمار.. وهذه النقاط الثلاث هى:

١- تضامن الصحافة على ترك مسائل الشقاق، والاقتصار على ما فيه خير البلاد.
٢- توحيد السياسة الوطنية بالأى يقبل مصرى تأليف وزارة تعمل بأى شكل تحت هيئة مشروع كيرزن.

٣- الاتفاق على تعيين خطة الجهاد الوطنى المشروع تحت لواء وكيل الأمة وزعيمها المخلص الأمين سعد باشا زغلول^(٢٢).

وفى مناسبة أخرى ساند الحزب الاتجاه الوفدى صراحة، فعندما طرحت للنقاش مسألة اشتراك مصر فى مؤتمر لوزان أم لا.. وهل تمثل بوفد حكومى - يمثل الحكومة العميلة - أم بوفد شعبى يمثل الأمة؟..

اجتمعت اللجنة المركزية للحزب فى ١٧ أكتوبر ١٩٢١ وأصدرت بياناً جاء فيه:
«لما كانت مهمة المؤتمر الذى سيعقد قريباً تسوية مشاكل الشرق فإن الشعب المصرى لا يستطيع أن يقف بعيداً يراقب غيره من الدول تتصرف كيفما تشاء فى مصيره فاستقلال مصر وحياد قناة السويس مسألتان دوليتان يجب أن تكونا موضوع معاهدة دولية لا أن تتركاً لواحدة من الدول تهيمن عليها كيفما تملى عليها مطامعها الاستعمارية..»

لذلك فالحزب الاشتراكى المصرى بصفته الترجمان الصادق لأمانى الطبقة العاملة فى مصر عمالها وفلاحها يرى وجوب تمثيل مصر رسمياً فى هذا المؤتمر ولا يقر أى مندوب عنها إلا إذا كان حائزاً لثقة الشعب التامة وواجب الحزب أن يحذر الأمة من الوقوع فى الأحبولة التى نصبها الإنجليز فتخرج إنجلترا من المؤتمر وقد كسبت صوت مصر إلى جانبها.

ويعتمد الشعب المصرى على أن تركيا ذات المصلحة الكبرى فى مسائل الشرق والدول الأوروبية الديمقراطية وعلى الأخص الجمهورية الاشتراكية الروسية الحامية الأمانة للشعوب الصغيرة تؤيد مطالبنا الشرعية^(٢٣).

كذلك كان الحزب الاشتراكي فى مقدمة من أعلنوا وقوفهم ضد أسلوب الاغتيال السياسى.

ثانيا - الحزب والطبقة العاملة:

منذ البداية أدرك الحزب أهمية خلق مراكز له وسط الطبقة العاملة وتشكيلاتها النقابية، وقد رأينا كيف كان العمل النقابى سبيلا إلى انضمام عدد من القادة العمال إلى صفوف الحزب.

بل إن بعض الباحثين يؤكد أن الحزب كان يعتبر أن تعميق علاقاته بالطبقة العاملة يمكنه أن يخلق عناصر دفع حقيقية فى الحركة الوطنية ذاتها، وذلك «من خلال التمرکز فى صفوف البروليتاريا المنظمة، وبناء اتحاد نقابات العمال وتوجيه وقيادة نضال الطبقة العاملة»^(٢٤).

والحقيقة أن التيار الماركسى فى الحزب قد اهتم بالعمل وسط الطبقة العاملة كسبيل لتغيير المحتوى الفكرى والطبقى للحزب والتخلص من نفوذ العناصر البرجوازية الصغيرة على القيادة.

وهكذا انطلقت الكوادر الأساسية.. الشيخ صفوان - مارون - روزنتال - شعبان حافظ - الشحات أحمد - مصطفى أبو هرجة للعمل وسط الطبقة العاملة سواء فى الإسكندرية حيث كانت التركزات العمالية الأساسية أو فى المدن الصناعية الأخرى مثل المحلة الكبرى وكانت للحزب مراكز قوية.

ويؤكد مراسل الأهرام فى الإسكندرية أن الحزب كان له نفوذ كبير فى نقابات عديدة مثل: نقابة عمال الترام الحمراء - نقابة الصنائع - نقابة عامل الأرز - نقابة العمال المختلطة - نقابة الصناعة اليدوية بالمحلة - ونقابة فى الزقازيق. ويقول: إن المعلومات التى حصل عليها من أوثق المصادر تؤكد أن عدد المنضمين إلى اتحاد العمال المتأثر بنفوذ الحزب يبلغ ١٥ أو ٢٠ ألفا.

ويقول: إنه قد علم بطريق الصدفة أن أعضاء فرع المحلة يبلغ عددهم نحو ٦٠ عضوا^(٢٥).

كذلك سعى الحزب إلى كسب خريجي المدارس الصناعية وكانت هذه خطوة غاية فى الذكاء، فهؤلاء هم أكثر العاملين استنارة ووعيا.

وقام أحد أعضاء الحزب وهو «إبراهيم الدسوقي رحى» بتأسيس نقابة لخريجي المدارس الصناعية ووجه نداءً إلى زملائه تحت عنوان «دعوة عامة إلى خريجي المدارس الصناعية» قال فيه: «نحن العمال الحائزين على الشهادات الفنية من المدارس الصناعية. يجب أن نقود العمال البسطاء إلى الطريق القويم، فلذا أدعوكم جميعاً للانضمام إلى عضوية الحزب الاشتراكي المصري في أول فرصة ممكنة لتكون يداً واحدة كعامل واحد. ويد الله مع الجماعة»^(٢٦).

كذلك اهتم الحزب بالعمل وسط عمال الشحن والتفريغ في الموانئ المختلفة.. وفي ٢١ أكتوبر ١٩٢١ وجه إبراهيم الدسوقي رحى رسالة أخرى إلى الأهرام يقول فيها: إن انضمام عمال الشحن والتفريغ إلى الحزب الاشتراكي سوف يزيده قوة. كذلك قرر الحزب فتح مدارس ليلية ومدارس نهارية لتعليم أبناء العمال. وفي ٢٦ يوليو سنة ١٩٢٢ أصدر الحزب بياناً قال فيه «قرر الحزب الاشتراكي المصري في جلسته المنعقدة أمس فتح عدة مدارس مجانية في أنحاء مصر لتعليم العمال في الليل وأخرى لتهديب أبنائهم في النهار.

وسيحترف بافتتاح أول مدرسة لهذا الغرض في ١٥ أغسطس ١٩٢٢ بحى كرموز وسيفتتح غيرها في أحياء الثغر الوطنية.. والحزب يرجو العمال الراغبين في الالتحاق بهذه المدرسة وبغيرها أن يسارعوا إلى تقييد أسمائهم في سكرتاريته بالإسكندرية بشارع نوبار رقم ١٨ ليتمكن من معرفة العدد اللازم وضبطه.

وقد ورد اليوم على الحزب جواب من شعبته في المنصورة يفيد أنها قد حذت حذو المركز الرئيسي وفتحت مدرسة للعمال هناك وسيقتدى باقي الشعب هذا الأثر الطيب في القريب العاجل»^(٢٧).

والحقيقة أن الحزب قد لعب دوراً بالغ الأهمية وسط الطبقة العاملة مستفيداً من الانتفاضة الثورية التي تموج بها جموع العمال، حيث كانت أحداث ١٩١٩ المجيدة والدور البطولي الذي لعبه العمال فيها لاتزال ماثلة في الأذهان وحيث تحولت الإضرابات السياسية إلى حركة نشيطة للمطالبة بحقوق اقتصادية، وحيث أدى فشل القيادة البرجوازية والإقطاعية للثورة في تبني أية شعارات اجتماعية إلى تحرك العمال لكي ينالوا حقوقهم معتمدين على أنفسهم.

ويشير التقرير الذى أصدرته لجنة التوفيق الرسمية فى ٢١ يوليو ١٩٢٢ حول نشاطها فى معالجة مشاكل العمال خلال الستة أشهر التى انتهت فى ٣١ مارس ١٩٢٢ إلى أن حوادث الاعتصاب قد ازدادت بشكل كبير منذ يوليو ١٩٢١ وأنه فى تلك الفترة حدثت ٨١ حادثة من حوادث الاعتصاب بين ٥٠ شركة ومعملا وكان أطول هذه الاعتصابات اعتصاب عمال تكرير البترول فى السويس والذى استمر ١١٣ يوما ثم اعتصاب عمال ترام القاهرة وقد استمر ١٠٢ يوماً واعتصاب عمال العروة الوثقى بالإسكندرية واستمر ٣١ يوما واعتصاب شركة ملابس لومبتون بمصر واستمر ٢١ يوما، واعتصاب شركة الهندسة بالإسكندرية واستمر ١٩ يوما.. واعتصاب حلاجى القطن بدمنهوهر واستمر ١٦ يوما وحلاجى القطن بزفتى واستمر ١٠ أيام.

كذلك أحصت اللجنة ما يوجد فى مصر من نقابات العمال وجمعياتهم المنظمة فوجدت أنه يوجد فى القاهرة ٣٨ نقابة والإسكندرية ٣٢ وفى منطقة القنال ١٨ وفى طنطا ٤ ونقابة فى دمنهور وأخرى فى زفتى^(٢٨).

ولقد لعب الحزب دورا قياديا فى كثير من هذه الإضرابات التى أدت إلى تحقيق مكاسب مهمة للعمال.. إلى الحد الذى دفع مراسل الأهرام بالإسكندرية إلى الشكوى مما حققه العمال من مكاسب فقال تحت عنوان «هوى الاشتراكية»: «لقد أرانا الاختبار فى الإسكندرية - مدينة التجارة والصناعة والعمال- أن العمال المستنيرين قليلا فيها غالبوا أصحاب الأعمال فغلبوهم فى مواقف عديدة وأجبروهم على رفع أجورهم من ١٠ قرش إلى ٣٠ قرشا ومن ٢٠ إلى ٦٠ و ٨٠ قرشا. ويؤكد الدكتور غرانفيل أن عمال مصانع السجاير اضطر مخدمهم إلى زيادة أجورهم أثناء الحرب فى بعض الحالات إلى ١٠٠ قرش للعامل فى اليوم الواحد.

وقد رأينا شركة الغاز تخضع لمطالب عمالها وشركة الترام تجيب مطالب عمالها^(٢٩). والذى يلفت النظر هنا هو أن المراسل يكتب هذه الكلمات تحت عنوان «هوى الاشتراكية» وكأنه يريد أن ينسب إلى الاشتراكية هذا النشاط.

ويضع تقرير لجنة التوفيق الرسمية سابق الذكر جدولا للأجور يوضح أن الأجور قد زادت عما كانت عليه فى ١٩١٣ بنسبة ٨٥٪ وأن معظم هذه الزيادة قد تحقق فى عامى ١٩٢٠ و ١٩٢١.

ولا شك أن هذا النجاح الذى حققته حركة النضال العمالى والنقابى قد تأثر إلى حد كبير بوجود حزب نشط كالحزب الاشتراكى، كما أنه لا بد وأن هذا النجاح قد أثر أيضا فى نشاط الحزب وفى الإقبال عليه.. لقد كانت الحركة العمالية تخوض معركة نشيطة وعنيفة وكان الحزب الاشتراكى هو الحزب الوحيد الذى ساندتها بكل ما يستطيع من قوة وكان المحامون من أعضاء الحزب هم مستشارو هذه النقابات، كذلك بذلت الكوادر الحزبية دورا هاما فى تنظيم هذه الإضرابات وتنظيم ما يسمى «بصناديق المعونة الحمراء» لجمع التبرعات للعمال المضربين.. وكان طبيعيا بعد كل ذلك أن يقبل الكثيرون من العمال للانضمام تحت راية الحزب..

وبسرعة - تستحق التقدير والإعجاب - استفادت قيادة الحزب من هذه الخطوة وضمت إلى اللجنة المركزية عددا من العمال النشيطين مثل عبد الحميد أحمد ممثلا لفرع الحزب فى المحلة، والشحات إبراهيم ممثلا لفرع الحزب فى سمند، وبيومى الباسوسى ممثلا لفرع الحزب فى العطف ومصطفى أبو هرجة نائب سكرتير الاتحاد العام للنقابات^(٢٠).
ثالثا - الحزب.. والفلاحون:

والطريق إلى إقامة مراكز حزبية وسط الريف صعب للغاية، وخصوصا فى ظل الغموض الذى أحاط بموقف الحزب من المشكلة الزراعية فى البداية وفى ظل الدعاية المركزة التى شنّها رجال الدين ضد الحزب، وفى ظل زعامة سعد زغلول. ومع ذلك حاول الحزب أن يصل إلى الريف مستفيدا من كوادره العمالية والعمال عادة قادمون من الريف..

وهكذا تمكن الحزب من إقامة فروع فى المدن الإقليمية مثل دمنهور - المنصورة - بورسعيد - الزقازيق - المحلة - أبوكبير - شبين الكوم - وفى عدد من المراكز التى هى فى الواقع قرى كبيرة مثل سمند - العطف وغيرهما..
والحقيقة التى تستحق التأمل أن بلدا مثل سمند يعتبر أحد المصادر الأساسية للقوى العاملة للمركز الصناعى الهام فى المحلة الكبرى..(*)

ومن هنا فإن النشاط وسط العمال كان يؤدى إلى اقتراب الحزب من الفلاحين كذلك فإن النشاط وسط الفلاحين كان يمنح الحزب بعض النفوذ فى مراكز تصدير العمال إلى المدن..

غير أننا لا يمكننا أن نبالغ في الدور الذى لعبه الحزب وسط الفلاحين مكتفين بالقول بأنه فى هذه المرحلة كان قد خطا الخطوة الأولى الضرورية وهى إقامة مراكز نشطة فى المدن الريفية التى تعتبر بالضرورة معبرا إلى الريف الحقيقى..

ومع ذلك فإن عبارة وردت فى رسالة نشرها أحد الملوك فى الأهرام يمكنها أن تثير الاهتمام فالمزارع على متولى يقول «إن الفلاح قانع وصبور.. إلا أن بعض أبناء الفلاحين من خريجى الكتاتيب قد هجروا الزراعة وأصيبوا بوباء المدن.. وأخذوا يذيعون فى طول البلاد وعرضها أن البلشفية على أبواب مصر، ثم شرحوها للفلاحين على غير الحقيقة وأصبح الشيخ العجوز والشاب يقولان إذا خلاوا لانفسهما متى تكون «القسمه» (يقصد تقسيم الأرض) و«المساواة»^(٢١).

والذى لاشك فيه أن الفلاح المصرى الذى ظل آلاف السنين يحلم بملكية قطعة من الأرض قد تأثر إلى حد كبير بتلك الأخبار التى تأتى من بعيد عن هؤلاء البلشفة الذين يصادرون أراضي كبار الملوك ويوزعونها على الفلاحين.

رابعا - الحزب فى مجال النشاط العام:

وفى عديد من المجالات لعب الحزب دورا لا بأس به.. سواء فى الدعوة للفكر الاشتراكى أو فى إقامة التنظيمات الجماهيرية كالاتحادات والجمعيات واللجان..

وفى مجال النشر أصدر الحزب سلسلة من الكتيبات حول الفكر الاشتراكى ولعل أول ما أصدره الحزب من هذه النشرات هو ما أشار إليه الأهرام فى ٢٦ أغسطس ١٩٢١ على لسان مراسله بالإسكندرية الذى قال «وقد رأينا رسالة مطبوعة باللغة العربية بعنوان مجموعة أفكار اجتماعية بثت الدعوة للاشتراكية.. وقد جمعت بين أقوال كاتب عربى استعار اسم «مؤذن» وبين دعاية اشتراكية للأوضاع فى روسيا.. وهى أول رسالة عربية من نوعها تظهر فى هذه البلاد».

بل إن الحزب قد قام بعد ذلك بترجمة عددا من البيانات المهمة الصادرة عن الكومنترن ويدل اختيار هذه المنشورات على نكاء كبير.

فقد تلمس بالذات إبراز التحالف بين الاتحاد السوفيتى وتركيا الكمالية ضد الاستعمار الإنجليزى.. وكانت هذه القضية تحظى بشعبية كبيرة وتثير إعجاب الشعب المصرى بالسياسة السوفيتية، حتى إن الأهرام لم يتمالك نفسه وهو ينقل الترجمة التى أصدرها

الحزب الاشتراكي المصري لأحد بيانات الكومنترن بهذا الصدد من أن يقول «إن هذه البلاد - مصر - ليست اشتراكية والاشتراكية المتطرفة لا تنهض فيها غير أنها تلتفت إلى العواطف الروسية بعين الاهتمام». أما نص المنشور الذي وزعه الحزب فهو:

«أيها العمال عارضوا كل حرب جديدة في الشرق».

«السلام للشعب التركي والحرب ضد الاستعمار الأوروبي».

أيها العمال والفلاحون:

«تجرى حوادث ذات أهمية كبرى في الشرق لقد حكم التحالف الرأسمالي على الشعب التركي بالإعدام..»

ويناشد البيان عمال وفلاحى العالم الوقوف ضد حرب جديدة في الشرق تسفك فيها دماء أوروبا لفائدة الاستعمار الإنجليزي»^(٣٢).

والحقيقة أن نجاح الحزب في إبراز التحالف السوفيتي - التركي ضد الاستعمار الإنجليزي قد أكسبه جماهيرية كبيرة ولنتأمل هذه الكلمات التي يكتبها مراسل الأهرام بالإسكندرية تحت عنوان «حركة الحزب الاشتراكي» «تجرى في الإسكندرية الآن حركة اشتراكية شيوعية لم تر البلاد مثلاً من قبل، وهى تجتذب إليها العمال وعشاق الاشتراكية من كل جانب.

وقد لا نخطئ إذا قلنا: إن الحزب الاشتراكي يغتنم فرصة تأييد الروس للترك لنشر دعوته في مصر. ونرى الناس يقبلون على اجتماعاته في شارع نوبار إقبالا كبيرا»^(٣٣).

والكلمات السابقة صالحة أيضا لتعطي لنا صورة حية عن نشاط الحزب ومدى الجماهيرية التي حققها..

وقد سعى الحزب إلى إصدار جريدة أسبوعية له..

وتقول الأهرام «كان الحزب الاشتراكي قد طلب من الحكومة رخصة لإصدار جريدة اشتراكية خاصة به فرفضت وزارة الداخلية هذا الطلب لاسيما على أثر ما نشره الحزب من الاحتجاجات والاعتراضات المتعلقة بالسياسة المحلية. ولما لم ينجح في أخذ الرخصة جعل يبحث عن جريدة موجودة فوجد جريدة «الشعبية» وهى جريدة أسبوعية أدبية اجتماعية للشيخ عبد الحميد النحاس فاتفق وإياه على تحويلها إلى جريدة اشتراكية. وحولها الحزب إلى شكل جديد وألغى عدد ما صدر منها وجدد نشرها بالعدد «١» وقد

صدر عددها الأول فى هذا الأسبوع الغائب وفيها مقالة عن لينين ومقالات اشتراكية متعددة وقد جعل شعارها المنجل والمطرقة.

ويظهر أن وزارة الداخلية لم توافق على هذا الإبدال فأصدرت اليوم أمرا بإغلاق الشبيبة ومنع نشرها. وكان الحزب قد شرع فى توزيع نسخها على أعضائه باعتبار أنهم مشتركون وجعل الاشتراك ٣٠ قرشا فى السنة^(٣٤).

والغريب فى الأمر أنه يبدو أن الشيخ عبد الحميد النحاس صاحب امتياز الشبيبة كان وفديا فإن الشعار الذى اختاره لمجلته قبل التنازل عنها للحزب الاشتراكي كان أحد كلمات سعد زغلول «من كانت الشبيبة معه فإن المستقبل بيده»^(٣٥) ولا شك أن لهذا دلالة كبيرة فهى توحى بأن الحزب الاشتراكي كان إلى حد ما مقبولا من بعض العناصر الوفدية فى هذه الفترة..

والحقيقة أن الحزب لم يتراجع أمام هذه الملاحقة التى تقوم بها السلطات ففى اليوم التالى مباشرة تنشر الأهرام أن الحزب الاشتراكي سوف يتخذ صحيفة أسبوعية جديدة تصدر فى القاهرة كلسان حال له بعد أن ألغيت جريدة الشبيبة. وقد اتفق الحزب بالفعل مع صاحب الجريدة على تحويلها إليه.

لكن صحف هذه الفترة لا تحمل أية إشارة إلى جريدة اشتراكية أخرى والأرجح أن وزارة الداخلية قد لاحقت المحاولة قبل إتمامها فمنعت صاحب المجلة عن التنازل عنها.

وإذا كانت جماهير الشعب قد بدأت تشعر بنوع من العطف على مساندة الاتحاد السوفيتي لتركيا ومناصرته المستمرة للشعوب فقد وجد الحزب أن هذه فرصة سانحة لتنظيم حملة جماهيرية لجمع تبرعات لمنكوبى المجاعة فى الاتحاد السوفيتي.

والحقيقة أن هذه الحركة قد اتخذت طابعا جماهيريا حقا وتعتمد الاشتراكيون أن يشركوا فيها أوسع الجماهير.

ويشير الأهرام إلى أنه قد ألفت فى الإسكندرية «لجنة جديدة من أنصار الاشتراكيين والمشتغلين فى نشر مبادئها وفى مقدمتهم المسيو روزنتال بقصد جمع تبرعات لإغاثة الشعب الروسى لأن الاشتراكية لا وطن لها.

وفهمنا أن هذه اللجنة المؤقتة ستدعو اليوم جميع ممثلى النقابات فى البلدة إلى اجتماع يعقد فى آخر الأسبوع لتأليف لجنة أوسع^(٣٦).

ولم يقتصر نشاط اللجنة على العمل وسط النقابات فقط فقد شكلت فيما بعد لجنة خماسية بهدف الاتصال بالحكومة والقناصل والدوائر الأخرى وعمل أسواق خيرية وإحياء حفلات موسيقية وتمثيلية تدوم عدة أيام، وقررت أيضا جمع الاكتتابات ومما يذكر أنه مما قررت هذه اللجنة أن تطلب من الحكومة المصرية التنازل عن جزء من القمح والدقيق المخزون لديها لإغاثة المنكوبين^(٣٧).

والحقيقة أن اللجوء إلى أسلوب إقامة أسواق خيرية وإحياء حفلات موسيقية وتمثيلية.. يدل على أن قادة الحزب الاشتراكي قد أتقنوا فن العمل بين الجماهير.. وأصبح باستطاعتهم أن يصلوا إليها على نطاق واسع.

كذلك فإن النشاط الجماهيري الواسع الذي قامت به شعبة الحزب في مدينة المنصورة من تأسيس فرع لجمعية الإسعاف يديره متطوعون من أعضاء الحزب وفرقة موسيقية تعزف في أفراح العمال بالمجان وفصول لتعليم اللغة الفرنسية وأخرى لمحو الأمية.. والعدد الكبير من الأعضاء الذين ضمتهم إلى صفوفها كل ذلك يمكنه أن يقدم لنا صورة عن النشاط الجماهيري الواسع الذي مارسه الحزب في ذلك الحين^(٣٨).

وينعكس أثر ذلك على الطبقة الحاكمة التي تقرر أنه قد آن الأوان للدخول في صراع ضد الحزب.

وبعد ١١ شهرا فقط من إعلان الحزب.. وهي مدة وجيزة جدا تجد وزارة الداخلية أنه من الضروري إنشاء مكتب جديد لمتابعة النشاط السياسي بالإسكندرية ويخصص له اثنان من أكفأ رجال المباحث هما انجرام بك.. والبكباشي كمال الطرابلسي^(٣٩). ولاشك أن لهذا القرار الخطير مغزاه الواضح، فالحكومة تستعد للهجوم ولكن الحزب لم يتراجع وقرر أن يستمر في التقدم بأسرع ما يستطيع.

الهوامش

- (١) اللواء ١٩٢١/٩/٥
- (٢) الأهرام ١٩٢١/٩/١٦
- (٣) الأهرام ١٩٢١/٨/٢٣
- (٤) الأهرام ١٩٢١/٨/٢٦
- (٥) الأهرام ١٩٢١/٨/٢٠
- (٦) الأهرام ١٩٢١/٨/٢٤
- (٧) الأهرام ١٩٢١/٩/٧
- (٨) الأهرام ١٩٢١/٨/٢٦
- (٩) الأخبار ١٩٢٠/٩/٢٠
- (١٠) محمد أنيس - المرجع السابق ص ٢١.
- (١١) وجه لامبلان - إلى الاستقلال، مصر وإنجلترا - ص ١٣٢.
- (١٢) الأهرام ١٩٢١/٨/٢٥
- (١٣) الأهرام ١٩٢١/٨/٢٤
- (١٤) الأهرام ١٩٢١/٩/١٢
- (*) يلاحظ أن الماركسيين الأوروبيين الأوائل استخدموا ذات الأسلوب لشرح أنكارهم.
- (١٥) المرجع السابق - ص ١٢.
- (١٦) الأهرام ١٩٢١/٩/١٣
- (١٧) الأهرام ١٩٢١/٩/١٠
- (١٨) الأهرام ١٩٢١/٩/١٠
- (١٩) الأهرام ١٩٢١/٩/١٤
- (٢٠) لأكور. الاتحاد السوفيتي والشرق الأوسط، المرجع السابق ص ٢٩.
- (٢١) الأهرام ١٩٢٤/٢/٢٢
- (٢٢) الأهرام ١٩٢١/١٢/١٤
- (٢٣) الأهرام ١٩٢٢/١٠/٢٠
- (24) Jane De Gras (ed). - The Communist international (1919 - 1943): Documents (London: Oxford University Press' 1971) p.95.
- (٢٥) الأهرام ١٩٢٤/٢/١٩ و ٢/٢٢
- (٢٦) الأهرام ١٩٢١/١٠/١٨
- (٢٧) الأهرام ١٩٢٢/٧/٢٩
- (٢٨) الأهرام ١٩٢٢/٧/٢٢ - ٢١

- (٢٩) الأهرام ١٩٢١/٨/٢٦.
- (٣٠) الأهرام ١٩٢٤/٢/٢٢.
- (*) انتهجت التنظيمات الشيوعية بعد الأربعينات نفس الخطة تقريبا.
- (٣١) الأهرام ١٩٢١/٨/٢٦.
- (٣٢) الأهرام ١٩٢٢/١٠/٢١.
- (٣٣) الأهرام ١٩٢٢/١٠/١٠.
- (٣٤) الأهرام ١٩٢٢/٧/١٢.
- (٣٥) قسطاكى عطارة - تاريخ تكوين الصحف المصرية - المرجع السابق ص ٣٣٣.
- (٣٦) الأهرام ١٩٢١/٨/٢٦.
- (٣٧) الأهرام ١٩٢١/٩/٨.
- (٣٨) راجع محضرى النقاش مع السعيد الصبرى وحافظ سند بالملاحق.
- (٣٩) الأهرام ١٩٢٢/٨/٣.

- المؤتمر الأول للحزب.. الانضمام للكومنترن
- المؤتمر الثانى.. تغيير اسم الحزب
- موجة من النشاط العارم
- ثم بدأت المطاردة..

المؤتمر الأول للحزب الانضمام للكومنترن

فى الفصل السابق تابعنا كيف دعمت العناصر الماركسية مراكزها وكيف عززت نفوذها من خلال النضال اليومى وفى الأساس من خلال الالتصاق بالحركة العمالية.. وبالتدريج أصبحت هذه العناصر هى القوة الأساسية فى الحزب، وبينما كان سلامة موسى والعنانى والآخرين يتربعون على قمة الحزب من الناحية الشكلية كان حسنى العربى وصفوان أبو الفتوح واسكندر صادة وأنطون مارون وغيرهم من العناصر الماركسية يقومون بنشاط جم بهدف تأسيس مراكز حزبية فى أماكن عديدة وبهدف دعم الحركة النقابية ودعم التواجد الحزبى فيها ونشر الفكر الماركسى بين صفوف الأعضاء الجدد.

وهكذا وصل الحزب إلى وضع غريب
قاعدة ماركسية.. وقيادة يحكمها التركيب القديم الذى تابعنا كيف كان الحزب يعانى منه فى الصفحات السابقة.. قيادة تضم فابين وهيجلين يساريين واشتراكيى الدولية الثانية وقاعدة شيوعية، وكان لا بد من تصحيح هذا الوضع.
ولأن الحزب كان قد عزز لنفسه مراكز قوية فى مدينة الإسكندرية (حيث كانت تتركز

القوى الأساسية للطبقة العاملة) ولأن حسنى العرابى وروزنتال ومارن وصفوان أبوالفتح وأحمد المدنى ومصطفى أبو هرجه واسكندر صادة كانوا يقيمون بالإسكندرية فقد حدث فى هذه المدينة نوع من التركيز للعناصر الماركسية التى سيطرت على شعبة الحزب هناك وتابعت من هناك عملية القيادة الفعلية لكل فروع الحزب^(١) بينما استمر سلامة موسى والعنانى وعنان وغيرهم يمارسون نشاطهم التقليدى، وهو نشاط محدود جدا فى شعبة القاهرة وحدها عاجزين عن أن يخوضوا غمار المنافسة مع الماركسيين الذين نشطوا نشاطا متزايدا أعجز هذه العناصر التقليدية عن أن تلعب أى دور منافس.

ومن هنا برز التصور الذى حكم بعض الكتابات عن هذه المرحلة والذى أوحى بأن الصراع كان بين شعبة القاهرة وشعبة الإسكندرية^(٢) لكن لتعبير الصحيح هو أن الصراع قد احتدم بين الاتجاه الماركسى الذى ساد عبر الحزب بزعامة قادة شعبة الإسكندرية وبين المثقفين التقليديين الذين يعادون إعلان ماركسية الحزب.

كذلك يحاول عبدالعظيم رمضان أن يصور هذا الصراع على أنه صراع بين المثقفين من جانب والعمال من جانب آخر^(٣) قائلا: إن الصراع قد انتهى بطرد المثقفين من الحزب. ولنا على هذا الرأى ملاحظتان:

الأولى: صحيح أن التيار الماركسى وهو أحد قطبى الصراع كان يؤمن بقيادة البروليتاريا لكن ذلك لا يعنى أنه ضد المثقفين.. فقيادة هذا التيار أنفسهم كان كثير منهم من المثقفين، العرابى وصفوان ومارون وغيرهم. ويبدو أن عبدالعظيم رمضان قد تأثر فى هذا الرأى بعبارة قالها فؤاد الشمالى يهاجم فيها المثقفين ويطالبهم بترك العمال يديرون شؤون حزبهم.

والثانية: أن أحدا لم يصدر قرارا بطرد المثقفين لكن عددا من المثقفين انسحب من الحزب رافضا فكرة إعلان ماركسية الحزب والانضمام إلى الدولة الثالثة.

والحقيقة أن الغموض يحيط بأطراف وأساليب هذا الصراع الذى تفجر سريعا داخل الحزب وبلغ ذروته فى ٢٠ يوليو ١٩٢٢ عندما عقد الحزب مؤتمرا سريا لإقرار الأسس الجديدة للنشاط وإقرار فكرة الانضمام للدولة الثالثة.

وليست هناك معلومات كثيرة عن هذا المؤتمر.. لكن ثمة شواهد تؤكد انعقاده وتؤكد أنه قد اتخذ عددا من القرارات المهمة.

يقول روزنتال فى شهادته: لقد تبين أن لجنة القاهرة لم تظهر إخلاصا كافيا على حين كان فرع الإسكندرية بالرغم من قلة عدد أعضائه— يظهر كفاءة تفوق كفاءة المركز الإدارى وقد طلب بعض أعضاء الفروع جعل الإسكندرية مقرا للحزب، وبالفعل تم هذا التغيير بعد موافقة أعضاء الفروع على ذلك فى اجتماع خاص عقد لهذا الغرض^(٤).

كذلك أشار الأهرام إلى بيان صادر باسم الجمعية العمومية للحزب الاشتراكى المصرى يتضمن القرارات التى اتخذتها هذه الجمعية^(٥).

لكن فؤاد الشمالى يقرر عقد المؤتمر صراحة فيقول «وفى يوم ٣٠ يوليو عقد فى الإسكندرية مؤتمر حضره مندوبون من جميع شعب الحزب فى أنحاء القطر بينهم وفد من أعضاء لجنة القاهرة فتقرر بالإجماع جعل شعبة الإسكندرية مركزا إداريا للحزب. كذلك تقرر بالأغلبية الكبرى اعتناق المذهب الشيوعى وتم فى المؤتمر انتخاب اللجنة الإدارية المركزية».

وهكذا يمكننا أن نستخلص جدول أعمال المؤتمر الأول للحزب

١- نقل المركز الإدارى للحزب.

٢- تحديد موقف الحزب من الشيوعية ومن ثم مسألة الانضمام للكومنترن.

٣- انتخاب لجنة مركزية جديدة.

والواضح أن هذا المؤتمر قد عقد سراً، وفى الأغلب عقد فى الإسكندرية لكن مراسل الأهرام النشيط لم يستطع اكتشاف الأمر إلا بعد أن أصدر الحزب بيانا يعلن فيه قرارات المؤتمر.

والواضح أيضا، أن المحور الأساسى للصراع داخل المؤتمر كان مسألة الموقف من الشيوعية، ولم تكن مسألة نقل المركز الإدارى للحزب ومسألة انتخاب لجنة مركزية جديدة سوى نتائج طبيعية للاتفاق على الموقف الأيديولوجى.

والحقيقة أن تفجير هذا الصراع كان مسألة حتمية وخاصة بعدما شاهدناه فى الفصل السابق من تجمع عناصر من اتجاهات متباينة دون صراع فكرى حقيقى، ودون أن تحدد مفهوما متقاربا لما تعنيه بكلمة الاشتراكية، وكان النضال اليومى هو المفجر الحقيقى للصراع، وهو الذى حدد أطرافه وحدد قوى كل طرف من هذه الأطراف.

وخلال عملية بناء الحزب كان الماركسيون هم أكثر العناصر نشاطا ومن ثم كانوا

أكثرها نفوذا وبعد أقل من عام من النشاط الحزبي عقد المؤتمر الأول ليقرر بالغالبية العظمى اعتناق المذهب الشيوعي، والانضمام للدولية الثالثة.

وخلال هذا المؤتمر أمكن عزل العناصر المعارضة.. سلامة موسى والدكتور العنانى ويبدو أن عزلتهما كانت شبه تامة فلم يرتفع أى صوت بالمعارضة سوى صوت سلامة موسى نفسه أما محمد عبدالله عنان وأحمد المدنى فقد أمكن للماركسيين كسبهما فى هذه الجولة..(٧)

وهذه مسألة مهمة تستحق التأمل وتوحى بأن خطة الماركسيين كانت تستهدف كسب أكبر قدر من العناصر - بغض النظر عن مواقفها السابقة - طالما أنها تعلن موافقتها على النظرية الماركسية.

وقد بدأ الأمر بمسألة قد تبدو شكلية فاستمر الاسم كما هو «الحزب الاشتراكي المصرى» وأضيف بعد ذلك عبارة «الشعبة المصرية للدولية الشيوعية».

وهى خطوة تدل - بغير شك - على جانب كبير من الذكاء وتوحى أيضا بالاتجاه المرن للقيادة الجديدة..

لكن مراسل الأهرام بالإسكندرية لم يشأ لهذا التغيير أن يمر بغير ضجة فكتب يقول «كل يوم يتكشف لنا هذا الحزب الذى يطلق على نفسه اسم الحزب الاشتراكي عن شىء جديد فهو يسمى نفسه الآن ويطلع على أوراقه اسم «الحزب الاشتراكي المصرى» وتحت هذا الاسم الضخم يطبع كلمة «الشعبة المصرية للدولية الشيوعية. وقد نشر فى البلاد ورقة باسم الجمعية العمومية للحزب أورد فيها ما أسماه قراراته ومن هذه القرارات أن تكون لجنة الحزب المركزية بالإسكندرية وأن ينضم الحزب للدولية الثالثة. فنحن إذاً أمام البلشفية بتمامها لأنه أورد فى برنامج أعماله قرارات ما أسماه بالدولية الثالثة فى موسكو(٨).

وكالعادة فقد كانت كلمة الأهرام إشارة البدء لإعلان الصراع على صفحات الجرائد، وفى اليوم التالى نشرت الأهرام بياناً لسلامة موسى بعنوان «عام فى الاشتراكية».

قال فيه: «منذ عام تقريبا يدلف بالقاهرة حزب اشتراكي معتدل المذهب يسير على خطة نيرة رشيدة يقودها زعماء أكثرهم تربى فى أوروبا وشاهدوا بأعينهم الحركة الشيوعية فى إقبالها وإدبارها وغلوها واعتدالها وكلٌ منهم مع ذلك وطنى يعرف أن مصر لم تبلغ بعد

الدرجة التى تستطيع فيها أن تهمل الرابطة الوطنية مستعيضة عنها بروابط أخرى شعبية أو اجتماعية..

لهذا السبب أراد مبتدئو الحركة فى مصر أن تكون صيغتها مصرية بحتة بتكيف بتكيف المزاج المصرى ولا تنقل عن أوروبا نقلا. كما أرادوا أن ينهجوا نهج الاعتدال والثقافة فى خطتهم بحيث لا يجد ولاة الأمور مجالا للتخوف أو الشدة فى سيرهم..

وبعد هذا الغمز والإشارة إلى موقف السلطة من التغيير الجديد.. يبدأ سلامة موسى محاولة إظهار أن التحول الجديد تم على يد أجنبية هى يد روزنتال الذى قال عنه «إنه مع اجتهداه فى نشر الدعوة الاشتراكية منذ أكثر من عشرين سنة لم يفلح فى إدماج الوطنيين فى الجماعة الإفرنجية التى تلف حوله، وإنما أقبل الوطنيون على الحركة عندما رأوا اعتدالنا وإخلاص نيتنا.

وعلى هذا سرنا عدة شهور إلى أن رأى مسيو روزنتال أن صدره لا يتسع لاعتدالنا وأن محاولته لكى يجرنا إلى خطته قد ذهبت عبثا فاتفق مع بعض مشاركيه فى رأى على نقل الحزب إلى الإسكندرية.

ثم يمضى سلامة موسى محددا نقطة الخلاف الأساسية بينه وبين الخط الجديد للحزب فيقول: «إنى أعتقد أن الاشتراكية لن تفلح عندنا حتى يرضى بها المتوسطون - إن لم أقل الأغنياء قبل العمال - لأنهم هم الطبقة المستنيرة التى تستطيع فهم مبادئها».

ثم هو يؤكد «إن الثورة فى بلاد مثل مصر مقضى عليها بالفشل ولو نجحت لكان نجاحها أكثر شرا من الفشل».

وفى النهاية يكمل سلامة موسى تحديه قائلاً: «بقيت كلمة أقولها للمتخوفين والمرتابين وهى أن الرعونة التى ظهر بها مسيو روزنتال لن يصيب بها غير نفسه وسيلتئم الحزب الاشتراكى بالقاهرة قريباً، ويعود إلى خطته التعليمية التمهيدية من غير هوج أو غلو وهو فيها يعمل ويعلم ويضع مصلحة مصر فوق كل المصالح»^(٩) ولا شك أن تطور الأحداث قد أثبت خطأ تصورات سلامة موسى وخاصة فيما يتعلق بروزنتال.

والشئ المؤكد أن سلامة موسى وزملاءه لم يبذلوا أى جهد جدى لتكوين تنظيم مستقل واكتفوا بالانسحاب تاركين الميدان تماماً للحزب باتجاهه الجديد.. وحتى سلامة نفسه يؤكد هذه الحقيقة فهو يقول فى إحدى مقالاته «فحاولنا أن نجدد الحزب حتى نقاوم هذه الحركة الجنوبية فلم نقو لعدة أسباب فقنعنا بالسكوت ننتظر قلب الأحوال»^(١٠).

لكن سلامة موسى - بالرغم من توقفه عن أى نشاط حزبي - لم يكف عن إعلان معارضته للدولية الثالثة ولا عن هجومه على الاتجاه الجديد للحزب..

وبعد أيام يكتب مقالا آخر بعنوان «الدولية الثالثة والاشتراكية» يتحدث فيه عن الدولية الثانية فيقول «لقد كان بمقدورها أن تضم جميع اشتراكيي العالم فيها. لكنها فقدت شيئا كثيرا من مكانتها لما ظهر فيها من الضعف والانشقاق مدة الحرب..

ثم يعرض على الحزب بديلا للدولية الثالثة فيقول: «وفي فيينا عاصمة النمسا الآن دولية تدعى «الاتحاد الدولي للأحزاب الاشتراكية» وقد تآلفت في ١٩٢٠ من الأحزاب التي رفضت قبول الإحدى وعشرين نقطة التي تشترطها الدولية الثالثة في موسكو، وهي مع ذلك لا تريد الرجوع إلى الدولية الثانية في بروكسل.

ومصلحة الحزب الاشتراكي المصري الآن إذا أراد أن تكون له مكانة في النظام الاشتراكي العالمي أن ينضم إلى دولية فيينا.. أما الانضمام إلى الدولية الثالثة فمعناه الخروج من الاشتراكية وقبول الثورة كوسيلة شرعية للحصول عليها. ومن يحاول الآن أن يدمج الحزب الاشتراكي المصري في الدولية الثالثة إنما يخدع أعضاء هذا الحزب الذين انتموا إلى الحزب باعتباره حزبا اشتراكيا فحسب.

ثم يمضى سلامة موسى ليعزف نفس النغمة التي هاجم بها من قبل فيقول «وإذا راجت الإشاعة بأن عندنا حزبا شيوعيا على اتصال دائم بموسكو باتت حركة الاستقلال عندنا في خطر.. إن ولائنا لمصر ينبغي أن يكون أكبر من ولائنا للاشتراكية فاستقلالنا هو الغاية الأولى والاشتراكية هي الغاية الثانية..»^(١١).

ويبدو أن هذه الكلمات لم تكن ذات تأثير كبير، فإن أحدا لم يرفع صوته بتأييد هجوم سلامة موسى، حتى دعا على العنانى شريك سلامة موسى في موقفه لم يكلف نفسه عناء كتابة كلمة تأييد لهذا الموقف.

لكن الحزب لم يترك هذا الهجوم وفراة، بل سارع إلى الرد عليه في ١٢ مارس ١٩٢٤.

في ١٢ مارس ١٩٢٤، أصدر الحزب بياناً رد فيه على بيان سلامة موسى، وفيه أكد على أن الحزب لا يزال ملتزماً بالدولية الثالثة، وأنه لا يتردد في مواجهة أي هجوم على موقفه. كما أكد على أن الحزب لا يزال ملتزماً بالدولية الثالثة، وأنه لا يتردد في مواجهة أي هجوم على موقفه.

ويكتب «محمد عبدالله عنان المحامى وأحد مؤسسى الحزب الاشتراكى» - هكذا وقع المقال - مقالا عنيفا بعنوان أكثر عنفا هو «رسول شيوعى يشرح مذهبه» قال فيه:

«لقد دعونا إلى تأليف الحزب الاشتراكى منذ عام وأصدرنا آن ذاك بياناً أو برنامجاً ندعو إليه. وقد مضى عام ونحن نعمل فى دائرة الطرق السلمية الهادئة ولم نهمل قط مراعاة ما يسود البلاد من ظروف خاصة، وقد جاهرنا ولا زلنا نجاهر بأننا لسنا من الثوريين وأننا من دعاة التطور الاجتماعى والسياسى. نقرر ذلك ولكننا نقرر أيضاً أننا نعتقد المبادئ الاشتراكية الماركسية وأننا لا نعرف اشتراكية «وطنية» اللهم إلا أن تكون تلك التى تلقاها الرفيق سلامة موسى عن الاشتراكية الرجعية الإنجليزية التى عاش فى ظلالها مدة من الزمن.

لهذا لا نتفق مع الرفيق سلامة فى وجوب وطنية الاشتراكية المصرية. إن للحزب الاشتراكى قاعدة خاصة بالسياسة المصرية لوجود مصر فى ظروف خاصة ولكن تلك القاعدة لا مساس لها بالاشتراكية.

إن من يقرأ كلمة الرفيق سلامة موسى يعتقد أننا قد أصبحنا متطرفين وأنه حافظ على اعتداله.

والواقع أننا لم نغير شيئاً من مبادئنا التى وافقنا عليها وأعلنها معا ومن التحامل أن يرى فى تقرير الحزب الانتماء إلى الدولية الثالثة أمراً جديداً يسمه بسيماء الغلو لأن ذلك متعلق بتضامننا مع باقى الرفاق فى العالم وبرأينا فى تفسير المبادئ الماركسية. وقد يتاح لنا أن نناقشه فى ذلك مناقشة خاصة غير أننا لا نقره منذ الآن على وجود متطرف ومعتدل فى الاشتراكية المصرية ونقرر أن اعتداله فى نظرنا نكوص على المبادئ وارتداد إلى زوايا الرجعية.

وبعد، فقد حدث إبهام جم فى ماهية الاشتراكية والشيوعية، ونحن نقرر بملء الصراحة أن الغاية الاشتراكية مهما تنوعت لاتخرج عن شيوعية الملك.. وأن اشتراكية لا تنادى بذلك هى اشتراكية عتيقة نسختها الاشتراكية الماركسية التى أصبحت نبراس القوة العاملة ومثلها الأعلى، والتى قامت على مبادئها دعائم الجمهورية السوفيتية^(١٢).

وهكذا أعلن الحزب صراحة موقفه، لكنه اتخذ خطة تقول: إننا لم نغير شيئاً، إنما هى نفس أفكارنا القديمة لكن سلامة موسى هو الذى تغير.

إن تضمين الرد اسم سلامة موسى وحده دون إشارة إلى زملائه يوحى بأن الحزب قد نجح إلى حد كبير فى عزل أفكار سلامة موسى وأن المؤتمر الأول كان يمثل إلى حد كبير جميع كواد الحزب.

وفى اعتقادى أن تصدى محمد عبدالله عنان للرد بهذه الصورة هو خير دليل على نجاح المؤتمر فى توحيد كواد الحزب ونجاحه فى كسب أكثر العناصر اعتدالا إلى صف الخط الجديد.

وإذا كان محمد عبدالله عنان ما لبث أن ارتد هو أيضا - بعد قليل من الوقت - فإن ذلك لا يقلل مطلقا من أهمية هذا النصر الأيديولوجى الذى حققه المؤتمر.. ولم يكن محمد عبدالله عنان هو الوحيد من بين «المعتدلين» الذى تم كسبه إلى صف الاتجاه الجديد فهناك أيضا أحمد المدنى المحامى الذى تولى السكرتارية العامة للحزب فى فترة غياب حسنى العربى فى موسكو^(١٣).

وبطبيعة الحال فإن موجة الهجوم لم تقتصر على سلامة موسى بل شاركت فيها جريدة الأهرام كعادتها دائما.

فى ٣ أغسطس هاجم مراسل الأهرام بالإسكندرية الاتجاه الجديد للحزب منددا بالبلشفية «التي أدت إلى هدم وخراب الإمبراطورية الروسية وهلاك مليونين من أهلها» ويقول «قلو أن نظام البلشفية نجح أو أتى بخبر ما للصغير أو الكبير لكان لدعائه فى مصر عذر مقبول بعض القبول، لكن الأمر بالعكس، فما بالهم يحلمون بأن يحل الفقير محل الغنى والضعيف محل القوى والملكية للمجموع بلا مالك وغير ذلك مما يضر بحياتنا ويؤدى إلى الهلاك»^(١٤).

وفى تعليق على مقال سلامة موسى السابق تكتب الأهرام «نحن نقاتل هذه المذاهب الشيوعية لأنها الفوضى ونحن محتاجون إلى النظام، ونحن بحاجة إلى تقوية رؤوس الأموال حتى تعمر الخراب»^(١٥).

وتنشر الأهرام أيضا هجوما شديدا بتوقيع «مالك».. يطالب فيه الحكومة بمطاردة الحزب.

بل إنه يهددها بأن الملاك قد يحاولون أن يدفعوا هذا الخطر بأيديهم فيقول «إننا ننبه الحكومة إلى أن ما يقوم به هؤلاء الناس مما تمنعه القوانين المصرية عامة سواء فى ذلك

القانون السماوى أو القانون الوضعى ويجب أن ننبهها كذلك إلى أننا - نحن الملاك- ننتظر منها أن تقوم بالواجب إزاء ما يتهددها من الخطر وإزاء أمر لا نريد أن ندفعه بأيدينا، فهل عند الحكومة أذنان لتسمع بهما؟ ذلك ما تظن والسلام»^(١٦).

لكن الحزب لم يعبأ بذلك وواصل مسيرته، وتنفيذا لقرار المؤتمر الأول سافر حسنى العربى إلى موسكو ليحضر المؤتمر الرابع للكومنترن طالبا الاعتراف بالحزب المصرى كعضو فى الدولية الثالثة..

ومن موسكو كتب حسنى العربى سلسلة من المقالات عن زيارته إلى «روسيا الحمراء».. وتوالت الأخبار عن خطب حماسية ألقاها فى المؤتمر قال فيها «إنه يؤمل - بالرغم من معارضة الاستعمار الإنجليزى والرأسمالية المصرية - أن يرى الأعلام الحمراء تخفق يوما ما فوق ربى الأهرام» وقال «إن الحزب المصرى قد خطا خطوات واسعة وإنه سيشارك فى الانتخابات القادمة وسوف يضع برنامجا للفلاحين»^(١٧).

والحقيقة أن الخطوات الأساسية كانت قد أقرت فى المؤتمر الأول، ولم يكن سفر حسنى العربى إلا تنفيذا لها.

كذلك كان حسنى العربى لا يزال فى موسكو عندما أصدر أحمد المدنى بيانا عن احتفال الحزب بذكرى «إعلان الثورة الروسية وانبثاق فجر الحرية فحضر الاجتماع جمع غفير من الأعضاء وافتتحت الحفلة بالنشيد الدولى ثم وقف الرفيق أحمد أفندى المدنى المحامى وألقى خطابا بين فيه تاريخ الثورة الروسية وأسبابها ونتائجها وما صادفته من العقبات وانتهى من خطبته بين التصفيق والهتاف.

وبعد ذلك رفع الستار عن تمثال الحرية المقيدة التى أخذ العامل على نفسه أن يحطم قيودها ويطلقها من الأسر الذى وضعها فيه الرأسماليون.

ثم وقف الرفيق يوسف روزنتال وألقى خطابا شرح فيه معنى الثورة الروسية وأشار إلى علاقتها بالشرق والشرقيين فقبولت أقواله بالتصفيق وقام بعده الرفيق السيد هريدى فشرح أعمال الثورة وعلاقتها بالقضية التركية، وانتهى الحفل كما بدأ بالنشيد الدولى»^(١٨).

كذلك أصدر الحزب قبيل عودة حسنى العربى من موسكو ميثاقا هاما بعنوان «نداء إلى العمال اليدويين والذهنيين فى العالم» أدان فيه «العدوان الوحشى الذى ترتكبه سلطات

الاحتلال البريطاني ضد مطالب مصر المقدسة» ويعلن أن الحزب الاشتراكي المصري سوف يقف في طليعة الحركة الوطنية.. «ولسوف تقف البروليتاريا المصرية الواعية في وجه أى تهديدات مع الطغاة».

ويعلن النداء «إن المثل الاشتراكية التي تتجسد في بعث كل شعوب العالم قد ظهرت الآن على مسرح السياسة في مصر...».

وفي النهاية يدعو البيان «المتقفين الاشتراكيين» إلى «الاتجاه نحو الريف كي يخلقوا جبهة سياسية واقتصادية موحدة يمكنها أن تجابه نفوذ البرجوازية»^(١٩).

الهوامش

(1) Murius Deed - Party Politics in Egypt The wath and its Rivals 1919-1939 (London: ithaka press' 1979) - p.86.

(٢) رؤوف عباس وعبدالعظيم رمضان ولاكور وغيرهم.

(٣) ص٢٥٨ - كذلك يقول عبدالمنعم الغزالي: إن الحزب قد انعزل تماما عن الجماهير الثورية الأخرى غير العمال وقاطع النشاط في أى وسط جماهيرى ما دام غير عمالى. ص٩٢ وهذا غير صحيح فى اعتقادنا.

(٤) الأهرام ١٩٢٢/٨/٣.

(٥) الأهرام ١٩٢٤/٣/٧.

(٦) الأهرام ١٩٢٤/٣/٧.

(٧) لم يفظن عبدالعظيم رمضان إلى هذه الحقيقة المهمة فأدرج اسم عبدالله عنان ضمن المعارضين لهذه الخطوة ص٥٢٩.. وهذا غير صحيح كما سنرى فيما بعد.

(٨) الأهرام ١٩٢٢/٨/٣.

(٩) الأهرام ١٩٢٣/٣/٤.

(١٠) الأهرام ١٩٢٤/٣/٨.

(١١) الأهرام ١٩٢٢/٨/٩.

(١٢) الأهرام ١٩٢٢/٨/١٨.

(١٣) الأهرام ١٩٢٢/١٠/٢٠.

(١٤) الأهرام ١٩٢٢/٨/٣.

(١٥) الأهرام ١٩٢٢/٨/٤.

(١٦) الأهرام ١٩٢٢/٨/١١.

(١٧) نقلا عن بيان محمد عبدالله عنان - الأهرام ١٩٢٣/١/٦.

(١٨) بيان أحمد المدنى السكرتير العام للحزب - الأهرام ١٩٢٢/١١/١١.

(19) Walter Laquer - Communism and Nationaltsm in the Middle East. p.34.

المؤتمر الثانى تغيير اسم الحزب

لقد سافر حسنى العرابى ليحضر المؤتمر الرابع للكونتترن وليحقق هدفين محددين:
١- قبول الحزب الاشتراكى المصرى عضوا فى الكومنترن والاعتراف به كممثل للبروليتاريا المصرية.

٢- خلق ارتباط بين الحزب وبين الحركة البروليتارية العالمية.
وقد قام حسنى العرابى بدور نشط تألقى بالكثير من الخطب والبيانات، ولكن يبدو أن المسألة لم تكن سهلة فقد تشكلت لجنة لدراسة الموضوع كان مقررها الرفيق كاتياما واستمعت اللجنة إلى تقرير قدمه حسنى العرابى نوره بنصه للأهمية التاريخية^(١).
تقرير عن الحزب الاشتراكى المصرى وقرار حياله
أيها الرفاق:

لقد اجتمعت لجنة المسألة المصرية عدة مرات واستمعت إلى تقرير الحزب الاشتراكى المصرى وناقشت القضية باستفاضة، إننا ندرك أن مصر تحتل مكانا هاما، فهى من ناحية تفصل بين الشرق والغرب ومن ناحية أخرى تصل بينهما، وهى المفتاح إلى الشرق والشرق الأقصى، ولذلك فالحركة الشيوعية المصرية ذات أهمية كبرى.

ولقد عانى الشعب المصرى طوال أربعين عاما من استغلال الاستعمارين الإنجليزى والفرنسى، وكانت إحدى نتائج الحرب الأخيرة أن غير الشعب المصرى موقفه فثار ضد الاستعمار الإنجليزى، وبينما يكتفى صغار البورجوازيين والرأسماليين المصريين باستقلال الاسم لبلادهم فإن الشيوعيين والعمال والثوريين لا يرضون بهذا الاستقلال، وإنما يطلبون استقلالا حقيقيا، وبالنسبة لموقفهم من هذه القضية فإنهم يجب أن يحظوا بمساعدة الكومنترن، ولقد اتفقنا - نحن لجنة المسألة المصرية - على أن الحركة الشيوعية فى مصر يجب أن تتلقى المساعدة والتشجيع، فبناء حركة شيوعية فى مصر أمر ضرورى حتى تمسك بالفتاح إلى الشرق والشرق الأقصى. وفى حالة وقوع تمرد فى الهند فإن مصر - بفضل الموقع الجغرافى الذى تشغله - يمكن أن تفتح الطريق للثورة الهندية وتساندها بإغلاق قناة السويس، لهذا تحوينا الرغبة فى مد يد المساعدة للحركة الشيوعية المصرية وإلى الاعتراف بالحزب الاشتراكى المصرى. إن الحزب الاشتراكى المصرى ما زال حديث الولادة لم يحرز بعد خبرة فى عدة نواح، هذا بالرغم من أن الرفق المصريين يسرون على خط الكومنترن، ومع هذا نود أن نضع بعض الشروط لانضمامهم إلى الكومنترن، لهذا قررنا طرح هذا القرار أمامكم.

«قرار من لجنة المسألة المصرية عن الحزب الاشتراكى المصرى. صادر فى ٢٦ نوفمبر عام ١٩٢٢.

بعد عدة جلسات وصلت اللجنة إلى القرار التالى:

١- يكفى تقرير مندوب الحزب الاشتراكى المصرى الذى أتيح لنا الاطلاع عليه للدلالة على أن الحزب الاشتراكى المصرى يمثل حركة ثورية عارمة تسير على نهج الدولية الشيوعية.

٢- ومع هذا فاللجنة تقترح تأجيل قبول الحزب الاشتراكى المصرى فى الدولية الشيوعية إلى حين:

(أ) يطرد الحزب بعض العناصر غير المرغوب فيها.

(ب) ويعقد مؤتمر ينضم فيه إلى الحزب الشيوعى المصرى أى عنصر شيوعى فى مصر يمكن أن يكون حاليا خارج الحزب الشيوعى المصرى ويقبل الشروط الواحد والعشرين الدولية الشيوعية.

ج) ويكون الحزب قد غير اسمه إلى «الحزب الشيوعى».

٢- لذلك تعهد اللجنة إلى الحزب الاشتراكى المصرى عقد مؤتمر يهدف إلى تحقيق الشروط المشار إليها سابقا فى تاريخ قريب لا يعدو الخامس عشر من يناير ١٩٢٣». لقد عاد حسنى العرابى، وهو فى عجلة من أمره، فقرار المؤتمر الرابع الكومنترن يلزمه بالقيام بأعمال جسيمة خلال فترة قصيرة جدا - لا تتجاوز ١٥ يناير ١٩٢٣. وإذا كانت لجنة المسألة المصرية قد أعدت تقريرها فى ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢ ثم عرض بعد ذلك على المؤتمر فإن حسنى العرابى يكون قد وصل مصر حوالى منتصف ديسمبر، ولم يكن أمامه سوى شهر واحد تقريبا لإنجاز ثلاث مسائل عسيرة:-

١- تغيير اسم الحزب من الحزب الاشتراكى المصرى إلى الحزب الشيوعى المصرى، وهو خطوة يبدو أن المؤتمر الأول للحزب قد أثار حولها جدلا طويلا انتهى بنوع من المساومة بين الأطراف المختلفة تمثلت فى الاحتفاظ باسم الحزب الاشتراكى المصرى مع إضافة عبارة «الشعبة المصرية الدولية الثالثة» وحتى هذه المساومة الذكية وافق عليها المؤتمر بالأغلبية وليس بالإجماع.

كذلك فإن الدعايات المعادية للشيوعية كانت قد نشطت خلال الفترة السابقة إلى حد أن كلمة «الشيوعية» أصبحت مرادفا لتعبير آخر هو «الإباحية» بل إن بعض المترجمين كان يترجم كلمة Communism وربما بحسن نية - إلى اللفظ العربى «إباحية» اشتقاقا من لفظ مباح وإيماء إلى أن الشيوعية تبيح الملكية للجميع.

كذلك نلاحظ أن الأهرام يعلن أن اللجنة المركزية للحزب قررت أن تغير اسم الحزب إلى الحزب الإباحى^(٢).

والحقيقة أنه لا بد من التأمل - فى ظل الظروف الموضوعية لمصر - عما إذا كان ضروريا تغيير الاسم أم لا، فلننظر عندما عرض عليه الحزب المنغولى فى ١٩٢١/١١/٥ تغيير اسمه من الحزب المنغولى الشعبى الثورى إلى الحزب الشيوعى قال لقادة الحزب «أنا لا أنصحكم بذلك. المشكلة ليست استبدال اسم باسم آخر، ولو طلبتم رأى فإننى لا أنصحكم بالتغيير» وقال لينين أيضا «إن أمام الثوريين المنغوليين واجبات كثيرة كى يبنوا دولة جديدة واقتصادا جديدا وثقافة جديدة قبل تحول هؤلاء الرعاة إلى بروليتاريا.. الأمر الذى يساعد فى المستقبل على تحويل هؤلاء الاشتراكيين الشيعيين إلى شيوعيين، لكن مجرد تغيير الواجهة مضر وخطير».

إلا أنه يتعين ملاحظة أن ظروف مصر تختلف عن منغوليا من حيث قوة البروليتاريا المصرية وتتصاعد نضالها ونضجها في المعارك الثورية، ومن حيث ضرورة تحديد حد فاصل يعزل اشتراكي الدولية الثانية الذين كانوا لا يزالون يمارسون نشاطا في الحزب. لكنه وبالرغم من هذه الظروف الموضوعية فإن عملية الإسراع الشديد بتغيير اسم الحزب دون صراع أيديولوجي كاف ودون توضيح للقواعد قد وصل بالمسألة إلى الوضع الذي وصفه لينين بأنه «مجرد استبدال اسم باسم آخر» أو «مجرد تغيير للواجهة».

٢- فصل بعض أعضاء الحزب، أو بالدقة فصل روزنتال ونحن نعلم أن روزنتال قد لعب دورا أساسيا في تأسيس الحزب. وكان يمارس نفوذا واسعا وسط العناصر الأجنبية ووسط النقابات^(٣).

٣- عقد مؤتمر - ولم تكن هذه مسألة سهلة-: نظرا لضيق الوقت الذي يعوق أى إعداد جدى للمؤتمر. كذلك فإننا نلاحظ أن مجلة International Press Correspondence قد نشرت القرار فى عددها الصادر فى ٥ يناير ١٩٢٣ وربما أذيع القرار قبل ذلك مما يجعل من المستحيل أمام الحزب عقد مؤتمره سرا كما حدث بالنسبة للمؤتمر الأول، خاصة وأن السلطة تعلم أنه مضطر إلى عقد المؤتمر فى مدة لا تتجاوز ١٥ يناير ١٩٢٣ ولهذا اضطرت اللجنة المركزية إلى أن تحاول عقد المؤتمر علنا وعمل البوليس على منعه.

ولسنا نعرف الدوافع التى حدثت بلجنة المسألة المصرية فى المؤتمر الرابع للكونغرس إلى تحديد يوم ١٥ يناير كحد أقصى لتنفيذ هذه الأمور جميعا، لكننا ندرك أية صعوبات واجهت قيادة الحزب عندما حاولت التقيد بهذا الموعد.. وندرك أن الإسراع الشديد ربما أدى إلى بعض النواقص.

المهم، لقد بدأ حسنى العرابى وزملاؤه العمل بسرعة ربما كانت أشد ضررا من الإبطاء ودعوا إلى اجتماع اللجنة المركزية تقرر فيه:

١- فصل روزنتال.

٢- إعلان تغيير اسم الحزب.

كذلك قررت اللجنة المركزية أن يتولى أحمد المدنى أمانة الصندوق بدلا من روزنتال، لكن الأمور تتطور سريعا.. فروزنتال يصدر بيانا غاضبا يتهم فيه «أحد الأشخاص» (حسنى العرابى) بالتسلط والسيطرة والوقعية بينه وبين الكومنترن..

وأحمد المدنى ما لبث أن قدم استقالته بحجة «أن الشيوعية بهذا الشكل كثيرة جدا على مصر، وأن البلاد لا تقوى على تحمل مبادئها، وأنه لا يستطيع الاشتراك بالعمل مع اللجنة المركزية الموجودة».

وبعد عدة أسابيع انسحب أيضا السيد هريدى واسكندر صاده..

ثم ما لبث محمد عبدالله عنان أن بدأ هو أيضا الهجوم، لكن هجومه جاء مناقضا تماما لكل ما جاء فى بيانه السابق، فبدأ يهاجم لجنة الإسكندرية: «لأنها خرجت وتمردت على ما اختطه الحزب لنفسه من سياسة الرزانة والتعقل وسرعان ما تأيد خروج تلك الشعبة بما زعمته من أنها قررت نقل لجنة الحزب المركزية إلى الإسكندرية وبما زعمته أيضا من فصل زعماء الحزب ومؤسسيه ورجاله العاملين تخلصا من رقابتهم الحكيمة وسياستهم الرشيدة ولم يقف خروجها عند ذلك الحد، بل إنها تحت ظل اسم الحزب الاشتراكي المصرى ارتكبت الشطط ونادت بأبعد المبادئ تطرفا وأدعاها إلى تشويه هيبة المبادئ الاشتراكية الصحيحة، فلم ير مؤسسوا الحزب عندئذ إلا أن يعلنوا للرأى العام براعتهم من خطر هذه التصرفات وسفه تلك السياسة، وأن يؤكدوا لرفاقهم ومواطنيهم أنهم ملتزمون جانب الرؤية متمسكون بشد أزر الغاية الوطنية».

لكن الناس جميعا كانوا لا يزالون يذكرون هجوم عبدالله عنان على سلامة موسى وكلماته الحاسمة التى تصف نفس الأفكار التى يرددها اليوم بالرجعية.

لكن الشيء الذى يلفت النظر فى بيان محمد عبدالله عنان هو ما يستنتج منه أن اجتماع اللجنة المركزية الذى عقد فى أواخر ديسمبر لم يحضره أحد من القاهرة.. ولا محمد عبدالله عنان نفسه..

والسؤال المطروح هو.. ألم يكن محمد عبدالله عنان سكرتير لجنة الحزب بالقاهرة عضوا فى اللجنة المركزية..؟

أم أن منظمى هذا الاجتماع العاجل اكتفوا بجمع بعض أعضاء اللجنة المركزية فقط.. هذه المسألة من الصعب التأكد منها، خاصة وأن نظام الحزب بالرغم من علنيته لم يكن يسمح بإعلان أسماء أعضاء اللجنة المركزية..

المهم أن عنان لم يشترك فى اجتماع الإسكندرية، يؤكد ذلك ما نشرته الأهرام يوم ٤ يناير نقلا عن رسالة واردة من مكتبة بالإسكندرية فى ٣ يناير «زارنا اليوم حضرة الأستاذ

محمد عبدالله عنان المحامى سكرتير الحزب الاشتراكى المصرى فى العاصمة وأخبرنا أنه قدم إلى الإسكندرية لبحث عن حقيقة الظروف والعوامل التى دعت بعض أعضاء فرع الإسكندرية لفعل بعض أمور أدت إلى إحداث ضجة شديدة حول مبادئ الحزب وغاياته.. ثم إن عنان يذكر فى بيانه الذى نشر فى الأهرام: وأخيرا قامت حول تصرفات شعبة الإسكندرية ضجة ثانية وذكرت الأهرام أن فريقا من الأعضاء قرر أن يسمى الحزب «إباحيا» وأن عضوا من أساطينه قد فصل وأن زميلا له استقال احتجاجا على تلك التصرفات»^(٤).

وهكذا يستقى عنان معلوماته من الأهرام فيسرع إلى الإسكندرية ليتلمس الموقف ثم صدر بيانه الذى يهاجم فيه الحزب ويحرض ضده السلطات فيقول «إن المضى فى التطرف الممقوت ليس من شأنه إلا أن يؤخر الدعوة الاشتراكية وأن يحمل السلطات على عدم الثقة بمبادئنا وأغراضنا العادلة».

ولقد كان عنان من الانتهازيين بحيث هاجم كل المواقف والاتجاهات التى دافع عنها دفاعا حارا منذ أسابيع قليلة وعلى صفحات نفس الجريدة «الأهرام».

ولقد كان من السهل الرد عليه وإفحامه بحججه هو، وبنفس كلماته السابقة لكن الذى تصدى للرد عليه لم يكن موفقا، بل إن طبيعة هذا الشخص - فؤاد الشمالى - توحى بأنه قد اندفع للرد دون تكليف من الحزب.. فقد اكتفى بعبارات عامة لا تقنع أحدا، ثم إذا به يقول «كلمتى إلى زعماء الاشتراكية فى مصر أن يتركوا العمال يتولون بأنفسهم جميع شئونهم لأن الاشتراكية من العمال وللعمال وبالعمال وليست بالتجار والملاك والمحامين»^(٥). فهل كانت كلمات الشمالى موجهة ضد عبدالله عنان، أم أنها غمزة من طرف خفى للقيادة الجديدة ومن أعضائها حسنى العرابى «التاجر» وصفون أبو الفتوح «المدرس» وأنطون مارون «المحامى» وغيرهم من المثقفين^(٦).

وعلى أية حال فإن الحزب لم يكتف بهذا الرد وتوجه عدد من أعضائه إلى مكتب الأهرام بالإسكندرية وطالبوا بنشر رد على عبدالله عنان، لكن الأهرام اكتفى بأن نشر فى اليوم التالى «أن عددا من أعضاء الحزب قد زارنا وأطلعنا على مراسلات كثيرة متبادلة بين زعماء الحزب فى القاهرة والإسكندرية يستدل منها أن هناك أشياء شخصية كثيرة بينهم»^(٦). ولم ينشر الأهرام رأى الحزب.. لكن هذه العبارة توحى - على أية حال - بأن ثمة محاولات قد بذلت لتسوية الأمر مع عبدالله عنان.

وعلى أية حال وبالرغم من بعض النواقص التى أدت إليها محاولة الإسراع الشديد فى التنفيذ، فقد تمكنت اللجنة المركزية من التحكم فى الموقف واستطاعت أن تعد العدة لعقد المؤتمر الثانى للحزب.

ولقد كان الصراع حول حق الحزب فى عقد مؤتمره العام محكماً لموقف السلطات من التطورات الجديدة التى طرأت على الحزب.

والحقيقة أن السلطة كانت قد بدأت منذ فترة فى محاولة تقييد نشاط الحزب وفى ٧ ديسمبر سنة ١٩٢٢ استدعت سلطات الأمن بالإسكندرية روزنتال وأبلغته أنها بأمر مدير الأمن العام تحظر عليه نشر الدعوة الشيوعية وإلا فإن الحكومة قد تفكر فى إبعاده عن البلاد، فرد روزنتال قائلاً: «إنه مصرى الجنسية ويسرى عليه من القوانين ما يسرى على جميع المصريين فإذا كانت الحكومة ترى عمله مخالفا لهذه القوانين فليس أسهل عليها من محاكمته وإلا فلا داعى للتعرض له فى مبادئ ليس فى نيته الكف عن اتباعها»^(٧).

ثم تفجر الموقف من جديد عندما تقدم الحزب بطلب رسمى لسلطات الأمن بالإسكندرية يطلب عقد مؤتمره العام يومى ٦-٧ يناير ١٩٢٣. وقد احتاطت اللجنة المركزية للأمر فقررت أن المؤتمر سوف يصبح قانونيا مهما كان عدد الأعضاء الحاضرين^(٨).

ويقول الأهرام: إنه «كان مفهوما أن أحد أركان النهضة الشيوعية فى إنجلترا وهو الدكتور بول سيأتى إلى الإسكندرية موفدا من قبل الحزب الروسى لحضور هذا المؤتمر.. لكن هذا الرجل لم يأت حتى الآن، غير أن الحزب لا يزال عازما على عقد مؤتمره فى موعده».

ويواصل الأهرام قائلاً: «وقد علمنا أن إدارة الأمن فى الإسكندرية استدعت اليوم المسيو روزنتال سكرتير الحزب الذى فصل منه مؤخراً ومحمود أفندى حسنى العرابى السكرتير العام للحزب وأبلغت كلا منهما على حدة أن وزارة الداخلية قررت أن تمنع عقد المؤتمر الشيوعى الذى ينوى الحزب عقده فى الإسكندرية، وأن البوليس فى هذه المدينة سينفذ هذا الأمر ويحول دون عقد ذلك المؤتمر»^(٩).

لكن الحزب أعلن عن تصميمه على عقد المؤتمر فى موعده ويبدو أنه قد حاول الاستفادة من الامتيازات الممنوحة لأعضائه من الأجانب والتى تمنع البوليس من التدخل إذا ما عقد الاجتماع فى مكان مستأجر باسم شخص أجنبى^(١٠).

وفى ٣ يناير أصدرت اللجنة المركزية نداء إلى الرأى العام العالمى أرسلت صوراً تلغرافية منه إلى الأحزاب الشيوعية بالخارج وإلى النواب الشيوعيين فى البرلمانات المختلفة جاء فيه:

«تقيم بعض الجماعات الرجعية فى مصر اجتماعات ينازلين فيها الشعب المصرى العداء جهرة تحت حماية البوليس. وصحفهم تسيء للبلد فى الداخل والخارج بما ينفثون من سموم بدون مراقبة ولا إزعاج.

ويعلن الحزب الشيوعى المصرى عن عقد مؤتمر له بين أعضائه يومى ٦ و٧ يناير ١٩٢٣ فتعلنه الوزارة المصرية بالتعطيل وتتحداه فتمنع محاضراته الأسبوعية وتحرمه من لسان يعبر عن آمال الشعب المصرى المغلوب على أمره. ففى أى زمن نحن؟ وهل نحن حقاً مستقلون؟ وهل هذه ثمرة الاستقلال المزعوم؟

فإلى الشعوب الأوروبية نشهدها على مهزلة الاستقلال ونجار إليها من المظالم الاستعمارية التى لن يصبر المصريون على تحملها طويلاً»^(١١).

ويتضح من هذه الرسالة أن المسألة لم تكن مجرد منع عقد المؤتمر، بل إن البوليس قد منع أيضاً المحاضرات الأسبوعية بدار الحزب.

وقرر الحزب أن يتوجه أعضاء المؤتمر إلى مقر الاجتماع ولا يتفرقون إلا إذا فرقهم البوليس بالقوة.

وفى الموعد المحدد للاجتماع حاصرت قوات البوليس مكان الاجتماع ومنعت أعضاء المؤتمر بالقوة من دخوله.. واكتفى الحزب بالاحتجاج على هذا المنع..

لكن هذه المسرحية لم تكن إلا ستاراً أخفى الحزب خلفه انعقاد مؤتمره سرا، وإن كان قد اكتفى بأن حضره عدد محدود من الأعضاء، وقد أقر المؤتمر الإجراءات التنفيذية التى اتخذت^(١٢)، كما يبدو أيضاً أن هذا المؤتمر قد وافق على مشروع البرنامج الجديد.

الهوامش

(1) International Press Correspondence V.3.N.

2-5-1-1923. P.21

(٢) ١٩٢٢/١٢/٢٧.

(٣) تضاربت الأقوال حول سبب إصرار الكومنترن على فصل روزنتال فيقول لاکور: إن السبب هو ميول روزنتال الفوضوية (الاتحاد السوفيتي والشرق الأوسط حاشية ص ١٠٦) وثمة شواهد تؤكد هذا الاستنتاج منها أن مقر الحزب الاشتراكي بالإسكندرية كان يضم صورا لماركس ولينين وروزا لوكسمبرج وباكونين «الزعيم الفوضوي». كذلك ثمة رواية شخصية سمعتها تقول: إن روزنتال هو الذي اقترح على سلامة موسى ترجمة «نداء إلى الشباب لباكونين» ويقول لاکور في كتابه «الشيوعية والوطنية في الشرق الأوسط» أن روزنتال كان ضمن الأقلية التي عارضت الانضمام للدولية الثالثة ص ٢٣ كذلك نلاحظ أيضا في شهادة روزنتال أمام النيابة - راجع الملاحق - إن لروزنتال تحفظات على شروط الدولية إذ يقول وأعرفها جميعا ولو كنت أحد واضعيها ربما كنت لا أوافق على مجموعها. ومما تجدر الإشارة إليه أن أفجدور واسمه الحقيقي «بهيل كوسي» وهو زوج ابنة روزنتال كان في ذلك الوقت ممثل الكومنترن في مصر. وإن شارلوت روزنتال ظلت عضوا في الحزب، بل وأصبحت في عام ١٩٢٥ عضوا في اللجنة المركزية للحزب.

(٤) الأهرام ١٩٢٣/١/٤.

(٥) الأهرام ١٩٢٣/١/٩.

(*) على أية حال ما لبث فؤاد الشمالي أن انسحب من الحزب معلنا تأسيس حزب جديد أسماه «الحزب الاشتراكي السوري اللبناني» مقره الإسكندرية وأصدر بيانا مليئا بالتخبط يقول فيه «شرعنا في تكوين جمعية ترمي إلى تحرير سورية ولبنان سياسيا واقتصاديا وقلنا: اشتراكي لا شيوعي؛ لاننا وجدنا معنى الشيوعية يتفق والإباحية.. ولما وضعنا مبادئنا الأساسية التي استخلصناها من الدولية الثالثة رأينا أنها تتنافر مع معنى الشيوعية والإباحية.. وما نحن سوى لسان حال الطبقة العاملة المغلوبة على أمرها نعمل لتحسين حال العمال على قدر المستطاع في الوقت الحاضر، ونرمي إلى تسليم مقاليد الأحكام وزمام الأمور إلى طبقة العمال والفلاحين في أول فرصة تمكننا...» (الأهرام ٢٦ مايو ١٩٢٣) لكن سلطات الأمن لم تسكت على محاولة الشمالي تأسيس حزب سوري لبناني بالإسكندرية فاستدعته وأذنته وقالت له - على حد قول مراسل الأهرام - «يجب أن تسكت وتحذر» (الأهرام ١٩٢٣/٦/١١) وقد سكت الشمالي ويبدو أنه قد غادر البلاد على الفور إلى الشام حيث شارك هناك في تأسيس الحزب الشيوعي السوري اللبناني.

وقد ظهر اسمه فيما بعد عضوا في اللجنة التنفيذية للعصبة المعادية للإمبريالية، ثم ما لبث أن أبعد أيضا من صفوف الحزب الشيوعي السوري اللبناني.

(٦) الأهرام ١٩٢٣/١/٦.

- (٧) رؤوف عباس - المرجع السابق - ص٢٤٤.
- (٨) رؤوف عباس - المرجع السابق - ص٢٤٤.
- (٩) الأهرام ١٩٢٣/١/٤.
- (١٠) عبدالعظيم رمضان - المرجع السابق - ص٥٣٦.
- (١١) الأهرام ١٩٢٣/١/٥.
- (١٢) عبدالعظيم رمضان - ص٥٣٦، رؤوف عباس - ص٢٤٤. وشهادة روزنتال - بالملاحق.

موجة من النشاط العام

وبرغم هذه الظروف المعقدة فإن الحزب قد مارس ابتداء من أول عام ١٩٢٣ نشاطا ملحوظا وواسع النطاق فى مختلف المجالات وفى مختلف الاتجاهات. فأصدر الحزب برنامجه - الذى سبقت الإشارة إليه - وكان بغير شك برنامجا ممتازا يعبر عن المتطلبات الحقيقية للمجتمع المصرى، وكان نموذجا للموقف الطبقي الواضح فى إظهار الفهم السليم للقضية الوطنية فى بلد مستعمر..

ويكفى للحكم على هذا البرنامج أن نورد هنا فقرة من حيثيات الحكم الصادر ضد قادة الحزب فى عام ١٩٢٤.

ففى هذه الوثائق تحاول هيئة المحكمة أن تتحدث عن هذا البرنامج فتقول «وحيث إنهم ابتدأوا هذا البرنامج بأمور تتعطش إلى كثير منها نفس كل مصرى وتود تحقيقها ليجعلوا هذا البرنامج نافذا إلى العقول»^(١).

كذلك ينفي الحزب فى برنامجه وخطوطه العامة سياسة سليمة تجاه القوى الوطنية الأخرى. ففى هذا البرنامج بأمور تتعطش إلى كثير منها نفس كل مصرى وتود تحقيقها ليجعلوا هذا البرنامج نافذا إلى العقول»^(١).

كذلك ينفي الحزب فى برنامجه وخطوطه العامة سياسة سليمة تجاه القوى الوطنية الأخرى. ففى هذا البرنامج بأمور تتعطش إلى كثير منها نفس كل مصرى وتود تحقيقها ليجعلوا هذا البرنامج نافذا إلى العقول»^(١).

- العمل على تحرير مصر والسودان تحريرا تاما خاليا من كل شائبة وربط الشعبين أحدهما بالآخر لينتفعا معا ويتمكنا من استثمار ثروتهما الطبيعية وتعميم نفعها فى البلدين، ويتعاوننا على شن الغارة على مهتضميها سواء كانوا وطنيين أو أجنبيا.

- إلغاء الدين العمومى الذى تستعمله القوة الاستعمارية لاستعباد الشعب المصرى استعبادا اقتصاديا.

- إلغاء الامتيازات الأجنبية.

- المطالبة بحرية الاجتماعات والمطبوعات والخطابة والإفراج عن المسجونين السياسيين.

وهى جميعا مطالب وطنية وقومية يمكنها أن تمنح الحزب مكانا وسط القوى الوطنية التى كانت تغلى بالغضب من تهاون القيادات والزعامات مع الاستعمار. ونود هنا أن نلاحظ أن هذه المطالب لم ترد فى البرنامج الذى أورده شهدى عطيه والذى قلنا فى فصل سابق: إننا نعتقد أنه البرنامج الذى أصدره الحزب عقب مؤتمره الثانى فى أوائل عام ١٩٢٣.

وإنما وردت ضمن حيثيات الحكم السابق الإشارة إليه مع تأكيد من هيئة المحكمة بأن هذه المواد كانت ضمن البرنامج المطبوع الذى أصدره الحزب فى كتيب مع الشروط الواحد وعشرين للدولية الثالثة.

لكن ذلك لا يشكك فى صحة البرنامج الذى أورده شهدى، فإن معظم نقاط هذا البرنامج مشار إليها وواردة بنفس العبارات فى حيثيات الحكم.

كذلك نلاحظ أن لأكور فى كتابه «الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط» لم يورد هذه المطالب أيضا وإن كان قد أشار إلى مطالب لم ترد عند شهدى ووردت فى حيثيات. وهى إلغاء الامتيازات الأجنبية^(٢).

ونحن نعتقد أن ما أورده المحكمة فى حيثياتها منقول من الديباجة الطويلة التى اتفق الجميع على أنها كانت تنصدر البرنامج.. بينما اكتفى شهدى بنقل مواد البرنامج ذاته.

كذلك فإن الحزب قد اهتم بتثقيف أعضائه وبدأت حملة لترجمة عديد من الكتب إلى اللغة العربية، كذلك وزعت مطبوعات باللغات الأجنبية على الأعضاء الأجانب.

وتقول الحيثيات أنهم «كانوا ينشرون بعض الكتب والرسائل الموضوعة في هذا المذهب مترجمة وغير مترجمة، وأن المتهم الأول محمود حسنى العرابى ترجم إلى العربية كتاب بوخارين أحد زعماء الحركة الشيوعية وكان يوزع على أفراد الشعب». كذلك يقرر بعض الأعضاء أنهم كانوا يتلقون مطبوعات عديدة وكتباً للينين مترجمة إلى العربية»^(٣).

ويرد فى الحيثيات أيضا ما يوحى بأن الحزب قد بدأ حملة من الدعاية النشطة لترويج أفكاره..

«فالمتهم الثالث صفوان أبو الفتوح، وهو مدرس فى إحدى المدارس كان يملأ على تلاميذه بعض «المواضيع» التى يحبذ فيها الشيوعية.. والمتهم الحادى عشر عبدالحيظ عوض كان يطرح الشيوعية على ملأ من طلاب المعهد الدينى بطنطا وفى منزل أحد وجهائها ويزعم أنها موافقة للدين الإسلامى».

وقد حرص الحزب على أن يعلن راية فى كل مناسبة عامة. وفور صدور دستور ١٩٢٣ اجتمعت اللجنة المركزية للحزب فى ٢٨ أبريل وأصدرت بيانا وقَّعه «صفوان أبو الفتوح» والقائم بأعمال السكرتير العام هاجم فيه الدستور هجوما شديداً.

وعندما تولى سعد زغلول رئاسة الوزارة وجه إليه الحزب «خطاباً مفتوحاً» تولى الحزب طبعه وتوزيعه.. وقد طالبه فيه «بالاعتراف بنقابات العمال والفلاحين وبحقها فى الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية» وطالبه بالعمل أيضا على حل مشاكل العمال العاطلين «وبإنشاء مكاتب لإحصاء العمال العاطلين» كذلك طالبه «بتكليف لجان الوفد المركزية فى كل أنحاء القطر بأن تقوم بتنظيم فقراء الفلاحين فى نقابات ترفع مستواهم أسوة بإخوانهم فى أنحاء العالم وإيجاد صلة بين هذه النقابات ونقابات العمال حتى يمكن حشد القوى المصرية كلما تطلبت الحاجة..» وأخيرا طالب حكومة سعد زغلول «بالاعتراف بحكومة السوفيات أسوة بالأمم المتقدمة»^(٤).

ولهذا الخطاب المفتوح أهمية خاصة، فهو يوضح أن الحزب قد اتخذ موقفا صحيا إزاء حكومة الوفد وأنه سعى إلى تأييدها تأييدا مشروطا بتحقيق أمانى العمال والفلاحين.. بل إن الحزب قد سعى إلى العمل من خلال تجمعات الوفد ذاتها بمطالبته لجان الوفد فى كل أنحاء القطر بأن تعمل على تنظيم فقراء الفلاحين.

ولقد حاول الحزب فى خطابه المفتوح أن يقنع سعد زغلول بأهمية تعبئة قوى العمال والفلاحين وتعزيز التحالف بينهما «حتى يمكن حشد القوى المصرية كلما تطلبت الحاجة» موحيا إليه أن الاحتلال لن يصبر على وجوده طويلا فى الحكم، وإن عليه أن يستند إلى قوى الشعب «.. كلما تطلبت الحاجة».

وقد أدركت قيادة الحزب حاجتها الشديدة إلى تربية كوادر مدربة من الشباب تطلع بالعمل الحزبى، فقررت إرسال عشرة من الشباب إلى موسكو للدراسة فى «جامعة كادحى الشرق» وبالفعل أرسل الحزب أربعة من الشباب وكان من المقرر أن تلحق بهم فتاتان إحداهما من الزاقزيق والأخرى من سمنود، الأمر الذى أثار جريدة الأهرام التى اعتبرت «أن إرسال البنات إلى روسيا الحمراء تطرف غير حميد» وطالبت الحكومة بمنع الفتاتين من السفر^(٥).

كذلك قررت قيادة الحزب تأسيس مدرسة للكادر فى الإسكندرية لتلقين الأعضاء مبادئ الشيوعية^(٦).

ويبدو أن مسألة إرسال شبان للدراسة بالاتحاد السوفيتى قد لقيت اهتماما كبيرا من جانب الشعب المصرى الذى كانت غالبية محرومة من التعليم وقد أعد الحزب استمارات خاصة انهارت عليها طلبات كثيرة..

وتحفظ لنا تحقيقات قضية قادة الحزب فى ١٩٢٤ نماذج عديدة من طلبات السفر حررها على سبيل المثال سليمان مصطفى هدايت وأخته، وقد شهد سليمان هذا أمام المحكمة «أنه قرأ فى إحدى الصحف أن الحزب الشيوعى المصرى يرسل بعثة للتعليم فى الخارج فقدم طلبا باسمه وطلبا باسم أخته، فلما جاء الجواب وجد الطالب أن البعثة شيوعية فلم يوافق عليها.

كذلك طلب الانضمام إلى البعثة محمد أفندى عوض جبريل مدير شركة التعاون التابعة لموظفى السكة الحديد والسيد العنانى التاجر بكفر الزيات الذى أرسل إلى حسنى العرابى يطلب الانضمام إلى البعثة المسافرة إلى موسكو فجاء رد من الشحات إبراهيم بأنه لا يمكن الالتحاق بالبعثة إلا بعد الالتحاق بالحزب وأرسل إليه استمارة عضوية.. وثمة طلبات أخرى عديدة^(٧).

كذلك سعى الحزب إلى توسيع نطاق دعايته مستخدما الفنون التشكيلية فطلب حسنى العرابى إلى أحد الرسّامين من أعضاء الحزب، وهو حسين فوزى رسم صورتين كبيرتين

«إحداهما تمثل العامل حاملا علما أحمرًا قاصدا وضعه فوق الشمس، والأخرى تمثل العامل يحرث وأمامه صاحب العمل ممسكا بملعقة فى يده، وكأنه يأكل بها رمزا على أن العامل يشتغل وصاحب المال يأكل»^(٨).

نشاط واسع وسط العمال

وقد ركز الحزب جهوده من أجل دعم مراكزه وسط الحركة العمالية وتأسيس النقابات وتدعيم اتحاد النقابات.. كذلك عمل الحزب على ضم عدد من القادة النقابيين إلى صفوفه وتصعيدهم بسرعة إلى مراكز القيادة وعبد الحميد تراه أحد قادة شركة الشرق للغزل. وقد سيطر الحزب تماما على عدد من النقابات، منها نقابة عمال الغاز ونقابة عمال النور ونقابة شركة إيجولين ونقابة شركة الغزل بالإسكندرية ونقابة عمال الترام ومعمل أبوشنب.

ويقول لأكور: إن اتحاد النقابات المصرى الذى تزعمه الشيوعيين قد انضم فى أواخر عام ١٩٢٢ إلى الاتحاد العالمى للنقابات^(٩).

ويقول مراسل مجلة The Labour Monthly: إن اتحاد نقابات العمال الذى ظل تحت قيادة الشيوعيين حتى ١٩٢٣-١٩٢٤ كان فى طريقه إلى أن يصبح حركة جماهيرية حقا^(١٠).

وقد بدأ الحزب فى تنظيم سلسلة من الإضرابات، من أهمها إضراب عمال إضاءة مصابيح الشوارع بالإسكندرية فى شهر فبراير ١٩٢٣، وقد تعلم الإضراب عقب اجتماع لعمال الشركة حضره حسنى العرابى الذى ألقى خطابا حماسيا، ومما تجدر ملاحظته أن العمال قد أضربوا دون إنذار الشركة مسبقا.

ولم يكتفِ العمال بالإضراب لكنهم نظموا مجموعات من بينهم؛ لتمنع الشركة من استخدام عمال آخرين فى إضاءة مصابيح الشوارع.

وتنشر الأهرام الخبر التالى «أبلغ أحمد مصطفى أن ثمانية من عمال الإضاءة العمومية المضربين عن العمل الآن اعتدوا عليه فى أثناء اشتغاله بإضاءة المصابيح»^(١١).

وقد استمر هذا الإضراب أكثر من شهر، وبما أن نقابة عمال إضاءة المصابيح العمومية عضو فى اتحاد النقابات العام فقد قرر الاتحاد تصعيد تأييده للعمال المضربين إلى حد دعوة العمال فى جميع أنحاء القطر للتظاهر تأييدا لإخوانهم المضربين^(١٢).

وهذه خطوة مهمة بغير شك، إنها وضع لشعار وحدة الطبقة العاملة موضع التنفيذ وتشجيع العمال في كل مكان إلى التحرك مطمئنين إلى تأييد الطبقة كلها.

وكان رد الحكومة على هذا الإضراب أن أصدرت قانوناً يحرم على عمال الخدمات العامة الإضراب أو الامتناع عن العمل^(١٣).

ويحظر على العمال الإضراب قبل إخطار السلطات بخمسة عشر يوماً ويعتبر الإضراب المفاجيء جريمة^(١٤).

وفي نفس الوقت بدأ الحزب - بعد أن دعم مراكزه في عديد من النقابات - في شن هجوم عنيف على لجنة التوفيق. وهي لجنة حكومية تكونت في ١٩١٩ برئاسة أجنبي، هو الدكتور جرانفيل بهدف السعي في الصلح بين العمال وأصحاب العمل.

وقد بدأ الحزب حملته بتوجيه «خطاب مفتوح» إلى أعضاء لجنة التوفيق وقعه حسنى العرابي سكرتير الحزب وسكرتير اتحاد النقابات العام.. شن فيه حملة عليهم واتهمهم بالاستبداد والتآمر مع أصحاب الأعمال.

ونشر فؤاد الشمالى بياناً قال فيه: إن لجنة التوفيق «حجر عثرة في سبيل العمال»، وإنها وإن لم تكن لها سلطة تنفيذية إلا أنها ترفع تقاريراً يتأثر بها المسؤولون^(١٥).

وشارك روزنتال في الحملة على لجنة التوفيق - رغم فصله من الحزب - فقال إنهم لا نفع فيها ولا تأثير لها وأن وجودها كما هي لا يتفق مع مصلحة العمال، وذلك «لأنها لا تملك سلطة تنفيذية، وليست لها سلطة قانونية تشريعية، ولأن أعضاءها يعملون لمصلحة الأغنياء، وإن كانوا هم أو بعضهم لا يعدون من طبقة الأغنياء» إلا أن مبدأهم هو مبدأ الرأسماليين^(١٦).

والحقيقة أن هذه الحملة ضد لجنة التوفيق لم تنظم مصادفة، فهي تعبير عن رفض الحزب لأسلوب المصالحة بين العمال وأصحاب الأعمال وتعزيز للموقف الإضرابي والنضالي للطبقة العاملة ومطالبة بتعديل جذرى لأسلوب الحكومة تجاه العمال.

وبعد أن نضجت المعركة ضد لجنة التوفيق قرر الحزب في ١٦ مارس سنة ١٩٢٢ تنظيم مظاهرات للعمال أمام منازل أعضاء لجنة التوفيق.

واستدعت سلطات الأمن حسنى العرابي وطلبت منه منع المظاهرات فأعلن أن هذه المظاهرات تنظم وفقاً لقرار صادر من اتحاد النقابات، وإنه شخصياً لا يستطيع إلغاء هذا

القرار.. وقال: إن هذه المظاهرات هي مجرد تعبير عن شكوى العمال، وليس من شأنها الإخلال بالأمن العام.

وصممت الحكومة على منع المظاهرة وفي يوم ١٨ مارس أحيط مقر اتحاد النقابات بقوات كبيرة من رجال البوليس.. وحاول العمال أن يصلوا فرادى من مختلف الاتجاهات لكن قوات البوليس منعتهم من الدخول ومن التجمع. وحدث اشتباك بين العمال والبوليس انتهى بأن ألقى القبض على أربعة من زعماء الاتحاد، حسنى العربى وأنطون مارون وحسنى حسن وأمين يحيى وأقفل مقر الحزب ومقر اتحاد النقابات وصودر ما بهما من أوراق، وأخرج البوليس من كان فى المكان من العمال بالقوة وأغلق الأبواب بالشمع الأحمر.

لكن استخدام القوة لم يكن نهاية المعركة، بل كان بداية لتجديدها فبدأت النقابات فى مختلف أنحاء البلاد فى إرسال احتجاجات على إغلاق نادى النقابات وعلى اعتقال قادة الاتحاد، وبرز روزنتال إلى الميدان محاولاً أن يبدو فى صورة الفارس الذى يتقدم عندما يشتد الخطب ويسجن الرفاق.. و«تقدم للحكومة معلناً استعداداه لدفع أية كفالة تطلبها مقابل الإفراج عن الرفاق الأربعة، ورفض طلبه وتقرر تقديم الأربعة المقبوض عليهم إلى المحكمة العسكرية بتهمة مخالفة الأوامر العسكرية القاضية بمنع التظاهر والاعتداء على رجال البوليس»^(١٧).

لكن السلطات تاباطأت فى تقديم المعتقلين إلى المحاكمة، ومضت شهور ثلاثة دون أن يقدموا للمحاكمة فأصدر الحزب بياناً «إلى عمال القطر المصرى» ينشادهم فيه المطالبة بالإفراج عن الرفاق. وفى مايو ١٩٢٣ اجتمع اتحاد نقابات العمال بالإسكندرية وبحث أمر المعتقلين وقرر إيفاد وفد إلى المحافظة للمطالبة بالإفراج عنهم.

ويبدو أن الحملة كانت واسعة ومثمرة حتى أن الأهرام قد شارك فيها مندداً بموقف الحكومة ومتسائلاً فى دهشة «حقاً إننا لا ندرى كيف تتجاهل الحكومة وجود حركة اشتراكية جادة بين ألاف العمال فى مدن القطر المصرى مع أن الواقع على سبيل الأحوال يرى أن هذه الحركة أخذت بالنمو...؟!».

ويندد الأهرام بسياسة استخدام القوة التى نهجتها الحكومة تجاه قادة الحركة قائلاً: «وغنى عن البيان أن معالجة حركة العمال بالقوة لا يجدى نفعاً، بل يزيد الطين بلة فلا بد من معالجتها بطريقة أخرى...».

واقترح الأهرام بعد ذلك سن تشريعات جديدة للعمال تكفل حقوقهم^(١٨).

لكن المعتقلين ما لبثوا أن أفرج عنهم عندما ألغيت الأحكام العرفية^(١٩).

ولقد رأينا كيف أن اعتقال قادة الحزب والاتحاد وإغلاق داريهما لم يؤد إلى تضاؤل النشاط، بل على العكس تزايد نشاط الحزب وسط الطبقة العاملة تزايدا كبيرا.. وكان عيد أول مايو مناسبة لمزيد من النشاط وبدأت النقابات المنضمة إلى الاتحاد في الاستعداد للاحتفال بهذا العيد.

وأصدر مجلس إدارة نقابة عمال النور نداء إلى العمال جاء فيه:

«بمناسبة حلول عيد أول مايو الدولي للعمال نرفع تهانينا القلبية لجميع العمال بالأقاليم ونتمنى لنقابتنا الاستمرار والمثابرة ولعمالنا الاتحاد والتضامن لرؤساء النقابات المعتقلين الإفراج، ولسجونى العمال إطلاق السراح، ونرجو اعتبار هذه التهنئة خاصة لكل نقابة». ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى نفوذ الحزب الواضح فى هذا البيان الصادر عن مجلس إدارة نقابة من أهم النقابات.

كذلك أصدر اتحاد النقابات قرارا بأن «ينقطع جميع العمال عن العمل فى أول مايو، وأن يجتمع عمال الإسكندرية فى حديقة محمد على بالمنشية، فلما نمت الخبر إلى البوليس أصدر أمرا بمنع هذا الاجتماع وأبلغ الأمر إلى لجنة العمال»^(٢٠).

وعندما تولى سعد زغلول الحكم بعد الانتخابات التى أجريت على أثر إعلان دستور ١٩٢٣^(٢١) بادر الحزب بإصدار الخطاب المفتوح السابق الإشارة إليه، داعيا الوفد إلى الالتقاء مع الحركة الجاهيرية على أسس معقولة، غير أن سعد زغلول قد تجاهل هذه اليد التى مدها إليه الحزب.

ويبدو أن حكومة سعد زغلول كانت تتحرج من اتخاذ أى موقف جاد تجاه أصحاب رؤوس الأموال الأجانب، فهى أول حكومة وطنية تمثل الأغلبية، وربما خشيت من اتخاذ أى موقف حتى لا تثير مخاوف الأجانب، لكن هذا الموقف المتهاون أدبى إلى نتيجة خطيرة. لقد تمادى أصحاب رؤوس الأموال فى رفض مطالب العمال، بل لقد كان وصول سعد زغلول إلى الحكم بمثابة إبطاء حركة حركته المضاد شنها أصحاب رؤوس الأموال ضد الحزب. وربما كان هدف هذه الحركة إخراج الحزب من الحكومة. وبما أن الحزب لم يكن له موقف المتهاون من سعد زغلول فقد كان يفتن سعد زغلول فى موقفه المتهاون من الحزب.

التراجع، وربما كان الأمرين معا، لكن النتيجة أن العمال الذين ضحوا بدمائهم فى معارك طاحنة دفاعا عن سعد زغلول والذين سقطوا شهداء بالعشرات، وهم يهتفون بحياة سعد لم يكن سهلا عليهم أن يسكتوا على محاولة انتزاع حقوقهم الضئيلة التى نالوها خلال سنوات مريرة من التضحيات.

والحقيقة أن العمال قد تعرضوا لحملة اضطهاد حقيقية.. ولنتأمل بعض النماذج: ففى نوفمبر ١٩٢٣ وبدون أى مبرر أعلنت شركة الغزل بالإسكندرية عزمها على تخفيض أجور العمال ١٠٪/ فأضرب العمال عن العمل واستمر الإضراب ثلاثة أشهر متواصلة وعرض الأمر على لجنة التوفيق التى حاولت أن تقنع الشركة بالتراجع عن موقفها المتعسف، لكن الشركة صممت على موقفها.

وأخيرا وافق العمال مرغمين على قبول هذا الوضع الجائر بشرط أن تتعهد الشركة بتوفير ظروف أفضل للعمل وأن تمنحهم مكافآت فى حالتى العجز والمرض، وأنهى العمال الإضراب وعادوا إلى العمل إلا أن الشركة صممت على فصل خمسة من زعماء العمال بالرغم من تعهداتها بعدم فصل أى من العمال المضربين.

فتفجر الموقف من جديد^(٢١) ومما تجدر الإشارة إليه أن نقاية هذه الشركة كانت منضمة لاتحاد النقابات العام، وكان أنطون مارون مستشارها القانونى.

وثمة نموذج آخر.. هو مصنع «ايجولين» للزيت وهو مصنع كان يديره روسى أبيض هرب من روسيا عقب الثورة.. حيث تقدم العمال ببعض المطالب فماطلت الشركة ثم اتبعت خطة فصل خمسة أو عشرة عمال كل أسبوع، ثم قررت فجأة فصل مائة عامل بحجة تقليل المصروفات.. وكانت هذه النقابة إحدى النقابات التى يتمتع فيها اتحاد النقابات بنفوذ كبير، وكان أنطون مارون مستشارها القانونى أيضا.

ويبدو أنهم أحسوا أن صاحب المصنع يريد أن يستفزههم ليدفعهم دفعا إلى الإضراب فاتخذوا موقفا غاية فى التساهل فأعلنوا استعدادهم - إذا ما عدلت الشركة عن فصل المائة عامل - أن يقبضوا أجر خمسة أيام بدلا من سبعة كل أسبوع، وبذلك يمكن للمصنع أن يوفر المبلغ المطلوب دون أن يفصل أحدا من العمال.

وهنا يبرز الموقف المتعنت بصورة لا تدع مجالا للشك، فصاحب المصنع يصمم على فصل المائة عامل..^(٢٢).

وفى نفس الوقت تقدم عمال شركة الملح والصودا، ونقابتهم أيضا إحدى النقابات المنضمة للاتحاد بعدة مطالب إلى الشركة، وتلخصت مطالبهم فى زيادة الأجور وتحسين معاملة الشركة لهم وإنقاص ساعات العمل وأنذر العمال بالإضراب عن العمل إذا لم تجب مطالبهم خلال عشرة أيام لكن الشركة لم تجب هذه المطالب فبدأوا الإضراب فى أول مارس ١٩٢٤ وعرض الأمر على لجنة التوفيق التى طالبت بدورها الشركة إجابة بعض المطالب وتعهدت الشركة بذلك، لكنها ما لبثت أن فصلت ٤٠ من قادة العمال بحجة أنهم عمالة زائدة، لكنها ما لبثت أن استخدمت غيرهم بأجور عالية.. فتجدد الإضراب بصورة أكثر عنفا..

إنها مجرد نماذج نسوقها محاولين أن ندلل على أن ثمة مؤامرة كانت تحتاج لوضع العمال وجهها لوجه أمام حكومة سعد، وتضع حكومة سعد وجهها لوجه أمام الحزب الشيوعى، والنماذج السابقة توضح كيف أن الحزب واتحاد النقابات التابع له كانا يدركان إلى حد ما أبعاد هذه المؤامرة وأنهما قد حاولا تفاديها قدر الإمكان بأسلوب سياسى فى البداية عندما وجه الحزب خطابه المفتوح إلى سعد زغلول.

ثم محاولة التساهل، بل الوصول بسياسة التساهل إلى مدى بعيد لم تشهده من قبل التشكيلات النقابية المصرية.

لكن أصحاب رؤوس الأموال الأجانب تهادوا فى صلفهم، وتمادت حكومة الوفد فى تهاونها معهم، ولم تستطع أن تتصدى لتحديهم السافر لحقوق العمال.. ولم يكن أمام الحزب واتحاد النقابات سوى اللجوء إلى سياسة الإضراب على نطاق واسع فى حملة إضرابية لم تشهد لها مصر مثيلا منذ الإضرابات التى صاحبت ثورة ١٩١٩.

لكن أصحاب الأعمال اتبعوا خطة جديدة، وهى استخدام عمال جدد. حدث ذلك أثناء إضراب عمال شركة النور وأثناء إضراب عمال مصنع ايجولين وشركة زيوت كفر الزيات وغيرها، وهنا رفع اتحاد النقابات شعار «أينا العمال.. ضعوا أيديكم على المحراث باستمرار» ومعنى هذا الشعار أن يحتفظ العمال بمواقعهم فى المصانع حتى لا تقوم الشركة باستخدام عمال جدد، خاصة وأن جيش العاطلين كان يتزايد بأعداد ضخمة.

وهكذا بدأت تحت قيادة الحزب واحدة من أعتى الموجات الإضرابية التى شهدتها مصر. فعمال شركة الغزل بعد أن أصرت الشركة على فصل زعماء نقابيتهم أعلنوا الإضراب من جديد، لكنهم طبقوا شعار اتحاد النقابات «ضعوا أيديكم على المحراث باستمرار». ويصف مراسل الأهرام الإضراب فيقول «لقد احتلوا مصانع الشركة احتلالا مستمرا فكانوا يشتغلون نهارا وينامون فيه ليلا منذ ثلاثة أيام حتى لا يمكنوا الشركة من غلق أبوابها فى وجوههم، كما فعلت فى المرة السابقة «ولتظل أيدهم على المحراث» وهذه خطة جديدة من خطط المقاومة اهتمت لها الشركة اهتماما كبيرا؛ لأنها تغل أيدها وتعرض آلاتها للعطب إذا ثار العمال عليها..»^(٢٣).

أما عمال شركة «ايجولين» للزيت فقد وضعوا نفس الشعار موضع التطبيق، وتقول الأهرام «إنهم احتلوا المصنع منذ قيامهم للمطالبة بما يزعمون أنه حق لهم وانقسموا إلى فريقين يتناوبان الاحتلال بمعنى أن تظل فرقة منهم فى المصنع وتخرج الفرقة الأخرى للأكل والشرب والراحة والمطالبة»^(٢٤).

وكذلك فإن عمال شركة الملح والصودا قرروا احتلال المصنع وتوجهوا إلى مقر المصنع، لكن قوات البوليس كانت قد سبقتهم إليه ومنعتهم بالقوة من الدخول. كذلك فإن نقابة معمل أبوشنب للزيت والصابون بالإسكندرية - وهى إحدى النقابات المنضمة لاتحاد النقابات ومستشارها أيضا هو أنطون مارون- تقدمت بعدد من المطالب من بينها تخفيض ساعات العمل، زيادة الأجور، وصرف إعانات للعاجزين والمرضى من العمال، لكن صاحب العمل رفض هذه المطالب.

ويصف الأهرام الواقعة فيقول: «ذهب عمال معمل الخواجة أبى شنب اليوم إلى المحافظة طالبين النظر فى مسألتهم فأبلغهم وكيل المحافظة أن وزارة الداخلية أمرت بإحالة هذه المسألة إلى لجنة التوفيق، وكان الأستاذ أنطون مارون يتكلم باسمهم فتبرم من هذه الإحالة وأعلن انسحابه من الدفاع عن العمال. عندئذ ذهب العمال إلى محل عملهم يقصد احتلاله حتى لاتذهب قوة الإضراب من أيديهم، ودخلوه عنوة بالرغم من تدخل البوليس فى الأمر.

وقد تصادم الفريقان فجرح من البوليس شرطيان وأصيب بعض العمال إصابات خفيفة وقد دخل ٢٥٠ من العمال إلى محل العمل. أما أصحاب العمل فيرفضون البحث فى أمر عمالهم تحت تهديد الإضراب»^(٢٥).

وامتدت موجة الإضرابات لتشمل عمال تفتيش حلق الجمل التابع لشركة البحيرة، وقد استمر الإضراب ستة أسابيع وعمال شركة زيت فاكوم وعمال شركة زيوت كفر الزيات وعمال شركة النور وشركة مينو للإعلان وترام القاهرة وشركة هيليوبوليس وتليفونات القاهرة وعمال المخابز^(٢٦).

وامتألت شوارع القاهرة والإسكندرية بمظاهرات العمال المطالبين بحقوقهم.. كذلك امتألت بمظاهرات العمال العاطلين الذين تجمعوا في ظل هذه الموجة مطالبين «بالخبز أو العمل».

تقول الأهرام «نهض اليوم نحو ١٧٠ عاملا من البرشمجية العاطلين في الثغر وقدموا عريضة إلى السلطة المحلية وبيانا إلى رأى العام والصحف يبسطون فيه حالهم^(٢٧)». وقد هزت هذه الموجة الإضرابية العمالية أركان الحكومة، وشعر سعد زغلول أن هيبة حكومته تضعف وأن جماهيريتها تهتز، وأن استمرار الإضرابات والمظاهرات العمالية يفقد حكومته صفة الشعبية، ولا شك في أنه قد تعرض لضغط كبير من أصحاب الأعمال الأجانب ومن سلطات الاحتلال التي قيل أنها هددت بإرسال قوات إنجليزية لحفظ النظام طالما أن الحكومة الوطنية عاجزة عن ذلك..

وتعالت الصيحات تحذر من الخطر البلشفي الذي يحيق بالبلاد، وفسر احتلال العمال للمصانع بأنه تنفيذ لخطط بلشفي بالاستيلاء على المصانع ونقل ملكيتها إلى العمال.. وقيل أن العمال قد رفعوا أعلاما حمراء على المصنع وأنهم أقاموا فيها سوفيات^(٢٨). وتسهم الأهرام في حملة التخويف فتعلن «انفجرت الحركة الاشتراكية الملحقة بالشيوعية - في هذين اليومين في الإسكندرية- انفجارا قويا حمل الحكومة على المبادرة إلى معالجتها والاستعداد لقمعها بالقوة المسلحة إذا قضت الحال» وتمضى الأهرام قائلة «إننا نرجو أن تتخذ وزارة الشعب التدابير اللازمة لمنع تكرار ذلك، وأن تقضى على المذهب الشيوعي قبل استفحاله. إن للعمال حقوقا يجب أن تصان، ولكن لهذه الحقوق حدودا يجب ألا تتجاوزها وإذا كانت الصحافة قد عطفت عليهم، فإنه لا يسعها اليوم إلا أن تحذرهم من عواقب الميل إلى الشيوعية والتشبع بالمبادئ المتطرفة»^(٢٩).

ثم هي تحمل الحزب الشيوعي المصري مسؤولية هذه الحركة كاملة فتقول «تنسب الحكومة حركة العمال القائمة في الإسكندرية الآن -والتي بدأت في ٢٣ فبراير الماضى-

إلى تحريض الحزب الشيوعي المصرى ودعائه فى الإسكندرية وقد قررت بمناسبة ذلك أن تجتث هذه الحركة من أصولها للمحافظة على النظم الاجتماعية المحلية»^(٣٠).

وأوفدت الحكومة على جمال الدين باشا وكيل وزارة الداخلية إلى الإسكندرية مزودا بسلطات كبيرة لقمع حركة الإضراب بالقوة.. «ووضعت تحت تصرفه قوة من الجند أرسلتها خصيصا إلى الثغر من القاهرة»^(٣١).

ونزل سعد زغلول إلى الميدان بثقله الجماهيرى الكبير وبدأ يتدخل بنفسه موجها رسائل باسمه إلى العمال المضربين.. وعندما قرر عمال ترام القاهرة الإضراب أرسل إليهم سعد رسالة ينصحبهم فيها بالعدول عن الإضراب، ورد عليه العمال بالرسالة التالية:

«لقد قابلنا نصيحتكم بالطاعة والامتثال واستأنفنا أشغالنا اليوم راجين النظر فى أمرنا داعين لدولتكم بطول البقاء حتى نتقذونا من الجور النازل بنا»^(٣٢).

كما وجه سعد زغلول أيضا رسالة إلى عمال معمل «أبوشنب» توجه بها رجال المحافظة إلى العمال المعتصمين معلنين أن لديهم رسالة شخصية من صاحب الدولة الرئيس الجليل سعد زغلول تقول:

«إنكم إن احترمت ملكية الغير، وخرجتم من مكان الشركة طوعا فإنكم تعاملون معاملة المخلصين للقانون والوطن. وإن أبيتم إلا احتلال ملك الغير اغتصابا فإنكم تعاملون معاملة الغاصبين الخارجين على القانون»^(٣٣).

ويلاحظ أن سعد زغلول كان هو أيضا يعتبر احتلال العمال للمصانع «اغتصابا للملكية الغير» وتطوع مدير مصنع ايجولين، وهو كما قلنا روسى هارب من الثورة البلشفية ليعلن أن ما شاهده من أحداث «مشابه لما كان يراه فى روسيا من هذا القبيل فى ثورة ١٩١٧ وقد كان أيامها أيضا مديرا لمصنع»^(٣٤).

ويلاحظ أن النائب العام قد سأل روزنتال أثناء استجوابه «ألا تعد حركة احتلال المصانع كبدء لتنفيذ الفكرة الشيوعية؟ فرد روزنتال قائلا: إن الحكومة تخلط بين الإضراب -مع البقاء فى محل العمل- وبين نزع الملكية لأن العمال إذا احتلوا المصنع لا يطلبون الاستيلاء عليه.. وإنما لأنهم رأوا فى ذلك أفضل وسيلة للتعبيل بحل المشكلة والوصول إلى اتفاق بينهم وبين أصحاب العمل»^(٣٥).

ويبدو أن قادة الحزب قد شعروا بسحب الخطر تتجمع وأن ثمة مؤامرة تعد لتوجيه ضربة إليه. فبدأ الحزب تنفيذ خطة للتراجع..

وينشر الأهرام «ويظهر مما علمنا أن سعادة على جمال الدين باشا تمكن من إقناع مستشار النقابة الأستاذ مارون بوجوب إخلاء معمل الزيت عاجلاً وقد ذهب المستشار المذكور وضابط ومفتش البوليس لمقابلة العمال وحملهم المستشار على العدول عن الخطة الاحتلالية التي اتبعوها، والمفهوم أنهم قبلوا النصيحة»^(٣٦).

لكن المؤامرة كانت قد أحبكت أطرافها وصدرت الأوامر باعتقال قادة الحزب وإغلاق دوره في جميع أنحاء البلاد.

الاتجاه نحو الفلاحين:

وفي بلد كمصر حيث الغالبية الساحقة من السكان فلاحون فإن المسألة الزراعية لا بد وأن تحظى باهتمام الحزب، بل ولا بد لها وأن تفرض نفسها فرضاً عليه.

وإذا كان الحزب خلال الفترة الأولى لعمله قد أهمل ذكر المسألة الزراعية في برنامجه الصادر في ١٩ أغسطس ١٩٢١ فلا شك أن لذلك ظروفًا موضوعية أهمها صعوبة المسألة وحاجتها إلى دراسة متأنية ودقيقة، وكذلك فإن توازنات القوى بين الأطراف المختلفة التي أصدرت البرنامج قد أدت في هذا الظرف المبكر إلى خلو البرنامج من أية إشارات طبقية حسمة.

لكن فهم الحزب وإدراكه للمسألة الزراعية قد نما نمواً سريعاً وما لبث أن أصدر في ١٩٢٢ برنامجاً فلاحياً كاملاً..

ولقد قيل الكثير حول هذا البرنامج..

قيل: إن الحزب قد وضعه كتنفيذ لشرط ملزم صادر من الكومنترن..

ولقد ردد الكثيرون هذا القول دون تردد نقلاً عن روزنتال الذي قال في شهادته أمام النائب العام «ولما عاد حسنى العربى من روسيا أبلغنا أن اللجنة المركزية الدولية الشيوعية الثالثة اشترطت لقبول حزبنا كفرع للدولة الثالثة ثلاثة شروط وهى:

أولاً: فصلى من الحزب.

ثانياً: تغيير اسم الحزب من اشتراكى إلى شيوعى.

ثالثاً: إعداد برنامج للفلاحين.

ونقلاً عن روزنتال ترددت هذه الشروط دون فحص دقيق، وقد ردها عبدالعظيم رمضان^(٣٧) ورؤوف عباس^(٣٨) وترتب على ذلك بعض التحليلات التى تتهم الحزب بالانعزال عن الفلاحين وعدم إدراكه لأهمية المسألة الفلاحية^(٣٩).

لكننا نلاحظ ما يلي:

أولاً: أن الحزب قد بدأ الاهتمام بمشاكل الفلاحين قبل سفر العرابي إلى موسكو وقد بدأ فعلاً في الاتجاه إلى الريف ومحاولة إقامة مراكز له في المدن الريفية منذ أواخر ١٩٢١ وطوال ١٩٢٢. ونلاحظ أن الحزب قد أصدر قبل عودة حسنى العرابي من موسكو نداءه الموجه إلى العمال اليدويين والذهنيين فى العالم وفى هذا النداء ناشد الحزب المثقفين الاتجاه إلى الريف ليخلقوا جبهة سياسية واقتصادية موحدة يمكنها أن تجابه نفوذ البرجوازية.

ثانياً: أن الوثيقة الرسمية التى أعدتها لجنة المسألة المصرية والتى قدمها الرفيق كاتاياما إلى المؤتمر الرابع للدولية الشيوعية تحدد شروط قبول الحزب المصرى عضواً فى الدولية بشروط ثلاثة.. ليس من بينها وضع برنامج للفلاحين.

وعلى أية حال فإن هذه مسألة فرعية.. وقد اهتمنا بتوضيحها تصحيحاً للوقائع التاريخية وتديقاً لها فقط.

لكن المهم هو أن الحزب قد انطلق للعمل وسط الفلاحين مستنداً إلى قواعده فى المدن الريفية.

يقول السعيد الصبرى، وهو أحد أعضاء شعبة الحزب فى المنصورة «لقد استمرت شعبة سمنود فى العمل حتى أصبحت البلد قلعة للاشتراكية»^(٤٠).

ويقول حافظ سند مؤسس شعبة المنصورة «لقد حاولنا مد نشاطنا للريف ولتحقيق ذلك ضمنا إلى صفوفنا عدداً من المهندسين الزراعيين واتصلنا ببعض الفلاحين فى عدد من المراكز وعندما وجهت إلينا الضربة كنا قد نجحنا فى إقامة مراكز قوية فى الريف»^(٤١).

كذلك فإن الحزب قد امتد نشاطه إلى قرى الصعيد، وينشر الأهرام «امتد نشاط الحزب إلى الصعيد حيث قبض على أشخاص من ناحية بلصفورة من أعمال مركز أبى قرقاص وضبطت لديهم أوراق تتعلق بالشيوعية»^(٤٢).

كذلك تنشر الأهرام محذرة من نشاط الحزب الشيوعى المصرى فى الريف «إن هؤلاء الشيوعيين ودعاتهم يؤلفون لجانهم لهذا الغرض وهو تنظيم عمال المقاولات وتطهير الترع والأعمال الزراعية والمزارع، ويقولون: إن أتباعهم فى الريف تجاوزوا مائتين، وإن هذا العدد بازدياد»^(٤٣).

كذلك فإن الحزب قد أدرك من الناحية النظرية الدور الأساسى الذى يمكن للفلاحين أن يلعبوه فى بلد زراعى كمصر.. وهكذا رفع الحزب لأول مرة فى مصر شعار «التحالف بين العمال والفلاحين»^(٤٤).

وعندما وجه الحزب خطابه المفتوح إلى سعد زغلول أبرز الاهتمام بالعمل فى الريف والاهتمام بتنظيم الفلاحين فى نقابات.. وإيجاد صلة بين هذه النقابات ونقابات العمال حتى يمكن حشد القوى المصرية كلما تطلبت الحاجة».

كذلك فإن برنامج الحزب الشيوعى المصرى المعلن فى أوائل ١٩٢٣ يعكس وعيا تاما بالقضايا النظرية التى تحيط بالقضية الزراعية فى بلد مستعمر والتى تستهدف حشد الفلاحين كجيش للثورة المعادية للاستعمار وكجزء من الجبهة الوطنية العامة، وفى نفس الوقت فإن هذا الحشد لا يمكن أن يتم إلا على أساس مطالب طبقية محددة تستهدف تصفية الإقطاع المتحالف مع الاستعمار.

ولنتأمل مواد البرنامج الخاص بالفلاحين^(٤٥).

١- تنظيم فقراء الفلاحين فى نقابات وإيجاد الصلات بينها وبين نقابات العمال مع العمل على ربطها باتحادات الفلاحين الدولية.

٢- إلغاء نظام ملكية العزب التى لا تختلف كثيرا عن نظام الإقطاعيات.

٣- إلغاء ديون الفلاحين الذين يملكون أقل من ثلاثين فداناً.

٤- إعفاء الفلاحين الذين يملكون أقل من عشرة أفدنة من الضرائب.

٥- وضع ضرائب على مياه الري للذين يملكون أكثر من ١٠٠ فدان.

٦- إنشاء مصارف تعاونية لصغار الفلاحين.

كذلك فإن البرنامج العام قد طالب «بتمثيل العمال وفقراء الفلاحين تمثيلا صحيحا فى البرلمان».

ويبدو أن شهودى عطية قد اكتفى - كما لاحظنا من قبل - بنقل بنود البرنامج دون إيراد المقدمة.

ذلك أن المحكمة التى حاکمت قادة الحزب تورد فى حيثيات حكمها عبارات مهمة قد يكون مفيدا أن نعتبرها مكملة لهذا البرنامج، ذى. تقول: إن المتهمين قد وضعوا برنامجا للفلاحين «أتو فى مقدمته - وهذا دليل على أنه كانت هناك دقمة تفصيلية للسود التى

أوردها شهودى - بما يولد الشحناء والبغضاء فى قلوب الفلاحين على أصحاب الأملاك ووضعو له من القواعد ما يخلب ألبابهم ويحسن لهم الثورة...».

ثم تورد المحكمة معظم البنود التى أوردها شهودى لكنها تضيف بنودا أخرى ذات أهمية كبيرة هى «مصادرة جميع الأراضى المملوكة للأفراد والتى تزيد عن مائة فدان دون تعويض وتوزيع ما يزيد عنها على الفلاحين الذين لا ملك لهم أو استعماله لتدشين مزارع الشعب وتنظيم مجالس سوفياتية لفقراء الفلاحين»^(٤٦).

وإذا كنا سنعتبر حيثيات حكم كهذا وثيقة ذات حجة تاريخية فإننا يمكننا اعتبار أن هذه المطالب بالرغم من عدم ورودها فى البنود التى أوردها شهودى مكملة للبرنامج أو مقدمة له.

والآن سنحاول أن نستخلص من هذا البرنامج المفهوم النظرى للحزب حول المشكلة الزراعية فى مصر.

١- نلاحظ أن الضربة توجه أساسا لتصفية كبار الملاك المتحالفين مع الاستعمار (مصادرة ما يزيد عن ١٠٠ فدان بدون تعويض وحتى يتم ذلك فإنه يتعين فرض ضرائب على مياه الرى المنصرفة لهم وإلغاء نظام العزب).

٢- تحييد أغنياء الفلاحين (إلغاء دين الفلاحين الذين يملكون أقل من ثلاثين فدانا).
٣- كسب الفلاحين المتوسطين (إعفاء الفلاحين الذين يملكون أقل من عشرة أفدنة من الضرائب).

٤- حشد قوى فقراء الفلاحين وصغارهم باعتبارهم الجيش الأساسى للثورة (بالعمل على تنظيمهم فى نقابات ودعم تحالفهم مع العمال وتوزيع الأراضى على الفلاحين الذين لا ملك لهم).

٥- الإشارة إلى فكرة الزراعة الاشتراكية (الجماعية) عندما قال البرنامج «توزيع ما يزيد منها على الفلاحين الذين لا ملك لهم أو استعماله فى تدشين مزارع الشعب».

ونلاحظ هنا أن الحزب قد اتخذ جانب الحذر الواجب والضرورى بالنسبة للفلاحين الفقراء الذين تطلعوا عبر قرون طويلة لتملك قطعة من الأرض، ولهذا فإن مطالبة الحزب بمصادرة ما يزيد عن المائة فدان قد اقترنت بالمطالبة بتوزيعها على الفلاحين المعدمين مع الإشارة إلى إمكانية تحويلها إلى مزارع للشعب.

وهذا موقف غاية فى الوعى وفى الذكاء فى فهم عقلية الفلاح المصرى. كذلك نلاحظ أن الحزب قد وضع بذور فكرة التعاونية فى الزراعة عندما طالب بإنشاء مصارف تعاونية لصغار الفلاحين..

وبعد هذا التحليل فإننا نملك الحق فى القول بأن هذا البرنامج يعتبر دليلا على وعى تام بالموقف النظرى من المسألة الزراعية فى بلد كمصر ودليلا أيضا على فهم عميق وتحليل سليم للأوضاع الطبقيّة فى الريف المصرى.

وقد حاول لاكور أن يشكك فى قيمة هذا البرنامج^(٤٧) عندما قال: إن البرنامج الزراعى للحزب كان هاما «بالرغم من بعض الشكوك حول أن هذه المطالب قد بنيت على أساس دراسة حقيقية لواقع الفلاحين».

لكن المقارنة مع الدراسات العملية الحديثة لواقع الريف المصرى ومحاولة استخلاص تجارب الواقع طوال الفترة الماضية تؤكد أن هذه المطالب والتحديات الطبقيّة قد بنيت على أساس واقعى تماما.

وأخيرا..

سنحاول أن نقومّ بنشاط الحزب وفقا للتقديرات التى أعطاه الكومنترن لعضوية عدد من الأحزاب التى كانت تعمل فى ظروف مماثلة..

البلد	عدد الأعضاء فى عام ١٩٢٢	عدد الأعضاء فى عام ١٩٢٤ ^(٤٨)
مصر	-	٧٠٠
فلسطين	-	١٠٠
الصين	-	٨٠٠
تركيا	٣٠٠	٦٠٠

وإذا كان الرقم الخاص بمصر يختلف عن الرقم الذى أعلنه الحزب - ذلك أنه بطبيعة الحال قد خضع للتقويم الصارم والدقيق لشروط العضوية كما يحددها الكومنترن - فإن مقارنة هذا الرقم بأرقام العضوية فى فلسطين وفى تركيا، بل وفى بلد كبير جدا مثل الصين، تقدم لنا صورة واضحة لحقيقة دور ونشاط الحزب الشيوعى المصرى فى هذا الوقت المبكر.

الهوامش

(١) راجع حيثيات الحكم الصادر من محكمة جنايات الإسكندرية - فى الملاحق.
(٢) ص ٢٤ - وإن كان لاكور قد أخطأ فى فهم موقف الحزب من قضية السودان فقال: إن الحزب كان مثل غيره يطلب الوحدة مع السودان. لكن العبارات الواردة فى الحيثيات - وهى بغير شك تتمتع بدقة الأحكام القضائية - تؤكد أن الحزب قد اتخذ موقفا يطالب «بربط الشعبين أحدهما بالآخر لينتفعا معا».

(٣) راجع محضر النقاش مع حافظ سند بالملاحق.

(٤) راجع الحيثيات السابق الإشارة إليها.. بالملاحق.

(٥) الأهرام ١٩٢٤/١/٣١.

(٦) رؤوف عباس - المرجع السابق - ص ٢٤٥.

(٧) الأهرام ١٩٢٤/٩/٣٠.

(٨) المرجع السابق.

(٩) لاكور. المرجع السابق - ص ٣٦.

(10) The Labour Montly - May 1925.

(١١) الأهرام ١٩٢٣/٣/٢٢.

(١٢) عبدالعظيم رمضان - المرجع السابق - ص ٥٢٨.

(١٣) لاكور، المرجع السابق ص ٣٦.

(١٤) شهدى عطية - المرجع السابق - ص ٤٥.

(١٥) الأهرام ١٩٢٣/٣/١٧.

(١٦) الأهرام ١٩٢٣/٢/١٣.

(١٧) عبدالعظيم رمضان - المرجع السابق - ص ٥٤٠.

(١٨) لاكور. المرجع السابق ص ٣٦.

(١٩) الأهرام ١٩٢٣/٥/١.

(٢٠) الأهرام ١٩٢٣/٥/١.

(*) لم يشترك الحزب الشيوعى فى الانتخابات رغم أن حسنى العرابى قد أعلن فى أحد خطبه فى موسكو أنهم سوف يشاركون فى الانتخابات، وربما كان ذلك إعرابا عن موقف الحزب المعارض للدستور، والذي أعلنه فى بيان صادر باسم صفوان أبو الفتح القائم بأعمال السكرتير العام، وربما أيضا لأنه أدرك أنه ما من مرشح يستطيع أن يقاوم جماهيرية مرشحي الوفد الذين يباركهم سعد زغلول.

(٢١) الأهرام ١٩٢٣/٥/١.

(٢٢) راجع رؤوف عباس - ص ٢٥٣، عبدالعظيم رمضان - ص ٥٤٣، الأهرام ١٩٢٤/٢/٢٦.

(٢٣) الأهرام ١٩٢٤/٢/٢٥.

(٢٤) الأهرام ١٩٢٤/٣/٤.

(٢٥) راجع محضر النقاش مع عبدالرحمن فضل وفيه يوضح أن نقابة هذا التفتيش كانت تحت قيادة الشيوعيين.

(٢٦) رؤوف عباس - المرجع السابق - ص ٢٥٥.

(٢٧) الأهرام ١٩٢٤/٣/٤.

(٢٨) والغالب أن هذه الواقعة غير صحيحة رغم تردها بكثرة؛ بدليل أن أحداً من شهود الإثبات لم يوردها أثناء محاكمة مارون وزملائه بالرغم من إيرادهم لكافة تفاصيل حوادث الإضراب. راجع

الأهرام ١٩٢٤/٩/٢٩.

(٢٩) الأهرام ١٩٢٤/٢/٢٥.

(٣٠) الأهرام ١٩٢٤/٣/٤.

(٣١) الأهرام ١٩٢٤/٣/٢٥.

(٣٢) الأهرام ١٩٢٤/٢/١٩.

(٣٣) الأهرام ١٩٢٤/٣/٥.

(٣٤) الأهرام ١٩٢٤/٩/٢٩.

(٣٥) راجع شهادة روزنتال بالملاحق.

(٣٦) ١٩٢٤/٢/٢٥ - وكان لمارون نفوذ كبير وسط العمال بحيث يقول انجرام أحد كبار رجال البوليس في شهادته أمام المحكمة «إن العمال كانوا يعملون بنصائح الأستاذ مارون ورفاقه. وإنه لم يكن سهلاً على البوليس إخراج العمال من المصنع، ولكن إخراجهم كان من أيسر الأمور على الأستاذ مارون، كما أن كلمة واحدة كانت تكفي لإنهاء احتلال العمال للمصنع» - الأهرام ١٩٢٤/٩/٢٩.

(٣٧) المرجع السابق - ص ٥٣٣.

(٣٨) المرجع السابق - ص ٢٤٢.

(٣٩) من بين الذين ردوا ذلك مارسيل تشيريزي (إسرائيل) - المرجع السابق.

(٤٠) راجع محضر النقاش معه بالملاحق.

(٤١) راجع محضر النقاش معه بالملاحق.

(٤٢) الأهرام ١٩٢٤/٧/٧.

(٤٣) الأهرام ١٩٢٤/٢/٢٧.

(٤٤) لأكور. المرجع السابق - ص ٣٤.

(٤٥) تردد في حثيات الحكم الصادر في ١٩٢٤/١٠/٦ ضد قادة الحزب عبارة تقول «وألحقوا بهذا البرنامج برنامجاً آخرًا أسموه برنامج الفلاحين» وهي عبارة توحى بأن الحزب قد أعد برنامجاً خاصاً ومنفصلاً للفلاحين. كذلك شهد عبدالرازق حسين مساعد - وهو مقاول في بورسعيد - أمام نفس المحكمة بأنه طلب برنامج الحزب فأرسل إليه في فبراير مطبوع يحتوي على شروط الدولية الثالثة وبرنامج الفلاحين (الأهرام ١٩٢٤/٩/٣٠) وعلى أية حال فإن البرنامج الذي نشره شهدى عضوة يورد البنود الخاصة بالفلاحين في فصل مستقل تحت عنوان - رابعا.

(٤٦) راجع الحثيات بالملاحق.

(٤٧) المرجع السابق - ص ٣٥.

(48) International Press Correspondence 1924 No. 102.

ويلاحظ أن حثيات حكم محكمة جنيات الإسكندرية المتهم فيها أعضاء اللجنة المركزية للحزب تقول: إن عضوية الحزب بلغت ١٥٠٠ عضواً. راجع نص الحثيات في المراجع.

ثم بدأت المطاردة..

والحقيقة أن حملة العداء لنشاط الحزب قد بدأت منذ زمن بعيد، ولقد شهدت الصفحات السابقة نماذج كثيرة من هذه الحملة.

كذلك فإن واضعى الدستور الذى صدر فى ١٩٢٣ قد حرصوا على إيراد عدد من النصوص من بينها:

م ١٥: الصحافة حرة فى حدود القانون والرقابة على الصحف محظورة وإنذار الصحف أو وقفها أو إلغائها بالطريق الإدارى محظور كذلك، إلا إذا كان ذلك ضروريا لوقاية النظام الاجتماعى.

م ٢٠: للمصريين حق الاجتماع فى هدوء وسكينة غير حاملين سلاحا.

وليس لأحد من رجال البوليس أن يحضر اجتماعهم ولا حاجة بهم إلى إشعاره، لكن هذا الحكم لا يقيد أو يمنع أى تدبير يتخذ لوقاية النظام الاجتماعى.

وقد أضيفت عبارة «لوقاية النظام الاجتماعى» فى المادتين السابقتين بناء على طلب «وزارة يحيى إبراهيم التى صدر دستور ١٩٢٣ فى عهدا وقد أضافت الوزارة هذه العبارة إلى مشروع لجنة الدستور ووضعت مذكرة حددت على سبيل الحصر ما تقصد إليه بعبارة وقاية النظام الاجتماعى وذكرت أن المقصود هو وقايتة من الدعاية البلشفية»^(١).

كذلك فإن الحكومة قد أوفدت أحد كبار رجال وزارة الداخلية، وهو انجرام بك إلى إنجلترا لدراسة طرق محاربة الشيوعية^(٢).

ولقد كان قادة الحزب يدركون أن السلطات لن تصبر على بقاء حزبهم علنيا لفترة طويلة، وفي ١٨ مارس سنة ١٩٢٣ عندما اعتقل أربعة من قادة الحزب صدرت التعليمات إلى جميع الفروع بإحراق السجلات والأوراق التي تضم أسماء أعضاء الحزب مع استمرار الفروع في العمل علنا^(٣).

بل إن بعض الفروع قد أغلقت مقارها تماما وبدأت في العمل بعيدا عن هذه المقار. فعندما توجه البوليس لتفتيش مقر فرع المحلة الكبرى في أوائل مارس ١٩٢٤ «وجد الأوراق - يكسوها الغبار ونسيج العنكبوت»^(٤).

وذلك بالرغم من وجود نشاط حزبي مستمر بالمحلة الكبرى. لكن الحزب مع ذلك استمر في ممارسة نشاطه علنا وفي إصدار بيانات موقعة باسم قادته، واستمرت الدار العامة للحزب مفتوحة في مقر جديد بمحرم بك بالإسكندرية. وإنما كان الأمر مجرد استعداد لضربة متوقعة..

كذلك فإن الحزب قد تقدم بطلب رسمي لمحافظة الإسكندرية لعقد مؤتمر عام له يومي ٢٣/٢٤ فبراير ١٩٢٤.

ولاشك أن الحزب قد أدرك أن الحاجة ماسة إلى توحيد قواه وأيديولوجيته تجاه الموقف الجديد، الأمر الذي يعكس لنا أن المؤتمر الثاني الذي عقد في عجالة لم يكن قد حقق كثيرا من أهدافه.

لكن المحافظة «أبلغت زعماء الحزب بعدم السماح لهم بعقد المؤتمر ثم عادت المحافظة فسألت عن عدد المدعوين لحضور المؤتمر فقليل لها: إنه ينتظر حضور ٥٠ مندوبا من جهات مختلفة، وعادت المحافظة لتؤكد منع عقد المؤتمر في أى يوم وفي أى مكان»^(٥).

ويلاحظ في هذه المرة أن قادة الحزب لم يعلنوا تصميمهم على عقد المؤتمر رغم منع الحكومة له كما فعلوا في المرة السابقة، وإنما اكتفوا بأن طلبوا من المحافظة «أن تصدر أمرا كتابيا بالمنع».

لكن الضربة جاءت عنيفة وسريعة بدرجة لم يكن يتوقعها أحد.

فقد توجه إلى الإسكندرية على جمال الدين باشا وكيل وزارة الداخلية والمستتر «كين بويد» رئيس القسم الأوروبي بإدارة الأمن العام وقوة كبيرة من رجال البوليس. وفي

الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ٣ مارس تحركت ست مجموعات فى وقت واحد لتفتيش منازل أنطون مارون - حسنى العرابى - أحمد المدنى - السيد هريدى - إسكندر صاده - صفوان أبو الفتوح، كذلك تحركت قوات أخرى لتفتيش دار الحزب بشارع عرفان باشا ودار اتحاد النقابات^(٦).

ولم تكن هذه الحملة سوى إشارة البدء لحملة متصلة الحلقات شملت كل أنحاء البلاد.. ووصل إلى الإسكندرية محمد باشا إبراهيم النائب العمومى ليشرف على التحقيق بنفسه، وإلى الإسكندرية أيضا سيق عشرات المقبوض عليهم من مختلف بلدان القطران - القاهرة - المنصورة - أبوكبير - الزقازيق - طنطا - كفر الزيات - المحلة الكبرى - سمنود - العطف - بورسعيد - شبين الكوم وغيرها..

وقد اتخذ عدد من المقبوض عليهم مواقف شجاعة، فأعلن أنطون مارون أمام المحكمة «أنه مستشار اتحاد النقابات» وهو يكرس حياته لخدمة العمال، وأنه كان يدافع عن حقوق العمال كلما وقع عليهم ضيم وقد رأى- وهو يخدم مصالحهم - أن كثيرين منهم يعاملون كالحوانات لأن العامل يشتغل اثني عشرة ساعة فى اليوم ويعطى أجرا ١٠ قروش يوميا، وهذا الأجر لا يكفى الحصان علفا فكيف يكفى العامل وعائلته».

وقال حسنى العرابى «إنه السكرتير العام للحزب الشيوعى المصرى وإن علاقة الحزب بالدولية الثالثة كانت علاقة أخوية، وأن الشيوعية المصرية كانت ترمى إلى إنهاض العامل وإحداث تطورا جديدا فى حالته يناسب الزمن».

وقال عبدالحميد تره «إنه كان ينوى السفر إلى روسيا طلبا للعلم لأن التعليم فى مصر غير ميسور إلا للأغنياء وهو فقير»^(٧).

وقال جولدنبرج سكرتير لجنة الحزب بالقاهرة «أنه شيوعى مجاهد يبث الدعوة إلى الشيوعية بالقول والكتابة وكل وسيلة أخرى».

وبمناسبة القبض على بعض الروس تذكر الحكومة أن الحكومة السوفياتية قد تنازلت عن امتيازاتها بمصر فأعلن النائب العام «إن الروس قد فقدوا امتيازاتهم الأجنبية التى كانت لهم فى عهد الحكومة القيصيرية وأصبحوا خاضعين للقوانين المصرية» كذلك تقرر نفى الأجانب الآخرين الذين لم يمكن إثبات التهمة عليهم، ولكن عرف عنهم اعتناق الشيوعية^(٨).

وتذكرت الحكومة ياناكاكس وروزنتال رغم انقطاع علاقتهما بالحزب وصدر الأمر باعتقالهما^{(٩)(*)}، وقد حاولت الحكومة إبعاد روزنتال عن البلاد وأبعدته فعلا لكنه تمكن من العودة إلى مصر بعد سلسلة من المغامرات شغلت الصحف لفترة من الوقت^(١٠).

كذلك امتدت الحملة لتصفية مواقع الحزب وسط الطبقة العاملة وتنظيماتها النقابية.. ومنذ البداية حاولت الكوادر الحزبية فى اتحاد النقابات إنقاذ الاتحاد من خطر التصفية، فعلى أثر القبض على قادة الحزب أصدر مصطفى أبو هرجة سكرتير عام الاتحاد بالنيابة بيانا قال فيه:

«ما كان اتحاد النقابات العام آلة لحزب من الأحزاب أو هيئة من الهيئات فى مصر، إنما هو هيئة وجدت لخدمة العمال».

وقال: إن البعض يتهم الاتحاد بأنه ستار يعمل الحزب الشيوعى المصرى من خلفه «لكن الاتحاد ينفى ذلك، والواقع ينفيه، إذ إن اتحاد النقابات شىء قائم بذاته والحزب الشيوعى المصرى شىء آخر لا تداخل ولا تمازج بينهما والاتحاد خادم للعمال على تباين مذاهبهم السياسية ونزاعاتهم الحزبية واختلاف عقائدهم الدينية.

وهو ينتهز هذه الفرصة ليعلن للعمال والرأى العام فى مصر وإلى رجال الحكومة أن حركته ليست مصطبغة بأية صبغة سياسية وأن جبهته ومرمى سهمه تكمن فى الوصول بالعمال إلى مستوى إخوانهم فى الممالك الأوروبية فيتمتع العمال بالحقوق الشرعية التى أقرها التشريع الوضعى والسماوى^(١١).

لكن الاتحاد - رغم هذا البيان - لم يسلم من هجمات الحكومة التى سارعت بالقبض على مصطفى أبو هرجة وتقديمه للمحاكمة.

وبعد ذلك بدأت حملة تستهدف عزل النفوذ الحزبى عن الحركة النقابية، وتنتشر الأهرام «لقد ظهرت فى الإسكندرية فى هذين اليومين حركة مضادة للشيوعية ترمى إلى تبرئة العمال من اتباع مبادئها وإلى إبعاد الاشتراكية المتطرفة عن القطر وأهله، وهى حركة طيبة نقابلها بمزيد من الارتياح».

وبدأت البيانات تتوالى على صفحات الجرائد «لتعلن عن حفلات واجتماعات تقام تستهدف إعلان استنكار العمال للشيوعية وتبرئهم منها وشملت هذه الحركة عددا من النقابات، مثل نقابات عمال الصناعات اليدوية والترام والمياه وعلب الكرتون والمنجدين بالإسكندرية»^(١٢).

وامتلأت صفحات الجرائد أيضا بنداءات من نوع «إخوانى العمال أفيقوا وانتبهوا واحذروا من تدخل الشيوعية.. والتوقيع: عبدالعال حسونة أحد رؤساء العمال»^(١٣).

كذلك بدأت محاولات لإبعاد العناصر اليسارية من قيادة النقابات، وتنتشر الأهرام «عقدت نقابة عمال شركة ايجولين اجتماعا أمس، وكان الغرض الأهم من هذا الاجتماع تتصل النقابة من سياسة الشيوعية التى كانت لجنتها الإدارية السابقة تتبعها وقد حدث هذا التوصل، وغيّرت النقابة قانونها واختارت لها رئيسا جديدا يقودها فى طريق العمل المفيد»^(١٤).

لكن الخطوة الأكثر خطرا كانت القرار الذى اتخذه سعد زغلول بأن يدخل حزب الوفد ميدان العمل النقابى محاولا الاستيلاء على النفوذ فيه وعزل القادة اليساريين بعيدا عنه. ولم يكن صدفة أن يلقى القبض على قادة الحزب فى ٣ مارس ١٩٢٤ بينما يعلن حزب الوفد تأسيس «النقابة العامة للعمال» فى ١٥ مارس ١٩٢٤. ثم تحولت هذه النقابة فيما بعد إلى اتحاد عام للعمال.

وقد بلغ اهتمام سعد زغلول بالأمر أن كلف بهذه المهمة واحدا من أكفأ قادة الوفد وأكثرهم التصاقا بشخص سعد زغلول وأحسنهم سمعة بين الجماهير هو عبدالرحمن فهمى سكرتير لجنة الوفد المركزية..

وفى ١٨ أبريل ١٩٢٤ صدرت مجلة عمالية وفدية باسم «العمال» يرأس تحريرها محمد متولى سويلم لتعلن فى افتتاحية عددها الأول أن «واجب العمال أن يتضامنوا ويتآلفوا تحت لواء واحد وزعامة واحدة وأن يطرقوا باب الإصلاح بالطرق المشروعة».

ثم هى تهاجم «من يتعجلون الأمور ولا يتفقون معنا فى رأى ويحاولون الطفرة، وهى محال، ويرتكبون أفعالا مكذبة قد يضطر ولاة الأمور - حتى فى العهد الدستورى - إلى كبح جماح الخارجين على القانون والنظام».

ثم تتوالى المقالات وكثير منها يهاجم «التطرف» و«التسرع» و«الخروج على القانون والنظام» و«المبادئ الضارة». لأن كل ذلك «غير مجد ويؤجل الخير الذى ننشده»^(١٥).

وفى أعداد أخرى نرى هجوما صريحا على الشيوعية عندما تنشر المجلة خبرا عن حفل نقابة عمال السجاير وقالت فيه: «وفى ختام الحفل طلب رئيس الشرف من العمال أن يتبرأوا من الشيوعية فهتفوا ضدها مرارا ونادوا بحياة جلال الملك»^(١٦).

ثم يصدر الوفد مجلة عمالية أخرى اسمها «اتحاد العمال» وقد رأست تحريرها سيدة
هى نجاه عبدالعزيز، وقد كانت هذه المجلة لسان حال «الاتحاد العام للعمال» وصدر عددها
الأول فى ١٢ يونيو ١٩٢٤.

وتوضح لنا صفحات هذه المجلة الدور الحقيقى الذى قام به الوفد وممثله عبدالرحمن
فهى وسط الحركة العمالية فى ذلك الحين..

فعندما أضرب عمال فابريكة المعصرة للأسمنت ذهب إليهم محمد أفندى فؤاد سكرتير
النقابة العامة، وأبلغهم نصائح الزعيم بفض الإضراب والعودة إلى العمل فتقبلوا ذلك
النصح الغالى بالطاعة الواجبة»^(١٧).

وعندما أضرب عمال شركة السكر «بالمطاعنة» انتقدهم محمد فؤاد «طالباً منهم الصبر
فإن الله مع الصابرين، والشعب كله ضائع الحقوق مثلهم»^(١٨).

والحقيقة أن عبدالرحمن فهى قد تحول إلى بوق يحمى مصالح الرأسماليين، وكانت
خطبه باستمرار تهاجم الاشتراكية وتعمل على تجميع الموقف الطبقي للعمال.. وفى خطاب
له فى افتتاح فرع الاتحاد العام لنقابات العمال بالفيوم قال: إن على العامل «أن يمشى
تحت لواء النظام والشرائع ويجد ويجتهد لمصلحة بلاده قبل مصلحة نفسه.

ما هو الجاه والمال؟ وما قيمتهما؟ هما زائلان.. ولا يبقى إلا العمل الصالح.. وإن العامل الذى
يطمع فيما بيد أصحاب رؤوس الأموال بلا حق إنما يسعى لدمار بلاده وخراب سوقها الاقتصادى،
فإنى قبلت زعامتكم لأدافع عنكم وأحمى مصالحكم فلا تنتظروا منى أن أحاول الحصول لكم على
أكثر من حقوقكم فإنى كما أدافع عن حقوقكم أدافع عن حقوق الشركات معكم - ولو لم تكلفنى هى
بذلك- لأن حماية مصالحها صيانة لمصالح بلادنا التى فتحت صدرها للأجانب لتستفيد منهم
ويستفيدوا منها لأنهم ضيوفنا وقد اشتهرتم بإكرام الضيف.

واعلموا أن هؤلاء القوم الذين يقولون: إن العامل يشتغل طوال يومه وليله بأجر زهيد
بينما صاحب رأس المال يكسب الذهب، إنما هم قوم يفسدون العقول والعقائد»^(١٩).

ثم يلجأ قادة الاتحاد إلى الهجوم المباشر على الشيوعية فيكتب محمد فؤاد سكرتير
الاتحاد سلسلة من المقالات عن «حركة العمال فى مصر» يقول فيها:

«دفع الطيش بعض الشباب الذين لا خلاق لهم بالإسكندرية وغيرها من المدن إلى
اعتناق مذهب الشيوعية واحتالوا بهذا المذهب على العمال فنفتوا هذا السم، وكان هذا

الداء العضال يتفشى فى هيكल الأمة لولا أن قيض الله لها بعض رجال الحكم من ذوى الفطنة فاعتقلوا هؤلاء الشبان الأتمين وزجوا بهم فى أعماق السجون جزاء ما قدمته أيديهم وما جنوه من الذنوب..»

ثم يواصل حديثه موضحا حقيقة الدور الذى لعبه عبدالرحمن فهمى «وقيض الله فى هذا الظرف العصيب للعمال سعادة عبدالرحمن بك فهمى زعيم العمال فانتشلهم من هذه الهوة التى كادوا أن يقعوا فيها»^(٢٠).

ولم يكنف الوفد بذلك، بل إنه استخدم أيضا نفوذه وسط الطلبة لتهدئة العمال ومحاربة النفوذ اليسارى بينهم ففى ٢٦ مارس ١٩٢٤ «عقدت لجنة الطلبة بالإسكندرية سلسلة من الاجتماعات للنظر فى مساعدة الحكومة على مواجهة حركة العمال ببث روح السكينة فيهم لكى يكفوا عن الإضراب ويعولوا على عطف الحكومة والبرلمان»^(٢١).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الوفد بعد أن استخدم هذا الاستخدام المزرى ضد العمال وضد الحزب الشيوعى، ما لبث هو أيضا أن تلقى الضربة تلو الضربة، وكان نصيب عبدالرحمن فهمى منها كبيرا، أما اتحاد العمال الذى أقامه الوفد فإنه ما لبث أن تفرق بصورة لا يحسد عليها بعد أن أدى الدور المرسوم له.

وتمتد الحرب لتشمل كل الميادين وتجد القوى المعادية للجماهير عموما الفرصة سانحة لتحاول أن تستخدم هذه الحرب طريقا لضرب المكتسبات الديمقراطية والدستورية للشعب كله.. فتتشر جريدة المحاكم المختلطة مقالا تقول فيه: «بينما تتسلح مصر بما لديها من قوانين مكتوبة وغير مكتوبة للدفاع عن كيائها إزاء الدسائس الشيوعية قد يكون هناك بعض الفائدة من إلقاء نظرة إلى الحرب العوان التى أعلنتها الفاشست فى إيطاليا على العدو المشترك...»^(٢٢).

إنها دعوة صريحة لاستخدام الأساليب الفاشية ضد «العدو المشترك».

كذلك نظم الأهرام حملة واسعة ضد الطلبة المصريين الذين يدرسون فى موسكو طالبا من النائب العام والسلطات التدخل بحزم «حتى لا يعودوا، وكل منهم لينين صغير»^(٢٣).

وقد وصل الأمر إلى حد استخدام أشخاص كسلامة موسى وعبدالله عنان فى الهجوم على الحزب والتشهير بأعضائه..

ويبدو أن سلامة موسى قد خشى أن تشمله موجة الاعتقال كما شملت - فى البداية - أشخاصا هجروا الحزب منذ مدة مثل إسكندر صاده والسيد هريدى وأحمد المدنى..

فسارع إلى الأهرام لينشر مقالا بعنوان «الاشتراكية والشيوعية وتاريخها في مصر»^(٢٤) نشره الأهرام في صفحته الأولى، وهو مقال ملئ بالطعن في الحزب وقادته والهجوم على الثورة والشيوعية.. لكن أهم ما في هذا المقال هو أن سلامة موسى حاول إلى جانب إعلان براءته أن يربط نفسه بعجلة الحكومة العمالية البريطانية ملتصقا بذلك حماية لنفسه فقال فقد كنت أنا نفسى عضوا فى الجمعية الفابية الإنجليزية وعرفت من أعضائها مستر سدنى وبأحد وزراء إنجلترا الآن.

كما حاول أن يخيف الحكومة ويمنعها من اعتقاله «فأنا أريد أن ألفت نظر حكومتنا إلى أننا سنتفاوض مع حكومة اشتراكية مؤلفة من العمال هى حكومة رامزى مك دونالد، وهى وإن كانت لا توافق على الخط الشيوعى فإنها لا تحب وليس فى وسعها أن تنظر بعين العطف إلى اضطهاد الاشتراكيين».

وهكذا ضمن سلامة موسى لنفسه السلامة.. لكنه وحتى فى ظل المحنة القاسية وجد من يتصدى بالرد عليه منددا بهؤلاء «الذين ينكرون اليوم بسماجة ما عبده بالأمس»^(٢٥).

وكانت محكمة جنايات الإسكندرية قد نظرت فى المعارضة المندمة من المتهمين، وقررت الإفراج عنهم مع حضورهم للمحاكمة فى جلسة شهر نوفمبر^(٢٦).

لكن الحكومة لم تحتل أن يبقى قادة الحزب طلقاء حتى نوفمبر.. فعجلت بنظر القضية، ذلك أن «سعادة النائب العمومى قد رأى تغيير موعد المحاكمة، إذ يقال أنه تقرر أن تكون محاكمتهم فى دور سبتمبر المقبل أمام محكمة الجذيات كما كان مقررا من قبل»^(٢٧).

وقد حاول المتهمون أن يفسدوا هذه الخطة فعندما انعقدت جلسة المحكمة برئاسة أحمد طلعت باشا فى ٢٨ سبتمبر لم يحضر أنطون مارون وقال الدفاع: إنه مريض لا يستطيع الحضور.

فثار القاضى وأمر بالقبض على المتهمين وأوداعهم السجن والقبض على مارون وإحضاره^(٢٨).

وهكذا بدأت المحاكمة..

ومع اشتعال حملة العداء بدأت حملات التضامن وتكونت فى عديد من البلدان جمعيات باسم «ارفعوا أيديكم عن مصر».

وفى باكو عقد مؤتمر عالمى للتضامن مع الشيوعيين المصريين حضره مندوبون من الاتحاد السوفيتى وإيران وتركيا وغيرها من البلدان»^(٢٩).

وأخيرا -وقبل أن نطوى هذه الصفحات- يتعين علينا أن نذكر أن واحدا من هؤلاء الرجال الذين تحدثنا عنهم طويلا فى هذا الفصل قد انتهت حياته بين جدران السجن مضربا عن الطعام، هذا الرجل هو أنطون مارون^(٣٠).

ويتحدث محمود محمود حسنى العرابى عن هذا الإضراب قائلا: إن الإضراب عن الطعام قد استمر ٢٦ يوما.. وإن ملك الموت قد حلق فوق رؤوسهم جميعا^(٣١).

كذلك يتعين علينا أن نقول: إن الأحداث قد فرضت على المؤلف ألا يكتفى بكل ما سبق، فثمة صفحات أخرى يجب أن تكتب، فالحزب الذى صدر قرار بتصفيته والذى حوكم قاداته قد واصل العمال سرا ولابد من محاولة لتتبع هذا المسار الجديد.

الهوامش

- (١) السياسة المصرية والانقلاب الدستوري، تأليف د. محمد حسين هيكل وعبدالقادر المازني ومحمد عبدالله عنان - ص ٢٩.
- (٢) الأهرام ١٩٢٤/٩/٢٩.
- (٣) راجع محضر النقاش مع حافظ سند - الملاحق.
- (٤) الأهرام ١٩٢٤/٣/٢٠.
- (٥) الأهرام ١٩٢٤/٢/٢٠.
- (٦) الأهرام ١٩٢٤/٣/٤.
- (٧) الأهرام ١٩٢٤/١/١.
- (٨) عبدالعظيم رمضان - المرجع السابق - ص ٥٤٥.
- (٩) الأهرام ١٩٢٤/٩/١١، ١٩٢٤/٩/٣٠.
- (*) يروى نيقولا باباريديوتي في مذكراته - المرجع السابق - أن ياناكاكس هو ومجموعة من اليونانيين - قبض عليهم بطريقة غير قانونية، وأنه شارك أعضاء الحزب إضرابهم عن الطعام في السجن، وأنه صدر ضده حكم ولكن حيثيات الحكم في القضية تخلو من اسمه، الأمر الذي يعني أنه قد أفرج عنه دون محاكمة.
- (١٠) يمكن تتبع هذا الموضوع في أعداد الأهرام ٥، ٨، ٩، ١٠، ١٣ سبتمبر ١٩٢٤.
- (١١) الأهرام ١٩٢٤/٣/١٠.
- (١٢) عبدالعظيم رمضان - ص ٥٤٥.
- (١٣) الأهرام ١٩٢٤/٣/٤.
- (١٤) الأهرام ١٩٢٤/٩/٩.
- (١٥) العمال - العدد الأول - ١٨/٤/١٩٢٤.
- (١٦) العمال - العدد الثالث - ٣/٦/١٩٢٤.
- (١٧) اتحاد العمال ١٩/٦/١٩٢٤.
- (١٨) اتحاد العمال ١٥/٢/١٩٢٥.
- (١٩) اتحاد العمال ١٦/١١/١٩٢٤.
- (٢٠) اتحاد العمال ٢١/١٢/١٩٢٤.
- (٢١) الأهرام ٢٧/٣/١٩٢٤.
- (٢٢) الأهرام ٨/٩/١٩٢٤.
- (٢٣) الأهرام ٦/٣/١٩٢٤.
- (٢٤) الأهرام ٨/٣/١٩٢٤.
- (٢٥) الأهرام ١٢/٣/١٩٢٤.
- (٢٦) العمال ٢٢/٨/١٩٢٤.
- (٢٧) العمال ٢٢/٨/١٩٢٤.
- (٢٨) الأهرام في ٢٩/٨/١٩٢٤.
- (29) International Press Correspondence - pp. 1956' 9-12-1924.
- (٣٠) الأهرام ١٥/٨/١٩٢٥.
- (٣١) محمود حسنى العربى - ٨٩ شهرا في المنفى (د.ت) ص ٣١١.

القسم الرابع

الملاحق

ملحق رقم ١

محضر نقاش مع السعيد الصبرى (*)

أجرى النقاش يوم ٢٨/٥/١٩٦٩ بمدينة المنصورة

س: هل أنت السعيد الصبرى الذى ورد اسمه فى جريدة الأهرام الصادرة فى ١٠/٣/١٩٢٤ ضمن المقبوض عليهم من أعضاء شعبة الحزب الشيوعى المصرى بالمنصورة؟

ج: نعم.

س: كيف بدأت علاقتك بالحزب؟

ج: لقد بدأنا بالنشاط النقابى وأنا شخصيا كنت نشطا فى نقابة صناع الأحذية التى تأسست فى المنصورة عام ١٩١٧ وكنت عضوا فى مجلس الإدارة وكنت نشطا غاية النشاط.

وكان هناك شاب من أسرة غنية هو عبد الحميد الطويجى^(١)، وكان عائدا من إنجلترا بعد أن تلقى علومه فى جامعتها، وكان متأثرا جدا بفكرة الدفاع عن العمال وتنظيمهم فى نقابات وبدأ يتصل بالعمال النقابيين ويدعوهم إلى الاتحاد معا. وأقنعنا بالانضمام للنقابة العامة.. وبعد ذلك اتصل بى الاشتراكيون وانضمت للحزب.

س: من الذى اتصل بك بالتحديد؟

ج: لا أتذكر بالضبط ربما عبدالحميد الطوبجى وربما حافظ سند.

س: ومن هو حافظ سند؟

ج: هو أحد قادة شعبة المنصورة وأحد مؤسسيها وكان على ما أذكر أميناً للصندوق، ويعمل نجاراً ولا يزال حياً ومقيماً بالمنصورة.

س: هل تعتقد أن عبدالحميد الطوبجى كان مؤسس شعبة المنصورة؟

ج: الذى أعرفه أن الطوبجى كان يعطف على العمال ويساعدهم ويشجعهم على تأسيس النقابات لكنه لم يكن اشتراكياً بالمعنى المفهوم.

س: كم كان عدد أعضاء الحزب بالمنصورة؟

ج: حوالى ٦٠ أو ٧٠ على ما أذكر.

س: ممن كان يتكون مجلس إدارة الشعبة؟

ج: لا أذكر كل الأسماء كان هناك محمد أحمد عبدالجليل^(٢) وحافظ سند وعبدالحميد الطوبجى وشفيق باسيرو وهو مهندس من أصل شامى وأنا وآخرون لا أذكر أسماءهم.

س: متى تأسست الشعبة؟

ج: فى أواخر عام ١٩٢١ على ما أذكر.

س: هل كنتم تتصلون بالشعب الأخرى؟

ج: نعم كانت هناك علاقات، لكن علاقتنا الأساسية كانت بقيادة الحزب فى الإسكندرية. فمثلاً كان فى سمنود شعبة قوية جداً.. وكذلك فى المحلة والزقازيق لكننى لم أكن مختصاً بمثل هذه العلاقات.

س: ما نوع العلاقة مع القيادة بالإسكندرية؟

ج: كانوا يراقبون النشاط ويرسلون لنا معلومات كثيرة، أذكر منها كتباً للينين وكتباً أخرى ونشرات، وكان يحضر من الإسكندرية بعض المسؤولين منهم شخص شامى لا أذكر اسمه والشيخ صفوان أبو الفتوح ومصطفى أبو هرجه.

س: هل كنتم تدرسون الاشتراكية؟

ج: كنا نعتمد أساساً على المطبوعات التى تصل من الإسكندرية وكان عبدالحميد الطوبجى يلقي علينا محاضرات.

س: ما نسبة العمال فى الشعبة؟

ج: كانت الأغلبية من العمال.

س: هل كان معكم أجنبى؟

ج: لا. لأن ذلك كان سيضر بالحركة، لكن كانت هناك مجموعات اشتراكية وسط الأرمن واليونانيين وقد اتصلوا بنا وشجعونا وساعدونا كثيرا.

س: هل كانت فى المنصورة شعبة للحزب الديمقراطي؟

ج: كانت هناك شعبة لكن معظم أعضائها كانوا من أبناء الأسر الغنية والمحامين ولم يكن بها عمال مطلقا.

س: هل سمعتم بالانقسام الذى حدث فى الحزب بعد إعلان انضمامه للكومنترن؟

ج: سمعنا أن حسنى العرابى سافر إلى موسكو وألقى خطابا وقال فيه: أتمنى أن ترفرف قريبا الراية الحمراء فوق الأهرامات. لكننا لم نتبع الخلاف بالتفصيل، وعموما لم يكن الاتصال بالقيادة يتم عن طريقى، وكان المسئول عن الاتصال بشعبتنا الشيخ صفوان ومصطفى أبو هريرة وهما من مؤيدى الانضمام للكومنترن.

س: وانت ماذا كان موقفك؟

ج: أنا كانت معلوماتى عن الاشتراكية قليلة، لكن كان عندى إحساس أن إعلان بلشفية الحزب خطأ وبعد مناقشات لم أعارض.

س: وماذا حدث بالنسبة للشعب الأخرى؟

ج: الذى أعرفه أن شعبة سمنود استمرت فى النشاط حتى أصبحت البلدة قلعة للاشتراكية، أما شعبة المحلة فقد قال أعضاؤها فى التحقيق عند القبض علينا سنة ١٩٢٤: إن البوليس عندما فتش الشعبة وجد الأوراق والمكاتب يكسوها التراب؛ مما يوحي بأن نشاطها كان قد توقف بعد إعلان ضم الحزب للكومنترن.

س: ما أوجه نشاطكم؟

ج: كان هدفنا جذب أكبر عدد ممكن من العمال، وقد نشطنا نشاطا واسعا فى النقابات، وحوّلنا دار الحزب إلى ناد للعمال وكان الكثيرون يترددون عليه. كذلك افتتحنا مدرسة ليلية مجانية لتعليم العمال القراءة والكتابة، وقد تطوع للتدريس فيها مجانا بعض المدرسين من أعضاء الحزب منهم الأستاذ القناوى الخولى وكان مدرسا أوليا^(٣).

كذلك فتحنا فصلا لتعليم اللغة الفرنسية مقابل ٢٥ قرشا شهريا، وكان يتولى التدريس فيه أحد أصدقاء الحزب، وهو موظف سابق بالحاكم المختلطة محال إلى المعاش.

كذلك قررنا أن تكون دار الحزب ملكا للعمال يقيمون فيها ماتمهم وأفراحهم مجانا، وأيضا قمنا بتكوين فرقة موسيقية من أبناء العمال واشترينا لهم الآلات وعلمناهم على استعمالها، وكانت هذه الفرقة تعزف في أفراح العمال مجانا.

لكن أهم مشروعاتنا هي أننا أسسنا جمعية للإسعاف، لأن المنصورة لم يكن بها جمعية إسعاف، وقد جعلنا من دار الحزب مقرا للجمعية وتدريب عدد من أعضاء الحزب على الإسعافات وتطوعوا لخدمة الجمهور مجانا، وقد ساعدنا في هذا المشروع حسن عوضين، وهو ابن واحد من أغنياء المنصورة وكان متحمسا لفكرة تأسيس جمعية إسعاف، لكنه لم يجد سوانا لمساعدته في تنفيذ المشروع.

س: هل اطلعت على مجلة الشبيبة؟

ج: نعم ولكن لم يصلنا منها سوى عدد واحد فقط ثم توقفت.

س: هل كانت لكم جماهيرية حقيقية بالمدينة؟

ج: طبعا وقد أصبحت الشعبة محط أنظار العمال فعلا واتسع النشاط إلى حد أنه عندما رشح الوفد كامل يوسف صالح لعضوية المجلس البلدى اتصل بنا طالبا تأييدنا، وقد زيدنا قائمة مرشحي الوفد، ولم نرشح سوى شخص واحد هو سعد عثمان نور، وقد نجح أيضا في الانتخابات ولكي تعرف مدى تأثيرنا في هذه الانتخابات يكفي أن أقول: إن المجلس البلدى قد قرر في اجتماعه الأول إعفاء دار حزينا من دفع قيمة استهلاك المياه والنور واعتبارها دار ذات نشاط اجتماعي مفيد.

لكن يجب أن تضع في الاعتبار أن أغلبية الجمهور كانت وفدية، وكان من الصعب إقناع الناس بالوقوف بعيدا عن الوفد.

وقد سبق القبض علينا؛ حملة شديدة شنتها علينا جريدة كانت تصدر بالمنصورة اسمها «الدلتا» وكانت جريدة لا تتدخل في السياسة، فهي مخصصة في الأساس لنشر إعلانات المحاكم، وفجأة بدأت تشن علينا هجوما شديدا وبدأت تتحدث عن النشاط الشيوعي الخطر بالمنصورة وتذكر أسماءنا وتحرض علينا الحكومة.

س: ماذا كان موقفكم في التحقيق؟

ج: لم يقبض علينا جميعا، وإنما قبض على البعض وسارع عدد قليل إلى نفي صلته بالحزب حتى لا يقبض عليه وممن نفوا صلتهم بالحزب محمد أحمد عبدالجليل، أما نحن المقبوض علينا فقد اتخذنا موقفا موحدا، وهو إعلان أننا نثق في زعامة سعد زغلول، وأنها لا نريد قلب الحكومة، كذلك حاولنا شرح أفكارنا الاشتراكية.

س: وماذا فعلتم بعد هذه الضربة؟

ج: لقد أغلق البوليس دار الحزب واستولى على دفاتر العضوية وتعقب الأعضاء يرهبهم ويضطهدهم، والحقيقة أننا تفككنا وفقدنا صلتنا بالقيادة واقترح علينا عبدالحميد الطوبجى أن نؤسس حزبا عماليا نسميه حزب العمال بالمنصورة دون أن نعلن عن أية أهداف اشتراكية، فوافقنا ولم نتعرض لنا السلطات واستمر الحزب فى العمل لفترة لكننا كنا قد فقدنا التوجيه والحماس وسرعان ما توقف هذا الحزب عن العمل.

الهوامش

- (*) السعيد الصبرى (عمره ٧٩ سنة وقت إجراء الحوار) صانع أحية بالمنصورة، ورد اسمه ضمن قائمة المقبوض عليهم المنشورة فى جريدة الأهرام ١٩٢٤/٣/١٠ والذين رحلوا إلى الإسكندرية للتحقيق معهم وبالبحت عن الذين وردت أسماؤهم بالقائمة تبين وفاة معظمهم، بينما أمكن العثور على السعيد الصبرى، وهو يتمتع بذاكرة قوية وإن كان يتقصه الوضوح النظرى.
- (١) ورد اسمه ضمن المقبوض عليهم فى الأهرام ١٩٢٤/٣/١٠ وبالبحت عنه تبين أنه توفى.
- (٢) نشر - الأهرام ١٩٢٤/٣/٦ رسالة موقعة منه يحتج على تفتيش منزله وينفى عن نفسه تهمة البلشفية.
- (٣) أشار حسنى العرابى فى أحد بياناته إلى هذه المدرسة - الأهرام ١٩٢٢/٧/٢٩.

ملحق رقم ٢

محضر نقاش مع حافظ سند (*)

أجرى النقاش فى مدينة المنصورة يوم ١٩٦٩/٥/٢٩

س: كيف انضممت إلى الحزب الاشتراكى المصرى؟

ج: كان ذلك فى أواخر عام ١٩٢١ وبالتحديد فى بداية نفى سعد زغلول إلى سيشل^(١) وأنا أذكر هذا تماما، وكنت أعمل به. وفى أثناء سيرى بالطريق قام شخص بتوزيع نشرة فى مقابل خمسة مليمات وكانت النشرة صادرة عن الحزب الاشتراكى المصرى، وبها عنوان دار الحزب بشارع نوبار بالإسكندرية، وأعجبت جدا بالأهداف والآراء التى تضمنتها النشرة فتوجهت إلى هذه الدار، وهناك قابلت إسكندر صادة وآخرين غيره، وبعد نقاش حول أهداف الحزب اتفقت معهم على أن أفتتح شعبة بالمنصورة وأعطونى كمية من الكتب والنشرات.

والحقيقة أن هذه المقابلة قد أثرت فى جدا فقد كان قادة الحزب أناسا بسطاء وعماليين حقا.

س: هل أفهم من ذلك أنك مؤسس شعبة المنصورة؟

ج: هذا صحيح ولو أننى لا أريد أن أتحدث كثيرا عن نفسى.

س: كيف تأسست الشعبة؟

ج: اتصلت بعدد كبير من الأشخاص أذكر منهم محمود قفه (تاجر نحاس) وعبد الحميد الطوبجي والشيخ أحمد الموافي ومحمد عبد الجليل والسعيد الصبرى.. وجمعت تبرعات من الكثيرين وأسسنا دارا للحزب بميدان الطميهي وافتتحنا الدار فى حفل كبير، وأذكر أننا طبعنا ٢٠٠ تذكرة دعوة وأن الكثيرين حضروا حفل الافتتاح.

س: هل كان لك نشاط سابق على عملك فى شعبة الحزب الاشتراكي؟

ج: كنت قبل زيارتي للإسكندرية عضوا فى جمعية الاستقامة، وهى جمعية دينية، وإن كان عملها الأساسى محو الأمية بين العمال.

س: كم بلغ عدد أعضاء الشعبة؟

ج: كانوا كثيرين، ربما أكثر من مائتين.

س: السعيد الصبرى يقول إنهم كانوا ستين فقط؟

ج: هذا غير صحيح، والسعيد صبرى لم يكن يعرف العدد الحقيقى لكننى متذكر تماما أن دفتر العضوية كان قد امتلأ تماما وأرسلنا إلى الإسكندرية نطلب دفترا جديدا.

س: هل تذكر أسماء أعضاء مجلس إدارة الشعبة؟

ج: اللجنة الإدارية كان عددها عشرة، أذكر منهم:

شفيق باسيو (مهندس معمارى)، وقد عمل لفترة كسكرتير للشعبة - أحمد طرابيه (مقاول).

عبد الحميد الطوبجي (خريج جامعة أوكسفورد من الأعيان).

محمد أحمد عبد الجليل (موظف حسابات بالبلدية).

الشيخ أحمد الموافي (مدرس لغة عربية بمدرسة الفرير).

السعيد الصبرى (عامل).

وأنا..

وقد تعمدت وفقا لتعليمات القيادة فى الإسكندرية أن يكون تشكيل اللجنة الإدارية ممثلا للفئات المختلفة.

س: اسم الشيخ موافى يلفت النظر فهل كان لديكم رجال دين آخرين؟

ج: كان لدينا سبعة من رجال الدين وقد أفادونا كثيرا جدا وكان الشيخ الموافي يلقي فى دار الحزب مواعظ وخطبا تلقى استحسانا كبيرا.

س: من كان يحضر إليكم من الإسكندرية؟

ج: كان يحضر مندوبون من القيادة بالإسكندرية لمناقشة نشاطنا وأذكر منهم إسكندر صادة والشيخ صفوان أبو الفتح، وكان يصلنا من الإسكندرية باستمرار مطبوعات وكتيبات ومنشورات وأذكر أنه وصلتنا كتباً للينين باللغة العربية.

س: هل كانت لكم علاقة بالشعب الأخرى؟

ج: كانت هناك شعب نشطة بسمنود والمحلة وقد قمت بزيارة شعبة سمنود وتناقشت مع قادتها حول أساليب عملهم.

س: ألم تحاولوا مد نشاطكم إلى الريف؟

ج: طبعاً حاولنا ولتحقيق ذلك ضمنا إلى صفوفنا عدداً من المهندسين الزراعيين واتصلنا ببعض الفلاحين في عدد من المراكز، وعندما وجهت إلينا الضربة كنا على وشك تأسيس شعبة بالسنبلاوين وشعبة بالمنزلة، وتأسيس مثل هاتين الشعبتين كان كفيلاً بإقامة اتصال مباشر بالفلاحين.

والحقيقة أن نشاط شعبتنا لم يستمر إلا عامين فقط، ولو تمكنا من الاستمرار لفترة أطول لكننا قد نجحنا في إقامة مراكز قوية في الريف.

س: هل كنتم مستعدين لمواجهة حملات الحكومة ضدكم؟

ج: نحن كنا في بداية نشاطنا ولم نتح لنا فرصة كافية للعمل وتربية الأعضاء تربية حقيقية، حتى نحن لم نكن قد أصبحنا بعد كوادراً حقيقية رغم أننا كنا نشطين جداً. وفور عملية القبض الأولى على قادة الحزب^(٢) صدرت تعليمات بحرق دفاتر العضوية حتى لا يحصل عليها البوليس، ولكن نشاطنا ظل علنياً.

س: لماذا لم يقبض عليك؟

ج: الحقيقة أنهم مارسوا ضدى ضغطاً شديداً جداً وأنا كنت أعمل في مجلس المديرية وهددوني بالفصل وتشريد أولادى وأخيراً خضعت للضغط وكتبت استقالة من الحزب ما زلت أذكرها بالنص. وهى: «بما أن العمال في مصر بين قوات ثلاث: الاستعمار الظالم والحكومة التى تربت في أحضانها والقابضون على زمام الأموال، فإن على العمال أن يكتفوا بحزب عمالى وأن يبتعدوا عن الشيوعية والإباحية».

وطبعاً هذه الصيغة لم تعجب مدير الدقهلية لكننى رفضت تعديلها.

س: وهل اكتفت السلطة بهذه الاستقالة؟

ج: اكتفت بها في البداية لكنها عمدت بعد ذلك إلى تشريدنا جميعا فأنا وكثيرون فصلنا من العمل ومحمد عبدالجليل فصل ثم أعيد للعمل بشرط نقله إلى سوهاج في أقاصي الصعيد. وعلى العموم ظلت حملات التنكيل والاضطهاد والتفتيش تلاحقنا بشكل مستمر حتى ما بعد عام ١٩٣٠.

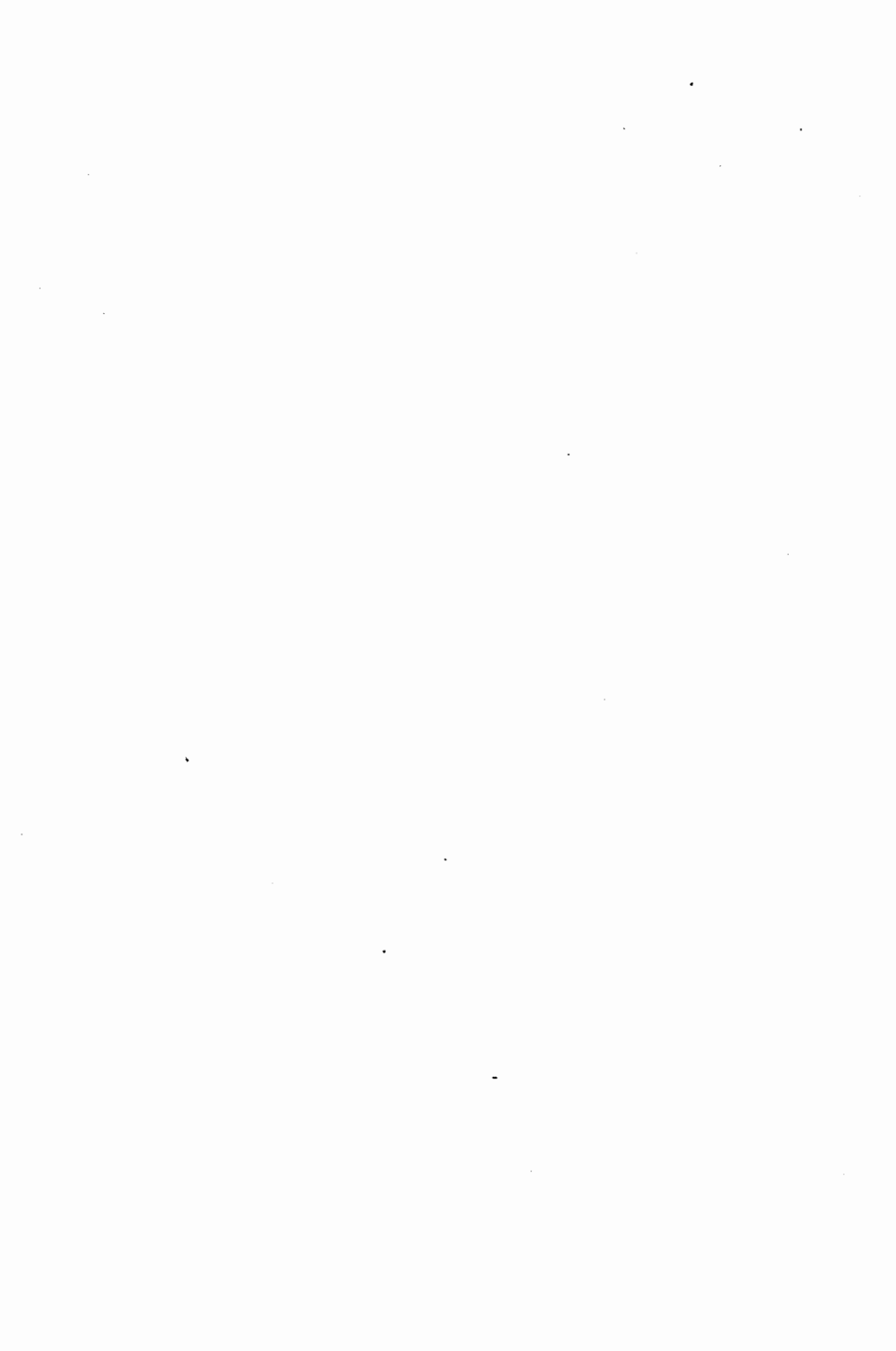
بل إن البوليس كان يستدعى أى شخص يتصل بنا لأى سبب من الأسباب حتى ولو كان مجرد قريب أو صديق شخصى ويحذره من الاتصال بنا..

س: هل تريد أن تقول شيئا آخر؟

ج: أريد أن أقول إننى لا أزال ماركسيا وإننى حزين لأننى كتبت الاستقالة في عام ١٩٢٤ تحت ضغط السلطات.

الهوامش

- (*) ورد اسم سند خلال النقاش مع السعيد الصبرى وذكر أنه كان أمين صندوق شعبة المنصورة، وهو نجار يبلغ من السن ٩٠ سنة وقت إجراء الحوار ومحدث لبق، ثقافته واسعة ويغلب عليها الطابع الإسلامى، وهو يؤكد باستمرار وفى حماس دافق أنه ماركسى. وذاكرته قوية.
- (١) نفى سعد زغلول إلى سيشل فى ديسمبر ١٩٢١.
- (٢) ١٧ مارس ١٩٢٣.



ملحق رقم ٣

محضر نقاش الدكتور عبد الفتاح القاضى (*)

أجريت المناقشة بالقاهرة يوم ١٩٦٨/٩/٢١

س: كيف تأسس الحزب؟

ج: الذى أعلمه عن حسنى العرابى أنه كان يتاجر بالقطن والتقى خلال علاقاته بالتجار الأجانب بجندى إنجليزى عضو فى حزب العمال.. أقنعه بالفكر الاشتراكى.. وبعدها التقى حسنى بسلامة موسى.. ومحمود عزمى وعزيز ميرهم وشيخ (نسيت اسمه) كان إماما فى مسجد برلين (وأذكر أن هذا الشيخ قد ضم كثيرين من الطلبة المصريين فى ألمانيا إلى حزب الوفد، فهو قد قسم الجمعية المصرية فى برلين إلى قسمين: قسم وفدى.. وتركنا نحن فى الحزب الوطنى).

وبعد أن تحولت حركة ١٩١٩ إلى حركة مطالبات اقتصادية وبرزت إضرابات عمال الترام وعمال النسيج تطورت المطالبة الوطنية إلى حركة اقتصادية.. فاعتلى الموجة هؤلاء الأربعة مكونين الحزب الاشتراكى. وقد بلغ الحزب من القوة، أنه اعتد بنفسه ونظم الإضراب الشهير واحتل المصانع..

وفى سنة ١٩٢٣ أو حوالى ذلك لا أذكر بالضبط عقد مؤتمر الكومنترن فى موسكو، وسافر حسنى العرابى لحضوره فى هذا الاجتماع، صدر القرار الذى يدعو أحزاب

الاشتراكية الحقيقية إلى أن تسمى نفسها بالحزب الشيوعى، وجاء حسنى العرابى ورفع لافتة الحزب الاشتراكي ووضع مكانها لافتة الحزب الشيوعى.

وطبعا سعد زغلول أصدر سنة ٢٤ قانون مكافحة الحركات الشيوعية.

وأثناء زيارة حسنى العرابى لموسكو طلب منه إرسال مجموعة من العمال الشيوعيين للدراسة فأرسل عددا، منهم: د. حسونة «طبيب أسنان»، شعبان حافظ، عبدالرحمن فضل و«محمد عبدالعزيز» (الjasوس) وكان يأتى موفدون من الكومنترن ولكن بكل أسف كان أغلبهم من اليهود.

وفى سنة ١٩٣٠ وبعد عودتى من ألمانيا اتصل بى عصام الدين حفى ناصف وعرفنى بحسنى العرابى وكانت عندى ميول اشتراكية.. وكنت اتهمت بالشيوعية سنة ١٩٢٥ بسبب هذه الميول.. وفى هذه السنة أصدرنا جريدة «روح العصر».. صدر منها حوالى ٢٤ عددا وثمة نسخ منها موجوده بدار الكتب وكنا نحن الثلاثة مسئولين عنها (أنا وحسنى وعصام) وكانت تناصرها النقابات القائمة.. برغم تزعم عباس حليم للحركة النقابية، وكان يرأس الوزارة إسماعيل صدقى وكانت الصحيفة علنية واشتراكية وسياسية واجتماعية.

ولما لم يجد إسماعيل صدقى وسيلة قانونية لتعطيلها عطلها بقرار من مجلس الوزراء. (أوقفت الجلسة الساعة السابعة وعشر دقائق بسبب إصابة الدكتور القاضى بأزمة قلبية).

المحضر الثانى ١٩٦٨/١/٢٣

قال الدكتور عبدالفتاح القاضى: أود أن أبدأ من جديد لأننى تذكرت بعض المعلومات المهمة:

الحقيقة أن أول حركة اشتراكية ظهرت فى مصر كانت سنة ١٩٦٨ فى الإسكندرية بنشوء نقابة الكونترجية (عمال الأحذية) وكانت مكونة من الأرمين والأروام (وقد قال لى هذه المعلومات الشيوعى القديم ياناكاكس، وكانت الحركة المصرية «ح.م» قد كلفتنى سنة ١٩٤٢ بكتابة تاريخ الحركة الاشتراكية فاتصلت به وأبلغنى هذه المعلومات، وقد كتبت فعلا موجزا لهذا التاريخ وسلمته للمسئولين فى «ح.م» ولا أذكر إذا كان قد قال لى: إذا كان هناك مصريون فى هذه النقابة أم لا).

وأنا أريد أن أربط بين ذلك النشاط وبين بداية نشاط لينين فى روسيا فى ذلك الحين.. أريد أن أربط بين هذه الحركة فى مصر.. وبين الحركة فى روسيا..

صحيح لم يكن هناك روابط مباشرة، لكن أريد أن ألاحظ أيضا أن تولستوى عندما مات سنة ١٩٠٦ رثاه شوقي رغم أن شوقي كانت ثقافته فرنسية وأنه كان شاعرا رجعيا.. إن من يرثى تولستوى لا بد أن يكون قد أطلع على بعض تراثه الفكرى، ثم لماذا لا نربط بين ثورة الفلاحين الروس ١٩٠٥ وثورة الفلاحين المصريين فى دنشواى ١٩٠٦.

بعد ذلك كانت الخطوة الاشتراكية الثانية خطوة عمر لطفى على أساس الدعوة داخل الحزب الوطنى.. عمر لطفى كان يمثل الجناح اليسارى فى الحزب الوطنى..

أدرك هذا الجناح أن الاعتماد على طلبة المدارس العليا لا يكفى، ولهذا بدأ الاهتمام بالعمال والنقابات.. ولم يكن من الممكن أن يتم ذلك بمعزل عن الحركة الاشتراكية الديمقراطية العالمية، فمصطفى كامل ومحمد فريد كانا يسافران إلى الخارج ويتصلان بالحركة الاشتراكية الأوروبية؛ وخاصة محمد فريد.

كذلك ثورة أكتوبر ١٩١٧ أثرت علينا فى ثورة ١٩١٩ ولا تنس من مبادئ حق تقرير المصير التى ردها لينين.. أخذها نلسون ليردها فى مؤتمر باريس.. ليكسب الشعوب إلى صف الرأسمالية..

بعد ذلك أريد أن أنتقل إلى موضوع الجلسة السابقة..

أريد أولا أن أحاول تقييم حسنى العرابى.. هو رجل كويس.. هو دوره كدور بليخانوف لم يكتف بممارسة دراسة الماركسية على يد الجندى الإنجليزى، وإنما حاول أن يكون نفسه نظريا.. وترجم كتاب رامزى ماكدونالد عن الاشتراكية لكن حسنى العرابى كان قلبه طيبا ويخدع بسهولة، وكان لا يحسن اختيار الأشخاص وخاصة الذين أرسلهم إلى موسكو للدراسة فقد أرسل مثلا محمد عبدالعزيز وهو الذى اختاره.. وأنا قرأت مذكرات محمد عبدالعزيز عند محام اسمه حنفى عبود، كل مذكراته خيانة حتى وهو فى الاتحاد السوفيتى.. فعندما كان فى روسيا كان يخون، وهو يذكر ذلك صراحة فى مذكراته، وكانت مكتوبة بخط اليد فى حوالى خمس كراسات وعندما كان فى روسيا أرسل مثلا إلى مسلمى الاتحاد السوفيتى لإقناعهم بالاشتراكية، فكان يحرضهم ضد النظام الاشتراكى وأورد فى مذكراته أيضا سلسلة خياناته وتسليمه لكل المندوبين الذين أتوا إلى مصر.

وقد أختار أيضا حسونة وهو شخص نشيط، وينجز أعمالا كثيرة وقد عمل معنا كثيرا فى الأربعينات فى الطبع السرى.. لكنه كان ماديا.. «من بتوع الثلاث ورقات» وكان أحسن

من أختار شعبان حافظ وعبدالرحمن فضل.. ولكن فضل «لعبي» وشعبان حافظ كان أحسنهم وكان عنوانا صحيحا جدا للعامل المصرى.

وقد استفاد جيدا من مدرسة الكادر فى الاتحاد السوفيتى، وبرزت كفاءته فى العمل السرى وفى تكوين الخلايا وفى الاتصالات فى العمل الجماهيرى وفى كل المجالات.

أما أنا فأنا فكننت أدرس فى ألمانيا وكنت قد قررت أن أقل من اتصالى بالمصريين حتى أتعلم الألمانية بسرعة، وجاء حطى أثناء دراستى لكورس اللغة الألمانية قبل بدء الدراسة الجامعية فى يناير ١٩٢٠ مع عدد من البلقانيين.. وخاصة البلغار منهم، مثلا الزميلة بوبوفا وكنا نذاكر سويا وفى الكلية استمرت المذاكرة سويا، وخاصة مادة التشريح لأنهم يعرفون لاتينى أكثر منى وبوبوفا والبلغار الآخرون عرفونى بجامعة من الروس منهم لاديفسكى.. كانوا فى كلية أخرى وأنا كنت فى ذلك العهد وطنيا متطرفا، وكل همى هو أن أطعن فى الإنجليز، وإن كانت تسيطر على فكرة الطبقات، وكنت متدينا أيضا فكانت تشب مناقشات حادة حول الفكرة الماركسية وحول تأييد نضال الطبقة العاملة العالمية، وأنا كنت خالى البال تماما عن فكرة الاممية، كنت وطنيا أؤمن بمصطفى كامل ومحمد فريد.. لم أكن أحب الوفد لأنه يسعى للمفاوضة والمفاوضة تؤدى إلى التسليم.

ومع مضى الوقت ابتدأت هذه الأفكار تختمر فى عقلى، واقتربت من الاشتراكية أكثر فاكثرت عن طريق الأدب..

فى شتاء ١٩٢٣ انتقلت إلى جامعة فرايبورج - لا أذكر أن ذلك كان فى شتاء ١٩٢١.. وهناك تعرفت بممثلة قديمة اسمها «فراو هيلدا بانداكا» جعلتنى أهتم بالأدب، وكانت تقيم ندوة أدبية فعرفتني بأدب إبسن ومكسيم جوركى وجيرك هوفمان وأناطول فرانس. وهكذا اتجهت إلى الأدب..

وعن طريق القصص الاشتراكية ابتدأت أقتنع بالاشتراكية، وبعد ذلك بدأت الاطلاع على النظرية الاشتراكية وساعدنى على ذلك أننى درست فى الجامعة كورس اقتصاد، وكان أستاذ الاقتصاد فى جامعة فرايبورج له كتاب هام اسمه الرأسمالية والاشتراكية والفوضوية.

وقرأت هذا الكتاب..

المهم أننى أصبحت اشتراكيا فكريا، لكن لم يكن لى نشاط وعندما رجعت إلى برلين سنة ١٩٢٣ لأكمل دراستى اهتمتنى القنصلية المصرية بأننى لى علاقة متطرفة مع نوى

المبادئ الهدامة، ولم يكن هذا صحيحا فأنا لم أقابل المصريين كثيرا إلا أنى استمرت عضوا فى لجنة الحزب الوطنى إلى أن عدت سنة ١٩٢٥ إلى مصر.. ومن ١٩٢٥ حتى ١٩٣٠ لم تكن لى علاقة بالحزب.

وعملت كطبيب أطفال وأحسست بحقيقة الفقر وبشاعته، كنت أقول للأم اشترى دواء لطفلك أو غذاء لطفلك وأشعر أنها لا تملك قرشا، اقتنعت أنه لا فائدة من الطب ولا فائدة من أى مجهود يبذل إلا إذا تغير المجتمع، وهنا يمكن أن تكون هناك جدوى من أى عمل وأدركت أن الواجب الأساسى للإنسان هو العمل لبناء الاشتراكية..

ولذلك عندما اتصل بى عصام الدين حفى ناصف وعرفنى بحسنى العربى وعرضا على فكرة إصدار جريدة اشتراكية سياسية أسبوعية صادف ذلك هوى فى نفسى وجعلت عيادتى بشارع محمد على بعد أجزاخانة راتب - والبيت موجود حتى الآن - دارا للجريدة، وألقيت إليها بكل ما أملك من نقود، وكذلك حسنى العربى. أما عصام فقد سار معنا لفترة ثم توقف، كان همنا أنا وحسنى العربى ألا نعطى لإسماعيل صدقى حجة قانونية لإغلاقها كان هدفنا أن تستمر المجلة أطول مدة ممكنة، أما عصام فقد كان متطرفا وكان رأيه أن نهاجم ونستفز إسماعيل صدقى.

وعن طريق المجلة التقت حولنا عدة نقابات، وما زلت أذكر بالخير عددا من النقابيين الشجعان مثل سيد قنديل.. وهو مكافح نقابى ممتاز كان يحمل الجريدة على كتفه ليوزعها، وشخصا آخر اسمه محمد.. لا أذكر بقية اسمه.

كنا نعتمد على توزيع الجريدة باليد وسط النقابات، وكان يأتينا العمال لتوزيع الجريدة باليد، لأن متعهد الجرائد «الفهلوى» كان يأخذ المجلات ولا يوزعها بايعاز من البوليس السياسى، والحقيقة أن هذه الجريدة كانت مدرسة.

وأول عمل قمنا به ترجمنا العمل «المأجور ورأس المال»، أنا ترجمته وكنا نقسم العمل كالاتى حسنى عربى يكتب الافتتاحية، وأنا أكتب مقالا صغيرا وأترجم على قدر طاقتى - ترجمت لمشاهير الاشتراكية من سان سيمون حتى ماركس. ترجمنا لمكسيم جوركى قصصا إيطالية، وقصصا لجاك لندن وأصدرنا عددا خاصا عن كارل ماركس فى صدره صورة لماركس، وكان يمدنا بالكتب الاشتراكية مجانا شخص شيوعى مجرى لا أذكر اسمه كان يعمل فى المكتبة الألمانية وكانت مكان مكتبة النهضة.

س: هل كانت لكم خلايا حزبية؟

ج: لم تكن لنا علاقة بخلايا حزبية فحسنى العرابى كان خارجا توا من السجن. واكتفينا بالعمل العلنى، وكانت الحركة النقابية يقودها فى ذلك الحين الأمير عباس حليم يساعده الانتهازى أحمد إسماعيل أخو محمد إسماعيل الذى قتل السردار، وعندما أغلقت المجلة كانت الحسنة التى قدمها عصام ناصف أنه ذهب إلى دار الكتب وأودع هناك خمس نسخ منها.

س: متى بدأت العمل الحزبى؟

ج: لم نبدأ عملا حزبيا، ولما أغلق إسماعيل صدقى المجلة، كنا فى الحقيقة أفلسنا. أنا أفلست وحسنى العرابى أفلس، حتى إننى اضطررت إلى الاقتراض لأسافر للخارج، وبعد إغلاق المجلة ظل البوليس يطارد حسنى العرابى ويستجوب كل شخص يقابله حتى اضطر إلى الهجرة من مصر، وبعد عودتى من العلاج بالخارج لم أجد حسنى العرابى. ولم يكن عندنا تنظيم، فلم أجد من أتصل به، وكنت مقلسا ومدينا فتوظفت فى شبين القناطر واستمررت فى العمل فى العيادة - دون نشاط سياسى إلى أن أصدر حسنى العرابى كتاب «٨ سنوات فى المنفى» وأنا كتبت المقدمة للكتاب معتقدا أن حسنى العرابى هو رجلنا الذى استمر كما كنا معا، وقد عاد حسنى العرابى بواسطة حسن نشأت باشا سنة ١٩٣٨ أو ١٩٣٩ لا أذكر..^(١)

وبعد عودته رحبنا به وحاولنا إقامة علاقة معه، وبدأنا حركة جديدة لإصدار جرائد مستعملين ترخيص جريدة من الجرائد الخاملة، لا أذكر اسمها، وكنا كلما أصدرنا عدة أعداد أغلقت بواسطة السلطات وكانت الخطة تقريبا مثل خطة روح العصر، وحول هذه الجرائد تكون تنظيم، وكان معنا العرابى وضممنا أيضا عبدالفتاح الشرقاوى وعبدالمغنى سعيد. عبدالمغنى سعيد والشرقاوى كانا يكوّنان جناحا يمينيا يؤمن بالماركسية دون الفكر المادى والشرقاوى ضم الشيخ سعاد جلال.. واستمر التنظيم نى العمل.. وعبدالرحمن فضل اتصل بنا فى هذا الوقت..

س: كيف التقيتم بالحركة الجديدة ح.م.؟

ج: فى البدء استمررنا فى العمل فى التنظيم المخلخل الذى لا ينظم دراسات جديدة ولا عملا جديا..

س: هل التنظيم جمع بقايا الحزب القديم؟

ج: لا. كانت خطتنا البحث عن عناصر جديدة وظل التنظيم مخلصا حتى هاجمت ألمانيا الاتحاد السوفيتي وزارني حسنى العرابى وطلب منى عقد اجتماع، وكنا فى ذلك الحين نصدر جريدة (لا أذكر اسمها) وكنا نعلن على صفحات جريدتنا أننا محايدون، وفى الاجتماع طلب حسنى العرابى مؤازرة ألمانيا، وقلت له هل نحن اشتراكيون أم نازيون؟ قال إن الألمان اشتراكيون أيضا، قلت له اقرأ كتاب «كفاحى» وقرأ فيه الهجوم على الاشتراكية، والحقيقة أننى دهشت من موقف حسنى العرابى هذا واقترحت تأييد الحلفاء. وتحت ستار تأييد الحلفاء نؤيد الاتحاد السوفيتى وجمعنا المجموعة وانقسمنا، بلديات حسنى العرابى من المحلة والمناطق المجاورة لها انضموا إليه والقسم الآخر أنا وعبد الفتاح الشرقاوى والآخرين استمررنا فى العمل.. (عبدالمغنى سعيد كان مترددا).

وذاث يوم عند عودتى إلى منزلى إذا بأحمد إسماعيل جالس فى مطعم يونيون ومعه عسكري إنجليزى. ونادانى - وقدمه لى، وكان اسمه سام باردل، وكان قد تزوج فتاة يهودية اسمها جورجيت على ما أذكر^(٢) كانت تعمل فى مكتبة الميدان.

وقدمه لى كعضو فى الحزب الشيوعى الإنجليزى وبعد حديث طويل سألتنى سام لماذا تعملون متفرقين؟ وأبلغنى أن هناك مجموعة أخرى وتعرفت بكوريل. وابتدأنا العمل مع كوريل فى تنظيم «ح.م.»

الهوامش

(*) الدكتور عبدالفتاح القاضى.. طبيب أطفال، وقد أسهم فى النشاط منذ عام ١٩٣٠ وأسهم فى الموجة الجديدة للنشاط بعد الأربعينيات وشارك فيها مشاركة إيجابية. وهو أحد النماذج الدالة على تأثير الفكر الاشتراكي الألماني على الحركة الماركسية فى مصر.

(١) الاسم الحقيقى للكتاب ٨٩ شهرا فى المنفى.

(٢) اسمها الحقيقى هنريت أرييه وكانت تعمل فى مكتبة الميدان التى أسسها هنرى كوريل وكانت هى وسام عضوين فى ح.م. أما سام باردل فهو فى الأصل عضو فى الحزب الشيوعى الإنجليزى وصل إلى مصر جنديا فى الجيش البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب عاد إلى إنجلترا للعمل فى مكتبة المستعمرات بالحزب.

ملحق رقم ٤
محضر النقاش الأول مع عصام الدين حفنى ناصف
أجريت المناقشة بالقاهرة يوم ١٩٦٨/٩/٣٠

س: ما هى معلوماتك عن نشأة الحزب القديم؟

ج: سنة ١٩١٩ خلال الثورة بدأت فكرة تكوين أحزاب عديدة، ونشأ الحزب الديمقراطى (عزيز ميرهم).. وفى الإسكندرية تأسس حزب اشتراكى كان فيه عبدالله عنان، وكان حسنى العرابى يتزعم مجموعة وقد اتجهت مجموعة حسنى العرابى لتكوين حزب شيوعى، وحدث انقسام فى الحزب..

وكانت مجموعة حسنى العرابى تميل إلى الفورات المتسارعة فمثلا سنة ١٩٢٣ احتل العمال أحد فابريقات الزيت بإيعاز من الشيوعيين. وكان هذا عملا متسارعا، وسعد زغلول أرسل أورطتين من الجيش واستخدم العنف ضدهم، وصدر قانون ضد الشيوعيين أظن ثروت باشا هو الذى أصدره وحوكم قادة الحزب وفقا لهذا القانون وحكم عليهم بثلاث سنوات وزعيمهم أنطون مارون مات فى السجن مضربا عن الطعام..

وبعد ذلك أصبحت الحركة غير شرعية وكان باستمرار هناك مسجونون شيوعيون، وحدثت عدة مرات محاولات لإحياء الحزب وإحدى هذه المرات قام بها شخص اسمه العربى، وهو شخص حكم عليه فى قضية محاولة اغتيال كتشنر وحكم عليه بالسجن ١٥

سنة وأفرج عنه عند وصول سعد زغلول للحكم، وبعد الإفراج عنه انضم إلى مجموعة من الشيوعيين كان معظمهم صحفيين وكان العربي يكتب مذكرات تفصيلية، وقبض عليهم وضبطت هذه المذكرات التفصيلية، ولست أدري إن كان العربي جاسوسا أم لا، لكن مذكراته كانت دليل إدانة ضدهم جميعا لكن العربي أفرج عنه(*).

حسنى العرابى كان متخرجاً من سنة ثانية ثانوى وكان عنده نقص فهو معقد من المثقفين، وكان معظم أصدقائه من أنصاف المثقفين، مثلاً عندما طلب إليه إرسال أشخاص إلى موسكو أرسل محمد عبدالعزيز (كان ممرضا) وشخصاً من الإسكندرية اسمه يحيى (تاجر بطاطين).. وفى الاتحاد السوفيتى كان محمد عبدالعزيز نموذجاً سيئاً. وعندما عاد اتصل مباشرة بالمباحث وعمل معها وكان يرسل معلومات للكومنترن مبالغاً فيها قال لهم مثلاً إن الحزب فيه ٢٠,٠٠٠ عضو.

الكومنترن أرسل شخصاً نمساوياً اسمه فايس فى عام ١٩٢٧ على ما أظن وعندما وصل قابله محمد عبدالعزيز واستولى على نقوده وسلمه للمباحث..

وأذكر أنه حدثت محاولة لاعتقال محمد عبدالعزيز، بأن طعنه شخص أمام دار الكتب برقبة زجاجة وقيل ساعتها إن الذى حاول قتله شيوعى.

وبعد ذلك فى سنة ١٩٣٠ كان لى صديق هو د.عبدالفتاح القاضى وتعرفت بحسنى العرابى، واجتمعنا نحن الثلاثة لإصدار مجلة.

وأنا كنت معروفاً أنى شيوعى، وكذلك حسنى العرابى ولا يمكن منحنا رخصة للمجلة لهذا طلبت الرخصة باسم د.عبدالفتاح القاضى..

وكان هناك شخص اسمه إلهامى كان موظفاً فى السكة الحديد وفصل لأنه شيوعى وعمل فى المجلة كمدير للإدارة.

وتأمر ضدنا متعهد توزيع الجرائد الفهلوى فكان يخزن الأعداد ولا يوزعها. وأحسنا أننا نفلس وأفلسنا فعلاً وبدلاً من أن نغلق المجلة بأيدينا هاجمنا الحكومة بشدة وعنف فاجتمع مجلس الوزراء وأصدر قراراً بإغلاق المجلة..

وسافر حسنى العرابى إلى ألمانيا لأنه أفلس وفى ألمانيا أعجب بالحركة النازية فكان يكتب لنا مادحاً فى هذه الحركة، لكنه كان يعيش هناك فى حالة سيئة جداً وكان يعطى دروساً فى اللغة العربية..

وعندما أوشكت الحرب على القيام، أدرك الإنجليز أن من الخطر بقاء حسنى العرابى فى ألمانيا حتى لا يستخدمه النازى بوقا للدعاية للنازية.

وهكذا تدخل حسن نشأت بإيعاز من الإنجليز لإعادته لمصر.

وعندما عاد حسنى وتقابل معى ومع الدكتور القاضى حاول أن ينضم إلينا وتمسك بالمظهر الشيوعى لأنه أحس أن كل ما له من احترام وكرامة فى مصر كان بسبب اضطهاده بسبب شيوعيته..

وأصدرنا جريدة أظن اسمها «الكفاح» وكانت سياسة العرابى مائعة يقول مثلا إن الفلاحين مظلومون.. لكن لا يقول ما هو الحل لإنهاء الظلم أى كلام يمكن أن يستخدمه الشيوعى ويستخدمه النازى..

وظل الأمر كذلك حتى غزت ألمانيا أراضى الاتحاد السوفيتى وأنا أوعزت إلى د.القاضى بضرورة إعلان الهجوم على ألمانيا والدفاع عن الاتحاد السوفيتى، وعقد اجتماع لمناقشة الموقف وقال القاضى إن علينا أن نعلن دفاعنا عن الاتحاد السوفيتى فقال حسنى العرابى إنه يطلب ثلاثة أيام مهلة للتفكير. كان يأمل أن تسفر الأيام الثلاثة عن نتيجة الحرب، فلما سمع جورنج يقول إن الجيش الألمانى سيشق روسيا كما يشق السكين قالبا من الزيد خيل إليه أن الألمان هم الحصان الرابع، وأعلن رفضه لفكرة الهجوم على الألمان، وتركنا وانضم إلى مجموعة من مؤيدى الألمان وكون تنظيمًا بالفعل.. وكون «وزارة ظل» فى انتظار احتلال النازى لمصر.. وأعدوا رايات وفصلوا قمصانا لونها بنى.. وعندما انتصر الاتحاد السوفيتى حاول حسنى العرابى أن يتصل بنا من جديد فرفضنا..

س: فى الفترة من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٨ ألم تشكلوا تنظيما؟

ج: لا.. كان مجرد عملية إصدار مجلات أساسا.

وأنا مثلا أصدرت رواية اسمها «عاصفة فوق مصر» سنة ١٩٣٩ عن نضال الفلاحين، وفى سنة ١٩٣١ أصدرت كتابا اسمه «التحديد الاجتماعى - أبحاث فى شئون العمال والفلاحين» وفى سنة ١٩٢٦ ترجمت لتولستوى قصة «النور يضىء فى الظلام».. وفى سنة ١٩٣٣ أصدرت كتاب «مبادئ الاشتراكية»..

وترجمت كتاب «حركة العمال والاشتراكية الديمقراطية» وقد ترجمته عن الألمانية وهو بقلم كامفماير.

وهذه الكتب كانت ذات تأثير لدرجة أنهم قبضوا مرة على خلية شيوعية فى المنصورة اتضح أنها تقوم أساسا على دراسة هذه الكتب..
والحقيقة أنه فى فترة الحرب العالمية الثانية الإنجليز تهادنوا مع الشيوعية، وبالتالى سكنت الحكومة المصرية عنا، فأنا مثلا أصدرت عدة كتب منها: «لماذا تعنى الرأسمالية الحرب» وكتاب «الاتحاد السوفيتى» ونشطت مجموعة سلامة موسى وظهر معه جماعة تحيط به مثل رمسيس يونان، ومصطفى كامل منيب.. لكن الحركات الجديدة كانت فى الأساس من أناس جدد..

س: مجد الدين حفنى ناصف، ما هى علاقته بالحركة الاشتراكية؟
ج: لا علاقة له، لكن هو اشتراكى وزار الاتحاد السوفيتى وقابل هناك تشيشيرين، لكنه لم يعلن اشتراكيته لأسباب شخصية ولأنه لا يريد أن يدخل معركة.
س: لكن لماذا اتهمه الوفد باليسارية؟

ج: كنا أنا وهو أعضاء فى الحزب الوطنى وكنا نهاجم تهادن الوفد، ومجد الدين كان سكرتير جمعية الطلبة فى باريس وكان ضد الوفد، لكنه كان ضد الوفد لأنه من الحزب الوطنى، وأنا مثلا حضرت مؤتمر الطلبة المصريين الذين يدرسون فى أوروبا، وكان ذلك فى سنة ١٩٢١ وفى الاجتماع هاجمت سعد زغلول وقلت له أنا أسحب الثقة منك فثار سعد وقال أنا وكيل الأمة، ولست وكيل جمعية طلبة..

س: اتهمت فى العشرينات بأنك على علاقة بعناصر إرهابية وبأنك وضعت فى سترتك شارة عليها صورة الوردانى (الذى اغتال بطرس باشا غالى) فهل كنت تؤيد الاغتيالات السياسية؟

ج: هذا صحيح، وأنا كنت أعتقد أنه فى ظل التخلف السياسى وضعف النشاط الحزبى فإن الاغتيالات يمكن أن تلعب دورا ثوريا فى تحريك الجماهير.

الهوامش:

(*) ثبت فيما بعد أن طاهر العربى كان عميلا للأمن.

ملحق رقم ٥
محضر النقاش الثانى
مع عصام الدين ناصف يوم ١٠/٢/١٩٦٨

س: هل كانت لكم صلة مباشرة بالحزب الشيوعى الألمانى؟

ج: كنا نتعلم منه وكنا نتابع أعماله، لكن لم تكن هناك علاقة مباشرة بالحزب.. والحقيقة أننى لم أدرك أهمية النضال العملى من أجل الاشتراكية إلا بعد عودتى من ألمانيا.

لكن الذى لا شك فيه أننا تأثرنا كثيرا بهذا الحزب وأفكاره.

وأيضا أود أن أذكر أنه كانت فى القاهرة مكتبة فى شارع عدلى اسمها المكتبة الألمانية كان يعمل فيها شخص شيوعى وكان يمدنا ببعض الكتب الاشتراكية.

س: لماذا اختلفت مع الدكتور القاضى؟

ج: لأسباب كثيرة منها أننى لم أكن أثق فى الطبقة العاملة المصرية وكنت أطلب الاتجاه إلى المثقفين، ومع ذلك فقد قررت يوما ما الاتصال بالحركة النقابية فاتصلت بعباس حليم وأعلنت أننا يجب أن نسعى لتكوين حزب للعمال، ولكن فشلت العملية، وأود أن أذكر أننى تناقشت مع عباس حليم كثيرا وبالرغم من أنه كان يكره الملك إلا أنه كان ضد الاشتراكية وكان يدافع عن العمال فى حدود، وكثيرا ما قال لى لا تنس أننى نبيل.

وأنا لدى تعليق أود أن أقوله على الحركة الاشتراكية عموما.

كانت الحركة الاشتراكية فى مرحلتها الأولى التى تولى زعامتها حسنى العرابى تهدف إلى الإثارة وإحداث ضجيج عال يصل صده إلى موسكو تأييدا للحركة العالمية التى توجه من هناك.

ولهذا فقد جانبها التوفيق وأعوزتها الفطنة عندما اصطدمت بقيادة الحركة الوطنية الاستقلالية المشهورة باسم ثورة ١٩١٩ والتى كان يضطرم بها لشعب كله، فكانت عقبى ذلك أن حملت الصحف جميعا على الشيوعية وجعل الناس ينظرون إليها على أنها موحى بها من أحزاب الأقليات السياسية المعادية للوفد، وظلت هذه النظرة قائمة لفترة طويلة فعانت الحركة الشيوعية من جرائها، وكان دعائها يلقون الاضطهاد من الجانب الحكومى والشعبى على السواء، ولم يطلع زعماء تلك المرحلة على الشعب بأى كتاب يشرح المذهب الاشتراكى ومما أقعدهم عن ذلك أن أكثرهم كانوا ذوى ثقافة ضحلة، وعلى العكس من ذلك، امتازت المرحلة التالية (مرحلتنا) بظهور كتب ومجلات وشعارات ودراسات اشتراكية وكان من الممكن أن يتضاعف عددها لو أنه كان هناك حزب منظم يباشر الأمر بطريقة جماعية، ويجب ألا ننسى أن إخراج الكتب كان أمرا بالغ الصعوبة للافتقار إلى المراجع وهو النقص الذى سدته فيما بعد مكتبة الميدان (هنرى كورييل) ولأن الوعى الطبقي كان مفقدا فكان المؤلف أو المترجم يقبل على العمل والشك يداخله هل تسمح به السلطات أم لا، وهل سيبيع أم لا.. ومن المؤكد أنه لن يربح منه مطلقا.

ملحق رقم ٦

محضر نقاش مع عبدالرحمن فضل^(١)

س: متى بدأت العمل الحزبي؟

ج: بدأ سلامة موسى بحزب اشتراكي على علاقة بحزب العمال الإنجليزي، كان هناك ثلاثة زعماء، سلامة موسى وعبدالله عنان وثالث.

ثم انضم إليهم حسنى العرابي..

س: ما هي معلوماتك عن حسنى العرابي؟

ج: من عائلة أرستقراطية من تجار القطن فقدت أموالها، وكان يبحث عن عمل، كان مثل البكوات الذين فقدوا أرضهم ويمثلون الأرستقراطية التي افتقرت، كان لبقاً ومجلسه لطيف، انضم مع سلامة موسى، وانضم معه أنطون مارون (محامى مختلط).

س: هل تعرفت بمارون؟

ج: نعم.. كان مارون زعيماً حقيقياً «كان مش عايش لنفسه»، كان يعلمنا الماركسية بينما حسنى كانت معلوماته ضئيلة قرأ عدة كتب، لكن مارون بالنسبة لنا كان زعيماً ماركسياً عظيماً، كان يحب العمال جداً كان يكره الإنتلجنسيا لأنهم كانوا يكرهون العمال

ويحتقرونهم وكان مارون يعيش عيشتنا، وترك مكتب المحاماة واكتفى بالمرافعة في قضايا الفقراء مجاناً، وكان يعيش عيشة فقيرة جداً.

س: ماذا عن الزعماء الآخرين؟

ج: كان هناك الشيخ صفوان أبو الفتح - من علماء الأزهر، وهو أستاذ أزهرى عظيم، كنا نسميه «أستاذنا» كان يكتب كل المنشورات، كان ناراً حمراء متوهجة، خلع العمامة ولبس بدلة، لعب دوراً كبيراً في الأزهر وكسب كثيراً من مشايخ الأزهر، وكسب مثلاً الشيخ مهدي، وكان هناك أيضاً بيومي البسوسى عامل براد.

واللجنة المركزية كان فيها عمال، شعبان حافظ (موظف صغير بالسكة الحديد مرتبه ٣ جنيهات شهرياً) .. وبيومي البسوسى (براد) .. وعبدالرحمن فضل (نجار) .. ومن المثقفين (صفوان أبو الفتح، مارون، حسنى العربى، الشيخ مهدي، إلخ).

س: كيف انضمت إلى الحزب؟

ج: كنت أعيش فى قرية حلق الجمل وكنت أنا وعبد الحميد العتال ومحمد سلامة رؤساء نقابة عمال استصلاح الأراضى، وكانت الشركة لها ورشة بها أكثر من ٢٠٠٠ عامل، وانضمت النقابة إلى اتحاد عمال دمنهور، ثم انضمامنا إلى الحزب الاشتراكي وتعرفنا هناك بحسنى العربى، ثم أبلغونا أنهم سوف ينقسمون عن الحزب لأن الدولية الثالثة طلبت منا إذا أردنا الانضمام إليها أن نعلن خروجنا من الحزب وتكوين حزب شيوعى.

والشيخ صفوان هو الذى كتب البرنامج. **كان صفوان يطبق الاشتراكية كان النبى قال عليها^(٧).**

عقب انقسامنا هدم الحزب الاشتراكي.

س: هل تعرف شخصاً اسمه روزنتال؟

ج: روزنتال كان اشتراكياً قديماً، وبقي روزنتال مع سلامة موسى لأن حسنى هاجم بشدة الأجانب وخاصة اليهود.

س: أين كان مركز الحزب؟

ج: فى شارع نوبار بالإسكندرية.

س: لماذا؟

ج: لأن الإسكندرية هى العاصمة الحقيقية ومركز الثروة والصناعة والتجمعات العمالية.

س: متى أعلن الحزب الشيوعى؟

ج: حوالى ٢١ أو ٢٢.. لكن أنا فاكراً أننا اشتغلنا سنتين جد - واتحاد النقابات كان كله تحت إدارة الحزب الشيوعى، كنا نهز الإسكندرية.. استولوا على الفابريقات ورفعوا الرايات الحمراء، كانت الإسكندرية فى أيدينا تماما.. كان المحافظ يرتعش أمام مارون.. سعد زغلول هو الذى قضى على الحركة.

س: ما هو عدد أعضاء الحزب؟

ج: ما أذكره حوالى ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ عضو.

وكانت لنا مراكز فى كثير من البلاد.

وأود أن أؤكد أن معظم نضالنا كان ضد الاستعمار..

وكان هناك بعض الأجانب يعملون معنا ونستفيد من تمتعهم بالامتيازات الأجنبية، وأنا خشصيا كنت أعمل مع سائق اسمه جورجى، وهو بلغارى الجنسية، وكان يقوم بنقل النشرات والمطبوعات بعد صدور قرار الحكومة بحل الحزب.

س: كيف بدأت الحملة ضد الحزب؟

ج: فى سنة ١٩٢٤ جاء سعد زغلول، وكانت حركة الإسكندرية قد بدأت واستولينا على ٣ فابريقات (الزيوت فى الأول) لكن الثلاثة كانوا فى الإسكندرية.. استمرت العملية ١٥ يوما، لدرجة أن ستالين قال لزعماء ألمانيا أنتم لستم ثوريين اذهبوا وتعلموا من مصر كيف يستولى العمال على الفابريقات. وأغلق الحزب، وقدم الأعضاء للمحاكمة.

س: كم شخصاً قبض عليه؟

ج: قبض على الزعماء صفوان - حسنى - مارون - والبعض هرب.

س: وأنت ماذا فعلت؟

ج: أنا كان مفروضاً أن أسافر إلى الاتحاد السوفيتى ومعى رسائل مهمة، وكان مفروضاً أن ينتظرني شخص فى تركيا، وكانت هناك علامات معينة متفق عليها حتى أعرفه.. ولم أجد الشخص، لأن الحزب التركى كان قد ضرب فى ذلك الوقت، لكنى قابلت شاباً ثريا ابن أميرة تركية سابقة هدفه تهريب بعض السجائر، وقد أنزلنى على نفقته فى فندق اسمه الإسكندرية ولما لم يحضر الرفيق التركى الذى اتفق على مقابلتى قررت البحث عنه وساعدنى بعض المصريين الذى تعرفت بهم فى قهوة خاصة بالمصريين وأخيراً عثرت على منزله وكان مراقبا بشدة من البوليس التركى.. وفتحت الباب سيدة عجوز قالت إن

الاسم الذى أسأل عنه غير موجود.. فأعطيته صورتى وبطاقة باسمى وعنوان اللوكاندة وانتظرت فى اللوكاندة أربعة أيام، وفى اليوم الرابع حضر الرفيق وظل يقبلنى ربع ساعة، قال إنه قبل حضورى بثلاثة أيام قبض على كوادى الحزب التركى وأنه هارب، وطلب إلى العودة لكننى رفضت العودة.. وأعطانى نقودا، وبقيت فى تركيا - ٤ يوما محاولا البحث عن طريقة للسفر للاتحاد السوفيتى والأمير لم يحضر لسداد أجرة اللوكاندة ونفذ ما معى من نقود.. فقررت أن أعمل شيلا فى الميناء حتى أهرب على أحد المراكب الروسية.. لبست برنيطة ونزلت فى القارب متجها إلى المركب السوفيتى وكنا قد اتصلنا بقائد السفينة من قبل ورفض مساعدتنا وفوجئ قائد المركب بى على السلم ولم يستطع طردى وبعد شهرين وصلت حقيبتى من تركيا فقد سد الرفاق الأتراك أجر اللوكاندة وتسلموا حقيبتى وأرسلوها لى. أنا أقول لك هذه التفاصيل عشان تعرف قد ايه كان هناك حب أكثر من الإخوة بين رفاق الأممية.

س: عندما وصلت إلى موسكو من كان هناك من المصريين؟

ج: كان هناك خائن اسمه عبدالعزيز ويحيى (مغربى الأصل)، لكنه أرسل من مصر وكان هناك آخرون من سوريا ولبنان والجزائر ومن فلسطين يهود وعرب.. (لكن الأغلبية يهود).. وعندما كنت هناك وصل اثنان أو ثلاثة من المصريين محمد دويدار (عامل فى السكة الحديد عطشجى) وشخص اسمه عبدالعزيز مرعى (براد لكنه فشل فى دراسته) وحمدى سلام، وأخذنا فى الدراسة أنا كنت أدرس هندسة أنواع الخشب والاقتصاد السياسى، وحمدى سلام درس الطب^(٣).

س: ماذا عن المسجونين؟

ج: مارون مات فى السجن - بعد إضراب عن الطعام، والباقي أنهى الإضراب عن الطعام واستمر مارون مضربا أكثر من أربعين يوما ومات.

س: أين تركز نشاط الحزب؟

ج: فى الأرياف كانت الحركة أحسن من الإسكندرية، وكانت تتخذ أساسا شكل اتحاد النقابات العمالية، واستمر هذا الشكل بعد حل الحزب، لكن الأجانب لعبوا دورا رئيسيا وأضروا بالحزب والعمل الحزبى.

لقد أكد لينين أكثر من مرة على أهمية تعريب الأحزاب الشيوعية فى البلاد العربية بينما كانت هناك عناصر أجنبية تصمم على السيطرة على الأحزاب العربية كان هناك

روزنتال، وابنة روزنتال، وأصدقاء روزنتال وحتى الكومنترن عندما أرسل مندوبا إلى مصر أرسل افيجدور، وهو زوج ابنة روزنتال، وكان هناك شخص يهودى عربى فى الكومنترن مسئول عن الشرق الأوسط كله اسمه (أبو زيام) وكان خطيرا جدا..

كان لا يريد أن يتولى أى عربى منصبا قياديا فى أحزاب الشرق الأوسط، كان يساعده عدد من اليهود فى الكومنترن وكان شخصا لبقا، كان ينفذ الأغراض الصهيونية وكلما كنا ننادى (أرابيزاتسيا) أى التعريب يهاجمنا بشدة، بل إنهم عملوا لنا نقدا لأننا رفعنا شعار أرابيزاتسيا وأنا شخصا حوكت أمام هيئة الكومنترن، أبو زيام قال فى المحاكمة إن العرب لا يصلحون لأنهم متخلفون واستقدم شخصا أبله اسمه إبراهيم كان قد أحضره أبوزيام معه من الشام وسلمه خطابا أمامهم، وقال له ارم هذا الخطاب فى الصندوق فرماه فى صندوق الزبالاة فقلت إن «أبو زيام هو الذى أختار هذا الشخص، وهذا يوضح خطر أبو زيام» وعلى أية حال أوقفت المحاكمة. لكن بعد ذلك حدث تطهير فى الكومنترن وأبعد ٧٠ شخصا صهيونيا، وهذا يؤكد صحة مخاوفنا^(٤).

س: ماذا فعلت فى الاتحاد السوفيتي؟

ج: احتكيت بالزعماء. تعلمت. درست..

عندما غادرت موسكو قال لى مسئول وهو (أرمنى) نحن لا نريد فلاسفة وإنما نريد أناسا يوظفون الشعب.

س: كيف عدت؟

ج: الباسبور كان معى، لكنه كان يستخدم خلال وجودى فى موسكو لسفر أشخاص آخرين، ملئ بالفيزات، لف العالم كله. مزقت الباسبور وقلت فى الإسكندرية إن الباسبور فقد، ولما سألونى عن اسمى قالوا إنى ممنوع من الدخول لأن قرارا صدر بإسقاط الجنسية عنى واستمرت المسألة ١١ شهرا. الجرائد (الأهرام) أثارت قضيتى وكذلك البلاغ والمقطم وأخيرا المصرى كتب، وأنا كنت أستفيد من ذلك كله فى إثارة القضية ككل وفى إحداث أكبر ضجة ممكنة واستمرت السفينة تذهب إلى بيريه ثم تعود بى إلى الإسكندرية فمنع نزولى طوال الفترة من منتصف ١٩٣٦ حتى ١٩٣٧ وكانت معظم الصحف تتحدث عن القضية.

وانتهزت الفرصة لإثارة قضية الشيوعية من جديد، وإثارة عطف الناس لدرجة أن بعض الرأسماليين بدأوا يعطفون على، وكانت المركب تسير فى خط بيريه الإسكندرية

بانتظام وكان يسافر عليها كثير من المصريين وكنت أتصل بهم جميعا فاتصلت مثلا بالدكتور قناوى رئيس المجلس البلدى فى الإسكندرية، وكان شخصية كبيرة قابلنى على المركب هو وزوجته - زوجته بكت عندما سمعت القصة - وعندما عاد اتصل بأحد أصدقائه وهو عبدالوهاب الوكيل مراسل المقطم فى الإسكندرية وطلب منه إثارة قضيتى وبدأ المقطم يهتم بمشكلتى وأسمانى ذارع البحار.

وعلى المركب أضربت عن الطعام، وزارنى الطبيب وقال إننى سأموت بعد ست ساعات. ونشر المقطم مقالا بعنوان «الكلمة الأخيرة لذارع البحار» وتدخل الحزب الشيوعى اليونانى واكتشفت أن قبطان السفينة رفيق هو وعدد من البحارة وكانوا يكشفون لى باستمرار الجواسيس الذين ترسلهم الحكومة المصرية لمراقبتى على السفينة..

وأخيرا اتفقت معهم على تهريبى من البحر بعد أن يتركنى الحراس المصريون حتى لا يضار أحدهم، وكان النظام المتبع أن يصعد إلى المركب فور وصوله إلى الإسكندرية حراس يلازمونى طوال فترة بقاء المركب فى الميناء، وكان هناك لنش حراسة يدور حول المركب باستمرار وعندما تتحرك المركب يتسلم الحراس إيصالا من القبطان بأننى موجود على ظهر المركب ويستمر لنش الحراسة فى تعقب المركب حتى تخرج من المياه الإقليمية، وكنت قد رتبت الأمر مع القبطان واتفقت على ترك المركب ورتبت لنش خارج المياه الإقليمية ليعود بى إلى الإسكندرية وكنت أعلم أنه بمجرد ملامسى لأرض الإسكندرية فإن أية قوة لن تستطيع إبعادى عنها والحقيقة أن الحراس كانوا يعطفون على، وفى ليلة الهروب أحس شاويش الحراسة أننى مرتبك فسألنى وهو يغادر المركب «أنت ناوى» فقلت له نعم فقال لى: اتجه يمينا، ففى الاتجاه الآخر توجد حراسة على الشاطئ وبعد أن ابتعدت السفينة عن المياه الإقليمية ألقىت بنفسى إلى الماء وكان الموج عاليا جدا والبحر هائجا والظلام حالكا وبعد أربعين دقيقة فى الماء عثر على اللنش وعاد بى إلى الوطن وخرجنا من باب سراى رأس التين وفى نفس الليلة تحدثت تليفونيا مع عباس المصطفى مدير مكتب الأهرام بالإسكندرية وزارنى فى مخبئى وكلمت المقتطف أيضا.

س: هل صدر قرار من الكومنترن بحل الحزب فى سنة ١٩٣٠؟

ج: لا أعتقد، وإنما صدر قرار بفصل محمد عبدالعزيز وكان جاسوسا فعلا.

س: إلى متى استمر نشاط خلايا الحزب الشيوعى؟

ج: كان النشاط مستمرا حتى سنة ١٩٤٠ أو ١٩٤١ وكل مرة كانت الحكومة تعلن أنها قبضت على آخر خلية ثم تظهر خلايا جديدة.

س: عند عودتك سنة ١٩٣٧ هل وجدت حزبا متماسكا؟

ج: وجدت مجموعة معقولة من الناس كويسين وقالوا إن هناك مجموعات أخرى وطلبوا منى التوسط لتوحيد هذه المجموعات.

س: كيف اتصلت بهذه المجموعة؟

ج: عن طريق د.عبدالفتاح القاضى.

الهوامش

(١) عبدالرحمن فضل - نجار - السن حوالى ٨٠ سنة (عند إجراء المناقشة).

وهو شخصية شهيرة فى تاريخ مصر لأنه بعد ذهابه إلى الاتحاد السوفييتى موفدا من الحزب الشيوعى المصرى.. صدر قرار بإسقاط الجنسية عنه وعن كل زملائه، وعند عودته سنة ١٩٣٦ منع من النزول إلى الأراضى المصرية.. ورفضت السلطات اليونانية السماح له بالنزول إلى الأراضى اليونانية وظل لفترة طويلة على ظهر المركب، واهتمت الصحف المصرية ببسالتة وأطلقت عليه اسما ما زال معروفا حتى الآن هو «ذارع البحار».. ويعد أن هرب من السفينة وتسلسل إلى الأراضى المصرية سمحت له السلطات المصرية بالبقاء تحت ضغط الرأى العام، ولكنه لم يستعد جنسيته إلا بعد فترة. وهو شخصية معروفة أيضا لأن وضعه القانونى، وهو على المركب قد اتخذ نموذجا كلاسيكيا فى دروس القانون الدولى وقانون الجنسية التى تدرس لطلبة كلية الحقوق وقد أشير إلى حالته فى أكثر من مؤلف هام منها المؤلف الشهير فى القانون الدستورى للدكتور سيد صبرى، بل إن الدكتور سيد صبرى قد ألقى ثمانى محاضرات حول عدم دستورية القرار الذى أصدرته الحكومة المصرية بحرمانه من الجنسية.

(٢) هذه العبارة مهمة جدا فهى تشير إلى اهتمام الحزب بالدين الإسلامى. مما يوضح أن الحزب قد استفاد من الخطأ الذى وقع فيه الاشتراكيون الأوائل - خاصة شبلى شميل - بهجومهم على الدين الأمر الذى عزلهم عن الجماهير وعرضهم لهجوم ساحق.

(٣) حمدى سلام كان موزع بريد ودرس الطب فى الاتحاد السوفييتى وتخرج طبيا، وفضل الإقامة فى الاتحاد السوفييتى حتى وفاته.

(٤) لا بد أنه يشير إلى حملة التطهير التى قام بها ستالين.

ملحق رقم ٧ شهادة روزنتال أمام النائب العام

فى ٥ مارس ١٩٢٤ استدعى النائب العام المشرف على التحقيق مع أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى المقبوض عليهم المسيو روزنتال لسؤاله والاستماع إلى شهادته. وقد نشر الأهرام هذا التحقيق قائلاً: «إنه عبارة عن بيان تاريخى خطير لنشأة حركة العمال وتطورها فى مصر منذ ٢٥ سنة فلا يخفى أن هذا الرجل هو بمثابة تاريخى لنهضة العمال فى هذه البلاد، وهو الذى أيقظ التعاون بين العمال بقوة النقابات». وعندما دخل المسيو روزنتال إلى قاعة التحقيق سأل معالى النائب العمومى عن سبب استدعائه إلى النيابة، وهل هناك تهمة خاصة موجهة إليه فقال له النائب العام إنه إنما استدعاه ليسأله أن يروى له ما يعرفه عن نشأة الحزب الاشتراكى المصرى بصفة عامة فأظهر المسيو روزنتال تمام استعداده لإجابة هذا الطلب وطفق يسرد تفاصيل المسألة فقال:

إنى منذ حدثتى أميل إلى المبادئ الاشتراكية وأحن إليها، وقد كان أعظم الآمال عندى أن أرى حالة العمال تتحسن بقوة التربية والنظام. ولما وفدت إلى مصر منذ ٢٥ سنة جعلت أسعى لتأليف النقابات وأول نقابة اشتركت فى تأليفها كانت نقابة عمال السجاير، وبعد ذلك اشتركت فى تأسيس بضع نقابات أخرى للخياطين وعمال المعادن وعمال المطابع،

وكانت تلك النقابات كلها تقريبا للعمال الأجانب لأن العمال الوطنيين كانوا فى ذلك الوقت أقلية فى جميع الحرف ودوائر العمل بالنسبة إلى زملائهم الأجانب.

ولكن الوطنيين أخذوا بالنهوض منذ ذلك الحين وتعلموا كثير من الحرف الفنية فكثير العمال الفنيون منهم، وما زالت الأحوال تسير سيرها الطبيعى التدريجى حتى جاءت الحرب العظمى واضطر العمال الأجانب إلى مغادرة مصر فصار العمال الوطنيون أغلبية كبرى فى الدوائر العاملة، وهذا النمو ساعدهم على تأسيس النقابات التى كانت مسيرة لأغراض سياسية مختلفة تتبع الأحزاب الناهضة بالقضية الوطنية فى البلاد كالوفد والحزب الوطنى وغيرهما ولم أشارك اشتراكا فعليا بإدارة هذه النقابات وكان من رأى أن ننشئ للطبقة العاملة مراكز للدفاع الاقتصادى والتربية الفكرية ولهذه الغاية نشرت فى غضون ١٩٢٠ نداء إلى النقابات العاملة أدعوها إلى تأسيس اتحاد يضم شملها جميعا فتلقت هذا النداء بالقبول بالإجماع وأرسلت إلى الإسكندرية مندوبين من قبلها يمثلون ٣٥ ألفا من العمال للاشتراك فى البحث فى المشروع.. غير أن رؤساء النقابات المتشبعين بالفكرة السياسية شعروا إذ ذاك بأن إنشاء النقابات الحقيقية بطريقة تراعى فيها حالة العمال يؤدى إلى نزع كل ما لهم من سلطة عليها ويحول دون الوصول إلى أغراضهم السياسية فسعوا سعيا جديا لحمل نقاباتهم المشار إليها على عدم الاشتراك بالاتحاد وظلوا يماطلون فى التدابير الأولية سنة كاملة وفى بدء عام ١٩٢١ تمكنا من تأسيس اتحاد النقابات بعدد محدود لا يتجاوز ثلاثة آلاف من العمال.

ولما كنا نرى أن النقابات لا تستطيع أن تتدخل تدخلا فعليا فى الأمور السياسية لكونها مؤلفة من عمال مختلفين وذوى نزعات سياسية متضاربة فكرنا فى تأسيس حزب سياسى يكون بمثابة لسان حال لنقابات العمال ويكون فى استطاعته أن يدافع عن مصالحهم فى المجلس النيابى وغيره ويسعى لحمل الحكومة على إصدار قانون لحماية العمال المتروكين تحت رحمة الرأسمالية وظلمها.

وعملا بهذه الفكرة أنشأنا الحزب الاشتراكى.

س: كيف تأسس الحزب الاشتراكى ومن هم الأشخاص الذين اشتركوا فى تأسيسه؟

ج: اتفق فى ذلك الوقت أن نقت بجملة على الحكومة بقصد حمها على إصدار قانون يحدد أجور المنازل، ووافق السعى هوى فى نفس الجمهور فهبت الصحف تساعدنى فى هذه المسألة

ونشرت اسمى مرارا فى بعض مقالات تتعلق بالشئون المحلية فرأيت من بعض الوطنيين عطفاً على الاشتراكية وكان من هؤلاء العاطفين حسنى أفندى العرابى والدكتور على العنانى أفندى وسلامة أفندى موسى والأستاذ عبدالله عنان، فاتفقت معهم على العمل وقررنا تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى كما تقدم، وقد كتبوا لهذا الغرض منشورا يحتوى على مبادئ الحزب موقعا عليه منهم ولم أشارك فى التوقيع عليه لأنى كنت أعتبر أن ظهور اسمى الأجنبى بالرغم من كونى مصرى الجنسية يمكن أن يعد بمثابة تدخل من أجنبى فى مسألة مصرية..

وقد جعلنا مركز الحزب فى العاصمة وظللت عضوا فى اللجنة الإدارية وأنشأنا بعض فروع للحزب فى الأقاليم، ثم تبين لى أن لجنة العاصمة لم تظهر إخلاصا كافيا لغاية مهمة كهذه فى حين كان فرع الإسكندرية بالرغم من قلة عدد أعضائه يظهر كفاءة تفوق كفاءة المركز الإدارى، وقد طلب أعضاء الفروع جعل الإسكندرية مقرا للحزب وبالفعل تم هذا التغيير، وبعد موافقة أعضاء الفروع على ذلك فى اجتماع خاص عقد لهذا الغرض، فاستاء أعضاء لجنة القاهرة من هذا النقل وطفقوا يحملون على ويطعنون فى شخصى.

وبعد انقضاء بضعة شهور من ذلك التاريخ تقرر عقد المؤتمر الشيوعى الرابع فى موسكو، فأرسل الحزب مندوبا يمثلته فيه، وكان هذا المندوب الرفيق حسنى العرابى. ولما عاد حسنى أفندى من روسيا أبلغنا أن اللجنة المركزية للدولية الشيوعية الثالثة اشترطت لقبول حزبنا كفرع للدولية الثالثة ثلاثة شروط:

أولا: فصلى من الحزب.

ثانيا: تغيير اسم الحزب من اشتراكى إلى شيوعى.

ثالثا: إعداد برنامج للفلاحين.

وعلى أثر ذلك نشرت اللجنة فى الصحف خبر فصلى من الحزب وبعد أيام اجتمع عدد محدود من الأعضاء عدتهم اللجنة مؤتمرا ووافقوا على قراراتها التنفيذية.

س: ما هى الأسباب التى اعتبروها كافية لفصلك من الحزب؟

ج: إنى لا أعرف أسبابا معينة، ولكن مما نشره فى الصحف أن السبب كان ما زعموه من كونى غير شيوعى وأنى أنتفع من الشيوعية أكثر مما أفيدها، وقد كتبت إذ ذاك إلى المركز الرئيسى فى موسكو طالبا إيضاحا عما إذا كان قد طلب فصلى حقيقة وعن السبب فى ذلك فلم أتلّق جوابا حتى الآن.

س: ما هو الفرق بين الاشتراكية والشيوعية؟

ج: الاشتراكية والشيوعية تشتركان من مصدر واحد بمعنى أن مبادئهما الأساسية متشابهة باعتبار أن كلا منهما يعمل لإبطال الملكية الشخصية وتجديد النظام على قاعدة الملكية الاجتماعية، والحزب الاشتراكي ينقسم إلى قسمين أحدهما يعمل لتغيير الحالة بقوة الإصلاح والآخر يسعى للتغيير بالعمل الثوري.

أما الحزب الشيوعي فإنه يختلف عن الحزب الاشتراكي الثوري من حيث تقدير ملاءمة الزمن للثورة الاجتماعية، ذلك أن الاشتراكيين يرون أن الطبقة العاملة غير ناضجة لتولى أزمة الحكم وإدخال الاشتراكية على الأنظمة الحالية، فهم يتبعون طريقة التعاون بين الطبقات العاملة والمتوسطة الحرة للوصول إلى غرضهم في حين أن الشيوعيين يرون أن الحرب العالمية الأخيرة عاجلت الرأسمالية بضربة قاضية وأظهرت أن الفرصة سانحة للقيام بعمل حاسم.. وعملا بهذه الفكرة قام الحزب الشيوعي الروسي بثورته، وهو يؤمل في وصول البلدان الصناعية في أوروبا إلى الثورة الاجتماعية العلمية عاجلا أو آجلا.

س: هل أنت توافق على البرنامج الأخير للحزب الشيوعي المصري؟

ج: لا أستطيع أن أبدى رأيا في برنامج لم أشارك في وضعه.

س: ألا تعد حركة احتلال المصانع كبداية لتنفيذ الفكرة الشيوعية؟

ج: يلوح لي أن الحكومة تخلط بين الإضراب مع البقاء في محل العمل وبين نزع الملكية، لأن العمال إن احتلوا المصنع فلا يطلبون الاستيلاء عليه، وهم عمال بدون سلاح أمام أصحاب العمل الأقوياء الذين يستطيعون تجويعهم وإرغامهم على قبول شروط قاسية، فإذا اتفق أن العمال وقفوا في أماكنهم داخل المصنع فلأنهم رأوا ذلك أفضل طريقة للتعجيل بحل المشكل والوصول إلى اتفاق بينهم وبين أصحاب العمل.

س: هل أنت توافق على عمل كهذا؟

ج: لأجل الإجابة على هذا السؤال بالسلب أو بالإيجاب يجب أن أكون مطلعاً على الظروف والأحوال التي تم فيها هذا العمل.

س: ما رأيك مبدئياً في ذلك؟

ج: لا شك في أن عملاً فردياً محدوداً كهذا يعتبر غير جائز مبدئياً فأنا أرى أن الفرد أياً كان لا يجوز له أن يكون حكماً اجتماعياً والمجموع هو صاحب الحق في تغيير النظام،

سواء كان ذلك بالطرق المشروعة أو بغيرها إذا هو اضطر إلى غير ذلك.

س: هل ترى أن الحزب هو المحرض على الإضراب؟

ج: إن العمال المصريين محرومون من كل وسيلة للدفاع عن مصالحهم فهم على استعداد بطبيعة الحال لطلب المساعدة من كل من يظهر عطفه عليهم.

س: هل تعرف البنود الواحد والعشرين وما بعدها التي تشملها المبادئ الشيوعية وما رأيك فيها؟

ج: أعرفها جميعا ولو كنت أحد واضعيها ربما كنت لا أوافق على مجموعها، ولكنى أرى أن التفسير الحرفى لكل بند لا يؤدى إلى المعنى المقصود، ومعانى المبادئ والشرائع جميعا لا تظهر إلا عند التطبيق.

ولا أظن أن اللجنة المركزية الدولية ترى أن مصر قابلة للتغيير حتى تدفع الفرع المصرى إلى تنفيذ الفكرة الثورية.

ويلوح لى أن البعض يستعمل كلمة ثورة كشبح مخيف، مع أن هذه الكلمة تستعمل فى جميع العلوم والتواريخ لأغراض علمية وتاريخية، على كل حال فإن الطريقة المتبعة للشيوعية تختلف باختلاف البلدان والمجالات الاقتصادية والنفسية فى كل بلد بالرغم من كون المبدأ واحد للجميع.

انتهى التحقيق..

الاهرام - ١٩٢٤/٣/٧



ملحق رقم ٨ بيان من روزنتال رداً على بعض التعليقات على شهادته أمام النائب العام

وردت في بعض الصحف ملاحظات وتعليقات تتعلق بتصريحاتي التي فُهِت بها أمام معالي النائب العمومي عن الحركة الشيوعية في مصر، وقد رأيت أن ذلك يستدعي بعض التصحيح. أولاً: إنني لم أكن قط رئيساً للحزب الاشتراكي المصري، ولكنني اشتركت في تأسيسه وكنت أحد أعضاء لجنته التنفيذية.

ثانياً: إن الحزب الاشتراكي المصري لم يتحول في الحقيقة إلى حزب شيوعي لأنه كان منذ تأسيسه حزباً شيوعياً يتسمى بالاسم الاشتراكي، وقد اعترف بمبادئ الشيوعية وتعاليمها ووافق على خطط الدولية الشيوعية أما تغيير الاسم فقد تم وفقاً لطلب اللجنة المركزية للشيوعية الدولية، وكان ذلك شرطاً لقبول الحزب في هذه الدولية.

ثالثاً: إذا كان لا علاقة لي بالحزب الشيوعي الحالي فذلك ليس ناتجاً من تلاشي الحزب الاشتراكي المصري (الذي لم يتلاش غير اسمه) ولكنني أرغمت على ذلك على أثر وشايات ومطاعن وجهها إلى بعض المتطفلين على السياسة من الذين دخلوا الحزب وتوصلوا إلى فصلي منه ففتنحيت حتى لا أوجد انقساماً في وحدة الحزب ولا أظهر كائني أعمل ضد حركة اجتماعية أشاطرها مبادئها.

رابعاً: ما كنت ولن أكون أبداً من أولئك الأعضاء ذوي النفوذ (يقصد سلامة موسى والعناني) الذين ينكرون اليوم بسماحة ما عبده بالأمس فقد كنت ولا زلت ولا أزال حتى آخر نسمة من حياتي شيوعياً كاملاً ومخلصاً إخلاصاً تاماً لقضية البروليتاريا.

خامساً: بالرغم مما أظهرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري من قلة الخبرة وما ارتكبته من الأغلاط فأنا أتضامن معها تضامناً تاماً وأطالب بنصيبي من المسؤولية.

الأهرام - ١٩٢٤/٣/١٢

ملحق رقم ۹

المشروعين الايجاب

[illegible][illegible]

یونان، یوگوسلاویہ، مصر، ترکی، مشرق وسطیٰ اور مغرب وسطیٰ کے ممالک میں
سفر کیا۔ اس سفر کا مقصد ان ممالک کی تاریخ و ثقافت کو جاننا تھا۔
اس سفر سے انھیں بہت سی چیزیں یاد آئیں جن کی وہ اپنے ممالک کے لوگوں کو بتا رہے ہیں۔

GREGORY SHUKLEND

[illegible][illegible][illegible]

JOSEPH ROSENTHAL
کریسمس روزنامه

Sakellaris Yanhakakis ساکلاریس یاناکاکیس
ایطالی رومانیہ، سیام، لیبیہ لا وھو قصور العربیہ البوسنیہ و فینیجیا بشر
البوسنیہ و امکار و تلحمہ

ALBERT FREUNDLICH
 ابرت فرندلیخ
 ابرت فرندلیخ صاحب کتب مطبوعه ارس و مصر و جزیرہ استونی
 و عداسفہ اصطلح اشخاصیہ الاوغضات المخرجه والادروسه

نور علی ملا علی

100

ملحق رقم ١٠

(١)

تقسيماتهم

معلم من النيابة الموصية لمضرة فاضى الاحالة بمعكمة اسكندرية الاهلية
فى قضية النيابة رقم ٣٩٣ مبرم بك سنة ١٩٢٤

تنظيم النيابة الموصية

- (١) محمود حسنى المراسى غيره ٣٠ سنة تاجسرومهم بالابراهيمه ومحبوس بسجن كوم الدكة
- (٢) انجلون ماريون " ٣٩ = محامى مختلطوهم بالربول
- (٣) سفوان ابوالفتح " ٣٨ = مدرس " بوالهلو
- (٤) الشحات ابراهيم " ٣٣ = كاتب " باسكندرية
- (٥) عبد الحميد احمد ثره " ٣٣ = " = بحلة ابوولى
- (٦) مسعود ابراهيم السكرى " ٣٠ = سكرن " بالبلقطنية
- (٧) ابرام كاتس غير معلوم له محل إقامة بالدولة المصرية الآن
- (٨) هليل زانيج " " " " " "
- (٩) شمعان حافظ " ١٩ = مساعد اسزى " بالزقازيق
- (١٠) محمد المنصور " ٣٥ = منهن " بشبين الكوم
- (١١) عبد الحفيظ عوض " ٢٧ = مدرس " بطنطا

باتهم اولاً فى العدة بين ٢٥ يناير سنة ١٩٢٣ الموافق ٨ جواد ثانى سنة ١٣٤١ و٢ مارس سنة ١٩٢٤ الموافق ٢٦ رجب سنة ١٣٤٢ بحدثة الاسكندرية

اتفقوا اتفاقاً جنائياً بان اتحدوا مع آخمين غيرهم على ارتكاب الجنابات والجنح وعلى الاعمال المجهزة والمنسبلة لارتكابها الا وهى جنابات القتل المصد ونشر الافكار الشيوعية المضادة لمبادئ الدستور المصرى الاساسية وتجهيد تنظيم النظم الاساسية للهيئة الاحتطاعية بالقوة والارهاب وبوسائل اخرى غير

مشروعة المنطبقة على المواد ١٩٤ و١٩٥ و١٥١ مفرقة تأمبه وثالثة من قانون العقوبات توسع انتهاك حرية ملك الفكر والنشر والخرج والسمي علنا فى تكدير السلم العمومى بتعريض طائفة العمال وسفار الفلاحين على بخر طائفة اصحاب العمل والملاك والتعريض علنا على عدم الانقياد للقوانين وتعريض العمال على استعمال الوسائل المنبر المشروعة فى الاعتداء على حق اصحاب الاعمال فى العمل وفى استخدام وعدم استخدام العمال المنطبقة على المواد من ٣٢٣ الى ٣٢٧ ومن ٢٠٥ الى ٢٠٧ و١٤٥ و١٤٦ و١٥٠ و١٥١ و١٥٤ و٣٢٧ (٣) من قانون العقوبات وقد حرضوا على الاتفاق الجنائى المذكور واداروا جميعهم حركة

ثانياً فى العدة من شهر اكتوبر سنة ١٩٢٢ الموافق ربيع اول سنة ١٣٤١ و٢ مارس سنة ١٩٢٤ الموافق ٢٦ رجب سنة ١٣٤٢ بحدثة الاسكندرية

اشتركوا فى اتفاق جنائى المزمع ارتكاب جريمة تأليب عمارة من العمال وصغار انغلايين لمهاجمة حائفة من اسكان وهى طائفة اصحاب الاعمال والملاك وهذه هى البنتاية المنطبقة على المادة ٨٠٠ من قانون العقوبات وتروند حرضوا على الاتفاق المذكور وتدخلوا فى ادارة حركته ثالثاً فى الزمان والمكان المذكورين آنفاً

ملحق رقم ١١ حكم محكمة جنايات الإسكندرية فى قضية الشيوعية

فيما يلى حكم محكمة جنايات الإسكندرية فى ٦ أكتوبر الماضى فى قضية الشيوعية الكبرى.. وهو بعد الديباجة:

وحيث إنه تبين للمحكمة وثبت لديها من التحقيقات التى حصلت فى هذه القضية وشهادة الذين سمعتهم بالجلسة ومن الاطلاع على الأوراق والكتب المضبوطة عند المتهمين وفى نقابة اتحاد العمال أن المتهمين اعتنقوا المذهب الشيوعى الذى نبتت بذوره فى روسيا وسرت عدواه إلى كثير من بلاد العالم، وأساس هذا المذهب الثورة على الحكومة وعلى أصحاب رؤوس الأموال وقلب النظام الاجتماعى بالقوة والعمل لمحو الفروق بين طبقات الناس وجعل السيادة للعمال.. كما يستفاد ذلك صريحا من الكتب التى ألفها زعماءه المقدم بعضها فى هذه القضية، مثل مذكرات لينين وكتاب بوخارين وكتاب قانون وأوضاع روسيا الشيوعية للدكتور «ليديا باق» وغيرها ومن الواحد والعشرين شرطا التى أقرها مؤتمر الدولية الثالثة فى روسيا وأذاعها فى الفروع التابعة له للعمل على مقتضاها وأن المتهمين لم يكتفوا باعتراف هذا المذهب الضار المبني على الأوهام والخيالات، وإنما ألفوا له شعبا فى كثير من الجهات، مثل مصر وطنطا وبورسعيد والزقازيق والمحلة الكبرى وشبين الكوم

وغيرها، وكانوا يوزعون شروط الدولية الثالثة السابق ذكرها مطبوعة بين أفراد الشعب التي كانت مكلفة ببث الدعوة إلى هذا المذهب بين طبقات العمال وسعوا إلى جمع نقابات العمال والتأليف بينها وأسسوا لها محلا سموه اتحاد نقابات العمال جعلوا مركزه بمدينة الإسكندرية وعلقوا على جدرانه صور زعماء الثورة الروسية ووضعت لكل شعبة لائحة تجرى عليها في تنظيم عملها، واتخذت بعض الدفاتر لتسجيل أعمالها وقراراتها ومحاضر جلساتها وسعى المتهمون خصوصا أولهم «محمود حسنى العربى» فى إيجاد صلة بين هذا الحزب وبين المركز الرئيسى للشيوعية فى موسكو، وسافر إلى روسيا وطالب بالانضمام إلى الدولية الثالثة فقبل طلبه بشرطين، أحدهما عزل المسيو روزنتال الذى كان عضوا فى الحزب من قبل لما كان مسمى بالحزب الاشتراكى وثانيهما تغيير هذا الاسم باسم الحزب الشيوعى، وكان يذهب إلى ألمانيا للاجتماع بالشيوعيين هناك وبث الدعوة لمساندة عمال الرور فيها، ولما عاد من روسيا نشط فى بث الدعوة الشيوعية وأخذ يحسن للناس إرسال أولادهم إلى روسيا بحجة تعلم العلوم والصنائع والمبادئ الشيوعية مجانا فانخدع بدعوته بعضهم، وسافر أربعة من شبان مصر ليتضلّعوا فى هذا المذهب ويعودوا إلى بلادهم فيكونوا أعوانا للدولية الثالثة فى نشر مبادئها الثورية، وكان الحزب الشيوعى المركزى فى روسيا يمد هذا الحزب ببعض رجاله وأمواله لتقوية الدعوة، كما تفيد أقوال بعض المتهمين فى التحقيق والمكتوب الفرنسى العبارة الذى أمضاه محمود حسنى العربى المتهم الأول باسم اللجنة التنفيذية للدولية الشيوعية الذى ضبط قبل إرساله وقدم للنيابة بتاريخ أول مارس ١٩٢٤ والذى بين فيه أعمال الحزب وجهوده وسوء حاله من الوجهة المالية وطلب مده بالمال والرفقاء فقال صريحا ما ترجمته: «أيها الرفقاء والنادة وحراس الثورة العالمية إنكم تعلمون العمل الذى ستقوم به مصر فى هذه الثورة وتعلمون الحالة النفسية للشرقيين، وقد بينا لكم حالة الحزب فى مکتوباتنا السابقة كما وصفناها فى هذا المکتوب نأعينوه وأرسلوا إليه المال والرفقاء الأكفاء فبذلك تؤدون خدمة كبرى إلى الثورة العالمية».

وحيث إنه قد بلغ من تعلق المتهمين بالمذهب الشيوعى وشراب نفوسهم حبه أنهم أرسلوا تعزية فى الزعيم لينين حين وفاته للمركز الرئيسى فى موسكو وأخذوا يحبذون الشيوعية فى قرارات شعبهم وخطب الخطباء معهم واتخذوا اليوم الأول من شهر مايو من كل سنة عيدا للعمال يستريحون فيه من العمل تذكارا لنهضتهم

وحيث إن مقتضى الواحد وعشرين شرطا التى وضعتها الدولية الثالثة وجعلتها برنامجا لها وجميع شعبها ومنها الحزب الشيوعى المصرى الذى يدين بها التزام كل شيوعى ببث الدعوة الشيوعية بجميع الوسائل الممكنة ومقاطعة الاشتراكيين المعتدلين الذين مبدؤهم تحسين حالة العمل بالوسائل المشروعة واعتبارهم أعداء للثورة ومحاربتهم بكل ما فى الوسع وصبغ الدعوة والتهيج اليوميين بصبغة شيوعية والرقابة العامة على الصحف المتخذة لنشر الدعوة ووجوب إقامة نظام سرى شيوعى بجانب النظام العلنى الشيوعى يكون قادرا فى الساعة الحاسمة على أن يقوم بواجبه نحو الثورة، وبث روح التهيج بين الجيوش، وأن هذا التهيج ضرورى لنشر الدعوة وأنه لا بد من استمالة الفلاحين المدقعين فى الفقر إلى الدعوة والاستعانة بهم، وأنه لا بد من القيام بعمل حاسم ونهائى ضد الأحزاب المعتدلة وبث هذه الفكرة بين أعضاء جميع الهيئات وأن العمل الشيوعى الذى يتبع ذلك لا يمكن تنفيذه إلا بدفع هذا الثمن وأن الدولية الشيوعية تحتم بطريقة قاطعة وبدون مناقشة ذلك العمل الذى يجب تنفيذه بأسرع ما يمكن وأن كل حزب يريد الانضمام إلى الدولية الشيوعية يجب عليه أن يواصل إذاعة دعوتها بين النقابات وهيئات التعاون وطبقات جميع العمال وأن ينشئ نواة شيوعية ليكون عملها مؤثرا فى انضمام النقابات إلى الشيوعية وتنقضى من تريد إنابتهم عنها فى البرلمان من العناصر غير المشكوك فيها وأن تطلب من كل مندوب شيوعى أن يضع جميع مجهوداته فى مصلحة الدعوة الثورية والتهيج وأن على هذه الأحزاب أن تبنى على مبدأ المركزية الديمقراطية حتى إذا اشتعلت حرب أهلية استطاع الحزب الشيوعى أن يقوم بواجبه إذا نظم نظاما جديا يماثل النظام العسكرى وزود بقوات واسعة يتمكن بها من بسط نفوذه من غير مقاومة، ولا يكون ذلك إلا إذا تمتع بثقة المحاربين الاجتماعية، وأن من الواجب على الأحزاب التى تريد الانضمام إلى هذه الدولية أن تؤيد الجمهوريات السوفيتية فى قيامها بحرب ضد الثورة الرجعية بلا قيد ولا شرط، وأن تفهم العمال بالاستمرار على وجوب رفض نقل الذخائر والمعدات لأعداء هذه الجمهوريات.. وأن على الأحزاب التى تحتفظ ببرامج الاشتراكيين الديمقراطيين القديمة أن تنقحها بلا تأخير وتضع لكل منها برنامجا شيوعيا جديا موافقا لأحوال بلده الخاصة ومفرغا فى روح الدولية الشيوعية ويجب أن تكون جميع برامج الأحزاب مطابقة لبرنامج الدولية الشيوعية وأن جميع القرارات التى تصدرها مؤتمرات الدولية الشيوعية

وقرارات لجانها التنفيذية ملزمة لجميع الأحزاب المنضمة إليها وأن على كل حزب أن يغير اسمه فيجعله «الحزب الشيوعي لجهة كذا» وأن المنضمين إلى الحزب الذين يرفضون الشروط والموضوعات التي قررتها الدولية الشيوعية يجب إخراجهم من الحزب.

وحيث إنه تنفيذاً لهذه الشروط التي يدين بها المتهمون قد وضعوا لحزبهم برنامجاً سموه برنامجاً للحزب الشيوعي المصري وطبعوه معها في كراسه ونشروه بين العمال كما ذكرنا آنفاً وفي إحدى الجرائد الكثيرة الانتشار في مصر وهي جريدة الأهرام.

وحيث إنهم ابتدأوا هذا البرنامج بأمر تتعطش إلى كثير منها نفس كل مصري وتود تحقيقها ليجعلوه نافذاً للعقول وهي العمل على تحرير مصر والسودان تحريراً تاماً خالياً من كل شائبة وربط الشعبين أحدهما بالآخر لينتفعا معاً ويتمكنا من استثمار ثروتهما الطبيعية وتعميم نفعها في البلدين ويتعاونوا على شن الغارة على مهتضميها سواء كانوا وطنيين أم أجنب، وذلك بواسطة الصراع الدائم وتنظيم جبهة منحددة من العناصر الأشد تطرفاً والموثوق بها في الحركة الوطنية مع احتفاظ الحزب الشيوعي بشعاره ومبادئه وجعل قناة السويس مرفقاً أهلياً وإلغاء الدين العمومي الذي تستعمله القوة الاستعمارية لاستعباد الشعب المصري استعباداً اقتصادياً وإلغاء الامتيازات الأجنبية والمطالبة بحرية الاجتماعات والمطبوعات والخطابة والإفراج عن المسجونين السياسيين، ثم أتبعوا ذلك بأمر هي مقتضى ما تدعو إليه الدولية الثالثة في برنامجها، وهي العمل بين نقابات العمال السياسية إلى غير ذلك مما هو في مصلحة العمال وألحقوا بهذا البرنامج آخر سموه برنامج الفلاحين أتوا في مقدمته بما يولد الشحنة والبغضاء في قلوب الفلاحين على أصحاب الأملاك وضعوا له من القواعد ما يخلب ألبابهم ويحسن لهم الثورة، مثل إلغاء نظام ملكية العزب وإلغاء ديون الفلاحين الذين يملكون أقل من ثلاثين فداناً وإعفاء من يملكون منها أقل من عشرة أفدنة من الضرائب الأميرية ومصادرة جميع الأراضي المملوكة للأفراد التي تزيد عن مائة فدان بدون تعويض وتوزيع ما يزيد منها على الفلاحين الذين لا ملك لهم واستعماله لتدشين مزارع الشعب وتنظيم مجالس سوفيتية لفقراء الفلاحين حتى إذا سنحت الفرص أمكن استنهاضهم أو حجز الأرض لمنفعتهم الخاصة.

وحيث إنهم عملوا لتنفيذ هذا البرنامج بإعداد النفوس له، وذلك بالتدخل بين طبقات العمال وتفهمهم أنهم هم أصحاب الشأن في البلد، وهم الذين يجب أن تكون لهم السيادة

على من عداهم من الطبقات وأنهم مغبونون فى حقوقهم مهضومون فى أجور أعمالهم، وأن أصحاب الأعمال يظلمونهم ويقسون عليهم حتى أوجدوهم عليهم وثارت ثائرتهم فأضربوا عن أعمالهم فى كثير من الشركات كشرركات الإيجولين وكفر الزيات والغزل وأبى شنب وظهروا فى هذا الإضراب بمظهر بغى وعدوان لم يعهد فيهم من قبل وذلك بعدم اقتصارهم على الكف عن العمل، بل تعدوا ذلك إلى احتلال المعامل ووقف حركتها والحيلولة بين أصحابها وبينها حتى لا يتمكنوا من تشغيلها بواسطة عمال آخرين، ومقاومة بعضهم لرجال الشرطة بالقوة، وعدم خروج البعض الآخر منها إلا بعد إنذارهم من جهة الحكومة باستعمال قوة السلاح، وكان الذى يدير حركة هذا الإضراب ويحرض عليه فى بعض الشركات بعض المتهمين بموافقة الآخرين لتضامنهم فى المبدأ وكان أظهرهم تحريضا هو أنطون مارون والشحات إبراهيم وإبرام كاتس وهليل زانبرج وكان العمال فى أثناءه يقبضون على قطع من حديد المعامل ويهددون بها من يناوئهم ويقولون لبعض رجال الشرطة إن هذه المعامل ملك لنا ونحن أحق بها من أصحابها، وهذه ولا شك نزعة شيوعية لقنها لهم المتهمون فى تعاليمهم وفاضت بها نفوسهم على ألسنتهم كما يستفاد ذلك من المكتويات التى ضبطت عند بعض المتهمين خصوصا إبرام كاتس المتهم السابق وقرارات لجنة اتحاد العمال المسجلة فى دفتر محاضر جلساتها ومن شهادة بعض الشهود من رجال الشرطة بأن أنطون مارون المتهم الثانى كان يحرض العمال أمامهم ويسوء لهم حالتهم.

وحيث إن المتهمين استمروا على العمل لنشر الدعوة وجمع صفوف العمال على مقتضى برنامجهم وفقا لشروط الدولية الثالثة السابق تلخيصها فى أواخر فبراير ١٩٢٤ إذ كانوا على وشك عقد مؤتمر عام لاتحاد النقابات اتخذوا له المعدات وبثوا الدعوة إليه بين أفراد وشعب الحزب لإقرار برنامجهم أو تعديله ولكن الحكومة منعت عقد هذا المؤتمر. وحيث إنه يتبين من قرارات الحزب واتحاد نقابات العمال أن المتهمين كانوا يحذون فى أعمالهم كلها حذو الدولية الشيوعية الثالثة وينفذون مقاصدها وكانوا جادين فى الدعوة إلى مبادئها إلى حد أنهم كانوا ينشرون بعض الكتب والرسائل الموضوعة فى هذا المذهب مترجمة وغير مترجمة وأن المتهم الأول محمود حسنى العرابى ترجم إلى العربية كتاب بوخارين أحد زعماء الحركة الشيوعية، وكان يوزع الاشتراك على أفراد الشعب وأن المتهم الثالث صفوان أبو الفتاح وهو مدرس فى إحدى المدارس كان يلقي على تلاميذه بعض

الأمالي (الموضوعات) التي يجذب فيها الشيوعية وأن المتهم الحادى عشر عبدالحفيظ عوض كان يطرى الشيوعية على ملا من طلاب المعهد الدينى الأحمدي فى طنطا وفى منزل أحد وجهائها ويزعم أنها موافقة للدين الإسلامى مع أنها تغايره كل الغايرة. بل تنكر الاديان عامة كما يستفاد ذلك من أقوال أحد زعمائها المدعو بوخارين فى كتابه (أ. ب. ت) عن الشيوعية، فقد قال فى الصفحة نمرة ٢٤٦ من هذا الكتاب ما ترجمته تحت عنوان «لماذا يتنافى الدين والشيوعية» قال كارل ماركس «الدين هو أفيون الشعب» فمن واجب الحزب الشيوعى أن يفهم هذه الحقيقة أطح جماهير الشعب العامل، وأن يث فى نفوس الجماهير العاملة حتى أشدها تأخرا هذه الحقيقة، وهى أن الدين كان ولا يزال آلة من أقوى الآلات فى أيدي الظالمين لإبقاء التفاوت بين الطبقات واستغلال العمال وضمأن طاعتهم وأن بعض متوسطى الإدراك من الشيوعيين يستدلون على صحة الدين بأنه لا يمنعه من أن يكون شيوعيا فيمكن أن يعتقد بالله وبالشيوعية وإيمانه بالله لا يمنعه من أن يقاتل لنصرة ثورة العمال، ومثل هذا الاستدلال معيب من أساسه لأن الدين والشيوعية لا يتفقان لا من الوجهة النظرية ولا من الوجهة العملية.

وحيث إنه مما يدل أيضا على أن المتهمين كانوا ينفذون سنن لدولية الشيوعية الثالثة وينفذون تعاليمها كما جاء فى الخطاب المفتوح الذى أرسلوه إلى دولة رئيس الحكومة المصرية بعد أن طبعوه ونشروه من طلبهم الاعتراف بنقابات العمال والفلاحين وحقها فى الدفاع عن حقوقهم اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وإنشاء مكاتب لإحصاء العمال العاطلين وتكليف لجان الوفد المركزية فى كل أنحاء القطر أن يقوموا بتنظيم فقراء الفلاحين فى نقابات ترفع مستواهم أسوة بإخوانهم فى أنحاء العالم وإيجاد صلة بين هذه النقابات ونقابات العمال حتى يمكن حشد القوى المصرية كلما تطلبت الحاجة والاعتراف بحكومة السوفييت أسوة بالأمم المتقدمة.

وحيث إن المتهمين قد وصلوا بالمشاورة على نشر دعوتهم دون تعرض أحد لهم إلى أن دخل فى حزبهم ما يزيد على ألف وخمسمائة عضو، وذلك لأن مبادئه تستهوى النفوس الساذجة الجاهلة غير البصيرة بعواقب الأمور بما يملئها من الأمانى الكاذبة، ولو أن من انضموا إليه كانوا من نوى العقل والبصيرة لأنكروه اشد الإنكار لأنه مغاير لمقتضى الفطرة التى قضت بأن يكون الناس متفاوتين فى الإدراك والمواهب، وأنه من الظلم والبغى

بغير الحق أن تكون ثمار العقول الكبيرة ونتائج الأفكار الصحيحة ملكا لغير أهلها وليس من السهل على عاقل أن يسلم بأن واضعى هذا المذهب يعتقدون صحته عن سلامة قلب وحسن طوية، والأشبه بالحق أن تكون النزعة الشيوعية حجابا لستر ما وراءه من غرض سياسى كبير لطائفة من الناس وهم الذين أثاروا هذه الثورة فى روسيا ورأوا أن أحسن وسيلة لإدراك غرضهم هى التظاهر بالرحمة على البؤساء من العمال والفلاحين والرتاء لحالهم وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم وبين الحكومات وأصحاب الأملاك وتآليبهم عليهم بحجة أن النظام الاجتماعى الحالى فيه قسوة وظلم على طائفة بينهم كما حصل فى روسيا حتى إذا دان لمذهبهم العمال فى كل قطر وضعوا أنظمتهم وأظهروا مكنون غرضهم وأصبحوا أشد الناس ظلما وقسوة.

وحيث إنه يتبين من جميع ما تقدم أن المتهمين فى المدة التى مضت بين ٨ جمادى الثانية سنة ١٣٤١هـ (٢٥ يناير ١٩٢٣م) وبين ٢١ رجب سنة ١٣٤٢هـ (٢ مارس سنة ١٩٢٤م) بمدينة الإسكندرية:

أولا: اتفقوا اتفاقا جنائيا بأن اتحدوا مع آخرين غيرهم وهم أعضاء الدولية الثالثة الشيوعية بروسيا كما يؤخذ ذلك من انضمامهم إليهم على تحييد تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية فى مصر بالقوة والإرهاب ووسائل أخرى غير مشروعة.

ثانيا: أنهم فى المدة التى مضت بين ٢ صفر ١٣٤٢ (١٣ سبتمبر ١٩٢٣) وبين ٢٣ رجب سنة ١٣٤٢هـ (٢ مارس ١٩٢٤م) بالإسكندرية وطنطا والزقازيق وبورسعيد وشبين الكوم وبلاد أخرى فى المملكة المصرية نشروا أفكارا ثورية مغايرة للمبادئ الأساسية لدستور الدولة المصرية حبذوا فيها تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية فى البلاد المصرية بالقوة والإرهاب وذلك علنا بتوزيع نشرات مطبوعة وغير مطبوعة وإلقاء مقالات فى بعض المحافل العمومية وبإشهار صور لزعماء الحزب الشيوعى الروسى وهذه النشرات والمقالات تحوى أمورا وأفكارا تخالف مبادئ الدستور الأساسية للهيئة الاجتماعية، مثل إلغاء نظام الملكية الفردية المقرر فى دستور الدولة ونزع ملك الغير بغير الطرق المشروعة واستبداله بالنظام الشيوعى بالثورة والقوة والإرهاب.

ثالثا: أنهم فى المدة التى مضت بين ربيع الأول ١٣٤١هـ (أكتوبر ١٩٢٢م) وبين ٢٦ رجب سنة ١٣٤٢هـ (٢ مارس ١٩٢٤م) بمدينة الإسكندرية قاموا متفقين على تحريض عمال

شركات زيت الإيجولين والغزل وكفر الزيات وأبى شنب على ارتكاب جريمة استعمال القوة والإرهاب والتهديد والتدابير غير المشروعة والاعتداء على حرية أصحاب الأعمال المذكورة فى استخدام غيرهم من العمال، وذلك بإغرائهم عمال هذه الشركات على احتلال معاملها التى يشتغلون فيها بالقوة وتهديد أصحابها إذا لم يذعنوا لطلباتهم وإذا استخدموا غيرهم أو فصلوا أحدا منهم من العمل.

وحيث إن عقاب جميع المتهمين على هذه التهم الثلاث ينطبق على نص المواد ٤٢ مكررة والفقرتين الثانية والثالثة من المادة ١٥١ من قانون العقوبات المعدلة بالقانون نمرة ٣٧ لسنة ١٩٢٣ والمادة ٣٢٧ المكررة المضافة إلى قانون العقوبات بالقانون المذكور.

وحيث إن باقى المواد التى طلبت النيابة تطبيقها ضد المتهمين المذكورين لا ترى المحكمة محلا لها لأن ما وقع من المتهمين بالفعل يدخل تحت نص المواد سابقة الذكر.

وحيث إن التهم التى رأت المحكمة، إدانة المتهمين بها مرتبط بعضها ببعض لأنها كلها ترمى إلى غرض واحد، وهو قلب النظام الاجتماعى بالقوة وتبديده بأخر شيوعى فينعين معاملتهم بالمادة ٣٢ من قانون العقوبات.

وحيث إن دفاع المتهمين يتلخص فى هذه المسائل وهى:

أولا: أن السلطة العسكرية سبق لها أن فتشت محل الحزب الشيوعى المصرى وأخذت ما فيه من الأوراق واطلعت عليها وبرت اثنتين منهم وأدانت الآخرين بتهمة أخرى.

ثانيا: أنهم لم يتفقوا جنائيا على الجرائم المذكورة فى التهم المسندة إليهم، وإنما كان غرضهم مساعدة العمال على نيل حقوقهم ودفع الظلم عنهم ورفع مستواهم إلى الدرجة اللائقة بهم فى المجتمع الإنسانى. وأن الاتفاق الجنائى مشروط بأن يكون على تنفيذ الجرائم لا على مجرد الدعوة إليها وبالاستمرار عليه وتعيين الجرائم المتفق على ارتكابها، والحزب لم يستمر فى عمله لأن بعض أعضائه كانوا محبوسين، وكل ما عمله البعض الآخر إنما هو نشر المنشورات.

ثالثا: أنهم لم يجمدوا على الواحد والعشرين شرطا التى وضعتها الدولية الثالثة، بل وضعوا لأنفسهم برنامجا خاصا وما جاء فيه من إلغاء نظام العزب ومصادرة ما زاد عن المائة فدان ليس فيه ما يدل على أن ذلك يكون باستعمال القوة. بل إن غرضهم الوصول إليه عن طريق التشريع على أن التعرض لحق الملكية وأخذ الأملاك من أربابها حصص له

نظير في مصر من قبل في زمن سيدنا عمرو بن العاص الذي صادر الأتبان من أصحابها وجعلها خراجية، وفي زمن محمد على باشا خديو مصر الأسبق وفي عهد إسماعيل باشا، وعلى أن المراد بالثورة في عرف الشيوعيين إنما هو الثورة الفكرية وأن قلب النظام ليس من الضروري أن يكون بالقوة بل قد يحصل بغيرها بعد إعداد النفوس له.

رابعاً: أن شروط علانية النشر المذكورة بالمادة ١٤٨ عقوبات لم تتوفر لأنهم ما كانوا ينشرون مبادئهم إلا بين أعضاء الحزب وبطريقة سرية.

خامساً: أن القانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٢٣ المطلوب معاقبة المتهمين بمقتضى المادة ١٥١ منه مغايرة لحرية الفكر التي هي من المبادئ الأساسية للدستور، وبذلك يكون معارضا له وكان يجب عرضه على البرلمان قبل إصداره وأنه نص في الدستور على أنه يعمل به من تاريخ انعقاد البرلمان وعلى ذلك لا يصح تطبيقه على المتهمين.

وحيث إن هذا الدفاع في غير محله:

أما أولاً: فإن المتهمين لم يقدموا للمحكمة أى دليل على سبق محاكمتهم على ما هم محاكمون من أجله اليوم وتبرئتهم منه. بل الثابت من الأوراق أن التهمة التي كانت موجهة إلى بعضهم أمام المحكمة العسكرية، إنما هي تهمة المظاهرة.

أما ثانياً: فإن الاتفاق الجنائي وقع منهم فعلا على تحبيذ قلب نظام الهيئة الاجتماعية المصرية بالقوة والتهديد والوسائل الأخرى غير المشروعة، كما يدل انضمامهم إلى الحزب الشيوعي الروسي الذي مبدؤه الأساسي قلب نظام الحكومات وهدم أرباب رؤوس الأموال بالثورة والقوة بعد الاستعداد لذلك بتكوين نقابات للعمال وضم هذه النقابات في عروة اتحاد واحد لإيجاد القوة الكافية للثورة، وذلك يستفاد صريحا من الواحد والعشرين شرطا السابق تلخيصها ومن عمل الشيوعيين في الحكومة القيصريّة بروسيا، وتحبيذهم لقلب نظام الهيئة الاجتماعية هو جريمة معينة جاء ذكرها في الفقرة الثانية من المادة ١٥١ من قانون العقوبات السالف ذكرها. وقد استمروا على الاتفاق حتى وقت ضبطهم بنشر الدعوة إلى مبادئ حزبهم وإنكارهم على الحكومة ضبط بعضهم وضبط أوراقهم.

وأما ثالثاً: فإن برنامجهم الذي نشره في بعض الجرائد وطبعوه في كراسة ووزعوه على أعضاء الحزب هو مستمد من شروط الدولية الثالثة التي لا يمكنهم أن يحددوا عنها

ويتفق معها فى المبادئ والمقاصد، وحيث إنه لا يمكن أن يكون غرضهم الوصول إلى ما قرروه فى هذا البرنامج عن طريق القانون لأن هذا يكون منافيا تمام المنافسة للمبادئ الثورية التى وضعتها الدولية الشيوعية الثالثة والتى هم مطالبون بالاستمسك بها ومعاداة من يعمل على نقيضها، ولا معنى لتفسير كلمة ثورة التى لاكتها ألسنتهم وجرت بها أقلامهم فى كثير مما قالوا وكتبوا بالثورة الفكرية لأن أقوال زعماء الحزب الشيوعى وأعمالهم تدل على خلاف ذلك وأن المراد بالثورة، إنما هو الثورة الفعلية التى أساسها القوة المادية، ولا معنى كذلك للمقارنة بين ما يرمى إليه المتهمون من إلغاء الملكية الفردية وبين أعمال بعض ولاية مصر السابقين لأن سيدنا عمرو بن العاص دخل مصر فاتحا بجيشه وسلاحه فتشبيهم ما يطمحون إليه بعمله هو حجة عليهم فى أنهم يريدون بالثورة اغتصاب الأبطال من أربابها بالقوة على أن هناك فرقا بين عمل ذلك الفاتح العظيم وبين ما عمله الشيوعيون فى روسيا وما يطمح المتهمون إلى أن يحصل نظيره فى مصر فإن ذلك الفاتح ترك الأبطال للناس يزرعونها بكل حرية واختيار ويحصلون على ثمراتها فى مقابل دفع خراجها، وأما الشيوعيون فى روسيا فإنهم انتزعوها قهرا من أربابها وصيروا غلتها إلى الحكومة توزعها كيف تشاء.

وأما فى عهدى محمد على باشا وإسماعيل باشا فالنظام الذى حدث فيها كان مبنيًا على طرق مشروعة تناسب ذلك الوقت.

وأما رابعا: فلأن المتهمين لم يكتفوا فى سبيل نشر دعوتهم إلى الشيوعية بالإفشاء بها سرا، بل قد جهروا بها ونشروا برنامجهم فى إحدى الصحف السيارة وطبعوه مع شروط الدولية الثالثة فى كراسة وكانوا يوزعونها علنا حتى علم فوق ألف وخمسمائة عضو بها ونشروا بعض هذه المبادئ فى المکتوب المفتوح الذى وجه إلى دولة رئيس الحكومة المصرية الذى طبع ونشر، وكان أحدهم يحبذ هذه المبادئ الشيوعية فى محفل وجد فى بيت من شأنه أن يجتمع فيه كثير من الناس لمكانة صاحبه وكونه زعيما من زعماء الحركة الوطنية وكان آخر يملأ على تلاميذه أمالى (موضوعات) فى تحبذ الشيوعية وهذا كله كاف فى توافر شروط العلانية.

أما خامسا: فلأن القانون رقم لسنة ١٩٢٣ المعدل للمادة ٥٩ من قانون العقوبات قد صدر من الجهة التى لها ولاية التشريع وقت صدوره ولم يأت نص فى الدستور مانع

لتنفيذه أو معلق له إلى الوقت الذى ينظره فيه البرلمان فأحكامه لا يمكن تعطيلها إلا بقانون آخر ينسخها وما دامت موجودة فلا بد من تطبيقها على المتهمين.

وحيث إن المتهمين محمود حسنى العرابى وأنطون مارون وصفوان أبوالفتح والشحات إبراهيم وإبرام كاتس وهليل زانبرج هم زعماء هذا الحزب وأشدّهم تحمسا للشيوعية وأكثرهم نشاطا فى بث دعوتها وهم بذلك أعظم خطرا فيتعين التمييز بينهم وبين باقى المتهمين فى العقوبة وتدعو إلى معاملتهم بمقتضى المادة ١٧ من قانون العقوبات.

وحيث إن إجراءات الغياب قد اتخذت فى حق المتهمين إبرام كاتس وهليل زانبرج حسب القانون فيصح الحكم عليهما غيابيا.

فلهذه الأسباب وبعد الاطلاع على المواد سالفة الذكر..

حكمت المحكمة:

أولا: بمعاقبة كل من محمود حسنى العرابى وأنطون مارون وصفوان أبوالفتح والشحات إبراهيم وإبرام كاتس وهليل زانبرج بالسجن ثلاث سنوات.

وثانيا: بمعاقبة كل من عبدالحميد أحمد تره ومحمود إبراهيم السمكرى وشعبان حافظ ومحمد الصغير وعبدالحفيظ عوض بالحبس مع الشغل لمدة ستة شهور.

(الأمرام: ١٩٢٤/١٠/٧)

المراجع

مراجع عربية ومترجمة

- أحمد بهاء الدين - أيام لها تاريخ.
- أحمد رشاد - مصطفى كامل حياته وكفاحه.
- أنور الجندى - عبدالعزيز جاويش.
- إسماعيل مظهر - مذهب النشوء والارتقاء.
- أمين عز الدين - تاريخ الطبقة العاملة منذ نشأتها حتى ١٩١٩.
- أمين عز الدين - المنصوري - سيرة مثقف ثورى.
- توفيق دياب - اللّمحات.
- جوستاف لوبون - روح الاشتراكية، ترجمة عادل زعيتير.
- جوستاف لوبون - روح الثورات، ترجمة عادل زعيتير.
- جوستاف لوبون - روح السياسة، ترجمة عادل زعيتير.
- جوستاف لوبون - سر تطور الأمم، ترجمة فتحي زغلول.
- حسين فوزى النجار - أحمد لطفى السيد.
- حسين نامق - خلاصة الاقتصاد ونبذة من التاريخ الاقتصادى.
- خليل بك سعادة - أسرار الثورة الروسية.
- رامزى ماكdonald - الحركة الاشتراكية، ترجمة محمود حسنى العربى.
- رشدى صالح - كرومر فى مصر.
- رفعت السعيد - الأساس الاجتماعى للثورة العربية.
- روزنشتين - دمار مصر، ترجمة على شكرى.
- رؤوف عباس - الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ - ١٩٥٢.
- زكى فهمى - صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر.
- سليمان محمد النخيلى (دكتور) - الحركة العمالية فى مصر وموقف الصحافة

والسلطات المصرية منها ١٨٨٢ - ١٩٥٢.

سامى الكيالى - ولى الدين يكن.

سلامة موسى - مقدمة السوبرمان.

سلامة موسى - الاشتراكية.

سلامة موسى - تربية سلامة موسى.

سلامة موسى - مختارات سلامة موسى.

سلامة موسى - جيوينا وجيوب الأجنب.

شهدى عطية الشافعى - تطور الحركة الوطنية المصرية.

صبحى وحيدة - مارس ١٩١٩ الدامى والفلاحون.

طاهر الطناحى - خليل مطران.

عباس محمود العقاد - الفصول.

عبد الوهاب بكر (دكتور) - أضواء على النشاط الشيوعى فى مصر ١٩٢١-١٩٥٠.

عباس محمود العقاد - مطالعات فى الكتب والحياة.

عبد العظيم محمد رمضان - تطور الحركة الوطنية فى مصر.

عبد المنعم الغزالى - تاريخ الحركة النقابية ١٨٩٩ - ١٩٥٢.

عبد الرحمن الرافعى - مذكراتى.

عبد الرحمن الرافعى - محمد فريد.

على فهمى كامل - سيرة مصطفى كامل.

عبد الرحمن الرافعى - نقابات التعاون الزراعية.

عزيز خانكى - شئون مصرية.

عزيز ميرهم - الديمقراطية.

عمر الدسوقي - فى الأدب الحديث.

غورست وكشنر - تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية فى مصر.

فكرى أباطة - الضاحك الباكي.

فوزى جرجس - دراسات فى تاريخ مصر السياسى.

قسطاكى إلياس عطارة - تاريخ تكوين الصحف المصرية.

كامل أبو جابر - جذور الاشتراكية.

محمد أنيس - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩.

محمد عبدالله عنان - تاريخ المؤامرات السياسية.

محمد عبدالله عنان - تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة.

محمد على غريب - الفدائى الأول.

محمد حسين هيكل وآخرين - السياسة المصرية والانقلاب الدستورى.

محمد سيد كيلانى - ترام القاهرة.

محمد صبيح - مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية.

محمود أبوالفتح - المسألة المصرية والوفد.

محمود حسنى العربى - ٨٩ شهرا فى المنفى.

محمود عزمى - خبايا سياسية.

محمود الشرقاوى - سلامة موسى المفكر والإنسان.

مصطفى حسنين المنصورى - تاريخ المذاهب الاشتراكية.

نقولا حداد - الاشتراكية.

نقولا حداد - علم الاجتماع.

نيكولاى كوتساريف - من ألف عام من الزمان.

والتر لاكور - الاتحاد السوفييتى والشرق الأوسط.

وجه لامبلان - إلى الاستقلال، مصر وإنجلترا.

ولى الدين يكن - المعلوم والمجهول.

ولى الدين يكن - التجاريف.

ولى الدين يكن - الصحائف السود.

ولى الدين يكن - عفو خاطر.

وثائق وأبحاث وتقارير غير منشورة

- محفوظات دار الوثائق المصرية.

- وثائق وزارة الداخلية المصرية - إدارة الأمن العام - مودعة بالأرشيف العام لوزارة الخارجية البريطانية.

- عبدالرحمن فضل - مقدمة لتاريخ الحركة العمالية فى مصر (مخطوط).
- مارسيل إسرائيل - تقرير حول تاريخ الحركة الاشتراكية المصرية.

مراجع أجنبية

- A.E.Crouchly - The investrment of Foregn Capital in Egyptian Compa-nies and Public debt.
- Charles issawi - The Economic History of the Middle fast.
- Jane De Gras (ed.) - The Communist international' 1919-1943.
- Mona Hammam - women workers and the pracice of freedom as educa-tion - the Egyptian Experience.
- Selma Botman - The Rise and Experience of Egyptian Communism.
- Suliman Bashir - Communism in the Arab East 1918-1928.
- Roger owen - Lord Crommer and the development of Egyptian industry 1882-1907.
- Roger owen - The Middle East and the world Econorny.
- Dr. L. RATHMAN: Some remarks on the stay in Germany of Mustafa Kamel and Muhamed Farid.
- N.Paparidotai - Petit Rusume du Movement politique Grec en Egypt.
- GABRIEL BEAR - A History of Landownership in Modern Egypt.
- FDI - La fortune immobiliere de l.Egypte et sa dete gypothecaire.
- Lord LLOYD - Egypts since Crommer.
- J.A.AHMED - The Inteilectual Orgins of Egyptian Nationalism.
- JACQUES BERQUE - L.Egypte Imperialisme et Revolution.
- WALTER Z.LAQUER - Communism and Ntationalism in the Middle East.
- Oeuvers du Congres National Egyptien tenu aBruxelles, 1910.
- VALLET - Contirbution a l,etude de la condition des ouvriers de la grand industrie au Caire.

صحف ونبريات

الإقدام

اتحاد العمال

العمال

المؤيد
مقالات قصر الدوبارة (مختارات من المؤيد)
اللواء
العلم
ليتنذار
الأهرام - مجموعات عام ١٩٠٧ حتى ١٩٢٥
الجريدة
الأهالى
الأفكار
الأخبار (جريدة الحزب الوطنى)
الهلال
المقتطف
البلاغ
مجلة مجمع اللغة العربية - مجموعة ١٩٦٢
كل شىء والدنيا
المجلة الجديدة
الطليلة
السياسة الأسبوعية
الأمل
المصور
المؤيد
المقطم

- Internaional Press Correspondenece. 1923-1928
- The Labour Monthly. 1925
- Le Phare d,Aleandrie
- Limpazzial

الجزء الثانى

اليسار المصرى

١٩٢٥ - ١٩٤٠

الطبعة الأولى - دار الطليعة - بيروت ١٩٧٢

الطبعة الثانية - دار الطليعة - بيروت ١٩٧٣

الطبعة الثالثة - دار الأمل - القاهرة - ١٩٨٠

إلى.. أبي وأمي

إن أجيالا متعاقبة من شباب مصر قرأت
تاريخها الوطنى على غير حقيقته. وصور
لها الأبطال فى تاريخها تائهين وراء سحب
من الشك والغموض، بينما وضعت حالات
التمجيد والإكبار من حول الذين خانوا
كفاحها...

جمال عبدالناصر (الميثاق)

ليست مقدمة...

نعم فالمقدمة - إن صح استخدام هذا التعبير - قد استغرقت عدة مئات من الصفحات هي الجزء الأول من هذه الدراسة.

لكننا نعرف أن الرواية لم تتم فصولها بعد، لا بالنسبة للقارئ ولا للكاتب فثمة فصول مهمة يجب أن تكتب. وإذا كان المؤرخون البرجوازيون قد نجحوا إلى حد ما في طمس كثير من معالم تاريخ الحركة الشيوعية في العشرينيات، فإنهم قد نجحوا إلى حد كبير في طمس كل معالم تاريخ هذه الحركة في الثلاثينيات.

والذين كانوا يشكون من قلة المعلومات عن نشاط الاشتراكيين المصريين في العشرينيات ويتبرمون من أن أيديهم لا تمتلك غير تعميمات وأنصاف حقائق ووقائع مبهمة، فإنهم بالنسبة للثلاثينيات في ظلام تام، فالمعلومات تكاد أن تكون منعدمة.

والحزب الذي كان ملء السمع والبصر في عام ١٩٢٤ بدأت مطاردته..

والحركة النقابية الثائرة ونقاباتها الحمراء وصناديق المعونة البروليتارية.. اختفت لتحل محلها نقابات صفراء...

والقادة العماليون الحقيقيون، الشيخ صفوان أبو الفتاح، والشحات إبراهيم، وأنطون

مارون ومصطفى أبو هرجة، اختفوا ليحل محلهم قادة برجوازيون بل وإقطاعيون يحاولون امتطاء حركة الطبقة العاملة.. أسماء مثل عبدالرحمن فهمي والنبيل عباس حليم وداوود بك راتب، عزيز بك ميرهم، وإيجار جلال باشا الخ.

لكن هذه الصور زائفة تماما..

صحيح أن حركة اليسار المصرى قد تعرضت لجذر حاد فى الثلاثينيات لكن لحزب كان لا يزال موجودا بشكل أو بآخر..

والحركة العمالية كانت تموج بالتيارات الثورية الحقبة..

وانتفاضات عمال العنابر ضد إرهاب صدقى لم تكن انتفاضة وفدية بقدر ما كانت انتفاضة عمالية..

وهكذا كان لا بد من محاولة لاستكمال فصول الرواية..

وإذا كانت دراسة تاريخ الحركة الشيوعية فى العشرينيات مسألة صعبة، فإنها بالنسبة للثلاثينيات شئ بالغ الصعوبة وبالغ التعقيد معا.

لكننا مع ذلك سنحاول.

* * *

وتتسم حركة اليسار فى الثلاثينيات بالتشعب وتعدد المنابر..

هناك خلايا الحزب القديم ومحاولاته الدائبة والمستمرة لكى يوسس مراكز فعلية لنفسه وسط الجماهير، ووسط تجمعات العمال على وجه الخصوص.

وهناك محاولات أخرى عديدة للمتقنين الماركسيين المصريين.. بعضها اتخذ طابعا ثقافيا والبعض الآخر اتخذ طابعا تنظيميا..

وهناك محاولات لليسار الأجنبى المقيم فى مصر انحصرت وسط تجمعات الأجانب ومحاولات أخرى امتدت لتجذب فى صفوفها يساريين مصريين..

ولا بد من جهد لتجميع شتات المعلومات المتناثرة حول هذه النشاطات جميعا، لكن مثل هذا الجهد يصطدم بعقبات حقيقية.

فالمعلومات قليلة، ومعظمها مختزن فى صدور أصحابه، وهؤلاء الناس بعضهم طواه الموت، والبعض الآخر تناثر فى أرجاء العالم، إما مطرودون بسبب نشاطهم السياسى وإما مهاجرون ضمن موجات هجرة الأجانب التى توالى منذ ثورة يوليو ١٩٥٢.

وهكذا فإن البحث عن هذه المعلومات والذكريات الشخصية، يجب أن يمتد إلى فرنسا وإيطاليا وقبرص، وألمانيا، والسودان... إلخ.

ولقد كان الجهد الذى بذل فى هذا الصدد - بالرغم من صعوبته البالغة - مجزيا.. فلقد استطعنا من خلاله أن نحصل على معلومات بالغة الأهمية تكشف أمامنا حقيقة الدور الذى لعبه يسار الثلاثينيات بصورة لم يكن من الممكن التوصل إليها دون الاستعانة بالذكريات الشخصية.

فلا المراجع التاريخية، ولا صحف هذه الفترة، ولا حتى معلومات أجهزة الأمن تستطيع أن تغنى عن هذه الذكريات الشخصية، فمعظم هذا النشاط تم بشكل جانبى بعيدا عن أعين أجهزة الأمن متخذا فى كثير من الأحيان ستارا من نشاط علنى.. بل إن بعضه قد أمعن فى سريته إلى حد أنه أصبح سرا منيعا لا يتوصل إليه إلا أفراد قلائل أما الآخرون - فبالرغم من مشاركتهم فيه - فقد كانوا يعيشون على هامش الحقيقة.

وبحثا عن الحقيقة كان من الضروري أن نبحث عن هؤلاء الرجال، وأن نجوب مختلف البلدان، سعيا وراء ذكرياتهم.

لكن الذكريات وحدها لا تكفى.

فالذكريات انطباعات شخصية، تتأثر بالنوازع الذاتية، وتنتظر للمسائل دوما من زوايا شخصية، وهى كثيرا ما تتخذ مسارات جانبية دون تحليل شامل للاتجاهات العامة وأهم من هذا كله فإن هذه الذكريات لا تتحدث إلا عن بعض المحاولات دون الأخرى، وللأسف فإن الجانب الذى تتجاهله هذه الذكريات جميعا هو متابعة نشاط خلايا الحزب القديم وجهوده المثابرة لإعادة تكوين نفسه.

تتجاهل قصة هؤلاء الرجال الشجعان الذين تعرضوا لضغوط قاسية، وإرهاب لم تشهد له مصر مثيلا ومع ذلك فقد صمموا على أن يواصلوا المسيرة.. وواصلوها فعلا فى إصرار غريب ثم راحوا ليطويهم نسيان متعمد.

هؤلاء الرجال الشجعان الذين تعرضوا فيما تعرضوا لتجاهل الماركسيين الجدد الذين نبثوا من بطن أحداث الثلاثينيات العاصفة فراحوا يبحثون عن طريق جديد لمصر، لكنهم بحثوا عن هذا الطريق بمعزل عن النشاط القديم، لا لأنه غير موجود، وإنما تصوروا بأن مجرد التلامس مع هؤلاء الرجال سوف يجر وراءه ويلات المطاردة والسجن.

وهكذا وكأنه قد كتب على هؤلاء الرجال أن يتحملوا تبعات المسيرة أكثر من خمسة عشر عاما يحملون فيها رايات تنوء بحملها السواعد.. ثم يأتى الآخرون ليجنوا ثمار هذا الجهد المتواصل، ولا يكون أمام هؤلاء الرجال إلا الانزواء فى صمت فى صفوف المؤخرة تحت دعاوى الأمان وتجنب مطاردات البوليس.. إلخ.

ومن هنا كان لا بد من جهود أخرى كى تكتمل الصورة..

* * *

وعلى صفحات جرائد ومجلات هذه الفترة تردد صوت هؤلاء الرجال فى مرات عديدة فى مقالات أو بيانات يرددها مثقفو اليسار ويشرحون فيها وجهات نظرهم.. وفى أخبارهم وهم يقفون فى أقفاص الاتهام يدينون قضاتهم ويدافعون ببسالة عن «الاشتراكية» أو أخبار كوادرمهم وهم يتحدثون قرارات الطغيان بإسقاط الجنسية المصرية عنهم فيخلقون بتصميمهم على العودة إلى أرض الوطن ملحمة تتردد أصدائها على صفحات جميع الجرائد وتتحول إلى قضية دستورية تناقش فى كافة الأوساط وتدرس لطلبة كلية الحقوق وتنتهى بانتصارهم وبإسقاط المرسوم الجائر.

وفى مضابط البرلمان - الذى شغل نفسه كثيرا - بمقاومة التيار الاشتراكي والنشاط الشيوعي توجد معلومات كثيرة أيضا..

وفى أرشيفات أجهزة الأمن معلومات أكثر..

لكن الجهد المتواصل لا يكفى وحده، فثمة معلومات لا يمكن التوصل إليها مهم بذل الإنسان من جهد ومع ذلك فلقد كان لا بد من المحاولة..

وأثمرت هذه المحاولات بصورة غير متوقعة..

وحتى معلومات رجال الأمن أمكن التوصل إلى بعضها معروضة فى المتحف البريطانى فى لندن. وهى مجموعة وثائق خاصة بوزارة الخارجية البريطانية وتتضمن تقارير من السفارة البريطانية فى مصر وبعض أوراق المخابرات البريطانية وتقارير البوليس السرى فى القاهرة.. إلخ.

وهنا.. وبعد أن تتجمع خيوط كافية، يملك الإنسان الجرأة على أن يبدأ محاولة الكتابة فى موضوع كهذا..

* * *

وهكذا يحدد الموضوع نفسه.

* مجموعة من الصور التمهيدية فى محاول لتصور المناخ العام الذى حاول اليسار أن يتحرك فيه على أرض مصر.

وهى ليست بأية حال استقصاء أو دراسة تحليلية للأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لمصر فى الثلاثينيات فهذه مسألة تتطلب دراسة مستقلة وإسهاما لا يتوفر ضمن محاولة كهذه، وإنما هى مجرد لمحات أو صور يمكنها أن تعطى فكرة عن المناخ العام ويمكنها أن توضح آفاق حركة اليسار والإمكانات المتاحة أمامها والأسباب التى حددت لها مسارات معينة.

* محاولة لتتبع مسار القوى الشيوعية التى واصلت النضال عقب الضربة التى وجهتها السلطة للحزب فى عام ١٩٢٤. وهو مسار بالغ التعقيد، فإن الحزب الذى فرضت عليه السرية بصورة مفاجئة ودون استعداد كاف قد خاض معركة البقاء ضمن قوالب وأشكال متعددة من الصعب استقضاؤها جميعا لكنه من المفيد تقديم كل ما أمكن التوصل إليه من معلومات فى هذا الصدد لعله يكون بداية لدراسات أخرى تبحث عن خيوط أخرى بهدف استكمال الصورة.

* مجموعة من محاضر النقاش مع من أمكن التوصل إليهم من المسؤولين عن النشاط اليسارى فى مصر فى ذلك الحين، وكذلك بعضهم آراؤهم مثبتة فى تقارير.

وهى تقدم بصورة - شبه وافية - ومن خلال مجموعة من الذكريات الشخصية صورة عن نشاطات وأفكار وأساليب وإمكانات يسار هذه الفترة.

* مجموعة من الوثائق والأوراق القضائية ووثائق وزارة الخارجية البريطانية ووثائق النشاط الحزبى.

* * *

والحقيقة أن أكثر ما يستمتع به كتاب التاريخ، هو أنهم يطلقون يدهم فى إصدار التقييمات والأحكام على كل شىء وعلى كل شخص أو حدث أو موقف.

فكتاب التاريخ يتحركون فى مجال معظمه أناس قد طوتهم الأحداث وتخطاهم الزمن ومن هنا تكون الجراءة فى إصدار أحكام وتقييمات قاطعة.

لكننى لست أملك مثل هذه الجراءة، وفى هذا الموضوع بالذات فإننى أعترف بعجزى عن أى ادعاء للتقييم العام أو استصدار أحكام شاملة وقاطعة فهو بالنسبة لى أمر غير ممكن، ولا هو مطلوب.

فالتقييمات -وهي ضرورية - لا يمكن التجرؤ على استصدارها إلا بعد استقصاء الحقيقة كاملة، ونحن بالنسبة لهذه الحقيقة لا زلنا فى أول الطريق، ومن هنا فإن الاجتراء على التقييم هو اجتراء على الحقيقة ذاتها.

لكننى مع ذلك أشعر أننى بهذه الدراسة أخطو الخطوة الأولى نحو محاولة التقييم فلنبذل جهداً آخر.. مرة أو مرتين أو ثلاث، أنا وغيرى ثم بعدها يكون من الممكن أن نستصدر أحكاماً، وبعدها يكون لأحكامنا بعض من رنين الحقيقة، ويكون بإمكاننا أن نجترئ على التقييم، دون أن نجترئ على الحقيقة.

* * *

ولسوف يجد القارئ وخاصة فى القسم الخاص بمحاضر النقاش، آراء متناقضة، وروايات تختلف عن بعضها البعض، وهجوماً من شخص على شخص، وانتقادات واتهامات ومحاولات لإلقاء مسئوليات على هذا الشخص أو ذاك، وكل هذا طبيعى، وهو فى ذاته انعكاس للصورة الواقعية التى عاشها يسار الثلاثينيات فى مصر.

ولقد تعمدت أن أتركها كما هى، فلست أعتقد أن من حقى أن أقف حكماً بين هؤلاء الرجال، ولست أعتقد أن من حقى أن أمسك فى يدي قلم الرقيب أشطب هذا وأبيح ذاك، والمسألة ليست مجرد موقف أخلاقى، ولا هى تمسك بحقوق من قالوا هذه الكلمات، لكنها فى واقع الأمر - وقبل كل شئ - تمسك بالحقيقة واحترام للتاريخ.

وكما قلت من قبل فإن جميع هذه الذكريات يستهدف - فى الأساس - استنقاذاها من الضياع، وتقديمها للباحثين والقراء مادة تخضع للدراسة والتقييم ولاستخلاص النتائج.

* * *

وبعد...

إن المحاولات التى بذلت لدراسة تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر قليلة جداً، ومعظم هذا القليل مغرض ومضلل، يقدم نصف الحقيقة ويطمس النصف الآخر أو يزيفه، ولعل كتابات «والتر لاكور»^(١) نموذجاً لذلك كله، لكن أكبر ما رددته هذه الكتابات من أكاذيب هو تأكيدها أن الثلاثينيات لم تشهد تحركاً لليسار فى مصر، وأنها كانت فترة تضاعف فيها وجوده إلى حد الانعدام.

ولست أعتقد أن من حقى أن أسبق تسلسل الكتاب لأؤكد أن هذا الزعم غير صحيح ففى الصفحات القادمة الرد الحاسم على ذلك الادعاء.

ولكنى لا أزعم أنني قلت الحقيقة كلها، أو أنني قد استوفيت كل ما يمكن أن يقال عن يسار الثلاثينيات في مصر، فهذه الدراسة ليست سوى بداية..
ليست سوى محاولة لتحديد معالم الطريق وتعبيده ودعوة للآخرين أن يسلكوه، وأنا واثق تمام الثقة أن تاريخ اليسار في مصر من الثراء بحيث يجد كل باحث فيه جديدا وبحيث يثمر فيه كل جهد إثمارة يفوق كل توقع.
وأخيرا فإن هذه الكلمات لم تكن مقدمة لكتاب بقدر ما كانت استعراضا لأفكار كاتب يحاول أن يثبتها على الورق، كي يستطيع أن يبدأ.

الهوامش:

(١) راجع كتابيه:

- The Soviet Union and the Middle East.
- Communism and Nationalism in the Middle East.

القسم الأول

مصر الثلاثينيات
الصراعات الفكرية والسياسية
بين اليمين واليسار

-١-

اليمن

- حرب الدعاية..
- قادة برجوازيون للطبقة العاملة
- وللأحبار أيضا
- الفاشست ينشطون

حرب الدعاية..

لعل مذهباً من المذاهب الأخرى لم يوجه إليه كل هذا القدر من الهجمات والافتراءات، فلقد شعرت البرجوازية المصرية أن فكرة الاشتراكية لم تكن مجرد رأى استهوى عدداً من المواطنين لكنها أصبحت شيئاً لا يمكن اقتلعه.. أو كما وصفه أحمد الصاوى محمد «شوكا دق جذوره العميقة فى الأرض».

ولم تعد السجون وحدها تكفى، ولا حملات الإرهاب، ولا إجراءات منع ورود المذهب من الخارج.. فلقد دقت الجذور نفسها عميقاً فى تربة مصر، ولم يعد هناك مناص من محاولات عنيفة لاقتلاع هذه الجذور..

وتامماً كما شن الحكام إرهاباً بشعاً ضد دعاة الاشتراكية فقد شن مفكرو البرجوازية حملات تستوى معها فى البشاعة ولكن على المستوى الفكرى.

وانهالت الكتب والمقالات والدراسات تهاجم الفكرة الاشتراكية بل وفكرة المساواة من أساسها، وتبث فى عقول وقلوب المصريين أوهاماً وأكاذيب حول التجربة التى كان البلاشفة يبنونها على أرض روسيا.

بل لقد تصدى بعض المفكرين البرجوازيين لمحاولة تفنيد «المذهب الاشتراكى» وتقديم

نظريات لتطوير المجتمع المصرى.. بعضها دفاع صريح عن الرأسمالية والبعض الآخر يتستر خلف محاولات إحياء النموذج الإسلامى.. إلخ.

ومن بين هؤلاء الذين شغلوا أنفسهم كثيرا بقضية «تفنيد المذهب الاشتراكي» إسماعيل مظهر الذى أصدر كتيباً بعنوان «الاشتراكية.. تعوق ارتقاء النوع الإنسانى»^(١).

ويبدأ إسماعيل مظهر محاولته قائلا: «نسمع بين أونة وأخرى صدى الاشتراكية يرن فى أذاننا فى أنحاء مصر، فنشفق أن يكون من أثر ذلك أن تدلف بعض الجماعات فى تلك السبيل بقدمها مأخوذة بمزينات تلك المبادئ الخيالية، دون الوقوف على حقائقها العلمية والاقتصادية ومركزها الفلسفى وأثارها الاجتماعية.

والحق أن كلمة المساواة التى تقوم عليها المبادئ الاشتراكية الشيوعية كافة، لتأخذ بالروع وتستهوئ الأنفس كما تستهوئها كلمات الشرف والفضيلة»^(٢).

ثم يمضى إسماعيل مظهر مهاجماً فكرة المساواة ذاتها: «إن ما تدعو إليه الاشتراكية من المساواة مناقض فى ذاته لحقائق الكون الأولية. مضاد لحرية الفرد وتمتعه بمزاياه ومواهبه التى وهبته إياها الطبيعة»^(٣).

...«وليس فى العالم من شئ أبعد عن العدل والحرية أكثر تناقضاً مع بديهة العقل من التسوية بين غير المتساوين»^(٤).

ثم ينحنى إسماعيل مظهر ليهاجم التجربة السوفييتية، ولقد مثل هذا الهجوم محور نشاط كل أعداء الاشتراكية؛ ذلك أن هدم النموذج الذى بنته الثورة الاشتراكية - فى العقول - هو السبيل لهدم فكرة الاشتراكية ذاتها.. «إن محصل ما وقع فى روسيا السوفييتية هو أنه قام فى روسيا حكم الاستبداد العسكرى الشيوعى مقام الحكم القيصرى المستبد تحت طلاء من المساواة المفروضة الواقعة بالفعل. ولا يستطيع باحث اجتماعى أن يقضى فى حالة روسيا القائمة اليوم بحكم فيه شئ من روح اليقين قبل أن تتجلى غمرة الدماء التى تجتازها روسيا، وقبل أن تستقر المدنية على أساس ثابت، وقبل أن ينقشع عن أفقها غيب المجاعات التى تكاد تفنيها وتذهب بريحها»^(٥).

ويحاول بعد ذلك أن يقدم انتقاده لكثير من جوانب الفكر الماركسى فيهاجم المادية التاريخية - وينتقد موقف الماركسية من الحرب، وموقفها من الدين، لكنه لا يلبث أن يكشف القناع عن نفسه تماماً فيدافع عن الرأسمالية. «إن الفكرة القائمة على أن رأس

المال أصل الشرور الاجتماعية كلها، غير صحيحة وإن كان لرأس المال كما هو موضوع اليوم ضلعه ونصيبه منها، وإن كان نصيبا ضئيلا تافها»^(٦).

بل هو يمعن في موقفه فيتشبث بالنظام القائم في مصر في ذلك الحين: «إن البقاء على ما نحن فيه خير من استبدال نظام موروث بنظام موضوع، لا نعلم من أمره إلا تجربة مرة وقعت في ناحية من نواحي الأرض سفكت في سبيلها الدماء، وضحى لها رؤساء الدين قربانا لصنم المساواة، وعبث من أجلها بأخص ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان من المبادئ القويمة الخالدة، مبادئ الرحمة والعدل والحرية وما إليها»^(٧).

والغريب بعد ذلك كله أن إسماعيل مظهر لا يلبث أن يقوم بمحاولته لتأسيس «حزب للفلاح» ويعد لهذا الحزب برنامجا مطولا سنحاول مناقشته في فصل قادم لكننا نكتفي هنا بالإشارة إلى أنه قد رفع هذا البرنامج إلى زعيم الأمة مصطفى النحاس وفي النهاية وضع توقعيه تحت عبارة «خادمكم المطيع»^(٨).

وثمة محاولات أخرى عديدة لتفنيد وانتقاد المذهب الاشتراكي.. من بينها كتاب السيد محمد عفيفي البقلى المحامى^(٩)، ولقد قدم البقلى في محاولته هذه مجلدا ضخما حاول أن ينتقد فيه تفصيلا كل المذاهب الاشتراكية، وإن كان قد ركز أساسا على النظرية الماركسية وعلى نظرية القيمة بشكل خاص.. ويخلص من هجومه إلى النتيجة التالية «أن هذا المذهب [يقصد المذهب الاشتراكي] مهما تنوعت مبادئه في الشدة والضعف، ومهما تنوعت أسماؤه تبعاً للمغالة في المطالب وفي السعى لقلب النظام الاجتماعى الاقتصادى أى لو كان اشتراكيا بسيطا أو متضامنا، أو شيوعيا أو فوضويا، فإنه يذهب إلى أن القواعد الطبيعية غير قابلة للبقاء وأساسه الاعتراض على الملكية الفردية التى يقول عنها بأنها معيبة فى تكوينها وفاسدة ويجب لغوها واستبدالها بالملكية المشتركة أو الشيوعية»^(١٠).

هو إذن يضع كل المذاهب الاشتراكية فى كفة واحدة ويشن عليها هجومه.. قائلا: «إن الذى يظهر الثروة فى بعض الدول، أن عدد الأغنياء قليل والفقراء كثير.. ومن هنا يتضح جليا خطأ الاشتراكيين حيث يزعمون بأن فى سلب الأغنياء أموالهم وتوزيعها بالعدل بينهم وبين الفقراء يصبح جميع الأفراد أغنياء، وهذا وهم لا محل لاعتباره مطلقا ونظرية فاسدة لا تحل مشكلة»^(١١).

ولا يكفي البقلى بالهجوم على الاشتراكية لكنه يدافع بصراحة غريبة عن الملكية الفردية قائلا: «وعليه فكل وسيلة تتخذ لتكون عقبة فى سبيل الملكية الفردية والمجهود الشخصى مقضى عليها بالفشل»^(١٢).

ويقول: «ومن ذلك وجب علينا أن ندافع عن الملكية العقارية لأهميتها للمجتمع الإنسانى لأنها هى رأس الإنتاج والتي عليها قضاء حاجات الغذاء. والذي يهم الاقتصاد هو أن تريد الغلة بقدر المستطاع لأن المساحة محدودة ولا وسيلة للوصول إلى هذه الغاية إلا بالدفاع عن الملكية العقارية الفردية والقول بأنها لم تكن مؤسسة فقط على حق طبيعى بل وعلى حق مدنى وعلى العدل المطلق وعلى المنفعة العامة وإذا سلمنا بأن المجتمع هو صاحب الحق على الأرض فليس له نظرا للمصلحة العمومية المشتركة بين المخلوقات إلا أن ينتدب عنه غى حقه من يقوم مقامه ويستطيع أن يستخرج من الأرض أكبر فائدة. ولهذه اللحظة لم نجد إلا الأفراد الذين يختصون بالملكية هم القادرون دون غيرهم على تحقيق هذه الغاية»^(١٣).

بل هو يحاول جهده تثبيت الظلم الاجتماعى الذى كانت ترسف فيه مصر قائلا: «ولذلك ولجميع الأسباب المتقدمة والانتقادات المختلفة التى لا طائل تحتها نلتزم بقبول الحالة الحاضرة عن صيب خاطر، إذ ليس فى مقدورنا أن نغير القوانين الطبيعية.. وإنما نجتهد بتلطيف عيوبها بواسطة الشركات وبتداخل الدولة بسن القوانين واللوائح اللازمة لذلك»^(١٤).

ثم يختتم دفاعه عن الرأسمالية بعبارة قاطعة: «... وإذا كان لا محل من التظلم من الحالة الحاضرة ويجب قبولها بعلاتها، فأحسن حل الرضا بالحالة الحاضرة»^(١٥).

لكننا نشهد للبقل بانه كان برجوازييا مصريا.. بمعنى أنه أدرك بوعيه الطبقي أن الخطر لا يأتى من الاشتراكية وحدها.. وإنما يأتى أيضا من الاحتكارات الأجنبية التى تحدث عنها قائلا أنها: «تخلق تضامنا مزيفا فاسدا لأن التضامن الصحيح يترتب عليه الاشتراك فى السراء والضراء. وبمقتضاه إن عم الخير وجب أن يأخذ كل فرد منه حظه»^(١٦).

«... إن عم الخير وجب أن يأخذ كل فرد منه حظه» إنها عبارة غريبة على هذه الدراسة التى تستند أساسا على محاولة هدم فكرة المساواة.. لكن البرجوازية كانت تحارب فى جبهتين، فهى تخشى الاشتراكية.. وهى ترى أيضا منابع الثراء الوفير تنساب إلى جيوب الأجانب فتطالب بنصيبها منه..

ولسوف نكتفى بهذه الأمثلة برغم وجود محاولات أخرى عديدة لعل من أهمها كتاب (كميل فلامريون) «على أطلال المذهب المادى» وكتاب (قسطاكي أنيس عطاره) «تاريخ تكوين الصحف المصرية»... إلخ. لكننا قلنا منذ البداية إننا سنحاول فقط أن نقدم «ملاح» لصورة العصر الذى نتصدى للحديث عنه..

فلننتقل إذن إلى مجال الصحافة، والمحاولة هنا صعبة للغاية، المقالات التى تهاجم الاشتراكية لا يمكن حصرها.. ولنحاول أن نستعرض هنا بعضا منها..
«إن الطبيعة لا تأذن بأن يتساوى أفراد البشر مهما بذل الاشتراكيون المتطرفون من السعى لتحقيق فكرتهم الزائفة. فوجود الخلاف بين الأفراد والطبقات ضرورى للعمران، ولا يمكن الاستغناء عنه بوجه من الوجوه. فاختلف الطبقات هو المسن الذى يشحذ العزائم ويستفز مطامح البشر...»

ثم تختتم «مجلة كل شىء» افتتاحيتها قائلة: «إلا أنها لحكمة بالغة أن تكون أنت كما أنت وأنا كما أنا، فالشكوى من هذه الحال لا تستند إلى شىء من الحق»^(١٧).
هذه هى الحكمة البالغة التى حاولت البرجوازية أن تغرسها فى العقول..

ويسهم أحمد الصاوى محمد فى المعركة هو أيضا بمقالات عديدة أحدها بعنوان «على أطلال المذهب الشيعى» جاء فيه: «فى هذه الأيام كثر لغط مكاتبى الصحف الأجنبية بالقاهرة عن وجود حركة شيوعية بهذا البلد الأمين. ونحن لا نعرف مبلغ هذا القول من الصحة وقربه أو بعده عن الحقيقة. لكننا نعرف أن بعض أصحاب عقول الذباب وأحلام العصافير قد سولت لهم أنفسهم أمرا فجنوا شيئا غير قليل على أنفسهم وأهلهم وسمعة بلادهم.

ولعهد قريب طالع الناس رسالة مكاتب الأهرام الفاضل بمدينة الإسكندرية عن «عائلة شيوعى فى السجن» ورأوا الدموع التى أراققتها تلك المرأة المسكينة جليلة السيد زوجة الشحات إبراهيم. هذا الرجل الذى كان على ما أذكر عاملا صغيرا من عمال مصلحة سكة الحديد بالزقازيق يعيش مع زوجته وأطفاله فى أمان الله. لكن سعاة الشر منبثون لسوء الحظ فى كل مكان..

وقد وصل شرهم من موسكو حتى مسكن الشحات إبراهيم عامل الدريسة بمدينة الزقازيق فأصبح المفتون شيوعيا.. أى أن شحاتنا صار رفيقا للينين وتروتسكى وزينوفيف وبربوس.

فأف!! كيف لشحاتنا أن يفهم ماهية الشيوعية هذه التى أكاد أوقن أن القائمين بأمرها ونشرها لا يكادون هم أنفسهم يفهمونها!!

أى عقل يمكن أن يفهم ويهضم فهم الفوضى التى تقضى على النظام الإلهى الذى سنته طبيعة الكون والعمار للعالم منذ بدء الدهور..

فهل تفهم جليلة زوجة الشحات إبراهيم أن نظام الشيوعية يقضى بحرمانها من أولادها ويقضى بوضعهم فى الملاجئ ويقضى عليها بأن تشتغل طوال أيامها لا فى أشغال بيتها والعناية بأبنائها بل فى مصانع الحكومة لتأخذ تذكرة تآكل بها فى مطعم عمومى فى حين يكون زوجها أيضا يداوب ويعانى للحصول على تذكرة أخرى لنفسه؟ فالشيوعية تضيع سعادة البيت وتقتل حب المرأة، حب الزوجة، حب الأم.. فهى عدوة الأسرة وعدوة الأمة وعدوة الله، أى والله..

والشيوعية ليست سماء تمطر ذهباً أو فضة كما يخيل للذين يغريهم صدى الذهب الروسى المزيف، بل إن الشيوعية ليست سماء تمطر أرغفة وفراخا مكتفة. وإليك مثل ابن الشحات إبراهيم فقد يكون مريضاً بالحصبة أو بالحمى ولا تستطيع المسكينة أمه ترك عملها لتذهب لرؤيته بينما يكون الطفل العاثر الجد فى أيد غريبة عنه وليس بصدور أصحابها ذرة من الحب الحقيقى العميق المهول المدهش الذى لا حد له وقد أودعه الله قلب امرأة واحدة هى الأم.

والنظام الذى يقضى الأم عن ابنها وزوجها، كما يقضى الزوج ويشرد الأطفال ويمحو القومية ويهدم الدين لهو نظام فاسد، بل كيف يكون نظاما وليس فيه من النظام أى شىء؟. ثم يواصل أحمد الصاوى محمد مقاله منتقلا إلى موضوع آخر: «.. أما والشىء بالشىء يذكر فإن لهذه الصحيفة أن تفخر بأنها أول من تصدى لمحاربة تلك الطائفة الخائنة التى كان يحمل علمها الأحمر القانى ذلك الشيوعى التائه روزنتال، لكن روزنتال رماه بدائه وانسل.. رجل لبق زرع الشوك وأنبتة ولم يجمعه بل إنه ترك الحصاد لأبناء من وطننا السذج مثل الشحات إبراهيم وزملائه فراحوا ضحاياها «ها أنت تراهم الآن فى غياهب السجن وهو حر طليق».

ثم يختتم أحمد الصاوى محمد مقاله الذى أختار لنشره يوم أول مايو - محرضا الحكومة مطالبا بمزيد من العنف: «فلنؤمل من حكومتنا الموقرة السهر واليقظة المضاعفين للضرب بالحديد على أيدي دعاة البغى والفوضى فى البلاد ولنؤمل من وزارة معارفها الجليلة العناية بتقرير التعليم الدينى وتربية الأخلاق فى المدارس»^(٨).

ولقد تعمدت أن أستطرد فى عرض هذا المقال، فهو وحده كاف لعرض المحتوى الفكرى والمنطلقات الأساسية لحملة العداء التى شنتها الطبقات المصرية الحاكمة.

بل إن كتابا من أمثال سلامة موسى قد تورطوا هم أيضا فى حملات كهذه، فتحت عنوان «الفاشية والشيوعية» يكتب سلامة موسى فى مجلته الجديدة:

«تمثل الفاشية والشيوعية الطرفين للغلو السياسى فى أوروبا الآن. فالفاشية غلو المحافظين والشيوعية هى غلو الاشتراكيين. ومع أنهما طرفان خصمان فكلاهما يسير على وتيرة واحدة هى الغضب بدل الرفق، والالتجاء إلى القوة بدلا من الالتجاء إلى القوانين وكلاهما لهذا السبب خطر على الأمن العام، ومن مصلحة الأحزاب المعتدلة، الاشتراكيين والمحافظين والأحرار أن يقاطعوا الطرق التى يلجأ إليها كل من الشيوعيين الروس أو الفاشيين الإيطاليين لأنها طرق غير دستورية تعمل للفوضى بدلا من النظام»^(١٩).

والغريب فى الأمر أن سلامة موسى نفسه كان يتعرض فى هذا الوقت بالذات إلى هجمات شديدة.. ويتحدث سلامة موسى عن بعض هذه الهجمات التى صدرت فى كتاب بغير توقيع فيقول: «وسألت عن كاتبه فى إدارة المطبوعات فعرفت أنه ابن أخ رشيد رضا الصحفى السورى المعروف الذى وفد على بلادنا كما تفد الطواغيت وخص نفسه بشتم الشبان المصريين واتهامهم بالإلحاد والشيوعية..».

وبعد أن يورد سلامة موسى نماذج من الشتائم التى كالهها له الكاتب يقول: «وهكذا بحيث إنك تحتاج إلى أن تغسل يديك عقب قراءة هذا الكتاب.. وقد تناولنا هذا السورى السافل بتهمة الشيوعية والدعاية لها. فوضع نفسه بالموضع الذى يستحقه وهو موضع الجاسوس على الناس يفترى عليهم كى يؤذيهم».

وإذا كان سلامة موسى قد كتب هذه الكلمات فى نفس العدد السابق من «المجلة الجديدة» بدا واضحا لنا كيف أن العناصر الرجعية كانت تتعقب الكتاب الديمقراطيين والتقدميين بالاتهامات وتحاصرهم بها وقد لا يجد البعض منهم سبيلا للدفاع عن نفسه إلا بالمشاركة فى نفس حملة الهجوم.

والحقيقة أن الرجعية المصرية قد استخدمت سلاح الدين استخدما ذكيا فى هجومها ضد التيار الاشتراكى فقد اكتشفت من تجربة السنوات السابقة أنها مهزومة لا محالة فى أى نقاش متزن حول موقف الدين الإسلامى من الاشتراكية، وقد نجح الاشتراكيون بالفعل فى إفحامها وإسكات أعتى دعائها وهو الشيخ التفتازانى مؤكدين أن مبادئ الاشتراكية لا تتعارض مع تعاليم الدين الإسلامى^(٢٠).

وهكذا ركزت الصحف هجومها حول موقف الثورة البلشفية من الدين وامتلاأت صحف هذه الفترة بمقالات عديدة مثل «روسيا تحارب الدين»^(٢١) «القضية التركستانية - تعاضد الشعوب الإسلامية في محاربة البلشفية»^(٢٢).. ودعوات كثيرة تستنهض همم المصريين للدفاع عن مسلمى الاتحاد السوفييتي. ولعل أهم هذه الدعوات ذلك الكتاب الذى يحمل عنوان «مذكرات القادرى»^(٢٣).

والقادرى شخصية غريبة يقول عن نفسه أنه «كردى الأصل قبل كل شىء ومسلم بعد ذلك»^(٢٤).

وقد شارك فى قيادة الجيوش البيضاء ضد الثورة البلشفية وتولى قيادة أحد هذه الجيوش برتبة «ميجر جنرال» وقد صدره أعداء الثورة لهذه القيادة كسبيل لجمع مسلمى الشرق الأقصى ضد الثورة البلشفية، وتولى «القادرى» بعد ذلك وظيفة «المفتش العام لحكومة كردستان الجنوبية حتى عام ١٩٢٢.. ومع توالى هزائم الجيوش البيضاء هرب القادرى لمغادرة الأراضى السوفييتية وعلى الحدود قبض عليه الحرس الأحمر ليجد معه ثروة مقدارها «نحو ألف ليرة ذهباً ومقدار خمسين ألف روبل قيصرى»^(٢٥) ولكنه استطاع الهرب ليعود إلى بغداد ليكتب مذكراته هناك.

وتستهدف كل صفحات هذا الكتاب تعبئة الشعور الإسلامى ضد البلاشفة وهو يختتم مذكراته هذه بصفحة عنوانها «كلمتى الأخيرة» يقول فيها:

«ولم تكن إحدى هذه الصدمات المادية التى وردت لحد الآن لتثني عن عزمى وتفنى همى وتحولنى عن غايتى ومسلكى. بل أزال معتمداً على نفسى. وإنى مستعد أبداً لإكمال الخدمات التى بدأت بها فى روسيا بقصد إسعاد مسلميها ولا أزال مؤمناً بظهور حكومة روسية شرعية فى المستقبل تعترف للتتار بحقوقهم.. وما فتئت مستعداً لترويج أى فكرة قومية أو حركة وطنية تحدث فى روسيا بقصد تأسيس «روسيا المعتدلة» التى لا تفرق قطعاً بين التتار وبين أبنائها البررة، كما أنى لا أزال منتظراً بكل جوارحى لأى نداء يدعو إلى حمل السلاح ضد البلشفية فى روسيا، ومستعداً تمام الاستعداد للرجوع إلى قيادة جنودى البواسل»^(٢٦).

والحقيقة أن يقظة الرجعية المصرية واهتمامها بالبحث عن مثل هذا الكتاب ونشره فى مصر هو أمر يثير الدهشة ويوضح لنا عنف وعمق حرب الدعاية التى شنتها ضد الاشتراكية.

لكن الأمر لم يقتصر على قضية الدين فهناك مسألة الأخلاق والزواج وما نسج حولها من أكاذيب ومقالات مثل «فوضى الزواج فى روسيا.. جواز تعدد الأزواج والزوجات.. تجربة خطيرة تهدد النظام العمرانى»^(٢٧).

وحملات أخرى تصور البلاشفة فى صورة جزارين سفاحين - فالسياسة الأسبوعية تنشر مثلا صورة تكتب تحتها الكلمات التالية، «جزار البشرية - ناصرولا إسمالوفا رئيس الشناقين البلشفيين فى قوقازيا ويبلغ عدد الذين شنقوا بيديه ٣٨٥٤ نفسا فى مدة وجيزة»^(٢٨).

واللطائف المصورة تنشر خبرا يقول: «وفاة جلاّد البلاشفة - جاء فى الأنباء من موسكو بأن شابين جلاّد حكومة السوفييت السابق مات.. وكان عدد من أعدموا بيدى هذا الجلاّد خمسمائة شخص وقد اشتهر بقتل المحكوم عليهم بعبارة نارى واحد»^(٢٩). وتحت عنوان «من مظالم الشيوعية» تقول مجلة «كل شىء»: «يخطئ من يحسن الظن بالشيوعيين الروس ويستمتع إلى تغنيهم بخيالاتهم الكاذبة فإن الواقع الذى دلت عليه الحوادث أنهم مثل القياصرة ظلما وعتوا بل هم أشد منهم فتكا بالشعب الروسى المسكين»^(٣٠).

ومقالات عديدة أخرى تستهدف تقديم صورة وحشية وبشعة عن تلك الثورة التى تنبأوا لها بالانهيار. فتحت عنوان «هل أذنت شمس البلشفية بالأفول» تؤكد السياسة «لا ريب فى أننا اليوم نشهد احتضار النظام البلشفى»^(٣١).

وإذا كان إعدام العاملين ساكوا وفانزيتى بأمريكا قد أثار موجة استياء فى أوساط عديدة من العالم فإن هذه المأساة قد استخدمت هى أيضا فى الصحافة المصرية كمادة للهجوم..

فتحت عنوان «مأساة فانزيتى الغرامية - ما الذى يجعل المرء شيوعيا» تروى «السياسة» قصة نسبتها إلى أخت فانزيتى تقول «إنه أحب فتاة لكن إختها أجبروها على دخول الدير حيث ماتت».

ثم تستخلص «السياسة» من هذه القصة النتيجة التالية: «ومنذ ذلك اليوم تحول قلب فانزيتى إلى حجر صلد وأعلن الحرب على المجتمع ونظمه المقررة»^(٣٢).

والشىء المهم الذى أريد أن ألفت نظر القارئ إليه، هو أننى أكتفى دوما بمجرد أمثلة قليلة. ذلك أن حرب الدعاية كانت أوسع وأشمل من أن تدرس تفصيلا فى مثل هذه العجالة.

لكننا فقط نحاول أن نشير إلى اتساع هذه الحرب.. وإلى منطلقاتها الأساسية.

ويهمنا أن نلاحظ مسألتين مهمتين:

* أن الرجعية المصرية التى تظاهرت فى البداية بأنها ضد التطرف.. وأنها لا ترفض «الاشتراكية المعتدلة» قد انتهزت فرصة التراجع الذى عانت منه حركة اليسار المصرى لتسفر عن وجهها لترفص أى نوع من أنواع الاشتراكية، بل وترفض فكرة المساواة ذاتها.. وتؤكد فى سفور تمسكها بالنظام الرأسمالى كما هو «أن تكون أنت كما أنت، وأنا كما أنا، فالشكوى من هذه الحال لا تستند إلى شىء من الحق».

* أن الرجعية المصرية فى حربها ضد الاشتراكية قد ركزت نيرانها على النموذج السوفييتى محاولة هدمه فى العقول والقلوب كسبيل لإقناع الجماهير بفشل الاشتراكية فى التطبيق.

لكننا مع ذلك نخطئ لو تصورنا أن الرجعيين كانوا وحدهم فى ميدان الدعاية فلسوف نشهد فى فصل قادم كيف نجح اليسار المصرى فى شن حرب دعوية مضادة حققت نجاحا ساحقا.

الهوامش

- (١) الاشتراكية.. تعوق ارتفاع النوع الإنسانى - مجموعة مجلة العصور لنشر المعرفة والآداب - مطبعة الترقى، سنة ١٩٢٧.
- (٢) المرجع السابق ص٣.
- (٣) المرجع السابق ص٤.
- (٤) المرجع السابق ص٥.
- (٥) المرجع السابق ص ١٢.
- (٦) المرجع السابق ص ٨.
- (٧) المرجع السابق ص٩.
- (٨) مجلة الطليعة - مارس ١٩٦٥.
- (٩) السيد محمد عفيفى البقلى. فوائد الثمرات الأحمديّة فى المباحث الاقتصادية والسياسية. الطبعة الأولى - ١٩٢٥ - مطبعة المقتطف والمقطم.
- (١٠) المرجع السابق ص٢٦.
- (١١) المرجع السابق ص ٢٣٤.
- (١٢) المرجع السابق ص٢٧.
- (١٣) المرجع السابق ص٢٦٨.
- (١٤) المرجع السابق ص٢٤٥.
- (١٥) المرجع السابق ص٢٣٤.
- (١٦) المرجع السابق ص١٨٩.
- (١٧) كل شىء - ١٢/٢٠ - ١٩٣٠.
- (١٨) الأهرام - ١ مايو ١٩٢٥.
- (١٩) المجلة الجديدة - العدد التاسع - المجلد الأول - يوليو ١٩٣٠ ص١١٤٩.
- (٢٠) لمزيد من التفاصيل راجع - د. رفعت السعيد - تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر - المرجع السابق - ص ١٩٠ وما بعدها.
- (٢١) المجلة الجديدة - يوليو ١٩٣٠.
- (٢٢) السياسة الأسبوعية - ٢٥ يوليو ١٩٢٧.
- (٢٣) الميجر جنرال صديق رسول القادرى - مذكرات القادرى - نقله إلى العربية القاسم العلوى - طبع على نفقة محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية.
- (٢٤) المرجع السابق ص٢٥٨.

- (٢٥) المرجع السابق - ص ١١٣.
- (٢٦) المرجع السابق ص ٢٥٦.
- (٢٧) السياسة الأسبوعية - ٢ أغسطس ١٩٢٧.
- (٢٨) السياسة الأسبوعية - ٢٥ أغسطس ١٩٢٧.
- (٢٩) اللطائف المصورة - ١٤ فبراير ١٩٢٧.
- (٣٠) كل شيء والدنيا - ٢٠ فبراير ١٩٣٢.
- (٣١) السياسة الأسبوعية - ١٨ فبراير ١٩٢٨.
- (٣٢) السياسة الأسبوعية - ١٠ سبتمبر ١٩٢٧.

قادة برجوازيون للطبقة العاملة

لقد كان الدرس الذى تلقنته البرجوازية من نجاح الحزب الشيوعى فى السيطرة على حركة الطبقة العاملة فى مطلع العشرينيات درسا قاسيا .

فلقد استطاع الحزب أن يوحد كثيرا من النقابات المهمة فى اتحاد عام قوى تلعب فيه الكوادر الحزبية الدور الرئيسى .

وقد استطاعت هذه الكوادر أن تنضم بالاتحاد العام (٣٥ ألف عامل) إلى الاتحاد العالمى للنقابات الحمراء (البروفنترن) Protintern^(١) .

وكتبت مجلة Labour Monthly «إن الاتحاد العام لنقابات العمال المصريين الذى ظل تحت قيادة الشيوعيين حتى ١٩٢٣ - ١٩٢٤ كان فى طريقه لأن يصبح حركة جماهيرية بحق»^(٢) .

وكان أنطون مارون المستشار القانونى للاتحاد قائدا فعليا «فلقد كان من الصعب على البوليس إخلاء المصانع من العمال المصريين، بينما إشارة واحدة من أصبع مارون كانت كافية لإنهاء الإضراب»^(٣) .

ولقد كانت قيادة الحزب للحركة العمالية قيادة واعية ومحكمة، حاولت قدر الإمكان أن تكون مرنة وأن تتلافى ما توقعته من ضربات محتملة توجهها حكومة سعد زغلول .

لكن الضربة كانت مدبرة ومبيتة إلى حد كان من الصعب معه تلافيها. وعندما وجهت الضربة إلى الحزب وألقى القبض على قادته حاول اتحاد العمال أن يفلت نفسه منها فأصدر سكرتيه العام مصطفى أبو هرجة بياناً يقول فيه: «ما كان اتحاد النقابات العام آلة لحزب من الأحزاب أو هيئة من الهيئات في مصر، إنما هو هيئة وجدت لخدمة العمال.. والاتحاد خادم للعمال على تباين مذاهبهم السياسية ونزعاتهم الحزبية واختلاف عقائدهم الدينية»^(٤).

لكن مصطفى أبو هرجة ما لبث أن اعتقل وأغلقت دور الاتحاد بالإسكندرية ومختلف المدن وغرقت صفحات الجرائد في حملات معادية للحزب ولنشاطه وسط العمال.. ولقد أسهمت جريدة الأهرام في تدبير المؤامرة والإعداد لها منذ البداية، نشرت تقول «حقاً أننا لا ندري كيف تتجاهل الحكومة وجود حركة اشتراكية حادة بين ألوف العمال في مدن القطر المصري، مع أن الواقع على سير الأحوال يرى أن هذه الحركة أخذت بالنمو»^(٥).

ومرة أخرى تسهم الأهرام في حبك المؤامرة فتقول: «انفجرت الحركة الاشتراكية الملقحة بالشيوعية في هذين اليومين في الإسكندرية انفجاراً قويا حمل الحكومة على المبادرة إلى معالجتها والاستعداد لقمعها بالقوة المسلحة إذا قضت الحال». ثم تمضى قائلة: «إننا نرجو أن تتخذ وزارة الشعب التدابير اللازمة لمنع تكرار ذلك.. إن للعمال حقوقاً يجب أن تصان ولكن لهذه الحقوق حدوداً يجب ألا تتجاوزها وإذا كانت الصحافة قد عطفت عليهم فإنه لا يسعها اليوم إلا أن تحذرهم من عواقب الميل إلى الشيوعية والتشبع بالمبادئ المتطرفة»^(٦).

واستجابت «وزارة الشعب!» لنداء الأهرام وخاضت المعركة ضد الحزب وضد اليسار إلى أقصى مداها..

ولقد بذل الوفد كل ما لديه من نفوذ سياسي وقومي في الضغط على النقابات المختلفة للتخلص من قادتها اليساريين.

ونزل الوفد بكل ثقله في هذه المعركة، فسعد زغلول بكل ما لزعمته القومية من تأثير أسهم شخصياً في توجيه نداءات العمال تناشدتهم «احترام ملكية الغير» وإلا «فإنهم يعاملون معاملة الغاصبين الخارجين على القانون»^(٧).

وأُسهم كبار قادة الوفد فى هذه المعركة أيضا.. كذلك أسهمت فيها كل التنظيمات الوفدية الجماهيرية مثل لجان الطلبة الوفديين وغيرها..

وتنشر الأهرام: «عقدت لجنة الطلبة بالإسكندرية سلسلة اجتماعات للنظر فى مساعدة الحكومة على مواجهة حركة العمال ببث روح السكينة بينهم لى يكفوا عن الإضراب ويعولوا على عطف الحكومة والبرلمان»^(٨).

وقد تركزت الحملة الوفدية فى بداية الأمر على محاولة إبعاد القادة اليساريين عن مراكز القيادة فى النقابات وانهمك رؤساء لجان الوفد فى المدن والأقاليم ومختلف التنظيمات الوفدية لإنجاز هذه المهمة.

وتنشر الأهرام: «عقدت نقابة عمال شركة إيجولين اجتماعا أمس وكان الغرض الأهم من هذا الاجتماع تتصلُّ النقابة من سياسة الشيوعية التى كانت لجنتها الإدارية السابقة تتبعها وقد حدث هذا التوصل. وغيّرت النقابة قانونها واختارت لها رئيسا جديدا يقودها فى طريق العمل المفيد»^(٩).

وقد شملت هذه الحركة عديدا من النقابات مثل نقابات عمال الصناعات اليدوية والترام والمياه وعلب الكرتون والمنجدين بالإسكندرية.. إلخ^(١٠).

لكن الخطوة الأكثر خطرا كانت القرار الذى اتخذه سعد زغلول بأن يدخل حزب الوفد ميدان العمل النقابى مقدما من بين أعضائه قادة للحركة العمالية.

وهكذا كانت المرحلة الأولى هى مرحلة إغلاق الباب فى وجه اليسار.. وبعد ذلك أتت المرحلة الثانية وهى فتح الباب للبرجوازية كى تقود الحركة.

ولم يكن من قبيل الصدفة البحتة أن يلقى القبض على قادة الحزب فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ ثم يعلن الوفد تأسيس «النقابة العامة للعمال» فى ١٥ مارس ١٩٢٤، ثم تحولت هذه النقابة فيما بعد إلى اتحاد عام للعمال.

وقد بلغ من اهتمام سعد زغلول بالأمر أن أوكل هذه المهمة إلى واحد من أكفأ القادة الوفديين وأكثرهم قدرة على التنظيم وعلى العمل بين الجماهير.. هو عبدالرحمن فهمى صاحب اليد الطولى فى كل التحركات والتنظيمات الوفدية التى صاحبت ثورة ١٩١٩، وسكرتير لجنة الوفد المركزية.

بل إن سعد زغلول خاض المعركة بنفسه - أيضا - وخطب أكثر من مرة فى الاجتماعات العمالية معلنا ابتهاجه بتوجه الوفد إلى التجمعات العمالية متملقا العمال ما استطاع.

وفى خطبة له فى حفل أقامته نقابة عمال شركة السكك الحديدية وواحات عين شمس يوم ٤ يوليو ١٩٢٤ قال:

«أفرح كثيرا وأسر كثيرا كلما شعرت أن هذه الحركة ليست فيما يسمونه بالطبقة العالية فقط، بل هى على الأخص فى الطبقة التى أسماها حسّادنا «طبقة الرعاى» وأفتخر بأننى من الرعاى مثلكم». ويمضى سعد زغول قائلا: «طبقة الرعاى» هى الطبقة التى ليس لها صالح خاص والتى مبدؤها ثابت على الدوام.. هذه الطبقة لا تسعى وراء وظيفة تنالها ولا منصب تحل فيه.. ولا يبهر نظرى ولا يطرب سمعى أكثر من أن أرى رجلا فقيرا لا قوت عنده ينادى «يحيا الوطن»، وليس يطمع فى شىء إلا أن يعيش كما هو، ولكن ذلك الرجل صاحب الأموال وذلك الموظف فى المنصب العالى إذا قال يحيا الوطن فإنما يقول «يحيا وظيفتى أو مصلحتى» ولذلك رأيت كثيرا من أرباب تلك المصالح ومن ذوى الوظائف تقلبوا أو تغيروا، ولكن الرعاى أمثالكم ما تغيروا ولا بدلوا عقائدهم».

ثم يوجه سعد زغول مديحه لعبدالرحمن فهمى وحسن نافع مثنيا عليهما «ثناء جميلا، لما ألقياه عليكم من النصائح الغالية، وما أوصياكم به من التمسك بالصدق وحسن المعاملة والوفاء والطاعة وحسن النظام. نعم إن تلك الصفات لازمة لكم لزوما أكيدا». وهكذا يحدد سعد زغول مطالبه تجاه حركة العمال: الصدق.. حسن المعاملة.. الوفاء.. الطاعة.. حسن النظام..

وهى إلى جانب أنها ألفاظ أخلاقية عامة إلا أنها إذا قدمت من رئيس الحكومة - فى ذلك الحين - فإن كلمات مثل الطاعة وحسن النظام تحمل معان ذات دلالة، خاصة وإذا شفعها سعد زغول بشرط مهم «فإذا درجتم على المنوال الذى رسم لكم فإن الحكومة التى هى حكومة الشعب تساعدكم»^(١١).

وفى ١٨ أبريل ١٩٢٤ صدرت مجلة عمالية وفدية باسم «العمال» وهى مجلة نصف شهرية رأس تحريرها محمد متولى سويلم..

وفى ١٢ يونيو ١٩٢٤ تصدر مجلة وفدية عمالية أخرى اسمها (اتحاد العمال) وترأس تحريرها نجاته عبدالعزيز.

وهكذا خيل للوفد أن المسرح قد تهيأ لى يتولى قيادة الحركة العمالية.. فماذا كانت النتيجة؟

وما هو موقف جماهير العمال من سياسة إغلاق باب اليسار وفتح الباب أمام قيادة البرجوازية؟

لقد بدت الخطوة الأولى وكأنها تحقق نجاحا كبيرا..

فالعمال الذين حل اتحادهم العام، كانوا لا بد ساعين إلى تأسيس اتحاد جديد، وحتى الكوادر اليسارية التي كانت لا تزال طليقة ركزت اهتمامها على تكوين وحدة عمالية صلبة تواجه المد الرجعي الذي صاحب الحملة ضد اليسار.

ولا شك أن إسهام الوفد في عملية تكوين الاتحاد قد جذب إليه كثيرا من القوى التي كانت تتخذ موقف التردد.

كذلك فقد كان «عبدالرحمن فهمي» يقوم بهذه الخطوات في ظل مباركة حكومة الوفد.. وكان يتحرك في مواكب شبه حكومية.

ففى حفل افتتاح فرع الاتحاد بالفيوم حضر الحفل محمود بك صبرى مدير تخطيط المدن بمصلحة التنظيم ومندوب الحكومة فى النقابات وحضره الأستاذ حسن نافع عضو مجلس النواب وعبدالستار بك الباسل وعلى بك نجيب عضوا مجلس النواب.. وحضر الحفل كذلك سعادة مدير الفيوم وحكمدار البوليس وكبار الموظفين.. وقد قضى الضيوف ليلتهم فى سراى سعادة المدير^(١٢).

والحقيقة أن البداية كانت مشجعة جدا.. فالنقابة العامة التى تأسست كخطوة أولى لتأسيس الاتحاد العام ضمت بعد ثلاثة أشهر من إعلانها ١٢,٠٠٠ عضو^(١٣) ثم تضاعفت الأرقام سريعا عندما تأسس الاتحاد العام.

وتتضح صورة النجاح الذى تحقق من الخطاب الذى ألقاه محمد أفندى فؤاد سكرتير الاتحاد العام بمناسبة تأسيس فرع الاتحاد بالإسكندرية (تحت رئاسة محمد بك حسيب نقيب المحامين).. وقد جاء فى هذا الخطاب أن «الاتحاد يجمع نيفا ومائة نقابة تضم نحو مائة وخمسين ألف عامل، فضلا عن الجهود التى لا يزال يبذلها العمال لتوحيد كلمتهم للانضمام للاتحاد ويبتظر أن تتكون ١٠٠ نقابة أخرى فى وقت قريب».

وقال محمد فؤاد: «إن هذا النجاح العجيب كان ابن شهرين فقط»^(١٤).

لكن ماذا فعلت قيادة الوفد بهذه الألوف المؤلفة من العمال؟..

لقد حاولت معها نفس القصة القديمة إغلاق باب وفتح باب آخر..

وهكذا تركزت الحملة الأساسية داخل صفوف الاتحاد العام لإغلاق الباب في وجه اليسار..

واتخذت حملة إغلاق باب اليسار أشكالا متعددة، مقالات وخطب وحملات تطهير في النقابات.. إلخ.

وفي مجلة اتحاد العمال وهي المجلة الرسمية للاتحاد يكتب محمد فؤاد سكرتير الاتحاد مقالا يقول فيه: «دفع الطيش بعض الشبان الذين لا خلاق لهم بالإسكندرية وغيرها من المدن إلى اعتناق مذهب الشيوعية واحتالوا بهذا المذهب على العمال، فنفتوا هذا السم وكاد هذا الداء العضال أن يتفشى في هيكل الأمة لولا أن قيض الله بعض رجال الحكم من ذوى الفطنة فاعتقلوا هؤلاء الشبان الآثمين وزجوا بهم في أعماق السجون جزاء ما قدمته أيديهم وما جنوه من الذنوب...».

ثم يواصل حديثه موضحا حقيقة الدور الذى يلعبه هو وعبدالرحمن فهمى وكل الاتحاد العام (الوفدى) و«قيض الله في هذا الظرف العصيب للعمال سعادة عبدالرحمن بك فهمى زعيم العمال فانتشلهم من هذه الهوة التى كادوا أن يقعوا فيها»^(٥).

وفي افتتاحية العدد الأول من مجلة «العمال» (الوفدية) يكتب رئيس التحرير قائلاً «واجب العمال أن يتضامنوا ويتآلفوا تحت لواء واحد وزعامة واحدة وأن يطرقوا باب الإصلاح بالطرق المشروعة والحكومة نفسها لا تضن عليهم بما يطلبونه ما دام فى دائرة المعقول.. بيد أن من يتعجلون الأمور لا يتفقهون معنا فى الرأى ويحاولون الطفرة وهى محال، وهم مع إخلاصهم يندفعون اندفاعا يحاكى التيار الحارף ولا يقبلون لتأنى والتريث فيما يقدمون عليه وهذه حال لا تسر أصحاب المدارك ومن ذلك نرى أعمالا مكدره، قد تضطر ولأه الأُمُور حتى فى العهد الدستورى إلى كبح جماح الخارجين على القانون والنظام»^(١٦).

لكن إغلاق الباب في وجه اليسار كان مجرد خطوة لا بد أن تتبعها خطوة أخرى تستهدف بث الفكر البرجوازي في صفوف العمال.. ولقد بذل عبدالرحمن فهمى (زعيم العمال - كما أسمى نفسه) كل ما لديه من جهد في محاولة إفراغ هذا التجمع العمالي من أى محتوى ثورى وطلائه بطلاء معتدل غاية الاعتدال تهيمن عليه الأفكار البرجوازية.. وفي خطابه في افتتاح فرع الاتحاد بالفيوم يتساءل عبدالرحمن فهمى: «ما هو الجاه

والمال؟ وما قيمتهما؟ هما زائلان بزوال الزمن فانيان مع العمر ولا يبقى إلا العمل الصالح والذكرى الطيبة.. إن العامل الذى يطمع فيما بيد أصحاب رؤوس الأموال بلا حق إنما يسعى لدمار بلاده وخراب سوقها الاقتصادية. فإننا فى حاجة لأن نشبث للعالم أن العامل المصرى متمسك بحقه فقط، فلقد قبلت زعامتكم لأدافع عنكم وأحمى مصالحكم فلا تنتظروا منى أن أحاول الحصول لكم على أكثر من حقوقكم، فإنى كما أدافع عنكم وعن حقوقكم أدافع عن حقوق الشركات معكم ولو لم تكلفنى هى بذلك. لأن حماية مصالحها صيانة لمصالح بلادنا التى فتحت صدرها للأجانب لتستفيد منهم ويستفيدوا هم لأنهم ضيوفنا ولقد اشتهرتم بإكرام الضيف».

ثم يمضى عبدالرحمن فهمى قائلا: «واعلموا أن هؤلاء القوم الذين يقولون أن العامل يشغل طوال يومه وليله بأجر زهيد بينما صاحب رأس المال يكسب الذهب، إنما هم قوم يفسدون العقول والعقائد»^(١٧).

ولكن الأمر لم يكن مجرد خطب جوفاء عن «العمل الصالح والذكرى الطيبة» فقد أثبت الاتحاد العام (الوفاى) أنه كان أداة برجوازية لفرض الاستسلام على أى تحرك عمالى ولشل كل محاولة إيجابية يتخذها العمال سبيلا لتحقيق مطالبهم..

وعندما أضرب عمال فابريكة المعصرة توجه إليهم عبدالرحمن فهمى طالبا منهم تفويضه فى «حل الإشكال» وما إن منحه العمال هذا التفويض حتى أصدر إليهم أوامره «بفض الإضراب والعودة إلى العمل».

وتقول مجلة «اتحاد العمال» إن «العمال قد قبلوا ذلك النصح الغالى بالطاعة الواجبة». وتصف نصيحة عبدالرحمن فهمى بفض الإضراب بأنها «نصيحة أبوية سلمية غالية»^(١٨).

وعندما يعلن العمال الزراعيون فى تفتيش المطاعنة التابع لشركة السكر الإضراب احتجاجا على عدم منحهم علاوات طوال خمسة أعوام.. فإن محمد فؤاد سكرتير عام الاتحاد لا يجد ما يوجهه لهم سوى اللوم قائلا: «ولو أنى أشفق على العمال إلا أنى أوجه إليهم بعض اللوم فقد كان الأجدر بهم أن ينظروا بعين الحكمة، وكما صبروا على الآلام خمس سنوات فليتحملوا شهورا أخرى.. فالشعب كله ضائع الحقوق ونحن جزء من الشعب فلنا سلوى ولنا عزاء، وإن الله مع الصابرين لا يضيع أجر المستحقين»^(١٩).

وفى الإسكندرية واجه عمال مطبعة لاغوداكس ظروفًا عصيبة فقد حرّمهم صاحب المطبعة من مكافآتهم السنوية وفصل عددا من العمال النقابيين قائلا: «من كان منكم فى النقابة فلا عمل له عندى» ثم قرر تخفيض أجور العمال بنسبة ٤٠ ٪. وحينما طرح بعض العمال فكرة الإضراب قاومهم الاتحاد وقالت جريدة «العمال» «أنه من نقاوة قلوب العمال وطهارة ضمائرهم وميلهم إلى حب السلام رفضهم لقرار الإضراب والاكتفاء بإنذار صاحب العمل بواسطة محافظ الإسكندرية»^(٢٠).

وفى أكثر من مرة أصدر الاتحاد بيانات يحذر فيها العمال من القيام بأى إضراب مطالبًا العمال أن يتقدموا بمطالبهم إلى الاتحاد ليعمل هو على تحقيقها «وليقرر الطريق الذى يراه مناسبًا لذلك.. وإلا فإن الاتحاد لن يناصر العمال الذين يضربون من تلقاء أنفسهم»^(٢١).

وهكذا اكتشف العمال بخبرتهم الذاتية أن الاتحاد (الوفدى) لم يكن سوى تجمع يستهدف شل كل تحرك ثورى لهم وإعاقتهم عن اتخاذ أية خطوة جادة للحصول على مطالبهم العادلة..

وسرعان ما أدركت تلك الألوؑ المؤلفة من العمال التى تجمعت سريعا فى صفوف الاتحاد، أنها قد تجمعت فى المكان الخاطى، وأن الوفد وإن كان أداة للنضال الوطنى إلا أنه لا يمكن أن يكون أداة للنضال الطبقي للعمال.

ربما لم يكن الأمر واضحا بمثل هذه الصورة القاطعة فى ذهنان هذه الألوؑ من العمال وربما كان البعض قد اقتنع لبعض الوقت بالكلمات اساذجة عن «الصبر» و«القناعة» و«العمل الصالح» و«إكرام الضيف»... إلخ.

لكن الصراع الطبقي العنيف الذى كانت تموج به مصر، والضغط الاستغلالي البشع الذى مارسه الرأسماليون المصريون والأجانب على السواء حفز العمال إلى نضال ضبقى كان لا بد لقيادة الوفد أن تقف ضده..

وهكذا وكما تجمع ألوؑ العمال سريعا حول قيادة الاتحاد العام الوفدية، انفضوا سريعا..

.. «ومن بين ٣٥.٠٠٠ عامل ضمهم اتحاد العمال الخاضع لنفوؑ سعد زغلول لم يبق سوى ١٣.٠٠٠ فى عام ١٩٢٧، وفى بعض النقابات تسربت العضوية بنسبة ٦٠ أو ٧٠ ٪ وهكذا فقدت مقومات استمرارها»^(٢٢).

وما إن اعتقل عبدالرحمن فهمى فى حادث مقتل السردار، وما إن جاء زيور إلى الحكم خلفا لحكومة الوفد حتى انهار هذا الاتحاد من أساسه.. واختفى من ذاكرة التاريخ مسجلا الفشل الأول والصارخ لمحاولة البرجوازية قيادة النضال الطبقي للعمال. وفى الوقت الذى كان الشيوعيون والنقابيون اليساريون يهاجمون هذا الاتحاد (الوفدى) ويسمونه «الاتحاد الأصفر»^(٢٣) كان الرجعيون وسلطات الاحتلال يعارضون - هم أيضا - جهود الوفد لكسب نفوذ العمال.

فجريدة الإيجبسيان جازيت (الناطقة باسم سلطات الاحتلال) هاجمت هذا النشاط الوفدى وحاولت التشكيك فيه «لأن حركته لا تحدوها الغيرة على مصالح العمال ولا يديرها عمال - ولأن غرض المشروع هو خدمة صالح أولئك الذين وجدوا لأسباب مختلفة أن الطريق العادى للتقدم مسدود أمامهم، فأخذوا فى البحث عن وسائل أخرى تمكنهم من خلق مراكز تخدم أغراضهم السياسية»^(٢٤).

وربما كان الأهرام أكثر ذكاء عندما أدرك أهمية أن يسيطر الوفد على زمام حركة العمال فرد على الإيجبسيان قائلا:

«إن العمال فى كل بلد محتاجون لمن يأخذ بيدهم فى كل طور من أطوار الانتقال من عهد عتيق إلى عهد جديد»، وقال إن هذه الجريمة ترمى إلى «إيجاد جو هادئ يعيش العامل فيه مطمئن البال راضى النفس بعيدا عن الفوضى والعبث بالنظام»^(٢٥).

لكن الرجعية المصرية ظلت على الدوام فى حذر شديد من أى نفوذ وفدى وسط صفوف العمال المنظمة وربما نبع خوفها من أن يؤثر مثل هذا التلاحم على المحتوى الطبقي والنضالى لحزب الوفد ذاته.

وفى فترة لاحقة - يناير ١٩٢٥ - عندما قرر الوفد بناء على تقرير تقدم به عزيز ميرهم إنشاء المجلس الأعلى للنقابات برئاسة حمدى باشا سيف النصر^(*) هاجت الدوائر الاستعمارية والرجعية ودوائر اتحاد الصناعات.

ونشرت الدليلى تلجراف برقية لمراسلها فى القاهرة جاء فيها: «إن قرار الوفد بإنشاء مجلس أعلى لتنظيم اتحاد العمال يعد فى نظرهم أهم تطور سياسى وقع فى مصر منذ عام ١٩٢٢. لقد أنشأت الحكومة مكتبا للعمل والعمال وقام هذا المكتب بتنظيم حالة العمال تدريجيا على قاعدة سياسية ولهذا يعد ما قرره الوفد من إنشاء مجلس أعلى للعمال بمثابة

سعى منه لاغتصاب سلطة الحكومة وبعبارة أخرى يمكن أن يقال إن الوفد يتحدى وزارة نسيم باشا».(٢٦)

وتحركات الرجعية المصرية أيضا فوجه إسماعيل صدقى رسالة إلى نسيم باشا رئيس الوزراء جاء فيها: «إن الوفد بقيامه بإنشاء مجلس أعلى للعمال إنما يهدف إلى اتخاذ طوائف العمال أداة يستعملها فى أغراضه السياسية»(٢٧).

وقد اهتزت الحكومة بالفعل لقرار الوفد هذا.. ويشير «البلاغ» إلى ذلك قائلا: «اهتم ولاية الأمور بوزارة الداخلية بالقرار الذى أصدره الوفد المصرى منذ يومين بإنشاء مجلس أعلى لاتحاد العمال. وقد اتصل بى أن مستر جريفز مدير مكتب العمل رفع اليوم إلى صاحب الدولة محمد نسيم باشا وزير الداخلية مذكرة بشأن هذا القرار.. وقد قابل حسن بك رفعت (وكيل وزارة الداخلية) صاحب الدولة نسيم باشا صباح اليوم مقابلة دامت أكثر من ساعة ونصف. والمفهوم أن مسألة العمال كانت موضوع الحديث بينهما»(٢٨).

وهكذا ارتكبت الرجعية وسلطات الاحتلال الحماقة الكبرى، فلقد كان الوفد بطبيعة موقفه السياسى وتركيبه الطبقي ومنطلقاته الوطنية هو الحزب البرجوازى الوحيد المؤهل لأن يلعب دورا فى صفوف الطبقة العاملة.. وكانت الحرب التى شنت ضده فى هذا الصدد إشهارا لإفلاس مسبق لأية محاولات إصلاحية أو برجوازية للتسلل لصفوف الطبقة العاملة والتأثير فيها تأثيرا فعالا..

وعلى أية حال فلم يكن الوفد هو الحزب الوحيد الذى حاول أن يلعب دور القائد البرجوازى لجماهير العمال - إذ أنه يبدو أن الغياب المفاجئ للكوادر اليسارية عقب حل الحزب فى ١٩٢٤ ونتيجة للملاحظات المستمرة ضدهم قد أعطى انطبعا بأى ميدان العمل النقابى قد أصبح مستباحا لأى إنسان.. وهكذا تقدمت جميع القوى تحاول أن تكسب لنفسها مكانا فى موقع القيادة الخالى..

وحتى عناصر مثل د. محبوب ثابت حاولت هى أيضا أن تلعب دورا فاشلا فى تكوين اتحاد عمالى بعيد عن السياسة وبعيد عن الأحزاب..

ومحبوب ثابت واحد ممن أسهموا فى الحملة المسعورة ضد اليسار فى عام ١٩٢٤، وفى ١ مارس ١٩٢٤ أصدر بيانا يعلن فيه «براءة سائر أعضاء نقابته (نقابة الصنائع اليدوية) من الشيوعية» ويؤكد من ناحية أخرى «أنه يعطف كل العطف على مطالب العمال العادلة تحت لواء السلم»(٢٩).

وعندما ناقش البرلمان موضوع منع النائب الإنجليزي الشيوعي سكلا تفالاً من دخول مصر كان موقفه استمراراً للموقف السابق فطالب الحكومة بمنعه من الدخول^(٣٠).

وقد نشط محجوب ثابت في عام ١٩٢٧ محاولاً تأسيس اتحاد للعمال بعيداً عن الأحزاب ووجه نداء للعمال جاء فيه:

«أيها العمال: جانبوا الأحزاب لمصلحتكم ومصلحة وطنكم. ولا تكونوا مطايا للأشخاص. احذروا الزعماء والمتزعمين وسماسرتهم المستغلين لا تتحزبوا بل قفوا من الأحزاب موقفاً سليماً»^(٣١).

وإذا كان ظاهر الكلمات هو عزل العمال عن حزب الوفد، فقد كان أساس الدعوة لإبعاد العمال عن السياسة والأحزاب هو محاولة عزل العمال عن إدراك دورهم النضالي والطبقي وحصر كفاحهم في إطار المطالب الاقتصادية وحدها.

وإذا كنا لا نملك الحق في تقييم دور رجل كمحجوب ثابت في عجالة كهذه، فإننا نكتفي بأن نشير إلى علاقاته الوثيقة بإسماعيل صدقي وأن صدقي هو الذي عينه كبيراً لأطباء الجامعة ثم عينه مستشاراً لمكتب العمل، بل لقد رشحه لعضوية النواب عن دائرة بولاق بعد مذبة عمال العنابر وإن كان محجوب قد تخرج من ذلك الترشيح واعتذر عنه^(٣٢).

ويكفي أن محجوب ثابت وصف إسماعيل صدقي بعد كل ما ارتكبه من جرائم في عام ١٩٣٠ بأنه «الرجل الوطني الشديد في وطنيته، القوى المعارضة، الصعب المراس، البعيد النظر، والريان السياسي الماهر»^(٣٣).

لكن محاولة محجوب ثابت لم تكن المحاولة الوحيدة، كما أن فشله لم يكن الفشل الوحيد.

فهناك محاولات أخرى عديدة قام بها أشخاص مثل عزيز بك ميرهم (الوفد)، وداود راتب بك (الأحرار الدستوريين)، وإدجار جلاد باشا (السراي)^(٣٤) لكنها باءت جميعاً بفشل ذريع مسجلة أن الحس الطبقي المرفه لجماهير العمال المصريين كان أعمق من أن يضلل بقيادات برجوازية..

وكانت هناك أيضاً تجربة عباس حليم وهي تجربة طويلة مرت عبر عديد من المنحنيات وأسهمت فيها قوى مختلفة من بينها كوادر اليسار التي حاولت أن تؤيد دعوة عباس حليم كطريق للدعوة لخلق حزب سياسي للطبقة العاملة^(٣٥).

وعلى أية حال فإن تجربة عباس حليم قد عانت هى الأخرى من فشل ذريع. وهكذا وبعد جهود مستمرة ومتعددة بذلتها قوى وتيارات برجوازية عديدة للسيطرة على الحركة العمالية المصرية ابتداء من عام ١٩٢٤ وحتى نهاية الثلاثينيات يأتى مطلع الأربعينيات ليجد الحركة العمالية وهى متجهة من جديد نحو اليسار ولا تكتفى بأن تفرز قادة وكوادر عمالية ونقابية وإنما أفرزت أيضا كوادر سياسية يسارية..

* * *

والحقيقة أن الحركة العمالية لم تتعرض فقط فى هذه الفترة لمحاولات من الغزو الطبقي الخارجى للتسلط على قيادتها، وإنما تعرضت أيضا لغزوات فكرية عديدة حاولت جهد الطاقة إفراغ التحرك العمالى من مضمونه النضالى والسياسى والطبقى.

وقد شارك فى محاولات الغزو هذه كتاب وصحفيون ومفكرون عديدون لكننا سنكتفى بتقديم بعض النماذج التى تقدمت للعمال فى صورة الناصح المخلص والمؤيد المتعقل..

فعندما أضرب عمال النسيج فى عام ١٩٢٧ مطالبين بزيادة الأجور وتحسين شروط العمل كتبت مجلة «الرقيب»: «روت الصحف أن النيابة العمومية أحالت بعض عمال نسيج الحرير إلى قاضى الإحالة توطئة لمحاكمتهم جنائيا وذلك لما نجم عن إضراب عمال النسيج فى الجمالية وما يترتب على هذا الإضراب من الهياج والشروع فى القتل.

ويجب أن يكون مفهوما لدى العمال أنه قد ينال باللين ما لا ينال بالشدّة والعنف، وأن الإضراب سلاح كرهه، يمكن ذوى الدسائس من إشهاره سلاحا للقليل والقال والدعوى بأن الشيوعية وأمثالها متفشية بينهم، ولعمر الحق إنهم أبرياء منها براءة الذنب من دم ابن يعقوب ولعل إخواننا العمال يعقلون، وإنهم لا بد مرتدعون»^(٣٦).

وحتى كاتب مثل أحمد الصاوى محمد نجده يخصص بعضا من «ما قل ودل» للإسهام فى مثل هذا الغزو الفكرى فهو يحث العامل على أنه: «لا يجوز أن يكون فى يد الحكومة أو على الحكومة، وعندما تصبح تلك عقيدة عنده ويأبى أن يستغل باليمين أو الشمال لأهواء سياسية سيصل إلى ما يطمح إليه من احترام جميع طبقات البلاد.

وكل ما نطمح فيه ونتمناه أن يفصل العمال عن السياسة.. وإذا خلص العمال حركتهم من التطرف فى المذاهب الخطرة فإن حركتهم تكون جديدة بكل تشجيع»^(٣٧).

كذلك خضعت الحركة العمالية لمحاولات أخرى من الغزو من قبل تجمعات مثل الإخوان المسلمين أو مصر الفتاة أو تجمعات شبه فاشية كالقمصان الخضر والزرق.. إلخ. لكن الحركة العمالية المصرية استطاعت بأصالتها الثورية وحسها الطبقي أن تكنس ذلك كله، وأن تفرض أسلوبها الخاص في النضال وأن تعزز مكانة قادتها العماليين المخلصين.

ولقد كان الإضراب السلاح الأساسى للطبقة العاملة المصرية.. وثمة دراسة تقول:

«لقد كان هناك إضراب أو تهديد بالإضراب فى كل أسبوع..

وفى سبتمبر ١٩٢٧ أضرب ٢٠٠٠ عامل بكسة حديد الفيوم بسبب قسوة المشرف على العمل، ولم ينته الإضراب إلا بعد طرد هذا المشرف. وما لبث العمال أن عادوا للإضراب فى الشتاء بسبب محاولة الشركة إنقاص الأجور بنسبة ١٠٪.

وفى نوفمبر ١٩٢٧ أضرب عمال غزل الحرير ضد محاولات تخفيض الأجور، وقد احتشد العمال أمام المصنع فى مظاهرة صاخبة وتصدى لهم البوليس واعتقل عددا كبيرا منهم.

كذلك فقد أنهى البوليس بطريقة دموية إضرابا آخر لعمال النسيج بالقاهرة وسجن ٥٠ عاملا.. ونظمت إضرابات عديدة أخرى لعمال السجاير وعمال قناة السويس وعمال المخازن وعمال ميناء الإسكندرية وعمال الإسكندرية، لكن أهم حدث إضرابى شد أنظار الجمهور كان إضراب عمال الترام بالإسكندرية والذى استمر من ٢١ إلى ٢٦ نوفمبر ١٩٢٧، وقد تقدم العمال بالمطالب الآتية:

١- زيادة الأجور بنسبة ٤٠٪.

٢- حق العمال فى العلاج الطبى المجانى.

٣- الحفاظ على حقوق العمال فى حالة انتقال الشركة إلى مالك آخر.

وبينما كانت هذه المطالب معروضة أمام لجنة التحكيم قرر العمال الإضراب، وكان إضرابا شاملا وجماعيا، وقد تقرر الإضراب فى اجتماع عام للعمال، وفشلت كل محاولات الشركة فى تسيير قطارات الترام.. وسرعان ما تدخلت الحكومة وأعلنت أن الإضراب غير مشروع بحجة أنه قد بدأ قبل الانتهاء من عرض الأمر على لجنة التحكيم ومن ثم فقد أصدرت الأوامر للبوليس بل وللجيش بالتدخل لإنهاء الإضراب بالقوة، لكن هذه التهديدات

لم تؤثر فى العمال كثيرا، كما لم يؤثر فيهم قرار الشركة باعتبار كل عامل لا يعود للعمل فورا مفصولا، واستمر العمال فى الإضراب، وتضامن معهم سائقو التاكسى بما أظهر الإضراب بشكل مؤثر فعلا.

ولم ينفذ الإضراب إلا بعد أن أعلنت الحكومة مسئوليتها عن تنفيذ مطالب العمال^(٢٨).

ثم ما لبثت الطبقة العاملة أن شنت فى الثلاثينيات نضالا شجاعا بعضه ذو صبغة سياسية مثل إضراب عمال العنابر فى مواجهة الإرهاب السياسى لحكومة صدقى (قتل فى هذا الإضراب ١٦ عاملا وجرح ١٢٠ - وحوكم ١٢٠ أمام محكمة الجنايات - وفصل ٤٧٧ عاملا)^(٢٩).

وبعضه الآخر ذو صبغة اقتصادية، والحقيقة أن أعوام الثلاثينيات شهدت موجات لا تنقطع من الإضرابات العمالية التى تفجرت نتيجة لمختلف عوامل القهر السياسى والاقتصادى والاجتماعى^(٤٠)، والتى لم يكن من الممكن لأى متزعمين برجوازيين فى صفوف العمال ولا لأى دعاوى برجوازية أن توقف تدفقها الجارف.. ذلك التدفق الذى كان بمثابة الإلهام المستمر للتجمعات الحزبية اليسارية ولقوى المثقفين اليساريين، وكان دليلا حيا ومستمرا على فشل محاولات الغزو البرجوازى وعجزه عن إخماد الروح الثورية فى صفوف حركة الطبقة العاملة.

* * *

وإذا كانت القوى الرجعية قد قاومت أى نفوذ وفدى فى صفوف الطبقة العاملة، فإنها قد قاومت أية اتجاهات إصلاحية أخرى.

والحقيقة أن انتفاضات العمال المتكررة والتى اتخذت فى كثير من الأحوال طابع العنف والتحرك الجماعى الفعال، قد حفزت كثيرا من المفكرين البرجوازيين على الدعوة لانتهاج مواقف إصلاحية تخفف من حدة اندفاع العمال نحو اليسار..

لكن القوى الرجعية كانت لا تزال تعيش بعقلية مطلع القرن، وكانت لا تزال تصمم على أن العامل جاهل ويجب أن يبقى مغمض العينين، وأن أى بصيص من النور خطر يتعين مقاومته، وكانت تصمم على اتهام أية اتجاهات إصلاحية بأنها تحرك بلشفى.

وعندما طالب الإصلاحيون وفى طليعتهم بعض النواب الوفديين مثل حسن نافع وغيره

بسن تشريعات عمالية، وأصدر البرلمان تحت ضغطهم ونتيجة لإلحاحهم قرارا فى عام ١٩٢٧ بتشكيل لجنة لإعداد تشريع عمالى برئاسة عبدالرحمن رضا باشا، رفض اتحاد الصناعات من حيث المبدأ فكرة استصدار أية قوانين عمالية. وأعلن أنه فى حالة الإصرار على سن قوانين عمالية يجب أن تصدر هذه القوانين تدريجيا، كما يجب حمايتها من خطر الآراء الفقهية الهدامة»^(٤١).

وبينما كانت لجنة «رضا» تواصل عملها فى وجه مقاومة ضارية من البرجوازية المصرية شكل «اتحاد الصناعات» لجنة لبحث الأمر ووضعت الشروط التى يراها الاتحاد ضرورية فى حالة البحث فى إصدار أى تشريع عمالى. ومن بين هذه الشروط:

– ألا ينفذ أى قانون عمالى إلا بعد فترة يستعد خلالها أصحاب الأعمال لتنفيذ التشريع.

– ألا يكون للتشريع العمالى أى أثر رجعى.

– ألا تنقل التشريعات الأجنبية، بل يجب عند وضع التشريع أن يراعى مستوى عقلية العمال وقوتهم والمقدرة المالية لأصحاب الأعمال^(٤٢).

وأخيرا انتهى الصراع بأن تجاهلت الحكومة مشروع القانون الذى أعدته لجنة «رضا» وأنفقت فى إعدادها ثلاث سنوات كاملة وضمته ١٠٢ مادة فى ثمانية عشر فصلا..

وكان وأد قانون لجنة «رضا» تعبيراً قاطعاً عن رفض البرجوازية المصرية لأية اتجاهات إصلاحية وتصميمها على مواصلة الاستغلال الشرس للعمال دون أية مراعاة لظروفهم الإنسانية أو المعيشية.. إلا أن النضال العمالى المستمر ما لبث أن أجبر الحكام على الرضوخ للمطالبة بضرورة سن تشريعات تحمى العمال وتنظم علاقاتهم بأصحاب العمل وفى عام ١٩٣٢ شكل المجلس الاستشارى الأعلى لشنون العمال وفى أعوام ٣٤-١٩٣٦ صدرت أول أربعة تشريعات عمالية تنظم أولها تشغيل غير البالغين (قانون ٤٨ لسنة ١٩٣٤)، والآخر تشغيل النساء (قانون ٨٨ لسنة ١٩٣٣)، وتعلق التشريع الثالث بتحديد ساعات العمل فى الصناعات الخطرة (القانون ١٤٧ لسنة ١٩٣٥)، أما الرابع فقد حدد حقوق العمال فى حالات حوادث العمل (القانون ٦٤ لسنة ١٩٣٦) وبرغم قصور هذه التشريعات إلا أنها كانت نقطة تحول مهمة فى تنظيم علاقات العمل^(٤٣).

لكن كل محاولات «الإصلاح» هذه كانت تتم فى مناخ معاد تماما يعتبر أن كل تحرك عمالى هو عمل هدام ومعاد للنظام الاجتماعى.. ويشير أحد الباحثين إلى ذلك قائلا: «وتمثل حالة الرعب هذه فى ذلك البنيان البوليسى الذى شكل «مكتب العمل» عندما أنتشى بمقتضى القرار الوزارى رقم ٤٠ فى ٢٩ نوفمبر ١٩٣٠. فالمكتب أحق بإدارة عموم الأمن العام المختصة بالجريمة والأمن فى البلاد، والتى كان الوجود البريطانى يهيمن عليها. وأسندت رئاسة المكتب إلى أحد مفتشى الداخلية من الإنجليز وهو ر. م. جريفز الذى كان يشغل منصب وكيل عام الإدارة الأوروبية.

وفوق هذا فقد كان القسم المخصوص ممثلا فى تشكيل المكتب وهذا كله رسخ الاعتقاد عند الطبقة العاملة بأن مهمة هذا المكتب هو مراقبتها والسيطرة عليها.. لا حمايتها»^(٤٤). وهكذا قاومت الرجعية المصرية أى نفوذ للوفد فى صفوف حركة الطبقة العاملة.. وقاومت أى تجمع عمالى نقابى أو سياسى حتى ولو كان تحت قيادة نبيل من الأسرة المالكة كعباس حليم..

ورفضت أية محاولات إصلاحية، سواء أكانت تشريعية أو اجتماعية. ولقد أدى هذا الإصرار الرجعى على رفض أى موقف إصلاحى بالعمال المصريين إلى موقف محدد هو رفض النظام ككل، ولم يكن ثمة طريق آخر أمامهم. ولكم هوّن هذا الموقف الرجعى على اليسار كثيرا من المعارك كان يتعين عليه أن يخوضها لو أن البرجوازية نجحت فى إقامة منظمات عمالية تحت قيادتها، أو لو أنها استطاعت نشر دعاوى إصلاحية ناجحة..

وهكذا فإن تحجر العقلية الرجعية قد أغنى القوى الثورية المصرية عن خوض معارك صعبة.. وحدد أمام العمال المصريين طريقا وحيدا هو خوض الصرع الطبقي حتى مد هـ.

الهوامش

- (١) Laqueur - Communism and Nationalism in the Middle East. p36.
- (٢) The Labour Monthly - May 1925.
- (٣) من شهادة إنجرام بك أمام محكمة جنايات الإسكندرية فى قضية الشيوعية عام ١٩٢٤ - الأهرام ١٩٢٤/٢/٢٥.
- (٤) الأهرام ١٩٢٤/٣/١٠.
- (٥) الأهرام ١٩٢٣/٣/١٧.
- (٦) الأهرام ١٩٢٤/٢/٢٥.
- (٧) الأهرام ١٩٢٤/٣/٥.
- (٨) الأهرام ١٩٢٤/٣/٢٧.
- (٩) الأهرام ١٩٢٤/٩/٩.
- (١٠) عبدالعظيم رمضان. تطور الحركة الوطنية فى مصر - دار الكاتب العربى عام ١٩٦٨ ص ٥٤٥.
- (١١) آثار الزعيم سعد زغلول - عهد وزارة الشعب - جمعها ورتبها محمد إبراهيم الحريرى. الجزء الأول. نوفمبر ١٩٢٧ - الطبعة الأولى ص ٢٤١.
- (١٢) اتحاد العمال ١٩٢٤/١١/١٦.
- (١٣) اتحاد العمال ١٩٢٤/٦/١٢.
- (١٤) اتحاد العمال - ١٩٢٤/١١/١٦.
- (١٥) اتحاد العمال - ١٩٢٤/١٢/٢١.
- (١٦) العمال - ١٩٢٤/٤/١٨.
- (١٧) اتحاد العمال - ١٩٢٤/١١/١٦.
- (١٨) اتحاد العمال - ١٩٢٤/٦/١٩.
- (١٩) اتحاد العمال - ١٩٢٥/٢/١٥.
- (٢٠) العمال - ١٩٢٤/٦/٢.
- (٢١) الأهرام - ١٩٢٤/٨/١٦.
- (٢٢) The Labour Monthly - vol.10 - No5 - May 1928.
- (٢٣) Zaki Badaoui - les Problemes du travail et les organisations ovriers p.235.
- (٢٤) The Egyptian Gazette 19-4-1924.
- (٢٥) الأهرام - ١٩٢٤/٤/٢٢.
- (*) تولى الرئاسة فى البداية عباس حليم ولكنه ما لبث أن تنحى تحت ضغط مستر جريفز مدير مكتب العمل.
- (٢٦) ١٩٣٥/٢/١٢.

- (٢٧) عبد المنعم الغزالي - تاريخ الحركة النقابية المصرية - دار الثقافة الجديدة - الطبعة الأولى ١٩٦٨ ص ١٨١.
- (٢٨) البلاغ ١٩٣٥/٢/١١.
- (٢٩) أمين عز الدين - شخصيات ومراحل عمالية - كتاب الجمهورية - ص ٢٧.
- (٣٠) راجع نص مضبطة مجلس النواب - الملاحق.
- (٣١) أمين عز الدين - المرجع السابق ص ٣٤.
- (٣٢) للتفاصيل راجع - رؤوف عباس. الحركة العمالية في مصر. دار الكاتب العربي - ص ٧٨ وما بعدها.
- (٣٣) صالح علي عيسى السوداني - الأسرار السياسية لأبطال الثورة المصرية وآراء الدكتور محجوب ثابت - شركة فن الطباعة (د.ت) ص ٢٠٨.
- (٣٤) رؤوف عباس - المرجع السابق - ص ١٤٣.
- (٣٥) للتفاصيل راجع - د. رفعت السعيد - عصام الدين حفني ناصف. سلسلة طلائع الفكر الاشتراكي - دار الثقافة الجديدة.
- (٣٦) الرقيب - ١٩٢٧/١١/١٠.
- (٣٧) أحمد الصاوي محمد. ما قل ودل. الجزء الأول. مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤ ص ١٢٥.
- (38) The Labour Monthly - vol. 10-No5 - May 1929.
- The Strike wave in Egypt. by. j. B.
- (٣٩) عبد المنعم الغزالي - المرجع السابق - ص ١٦٧.
- (٤٠) للبحث تفصيلا في التحركات الإضرابية في هذه الفترة راجع:
عبد المنعم الغزالي - المرجع السابق ص ١٦٦ وما بعدها.
رؤوف عباس - المرجع السابق ص ٩٨ وما بعدها.
- (٤١) عبد المنعم الغزالي - المرجع السابق. ص ١٦٣.
- (٤٢) المرجع السابق - ص ١٦٤.
- (٤٣) السفارة الفرنسية - القاهرة - تقرير مؤرخ في ٢٥ نوفمبر ١٩٥٠ مرسل من مورييس كوف دي مورفيل سفير فرنسا بالقاهرة إلى وزير الخارجية روبرت شومات - معنون - «الحركة النقابية والعمالية في مصر» - محرر بالالة الكاتبة الفرنسية - مودع بالأرشفيف الخاص بوزارة الخارجية الفرنسية في باريس ومثبت في صدره أنه قد أعد بناء على طلب إدارة قسم أفريقيا الشرقية برسالة مؤرخة في ٢٣ مايو ١٩٥٠.
- (٤٤) د. عبد الوهاب بكر - أضواء على النشاط الشيوعي في مصر ١٩٠١ - ١٩٥٠ - دار المعارف (١٩٨٣) ص ٤١.

...وللضاحين أيضا

وكالعادة.. فقد كان الريف المصرى يعانى أكثر من أى مكان آخر فى مصر. وبالإضافة إلى المعاناة التقليدية، تراكمت فوقه كل اضطهادات عهود الإرهاب والتسلط ابتداء من حكم زيور إلى حكم «اليد الحديدية» إلى حكومة صدقى.. وكانت أزمة القطن وتدهور أسعاره تمثل خاتمة المطاف التى هوت بالريف المصرى إلى حالة الانهيار الاقتصادى الكامل، وتوالى حالات الإفلاس والحجز والبيع الإجبارى بحيث أصبحت أسلويا معتادا.. وارتفعت الأصوات تطالب الحكومة بالتدخل. وحتى تلك الأصوات التى ظلت لعدة سنوات تنشد أغنية عدم التدخل والحرية الكاملة للاقتصاد، عادت لترتفع مطالبة الحكومة بأن تدخل سوق القطن مشتريه.. وبعد تردد طويل - كما تقول جريدة «الاتحاد» لسان حال «حزب الاتحاد».. «أخذت الوزارة تشتري كل يوم حوالى المائة بالة مع أنها قررت مشتري القطن من سوق ميناء البصل لغاية ٥٠٠ ألف قنطار. والقدر الذى كانت تشتريه الحكومة هو دون ما يشتريه كثير من المصدرين كل على انفراد.. فضلا عن ذلك فقد كانت الحكومة تدفع أسعارا دون ما

يدفعه أكثر المصدرين.. فلو أن الوزارة لظمت السكوت لكان الأوفق لأن ضعف مقدار ما تشتريه وتؤديه من السعر أطمع المضارب وهياً له سبيل الغش على أمل هبوط الأسعار بالتدريج»^(١).

وقد تدهورت أسعار القطن إلى حد لم يسبق له مثيل «حتى خسرت البلاد بسبب ذلك نحو ثلاثين مليوناً من الجنيئات المصرية، مما كانت عليه الأسعار فى أول السنة ولا يعلم أحد إلى أى حد تهبط بعد ذلك»^(٢).

وعجز المستأجرون تماماً عن تسديد الإيجارات، وارتفعت أصوات عديدة فى الصحف تطالب «أصحاب الأطنان بتنزيل أجور أطنانهم تفريجا للأزمة وتهوينا لحال الفلاح المستأجر الذى أصبح فى ضيق من جراء هبوط أسعار القطن. وكان سعد باشا زغلول أول من أقدم على هذا العمل الخيرى حيث جمع المستأجرين لأطنانه، وسألهم عما يريهم فى الأجرة، فأجابوا أن تخفيض أجرة الفدان ثلاثة جنيئات يكفى ويزيد ولكن مكارم أخلاقه والمثل الأعلى الذى أراد أن يضربه للكبار والصغار من أصحاب الأطنان حملاً على أن يجيب أولئك المستأجرين بأنه تنازل عن ستة جنيئات من أجرة الفدان»^(٣).

وإذا كان هذا الموقف - الشخصى - من سعد زغلول قد أكسبه «دعاء الآلاف المؤلفة من الفلاحين» كما قالت الأهرام، فإنه لم يحل المشكلة التى كانت تعصف بكيان اريف المصرى.

وعلى أية حال فقد حاول بعض النواب - الوفديين - أن يستصدروا من مجلس النواب قانوناً فى عام ١٩٢٧ «بتخفيض إيجارات الأطنان عن عام ١٩٢٦ بمقدار الربع وما يكون قد تسدد منها يرد بما يوازى هذه القيمة أو تحتسب من إيجار السنة القادمة».

وقد تقدم بهذا الاقتراح النائب محمد حافظ تحتوت أفندى - فهاجمه الأعضاء هجوماً عنيفاً جداً، وقاطعوا أى دفاع عن الاقتراح واتهموه بالدعوة للبشفية.

وساد جلسة مجلس النواب جو غريب من العنف ظهر فى المضبطة الرسمية للجلسة فى صورة مقاطعات مستمرة وضجيج فى مواجهة أى دفاع عن الاقتراح، ثم تصفيق حاد لآى معارضة له..

الأمر الذى دفع أحد مؤيدى الاقتراح وهو حسن يوسف عامر إلى تهديد المجلس قائلاً: «إن نظرية التدخل هى فى الحقيقة أقل النظريات تطرفاً لأن هناك من النظريات

الاقتصادية ما هو شديد الخطر على الهيئة الاجتماعية مثل الاشتراكية والبلشفية، وهما يرميان إلى أخذ الملك من المالك وإعطائه لعامة الشعب (ضجة)، ولست أخال حضراتكم إلا عالمين بالسبب فى وجود هذه النظريات المتطرفة، فهى لم تنشأ إلا لعدم وجود روح العدل والشفقة من الملاك..(ضجة)».

ولم يستطع المتحدث أن يكمل دفاعه وسط الضجيج الصاخب الأمر الذى اضطر رئيس الجلسة إلى التدخل محاولاً تلطيف الجو قائلاً: «أرجو عدم المقاطعة فحضرة الخطيب بين لكم أنه يرى الشفقة بالمستأجرين درءاً لأخطار النظريات الاشتراكية التى أشار إليها»^(٤). لكن انخفاض أسعار القطن وتشدد كبار الملاك وإصرارهم على عدم تخفيض الإيجارات لم يكن كل الكارثة التى تعرض لها الفلاح.

فحكومة صدقى قد عمدت «إلى استخدام الحالة الاقتصادية السيئة وسيلة لإضعاف المقاومة السياسية للجماهير. وقد أدى تدهور أسعار القطن بالمزارعين إلى حد حال بينهم وبين الحصول على المال لتسوية ضرائب أموالهم، فعمدت الحكومة إلى الحجز على مواشيهم وبيعها فى الأسواق العامة بأثمان بخسة لا تدور بخاطر أحد من الناس»^(٥). وتورد جريدة «الأحرار الدستوريين» نماذج من الأسعار التى بيعت بها مواشى الفلاحين وفاء للضرائب:

«بيع ثوران وجاموسة يملكها محمد العقباوى من دراجيل بـ ٨ جنيهات وبيع للسيد فريه من كوم مازن جاموسة بـ ٤١٣ قرشا وبيع ١٠ أرادب ذرة يملكها عبدالعزيز مطر من بشلة بسعر الأردب ٣٦ قرشا. وبيعت حمارة لأحد الأهالى بسوق سرسنا بـ ٧٠ قرشا»^(٦).

وكما رفض مجلس النواب فى عام ١٩٢٧ إصدار قانون بتخفيض الإيجارات.. فقد رفض - فيما بعد - إصدار قانون بمنع الحجز على الضروريات اللازمة للفلاح الصغير ومعيشتة.

إن الصورة البشعة التى قدمتها جريدة «الأحرار الدستوريين» لبيع أخص مستلزمات الفلاح الصغير بأبخس الأسعار، لم تدفع نواب حزب «الأحرار الدستوريين» إلا إلى مزيد من التشدد ورفض أية إصلاحات أو تسهيلات..

فلقد كانت الرجعية المصرية ما زالت متشبثة بنفس الفكرة التى تشبثت بها فى مجال العمال وهى أن أى تنازل لإصلاحى «بلشفية»، وأن مزيداً من القهر ومزيداً من الاستغلال هما السبيل الوحيد لحكم مصر..

ويظل الاتهام «بالبلشفية» معلقا فى رقاب كل دعوة للإصلاح، وحتى الحكومة عندما قدمت فى ١٩٤٠ إلى مجلس النواب قانونا ينص على عدم السماح بالحجز على الضروريات اللازمة للفلاح الصغير ولعيشته، لم تسلم هى الأخرى من الاتهام بالبلشفية. فقد ثار النواب وتتابعوا فى الهجوم على القانون:

- «ليبب أبو قورة بك: هذا القانون ليس له معنى وهو معطل للفلاح الصغير».

- محمود سليمان غنام: إن هذا المشروع فيه تعقيد لشؤون الفلاحين.

- خليل أبو رحاب: هذا القانون يعلم الناس الباطل والتضليل.

- إسماعيل فهمى الشلقانى بك: لا يصح عرض هذا القانون هنا».

أما أحمد عبدالغفار فقد قذف صراحة بالاتهام الذى كانت ترتعد الفرائص خوفا منه فى ذلك الحين وصاح فى وجه ممثل الحكومة قائلا: «أنا أعارض هذه القوانين التى تقدمها لنا الحكومة لأنها قائمة على مبادئ البلشفية»^(٧).

لكن تشدد الإقطاعيين وإصرارهم على رفض أية حلول ولو جزئية أو وقتية لمشكلات الفلاحين وتصميمهم على فرض القهر الكامل والاستغلال الكلى على الفلاحين لم يزد الفلاحين إلا نضالية، بل لعل لعنف الاستغلال الرجعى كان نافعا إلى عنف التحرك النضالى للفلاحين، فالفلاح الذى مارس العنف الثورى إلى أقصى مداه فى ثورة ١٩١٩. والفلاح الذى توجه إليه الاشتراكيون منذ مطلع العشرينيات ببرامج ثورية تطالب بتصفية الإقطاعيات وبتوزيع الأرض على الفلاحين المعدمين والذى مارست الكوادر اليسارية عملا نشيطا فى صفوفه، امتد إلى أعماق الريف فى قرى الصعيد والوجه البحرى^(٨)، هذا الفلاح كان - بالرغم من كل شىء - محورا للنضال السياسى الوطنى حتى بعد أن صفت ثورة ١٩١٩.

فعملية النضال ضد انتخابات زيور كانت فى الأساس نضالا فلاحيا.. ومقاطعة الانتخابات واستقالات العمدة الجماعية وهى تحركات نضالية ألهمت حماس المجتمع المصرى ككل إسهاما فلاحيا فى النضال ضد الاستبداد السياسى ومن أجل احترام الدستور.

والنضال الفعلى ضد إرهاب صدقى كان نضالا فلاحيا وعمه ليا قدم العمال والفلاحون ضحاياهم وتضحياتهم بينما اكتفت البرجوازية بالتشدد بشعاراتها الليبرالية.

لكن الفلاح المصرى لم يكتف بالنضال السياسى، بل لجأ فى كثير من الأحيان إلى العنف الثورى، وواجه طغيان كبار الملاك مواجهة مسلحة..
وثمة أمثلة عديدة لكننا سنكتفى بأن نورد بعضا منها.

* تحت عنوان «الحادث المروع فى بنى سويف» كتبت مجلة «السياسة الأسبوعية» عن أحداث يوم ٢١ يوليو ١٩٢٧ تقول: «قام معاون أوقاف ببا لتنفيذ حكم قضائى لمصلحة الأوقاف ببلدة الشنطور التى بها نقطة بوليس فاعترضه المنتفعون فى هذه الأرض فاستعان بالنقطة إلا أن هذا لم يكن ليحسم النزاع فاضطر إلى طلب النجدة من المركز فأعانه بقوة أخرى. وقام بعدئذ عراك عنيف تبودلت فيه العيارات النارية والنبابت. ولما نما الخبر إلى المديرية قام فى الحال سعادة المدير بالنيابة ومعه الحكمدار ورئيس النيابة وقوة من الهجانة وباشروا التحقيق. وقد انجلت هذه المعركة عن وفاة ثلاثة من الأهالى وإصابة رابع إصابة خطيرة أرسل من أجلها إلى المستشفى، كما أصيب خمسة من رجال البوليس إصابات غير خطيرة»^(٩).

* وبعد أسابيع قليلة تنشر «السياسة» خبرا آخر بعنوان «معركة جسيمة بين البوليس والأهالى» جاء فيه: «أبلغ تفتيش صبيح التابع لمركز ههيا أن خلافا شجر بينه وبين مزارعى التفتيش يدعو إلى التدخل البوليسى، فقامت قوة من المركز لحسم النزاع فاشتبك الأهالى والبوليس فى معركة استعملت فيها الأسلحة النارية وانجلت عن إصابة كثيرين من الفريقين فقد أصيب من الأهالى أنور محمد الشحات إبراهيم حسن هجين، عبدالستار مصطفى الصباغ، إبراهيم حسن الشرقاوى، حسن على الصبحى، على عبدالرحمن سويلم، أمنة بنت عبدالله، محمد عبده، أحمد موسى، مهنى محمد موسى، وقد توفى الأول وحالة الثانى خطيرة. وأصيب من البوليس والخفراء فضل الله خلف الله من قوة الهجانة بمقذوف نارى فى بطنه ومحمد أبوزيد سرور فى رأسه.

وتوفيت غزلان بنت سعيد إذ أصيبت برصاصة قضت عليها فى الحال.
أما من أصيب من الضباط فمأمور المركز موسى أفندى جاد الله إصابة خفيفة.
ومعاون البوليس. وبلغ مجموع المصابين ٣٥ مصابا منهم ٢٨ من الأهالى»^(١٠).

وهكذا خاض الفلاحون العنف الثورى إلى أقصى مداه متمثلا فى المواجهة المسلحة مع كبار الملاك ومع السلطة التى تساندتهم، وقدموا شهداء وشهيدات بغير حصر بعضهم

تحدثت عنه الصحف فى خبر صغير يحفظ لنا ذكرى معركة نضالية شجاعة والكثير طواه نسيان متعمد.

ولقد كانت هذه الانتفاضات الفلاحية المسلحة مثارا لفزع كبار الملاك والسلطة بشكل عام..

وتماما كما تطوعت البرجوازية لتخوض محاولة فاشلة لقيادة الحركة العمالية بهدف كبح جماحها، فقد تطوعت أيضا لتحاول أن تروض الفلاحين وتحد من تحركهم النضالى عن طريق فرض قيادة برجوازية عليهم.

وكان المتطوع فى هذه المرة «إسماعيل مظهر».

وإذا كان الوفد المصرى بزعامة سعد زغلول قد شعر فى عام ١٩٢٤ بأهمية التوجه نحو العمال ومحاولة فرض قيادة وفدية عليهم، فقد كانت محاولة إسماعيل مظهر حثا للوفد على التوجه نحو الفلاحين، مؤكدا ضرورة مثل هذا التوجه كسبيل لكبح جماح حركة الفلاحين وفرض وصاية برجوازية عليها ومنعها من الاتجاه يسارا.

والحقيقة أن «إسماعيل مظهر» كان من الصراحة بحيث لم يحاول إخفاء هدفه.. ففى «مشروع تأسيس حزب الفلاح المصرى» الذى وجهه إلى مصطفى النحاس رئيس الوفد قائلا: «بالصفة العليا التى لكم فى هذه البلاد كرئيس للوفد المصرى وخليفة للزعيم الأكبر المغفور له سعد زغلول باشا والمدافع الطبيعى عن الديمقراطية الحقيقية، وبحكم أنكم الزعيم الأول للأغلبية الساحقة من المصريين أتقدم إليكم بهذا المشروع...» ثم اختتمه بعبارة «خادمكم المطيع»^(١١).

فى هذا المشروع أكد إسماعيل مظهر «أن الفلاح لن يقنع بنقابات زراعية ولا غرف زراعية تظل على ضعف وعلى خطر من الانحلال ما دامت تفقد السند الذى يمكن أن يعضدها فى الحياة وهو القوة السياسية، ونحن نطلب للفلاح القوة السياسية باعتبارها أساس الإصلاح الاجتماعى قانعين بأن الإصلاح الاجتماعى شىء ونضال الطوائف [يقصد صراع الطبقات] شىء آخر».

وفى المذكرة التمهيدية المرفقة بالبرنامج يقول: «وإذا علمنا أن هذا النظام من شأنه أن يجعل الطبيعة عنصرا قويا فى تكوين الأسباب التى تفضى إلى الأزمات الاجتماعية الكبرى، شعرنا إلى أى حد بلغت بنا الحاجة إلى تكوين حزب اجتماعى يكون أساس

الإصلاح فيه فلاح مصر باعتباره الأكثرية العظمى، وأنه أصل الثروة، كما أنه لا يجب أن يغيب عن أذهاننا أن إهمال تكوينه سوف يكون عما قريب أساس القلق الاجتماعى».

وأخيرا فهو يحدد بشكل أوضح الهدف من مشروعه قائلا:

«لهذا وجب علينا أن نبحث فى أمثل الطرق والوسائل التى تحمينا من الانقلابات الفجائية والتى تصد عنا سيل الأفكار المتطرفة الحديثة التى تفيض علينا بها دوليات أوروبا الشيوعية.. وإنى لشديد الاقتناع بأن تنفيذ مشروع حزب الفلاح المصرى على القواعد التى وضعتها فى مبادئه كفيلة بأن تحمينا هذه الشرور».

وفى نصوص البرنامج ذاته مادة خاصة بعنوان «محاربة المبادئ البلشفية» تقول: «تقوم الشيوعية والبلشفية على مبادئ خيالية - مساواة - إخاء - حرية - فالمساواة تنافى الحرية والحرية تقتضى المنافسة المشروعة بين الأفراد، فهى بذلك تنافى الإخاء على المعنى الشائع الذى يلوح به الشيوعيون للناس».

إذن فهو أساس للفوضى الاجتماعية ودواء دلت التجارب على أنه غير ناجع فى شفاء الأمراض الاجتماعية التى نشأت مع حلول العصر الإنتاجى الحديث.

لهذا يحاربها حزب الفلاح المصرى بكل قوة لأنها تنافى مبادئ القائمة على اشتراك الناس فى فرص الحياة وتقوية مبادئ الفردية».

وبالرغم من الصبغة «الإصلاحية» السافرة للمشروع الذى قدمه إسماعيل مظهر..

وبالرغم من تأكيدات القاطعة بأن هدفه الأساسى هو «حماية» الفلاح من خطر الاتجاه يسارا..

وبالرغم من أن البرنامج الذى قدمه جاء خلوا من أية مطالب ثورية، أو شبه ثورية..

وبالرغم من أن أقصى تطرف لجأ إليه البرنامج كان حديثا عن تحديد الحد الأقصى للملكية الزراعية بخمسائة فدان.. وبشرط أن يتم ذلك دون أى تدخل قانونى أو حكومى وإنما بمجرد الانتظار لأن تفعل أحكام المواريث فعلها الطبيعى فى تقسيم الملكيات الكبيرة..

«والمقترح أن تحدد الملكية فى النهاية القصوى بخمسائة فدان يملكها رأس عائلة وأولاده فى حال حياته، وبحكم التوريث بعد الوفاة نصل من غير احتياج للقيام بأعمال يشعر معها الناس بعسف إلى هذه النتيجة. فمن يملك ١٠,٠٠٠ فدان تقسم بعد وفاته

على اثنين فيملك كل منهما ٥٠٠٠ ثم تقسم على عشرة بعد وفاتها وبهذا نصل إلى النتيجة المرغوب فيها من غير حاجة للاتجاء إلى عمل غير عادى أو نزع قهرى للأملك».

أقول إنه بالرغم من ذلك فإن الرجعية المصرية قد وقفت من محاولة إسماعيل مظهر موقف العداء تماما مثلما وقفت موقف العداء من الاتجاهات الإصلاحية فى صفوف العمال..

ذلك أن عبارة «حزب الفلاح» كانت فى حد ذاتها خروجاً عن كل تصورات الرجعية المصرية وآمالها فى حكم مصر حكما يستند على القهر.. وعلى القهر وحده.. وكانت حدود الإصلاحات المسموح بها فى نظر كبار الملاك المصريين تقف عند حد «ردم البرك والمستنقعات وتعميم المياه الصالحة للشرب»^(١٣).

أما عندما طالب مريت غالى «بتأسيس المعهد الوطنى للبناء والتجديد».. وتواضع فطالب بأن تقتصر عمليات البناء «على إعادة بناء القرى التى يدمرها الحريق، وقد تحترق كل سنة قرية أو قريتان فينتهز المعهد هذه الفرصة لإنشائها على ضار أن يتفق وحاجة التقدم الاجتماعى فى بلادنا»^(١٤).

فإن الرجعية المصرية تعرب عن انزعاجها ورفضها القاطع لهذه الدعوة «الخطرة». ويدلى قلبنى فهمى باشا بحديث إلى «مجلة الأدب الحى» يقول فيه «أما الفلاحون الصغار أو الأجرية فأهم شىء يلزم عمله لإصلاح حالهم وتحسين معيشتهم هو ردم البرك والمستنقعات المحيطة بمساكنهم إنقاذاً لمصلحتهم من الأمراض التى تتولد بها. كذلك يجب إنشاء دورات مياه صحية فى كل قرية، وإمدادهم بمياه نقية صالحة للشرب. هذه هى أهم المطالب. أما النغمة القائلة بتشديد القرى النموذجية وتجهيز بيوتها بالغرف الرحبية والحمامات البديعة فضلاً عن إنارتها بالكهرباء، وتزيينها بالمقاهى وأماكن اللهو والتسلية، فهذه مظاهر لا تفيد الفلاح بل تفسده لأنها تؤخره عن عمله وتدعوه إلى النفور من طبيعته الخشنة التى ألفها وتعود عليها أباًؤه وأجداده»^(١٥).

وهكذا ووجهت محاولة «إسماعيل مظهر» بالتجاهل من حزب لوفد، وبالرفض القاطع والحرب العنيفة من كبار الملاك المصريين..

وإذا كان رد الفعل الذى نجم عن مثل هذا الموقف من حركة العمال هو اتجاه العمال إلى الموقف الوحيد المتاح وهو اليسار.

فإن الغريب فى الأمر هو أن «إسماعيل مظهر» نفسه هو الذى اتجه يسارا تحت تأثير هذا الرفض القاطع من جانب الرجعية المصرية..

لقد تبنى المحاولة فى البداية حتى يعوق اتجاه الفلاح نحو اليسار.. لكن تجاهل الوفد وعنّف الحرب التى شنتها الرجعية ضد فكرته، هذا بالإضافة إلى أن يد اليسار قد امتدت إليه ممثلة فى أحد قادة الاتجاه اليسارى فى ذلك الحين هو عصام الدين حفنى ناصف.. كل ذلك دفع بالرجل إلى موقع أقرب من اليسار. وفى تلك الأثناء كان عصام ناصف منشغل البال بفكرة تأسيس حزب اشتراكى، أو حزب عمالى وكان على اتصال بعدد من الشخصيات العمالية منها محمود محمد ناصر مراقب نقابة الصنائع اليدوية بالإسكندرية وعدد آخر من العمال^(١٥). وكان طبيعيا أن تلتقى هذه المحاولة بمحاولة «إسماعيل مظهر» لتأسيس حزب فلاحى. وتم اللقاء أولا فى صورة مقالات عن الماركسية كتبها عصام على صفحات مجلة «العصور».

ثم استطاعت هذه المجموعة التى يتزعمها عصام أن تقنع «إسماعيل مظهر» بأن يعملوا سويا لتأسيس «حزب للعمال والفلاحين». وبالفعل أعد عصام برنامجا جديدا.. يختلف اختلافا جذريا عن برنامج إسماعيل مظهر السابق، فهو وثيقة غاية فى الثورية وغاية فى التقدمية تتخذ مواقف ومنطلقات تختلف تماما عن أفكار إسماعيل مظهر السابقة. فهى تتضمن مطالب مثل:

– القضاء على الاستعمار البريطانى وكافة النزعات الاستعمارية فى جميع بلدان العالم.

– تحرير الطبقات العاملة فى مصر من عمال وفلاحين، مع تقليل الفوارق بين الطبقات الاجتماعية. وجعل هذه الفوارق قائمة على أساس الاجتهاد والمنفعة للجميع.

– بث الأفكار الديمقراطية وروح المساواة العامة فى الشعب.

– التكاتف مع الأمم المستعبدة ولا سيما الأمم الشرقية والعربية على محاربة الاستعمار.

– عدم التعاون مع المحتلين إطلاقا ومقاطعة التجارة البريطانية.

– قيام الحكومة بإصلاح أراضيها البور وتوزيعها على صغار المزارعين.

- فرض ضرائب متدرجة على الدخل والميراث.
- حماية العمال والفلاحين بقوانين تحدد أجور وساعات العمل، وتحتم على أصحاب المزارع والمصانع بناء مساكن صحية مريحة للعمال.
- مجانية المعالجة للطبقات العاملة الأجير.
- جعل التعليم مجانيا بجميع درجاته.
- إلغاء الرتب والنياشين.
- تحديد الملكية الزراعية.
- القيام بنشر الدعوة لإظهار بشاعة الحروب الاستعمارية وغرس روح الإخاء الشعبى بين الأمم^(١٦).

وقد نشر هذا البرنامج موقعا باسم إسماعيل مظهر نيابة عن «الجنة التحضيرية لحزب العمال والفلاحين».

والغريب فى الأمر أن كثيرا من الدارسين لم ينتبه إلى هذا التغيير الجذرى الذى طرأ - وخلال فترة وجيزة جدا - على مواقف ومنطلقات إسماعيل مظهر..

وحتى ابنه الأستاذ جلال مظهر لم ينتبه إلى هذا التغيير وتصور أن هناك برنامجا واحدا وليس برنامجين فقال فى مقال نشرته جريدة الأخبار «ومما جاء فى مبادئ الحزب التى نشرت بمجلته «العصور» فى أكتوبر سنة ١٩٢٩ ثم فى يونيو ١٩٣٠ ما يأتى^(١٧): ثم أورد بعض فقرات برنامج يونيو ١٩٣٠.

وعلى أية حال فإن مقارنة البرنامجين تغنى عن أى جدال فهما وثيقتان مختلفتان تمام الاختلاف فى كل شىء..

وفى نفس الوقت الذى نشر فيه «إسماعيل مظهر» البرنامج الجديد فى عدد يونيو من مجلة العصور، قام محمود محمد ناصر مراقب نقابة الصنائع اليدوية بطبعه فى منشور قام بتوزيعه موقعا باسمه فى الدوائر العمالية الأمر الذى أدى إلى القبض عليه وإتهامه بالترويج للأفكار البلشفية.. ويعترف محمود ناصر فى التحقيقات بأنه اشترك فى محاولة لتأسيس حزب العمال والفلاحين وبأنه قد طبع بيانا من ألف نسخة يدعو فيه إلى تأسيس هذا الحزب ووزع معظمها^(١٨).

* * *

وعلى أية حال فإن محاولة إسماعيل مظهر لم تكن الوحيدة فى هذا المجال فثمة محاولات أخرى قام بها عدد من المثقفين الإصلاحيين الذين كونوا «جمعية نهضة القرى»

فى عام ١٩٣٣ ثم استقال أحد أقطاب الجمعية - وهو أحمد كامل قطب - ليعلن عن تأسيس «حزب الفلاح الاجتماعى والاقتصادى» تأكيدا لبعد الحزب عن السياسة^(١٩). كذلك فإن كثيرا من المفكرين قد ساءت حاله الفلاح المصرى فأسهموا بأقلامهم فى الكتابة عن مشكلاته.

إن مراجعة قوائم الكتب الصادرة فى هذه الفترة تقدم لنا نماذج لا تحصى من المحاولات التى بذلها المثقف المصرى لتفهم قضايا الفلاح ومشكلاته والبحث عن حلول لها^(٢٠).

لكن كل هذه المحاولات سواء تلك التى اكتفت بالتعبير عن نفسها فى صورة مقال أو كتاب أو تلك التى اتخذت طريق الدعوة لتأسيس أحزاب أو جمعيات فلاحية، قد لقيت - جميعا - الصمود والنكران من جانب الرجعية المصرية التى لم تتوان عن توجيه تهمة «البلشفية» ضد أية محاولة إصلاحية..

الأمر الذى دفع عصام ناصف إلى الكتابة قائلا: «لعل السادة الأغنياء والنواب المحترمين يفهمون - قبل فوات الوقت - أن الترويج للمبادئ البلشفية وتحبييها للقلوب لا يكون بالمطالبة بهذه الإصلاحات الطفيفة التى إذا نحن رضينا بها فليس ذلك على أنها إصلاحات حقيقية، بل على أنها دلالة على التفكير نحو الإصلاح ليس إلا.

وإن ما يتركه هذا الترويج بإفهام البائسين الذين يحسون مسيس الحاجة إلى الإصلاح أن الإصلاح قرين البلشفية، وأن فرض ضريبة الأيلولة على تركات الأغنياء.. بلشفية، وأن نشر التعليم الإلزامى.. بلشفية، وأن تعليم البنات.. بلشفية، وأن محاربة البذخ والتبذير.. بلشفية، وأن المطالبة بترقية أحوال العمال والفلاحين والجنود.. بلشفية.. وعلى ذلك فإن حضرات النواب المحترمين لا يخدمون أنفسهم ولا طبقتهن حين يكثر من ترديد الاتهام بالبلشفية»^(٢١).

وهكذا ومرة أخرى تثبت الرجعية المصرية افتقارها إلى الذكاء والمرونة الكافية لاستيعاب الاتجاهات الإصلاحية والاستفادة منها.

وكانت النتيجة المنطقية كما قلنا هى اتجاه كثير من القوى التى ترفض الأوضاع القائمة آنذاك.. إلى اليسار.

الهوامش

- (١) الاتحاد - ١٩٢٦/١/١٤.
- (٢) أحمد شفيق باشا - حوليات مصر السياسية - الجزء الثالث - طبعة سبتمبر ١٩٢٩ ص ١٩٦.
- (٣) الأهرام - ١٩٢٦/١٠/٣٠.
- (٤) مضبطة الجلسة السابعة عشرة لمجلس النواب يوم ١٩٢٧/١/١٠ - الطبعة الرسمية - ص ٢٣٦.
- (٥) د. محمد حسين هيكل، إبراهيم عبدالقادر المازنى، محمد عبدالله عنان - السياسة المصرية والانتقال الدستورى - مطبعة السياسة عام ١٩٣١ ص ٥٦.
- (٦) الأحرار الدستوريين ١٩٣١/١/٢.
- (٧) التطور - مايو ١٩٤٠.
- (٨) لمزيد من التفاصيل راجع د. رفعت السعيد - تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ - ١٩٢٥ - المرجع السابق - ص ٢٠٣ وما بعدها.
- (٩) السياسة الأسبوعية - ١٩٢٧/٨/٦.
- (١٠) السياسة الأسبوعية - ١٩٢٧/١٠/٢٩.
- (١١) العصور - الشهرية - أكتوبر ١٩٢٩، حيث نشر البرنامج والمذكرات الملحقه به. وقد أعادت «الطلیعة» نشر هذا البرنامج فى عدد مارس ١٩٦٥.
- (١٢) اليد القوية - خطب وأحاديث حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا منذ أسندت له رئاسة مجلس الوزراء - مطبعة الإسكندرية عام ١٩٢٩ ص ٢٧.
- (١٣) مريت بطرس غالى - سياسة الغد - برنامج سياسى واقتصادى واجتماعى - مطبعة الرسالة بالقاهرة - ص ١٠٦.
- (١٤) قلبنى فهمى - آراء وذكريات فى السياسة والاقتصاد والاجتماع - صفحة (ع).
- (١٥) د. رفعت السعيد. عصام الدين حفى ناصف. المرجع السابق - ص ٦٥ وما بعدها.
- (١٦) العصور - يونيو ١٩٣٠.
- (١٧) الأخبار - ١٩٦٢/٣/١٥.
- (١٨) ملف القضية رقم ٣٤٤ كلى لسنة ١٩٢١ محكمة جنايات الإسكندرية. دير يوليو.
- (١٩) قام المؤلف بتجميع الوثائق الخاصة بهذه المحاولات ونشرت كاملة فى مجلة الطليعة - القاهرية - عددى أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٧٠.
- (٢٠) راجع - عابدة إبراهيم نصير - الكتب العربية التى صدرت فى مصر بين عامى ٢٦-١٩٤٠ رسالة ماجستير - غير منشورة.
- (٢١) التطور - مايو ١٩٤٠.

...الفاشست ينشطون

«الفاشيزم مدينة بنجاحها إلى مساعدة الظروف والأحوال، إذ فزع المتمدلون فى إيطاليا من عجز الحكومة عن قمع الحركات الشيوعية فى البلاد والتفوا حول الفاشست حيث رأوا أن تحميل عبء مطاردة الشيوعية على عاتق الفاشست أولى من تركه إلى الحكومة التى كانت عمياء فوق ما هى ضعيفة. ولا ريب فى أن الفاشزم لو لم تكن مؤلفة من رجال شديدى البأس والعزيمة لما كانت تنال هذا الفوز الباهر فى وقت قليل»^(١).

وهكذا تنحدر الرجعية المصرية فى حربها العنيفة ضد اليسار لتلجأ إلى الدعاية للفاشية فى محاولة للإيهام بأن الفاشية هى السبيل لصد تيار اليسار.. ولقد كان هذا التصور سبيلا لسلسلة من المقالات والكتابات التى سعت إلى تمجيد الفاشية «أصبح موسولينى حديث أوروبا بأسرها بل العالم أجمع. وهو فى الحقيقة من أعظم رجال هذا العصر إن لم يكن أعظمهم طرا. وقد أتى منذ توليه زمام الأمور فى إيطاليا أعمالا مجيدة وجعل الشعب الإيطالى يقلع عن كثير من العادات القديمة التى كادت تؤدى بإيطاليا إلى الثورة والخراب»^(٢).

وهكذا أصبح موسوليني ملهما لكل أعداء اليسار ونموذجا يتعين السعى لخلق مثيل له لكبح جماح الشيوعيين «فأوروبا تنبعت إلى ما تقدم، وكان لها من قيام الفاشست فى إيطاليا ونهوضهم بهذه البلاد التى كادت تهوى إلى هاوية الشيوعية ويتقوض عمرانها عبرة اتخذها الأوروبيون مثلا يحتذونه، خصوصا بعد الذى شاهدوه من صنيعها واستتباب الأمن وإطلاق الحرية الشخصية حتى شخّصت إلى هذه الحركة الأبصار ودارت عليها المباحث فاستنتجوا من نجاحها ما يجب الاقتداء به. وعليه قامت طوائف من الأوروبيين فى مختلف البلدان إلى تأليف الجمعيات الفاشستية وصارت عندهم رمزا إلى حب العمل والإخلاص إلى النظام.. وهذا انتصار اجتماعى نالت به إيطاليا نورا كبيرا أكسبها ميل الشعوب الأوروبية وأهلها محل الاحترام عندهم. وقد سمعت كثيرين يعربون عن الأسف على أن لا يكون عندهم موسوليني من أهل بلادهم ليسير دفة البلاد إلى العمل والنجاح»^(٣).

وليس الأمر بحاجة إلى تعليق، فإن الكاتب يدعو ويلح ويتوسل باحثا عن «موسوليني مصرى» يخلص البلاد من مخاطر الثورة..

ولقد كان كل مجد موسوليني عند الرجعية المصرية يتلخص فى أنه «أسكت المعارضة فى البرلمان الإيטالى. وصان بذلك حياة المملكة التى كانت جرائدها ولسان معارضتها تقودها بخطوات سريعة نحو البلشفية»^(٤).

كذلك تنشر جريدة المحاكم المختلطة مقالا جاء فيه: «بينما مصر تتسلح بما لديها من قوانين مكتوبة وغير مكتوبة للدفاع عن كيانها إزاء الدسائس الشيوعية قد يكون مفيد إلقاء نظرة إلى الحرب العوان التى أعلنها الفاشست فى إيطاليا على العدو المشترك»^(٥).

ومن الطبيعى أن يتطور مديح الفاشية إلى الهجوم على الديمقراطية ذاتها.. «فهذا التيار الجارف الذى بدأ فى إيطاليا أخذ بالانتشار شرقا وغربا ودفع الديمقراطية التى لم تعد تصلح لحكم الشعوب»^(٦).

وهكذا فإن تمجيد الفاشست هجوما على اليسار المصرى قد تطور ليصبح هجوما على كل القوى الديمقراطية.

ويبدو أن مثل هذا الهجوم قد تردد من فوق منبر البرلمان المصرى الأمر الذى دفع محمد حافظ رمضان إلى أن يصيح من فوق نفس المنبر قائلا: «نحن لا نريد أن نعيش كما

تعيش بلاد أخرى - مهما وصلت مدنيتهما - تحت نظام دكتاتوري كنظام إيطاليا ونحن ديمقراطيون ولنا مجلس نيابي.

إن ذكر الدكتاتورية من فوق هذا المنبر والاستناد إلى أعمالها في البلاد الأخرى ليس من الحكمة السياسية ولا من التربية البرلمانية التي نريد أن نتعلمها ونسير عليها». والغريب في الأمر أن الرجعية المصرية قد تساهلت إلى حد السماح للفاشست الإيطاليين بتكوين تنظيمات لهم وسط الجالية الإيطالية في مصر..

ولقد تابعنا في الجزء الأول من هذه الدراسة النشاط الواسع الذي لعبه الاشتراكيون الإيطاليون وسط هذه الجالية الكبيرة العدد في مصر، وكيف أثروا أيضا في نشاط اليسار المصري في مطلع القرن العشرين، وكيف أسهموا في تأسيس الحزب الاشتراكي عام ١٩٢١.

ولقد كان الاشتراكيون الإيطاليون مصدر قلق بالغ للرجعية المصرية، فأطلقت ضدهم التنظيمات الفاشية.

وثمة إشارات في صحف هذه الفترة إلى وجود هذه التنظيمات الفاشية من بينها خبر أوردته اللطائف المصورة يقول: «.. صورة الطائرة الإيطالية البحرية التي وصلت إلى مصر يوم الجمعة الماضي في طريقها إلى مصوع. وقد حطت رحالها على ضفة النيل المبارك وأقبل شبان الفاشست الإيطاليين في القاهرة للاحتفال بطياريتها»^(٧).

والحقيقة أن موسوليني قد بذل جهده للاستفادة من هذه الفرصة المتاحة أمامه في مصر فنشط في تأسيس المدارس الإيطالية في عدد من المدن المصرية ليلقن فيها الطلاب من إيطاليين ومصريين أمجاد الفاشست، وهكذا حلت هذه المدارس محل «الجامعة الشعبية» التي أنشأتها قوى اليسار الإيطالي في الإسكندرية في مطلع القرن العشرين لتكون منارة للفكر الاشتراكي.

وكما وجد موسوليني من يدعو له.. وجد هتلر هو الآخر دعاة نشيطين فثابت ثابت يصدر ملحقا خاصا من مجلته «الفلاح الاقتصادي» بعنوان «ألمانيا اليوم.. أدولف هتلر». وبطبيعة الحال فقد كانت أهم أمجاد هتلر هي ضرباته ضد البلاشفة..

«أخذ المستشار هتلر بالعمل في غير توان في التعمير والتهديب وتدعيم قوة الرايخ والدفاع عنه من أخطار البلاشفية، والبلاشفيون يقيمون العثرات في سبيل الحكومة بأعمالهم

الإرهابية وبالدعاية المزيفة. ثم جاء حادث البرلمان وكان الحادث الأخير فيما يدبره البلشفيون، ولم يكن الأوحد فرأى هتلر حل الريشستاغ. وفى ٢١ مارس ١٩٣٣ انعقد البرلمان الجديد وذهب هندنبرج إلى كنيسة بوتسدام وهناك عند ضريح فريدريك الكبير قال قوله المشهور «استيقظت ألمانيا، لتعود إلى تقاليدنا الشريفة القديمة»^(٨).

إن نظرة على سيل الكتب التى صدرت خصيصا لتمجيد النازية والفاشية والدعوة لها لتوضح لنا مدى عمق هذه الحملة واتساعها.. ولنورد بعض الأمثلة.

- أحمد محمد السادات - أدولف هتلر زعيم الاشتراكية الوطنية مع بيان المسألة اليهودية - عام ١٩٣٤.

- محمد لطفى جمعة - بين الأسد الأفريقى والنمر الإيطالى - عام ١٩٣٥.

- رياض جيد - الإمبراطورية الإيطالية - عام ١٩٣٧.

- فتحى رضوان - موسولبنى - عام ١٩٣٧.

- محمد صبيح عبدالقادر - هتلر - عام ١٩٣٧.

- ثابت ثابت - ألمانيا اليوم - عام ١٩٣٨^(٩).

وكان لا بد لهذه الموجة من الدعاية التى شجعتها الرجعية المصرية عن عمد أن تجد لها أثرا فى أوساط عديدة..

فعباس حليم يعمل «على تشكيل فرق خاصة من الشباب يطلق عليها اسم «جيش الخلاص» تلقت تدريباً عسكرياً شبيهاً بنظام الكشافة وألحق بها الشباب من طلبة المدارس وفرض على الأعضاء تحية خاصة برفع اليد»^(١٠).

كذلك نمت هذه الاتجاهات فى عدد من التنظيمات الحزبية الصغيرة مثل مصر الفتاة والحزب الوطنى. بل إن حزب الوفد قد انجرف هو أيضاً فى هذا التيار الخطر.. وثمة وثيقة مهمة من وثائق وزارة الخارجية البريطانية^(*) تتحدث عن محاولة الوفد هذه فتقول «فقرة ٢٠٦: اتخذ مؤتمر الشباب الوفدى قراراً فى ٩ يناير بتأسيس منظمة للشبيبة على النهج الفاشستى وقد أيد الوفد هذا الاتجاه بعد أن وجد أن أحزاب الأقليات قد بدأت فى تجنيد عديد من الطلاب فى تنظيمات فاشستية بهدف حشدهم فى حركة مناهضة الوفد.

فقرة ٢٠٨ - تأسست لجنة من حزب الوفد لتنظيم وإعداد القمصان الزرق الذين وصلتنا تقارير تفيد أن عددهم قد بلغ فى يوليو ١٠,٠٠٠ شخص والذين تقوم نسبة

ضئيلة منهم بنشاط جدى وقد تكونت لجنة من ثلاثة من الضباط السابقين للإشراف على التدريب العسكرى. واختير النحاس باشا رئيسا للحركة.

فقرة ٢٠٩- وفى يوليو قام القائد العام بتحذير مكرم عبيد من السماح لهذه الحركة بالنمو دون رقابة.. ورد الأخير بأن تعليمات قد صدرت لقادة القمصان الزرق بأن يوجهوا نشاطها نحو المسالك القانونية فقط مثل الرياضة وأعمال الكشافة. وأشار مكرم عبيد إلى أن الحزب حريص على ألا يتولى أحد السياسيين أى منصب قيادى فى القمصان الزرق.

لكن هذه التأكيدات لم تنجح فى أن تمحو أو حتى أن تقلل من خوف المسؤولين المصريين من تطور هذه الحركة..

وهكذا فإن البعبع الذى صنعتة الرجعية المصرية وأطلقتة ليرهب حركة اليسار قد انقلب ليخيفها هى.

والحقيقة أن الفاشست قد جعلوا من القاهرة واحدا من أهم المراكز لتجسسهم ونشر نفوذهم فى المنطقة وثمة معلومات بالغة الأهمية فى هذا الصدد توردها مجلة: The Communist international فى مقالة مهمة عن «الدعاية الفاشستية فى الشرق الأدنى» وقد جاء فيها «أن القاهرة هى أحد المراكز الرئيسية للتجسس لحساب الفاشست الإيطاليين والألمان وفى اجتماع عقده العملاء الفاشست فى القاهرة وضعت خطة عامة لنشر الدعاية الفاشستية فى الشرق الأدنى.. وقد رصدت وزارة الدعاية الألمانية مبلغ ٣٠٠٠ جنيه إسترليني شهريا للدعاية الفاشستية بالقاهرة. إن القطن المصرى وأرض وادى النيل الخصبة تداعب جفون وأحلام كلا من هتلر وموسيلينى. إن الدعاة الفاشست يرددون للجماهير المسلمة دعايات تقول إن الكثيرين من الألمان والإيطاليين قد اعتنقوا رسالة محمد.. وهم يوزعون كتاب «كفاحى» باعتباره قرآنا جديدا».

ويمضى المقال متحدثا عن آلاف الجواسيس الألمان الذين يعيشون فى منطقة الشرق الأوسط ثم يقول: «وفقا لما أوردته الصحف التركية فإن فى مصر وحدها ما يزيد على ٣٠٠ جاسوس.. كما أن الدعاية الفاشستية تساند أيضا فكرة معاداة السامية»^(١١).

وثمة وثائق عديدة أودعتها الخارجية البريطانية بالمتحف البريطانى (لندن) تشير إلى علاقات وثيقة بين ألمانيا النازية وكل من القصر الملكى (البندارى باشا، على ماهر باشا

وصهر الملك فاروق) وجماعة الإخوان المسلمين، بل إن الاستيلاء على وثائق بنك (درسندر بنك) الألماني بعد الحرب العالمية الثانية قد كشف وجود علاقات مالية أيضا كان على ماهر وعزام باشا والإخوان المسلمون طرفا فيها.

والحقيقة أن هذا النشاط الفاشي كان في ذاته حافزا لنشاط ديمقراطي مضاد. وتجمع آلاف من العناصر المناهضة للفاشية وللعداء للسامية والمناصرة للديمقراطية والتحرر وتحذر من خطرهما. ومن هذا الخضم الجديد نبتت تجمعات يسارية كانت إرهابا موجة التنظيمات الجديدة.

كذلك فإن انغماس يسار الثلاثينيات في النضال ضد الفاشية قد دفع دوائر الاحتلال إلى أن تغمض عينها عنه لبعض الوقت مستفيدة من حركته ضد الفاشية.

بل إن الإنجليز وجماعتهم «إخوان الحرية» قد اتصلوا بكورييل والنادي الديمقراطي يطلبون «تعاوننا» في النضال ضد الفاشية، وإذا كان كورييل قد رفض مثل هذا التعاون^(١٢) فإن الذي لا شك فيه أن معركة النضال ضد الفاشية كانت فرصة لطلائع اليسار الجديد أتاحت لهم إمكانية العمل العلني الواسع النطاق والتمتع بتغاضي الحكام إلى حد ما لفترة كافية من الوقت مكنتهم بالفعل من أن يجدوا الفرصة الكافية للانطلاق نحو تأسيس منظمات ماركسية..

ومرة أخرى، فإن حسابات الرجعية تنقلب رأسا على عقب، فإذا كان «البعيع الفاشي» قد أطلق ليخيف اليسار، فإن الانغماس في محاربته قد مكن اليسار من أن يقيم لنفسه قواعد راسخة ساعدته على أن يبدأ من جديد موجة من النشاط المنظم.

الهوامش

- (١) كل شيء - ١٧ مايو ١٩٢٦.
- (٢) اللطائف المصورة - ٢٨ فبراير ١٩٢٧.
- (٣) ملحق مجلة الفلاح الاقتصادي. سبتمبر وأكتوبر ١٩٣٨.
- (٤) قسطاكي إلياس عطارة - تاريخ تكوين الصحف المصرية - مطبعة التقدم - عام ١٩٢٨ ص ١٩٧.
- (٥) نقلا عن: الأهرام ١٩٧٤/٩/٨.
- (٦) قسطاكي عطارة - المرجع السابق - ص ٢٤٧.
- (٧) اللطائف المصورة - ٧ مارس ١٩٢٧.
- (٨) ملحق مجلة الفلاح الاقتصادي. العدد الثاني عشر. السنة الخامسة ص ٢١٩.
- (٩) عابدة إبراهيم نصير - (المرجع السابق).
- (١٠) رؤوف عباس - المرجع السابق ص ٢١٤.
- (*) هذه الوثيقة موجودة الآن في المتحف البريطاني ومكتوب على صفحتها الأولى (هذه الوثيقة مملوكة لحكومة صاحب الجلالة الملك. طبعت كي تستخدم فقط في وزارة الخارجية. ملف رقم ٣٧١ - ٢٠٩١٩ - سرى - ١٥٢١٧ - أرشيف رقم ٨. مصر. التقرير السنوى عن عام ١٩٣٦ (ل ٣٥٢٢ - ٣٥٣٢ - ١٦) من السير مايلز لامبسون إلى مستر إيدن. استلم في ١٩ أغسطس تحت رقم ٩٠٦.
- (١١) The Communist International. Vol: XVII-No6 - 1939 - pp.47 By- D.Davos.
- (١٢) راجع محاضر النقاش معه بالملاحق.

-٢-

اليسار

- موجات من الدعاية الاشتراكية
- مسرحية سكا تفال
- عبد الرحمن فضل.. يعدل قانون الجنسية
- تهدنت قيادة الوفد فتحالف المستضعفون

موجات من الدعاية الاشتراكية

بقدر ما انهمك الرجعيون فى نسج شباك الدعاية المعادية للاشتراكية، كانت القوى الاشتراكية والديمقراطية والتقدمية فى مصر منهمكة هى أيضا فى البحث عن مختلف الثغرات لنشر دعوتها للاشتراكية.

وإذا كان سيف قانون العقوبات قد سلط على محاولة «التنظيم والدعوة لقلب نظام الحكم بالقوة والعنف» فإن القانون لم يكن من الممكن أن يمنع دراسة النظرية الاشتراكية ولا حتى «تحبيذها».. طالما أن هذا «التحبيذ» لا يتضمن دعوة لقلب نظام الحكم بالقوة.

وهكذا أمكن للأفكار والنظريات الاشتراكية أن تجد لنفسها - بشكل أو بآخر - سبيلا لمجابهة هذا السيل الجارف من حملات الكراهية والعداء.

والحقيقة أن قوى التقدم كانت من المثابرة والذكاء والحنكة بحيث استطاعت أن تعرض أفكارها فى كثير من المجالات وأن تتحين الفرص، بل وأن تخلق هذه الفرص سعيًا وراء هدفها.

وعلى صفحات الجرائد كان الصحفيون اليساريون والتقدميون يحاولون - كما قلت - خلق الفرص لنشر آرائهم وكان من بين الوسائل التى استخدموها بنجاح باب «بريد القراء».

ولعله من حق «سلامة موسى» علينا أن نذكر له أنه كان صاحب هذه الفكرة الذكية فما من موضوع أراد الكتابة فيه أو إبداء الرأي حوله إلا واستطاع أن يجد لنفسه منفذاً من خلال رسالة يقال إنها واردة من قارئ لا يذكر اسمه بطبيعة الحال.. وإجابة على هذه الرسالة المصطنعة يقول فيها سلامة موسى كل ما يريد..

ولنتأمل هذا المثال الذى أورده سلامة موسى فى باب أسئلة القراء تحت عنوان «ألفاظ سياسية».

«الإسكندرية - مصر - ع. م. ما الفرق بين هذه الألفاظ: الاشتراكية - الفاشية - البولشفية - الشيوعية؟

المجلة الجديدة: الاشتراكية هى التدرج بالطرق البرلمانية القانونية إلى جعل العقارات المغلة التى تحتاج لاستغلالها إلى استخدام عمال الأرض والمصانع والمناجم ملكاً للأمة. أما الشيوعية والبولشفية فكلتاهما مسمى لشيء واحد وهى تشبه الاشتراكية فى النتيجة ولكنها تختلف فى الوسيلة لأنها تعتمد إلى الثورة والانتفاض كما حدث فى روسيا»^(١).

لكن الأمر لم يقتصر على مجلات سلامة موسى فلقد استخدمت الصحف الأخرى نفس الأسلوب هى أيضاً فثمة قارئ يسأل «ما معنى لفظ بلشفيك؟ والجواب.. إن لفظ بلشفيكى مشتقة من لفظة روسية معناها الأغلبية»^(٢).

وفى باب «بين الهلال وقرائه» ترد الرسالة التالية:

١- أرونوس - البرازيل - توفيق أبو جمرة.

ما هى حقيقة البولشفية - وهل البلشفيك منتشرون فى أنحاء المسكونة؟ وهل أفادوا الشرق بشيء؟

- الهلال: البولشفية مذهب من مذاهب الاشتراكية المتطرفة ظهرت فى الربع الأخير من القرن الغائب وانتشرت بين الروس بسرعة لأن طبقة العمال الروس فى عهد الحكم القيصرى كانت تعاني حيفاً كبيراً. وكان أنصار هذا المذهب (ويعرفون أيضاً بالشيوعيين وبأتباع ماركس) يتحينون الفرص الملائمة لإعلان مبدئهم والاستئثار بالسلطة السياسية لتحويل روسيا كلها إلى بلاد اشتراكية.. وقد أتاحت لهم هذه الفرصة فى أواخر الحرب العظمى الماضية فقبلوا نظام الحكم الروسى وأنشأوا على أنقاضه النظام البولشفى.

وهذا النظام هو ألد أعداء الممتلكين وأصحاب رؤوس الأموال. ولذلك ألغى نظام الملكية أو الاحتياز ونشر موضعه نظاما اشتراكيا متطرفا. وجعل جميع موارد الدولة فى يد الحكومة من مناجم وبواخر وسكك حديدية وتلغرافات ومدارس ومعاهد على أن تستغلها الحكومة لمصلحة الأمة»^(٣).

لكن الأمر لم يقتصر بطبيعة الحال على رسائل مصطنعة وردود مختصرة وحذرة، فقد كانت هناك محاولات عديدة لا بأس بها لتقديم الأفكار الماركسية، للقارئ المصرى.. ولسوف نرى فى فصل قادم كيف أسهمت التنظيمات والتجمعات الحزبية والعناصر الماركسية فى إصدار مجلات وكتب ودراسات تدعو فيها للفكرة الماركسية فهناك مثلا مجلة «الحساب» التى كانت منبرا علنيا للحزب والتى تناولت أعدادها كما سنرى فيما بعد - كثيرا من الأفكار الماركسية بالشرح والتحليل. وهناك أيضا مجلة «روح العصر» التى أصدرها عصام الدين ناصف وعبدالفتاح القاضى وحسنى العرابى كممبر تتجمع حوله بعض قوى الماركسيين المصريين فى وجه طغيان صدقى عام ١٩٣٠. وهناك أيضا عصام الدين حفى ناصف وكتبه العديدة التى قدم فيها شروحا وافية وعلمية للنظرية الماركسية وتصوراتها لتطبيقها على الواقع المصرى، وهى كتابات غاية فى الثورية والجرأة تعرض بسببها للسجن أكثر من مرة ولعبت دورا مهما فى التكوين الثقافى المصرى بشكل عام^(٤). كذلك هناك مفكرون أمثال «نقولا حداد» الذى واصل لفترة طويلة الكتابة شارحا أفكاره الماركسية من خلال ما أسماه هو «حركات التفاف» تمكن من خلالها التحدث عن الفكر الماركسى وعن منطلقاته الفلسفية والسياسية الاجتماعية من خلال دراسات متقنة حول علم الاجتماع وحول مشكلات الزواج والأسرة والحب، واثقا.. كما أكد هو أكثر من مرة أن «الشعب ذكى يفهم»^(٥).

لكن الأمر لم يقتصر على المنابر الماركسية فقد تمكن الفكر الماركسى من أن يجد لنفسه سبيلا حتى على صفحات مجلات مثل المقتطف والهلال وغيرهما..

فعلى صفحات المقتطف نجد مقالا - بغير توقيع - بعنوان «ماركس ومذهبه - على ذكر انقضاء خمسين سنة على وفاته» ويتضمن المقال دراسة جيدة لتاريخ حياة ماركس وأفكاره، ومكانته العالمية.. ثم تمضى الدراسة قائلة: «ولا ريب فى أن كارل ماركس كان متفوقا من الناحية الذهنية بين الذين اشتركوا فى تأييد الدعاية الاشتراكية والترويج لها.

وكتابه رأس المال بمثابة كتاب منزل فى نظر الشيوعيين والعمال الاشتراكيين بوجه عام. قال الأستاذ هارولد لاسكى فيه (فى خلال خمسين سنة انقضت على وفاة ماركس اتسع نطاق نفوذه اتساعا كان من المتعذر توقعه. إن مذهبا لم يكن - من نحو جيل أو أكثر قليلا - إلا تصورا كماليا يخالطه الجنون، أبدعه منفى ثورى، قد أصبح من المذاهب المنجبة فى العالم الحديث. فهو الآن متشع بوشاح الدولة المسلحة فى روسيا. واسم صاحبه يوقظ فى صدور الملايين معانى الإيمان والإجلال على ما لم يعهد من قبل إلا فى الرسل والأنبياء لا فى أصحاب المذاهب الفلسفية. إن كلماته تورد تأييدا وإدحاضا فى المناقشات التى تدور حول السياسة الاجتماعية، وفيها القول الفصل الذى كان يعلق بأقوال التوراة والإنجيل عند المدرسين فى القرون الوسطى).

(ولا ريب فى أنه ليس ثمة اشتراكية يصح أن يعنى بها رجال الدول الاشتراكية ماركس). ثم بين لاسكى فى فقرة تالية (إن فلسفة ماركس كانت أولا عقيدة تدين بها شرذمة قليلة من الجمعيات الثورية التى تعمل فى الخفاء فأصبحت إيمانا يواجه الناس فى سبيله السجن والموت كما فعلت الديانات الكبرى فى العصور الماضية).

ثم يمضى كاتب المقال بعد ذلك قائلا: «وإلى القارئ ملخصا عن فلسفة ماركس الاقتصادية الاجتماعية».

ويمضى الكاتب فى عرض أفكار ماركس عن القيمة وفائض القيمة، ويشرح نظرية المادية التاريخية ثم يستعرض المبادئ الأساسية الواردة فى البيان الشيوعى. وبعد ذلك يشرح فكرة ماركس عن دولة دكتاتورية البروليتاريا كمرحلة ضرورية تسبق المجتمع اللا طبقى، ثم تلخيص لكتاب «القيمة والثمن والربح»^(٧).

وإذا كان هذا الكاتب قد أغفل ذكر اسمه فثمة كتاب آخرون وجدوا الشجاعة الكافية لإعلان أسمائهم.. فعلى صفحات المقتطف أيضا وعلى مدى خمسة أعداد متتالية ينشر الدكتور عبدالرحمن شهبندر دراسة قيمة بعنوان «معرض المذاهب السياسية من جمهورية أفلاطون إلى شيوعية روسيا»^(٧).

ولقد كانت الدراسة التى قدمها الدكتور شهبندر دراسة قيمة بالفعل، وهو فى دراسته هذه يهاجم الأسس الفكرية للنظام الرأسمالى الذى يقوم على أساس «أن المصلحة الفردية فوق سائر المصالح» ويؤكد ضرورة أن تتدخل الدولة فى مختلف الشؤون الاقتصادية

«حرصاً على المصلحة العامة ومنعاً من سوء الاستعمال» ويسوق مختلف الأدلة على وجوب تدخل الدولة قائلاً: «ولعل أضمن تحفة أدبية خلقتها لنا نصوص المشتريين في وجوب التدخل ما جاء في حديث عبدالله بن المبارك» (أن قوما ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا.. فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم بفأس فقالوا ما تصنع؟ فقال هو مكاني أصنع به ما شئت، فإن أخذوا على يدي نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا)».

ويمضى الدكتور شهبندر قائلاً: «ولسنا بحاجة إلى القول أن هنالك ميلاً مضطرباً في الحكومات الحاضرة إلى الاضطلاع بالوظائف المتزايدة واستجماع القوى المشتتة مما حمل الكثيرين من أهل البحث على القول بأن هذا الميل سيشهد إلى أن تقبض الدولة على الأملاك والصنائع والمرافق والأعمال فتتألف حينئذ الدولة الاشتراكية باختيار الأمة ونزولاً على إرادة الرأي العام فيها»^(٨).

ويواصل الدكتور شهبندر تقديم دراسته حتى يصل بها إلى النظرية الماركسية فيقول عن ماركس إنه «رسول الاشتراكية وإنه لم يعتد بالفكرة اعتداد هيجل ولا حسبها أصل الأشياء بل قال إن العامل المؤثر في النشوء الاجتماعي هو القوى المادية المنتجة التي تتجهز بها الجمعية البشرية - يعنى أن ينابيع الثروة التي يستخدمها الإنسان من أراض وآلات وأجهزة.. كل ذلك يكسب الناس شكل الحياة الاجتماعية التي يتمتعون بها فتكون الأفكار المنتشرة بينهم نتيجة ما هم عليه من الطرائق الإنتاجية التي توصلوا إليها».

ثم يحاول أن يقدم تلخيصاً لفكره ماركس هذه قائلاً: «والخلاصة أن ماركس يقول إن وسائل الإنتاج في المجتمع وما يبنى عليها من العلاقات بين الناس تؤلف النظام الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية وهذا النظام هو العامل الأساسي في تكوين النشوء العقلي في الشعوب».

ثم يتحدث عن «المادية التاريخية» قائلاً: «ويدعى مذهب ماركس في الفلسفة (التعليل المادي للتاريخ) وقد أبان فيه الأطوار التي مر عليها المجتمع منذ أن استولى على شؤونه أصحاب الأراضي الواسعة إلى أن هبت الثورة الصناعية والتجارية.. لكن عمل الرأسمالية الصناعية أتاح للعمال من القوة والفرصة ما ينظمون به أنفسهم في وجه أسيادهم الذين استخدموهم». وهكذا فإن الرأسمالية تحفر قبرها بيديها.. وثورة العمال مسألة حتمية لا بد منها. «والخلاصة فإن اضطراب الرأسمالية إلى إنفاق مجهودها للحصول على أعظم الأرباح أدى

إلى نهضة العمال وانتشار مذهبهم الاشتراكي، وما ينطوى عليه من تهديد يقض مضاجع الرأسماليين ودعاويهم الطويلة العريضة. وقد تنبأ ماركس عن العمال بقوله: «إن هذه الطبقة الخاضعة التي لا يحق لأحد أن يمنعها من تنظيم نفسها أو يحول دون صيحاتها العالية بالاحتجاج ستسل عروش الرأسماليين وتقضى على رأس المال كنظام اقتصادي تعيش تحت لوائه الشعوب...».

ثم هو يتحدث عن صورة المجتمع الذي ناضل ماركس والماركسيون من أجل بنائه «.. ومتى تألف المجتمع الخالي من الطبقات، يزول الاستثمار وتزول معه حكومة الطبقة لتحل محله الإدارة المشتركة العامة التي تدير ينابيع الثروة في الشعب لمصلحة الجميع وعلى العمال ليس فقط أن يقبضوا على زمام الحكومة الحاضرة ويستخدموها لغاياتهم، بل أن يحقوها محقا هي والطبقة الاقتصادية المسؤولة عنها ويحلوا محلها نظاما يؤسسونه من جديد».

ويتحدث الدكتور شهبندر أيضا في دراسته هذه عن «البيان الشيوعي» فيقول: «ويعد البيان الشيوعي الذي نشره ماركس بالألمانية عام ١٨٤٨ - وهو في خمس وعشرين صفحة - أول نص عالج الاشتراكية بطريقة علمية واضحة وأخرجها من صف الفلسفة الخيالية والأحلام الذهنية، وقد ختمه بالوعيد المشهور (فلترتعش فرائص الطبقات الحاكمة عند شبوب الثورة الشيوعية أما الصعاليك [يقصد البروليتاريا] فليس لديهم ما يخسرون سوى السلاسل والأغلال. ولكن أمامهم دنيا يربحونها. اتحدوا أيها العمال في الآفاق)»^(٩). أما الهلال فتتشر مقالا بعنوان «شركات الاحتكار - تطور الصناعة من المنافسة إلى التعاون» تقول فيه: «... في القرن الماضي وضع كارل ماركس زعيم الاشتراكية كتابا عن «رأس المال» ارتأى فيه رأيا تحققه الأيام الآن من بعض وجوهه.

وهذا الرأي يتلخص في أن المصنع الكبير ياكل المصنع الصغير.. وكل هذا كلام واضح يسلم به كل إنسان، ولكن كارل ماركس ارتقى من ذلك إلى أن هذا التطور الأولي في العمل من يد العامل إلى الآلة الصغيرة ثم أخيرا إلى الآلة الكبيرة سوف يحدث تطورا آخر في نظام الصناعة. ذلك أن المصانع الكبيرة ستحتكر الصناعة وتمنع منافسة المصانع الصغيرة بل تمحوها وعندئذ ترى الأمة أن الثروة قد تجمعت في أيدي شركات تعد على أصابع اليد فتقوم قومة واحدة وتستولى على هذه المصانع وتجعلها ملكا للأمة بدلا من أن تكون ملكا للأفراد. وهذه هي الاشتراكية.

والاشتراكية لم تتحقق بعد. إلا إذا تسامحنا وقلنا إنها تحققت إلى حد ما فى روسيا ولكن التطور الذى رآه كارل ماركس لا يزال يسير بقدم ثابتة فى الطريق الذى رسمه»^(١٠). ولم يكن الحديث عن النظرية والأفكار الفلسفية وحدها، فلقد اهتم المثقف المصرى اهتماما بالغا «بالأدب الروسى» وحفلت صحف ومجلات هذه الفترة بدراسات وكتابات عديدة عن الأدب الروسى الذى وصفه أحد المثقفين يوما على صفحات الهلال بأنه «خير الآداب التى أنتجها العقل البشرى»^(١١).

والحقيقة أن اهتمامات المثقفين المصريين بدراسة الأدب الروسى وبالأدباء الروس ومدى تأثر الفكر المصرى بهذه الدراسة مسألة تستحق التأمل والبحث. والذى لا شك فيه أن كثيرين من المثقفين الاشتراكيين المصريين قد وصلوا إلى الاشتراكية عبر ميدان الأدب، والأدب الروسى على وجه التحديد.

يقول د. عبدالفتاح القاضى: «وهكذا اتجهت إلى الأدب وعن طريق القصص الاشتراكية بدأت أقتنع بالاشتراكية.. وبعد ذلك بدأت الاطلاع على النظرية الاشتراكية»^(١٢).

ومن الأدباء الروس الذين تركوا أثارا مهمة فى المفكرين المصريين وفى الثقافة المصرية على وجه العموم «تولستوى». ومن الحقائق المتداولة فى التاريخ المصرى الحديث تأثر عدد من كبار المفكرين المصريين أمثال لطفى السيد به ومحاولتهم تقليده فى العودة إلى «الريف» كذلك من الغريب أن يقوم أحمد شوقى برثاء تولستوى عندما يموت.. وهناك أيضا مراسلات الشيخ محمد عبده والحوار المثمر الذى قام بينهما^(١٣).

وقد قدم د. عبدالفتاح القاضى دراسة غاية فى العمق عن تولستوى وعن منهجه الاجتماعى وموقفه الفكرى، وعرضا لأهم كتاباته وخاصة رواية «النور يضىء فى الظلام»^(١٤).

كل هذا فى الوقت الذى كان المثقف المصرى يعتبر فيه أن تولستوى قريب من الفكر البلشفى.. وثمة دراسة نشرتها «السياسة الأسبوعية» بعنوان «تولستوى والثورة البلشفية» جاء فيها: «وهناك ظاهرتان لا يمكننا أن لا نعتد بهما، الأولى أن البلشفيين أنفسهم يعدون تولستوى قيسهم العظيم، كما عد رجال الثورة الفرنسية روسو.. والحكومة السوفيتية لا تألو جهدا فى إظهار إجلالها العظيم لذكرى تولستوى المقدسة إذا كانت الكلمات مثل

(إجلال والمقدسة)، توجد فى القاموس البلشفى. وقد فتح ولادة الأمور متحفين لتولستوى فى موسكو..

والظاهرة الثانية هى أن المحافظين الروس ينظرون إلى التولستوية وإلى البولشفية بمنظار واحد»^(١٥).

ولم يكن تولستوى وحده محط اهتمام المثقفين المصريين بل كانت هناك أيضا العديد من الكتابات والدراسات عن جوركى الذى سُمى «أديب الصعاليك» وثمة دراسة مهمة نشرتها الهلال تحت عنوان «ثلاثة من الأدباء الروس، دستوفسكى. وتولستوى. وجوركى»^(١٦).

ولم يقتصر الأمر على تقديم الدراسات المنهجية التى تتناول بالنقد والتحليل كتابات الأدباء الاشتراكيين الروس وإنما نخرت هذه الفترة بترجمات لفيض غامر من الأعمال الأدبية لهؤلاء الكتاب.. ولنأخذ نموذجا واحدا هو مجلة السياسة الأسبوعية، وهى - كما هو معروف - مجلة حزب الأحرار الدستوريين.. فقد نشرت فى فترة وجيزة مجموعة كبيرة من الأعمال الأدبية للكتاب الاشتراكيين والتقدميين الروس من بينها..

الرهان - تشيكوف - ٢٠ أغسطس ١٩٢٧.

القدر - إيفان تورجنيف - ١٠ سبتمبر ١٩٢٧.

الطبيب - إيفان تورجنيف - ٢٧ أغسطس ١٩٢٧.

خادم الكنيسة - إيفان تورجنيف - ٢٤ سبتمبر ١٩٢٧^(١٧).

كفى - إيفان تورجنيف - ١ أكتوبر ١٩٢٧^(١٨).

المال - مكسيم جوركى - ١٦ يونيو ١٩٢٨.

الشحاذ - إيفان تورجنيف - ٣٠ يونيو ١٩٢٨.

على أن الأمر لم يقتصر على النظر إلى الجانب الأدبى والروائى من التجربة السوفيتية.. فقد اهتمت الصحف المصرية اهتماما كبيرا بتتبع تجربة البناء التى يقوم بها البلاشفة، وكما تتالت مقالات النقد والهجوم، تتابعت فى مقابلها - وربما بصوت أعلى فى بعض الأحيان - مقالات التأييد والتناء..

ولقد كان تقديم التجربة الاشتراكية الأولى فى صورة مقبولة - يمثل فى ذاته - رعاية كبيرة الأثر للفكرة الاشتراكية التى كان الرجعيون يقطعون باستحالة وضعها موضع

التطبيق الصحيح محاولين أن ينسجوا حول التجربة السوفييتية أكاذيب توحى بفشل الاشتراكية عندما توضع موضع التطبيق.

ولقد كان أكثر ما اهتم به اليسار المصرى فى ذلك الحين هو إبراز الإنجازات الاجتماعية والاقتصادية التى استطاعت الثورة البلشفية أن تحققها.

ولقد كان القارئ المصرى يتابع بأنفاس مبهورة هذه الانجازات الرائعة ويقارن ما يعيش فيه من تخلف وتدهور بهذا التقدم الرائع ثم يشعر بالفارق بين النموذج الرأسمالى والنموذج الاشتراكى..

والحقيقة أن متابعة الإنجازات الاقتصادية والاجتماعية للبلشفية قد شغلت معظم الصحف المصرية وليس فقط الصحافة اليسارية.. «فالسباسة» (جريدة الأحرار الدستوريين) تنشر مقالا تحت عنوان «روسيا والعالم كله» تقول فيه: «فى الخامس من أكتوبر وفى مدينة ليننجراد عقدت اللجنة التنفيذية المركزية اجتماعها الثانى بمناسبة ما سيجرى قريبا من الاحتفال بالذكرى العاشرة للثورة البلشفية وقد بلغ عدد الحاضرين ٦٣٢ مندوبا من أنحاء روسيا.

وقررت اللجنة فيما قررت لمناسبة هذه الذكرى إنقاص ساعات العمل إلى سبع ساعات بدل ثمانية فى اليوم دون تخفيض الأجور التى تعطى الآن وزيادة المخصص فى ميزانية الدولة لبناء منازل العمال بمبلغ خمسين مليون روبل زيادة على اعتمادها الحالى وتخفيض الضرائب التى تجبى من الفلاحين والعمال وتخصيص معاشات لذوى الحاجة من الفلاحين الشيوخ»^(١٩).

وفى الذكرى العاشرة للثورة البلشفية تكتب «السباسة» تحت عنوان «البلشفية فى عامها العاشر»: «إن مبادئ البلشفية وغاياتها تتلخص فى عبارة واحدة هى الثورة العالمية وسيما الكتلة العاملة، فهى لا تقف عند أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات ولا تتقيد بحدود جنسية أو قومية أو تحسب حسابا للفروق والأقمار الاجتماعية بل هى تهدف إلى تحطيم النظم «الرأسمالية» الحاضرة وأن تمحى نظم الديمقراطية والبرجوازية وأن تكون كلمة الكتلة العاملة هى العليا»^(٢٠).

وفى المناسبة ذاتها تنشر «الهلل» ما أسمته «حقائق ومعلومات منزهة عن الدعاية والأغراض» فى مقال بعنوان «بعد عشر سنوات. ماذا تم فى روسيا الشيوعية» جاء فيه: «كان الانحلال العام فى الأمة الروسية (قبل الثورة) أكبر مما قدر له.. وكان الشيوعيون

هم القوة الوحيدة فى وسط أمة تموج بالفوضى كالبحر الهائج وأعلنت الشيوعية فى روسيا، وكان أول ما ضمن النصر للشيوعيين أنهم استصفوا الأملاك وسلموها للفلاحين والجنود الذين كان أغلبهم من الفلاحين. وبهذا العمل انضمت كثرة الأمة إلى الشيوعية ثم استولوا على المصانع وأسسوا مجالس العمال لإدارة البلاد وعمموا التعليم وأسسوا الدولية الثالثة.

وسار لينين فى نظام الشيوعية دائبا فجعل الحكومة تمتلك الأرض والمنازل والمصانع.. أما الأرض فقد امتلكها الفلاحون وعم روسيا كلها الفرخ العظيم لهذا الانقلاب». ثم يمضى كاتب المقال متسائلا..

«والآن ما هى الحال فى روسيا؟ الفلاح يملك أرضه كما يملك الفلاح المصرى أرضه فى مصر. ولكن ليس فى روسيا رجل يملك أرضه ولا يشتغل فيها. فالأرض يملكها من يشتغل فيها فقط. أما المالك القديم الذى كان يؤجر أرضه للفلاح أو يزرع ضيعته وهو بعيد عنها مرتاح البال فى إحدى المدن ينعم بالدخل الضخم كل سنة فقد زال من روسيا. ويحكم أقاليم روسيا الآن (السوفييت) أى مجلس العمال. والانتخاب عام يستوى فيه الرجل والمرأة لهذه المجالس. ومن اتحاد هذه المجالس تتألف دولة روسيا.

.. ويشتغل العامل فى روسيا الآن ٨ ساعات فقط. أما الموظف فعمله لا يزيد عن ٦ ساعات وللعامل ١٥ يوما تمنح له أجازة بكل سنة ويتقاضى فيها أجرته. ويمتاز العامل أيضا بأنه يعالج مجانا ويرسل إلى المصحات مجانا..

والمرأة تستوى تماما بالرجل فى روسيا فهى مثله فى الحقوق والواجبات المدنية.. وفى وقت الحمل تأخذ أجازة قبل الولادة بنحو ٧ أسابيع وبعد الولادة أيضا وتعطى إعانة مالية»^(٢١).

ومن حقنا أن نتساءل ما هو تأثير مثل هذه المعلومات على المواطن المصرى؟ الأمر الذى لا شك فيه أنها قد تركت أثرا مهما.. ولا بد أن مثل هذه الحقائق قد لعبت دورا مهما فى نسف كل الدعايات المغرضة التى حيكت ضد الاشتراكية وضد تجربتها الأولى على أيدي البلاشفة.

وفى العام التالى.. أى فى الذكرى الحادية عشرة للثورة تقدم «السياسة» صورة البلشفية فى عامها الحادى عشر» فتقول: «مضت إحدى عشرة سنة كاملة والبلشفية

تقبض على مصائر روسيا والشعب الروسى ونظمها ومبادئها تصوغ من الشعب الروسى مجتمعا جديدا يبغي على كر العصور أعذب صورة يقدمها إلينا تطور الجماعات البشرية»^(٢٢).

وفى نفس المناسبة تنشر «السياسة» ترجمة لحديث صحفى أدلى به برنارد شو جاء فيه: «س: لقد سمعت أنك ممن يعتقدون أن البلشفية ستعيش فى روسيا، فهل لك أن تحدثنى بتعليل هذا؟

ج: التعليل بسيط، وهو أن البلاشفة يعلمون أبناء روسيا الأمانة العامة بعكس الدول الرأسمالية كافة فإنها تعلم أبناءها أن غاية الغايات هى أن يكونوا أغنياء عاطلين»^(٢٣).
ويبدو أن اللجوء إلى الآراء الإيجابية التى تعبر عنها شخصيات ذات شهرة عالمية واسعة كان أسلوبا ناجحا فى الدعاية للاشتراكية..

• وعلى لسان برنارد شو أيضاً.. تنشر «السياسة» حديثا بعنوان «فى البلشفية» جاء فيه: «كنت دائما أشارك السوفييت شعورهم. وإنى اقول لزعماء العمال عندنا أن البلشفية ما هى إلا الدفاع عن طبقات العمال».

ويمضى برنارد شو قائلا: «إنى أكرر أننى لم أخف يوما شعورى نحو السوفييت وفى سنة ١٩١٧ أو ما يقرب منها لما كان لينين يعد هنا أكبر عدو لدود لإنجلترا قدمت إليه نسخة من آخر رواية ألفتها فى ذلك العهد منقوشا عليها عبارة إخلاص قلبى. وأرسلتها إليه بواسطة السفارة الروسية.

س: لقد سمعت أن قوة السوفييت فى تدهور، فخطاباتهم هذه ما هى إلا الكبرياء التى تسبق السقوط.

برنارد شو: وعلى كل. حتى إذا ما سقطت حكومة السوفييت فإن الفكرة سوف تعيش. إن الآراء لها طريقها إلى الخلود. وليس بإمكان أى فرد أن يقتلع تلك العقيدة من نفوس السوفييت. كما أنه ليس بإمكان أى سياسى أن يمحو من ذاكرة العالم عقيدة حكم الأمم نفسها بنفسها.

وكيفما يحكم القدر فى مصير الروسيين فإن نفوذهم على أفكارنا لن يكون بأقل تأثيرا من التغيير الذى أحدثته الثورة الفرنسية، أو عندما أعلنت المستعمرات الأمريكية استقلالها»^(٢٤).

وثمة حديث آخر من العلامة أينشتاين، تنشره «المجلة الجديدة»، جاء فيه:

«س: أليست آسيا هي أم الأديان جميعا؟

ج: يبدو أنها الكنز العظيم للأفكار، بل لقد عرفت أن الشيوعية نفسها قد جربت فى آسيا قبل آلاف السنين.

س: هل تظن أن العالم الغربى سيمر فى طور شيوعى؟

ج: إذا حدث هذا فإنى لن أدهش..

س: وكيف تكون حياتك فى مثل هذا النظام؟

ج: تكون لا بأس بها.

س: هل توافق لينين على أن الحرية الاقتصادية من أوهام الأغنياء والطبقات المتوسطة؟

ج: ربما كان لينين صادقا، فالحرية الكاملة لا تتفق والحضارة. فإذا كنت لا أحب أن أحدا يدوسنى فإنى أضطر إلى الخضوع لأنظمة تحد من حريتى، وكلما زاد رقى الأمة زادت تضحيات الفرد وهذه التضحيات هى ثمن الحضارة»^(٢٥).

ولنا أن نتصور الأثر البالغ الذى تركته آراء كهذه عندما تصل إلى المثقف المصرى منسوبة إلى اثنين من أشهر الشخصيات العالمية، برنارد شو وأينشتاين..

ولقد كان اللجوء إلى هذا الأسلوب الذى تكرر كثيرا والذى لم يكن ما أوردناه عنه سوى نماذج قليلة تعبيرا عن زكاء وفطنة تلك العناصر اليسارية والتقدمية التى كانت تتحين الفرصة لألتقاط أى خيط يمكن أن يصل بدعايتها إلى قلوب الجماهير، وإلى - وهذا هو المهم - إمكانية النشر.

لكننى أعتقد أن أهم ما حققته التجربة السوفيتية من آثار فى نفوس المصريين كان نابعا من نجاحها الحاسم فى بناء الاقتصاد السوفييتى، ولقد رأينا كيف اهتمت الصحف والمجلات المصرية بالمنجزات السوفييتية المختلفة وأبرزتها فى كثير من كتاباتها.. لكن أهم ما شد انتباه المثقف المصرى كانت برامج السنوات الخمس.

وهى ما أسمى فى الصحف المصرية «التجربة الشيوعية الاقتصادية».

وفى حديث عن برنامج السنوات الخمس والأهداف التى يزمع تحقيقها تقول «الهلال»: «.. ويشرف على تنفيذ هذا البرنامج العظيم لجنة تسمى «جوسبلان» وهم أعظم لجنة اقتصادية فى الدولة ولها سلطة لا حدود لها فى الشؤون المالية والاقتصادية.. وقد أنشئت هذه اللجنة منذ سبع سنوات وإليها يرجع برنامج السنوات الخمس الذى نحن بصددده.

وإليك بعض ما قدرته هذه اللجنة..

١- أن يزيد مجموع القوى الكهربائية بنسبة ٦, ٧٧ بالمئة.

٢- أن يزيد مجموع إنتاج الفحم والزيت بنسبة ٢, ٨٢ بالمئة.

٣- أن يزيد إنتاج البلاد الزراعى إلى أكثر من ضعفه.

٤- أن يزيد إنتاج معامل النسيج والآلات على اختلاف أنواعها بحيث يزيد فى آخر

السنوات الخمس على حاجة البلاد ويكون فى الإمكان تصديره.

٥- أن تقام فى البلاد المعامل الكيماوية التى تفى بالحاجة.

٦- أن ينفذ البرنامج كله على أحدث الأساليب الاشتراكية بحيث تعتبر جميع المعامل

والمصانع والموارد والمنتجات ملكا للدولة»^(٢٦).

ولقد كان اشتراكيو الثلاثينيات من النشاط والجرأة بحيث أننا نلاحظ مثلا أن عدا

واحدا من مجلة «العصور» كان يتضمن الموضوعات التالية: «حياة لينين» وفيه تاريخ جيد

لنضال لينين وتلخيص لكثير من كتاباته ثم حديث عن زوجته «المناضلة» كرويسكايا وعن

كثير من المحيطين به..

ومقال آخر بعنوان «كارل ماركس وأهم نظرياته الفلسفية والاقتصادية» ويتضمن

مقدمة عن الاشتراكيات الخيالية ثم دراسة لجوهر أفكار الاشتراكية العلمية وتاريخ حياة

كارل ماركس وحديث عن الفلسفة المادية للتاريخ وعن «التفسير المادى للتاريخ» ونضال

الطبقات.. ثم بعد ذلك عرض جيد لنظريات ماركس الاقتصادية حول القيمة والقيمة الأكثر

(فائض القيمة) والتركز والتكدس (التمركز) ونظرية الأزمات فى الاقتصاد الرأسمالى مع

شرح مبسط لكل من هذه النظريات..

ومقال ثالث عن «تاريخ الحرب الأهلية فى روسيا» - وفيه حديث عن تاريخ الحزب

الاشتراكى الديمقراطى الروسى وانقسامه إلى بلشفيك ومنشفيك وأسباب الانقسام

ونظرية لينين حول الحزب ودور الحزب بقيادة لينين فى ثورة ١٩٠٥ ثم فى ثورة ١٩١٧.

ثم بعد ذلك كله النص الكامل لبرنامج حزب العمال والفلاحين المصرى^(٢٧).

كل هذه الدراسات فى عدد واحد من مجلة «العصور» ولعل فى هذا المثال الكفاية

ليوضح لنا طبيعة الدعاية الاشتراكية واكتساحها فى بعض المواقع، وشجاعة القائمين بها.

وهكذا نجحت الدعاية الاشتراكية رغم محاصرتها ورغم كل إجراءات القمع ورغم موجة

الدعاية المضادة الجارفة - أن تجد لنفسها سبيلا لتصل بالحقيقة إلى قلوب وعقول المصريين.

ولكننا نخطئ لو تصورنا أن هذه الدعاية الاشتراكية قد اكتفت بالحديث عن الأدب الروسى أو التجربة السوفيتية.. فلقد أجهد الكثير من مثقفى مصر فى هذه الفترة أنفسهم سعيا وراء تفهم النظرية الاشتراكية وبحثا عن تطبيقات مصرية وتصورات مصرية لها. وفى هذا الصدد فإن الكتابات والاجتهادات كثيرة، أكثر من أن تحصر، لكننا سنكتفى ببعض هذه الكتابات كنماذج للاجتهاد المصرى فى مجال الفكر الاشتراكى..

ولنبداً بمقال بعنوان «اختصار معتقدات وتولد معتقدات..» كاتبه هو نجيب محفوظ.. «فلما أخذت الاعتقادات القديمة فى الفناء وأخذ العقل يسلط نوره عليها فيظهر من عيوبها ويكشف عن سوءاتها التى عاشت ورسخت فى النفوس أجيالا كحقائق لا مرأى فيها ولا جدال، ولما حل الشك محل الإيمان تأثر الأدباء بذلك التطور الذين هم من أكبر دعاة ومؤيديه بما يؤلفون من كتب تحمل على القديم، تحاول أن تأتى عليه وتخلصنا من استعباده ورقه.

وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت بين أيدينا مجموعة وافية من الكتب والقصص سبعت قراءتها على الشك فى الماضى بآرائه ومعتقداته أو تدعو لمذهب جديد كالاشتراكية والعالمية وغيرهما..

والذى يجدر بنا أن نلاحظه هو أن جميع الأديان الجديدة ترمى إلى اتحاد العالم وإزالة الفروق الوطنية، وهى تتفق فى ذلك مع الأديان القديمة مثل المسيحية والإسلام، ولكنها تزيد على ذلك فيدعو بعضها إلى إزالة فوارق الطبقات المادية.

ولو أننا أردنا أن نتنبأ بالمذهب الذى سوف يكون له الفوز من بين المذاهب لقلنا - أو لأحبينا أن نقول - بأنه مذهب الاشتراكية».

ويورد نجيب محفوظ سلسلة من الأسباب يستند إليها فى تنبؤ بانتصار الاشتراكية ثم يقول: «وهناك أسباب كثيرة أخرى تجعلنا نكاد نوقن بأن المستقبل للاشتراكية».

كذلك فإن الاشتراكية - عند نجيب محفوظ - ليست نهاية المطاف بل هى مقدمة لمجتمع أفضل «فإنه وإن كانت الاشتراكية لن توصلنا لحالة من النعيم لا مطلب خلفها إلا أنها تستطيع أن تنتشلنا من حالتنا هذه إلى خير منها، وليست الاشتراكية نهاية ما يمكن أن

يتطور إليه النظام الاجتماعى وعليه فالتطلع للأحسن سيدفعنا دائما للتنقيب عما فيه سعادتنا ورفاهيتنا».

وإذا كان البعض يوجه انتقادات إلى التجربة السوفيتية - وإذا كانت هذه التجربة قد تعرضت فى البداية لبعض المصاعب فإن نجيب محفوظ يعلق على ذلك قائلا: «وجملة ما أريد أن أقوله عن هذا الأمر أنه لو خاب أملنا فى الاشتراكية بعض الخيبة فليس معنى ذلك أننا نرغب فى الرجوع إلى حالتنا السيئة - الحالة الحاضرة - إنما يجعلنا ذلك نزيد إيماننا بالتطور الذى هو الخالق الوحيد للاشتراكية وغيرها من الآراء والمعتقدات»^(٢٨).

• وثمة كتاب وأدباء كثيرون أيدوا الاشتراكية أو تنبأوا بانتصارها على أرض مصر.. وعندما يحاول إبراهيم عبدالقادر المازنى أن يتصور «مصر بعد مائة عام» فإنه يؤكد «أن الاشتراكية لا مفر منها - بطبيعة الحال - ولو بقوة العدوى من الغرب»^(٢٩).

أما إسماعيل مظهر فإنه يركز هجومه على النظام الرأسمالى فى مقال بعنوان «الأزمة الاقتصادية، بواعثها واحتمالاتها الأخيرة» ويركز هجومه فى سلسلة من الأحكام القاطعة الحاسمة «سوف ينتهى النظام الرأسمالى من حيث بدأ. بدأ بالإنتاج الصناعى وسيحطمه الإنتاج الصناعى. بدأ باختراع الآلات وسوف تقضى عليه الآلات. وبدأ باستجماع رؤوس الأموال، وسوف تقتله رؤوس الأموال»^(٣٠).

لكن الهجوم لم يكن هجوما مجردا على الرأسمالية بشكل عام وإنما تناول أهم قضايا المجتمع المصرى.. فى الزراعة والصناعة على السواء..

«من يملك مصر» هذا هو السؤال الذى قذفت به «المجلة الجديدة» فى وجه النظام القائم.. وأجابت على تساؤلها هذا قائلة «المصريون لا يملكون مصر وإنما يملكها من يمتلك الأرض الزراعية فيها وهم ١٢٢،٠٩٧،٠٢٠ مالكا. وسائر الأمة الذى يبلغ ١٣ مليون لا يملك شيئا من هذه الأرض. وأغرب من هذا أن يملك نصف الثروة الزراعية فى مصر أقل من ١٣.٠٠٠ نفس»^(٣١).

ويضيف كاتب آخر هو عبدالحميد عبدالغنى إلى هذه الحقائق حقيقة أخرى أشد مرارة «فأكثر من ١٥٪ من كبار الملاك هم الأجانب. وأكثرهم سلب أملاكه بطريق الربا الفاحش». لكن هذا الكاتب لا يكتفى بانتقاد الشكل القائم لتوزيع الملكية الزراعية وإنما يتحدث عن «نظام الملكية المشاعة.. الذى حققته روسيا الشيوعية فى جزء كبير من أرضها».

ويمضى الكاتب قائلا: «ومن الناحية التاريخية نجد أن الملكية المشاعة سبقت الملكية الشخصية فالأرض فى العصور التاريخية الأولى كانت ملكا مشاعا لجميع الناس يستثمرها من يشاء».

لكنه إذا كان من المستحيل أن يطبق فى بلد كمصر نظام الملكية الزراعية المشاعة فإن الكاتب يقدم تصورا آخر لفكرة الملكية فيقول: «... إذن لو وجدت قرية مساحتها ٥٠٠ فدان موزعة على خمسين شخصا تختلف ملكية الفرد منهم بين ٥ و ٢٠ فداناً لوجد بذلك نظام الملكية الصغيرة. وفى الوقت ذاته يستطيع هؤلاء الملاك الصغار أن يكونوا مزرعة واحدة تتبع نظام الإنتاج الكبير، وذلك بتكوين جمعية تعاونية ذات ٥٠٠ سهم كل سهم ينوب عن فدان فتحل هذه الجمعية محل المالك الكبير».

وفوق ذلك يعرض الكاتب لآراء هنرى جورج الواردة فى كتابه لشهير «الفقر والتقدم» فيقول: «يرى هنرى جورج أنه كلما ازدادت الثروة العامة ازداد الفقر انتشارا - ففى أفريقيا الوسطى لا نجد من يستحق أن يسمى غنيا. ولكننا لا نجد هؤلاء الذين لا يجدون القوت الضرورى إلا فى الأقطار الغنية.. وهذا لا يرجع إلى عجز الطبيعة عن كفاية الناس بل إلى الامتلاك الفردى للأرض، والعلاج الوحيد هو جعل الأرض ملكا مشاعا. فالامتلاك الفردى مناف للطبيعة. فكما أن لجميع الناس حقوقا متساوية فى الهواء والضوء كذلك يجب أن يكون لهم حقوق متساوية فى الأرض»^(٢٢).

وحول الاستغلال الرأسمالى فى مجال الصناعة شن الكتاب التقدميون والاشتراكيون هجوما عنيفا.. وعندما لاحت بوادر الأزمة الاقتصادية فى مصر، أكد هؤلاء «أن معظم ما يصيبنا من كساد فى مصر ناشئ من أن طائفة العمال لا تستنفذ شيئا عظيما لا فى اللباس ولا فى الطعام ولا فى المسكن ولا فى أى شئ آخر وليس ذلك إلا لأنهم يعانون من قلة الأجور بحيث لا يستطيعون التأثير فى الأسواق الداخلية بما يشترونه حتى تروج الأعمال فإذا استعملنا الشح مع العمال انعكس علينا عملنا بالكساد»^(٢٣).

ثم هم يهاجمون محاولات الرأسماليين لعقد اتفاقات احتكارية فيما بينهم فيقولون: «هناك احتكار جديد نشأ بالاتفاق بين الشركات التى كان الوضع التجارى الأسمى يقول أو يوهم بتزاحمها. مثلا فى الشركات التى تباع البترول والبنزين فإنها رأت أنها تخسر بالمزاحمة، وقد أصبحنا باتفاقها هذا نشترى البترول والبنزين بأعلى الأثمان».

وفرصه كهذه لا يمكن أن تمر بغير إثارة قضية أخرى باللغة الأهمية هي العلاقات التجارية مع الاتحاد السوفييتي «ومما زاد هذه الشركات طغيانا ثقتها بأن الحكومة المصرية تقاطع روسيا وتكره الاتجار معها فليس هناك إذن ما نخشاه من استيراد البترول منها وبيعه بثمن منخفض لقاء تصدير القطن إليها مثلاً...»^(٢٤).
بل لقد نجح الكتاب الاشتراكيون أيضا في ربط قضية الاشتراكية بقضايا النضال ضد الاستعمار.. ومرة أخرى فإننا نشهد اللجوء إلى أسلوب بريد القراء..
«بيروت.. سائل..»

هل تفيد الاشتراكية البلاد الشرقية وتعينها في نيل استقلالها؟
الهلال: يقوم الاستعمار على استغلال عمال البلاد المستعمرة. فلو كانت أجرة العامل الهندي لا تقل عن أجرة العامل الإنجليزي لما وجد أغنياء إنجلترا فائدة من استغلال الهنود ولاكتفوا باستثمار أموالهم في بلادهم. والاشتراكية تريد أن تنصر العمال وتمنع استغلالهم فهي من هذه الوجهة تكافح الاستعمار»^(٢٥).

ولسنا نستطيع أن ننتقل إلى موضوع آخر بغير أن نؤكد أن كل ما أوردناه من محاولات للدفاع عن الاشتراكية أو الحديث عنها لم يكن إلا مجرد نماذج قليلة من موجات لا تنتهي من الإبداعات الفكرية - كتب ومقالات ومنشورات وأزجال وقصائد وقصص - موجات بغير حدود من الإبداع الفكري المصري دفاعا عن الاشتراكية..

وفي الثلاثينيات حيث كانت سطوة حكم كبار الملاك والرأسماليين في أوج عنفوانها، وحيث حاولوا مرارا أن يجربوا الوسائل الدكتاتورية بحثا عن «موسيليني مصري» وحيث كانت مصر كلها تفتش لنفسها عن طريق جديد..

كانت هذه الكتابات ذات قيمة غير محدودة..
فقد عبرت عن إصرار أجيال متعاقبة من الماركسيين المصريين على أن يقولوا كلمتهم وعن إصرارهم على مواصلة تحدى الرأسمالية وحكامها..

وقد عبرت أيضا عن خصوبة الإبداع الفكري الاشتراكي في مصر وتنوعه وشموله لجوانب مهمة من جوانب الحياة الأساسية للمجتمع..

كذلك فإن دراسة هذه المواد تبدو مسألة ضرورية لتفهم كثير من الاتجاهات والآراء والمواقف التي نمت في قلب الحركة الوطنية المصرية فيما بعد..

فإن سنوات الثلاثينيات كانت سنوات «الاحتضان» و«العطاء» و«الخلق» بالنسبة لجيل ما بعد الحرب العالمية الثانية ذلك الجيل الذى لعب فى تاريخ مصر كله وفى مستقبلها كله أثارا بغير حدود..

وبغير أن نكون بحاجة إلى أن نسبق الأحداث، نستطيع أن نقرر أن مثل هذه الكتابات كانت دليلا كافيا على أن فكرة الاشتراكية قد ظلت حية راسخة فى وجدان مصر.. وإن كان البعض قد توهم فى الثلاثينيات أن الاشتراكية قد صفيت وضربت فى مصر فقد كان مخطئا كل الخطأ.

فلقد احتضنت مصر هذه الأفكار ومنحتها دفئا وخصوصية مكنانها من أن تختمر وتنبئ وتنجب لمصر جيلا جديدا من الماركسيين.. ظل يواكب ويسهم فى عملية الاختمار هذه وينمو معها وبها حتى ظهر.. وربما بشكل بدا وكأنه مفاجئ فى نهاية الثلاثينيات فى صورة كتائب كاملة من الشيوعيين المصريين..

وهكذا فإن الصفحات السابقة كانت محاولة لتصوير المناخ الفكرى والسياسى الذى عاشت وأبدعت فيه وعانت منه طلائع الجيل الجديد من الشيوعيين..

الهوامش

- (١) المجلة الجديدة - العدد العاشر - المجلد الأول - أغسطس ١٩٣٠ - ص ١٢٨٧.
- (٢) كل شيء والدنيا - ٢٣ مايو ١٩٣١.
- (٣) الهلال - مارس ١٩٣١.
- (٤) د. رفعت السعيد - عصام الدين حفنى ناصف - (المرجع السابق).
- (٥) د. رفعت السعيد - نقولا حداد - سلسلة طلائع الفكر الاشتراكي - دار الثقافة الجديدة - عام ١٩٧١.
- (٦) المقتطف - الجزء الخامس - المجلد الثاني والثمانين - مايو ١٩٣٣ - ص ٥١٧.
- (٧) المقتطف - أعداد يناير - فبراير - مارس - أبريل - مايو ١٩٣٣.
- (٨) المقتطف - أبريل ١٩٣٣.
- (٩) المقتطف - مايو ١٩٣٣.
- (١٠) الهلال - يناير ١٩٢٨ - ص ٢٩٦.
- (١١) الهلال - مقال بقلم محمد على ثروت - ديسمبر ١٩٢٨.
- (١٢) د. رفعت السعيد - تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر - المرجع السابق - ص ٢٧٣ - (محضر نقاش).
- (١٣) الإذاعة والتلفزيون - مقال للدكتور عثمان أمين ١٠/٧/١٩٧١.
- (١٤) نشرت هذه الدراسة في خمس حلقات في كوكب الشرق ابتداء من ٢٥/٣/١٩٢٦.
- (١٥) السياسة عدد ٣، ١٢/٢/١٩٢٧ مقال محمد مصطفى أبورحاب.
- (١٦) المجلة الجديدة - يوليو ١٩٣٠.
- (١٧) ترجم هذه القصص جميعا محمد كامل البهنساوى.
- (١٨) ترجمها إبراهيم زكى وكيل النائب العام.
- (١٩) السياسة - ٢٢ أكتوبر ١٩٢٧.
- (٢٠) السياسة - ٥ نوفمبر ١٩٢٧.
- (٢١) الهلال - يناير ١٩٢٨ - ص ٣٢٩.
- (٢٢) السياسة - ٢٢ أكتوبر ١٩٢٧.
- (٢٣) السياسة - المرجع السابق.
- (٢٤) السياسة - ١١ أغسطس ١٩٢٨، حديث مع برنارد شو بقلم سلفتر فيريك ترجمة أحمد محمود بيومى.
- (٢٥) المجلة الجديدة - السنة الأولى العدد السادس. أبريل ١٩٣٠ ترجمة لحديث أجراه فيريك ص ٧٤٦.

- (٢٦) الهلال - مارس ١٩٣١ - ص ٧١٠.
- (٢٧) العصور - يونيو ١٩٣٠.
- (٢٨) المجلة الجديدة - أكتوبر ١٩٣٠ - ص ١٤٦٨.
- (٢٩) الهلال - فبراير ١٩٢٩.
- (٣٠) المجلة الجديدة - سبتمبر ١٩٣٠.
- (٣١) المجلة الجديدة - سبتمبر ١٩٣٠.
- (٣٢) المجلة الجديدة - أبريل ١٩٣٤ - مقال امتلاك الأراضي الزراعية - بقلم عبدالحميد عبدالغنى
ص ٤٣.
- (٣٣) كل شيء - ٢٥ أكتوبر ١٩٢٦.
- (٣٤) المجلة الجديدة - أبريل ١٩٣٤ - ص ١١١.
- (٣٥) الهلال - أبريل ١٩٢٦ ص ٧٧٦.

... مسرحية سكالا تفالالا

وسكالا تفالالا كان النائب الشيوعي الوحيد في البرلمان الإنجليزي، وكان عضوا في اللجنة التنفيذية «للعصبة المناهضة للإمبريالية» وهي تنظيم عالمي يضم ممثلين عديدين لحركات التحرر الوطني في مختلف أنحاء العالم.

ولقد كانت الرجعية المصرية شديدة الحذر من أن يمد الحزب الشيوعي الإنجليزي نطاق اهتماماته إلى مصر فإن ذلك سوف يخلق لها صعوبات جمة، وإن كان الأمر قد حسم تماما مع سلطات الاحتلال بحيث لا يستثنى من حملة الاضطهاد أى يسارى مهما كانت جنسيته.

ويبدو أن الحزب الشيوعي الإنجليزي قد حاول إيجاد علاقة ما بالشيوعيين المصريين، وفزعت الأهرام تحت عنوان «مساءى البلاشفة فى مصر، أيدى الشيوعيين الإنجليز فيها» فقالت: «لندن فى ٢ يوليو- خطب المستر كل فى المؤتمر الشيوعى بمدينة جلاسجو فقال إنهم قطعوا خطوات جدية جدا فى سبيل إيجاد روابط بينهم وبين الأحزاب الثورية فى مختلف أنحاء الإمبراطورية وهم الآن على اتصال مع أحزاب أخرى فى فلسطين وسوريا ومصر..»^(١).

لكن الخطر الأكبر كان يأتى فى نظر الرجعية المصرية وسلطات الاحتلال من «عصبة النضال ضد الإمبريالية».

وقد ركزت أجهزة عديدة للمخابرات جهودها لتقصى نشاط هذه المنظمة الدولية وعلاقاتها بالقوى الوطنية المختلفة.

وثمة وثيقة حصلت عليها المخابرات البريطانية من المخابرات الهولندية حول نشاط هذه العصبة وتقول هذه الوثيقة^(٢) «فى فبراير ١٩٢٨ تلقت المخابرات الهولندية المعلومات التالية عن منظمة عصبة النضال ضد الإمبريالية: والعصبة تضم الشيوعى الإنجليزى سكلا تفالاً والهندي الثورى جواهر لال نهرو (الذى يتردد كثيرا على برلين) والصينى لوشان سن ومدنوب جنوب أفريقيا كولركين..

وقد حضر نهرو المؤتمر الأول للعصبة الذى عقد فى بروكسل فى فبراير ١٩٢٧ كممثل لحزب المؤتمر الهندي وأصبح عضوا فى اللجنة التنفيذية للعصبة. وهو ابن بانديت لوتى لال نهرو الذى حضر المؤتمر الثانى للعصبة فى برلين فى ديسمبر ١٩٢٧ ولكن نهرو الأب يبدو أكثر اعتدالا من ابنه.

ومن المفيد أن نشير إلى أن هذا السياسى العجوز والذى يبدو أنه قد زار موسكو مؤخرا قد قام أيضا بزيارة القاهرة وخلال زيارته هذه اتصل عدة مرات بجمعية الشباب المحمدى التى تأسست فى مطلع هذا العام. وهى جمعية دينية ذات أهداف سياسية ويرأسها الدكتور عبد الحميد بك «عبد الحميد سعيد» عضو البرلمان وهو أحد القادة المتطرفين للحزب الوطنى وقد وعده نهرو بنشر الدعوى لتأسيس فروع لهذه الجمعية فى الهند».

ولسوف تشهد صفحات قادمة مدى الضرر الذى أصاب الدوائر الإمبريالية والرجعية المحلية من مثل هذه العلاقات.

لقد أحسوا بالحركة الوطنية المصرية وهى توشك تتفتح على حركة اليسار العالمى كان لا بد من ضربة سريعة وحاسمة..

ذلك أن العناصر اليمينية فى الحركة الوطنية المصرية كانت تكره اليسار إلى حد أنها كانت ترفض ما يأتى عن طريقه حتى ولو كان تأييدا للأمانى الوطنية المصرية والنضال الوطنى المصرى ضد الاستعمار..

وهكذا بدأت مسرحية سكلا تفالاً.. بهدف إدانة أى اتصال باليسار العالمى حتى ولو كان هذا الاتصال فى إطار النضال العام ضد الاستعمار..

وسكلا تفالاً نائب شيوعى فى مجلس العموم البريطانى. وهو عضو فى اللجنة التنفيذية لعصبة النضال ضد الإمبريالية، وتكتسب عضويته هذه وضعاً خاصاً نظراً لكونه من أصل هندى وقد طلب سكلا تفالاً تأشيرة دخول لمصر من المفوضية الملكية المصرية لندن لكنها أبلغته أن وزارة الداخلية ترفض ذلك.

وأقام سكلا تفالاً الدنيا وأقعدها. فلعلها المرة الأولى التى ترفض فيها حكومة بلد شبه مستعمر منح تأشيرة دخول لعضو فى برلمان الدولة الاستعمارية.

ووجه سكلا تفالاً نداءً إلى الرأى العام المصرى.. ورسالة إلى عدلى يكن رئيس وزراء مصر يحتج فيها على منعه من الدخول إلى مصر. وعن طريق الفرع المصرى لعصبة النضال ضد الإمبريالية وصلت نسخ عديدة من هذه الرسالة إلى كثير من الشخصيات الوطنية المصرية وأعضاء البرلمان الذين أثارهم أن ترفض الحكومة المصرية منح تأشيرة الدخول للنائب الوحيد فى البرلمان البريطانى الذى يدافع عن حق مصر والذى وقف فى البرلمان - وحيداً - معترضاً على طرد القوات المصرية من السودان وغرامة النصف مليون جنيه فى أعقاب مقتل السردار.

ولقد كانت خطابات سكلا تفالاً إلى أصدقائه المصريين وإلى الرأى العام المصرى عنيفة غاية العنف وكان يضح قائلًا: «تكلّموا، تكلّموا يا أبناء مصر، تكلّموا، تكلّموا بأعلى صوتكم، وبأصرح وبأسرع ما يمكن، حتى أستطيع أن أستمع إلى صوتكم وإلى إرادتكم من هنا من بعيد».

وكان يوجه فى رسالته أسئلة مريرة، إجاباتها أكثر مرارة «هل صحيح أنكم تمنعون رجلاً فقيراً مثلى من دخول بلادكم لمجرد أننى أناضل من أجل الحرية الكاملة لشعب بلادكم ومن أجل تخلصه من أى تحكم أو استغلال أجنبى أيا كانت جنسية القائمين به؟ وهل من حق أصدقائى الهنود أن يفترضوا أن المصريين يضطهدوننى وأنا العضو الشرقى الوحيد فى البرلمان البريطانى بينما لا يمنعون أى عضو آخر فى البرلمان، هؤلاء الأعضاء الذين أيدوا فرض غرامة النصف مليون جنيه إسترلينى على مصر والذين طردوكم من أراضى إقليمكم السودان؟ أم ماذا يا شعب مصر؟ هل برلمانكم مجرد ألعوبة؟ وهل كان

وزراؤكم مجرد منفذين مطيعين لتعليمات بريطانية بمنعى من دخول مصر؟ أم أن استقلالكم وبرلمانكم محدودا الأثر»^(٣).

وأحدثت هذه الأسئلة المريعة أثرها وانتقلت القضية إلى الصحف ومنها إلى البرلمان.. وفي البرلمان جرى نقاش حاد أثاره سؤال موجه إلى وزير الخارجية من الدكتور حامد محمود.. ثم استجواب موجه إلى رئيس الوزراء من النائب حسن سيد أحمد نافع^(٤).
والحقيقة أن النصوص الكاملة لمضبطني مجلس النواب حول مناقشة موضوع سكلا تفالا تقدما لنا صورة مسرحية بالغة الدلالة.

فلقد حاول النواب الرجعيون أن يقلبوا المائدة على سكلا تفالا.. ففسروا عبارة وردت في خطابه إلى أصدقائه المصريين جاء فيها أن البرلمان البريطاني لا يفتأ يدعى ظلما واقتدارا حق الرقابة العليا على المرافق المصرية ويحتفظ بممثلين عسكريين وملكيين في الأراضي المصرية والسودانية.

«فبصفتي عضوا في هذا البرلمان أجد من واجبي إزاء الشعبين البريطاني والمصري أن أتى إلى مصر لدرس مسائل معينة في مواقعها»..

ويقف محمد صالح حرب مفسرا هذه العبارة على هواه متهما سكلا تفالا بأنه يعتبر مصر جزءا من الإمبراطورية البريطانية ويصيح بأعلى صوته: «إن هذا التصريح قد أفقد المستر سكلا تفالا كل عطف في هذه البلاد لأن مصر لم تكن يوما ما ولن تكون تابعة للإمبراطورية البريطانية» ويعلو صوته أكثر فأكثر: «إن القلوب التي امتلأت بحب الحرية لا تزال في صدورنا، كما أن أشباح النفوس التي سالت دماؤها على حد السيوف وأسنه الرماح في سبيل الحصول على استقلال البلاد لا تزال مائلة أمام أعيننا (تصفيق).

إننا يا حضرات النواب الكرام نغار على استقلالنا أن يمس حتى ولو بالكلام ولهذا نحن لا يمكننا مطلقا أن نقبل في ضيافتنا رجالا يريد أن يطأ أرضنا باعتبار أنها جزء من الإمبراطورية البريطانية»^(٥).

ويتصدى محمد حافظ رمضان بالرد كاشفا الحقيقة قارنا على النواب فقرات من الخطاب الشخصي الذي وصله من سكلا تفالا مؤكدا أن منعه من دخول مصر هو مساس بالاستقلال وليس دفاعا عنه..

ثم يكشف حافظ رمضان كل أوراق اللعبة موضحا الأسباب الحقيقية لمنع سكالا تفالا من دخول مصر فيقول: «فى الواقع يا حضرات الزملاء إن هذا النائب لم يك نائباً بريطانيا فقط بل الحقيقة أنه عضو فى جمعية أنشئت فى العالم الغربى وستجتمع فى يوم ١٠ فبراير القادم وهى ضد كل استعمار غربى، جمعية أعضاؤها فى جميع البلدان المحايدة كالسويد والنرويج والدانمرك وغيرها ونظيرتها أن جمعية الأمم الحاضرة إنما هى جمعية حكومات تريد أن تقسم بلاد الضعفاء. وإذا أريد أن توجد جمعية أمم حقيقية وجب أن يكون فيها نواب من الأمم أنفسهم لا من حكوماتها فقط. وعلى هذه القاعدة يريدون أن تكون أعمال جمعية الأمم وتصريحاتها موجهة ضد كل استعمار وللأخذ بناصر الأمم المستضعفة. أيعقل أن يحضر إلى مصر رجل هذا شأنه ليدافع عن الاستعمار البريطانى مع أنه حوكم فى بلاده من أجل آرائه ضد الاستعمار»^(٦).

وهكذا تنكشف اللعبة ويتضح السبب الحقيقى لمنع سكالا تفالا، فالرجعيون المصريون لا يريدون أى علاقة بعصبة النضال ضد الإمبريالية.. وهم لا يريدون أى تلامس مع اليسار حتى ولو تضمن تأييدا من هذا اليسار لحقوق مصر القومية..

ويمضى النقاش عنيفا ثم يوجه عبد الرحمن عزام سؤالاً يقول: «أريد أن أستعلم أولاً من دولة رئيس مجلس الوزراء هل حصل احتجاج من الحكومة البريطانية أو من أحد ممثليها على منع هذا النائب؟» ويبتلع رئيس الوزراء الطعم ويجب: «لم يحصل احتجاج».

وهنا يعلق عبد الرحمن عزام قائلاً: «أردت بهذا السؤال أن ألفت نظر حضراتكم إلى أن الحملة التى أشهرت على المستر سكالا تفالا بأنه رجل يؤيد الاستعمار البريطانى ويدعو إليه فى مصر إنما هى حملة غير حقيقية أصلاً ولا تستند إلى شىء من الصواب. والدليل على ذلك أنه لو منع نائب آخر لا يعتنق مبادئ المستر سكالا تفالا المتطرفة لاحتجت الحكومة الإنجليزية على هذا التصرف. وإنى أرى هذا كافياً فى أن يزيل من أذهان حضراتكم آثار الحملة التى أريد بها أن تنزع من قلوبكم العطف على ذلك النائب المحترم».

وهنا يكشف النواب الرجعيون النقاب عن وجوههم ليتحدثوا بصراحة.

«عبد السلام عبد الغفار بك: إننى أؤيد الحكومة بكل قوة فى الإجراءات التى اتخذتها ضد المستر سكالا تفالا.. وعلى كل حال الشيوعية مكروهة وأنا أحبذ تصرف الحكومة فى هذا الحادث وأرجو أن تؤيدها وأن تطلبوا منها الاستمرار على اتباع هذه الخطة».

.. ويقول الدكتور محجوب ثابت: «أرى ونحن فى وقت يراود فيه الصيد فى الماء العكر بكل الوسائل أن من واجبنا أن لا نمكن شيوعيا كائنا من كان من الحضور إلى هذه البلاد».

وأخيرا يعلن رئيس المجلس قفل باب المناقشة ويقرأ اقتراحين، أحدهما من حضرة عبد الرحمن عزام أفندى وحفنى محمود بك ونصه: «نقترح أن تعيد الحكومة النظر فى مسألة المستر سكلا تفالاً وأن تسمح له بالدخول فى القطر المصرى إذا تعهد بالأيتكلم وبالأيتنشر الدعوة الشيوعية فى مصر». ويمضى رئيس المجلس معطيا لنفسه وحده حق رفض هذا الاقتراح فيقول: «يخيل إلى أن هذا الاقتراح غير مناسب فى صيغته لطبيعة الاستجواب.. وأظن أن الأقرب إلى ذلك هو الاقتراح الثانى المقدم من حضرة محمد صبرى أبو علم أفندى وهذا نصه:

«المجلس بعد سماع بيانات حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء يكتفى بإثباتها وينتقل إلى جدول الأعمال»..

وهكذا أسدل الستار على موضوع سكلا تفالاً..

لكنه يبقى أمامنا أن نعرف أن البرلمان الذى ناقش هذا الموضوع كانت أغلبيته لحزب الوفد.. وأن رئيس الجلسة كان سعد زغلول ثم مصطفى النحاس.. ولعل هذا يلقي ضوءاً على علاقة الوفد باليسار فى هذه الأيام، فقد اختطت قيادة الوفد فى ذلك الحين لنفسها خطأ يمينيا يبتعد بها عن أى تلامس مع اليسار حتى ولو كان الهدف منه.. نضال مشترك ضد الاستعمار.

وهكذا ولد تحالف اليسار مع القوى الوطنية الأخرى ضعيفا غاية الضعف بعد أن فقد مباركة قيادة الوفد وتأييدها.

الهوامش

- (١) الأهرام- ٣ يونيو ١٩٢٥.
- (٢) f. 371/13417= file: 152/29
- وهي محفوظة بالمتحف البريطاني ومؤرخة في ٤ مايو ١٩٢٨ ومثبت على صفحتها الأولى أنها ترجمة لتقرير سرى باللغة الألمانية.
- (٣) راجع النص الكامل للنداء في الملاحق. وهي إحدى الوثائق المحفوظة بالمتحف البريطاني وتتضمن صفحتها الأولى البيانات التالية «وثائق وزارة الخارجية البريطانية- مكتب السجلات العامة- ملف رقم ٣٧١ / ١٢٣٥٤- رقم الوثيقة ١٨٨٠ لا يجوز تداولها ولا تصويرها إلا بإذن خاص».
- (٤) أحمد شفيق باشا. حوليات مصر السياسية. الحولية الرابعة عام ١٩٢٧- الطبعة الأولى ١٩٢٨ مطبعة حوليات مصر السياسية. ص ١١.
- (٥) مضبطة الجلسة الثانية والعشرين لمجلس النواب يوم ٢٥ يناير ١٩٢٧ النص الرسمي- ص ٣١ وما بعدها - راجع النص الكامل بالملاحق.
- (٦) المرجع السابق.

عبد الرحمن فضل.. يعدل قانون الجنسية

لعلها قصة أشبه ما تكون بالملحمة الدرامية منها بالحدث السياسي.. قصة ذلك النجار الذى خاض معارك الحزب الاشتراكى المصرى منذ بدايتها الأولى.. ثم سافر إلى فلسطين فتركيا فى طريقه إلى حلم يريد أن يحققه.. أن يدرس النظرية الماركسية فى الاتحاد السوفييتى.

ومن تركيا يتسلل إلى مركب تحمله إلى الاتحاد السوفييتى، وينضم عبد الرحمن فضل بتوصية من الحزب إلى «جامعة ستالين لكادحى الشرق» وتمتد إقامته فى الاتحاد السوفييتى قرابة العشر سنوات.. يدرس ويعمل ويتزوج فتاة روسية.. لكنه يقرر أن يعود إلى وطنه مصر.

كان بإمكانه أن يبقى هناك، لكن الرجل العجوز ترتعش يده وهو يحاول جاهدا أن يهزها فى حماس قائلًا: «كان لازم أرجع. مش المهم انى ادرس واتعلم، المهم انى أرجع بلدى عشان اناضل فيها من أجل الاشتراكية».

وقرر عبد الرحمن فضل أن يعود..

وكان يعلم أن ثمة مشكلة خطيرة تنتظرة فقد أسقط الرجعيون عنه جنسيته.

فصدقى باشا بعد أن أُلغى دستور ١٩٢٣، استصدر فى يونيو ١٩٣١ مرسومين بقانونين استهدف بهما توجيه ضربة عنيفة لكل القوى التقدمية والديمقراطية فى مصر.. المرسوم الأول عدل به قانون المطبوعات ومواد قانون العقوبات المتصلة بالصحافة. والمرسوم الثانى عدل به قانون الجنسية.

ووفقا لهذا المرسوم الذى صدر فى يونيو ١٩٣١ صار تعديل المادة ١٢ من قانون الجنسية بحيث يصبح نصها كما يلى:

«مادة ١٢: يجوز إسقاط الجنسية المصرية بمرسوم عن يقبل دخول الخدمة العسكرية لدى إحدى الدول الأجنبية بدون ترخيص من الحكومة المصرية وكذلك عن يقبل خارجا عن القطر المصرى وظيفة لدى حكومة أجنبية ويبقى فيها بالرغم من الأمر الذى صدر له من الحكومة المصرية بتركها.

وكذلك يجوز إسقاط الجنسية المصرية بمرسوم عن كل شخص يقيم خارجا عن القطر المصرى ويكون منضمّا إلى هيئة غرضها نشر دعاية ثورية ضد النظام الاجتماعى أو الاقتصادى للدولة وضد النظم الأساسية للمجتمع أو ترمى إلى الوصول إلى نفس الغرض بأية وسيلة أخرى أو يكون منضمّا إلى مركز أو فرع أو معهد دراسى أو غير دراسى أو إلى مكتب أو جماعة تابعة لمثل تلك الهيئة أو متصلة بها أيا كان وجه التبعية أو الاتصال وسواء كانت تلك الهيئة أو أحد ملحقاتها موجودة فى القطر المصرى أم فى الخارج، وكذلك يجوز إسقاط الجنسية عن كل شخص يتلقى فى مثل هذه الشروط المتقدمة تعاليم مثل تلك الهيئات وأساليبها سواء كان ذلك بحضور دروس أم بأية طريقة أخرى»^(١).

هكذا تسقط الجنسية بسهولة ويسر وبحكم ما أسماه صدقى قانونا عن كل مواطن يتصل أى نوع من الاتصال بهيئة.. تتصل بآى نوع من أنواع الاتصال بالاتحاد السوفييتى. أو يتلقى دروسا فى معهد دراسى أو غير دراسى عن النظرية الماركسية وسواء كانت تلك الهيئة أو أحد ملحقاتها موجودة فى القطر المصرى أم فى الخارج.

وكان واضحا تماما أن الهدف من استصدار هذا المرسوم هو اعتبار أن «مجرد اتهام المصريين اتهاما إداريا بالشيوعية يقضى بإسقاط الجنسية عنهم كذلك فهم أن استصدار المرسوم بقانون الخاص بهذا التعديل فى قانون الجنسية قبل أن ينعقد البرلمان بيومين اثنين معناه قيام هذا الحكم الجديد من يوم إصداره وعدم إعطاء الفرصة لمناقشته فى البرلمان أو تعديله»^(٢).

وكانت الرجعية المصرية تنتظر هذه الفرصة طويلا.. فلطالما صرحت الأهرام مطالبة بإعادة هؤلاء الشبان الذين يدرسون فى موسكو.. أو بمنعهم من الدخول «حتى لا يعود كل منهم وهو لينين صغير»^(٣).

وهكذا ما إن عقد البرلمان حتى تقدم النائب عبد الله للموم ليسأل الحكومة متى تعتزم الحكومة تطبيق أحكام قانون الجنسية الجديدة فتسقط الجنسية المصرية عن أولئك المصريين المقيمين بالخارج والمتصلين بجماعات تدين بالمبادئ الشيوعية. ولم تتوان الحكومة عن تنفيذ هذا المطلب وبالفعل أصدرت فى أغسطس مرسوما بحرمان ثمانية من المصريين المقيمين بالخارج من جنسيتهم بحجة اتصالهم بأنظمة شيوعية^(٤)..

وكان عبد الرحمن فضل واحدا من هؤلاء الثمانية. لكنه كان يعرف أنه أكثر مصرية من هؤلاء الباشوات الرجعيين، وأنه ما من قوة فى الأرض تستطيع أن تنتزع منه مصريته. وقرر أن يعود.

وفى موسكو ودعه أحد أساتذته وهو يشد على يديه قائلا: «عبد الرحمن.. لقد تعلمت كثيرا، لكن لا تحاول أن تتفلسف على أبناء وطنك. نحن لا نريد فلاسفة وإنما نريد أناسا يوقظون الشعب».

- ومن موسكو إلى باريس ثم إلى بيرييه حيث استقل السفينة «أيونيا» فى طريقه إلى الوطن وفى ميناء الإسكندرية قبض عليه البوليس ومنعه من مغادرة المركب ونبه على القبطان بأنه مسؤول عن بقاءه على ظهرها حتى تغادر المياه الإقليمية.. وعادت به السفينة إلى ميناء بيرييه حيث رفض هو النزول، ثم غادت به السفينة إلى الإسكندرية ورفضوا مرة أخرى السماح له بمغادرتها..

ورفض عبد الرحمن فضل التراجع عن موقفه. مصمما على حقه فى العودة إلى وطنه، رافضا أى تنازل عن هذا الحق..

وهكذا وضع الحكومة المصرية فى مأزق..

أما الشركة صاحبة السفينة فقد وجدت نفسها فى مأزق هى أيضا وحاولت التخلص منه دون جدوى حتى إنها فكرت فى بيع السفينة تخلصا من هذا الضيف الدائم..

و«تكرر زهابى وإيابى من ميناء بيريه اليونانى إلى الإسكندرية والعكس ٥٤ مرة وفى كل مرة أصل فيها إلى ميناء الإسكندرية كنت أجد عشرات من مندوبى الصحف المحلية والعالمية فى انتظارى»^(٥).

وهكذا ومن خلال الإصرار العنيد نجح عبد الرحمن فضل من جديد فى تفجير مشكلة الشيوعيين الذين أسقطت عنهم جنسيتهم.. وبدأت الصحف تثير القضية من زوايا مختلفة وطنية وإنسانية وقانونية..

وقد بدأ مراسل الأهرام بالإسكندرية الحملة..

«وصل أمس بعد الظهر على السفينة أيونيا الشاب المصرى محمد فضل الذى نزعت عنه جنسيته المصرية ومنع من الدخول إلى هذا القطر أربع مرات قبل هذه المرة، وكان قد وصل إلى هذا القطر فى المرة الأخيرة من نحو ثلاثة أسابيع ثم أعيد إلى السفينة التى جاء عليها. وعند وصول هذه السفينة أمس إلى الميناء ذهب ربانها إلى القنصلية اليونان فى الإسكندرية وقابل أنطونوبلو القائم بأعمال القنصلية وقدم له مذكرة يشكو فيها مما أصابه من وجود هذا الرجل على ظهر سفينته لأن الحكومة اليونانية لم تسمح له بالنزول فى بلاده عندما أعيد إليها وكذلك الحكومة المصرية لا تعترف به من رعاياها ولا تسمح له بالنزول فى هذا القطر وأن البوليس قد اتخذ الاحتياطات اللازمة حين وصول السفينة لعدم تمكن محمد فضل المذكور من النزول والتسرب إلى داخل البلاد.

وقال الربان أنه بات حائرا لا يدري كيف العمل للتخلص من هذه الورطة.. وقد وعده القنصل بعرض المسألة على ولاة الأمور فى مصر للنظر فيما يمكن عمله.. وقد علمنا أن البوليس قرر إعادة محمد فضل غدا على الباخرة أيونيا»^(٦).

.. ويذهب عبد الرحمن فضل ليعود مع السفينة مرة أخرى ونكتب الأهرام مرة أخرى «عادت الباخرة اليونانية أيونيا إلى الإسكندرية اليوم من بيريه فعاد عليها محمد فضل المجرد من الجنسية المصرية بسبب ما اتهم به من اتباع المبادئ الشيوعية. وعودته هذه هى السادسة فهو يذهب فلا يباح له النزول هناك ويأتى فلا يؤذن له بالنزول هنا. وإذا نزل فإنه يعتقل ويعاد إلى السفينة وسترجع هذه الباخرة فى الساعة السادسة مساء فيرجع محمد فضل عليها والمفهوم أن إدارة الأمن العام لا تعدده مصريا بسبب تجريده من الجنسية وهى لذلك لا تبالى بأمره. وكان ينبغى اتخاذ بعض التدابير لحل مشكلته من

الوجهة الإنسانية لأنه ليس من الطبيعي أن يظل ذاهبا آتيا بين مصر واليونان»^(٧).

وفى المرة السابعة تكون المسألة قد نضجت ويكون الرأى العام قد تهيأ فيوجهه عبد الرحمن فضل نداء إلى الرأى العام تنشره الأهرام تحت عنوان «من المصرى التائه إلى حضرة المحترم وكيل الأهرام السكندرى» وتعلق الأهرام على هذا النداء قائلة: «لقد طلبنا إلى زوى الشأن الاهتمام بحل مشكلة هذا الشاب من الجهة الإنسانية بحيث يتسنى له أن يصل إلى بر ولا يظل مسافرا على الباكسة ذاهبا آتيا لا يقبله بلد»^(٨).

والآن لم يعد عبد الرحمن فضل وحده.. فهناك مشكلة شعبان حافظ الذى كان قد عاد إلى البلاد خلصة ومارس نشاطا حزبيا انتهى به إلى السجن ويوشك أن يفرج عنه لكنه أيضا مجرد من جنسيته.. وهناك أيضا مشكلة حسنى العرابى وكان فى برلين، «وهو منذ زمن طويل يطرق كل باب يؤذن له للعودة إلى وطنه»^(٩).

وتحاول إدارة الأمن العام أن تجد مخرجا من هذه الأزمة فتقدم مذكرة إلى وزارة الداخلية تقترح فيها النظر بعين الرفق فى حالة هؤلاء الأشخاص «إذا قامت الأدلة على كفهم عن الشيوعية»^(١٠).

ويبدو أنه كان مطلوبا من عبد الرحمن فضل نوعا من الإقرار بتخليه عن الشيوعية لكنه رفض وواصل رحلته جيئة وذهابا على ظهر الباكسة أيونيا..

وتبدأ الأهرام حملة جديدة تطالب فيها أعضاء مجلس النواب بالتدخل فتقول: «عسى أن يهتم بعض نوابنا الكرام بهذا الحادث الغريب ويطلب من الحكومة إخراج هذا الشاب من هذه الورطة الشنيعة والنظر فى مسألته بعين الرفق والعدل فى حدود القانون»^(١١).

وتتعدد المشكلة أكثر عندما يقرر القبطان أن «يمتنع عن تقديم الطعام لهذا الشاب على حساب الباكسة منذ أمس وقد حاول أحد أقاربه اليوم أن يقدم له بعض الطعام قبل سفر السفينة فرفض.. فسفرته الحادية عشرة هذه إلى اليونان ستكون سفرة سيئة ولا ندرى ماذا يليها.

ونحن لا نظن أن ربان السفينة قصد بما فعل اقتصاد قيمة غذاء عبد الرحمن فضل.. وإنما قصد لفت نظر السلطات المصرية إلى حالة هذا الشاب المصرى الذى يقاسى العذاب فى سبيل العودة إلى وطنه ولا يجد من يهتم بأمره»^(١٢).

ويبدو أن الحكومة المصرية قد ضغطت على الشركة صاحبة السفينة فعاد القبطان من جديد إلى تقديم الطعام له.

ولم يكن عبد الرحمن فضل يكتفى بهذا الموقف السلبي ذاهبا آتيا بل كان هو وزملاؤه فى داخل البلاد يثيرون حملة واسعة للمطالبة بتعديل قانون الجنسية وإلغاء الفقرة التى تسمح بإسقاط الجنسية المصرية عن الشيوعيين المقيمين بالخارج.

فهو يقول فى نقاش معه: «أنا كنت أستفيد من ذلك كله فى إثارة الفضية ككل وفى إحداث أكبر ضجة ممكنة.. حتى أصبحت معظم الصحف تتحدث عن القضية.. واستطعت أن أثير عطف الناس على القضية وكانت المركب تسير فى خط منتظم الإسكندرية - بيرييه وكان يسافر عليها كثير من المصريين وكنت أتعلم بهم جميعا وأثير معهم قضيتى وأذكر أننى اتصلت فى إحدى المرات بالدكتور قناوى رئيس المجلس البلدى بالإسكندرية وكان مسافرا على المركب هو وزوجته.. وقد بكت زوجته عندما سمعت قصتى ووعدى الدكتور قناوى بمساعدتى، وعندما عاد اتصل بأحد أصدقائه وهو عبد الوهاب الوكيل مراسل المقطم بالإسكندرية وطلب إليه إثارة قضيتى»^(١٣) وبدأ المقطم يشارك فى الحملة وأطلق على عبد الرحمن فضل اسم «زارع البحار»^(١٤).

وبدأت الحكومة تشعر بالحرج، وتحس أنها محاصرة ولا بد من أن تتخذ موقفا يحل هذه المشكلة، لكنها حاولت أن تسوف إلى أطول مدة ممكنة عسى أن يتراجع «زارع البحار» عن موقفه.

ونشرت الأهرام: «ما زال عبد الرحمن أفندى فضل يذرع البحر ذاهبا وآتيا، فإذا كان الجمهور يتناساه بين الأسبوع والأسبوع، فإن البوليس لا يتناسى الوقوف له بالمرصاد.. وكنا قد ذكرنا قبل الآن أن بعض ذوى الشأن باتوا يميلون إلى إصلاح حالة أولئك الأشخاص الذين جردوا من جنسيتهم من أجل ما كان ينسب إليهم من اتباع الحركة الشيوعية.. وإن هناك مذكرة وضعت لهذا الغرض، والمفهوم أن هذه المذكرة ما زالت فى وزارة الداخلية تحول دون البحث فيها كثرة الأعمال. وربما كان من سوء حظ هؤلاء الأشخاص ولا سيما عبد الرحمن فضل أن تنهك الحكومة وينهك البرلمان وجميع الدوائر العاملة فى البلد فى مسألة المعاهدة فى هذه الأيام.. فإن هذا يرجئ كثيرا من المسائل الأخرى ومنها مسائلهم الخاصة ولكن ما دامت النية منصرفة إلى إنصافهم فلم أن ينتظروا النتيجة باطمئنان»^(١٥).

كذلك تنشر البلاغ خبرا يقول: «يعرض حضرة صاحب العزة أحمد حمدى محجوب بك بدار الأمن العام على دولة وزير الداخلية هذا المساء أو بعد ظهر السبت القادم مسألة

عبدالرحمن فضل للفصل فيها. ويقول مندوبنا إن النية متجهة إلى إباحة دخوله القطر بقيود ثقيلة»^(١٦).

وهكذا توشك المعركة أن تنضج، إن الحكومة تستعد للتراجع لكنها تماطل على هذا الشاب العنيد ينسحب من المعركة ويريحها من تعديل قانون الجنسية. ويشعر عبدالرحمن فضل أنه قد آن الأوان لشن هجوم جديد فيعلن إضرابه عن الطعام.

وتقول الأهرام: «عادت الباخرة أيونيا من اليونان وعاد عليها عبدالرحمن فضل.. لكن موقف الفتى في هذه المرة يختلف عنه في المرات السابقة فإنه أُضرب عن الطعام فعلا منذ ستة أيام ولا يزال مضربا وستعيده السفينة اليوم بعد الظهر إلى بيريه وهو بهذه الحالة. وقد علمنا أنها ستعود إلى الإسكندرية يوم السبت القادم جريا على عاداتها ثم تبحر إلى اليونان وقد تنقطع عن السفر بعد ذلك مدة لأن الشركة ستدخلها إلى الحوض الجاف هناك لإصلاحها فيه وترميمها. فماذا يحل بفضل في هذه المرة إذا لم يسعف ويؤذن له بالنزول إلى البر..

ولقد أصبح موقفه دقيقا ومحفوفا بالخطر.. وسألنا عما جرى بمشروع إعادة النظر في مسألة الشبان المصريين المجريين من جنسيتهم بسبب تهمة الشيوعية.. فقليل أن مذكرة قدمت إلى صاحب الدولة رئيس الوزراء ووزير الداخلية بهذا الشأن ولكن الفصل في هذه الحالة نهائيا يتطلب بعض الوقت»^(١٧).

وطوال هذه الشهور الخمس لم يكن عبدالرحمن فضل بغير اتصالات برفاقه داخل مصر وخارجها. وكان يستطيع أن يهرب من المركب إلى مصر لكن الوقت لم يكن قد حان بعد، وكان لا بد لصموده على المركب أن يستمر إلى أطول مدة ممكنة حتى يهيئ الرأي العام في مصر ضد قانون الجنسية الظالم وحتى يجبر الحكومة على التراجع..

لكن المركب سوف تدخل إلى الحوض الجاف.. كذلك فإن المعركة قد نضجت تماما «كانت المسألة قد «استوت» وكانت أخباري في الصحف تحتل مكانا ثابتا في كل يوم، وكانت قضيتي قد انتقلت إلى البرلمان عن طريق الأستاذين فكرى أباطة وعبد الحميد عبدالحق»^(١٨).

وهكذا قرر عبدالرحمن فضل أن يبدأ الجولة الأخيرة من معركته.. أن يهرب من المركب إلى أرض مصر..

وكانت الترتيبات قد أعدت بإحكام «فقد تدخل الحزب الشيوعي اليوناني، ونجح في استبدال قبطان السفينة بأحد الرفاق اليونانيين».

كذلك نجح رفاق عبدالرحمن فضل من أعضاء الحزب القدامى فى إعداد وسائل الهرب له.. وأعد كل شيء وحان يوم التنفيذ.

عندما تتحرك المركب تاركة ميناء الإسكندرية سيقف القبطان بنفسه ليراقب الحالة ثم يشعل سيجارة فيلقى عبدالرحمن فضل بنفسه إلى الماء حيث تنتشله مركب مصرية ستكون فى انتظاره..

وأحس أحد جنود البوليس المصريين الذين كانوا يلزمونه على المركب طوال بقائها بالإسكندرية بشيء غير عادى.. فسأله: «هل تنوى أن تفعلها الليلة.. وأجاب عبدالرحمن: نعم. فقال الجندى: حسنا لا تذهب من الجهة الشرقية فهناك كمين معد لبعض مهربي المخدرات»^(١٩).

وهكذا كانت حملة إيقاظ الرأى العام قد نجحت إلى حد كسب جنود البوليس إلى صفه..

وأخيرا.. وبعد حوالى خمسة أشهر غادر عبدالرحمن فضل المركب إلى أرض الوطن ولم تعد هناك قوة فى الأرض تستطيع اقتلعه منها..

وتنشر الأهرام: «بلغنا اليوم أن عبدالرحمن أفندى فضل.. قد غادر السفينة يوم السبت الماضى عند مغادرتها ميناء الإسكندرية.. فهو لم يعد فيها ولا يعرف أين هو.. وقد سألنا إدارة الضبط والربط فى المحافظة عن نصيب هذا الخبر من الصحة فأكد لنا جناب مأمور الضبط أن عبدالرحمن فضل أبحر على أيونيا ولم يغادرها»^(٢٠).

لكن عبدالرحمن فضل كان فى الإسكندرية.. فى أحضان رفاقه القدامى. بل لقد اتصل تليفونيا بمراسل الأهرام.. وتنشر الأهرام مؤكدة الخبر: «مسألة عبدالرحمن فضل - ثبوت نزوله إلى البر - مسألة دستورية مهمة» وتقول الأهرام: «إن البوليس أبرق إلى بيريه يسأل عن فضل وهل هو باق على ظهر الباخرة أم خرج منها فكان الجواب أنه افتقد عند الساعة العاشرة من مساء يوم السبت ولم يوجد بين ركابها..».

وتمضى الأهرام مدافعة عن فضل: «ليس جرما ما فعله فضل وزملاؤه فى الأصل وليس عدلا تجريدهم من جنسيتهم بسببه، فكيف يكون من العدل الآن حرمانهم من العودة

إلى أهلهم وبلادهم.. إن القضاء قادر على الفصل فى كل حادث من حوادث الإخلال بالقانون والأمن العام فيجب أن تكون له السلطة العليا فى حل مشكلة هؤلاء الشبان لا إدارة الأمن العام التى كثيرا ما تنظر إلى الأمور بنظارة سوداء. ثم إنه بات صعبا على هذه الإدارة أن تنفى فضلا وشعبان من مصر من الوجهة العملية لعدم وجود بلاد تقبل نهابهم إليها مطرودين من وطنهم ولا جنسية لهم.. وكيف يتيسر تجريد فضل وزملاؤه من الجنسية المصرية وهم مصريون بحق الولادة.. لا شك فى أن المسألة مسألة دستورية مهمة يرجى حلها حلا دستوريا عادلا^(٢١)».

وحاول البوليس أن ينفى وجود عبدالرحمن فضل فى الإسكندرية وقال إنه هرب بعيدا إلى قلب الصحراء.. لكن بعض أعضاء مجلس النواب أعلنوا أنهم قابلوا عبدالرحمن فضل فى الإسكندرية وتناولوا معه طعام الغداء^(٢٢) كذلك تنشر البلاغ أنه قد اتصل بها^(٢٣).

ووجه عبدالرحمن فضل - وهو مختف عن الأنظار - خطابا مفتوحا إلى مصطفى النحاس رئيس الوزراء جاء فيه: «إننا الآن فى ظرف جديد نتمنى أن تصل مصر فيه إلى ما تصبو إليه وتأخذ مكانتها بين الأمم. إن القانون الحائل بينى وبين منحنى الحرية الفردية التى كفلها الدستور هو قانون جائر.. وها قد انتقلت الأمة إلى حياة جديدة وألغت جميع القوانين التى صدرت رغم إرادتها كما صرحتم بذلك.. فهل مثل هذا القانون يتفق مع الدستور وهل من السهل على المرء أن يكون محروما من جنسيته ووطنه وأهله وجميع حقوقه الطبيعية؟ إننى على ثقة من أن حكومتنا المصرية ستقضى بإلغاء هذا القانون، كما أننى واثق جدا من أنها لن تضطررنى إلى الاعتقاد بأن مصيرى سيكون كمصير الفيلسوف اليونانى حينما راح يفتش بفانوسه فى رائحة النهار قائلا: إنه يبحث عن العدالة وأنصارها.

إن كل ما أعتمد عليه فى حل مشكلتى هو عطف الأمة وصراحة الدستور وعدالة القضاء وشهامة الصحافة الحرة فى تأدية مهمتها». وتنشر الأهرام هذا الخطاب المفتوح وإن كان يعيب على عبدالرحمن فضل بعض ما فيه من حدة قائلا: «إن العرائض التى يقدمها إلى دولة رئيس الوزراء يجب أن تكون خالية من الملاحظات الفلسفية»^(٢٤).

وتحت ضغط الرأى العام أعلن البوليس أن حل المشكلة يتطلب إلغاء المرسوم الصادر فى ١٩٣١ بشأن تجريد بعض المصريين من الجنسية المصرية. وإنه حتى يلغى هذا المرسوم فإن البوليس سيكتفى «بمعرفة مقره إلى أن تحل مسألته حلا قانونيا»^(٢٥).

وفى نفس الوقت «كان الدكتور سيد صبرى أستاذ القانون الدستورى والأستاذ زكى عريبي المحامى قد رفعوا دعوى باسمى أمام القضاء ضد وزارة الداخلية..
وقد ألقى الدكتور سيد صبرى أكثر من ثمانى محاضرات عن مسألتى - من الناحية الدستورية - ونشر بعض هذه المحاضرات فى كتب القانون، واتخذها موضوعا من الموضوعات التى يدرسها لطلاب الحقوق»^(٢٦).

وأخيرا.. وبعد أن تأكد عبدالرحمن فضل أن أعداءه أعجز من أن يبعدوه مرة أخرى عن مصر.. وأن قوى واسعة قد التفت حوله لتسانده وتحميه أعلن أنه سيسلم نفسه ولكن ليس للبوليس.. وإنما لرئيس مجلس النواب «باعتبار أن مسألتة مسألة دستورية ولا علاقة لها بالقانون الجنائى».

وكان عبدالرحمن فضل قد اتصل بالأستاذ فريد جرجس عضو مجلس النواب عن دائرة العطارين حيث كان يقيم وبحث معه هذا الأمر..

ووزع عبدالرحمن فضل من مكنه على الصحف كتابا مفتوحا إلى رئيس مجلس النواب جاء فيه: «... إنى ألتجئ اليوم إلى مجلس النواب بصفته أكبر هيئة تشريعية فى مصر وأعضاؤه هم ممثلو الأمة وإنى أعتقد بأن النواب الكرام الذين أخذوا على عاتقهم الدفاع عن مصالح الأمة والحرية الفردية هم القادرون على حل مشكلتى.. وإنى أعلن اليوم على صفحات الجرائد العربية والإفريقية إنى فى حماية البرلمان ونوابه، وكل ما أعتقد فيه وأعتمد عليه فى حل مشكلتى هو عدالة البرلمان وشهامة نوابه وصراحة دستور البلاد الذى لا يتفق مع وجود بعض نصوص قانون الجنسية الشاذ الذى بموجبه تسلب حقوق الإنسان الطبيعية»^(٢٧).

كذلك وجه عبدالرحمن فضل نداء إلى الراى العام قال فيه: «لا يمكننى أن أقدر لكم خدماتكم فى الدفاع عن الحق وخدمة الإنسانية فى مشكلتى الشددة.. إن السلطة التنفيذية عاجزة عن حل هذه المعضلة لأنها معضلة قانونية ودستورية فلذلك ألتجئ إلى البرلمان فى هذا الظرف العصيب بصفته أكبر هيئة تشريعية فى البلاد أى الهيئة القادرة على أن تسن القوانين التى تتفق مع روح العصر.

كما أنى على ثقة من أن البرلمان الذى يمثل الأمة المصرية ونوابه الذين أخذوا على عاتقهم حماية الدستور وحرية الأفراد قادرون على حماية كل فرد من أفراد الأمة بـلتجئ إلى البرلمان وإلى شهامة نوابه.

ولقد عازمت بعد كتابة هذه السطور أن أقدم نفسى لمجلس النواب معتمدا على عدالته وللعدالة أن تفعل بى ما تشاء»^(٢٨).

ورضخ الرجعيون.. واستسلموا أمام إصرار عبدالرحمن فضل وأمام غضب الرأى العام وسمحوا له بالإقامة فى مصر.

لكن هذا لم يكن الانتصار الوحيد له ولرفاقه، فإن المشكلة التى فجروها والتى استطاعوا أن يحشدوا حولها أوساطا واسعة من رجال القانون والنواب والصحفيين وجمهرة الرأى العام كان لا بد لها من تحقيق نتيجة إيجابية. وكان لا بد لقانون الجنسية أن يسقط وسقط فعلا..

فلم يمض سوى أقل من شهر حتى نشرت جريدة المصرى: «علمنا أن ولاية الأمور بوزارة الداخلية أتموا تعديل قانون الجنسية لا سيما المادة ١٣ منه الخاصة بإسقاط الجنسية وسيرفع القانون بعد تعديله إلى صاحب المقام الرفيع وزير الداخلية للاطلاع عليه قبل إحالته إلى اللجنة التشريعية لمراجته من جهة الصيغة القانونية ليتمكن عرضه على البرلمان فى دورته الحالية»^(٢٩).

وبعد يومين ينشر المصرى المبادئ الأساسية لتعديل المادة ١٣ فيقول: «أريد بالتعديل الجديد فى هذه المادة العمل على توسيع نطاق المادة ١٥٠ من قانون العقوبات حتى تشمل معاقبة الأشخاص الذين يشتغلون فى الخارج بالشيوعية والدعوة إلى نظم تغاير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية عند عودتهم إلى مصر.

ونص على أن اشتغال المصريين بهذه الأعمال فى الخارج يعرضهم للعقوبة المقررة ولو لم تكن قوانين البلاد التى قاموا فيها بهذه الأعمال تعاقب عليها..».

وتمضى جريدة المصرى قائلة: «.. والنتيجة البارزة لهذا التعديل هى جعل جريمة الاشتغال بالشيوعية فى مستوى الجرائم الأخرى من حيث تعرض مرتكبها للعقوبة المقررة من غير حرمان من جنسيتهم وبذلك لا تتكرر حادثة تشابه حادثة عبدالرحمن فضل مرة أخرى»^(٣٠).

ولا شك أنه من حق عبدالرحمن فضل ورفاقه أن يعتبروا أنفسهم أصحاب هذا الانتصار.

لكنه ليس من حقنا أن ننقل إلى حديث آخر دون أن نشير إلى دلالة كل ما سردناه من أحداث..

ذلك أن تنظيم هذه الحملة الذكية على صفحات كل الجرائد المصرية.. وكل هذه الاتصالات برجال القانون وبالمحامين، والصحفيين وأعضاء البرلمان إلخ..

كما أن ترتيب عملية الهرب والتسلل إلى داخل البلاد.. ثم تهيئة مخبأ أمين لعبء الرحمن فضل يظل فيه لفترة طويلة بعيدا عن متناول يد البوليس وإن كان قد ظل طوال هذه الفترة على علاقة وثيقة بالجماهير وبالرأى العام يوجه إليه نداءاته.. ويقابل عديدا من الشخصيات..

كل ذلك يوحى بوجود قوى منظمة بل ودقيقة التنظيم وذات قدرة عالية على الحركة خلف هذا الانتصار العظيم.

إنها قوى هؤلاء الرجال الذين واصلوا فى دأب وإصرار غريبين نفس المسيرة الشجاعة.. منذ العشرينيات حتى مطلع الأربعينيات.

الهوامش

- (١) مرسوم بقانون بتعديل قانون الجنسية.
- (٢) محمود عزمى - خبايا سياسية - كتب للجميع. مطابع جريدة المصرى - فبراير ١٩٥٠ ص ٧٨.
- (٣) الأهرام - ٣-١٩٢٤.
- (٤) محمود عزمى المرجع السابق - ص ٨٠ - راجع النص الكامل للمرسوم باللاحق.
- (٥) صبرى أبو المجد «المصور» ١٩٦٦/٣/١١ مقال «هذا النجار المصرى العجوز تدرس قضيته فى كلية الحقوق».
- (٦) الأهرام ١٩٣٦/٨/٢١.
- (٧) الأهرام ١٩٣٦/٨/٢٧.
- (٨) الأهرام ١٩٣٦/٨/٣٠.
- (٩) الأهرام ١٩٣٦/١٠/٢٣.
- (١٠) الأهرام - المرجع السابق.
- (١١) الأهرام ١٩٣٦/٩/١٢.
- (١٢) الأهرام ١٩٣٦/٩/٢١.
- (١٣) راجع النص الكامل لمحضر النقاش مع عبد الرحمن فضل. فى كتابنا تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر - المرجع السابق. الملاحق.
- (١٤) المقطم ١٩٣٦/٩/٤.
- (١٥) الأهرام ١٩٣٦/١١/١٦.
- (١٦) البلاغ ١٩٣٦/١١/٢٢.
- (١٧) الأهرام ١٩٣٦/١١/٢٢.
- (١٨) المصور - المرجع السابق.
- (١٩) المصور - المرجع السابق.
- (٢٠) الأهرام ١٩٣٦/١٢/٢٣.
- (٢١) الأهرام ١٩٣٦/١٢/٢٥.
- (٢٢) المصور - المرجع السابق.
- (٢٣) البلاغ ١٩٣٦/١٢/٢٨.
- (٢٤) الأهرام ١٩٣٧/١/٤.
- (٢٥) الأهرام ١٩٣٧/١/٢٠.
- (٢٦) المصور - المرجع السابق.

- (٢٧) الأهرام ١٩٣٧/١/٢٥ .
(٢٨) البلاغ - ١٩٣٧/١/٢٥ .
(٢٩) المصرى ١٩٣٧/١٢/٢٣ .
(٣٠) المصرى ١٩٣٧/١٢/٢٥ .

تهادنت قيادة الوفد.. فتحالف المستضعفون

عندما تأسس الحزب الاشتراكي المصري فى أغسطس ١٩٢١ سعى منذ اليوم الأول لميلاده لإيجاد نوع من التحالف بينه وبين حزب الوفد على أساس وحدة النضال المشترك ضد الاستعمار.. وربما بالغ الحزب فى تقديره للدور الوطنى لقيادة الوفد، ففى ١٤ ديسمبر ١٩٢١ أصدر الحزب «بياناً إلى الأمة» أعلن فيه اغتباطه بانقطاع المفاوضات «وحدد الحزب فى هذا البيان برنامجاً من ثلاث نقاط لتوحيد النضال الوطنى ضد الاستعمار..

١- تضامن الصحافة على ترك مسائل الشقاق، والاقتصر على ما فيه خير البلاد.
٢- توحيد السياسة الوطنية بأن لا يقبل مصرى تأليف وزارة تعمل بأى شكل تحت هيمنة مشروع كيرزن.

٣- الاتفاق على تعيين خطة الجهاد الوطنى المشروع تحت لواء وكيل الأمة وزعيمها المخلص الأمين سعد باشا زغلول»^(١).

ولقد كان هذا الموقف المتساهل محل انتقاد من جانب الحركة الشيوعية العالمية التى حددت موقفها من خلال مقال مهم نشره م. ن. روى^(*) فى النشرة الرسمية للكونغرس بعنوان «الانقلاب السياسى فى مصر» جاء فيه:

«.. وهنا جاء دور سعد زغلول ليظهر على مسرح السياسة فأراد أن يستخدم الوضع الثورى الحاد فى البلاد ليفرض على إنجلترا مطالب الفئات المتقدمة من ملاك الأرض والزراع والبرجوازية الكبيرة، وهى الفئات التى كان يمثلها والتى كانت مطالبها تفوق مطالب الإقطاعيين الرجعيين المتحالفين مع الملكية الفاسدة. لقد تكون الوفد المصرى بقصد المساومة مع الاستعمار البريطانى على استقلال مصر، ولكى يضمن مساندة الشعب الثائر كان على الوفد أن يتبنى المطالب التى تمثل ثورة الشعب.. لكن الاتفاق الذى تم بين الوفد المصرى بقيادة سعد زغلول وبين اللورد ملتر - وهو لا يختلف إلا قليلا عن التبعية التى قبلها ائتلاف (عدلى - ثروت) يثبت أن الوفد المصرى لم يكن جادا فى طرح تلك الشعارات فقد طرح هذه الشعارات فقط ضمانا للتأييد الشعبى».

«ولكن الحكومة البريطانية أزعتها هبة الجماهير الثورية لدرجة أنها لم تدرك أن الصلة التى تربط بين قيادة الوفد والحركة الشعبية صلة مفتعلة. ولهذا اتخذت بعض الخطوات التى قوت تلك الصلة. فرفضت السماح للوفد بالسفر إلى إنجلترا، وهكذا صنع غياب الاستعمار من سعد زغلول بطلا شعبيا، بينما هو لم يكن يهدف إلا إلى الوصول - ومن خلال المفاوضات - إلى تسوية جزئية».

ويمضى روى محددا موقفا قاطعا من قيادة الوفد فيقول: «يتبين الأحداث السياسية الأخيرة سقوط التجمع الانتهازى، وتؤكد أن التاريخ قد جرد برجوازية المستعمرات من أى دور ثورى حق، والحقيقة أن عدم استعداد سعد زغلول لقيادة الكفاح الثورى عند عودته من لندن فى سبتمبر عام ١٩٢٠ يدل على أن حزب سعد زغلول قد استنفد دوره الثورى. ولم يمض وقت طويل حتى كانت القوى الاجتماعية الثورية ترفض قيادته. فقد رفض عمال السكك الحديدية القيام بإضراب عام دعا إليه سعد زغلول فى ديسمبر ١٩٢٠، وكان هذا الرفض أول دليل على التباعد بين القوى البرجوازية وبين قوى الثورة الجماهيرية وهكذا وفى النهاية سقطت القوى البرجوازية فى أحضان الاستعمار بعد أن حققت لنفسها طوال شهور حافلة نجاحا مثيرا.. وقد كان الكفاح الثورى التلقائى خلالها هو الذى يمنعها من أن تسقط هذا السقوط»^(٢).

وكان لا بد لمثل هذه الأفكار أن تؤثر فى صفوف الحزب، الذى كان فى ذلك الحين يسعى للانضمام إلى الكومنترن.. وكان أيضا قد طهر صفوفه من كثير من العناصر

«المعتدلة» واليمينية.. فما إن تولى سعد زغلول رئاسة الوزراء فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ حتى وجه له الحزب «خطابا مفتوحا» يتضمن ما يسمى فى الأدبيات السياسية «بالتأييد المشروط» فبدلا من المطالبة بـ«تعيين خطة الجهاد الوطنى المشروع تحت لواء وكيل الأمة وزعيمها المخلص الأمين سعد باشا زغلول» كما تضمن بيان الحزب إلى الأمة فى ديسمبر ١٩٢١، نجد أن الحزب يطالب الحكومة «بالاعتراف بنقابات العمال والفلاحين وبحقها فى الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية» كذلك طالب الحكومة بـ«حل مشاكل العمال العاطلين.. وبالاعتراف بحكومة السوفييت أسوة بالأمم المتعدية»^(٣).

وعلى أية حال فإن سعدا لم يعط فرصة لا للتحالف المشروط ولا غير المشروط فقد استخدم كل قبضته ونفوذه فى توجيه ضربة إلى الحزب.. وكان النجاح الأكبر للاحتلال وللرجعية المصرية هو استخدام سعد لأداء هذه المهمة غير النظيفة. ولم يقتصر الأمر على قرار بالحل.. أو دفع كوادى الحزب إلى السجون، ولا على تعمد سعد أن يشرك قواعد حزبه فى المعركة ضد الحزب وأن يبذل جهد طاقته فى هذا الصدد. فإن ذلك لم يكن كل الخطأ الذى ارتكبه سعد زغلول، ذلك أنه نهج بالفعل نهجا معتدلا بل ومتهادنا فى أغلب الأحيان تجاه القضية الوطنية نفسها. وتماما كما تنبأ روى فى مقاله عام ١٩٢٣ سار سعد زغلول فى طريق الانفصال عن الجماهير الشعبية والتهادن مع الاحتلال..

وحتى عندما تجاوز زيور كل حد وتجاهل الدستور وحل البرلمان وفرض قانونا جديدا للانتخاب فقد اتخذ سعد موقف الاعتدال الشديد فى مهاجمته وتحالف مع عدلى والدستوريين فى محاولة لتسوية الخلاف عن طريق «حسن التفاهم» مع المندوب البريطانى.. وتعلق جريدة الأخبار (الحزب الوطنى) على هذا الموقف قائلة: «ويجب أن لا ننسى فى هذه الحالة أن رجال الأحزاب وإن أظهرها تمسكهم بشرعية البرلمان المنحل إلا أنهم كانوا متمسكين أيضا بأهداب التروى والاعتدال طوال المحادثات المعلومة (المحادثات بين المندوب السامى وعدلى) أملا منهم بأن الخلاف يسوى بينهم وبين المندوب البريطانى بالتى هى أحسن. حتى إذا وجدوا ميلا جديا منه للتسوية شرعوا فى وضع أسسها متهاونين معه بقدر الاستطاعة»^(٤).

كذلك دعا فتح الله بركات بصفته رئيس النادى السعدى أعضاء مجلس الشيوخ إلى حفل شاي بالنادى يوم ٨ فبراير ١٩٢٦.. وصدر عن الاجتماع (٧٢) شيخا وأيدهم ٣ بالتلغراف) بيان ضعيف يلوم الحكومة على تصرفاتها.. وبدا الأمر وكأنهم يخاطبون المندوب السامى وهم يختتمون ببيانهم قائلين: «... وتفاديا من اشتداد الأزمة وتفاقم الخطر رأينا أن نبادر بتقديم هذا النصح الخالص»^(٥).
وتهاجم جريدة الحزب الوطنى (الأخبار) هذا الموقف قائلة: «إنهم يحملون راية التراجع والهزيمة»^(٦).

وحتى عندما فاز حزب الوفد بالأغلبية الساحقة فى الانتخابات، وضغط الإنجليز لمنع زعيمه من تولى الوزارة رضخ سعد دون مقاومة تذكر واكتفى بتولى رئاسة مجلس النواب.. وفى هذه الأثناء وجهت الدعوة لسعد ليقابل المندوب السامى البريطانى وتمت المقابلة فى ٣٠ مايو. وتروى «الكشكول» بعضا من الحديث الذى تقول انه قد جرى بينهما.
- «سعد: كنت أتوقع أنك تخافنى، ولكن ها أنت مش خايف.

- لويد: ولماذا أخاف منك؟

- سعد: ألسنت قاتلا؟ ألم تتهمونى بأنى قاتل؟ ولكن قد برأتنى والحمد لله المحكمة وبرأت رجالى.

- لويد: كثيرا ما برأت المحاكم مجرمين.. (ثم قال لويد) ماذا نويت أن تكون نحو إنجلترا ونحو الأجانب؟

- سعد: فى نيتى أن أخطب خطبة طويلة أحث فيها على صداقة الأجانب حتى الإنجليز.

- لويد: أظن أنك تريد أن تقول و«على الأخص» الإنجليز؟

- سعد: بل قصدت «حتى» الإنجليز»^(٧).

وهكذا فإن الفارق بين «على الأخص الإنجليز» و«حتى الإنجليز» هو بالضبط لفارق بين زيور وسعد زغلول.

لكن اليسار العالمى والمحلى لم يكن بحاجة لانتظار كل هذه الخطوات المتهادنة من سعد زغلول وقيادة حزب الوفد، فثمة أحداث أخرى جذبت الكومنترن واليسار العالمى ككل إلى محور العداء لبرجوازية المستعمرات وأشباه المستعمرات واتهائها بالارتقاء فى أحضان

الاستعمار، ولم تكن مواقف سعد زغلول سوى أدلة فرعية تؤكد صحة التحليل العام.. فكان ستالين قد أكد «إنه فى بلدان مثل مصر والصين حيث البرجوازية المحلية قد انقسمت فعلا إلى حزب ثورى وحزب متهاذن وحيث دعم الحزب المتهاذن علاقاته الوثيقة بالإمبريالية.. فإن الشيوعيين فى بلدان كهذه لا يمكنهم أن يرفعوا شعار الجبهة المتحدة ضد الإمبريالية. بل تعين عليهم أن يعبروا مرحلة الجبهة الوطنية المتحدة إلى مرحلة انتهاج سياسة الكتلة الثورية بين العمال والبرجوازية الصغيرة (الفلاحين)»^(٨).

ثم جاء المؤتمر السادس للكومنترن ليكرس هذه السياسة ويجعل منها منهجا عاما للحركة الشيوعية العالمية..

والحقيقة أن هذا الموقف كان يمثل فى الأساس رد فعل لخيانة شان كاي شيك لقضية الجبهة الوطنية فى الصين، ولقد أثرت خيانة كاي شيك للقضية الوطنية على تفكير الدولية الثالثة ككل.

وقد عقد المؤتمر السادس للكومنترن فى إطار التأثير بهذه التجربة. وعقد المؤتمر ١٢ جلسة مهمة لمناقشة قضية المستعمرات والموقف فى الصين. وخيانة شان كاي شيك.. ثم صدرت أحكام معممة على كل الأحزاب وهوجمت البرجوازيات المحلية عموما. وانعكس ذلك على مصر وإندونيسيا، واعتبر الوفد قوة معادية للثورة وكان هذا خطأ فادحا. وكان الخطأ الآخر أنه تحت شعار الهجوم على البرجوازية امتد الهجوم إلى أجزاء من البرجوازية الصغيرة^(٩).

ويقول والتر لاكور إن فازليف قد تحدث فى المؤتمر السادس للكومنترن قائلا: «إن حزب الوفد هو أعدى أعداء العمال والفلاحين، والشيوعيون مدعوون لأن يوجهوا إليه حربا مميتة»^(١٠).

وعلى أية حال فإن دراسة القرارات والوثائق الخاصة بالمؤتمر السادس للكومنترن توحى بأن هذا الاتجاه المناهض تماما للبرجوازية كان سائدا بالفعل.. وفيما يتعلق بواجبات الحزب الشيوعى المصرى تنص قرارات المؤتمر على ما يلى: «إن الحزب الشيوعى المصرى يلعب دورا هاما فى حركة التحرر الوطنى ويعتمد فى تنظيمه على البروليتاريا. والنقابات التى تضم العمال المصريين هى مصدر الطلائع والقيادات. إن الحزب الشيوعى المصرى يرى أن واجبه الرئيسى دعم النقابات لكن هناك خطر خضوع النقابات للبرجوازية

ويتعين على الحزب إيجاد علاقات وثيقة بالعمال الزراعيين ومحاولة تنظيمهم.. وعلى أساس النواقص فى هذين الميدانين بالذات كان الضعف الذى يعانى منه الحزب الشيوعى المصرى»^(١١).

إن تحديد مثل هذه الواجبات القاطعة فى بلد شبه مستعمر كمصر دون ذكر - ولو بإشارة عابرة - إلى ضرورة السعى لتأسيس جبهة وطنية مناهضة للاستعمار يمكنه أن يوضح طبيعة هذا الخط المنعزل..

لكننا لا يمكننا أن نسوق اللوم كله إلى قرارات المؤتمر السادس فإن قيادة الوفد كانت قد اتخذت بالفعل موقفا متهادنا مع المستعمر، وقد استخدمت كل نفوذها - عندما كانت فى السلطة - ضد الحزب، واستمرت فى حملة العداء ضده حتى وهى خارج الحكم. ومن هنا كان موقف الحزب الشيوعى المصرى الذى سعى فى البداية إلى تكوين «جبهة من العمال والفلاحين» متجاهلا البرجوازية الوطنية سواء تلك الموجودة فى صفوف الوفد أو فى التجمعات الحزبية الأخرى.

وفى الانتخابات التى أجراها زيور باشا أسس الشيوعيون «لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين» وقد ضمنت اللجنة بيانها الأول برنامجا يتضمن واحدا وعشرين مطلباً ودعت مرشحي العمال - وكان عددهم ١٢ مرشحا - إلى تبني هذا البرنامج وناشدت العمال والفلاحين «ألا يعطوا أصواتهم لأى شخص لا يقبل هذا البرنامج»^(١٢).

كذلك هاجمت مجلة «الحساب» قيادة حزب الوفد واتهمتها بالتهادن مع الاستعمار وقد جاء فى إحدى مقالاتها: «إن زعماء الحركة الوطنية أنفسهم لم يحسنوا التصرف عندما هبت هذه الأمة النشيطة مطالبة بحقوقها مدافعة عن استقلالها وحريتها فهم اغتبنوا فرصة نهوضها ليضعوا أنفسهم فى مقدمة الصفوف وعلى رأس القيادة ولكن أين الخطأ التى وضعوها لاستمرار الجهاد والتقدم شيئا فشيئا فى سبيل الغاية القصوى وهى الاستقلال التام؟ وأين هى المطالب المحددة تحديدا دقيقا والتى دعوا الشعب إلى التمسك بها وجعلها ميثاقا وطنيا وعهدا مقدسا؟ بل أين ما وعدوا به الفلاح الذى حمل عبء النهضة المصرية على كتفيه القويتين؟ وأين وعودهم للعامل الذى قذف بنفسه فى أتون ثورة ١٩١٩ فالتهمته نيرانها؟... لم يفعلوا شيئا من ذلك».

ثم تمضى مجلة الحساب قائلة: «ولولا جبن الوفد المصرى وخوفه، ولولا معرفة الإنجليز بجبنه وخوفه لما تجاسروا قط بل لما فكروا قط بامتهان حقوق مصر بعدما وجفوا من

عملها المدمر عام ١٩١٩. ولما أقدموا على ما أقدموا عليه من الاستهتار بالأمة هذا الاستهتار الذى نعانى مرارته حتى الآن»^(١٣).

على أن الحزب - برغم ذلك كله - لم يسقط الوفد من حسابه تماما، بل حاول أن يقيم نوعا من العلاقة مع القواعد الثورية لحزب الوفد.
ولقد كان الحزب يمتلك فرصا عديدة لذلك.

فهناك فى صفوف قاداته ولجنته المركزية على وجه التحديد عناصر مثل رفيق جبور المحرر فى جريدة النظام الوفدية والذى ظل لفترة طويلة معدودا - فى نظر الكثيرين - كواحد من الوفديين المرموقين.

كذلك فإن الشيوعيين الذين أرسلهم سعد زغلول إلى السجن سرعان ما التقوا داخله بالشباب الوفدى الذى ساقته حكومة زيور إلى هناك بتهم شتى أخطرها المشاركة فى حملة الاغتيالات السياسية. وثمة روايات حول علاقات عديدة من سجناء الوفد فى هذه الفترة بزملائهم فى السجن من الشيوعيين، وقد ركزت الروايات حول شخصيات مهمة مثل النقراشى وأحمد ماهر.

وعلى أية حال فإن هذه المحاولة المتواضعة قد لقيت تحفزا وهجوما عنيفا من سلطات الاحتلال ومن الرجعية المصرية.. فنشرت المورننج بوست الإنجليزية مقالا لمراسلها فى القاهرة يقول: «والظاهر أنه توجد روابط بين مساعى البلاشفة وحملة القتل الموجهة ضد البريطانيين. وبين المقبوض عليهم اثنان من محررى الصحف الوفدية»^(١٤).

وقالت الديلى تلغراف: «وأعظم ما يلفت الانظار فيما اكتشفه البوليس، هو ما يدل على العلاقة الوثيقة بين دسائس البلاشفة وحملة القتل، وعلاقتهم أيضا بالوفد لأنه يوجد بين المقبوض عليهم طاهر أفندى العربى المحرر بجريدة كوكب الشرق ورفيق أفندى جبور المحرر بجريدة النظام وهى من الصحف الوفدية أيضا. والمعروف فوق ما تقدم أن شقيق أولاد عنايت الذى لا يزال فى برلين طالبا على اتصال دائم بمندوب السوفييت هناك»^(١٥).

والحقيقة أن قصة شقيق أولاد عنايت هذه قد استخدمت فى محاولة واضحة للتحريض ضد الشيوعيين ومحاولة الإيهام بصلووعهم فى عمليات الإرهاب..

«فقد جاء فى مرافعة النيابة ضد عبدالفتاح وعبد الحميد عنايت فى قضية السردار أن أخا لهما هو عبدالخالق عنايت قد سافر إلى أوروبا فى عام ١٩٢٣ بحجة تلقى دراسة

الطب.. وقد وصل إلى النائب العام من إدارة الأمن العام تقريرا وصل إلى هذه الإدارة من برلين مذكور فيه «عاد عبدالخالق عنایت فى أواخر شهر يناير ١٩٢٥ ومنذ عودته إليها زار عدة مدن ألمانية من غير أن يكون عليه أية رقابة، وهو الآن متغيب عن برلين ولو أنه من المنتظر عودته إليها قريبا. وفى عزمه التوجه إلى إستكهولم حضور مؤتمر الطلبة الشرقيين، وكذلك التوجه إلى موسكو إما فى شهر مايو أو يونيو.. وهو على اتصال بالمصريين فى الحزب الوطنى المتطرف.. وهو كثير الزيارة لسفارة حكومة السوفييت ويصله بواسطتها نقود، وقيل إن جماعة الشيوعية الدولية تنظر إليه بعين الريبة كوطنى وكأحد دعاة الجامعة الإسلامية شديدى التحمس، وهو على أتم وفاق مع جرونشتين ولينتسكى وهو متعلم تعليما حسنا إلا أنه شديد الكراهية للبريطانيين والأوروبيين»^(١٦).

بل إن سعد زغلول نفسه ما لبث أن اتهم بتحبيذ الشيوعية، الأمر الذى دفع زغلول إلى أن يذكر متهميه «بأن وزارة الشعب كانت عنيفة على الشيوعيين. وأنها أرسلت الكثيرين منهم إلى القضاء»^(١٧).

كذلك فإن الشباب المتحمس فى حزب الوفد، وخاصة أمثال البقراشى وأحمد ماهر ما لبثوا هم أيضا أن انجرفوا بعيدا فى السياسة البرجوازية باحثين لأنفسهم عن طريق خاص قادهم إلى أعلى مناصب السلطة.

وبرغم الأفاصيص التى حيك حول علاقة الوفد بالحزب الشيوعى فى ذلك الحين، وكلها مرتبطة باسمين محددين أحدهما رفيق جبور والآخر طاهر العربى.. فإن الحقيقة هى أن كلا الشخصين لم يكن وفديا فرفيق جبور كان يساريا قديما وأحد قادة التجمعات اللبنانية فى مصر «جمعية لبنان الفتى» وكان عضوا بالحزب الشيوعى منذ فترة طويلة رغم أنه عمل محررا فى مجلة النظام ذات الميول الوفدية. ورغم أنه كان على علاقة وثيقة بالوفد.

أما طاهر العربى^(١٨) فلم يكن وفديا، على الإطلاق فقد قبض عليه فى عام ١٩١٢ بتهمة تدبير محاولة لاغتيال كتشنر حيث بقى اثنى عشر عاما بالسجن. وكان عند القبض عليه عضوا فى الحزب الوطنى وكان تدبير محاولة الاغتيال يجرى بإشراف ودعم من بعض قادة الحزب الوطنى.

وبعد أن أفرج عنه وحصل على مبلغ ٢٢٢ قرشا أجرا لعمله فى السجن طوال الفترة التى قضاه فيها قرر أن يتبرع بها للحزب الوطنى فوجه رسالة إلى جريدة اللواء يقول فيها:

« .. وحيث إن هذا المبلغ على ضالته له فى نفسى من القداسة والتكريم ما يجعلنى أضمن به أن يصرف فى غير وجه الوطن والجهاد فى سبيل تحريره.

حيث إنى لا أعترف ولا أعرف - إلى هذا الوقت على الأقل - غير الحزب الوطنى هيئة حملت لواء الجهاد من فجر النهضة الوطنية إلى اليوم.

لهذا كتبت إلى المحافظة أرجو إرسال هذا المبلغ تحويلا إلى خزانة الحزب الوطنى وأكتب هذا إلى عزتكم راجيا أن تتفضلوا بقبوله هدية من مجاهد قديم إلى حزب المجاهدين الأوفياء»^(١٩).

وقد عمل العربى بعد ذلك لفترة محررا بجريدة اللواء.

وثمة واقعة أخرى يرويها العربى نفسه تؤكد أنه لم يكن وفديا وأن الوفد لم يكن يعتبره وفديا.. فشفيق منصور يوجه دعوة إلى المسجونين السياسيين لمقابلة سعد زغلول عندما كان رئيسا للوزراء لبحث حالتهم وتدبير أعمال لهم. ويذهب طاهر العربى مع الذاهبين لكن زغلول يشطب اسمه بالقلم الأحمر قائلا لشفيق منصور: «ده مش بتاعنا. لما نشوف بتوعنا نبقى نبحت عن غيرهم»^(٢٠).

وليس ممكنا بعد ذلك أن نتصور أن العربى كان وفديا، لكنه عمل ضمن تنقلاته العديدة من عمل إلى آخر محررا فى كوكب الشرق الوفدية.. وقد قبض عليه عام ١٩٢٥ متهما بالشيوعية وهو يعمل بها.

بل إن طاهر العربى نفسه ما لبث تحت وطأة الحاجة لتملق السلطة أن اعترف كتابة بأنه فى علاقته مع الحزب الشيوعى فى ذلك الحين كان مجرد جاسوس لجهاز الأمن.. فقد وجه رسالة إلى على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى فى ٣١ مايو ١٩٣٩ اعترف فيها بما يلى:

«فى مايو ١٩٢٥ صادفت رجلا شيوعيا خطرا جدا يدعى قسطنطين فايس هو رئيس الدولية الثالثة فى الشرق وكان محكوما عليه بالإعدام فى إيطاليا باسم أفيجدور، وكان البحث جاريا عنه فى أنحاء مصر حيث دخل إليها بجواز مزور - قابلته ولم أكن أعلم شيئا عن حقيقة أمره بل قادنى إليه زميل صحفى اسمه رفيق جبور وعرفنى بأنه صحفى إنجليزى يدرس شئون العمال فى مصر. وكان الرجل يجيد عدة لغات وسرعان ما توثقت بيننا عرى الصداقة، وتبادلنا شتى الأحاديث وشملت رائحة كريهة لم ألفها من قبل إذ لم

أكن سمعت أو قرأت شيئاً عن الشيوعية قبل ذلك وكنت حديث العهد بمغادرة السجن، سمعته يتحدث بكل سوء عن الملكية والرأسمالية.. وقابلت صديقاً ضابطاً بوزارة الداخلية هو كمال أفندى حشيش. وتحدثت عن هذا الأجنبى الصحفى الذى يدرس شؤون العمال، ولم أكن عرفت عنه شيئاً من الناحية الشيوعية وكانت صورته معى أهداها إلى فأطلعت الضابط عليها، وما كدت أفعل حتى انتفض كمن مسته الكهرباء -- وقبلنى فى وجنتى وكاد يرقص من شدة الفرح وفى اليوم التالى زارنى فى منزلى واستدعانى لمقابلة سعادة القيسى باشا مدير الأمن العام وكان معه كامل بك الرحمانى.. فأخذنا يقنعانى بالعمل معهما فى مكافحة الشيوعية.. ولم تمض بضعة شهور حتى كنت موضع سر هذا الزعيم الشيوعى وعرفت كل شىء عن هذه العصابة الخطيرة الكبيرة الدولية، وفى ساعة مبكرة من الصباح قبض البوليس فى أنحاء مصر على أكثر من ثلاثين شيوعياً مصريين وأجانب.. وقبض على أيضاً بينهم، ودخلت السجن وبقيت فيه شهرين كاملين، ثم مثلت أمام المحكمة وشهدت عليهم.. ولم أئل أى جزاء مادى ولا أدبى»^(٢١).

وعلى أية حال فإن من الواضح أن قصة علاقة الوفد بالحزب الشيوعى فى ذلك الحين كانت قصة ملفقة لفقها المستعمرون والأحزاب الرجعية كسبيل لضرب حزب الوفد نفسه.

وهكذا فإن جنوح قيادة حزب الوفد نحو التهادن مع الاستعمار، ورفضه أى منهج ثورى أو حتى وطنى حق فى مواجهة الإنجليز قد اجبر الحزب الشيوعى على السير فى الطريق الوعر: طريق معاداة الوفد.. معرضاً نفسه لعزلة شديدة.. كذلك لم يدع أمامه أية فرصة للخيار فى التحالف فلم يبق أمامه سوى «الحزب الوطنى».. فكان تحالف المستضعفين.

وكان م. ن. روى قد وصف فى مقاله «الانقلاب السياسى فى مصر»^(٢٢) أعضاء الحزب الوطنى بأنهم «متطرفو البرجوازية الصغيرة الثرثارين».

وقال عنه أيضاً: «إن تكوينه الاجتماعى - بعد إعادة تنظيمه واستعادته شبابه قد اتجه ناحية التجار الصغار والمثقفين المطحونين والحرفيين المستغلين وفقراء الفلاحين والبروليتاريا.. لكنه لم يكن يضم من هؤلاء وأولئك إلا النذر اليسير».

ولقد رأينا كيف استخدم الحزب الوطنى كل قوته فى الهجوم على سياسة الاعتدال والتهادن لكنه قد عجز بالفعل عن أن يرفع شعارات محددة ذات قدرة فعلية على تعبئة الجماهر فظل أسيراً لمعارضة جوفاء لم تستطع أن تثمر شيئاً جاداً.

ولقد كان حجم الحزب الوطنى أقل بكثير من شعاراته الطنانة، الأمر الذى جعل من هذه الشعارات - التى كانت مجرد تشدد لفظى لا يصاحبه أى موقف نضالى - مثارا لسخرية الكثيرين وخاصة الصحف الوفدية.

وفى مقال افتتاحى نشرته روزاليوسف يمكننا أن نطالع نماذج من السخرية مثل: «للحزب الوطنى أن يطيل النظر ما شاء فى مرآته المسحورة وأن يرى هناك جسمه (القوزعة) عملاقا طويلا يقف على باب البلد موقف الديدبان ليخفر حقوقها وكرامتها ودستورها بالفأس والنبوت.. وله علينا ما دام مفتوح العين فى موقفه هذا - وإن لم تقدم فتحتها أو تؤخر - ألا نعكر عليه من خياله هذا بأكثر من ابتسامة السخرية من مجهوده الهزيل.

طاب نومكم يا رجال الحزب الوطنى.. وغطوا أنفسكم جيدا فالبرد - يحرسكم الله - قاتل فى هذه الأيام»^(٢٣).

وعلى أية حال فما لبث قادة الحزب الوطنى - عندما اشتدت الأزمة فى عام ١٩٢٨ - أن غادروا مصر واحدا بعد الآخر.. ولم يبق سوى عبدالحميد سعيد الذى رسمت روزا اليوسف صورته على الغلاف وهو مرتبك ساخط ويصيح «فكرى أباطة هرب وحافظ رمضان هرب إلى روما، وأنا يعنى اللى اقعد وحدى هنا؟»^(٢٤).

على هذا الضوء يمكننا أن نقدر قيمة التحالف الذى نشأ بين اليسار والحزب الوطنى والذى تمثل فى دعوة الحزب وزعيمه حافظ رمضان بالتحديد للمشاركة فى «عصبة النضال ضد الإمبريالية» والاتصالات التى قام بها ممثلو العصبة مع عبدالحميد سعيد والشيخ أبو العيون وغيرهما، فلقد كان تحالفا مع حفنة معزولة لا أثر جماهيرى لها..

وتأتى مشارف الثلاثينيات بما حملته من أحداث ومن محاولات الإقطاعيين وكبار الرأسماليين لفرض حكم دكتاتورى على مصر وكان من المفروض أن يؤدى قيام مثل هذا الحكم الدكتاتورى والمناهض للدستور إلى بعض التغيير فى مواقف الحزب الشيوعى تجاه الأحزاب الأخرى، وإلى مزيد من الوضوح تجاه دور حزب الوفد والحزب الوطنى لتطرح من جديد امكانية قيام تحالف وطنى واسع.

فعندما وصل محمد محمود إلى السلطة وفرض حكم «القبضة الحديدية»، وعندما جاء صدقى ليُلغى دستور ١٩٢٣ وأقام حكما إرهابيا مستبدا كان من المفترض أن يلجأ حزب

الوفد إلى الجماهير وأن يقوم تبعا لذلك تحالف وطنى ديمقراطى يضم كل القوى المطالبة بالدستور واحترام إرادة الشعب.

لكن الثوريين المصريين فوجئوا بأن حزب الوفد يلعب دوره على المسرح «من أجل متفرج واحد هو المندوب السامى البريطانى لورد لويد. فقد كان كل من محمد محمود والنحاس باشا يحاول أن يقنع المندوب السامى بأن حكم مصر ممكن فقط بواسطته هو شخصيا»^(٢٥).

واكتشفوا أيضا «أن الوفد فى صراعه ضد الحكومة الحالية يرفع شعارا سياسيا محدودا هو عودة الدستور، لكن الوفد لم يكن يضع فى اعتباره قوى الجماهير المصرية ونضالها ضد الدكتاتورية الحالية وإنما كان يعلق كل آماله على انتصار حزب العمال الإنجليزى.

بل إن الوفد قد حاول أيضا أن يلعب على الخلافات فى وجهات النظر داخل الوزارة البريطانية ذاتها، وعقب انقلاب ١٩ يوليو افتتح الوفد فى لندن مكتبا سياسيا خاصا (حتى ديسمبر ١٩٢٨) برئاسة وليم مكرم عبيد. ولنفس الغرض أيضا أصدر الوفد جريدة فى لندن باللغة الإنجليزية تسمى «مصر».

كذلك فإن سياسى حزب الوفد عندما كانوا يهتمون بالجماهير فإنما كانوا يفعلون ذلك لمجرد تحقيق أهداف الحزب، وبشرط أساسى هو ألا تتمكن الجماهير من تحقيق أى دور إيجابى فى التأثير على أعمال الوفد أو دوره.

إن رئيس حزب الوفد النحاس باشا قد ركز فى خطابه الذى ألقاه فى القاهرة بمناسبة مرور عشرة أعوام على تأسيس حزب الوفد على إصرار الحزب على عدم فتح الباب أمام الصراع الطبقي الذى وصفه بأنه «يقود الشعب إلى الهاوية والهدك»^(٢٦).

وهكذا فإن تطورات الأحداث، والمواقف المتعاقبة التى اتخذها حزب الوفد تجاه الجماهير قد اقتادت الحزب الشيوعى إلى موقف بعيد تماما عن فكرة التحالف معه. ومرة أخرى تتساقط فكرة إقامة تحالف وطنى يضم القوى المطالبة بالدستور واحترام القانون وحرىات الشعب.

أما «الحزب الوطنى» فقد كشف هو أيضا عن ضعف وتخاذل شديدين، وما لبث الحزب الشيوعى أن أخضعه هو أيضا لمحاولات تحليل صارمة استندت فى كثير من الأحيان إلى التصرفات الفعلية التى صدرت عن قادة هذا الحزب.

وكما اتهمت الصحافة الوفدية الحزب الوطنى بأنه حزب «ثرثار» فإن عدة سنوات من التحالف المفترض معه قد كشفت للحزب الشيوعى صدق هذا الوصف.

وما لبث الشيوعيون أن وصفوه فى مقالاتهم بأنه «الحزب الذى يثرثر كثيرا» بل وصفوا قبوله للتحالف معهم بأنه مجرد استعراض مظهرى، وقالوا: «لقد قام قادة الحزب الوطنى تحت ضغط العناصر الراديكالية فى البرجوازية الصغيرة باستعراضات ثورية فى مظهرها فشاركوا فى تكوين فرع «غصبة النضال ضد الإمبريالية» لكن مثل هذه الاستعراضات المظهرية لم تغير ولو لأدنى درجة الخط السياسى للحزب»^(٢٧).

والآن فإنه لم يعد أمام الحزب الشيوعى إلا أن يحاول استخلاص بعض الدروس من المواقف التى اتخذتها أحزاب البرجوازية المصرية المختلفة.

ويمضى أ. الجبالى محاولا أن يستخلص هذه الدروس فيقول:

«لقد مثل قادة الحزب الوطنى لعدة سنوات دور حماة الجماهير الكادحة وحاولت البرجوازية الصغيرة الراديكالية أن تقنع الجماهير بأنها لم تتبعد عن خشبة المسرح. لكن الصراع الدائر وسط صفوف أعضاء الحزب الوطنى لم يكشف فقط عن مدى الضعف السياسى لقادة الحزب وإنما كشف أيضا عن ضرورة البحث عن «مسارات» جديدة لحركة التحرر الوطنى».

فما هى هذه «المسارات الجديدة» التى يدعو إليها الحزب فى مجال «التحالف الوطنى» يقول الجبالى: «وكلما تم الإسراع «بتفجير» الحزب الوطنى من الداخل كلما وجدت العناصر الشريفة داخل هذا الحزب - بسرعة أكبر - طريقها للسعى نحو تأسيس «الجهبة الثورية الوطنية الموحدة» تحت قيادة حزب الطبقة العاملة»^(٢٨).

وهكذا فإن لجوء الوفد والحزب الوطنى نحو سياسة «التهادن» التام والمستمر قد وضع الشيوعيين المصريين فى مأزق حقيقى وسد السبيل أمام أى تحالف وطنى جاد. ودفع الحزب إلى رفع شعار انعزالى يدعو إلى «تفجير» هذه الأحزاب من الداخل وتأسيس «جبهة ثورية وطنية موحدة».

ولسنا نريد أن نلقى اللوم كله على الأطراف المصرية لمعركة التحالف هذه.. ذلك أنه من المتعين علينا أن نذكر أن الكومنترن قد نهج بالفعل فى هذه الفترة منهاجا مماثلا.

ولسنا نشك مطلقا فى حتمية تأثر الحزب بموقف الكومنترن هذا، لكن الذى لا شك فيه أيضا أن الأحداث التى كانت تجرى على مسرح السياسة المصرية كانت - فى ذاتها - كافية لأن تشكل وبصورة موضوعية تماما مثل هذا الموقف.

وعلى أية حال فلقد كان على الحزب أن يعانى من وطأة «الحصار» الذى فرضته عليه الأحزاب الوطنية الأخرى نتيجة لسياستها المتخاذلة والتهادنة.

ويروى لاکور أن أفيجدور قد تحدث فى اجتماع اللجنة التنفيذية للكومنترن عام ١٩٣٤ عن أسباب ضعف الحزب الشيوعى المصرى فقال: «إن الشيوعيين المصريين قد أخفقوا لأن الجماهير كانت تؤمن بالوفد»^(٢٩).

وهذا صحيح إلى حد كبير، فلقد ظل الوفد - برغم كل شىء - المنبر الأساسى للتحرك الوطنى المصرى وكان - برغم كل شىء - هدفا للهجمات الرجعية والاستعمار على السواء.

وهكذا كان على الحزب أن يهاجم الوفد ويدين تهادنه وضعفه فى الوقت الذى كان غلاة الرجعيين والسراى وعملاؤهما ومن خلفهم سلطات الاحتلال يشنون هم أيضا هجماتهم على الوفد..

ولقد عانى الحزب كثيرا من مثل هذا الموقف.

ولسنا نريد أن ننتقد هذا الموقف، فلقد كانت قيادة الوفد تنهج بالفعل موقفا متخاذلا وبعيدا عن الاعتماد على حركة الجماهير الشعبية، لكننا نعتقد أن الأمر كان بحاجة إلى بعض المرونة - فى مصر بالذات. ودونما ربط الأوضاع فيها ربطا ميكانيكيا بخيانة شان كاي شيك أو حتى بتهادن سعد زغلول نفسه.

وعلى أية حال فإن صفحات هذا الفصل ليست بأية حال محاولة لتقييم دور حزب الوفد، ولا تستهدف بأية حال التقليل من دوره فى الحركة الوطنية، وهى أيضا ليست محاولة لتقييم دور الحزب الوطنى وإنما هى فى الأساس محاولة لإلقاء نظرة على خطة التحالف التى نهجها اليسار المصرى والعوامل الموضوعية التى أجبرته على إقامة تحالف بين المستضعفين انتهى بطبيعة الحال إلى لا شىء..

لكن الثلاثينيات قد شهدت محاولات أخرى لإقامة تحالفات أكثر فعالية من بينها التحالف مع القوى النقابية الموالية لعباس حليم من أجل إنشاء حزب عمالى..

والتحالف مع القوى المناهضة للفاشية وسط التجمعات الأجنبية..
لكن ذلك كله - بالرغم من أهميته - كان يجرى على هامش الأحداث وكان يقلل من
فاعليته إلى حد كبير أنه كان يجرى بمعزل عن حزب الوفد..
ومرة أخرى لم يكن ذلك خطأ من اليسار وحده بل كان رد فعل طبيعي لإصرار قادة
الوفد على انتهاج سياسة الاعتدال والتهادن مع الاستعمار وتشبثهم المزمري بسياسة
العداء لليسار ورفض أى تحالف معه.

الهوامش

- (١) الأهرام - ١٤ ديسمبر ١٩٢١.
- (*) م. ن. روى - أحد مؤسسى الحزب الشيوعى الهندى، وأحد العناصر التى لعبت دورا مهما فى الكومنترن ولقد كانت مناقشات روى مع لينين حول دور الحركة الوطنية فى المستعمرات ذات أهمية خاصة فى الأدبيات الماركسية.
- (٢) International Press Correspondence. 21/1/1923.
- (٣) الأهرام ١٩/٢/١٩٢٤. حيثيات الحكم الصادر عن محكمة جنايات الإسكندرية فى قضية الشيوعية.
- (٤) الأخبار - ٧ يناير ١٩٢٦.
- (٥) أحمد شفيق باشا. حوالب مصر السياسية ج٢. طبعة سبتمبر ١٩٢٩ ص٥٣.
- (٦) الأخبار - ٩ فبراير ١٩٢٦.
- (٧) الكشكول - ١١ يونيو ١٩٢٦.
- (٨) والتر لاکور. الاتحاد السوفييتى والشرق الأوسط - ترجمة المكتب التجارى ببيروت. طبعة أغسطس ١٩٥٩ ص٢٨ نقلا عن ستالين. مجموعة الأعمال. الجزء السابع - الواجبات السياسية لجامعة شعوب الشرق.
- (٩) هانز بياشر - تقرير بالألمانية حول الدور التاريخى للكومنترن - قدم للندوة العالمية التى عقدت فى موسكو بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الكومنترن.
- (١٠) والتر لاکور - الاتحاد السوفييتى والشرق الأوسط - المرجع السابق ص١٢٠ - (وقد أورد إلياس مرقص - تاريخ الأحزاب الشيوعية فى الوطن العربى. القسم الأول - الصبعة الأولى - ١٩٦٤ - نفس هذا النص فى ص٢٦ دون أن يشير إلى مصدره والمرجح أنه نقله عن لاکور).
- (١١) بروتوكول المؤتمر السادس للكومنترن - الطبعة الألمانية الجزء الرابع ص١٩٥.
- (١٢) راجع النص الكامل للبرنامج فى الملاحق.
- (١٣) مجلة الحساب - ٨ مايو ١٩٢٥. مقال تأسيس حزب للطبقة العاملة من عمال وفلاحين. (وقد نشرت بعض هذه المقالات فى - عبد المنعم الغزالى - المرجع السابق ص٩٧ وما بعدها).
- (١٤) الأهرام ٦/٣/١٩٢٥.
- (١٥) الأهرام ٨/١/١٩٢٥.
- (١٦) د. محمود متولى - مصر وقضايا الاغتيالات السياسية - كتاب الحرية - نوفمبر ١٩٨٥ (القاهرة) - ص١٤١.
- (١٧) الأخبار ٢٩/٨/١٩٣٦ نقلا عن مذكرات سعد زغلول عن يوم ٤/٦/١٩٢٥.
- (١٨) أورد عبد العظيم محمد رمضان - تطور الحركة الوطنية فى مصر - اسمه أكثر من مرة عنى أنه طاهر العرابى ص٥٥٢ والاسم الصحيح محمود طاهر العربى.
- (١٩) اللواء ١٤/١٠/١٩٢٣.

- (٢٠) محمود طاهر العربى - هذا المجتمع الظالم - الطبعة الأولى - مطبعة دار المستقبل ص ١٧٩.
- (٢١) دار الوثائق المصرية - محفظه ٤ داخلية عربى - ملف ٦ - وثيقة أصلية بخط محمود طاهر العربى عبارة عن خطاب موجه إلى على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى.
- (٢٢) International Press Correspondance.
- (٢٣) روزاليوسف - ٢ يوليو ١٩٢٨.
- (٢٤) روزاليوسف. المرجع السابق.
- (٢٥) ريفولوسيونى فوستوك (الشرق الثورى) - مقال بعنوان «بلا مخرج» - رسالة من مصر - بقلم أ. الجبالى - مؤرخة فى نوفمبر ١٩٢٧ العدد ١-٢ عام ١٩٢٢ الطبعة الروسية. (راجع النص الكامل بالملاحق).
- (٢٦) ريفولوسيونى فوستوك - مقال «مصر بعد الانقلاب» بقلم أ. شامى - المرجع السابق ص ٢٨٤.
- (٢٧) ريفولوسيونى فوستوك، مقال بعنوان «خطاب من مصر - الحزب الذى يثرثر كثيرا» بقلم أ. الجبالى مؤرخ فى مايو ١٩٢٩ ص ٢٨٨ من المرجع السابق. (راجع النص الكامل بالملاحق).
- (٢٨) المرجع السابق. ص ٢٩٠.
- (٢٩) والتر لاکور - الاتحاد السوفييتى والشرق الأوسط - المرجع السابق ص ١٢١.

القسم الثانى

- وبرغم المطاردة المجنونة.. واصلوا المسيرة
- العربى - ناصف - القاضى.. جماعة التمسك بالقانونية
- بعض القضايا الأيديولوجية
- كلمة أخيرة

..وبرغم المطاردة المجنونة واصلوا المسيرة

إن تاريخ مصر الحديثة يشهد لبرجوازياتها وكبار ملاكها، بالوعى الكامل والحرص الشديد تجاه النشاط الاشتراكي.

ومنذ البدايات الأولى، وحتى قبل أن تصل قوى الطبقات الغنية إلى مركز السلطة سواء السلطة الحقيقية أو المفترضة، كانت القوى الرجعية تدبر أمورها بحيث تجعل من أرض مصر مكانا محرما للفكر الاشتراكي والتيارات الاشتراكية.

وثة وقت كانت فيه الطبقات المالكة المصرية لا تزال تجاهد من أجل مكان لها بالقرب من مواطن السلطة، لكنها كانت وفي نفس الوقت - تسعى بنفس القدر من المثابرة - وربما أكثر - لتقاوم الخطر الاشتراكي المفترض.

وإذا كانت الطبقات المالكة قد كرست كثيرا من الجهد فى إعداد دستور ١٩٢٣ كسبيل لدعم سلطاتها، وبذلت كل ما استطاعت من جهد كى تنتزع لنفسها حقوقا وضمانات، فقد بذلت كل جهدها كى لا تستفيد الطبقات الكادحة من هذه الضمانات.

وفى مذكرة أحمد ذو الفقار وزير الحقانية حول الظروف الجديدة التى يخلقها إعلان دستور ١٩٢٣ تحدث طويلا عن الضمانات التى كفلها الدستور لحرية الصحافة، لكنه ما

لبحث أن استدرك قائلا: «ولكن يبقى هناك استثناء واحد لإنذار الصحف أو تعطيلها أو إلغائها بالطرق الإدارية، فإن بعضا من الحرية الدستورية لا يمكن تطبيقه على حبلات تحمل على أساس الهيئة الاجتماعية، كخطر الدعوى البلشفية الموجودة الآن. فإنه يضطر جميع الحكومات إلى اتخاذ تدابير قد تكون مناقضة للمبادئ المقررة في الدستور لأجل ضمان حرية أهل البلاد المسالمين والموالين للقانون. فلكي يمكن إنشاء تشريع لمكافحة أمثال هذه الدعوة الضارة نص في المادة ١٥ على أن إنذار الصحف وتعطيلها وإلغاءها بالطرق الإدارية قد يجوز في حالة ما تقضى الضرورة بالالتجاء إليه لحماية النظام الاجتماعي. وأضيف تحفظ مماثل لهذا إلى نص المادة ٢٠ التي تكفل للمصريين حق الاجتماع بسكينة ومن دون سلاح، والمادة ١٥١ التي تحظر النفي لجرائم سياسية»^(١).

وقد علقت اللجنة الاستشارية التشريعية على المادة ١٥ وهي المادة الخاصة بحرية الصحافة قائلة: «هناك بعض حريات دستورية لا يمكن السماح بها في حالة الاعتداء على الأسس الجوهرية للهيئة الاجتماعية. فخطر الدعاية الشيوعية القائمة في الوقت الحاضر يجعل من واجب الحكومات أن تعمل على حماية الدولة ولو استلزم ذلك الرجوع إلى تدابير قد تكون مخالفة للمبادئ المقررة في الدستور لصيانة حرية السكان الهادئين والمخاضين للبلاد. فيكون من الحكمة التمكين من وضع التشريع المناسب لمناهضة مثل هذه الدعاية الهدامة»^(٢).

وهكذا ومنذ البداية الأولى.. وحتى قبل أن تصل البرجوازية إلى السلطة المفترضة، كانت حريصة كل الحرص على مقاومة الحزب الذي كان قد وجد فعلا.. وفي الجزء الأول من هذه الدراسة استغرقت رواية المطاردة الشرسة التي خاضتها سلطات الاحتلال وحكومة سعد زغلول ضد الحزب صفحات طويلة..

ثم ذهب سعد وجاء زيور، وإن كانت الخلافات بين الاثنين كبيرة وكثيرة في مجال القضية الوطنية فقد اتفقا في موقف واحد هو مواصلة الهجوم على الحزب واستمرار عملية المطاردة التي بدأها وباركها سعد زغلول.

وكانت حكومة زيور بكل ما أوتيت من عنف وضيق أفق تصدر القرار تلو القرار في هستيرية واضحة..

فأصدرت قرارا بمنع السفن الروسية من دخول الموانئ المصرية وتنشر الأهرام قصة

وصول السفينة «البلشفية» تشيشيرين فتقول: «وصلت إلى الإسكندرية أمس باخرة روسية بلشفية تدعى تشيشيرين تنقل بضاعة إلى هذا القطر، وربما كان عليها بعض الركاب أيضا. فلم تكد تصل إلى الميناء الخارجى حتى أصدرت السلطة المحلية أمرا إلى البوليس بمراقبتها وحراستها ومنعها من الدخول إلى المرفأ. فأوقفت فى الخارج ولا تزال حتى الآن تحت حراسة الشرطة. والمفهوم أن الحكومة ستأذن لها بتفريغ مشحونها حيث هى راسية ثم تأمرها بالانصراف فتنصرف غدا.

ويظهر أن الباخرة «تشيشيرين» هذه لا تدري ما نحن فيه من الانهماك فى قضية الشيوعية البلشفية فى هذه الأيام»^(٣).

وفيما يبدو أن بعض الحائزين لجوازات سفر فلسطينية والذين كانوا من أصل روسى قد أصبحوا مصدرا لكوار شيوعية عديدة إلى الدرجة التي دفعت الحكومة المصرية إلى اتخاذ إجراءات خاصة لتحديد منحهم تأشيرات دخول إلى مصر. ويبدو أن هذه الإجراءات كانت قاسية إلى الدرجة التي دفعت الحكومة البريطانية إلى التدخل رسميا فى هذا الأمر. وترد السفارة البريطانية فى برقية موجهة «إلى صاحب الفخامة السير أوستن تشمبرلين - مؤرخة فى ٣ مايو ١٩٢٩» تقول فيها: «لى الشرف أن أشير إلى برقية فخامتكم رقم ٣١٩ (ت- ٣٢٧٦/٢١٨/٣٧٨) والمؤرخة فى ١١ أبريل.. والمتعلقة بموضوع فرض قيود مشددة على منح تأشيرات دخول لحائزى جوازات السفر الفلسطينية...».

ثم توضح السفارة البريطانية أن هذه القيود مفروضة فقط على الذين هم من أصل روسى.. وتقول إن وزارة الداخلية المصرية تصر على فرض أكثر القيود شدة فى هذا الصدد.. «ذلك أنه بعد البحث ثبت إنه من بين ٨١ أجنبيا لوحظ اشتغالهم بالدعاية الشيوعية فى مصر منذ عام ١٩٢٣ وحتى الآن كان من بينهم ٣٥ على الأقل من الذين هم من أصل روسى»^(٤).

بل إن الحكومة قد لجأت إلى تشكيل مكاتب خاصة فى القاهرة والإسكندرية وبورسعيد يشرف عليها عدد من الروس المعادين للشيوعية وثمة مذكرة موقعة من محمد محمود باشا ومؤرخة فى ١٩٢٧/١١/٧ تقرر «تعيين المستر نيقولا فينوجرادوف والمدموازيل نينا ستاروسلكى والمسيو ألكسندر بيتروف والمدموازيل فالنتين سيمينوف والمسيو قونستانطين كراسيف مديرين وكتبة لمكاتب تقييد الروس فى القاهرة والإسكندرية وبورسعيد»^(٥).

ثم قامت الحكومة باعتقال كل الروسين المشتبه فى شيوعيتهم فى الإسكندرية والقاهرة وبورسعيد وعددهم ٥٢ شخصا ثم أبعدهم من مصر فى يوليو ١٩٢٥ حيث تسلمتهم باخرة روسية أمرت بأن ترسو بعيدا خارج الميناء»^(٦). وقد وجه قومسيير الشعب للخارجية بالحكومة السوفييتية احتجاجا على هذا الطرد لكن الحكومة المصرية قررت تجاهل هذا الاحتجاج وعدم الرد عليه^(٧).

كذلك أصدرت حكومة زيور قرارا بعدم السماح ببيع أو تداول الكتب الشيوعية والاشتراكية أو جلبها من الخارج.

كما أصدرت قرارا بمنع دخول جريدة «الأومانية» الفرنسية وجريدة «الإنسانية» التى تصدر فى بيروت أو أية جرائد أو مجلات شيوعية أو اشتراكية.. وتعلق الأهرام على ذلك قائلة: «عزمت السلطة عزمًا ثابتًا على مكافحة الشيوعية ومبادئها ودعاتها فى هذا القطر وغدا هذا العزم يتضح من اتساع نطاق المساعى المبذولة لاستئصال شائفة ذلك الداء الاجتماعى الخطير».

ثم تقول الأهرام: «إن البوليس صادر مؤخرا بعض كتب اشتراكية وجدت عند شاب يونانى يقول أصحابه إنه لا علاقة له بالحركة الشيوعية مطلقا وقد أرسل هذا الشخص إلى القاهرة للبحث فى أمره».

وتختتم الأهرام الخبر قائلة: «ولا شك بأن هذا الكفاح سيشد بعد الآن ولاسيما بعد أن علم أن الحكومة البريطانية شديدة الاهتمام بمكافحة هذه الحشرة الممقوتة التى تنخر قلب السنديانة كما ورد فى التلغرافات الأخيرة نقلا عن كلام وزير الداخلية»^(٨).

وقد ظل قرار حكومة زيور بمنع السفن الروسية والراعى الروس من الدخول إلى مصر ساريا لفترة طويلة. وحتى عندما اشتدت أزمة القطن وزاد المعروض فى السوق العالمى وتدهورت أسعار القطن المصرى نتيجة لقلّة الطلب العالمى عليه، وارتفعت أصوات عديدة تطالب ببيع القطن للروس، تحركت الحكومة طويلا.. وترددت وأخيرا وبعد إلحاح شديد وتحت ضغط الحاجة الاقتصادية الملحة اضطرت للسماح لاثنتين من الروس بدخول مصر، وتنشر الصحف الخبر قائلة: «وافقت وزارة الداخلية يوم ٢٥ يوليو على الترخيص لاثنتين من خبراء الروس ينبوان عن نقابة اتحاد النسيج الروسية بدخول مصر ومعاينة أقطان الحكومة وشرائها كلها أو بعضها وشراء ما يروق لهما من الأقطان المعروضة فى السوق».

لكن الصحف لم تنس أن تؤكد أن الوزارة قد «تحققت من انهما فى الواقع خبيران فى الأقطان ولا شأن لهما بالدعاية البلشفية، وأنهما يمثلان نقابة ترغب فى شراء القطن المصرى رغبة جدية. ولا ريب أن هذا العامل الجديد الذى يدخل منذ الآن سوق القطن سيكون له أثره النافع وهو ما يعود الفضل فيه إلى معالى وزير الداخلية بالنيابة الذى جمع بين الحرص على وقاية البلاد من البلشفية وبين اتصال الشركات الروسية بالأقطان المصرية»^(٩).

وقد اشترى هذان المندوبان بالفعل صفقة ضخمة من القطن المصرى بلغت ١٤,٠٠٠ بالة من القطن الجود^(١٠).

كما أن الحكومة زيور قد أصدرت قانونا جديدا هو «قانون الجمعيات السياسية»، حاولت فيه تحت ستار محاربة البلشفية أن تشن هجومها على كل الأحزاب السياسية المعارضة وقد تحدثت مجلة الأمل (الوفدية الميول) عن هذا القانون قائلة: «أصدرت الوزارة قانونا غريبا اسمته الصحف اليومية «قانون الجمعيات السياسية» وعندى أن من المجازفة أن يسمى هذا الذى أصدرته الوزارة قانونا. فالقانون المزعوم ليس إذن إلا إجراء استبداديا أرادت الوزارة أن تتحكم به فى وجود الأحزاب السياسية ولكن يظهر لى أن هذا القانون أو بالحرى هذا السلاح ذو حدين».

ثم تمضى مجلة الأمل قائلة: «لقد ذهبت شركة روتر إلى حد القول بأن هذا القانون يمهد للثورة ونشوء الجمعيات السرية»^(١١).

وفى ٢٥ مايو ١٩٢٦ أصدرت وزارة زيور قرارا بقانون «يطلق يدها فى تعقب الشيوعيين. وقد نص على معاقبة كل من يزاوّل نشاطا من شأنه الإضرار بأمن البلاد الداخلى أو الخارجى أو النظام الاجتماعى»^(١٢).

وإذا كانت القوانين التى سنتها الحكومة الرجعية بحجة مقاومة «البلشفية» قد استخدمت بهدف كبت القوى الوطنية الأخرى، فإن هذه القوى الوطنية نفسها قد واصلت - هى أيضا - استخدام سلاح القانون ضد اليسار.

وعندما نشبت معركة بين السراى واللورد لويد من جانب والنحاس باشا من جانب آخر عام ١٩٢٨ حول مشروع قانون الاجتماعات.. حاول النحاس أن يمرر القانون من فوق جسر العداء لليسار.. فقال فى خطاب له فى احتفال أقامه المحامون لتكريمه فى ٢٧ أبريل

سنة ١٩٢٨: «إن تنظيم المظاهرات المنصوص عليها فى هذا المشروع قاصر على المظاهرات السياسية وأما غيرها كالمظاهرات الشيوعية وغيرها فخارجة عن أحكام هذا المشروع وخاضعة للقانون العام.. وللبوليس أن يمنع من غير قيد ولا شرط أية مظاهرة شيوعية أو اجتماع شيوعى وقاية للنظام العام»^(١٣).

واستمرت حملة المطاردة فى التصاعد وتطلب الأمر اعتمادات إضافية، وترد فى مضابط مجلس النواب الفقرة التالية: «الرئيس: وردت مكاتبة من وزارة المالية بشأن فتح اعتماد إضافى بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه تحت بند المصاريف السرية بميزانية وزارة الداخلية لإنشاء مكاتب لتسجيل الرعايا الروسين ومحاربة الشيوعية فهل توافقون حضراتكم على إحالتها إلى لجنة المالية؟
(موافقة عامة)^(١٤).

ويبدو أن النواب فى لجنة المالية كانوا ينوون مناقشة الأمر بصورة جدية والسؤال عن جهات الصرف وأسباب الزيادة وغير ذلك مما قد يثور فى المناقشات البرلمانية وأن وزارة الداخلية خشيت من مثل هذه المناقشة فعادت وسحبت طلبها.

وأبلغ رئيس المجلس الأعضاء فى جلسة تالية أن هناك مكاتبة من لجنة المالية تفيد «أن سعادة وكيل المالية قرر أمام اللجنة أن الوزارة رأت سحب طلب الاعتماد لوجود وفورات بالبنود الأخرى أمكن بها سد عجز المصاريف السرية»^(١٥).

لكن الأمر لم يقتصر على ذلك كله، بل تجاوزته إلى حد تلفيق القضايا والتهم وثمة أمثلة عديدة نكتفى بإيراد مثال صارخ منها.. وهو مثال تناولته صحف هذه الفترة تحت عنوان «المؤامرة الموهومة».

«فى ٣ أكتوبر ١٩٢٧ طلعت الصحف على الناس بخبر مؤامرة لاغتيال جلالة الملك وقلب نظام العرش فى مصر. وظهر بعد التحقيق الدقيق أنها مؤامرة وهمية.. وتحرير الخبر أن شخصا يدعى على أفندى محمد شحاتة مستخدم بمصلحة التلغرافات، قدم فى ٢١ يونيو ١٩٢٧ بلاغا إلى إدارة الأمن العام يدعى فيه بوجود مؤامرة لاغتيال جلالة الملك أثناء رحلته فى أوروبا وقلب نظام الحكومة إلى الجمهورية واتهم فى هذه المؤامرة بعض أعضاء الحزب الشيوعى القديم ومحمد بك حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى الذى قال عنه إنه مسافر إلى أوروبا ليقوم بالتدابير الخاصة بها هناك. وقال إن البولشفيك الروس

يمدون المتآمرين بالمال.. وبعد التحريات الدقيقة التى استغرقت نحو شهرين ظهرت الحقيقة وهى أن المبلغ كاذب فيما ادعاه»^(١٦).

ويلاحظ أن المؤامرة لم تمتد فقط لبعض أعضاء الحزب وإنما شملت أيضا حافظ رمضان ولم يكن اختيار حافظ رمضان بالتحديد محض مصادفة وإنما بسبب علاقاته بالعصبة العالمية للنضال ضد الإمبريالية.

وبرغم ثبوت كذب البلاغ الذى قدمه محمد على شحاتة الذى أكدت صحف هذه الفترة أنه كان لفترة طويلة عميلا للبوليس وأنه حصل من دوائر الأمن على مبالغ كبيرة من المال.. وأنه سبق أن أبلغ عن مؤامرة سابقة وحصل على ألف جنيه من البوليس^(١٧)..

وبرغم أن بقية الذين تناولهم هذا البلاغ الكاذب وهما روزنتال وابنته شارلوت قد أقاما دعوى البلاغ الكاذب ضد المبلغ..

فإن الصحف الرجعية لم تعدم وسيلة للتشهير بالحزب فعادت لتتهم المبلغ نفسه بأنه شيوعى ووصفته بأنه «جرىء وعصبى المزاج وسريع الغضب بسبب آرائه والمبادئ الشيوعية التى اعتنقها ويدين بها ويدافع عنها ويروجها فى كل مكان»^(١٨).

وهكذا فإن الهدف الدائم والمستمر كان التشهير والتشهير المستمر بالحزب وأعضائه وتنظيم عملية المطاردة والهجوم بحيث تظل ساخنة على الدوام..

لكن الأمر لم يقتصر على ذلك كله بل تعداه إلى مطاردة الأشخاص الذين كانوا فى يوم من الأيام على علاقة بالحزب حتى ولو قطعوا علاقاتهم به بعد ذلك..

وقد تركز الضغط البوليسى فى ذلك الحين على الأعضاء القدامى كى «يستنكروا» مبادئ الحزب، لكن هذا «الاستنكار» الذى كان ينتزع تحت ضغوط وتهديدات عديدة لم يكن سوى مقدمة لبداية الاضطهاد الحقيقى، فبعد تجريد العضو من ارتباطه بالحزب عن طريق الاستنكار كان من المتعين مطاردته واضطهاده اضطهادا مستمرا حتى يكون باستمرار عبءا لغيره..

ويروى «حافظ سند» أحد مؤسسى شعبة الحزب بالمنصورة قصته قائلا:

«الحقيقة أنهم مارسوا ضدى ضغطا شديدا جدا، وأنا كنت أعمل فى مجلس المديرية وهددونى بالفصل وتشريد أولادى وأخيرا خضعت للضغط وكتبت استقالة من الحزب لازلت أذكرها بالنص وهى:

«بما أن العمال في مصر بين قوات ثلاث، الاستعمار الظالم والحكومة التي تربت في أحضانها، والقابضون على زمام الأموال، فإن على العمال أن يكتفوا بحزب عمالي وأن يبتعدوا عن الشيوعية والإباحية»، وطبعا هذه الصيغة لم تعجب مدير الدقهلية لكنني رفضت تعديلها».

وأواصل سؤال الرجل..

س: هل فعل آخرون مثلك؟

ج: ضعف البعض مثلى والبعض رفض، والحقيقة أن الذين ضعفوا كانوا جميعا موظفين بالحكومة لأن سلاح الفصل من الوظيفة كان سلاحا مخيفا جدا.

س: وهل اكتفت السلطات بهذه الاستقالة؟

ج: اكتفت بها في البداية، لكنها عادت بعد ذلك إلى تشريدنا جميعا فأنا وكثيرين فصلنا من العمل، ومحمد عبدالجليل فصل ثم أعيد للعمل بشرط نقله إلى سوهاج، وعلى العموم ظلت حملات التنكيل والاضطهاد والتفتيش تلاحقنا بشكل مستمر حتى ما بعد ١٩٣٠.

بل إن البوليس كان يستدعى أى شخص يتصل بنا لأى سبب من الأسباب حتى ولو كان مجرد قريب أو صديق شخصى ويحذره من الاتصال بنا»^(١٩).

وتحمل لنا الذكريات الشخصية لهؤلاء الرجال نماذج غريبة من الاضطهاد، فاشيخ صفوان تطارد زوجته وهو بالسجن ويضغط عليها البوليس كي تنفصل عنه لكنها ترفض»^(٢٠).

والشحات إبراهيم ظلت زوجته وأطفاله الجياع نموذجاً يتردد في الصحافة لردع أى عامل فقير عن التفكير في النضال السياسى، لقد تحدث الكثيرون من الصحفيين ومنهم أحمد الصاوى محمد فى كتاباتهم عن السيدة «جليلة» زوجة الشحات وأولادها ووصفوا كيف يعانون من الجوع والتشرد وأبوهم فى السجن.. ولم يقدم لهم أى إنسان أية مساعدة وإنما تركوهم هكذا نموذجا رادعا للعمال المصريين..^(٢١).

ويحكى مصطفى حسنين المنصورى أحد رواد الفكر الاشتراكى فى مصر مسأته، والاضطهاد الذى تعرض له عام ١٩٣٠.. ورغم أنه قد قطع علاقاته نهائيا بنأى عمل سياسى منظم منذ الأشهر الأولى لنشأة الحزب الاشتراكى فى عام ١٩٢١.

يحكى المنصوري فيقول:

«كنت مديرا للتعليم فى مجلس مدينة الفيوم، وكان المدير هو فى نفس الوقت رئيس مجلس المديرية. وحدث خلاف بينى وبينه تطور إلى حد التشاتم، فجمع شهودا من بعض المعلمين واستكتبهم اتهامات ضدى تشمل جميع الجرائم التى يعرفها البشر من رشوة إلى سوء الأخلاق مع المعلمات وما إلى ذلك. وتقدمت بشكوى إلى وزارة الداخلية بأن المدير يرتب ضدى هذه الاتهامات فى السر، ورجوت إرسال محقق من قبل الوزارة، وأرسلت إلى وزارة المعارف ألتمس منها أن ترسل مفتشا للتحقيق، لم أجب إلى طلبى. ولجأت إلى نيابة الفيوم طالبا التحقيق، فما كان من المدير إلا أن استصدر أمرا بإيقافى، ثم جمع مجلس المديرية وقرر فصلى من الوظيفة وصرف ٣٠٠ جنيه مكافأة، ولم يكتف حمد الباسل باشا بذلك، فسعى لدى رئيس الوزراء النحاس باشا لإلغاء المكافأة بحجة أننى ضد الوفد، لقد بلغت التهم التى كالموها لى نحو ١٣٠ تهمة، صحيح أن الفكر الاشتراكى لم يكن ضمن هذه التهم، ولكننى اتهمت بالكفر، وبأننى غير مؤمن بالدين الإسلامى، وادعوا أن كتابى يشهد على ذلك».

ويقول المنصوري فى مرارة لن أنسى ما حييت ذلك اليوم الذى وصلنى فيه خطاب الاستغناء. لقد كان يوم ٣ أبريل ١٩٣٠، ولم يكن معى سوى ١٥٠ قرشا..(٢٢).

والحقيقة أن الرجعية المصرية قد أعدت نفسها لحرب طويلة الأمد مع كوادى الحزب.. وعندما نوقشت فكرة إنشاء معتقل سياسى خاص بمجرمى الراى، حبزت الصحف هذه الفكرة «لأنه بات منتظرا أن يكون ضيوفه كثيرين وبصفة دائمة»(٢٣).

ويحاول أحمد الصاوى محمد أن يصف هذه الحملة المسعورة فيقول فى مقال له بعنوان «فى الشيوعية وفى التربية»:

«إن الإنسان ليدش إذ يرى حكومتنا قد جردت خيلها ورجلها للضرب على أيدي الشيوعيين حتى أصبح شبح «روزنتال» ماثلا لها فى كل مكان وفى كل إنسان»(٢٤).

وبعد كل هذا الإرهاب المستمر كان من حق الرجعية أن تتباهى فى زهو معلنة «أن زعماء الحركة الشيوعية يشكون من الفشل فى نشر الدعوة البولشفية فى مصر. ويقولون إنها تربة غير صالحة لها. لسبب الشدة التى تتخذها إدارة الأمن العام فى مطاردة الرفقاء ومراقبتهم والقبض عليهم وإبعادهم»(٢٥).

فهل كانت الأهرام محقة فى تباھيها هذا؟

وهل أمكن للاضطهاد المستمر والمطاردة العنيفة أن تجعل أرض مصر تربة غير صالحة للنشاط الشيوعى؟

هذا ما تستهدف الصفحات القادمة أن تجيب عليه بالنفى..

لكن الذى لا شك فيه أن هذا الاضطهاد الوحشى الذى لم يسبق له مثيل قد أعاق إلى حد كبير النشاط الشيوعى، ودفع به إلى اختناقات ومسالك وعرة، وصعوبات بالغة وتضحيات جسيمة، غير أنه لم ينجح مطلقا فى أن يغلق باب مصر فى وجهه، ولم ينجح مطلقا فى أن يوقف المسيرة.

ففى ٦ أكتوبر ١٩٢٤ - وهو نفس اليوم الذى صدر فيه حكم محكمة جنايات الإسكندرية بالسجن على أعضاء اللجنة المركزية للحزب - تشكلت اللجنة المركزية الجديدة. وكأنما كان اختيار هذا اليوم بالذات تحديا للإرهاب الحكومى وإعلانا لتصميم كوادر الحزب على مواصلة النضال. وقد تكونت اللجنة سرا. ومارست نشاطها سرا.

وهكذا تلقن الحزب الدرس من الضربة التى وجهت إليه فى مارس ١٩٢٤ وكان قرار «العمل السرى» مثارا لجدل شديد داخل صفوف الحزب فإن البعض من بقايا التيارات اليمينية التى مارست نفوذا واسعا عندما تأسس الحزب فى ١٩٢١ كانوا يرون أن السرية هى السبب فى كل الكوارث، وأنه إذا كان القانون والدستور لا يسمحان بالشيوعية ولا بالاشتراكية فلا بأس من البحث عن مخرج بالعمل على تأسيس حزب للعمال.. أو ما شابه ذلك، بحيث لا يضطر الحزب مطلقا إلى العمل «خارج حدود القانون».

وكانت شعبة «المنصورة» أحد المراكز التى سيطر عليها هذا التفكير «القانونى» ولم يكن هذا غريبا فقد رأينا فى الجزء الأول كيف أن أحد مؤسسيها كان عبد الحميد الطوبجى (وهو واحد من أبناء الأسر الغنية بالمدينة وكان متأثرا إلى حد كبير بأفكار حزب العمال الإنجليزى حيث درس فى إنجلترا لفترة طويلة من الزمن).. وقد استطاع عبد الحميد الطوبجى، مستندا إلى حجة قوية هى سيف الإرهاب البشع الذى سلب على أعضاء الحزب بالمدينة والمطاردات المستمرة أن يقنع بعض أعضاء الشعبة بالعمل معه على تأسيس حزب جديد باسم حزب العمال..

وأسرع الطوبجى بالعمل بالرغم من معارضة قيادة الحزب لهذا الاتجاه الاستسلامى واليمينى ونجح بالفعل فى تجميع مندوبين يمثلون مختلف المهن بالمنصورة وعقدت جمعية

عمومية انتخبت مجلس إدارة لحزب العمال بالمنصورة وتولى رئاسته كامل يوسف صالح رئيس لجنة الوفد بالدقهلية وكان الوكيل عبد الحميد الطوبجى.. وقد ضمت اللجنة الإدارية للحزب الجديد عددا من الشيوعيين القدامى أمثال رضوان الألفى (ممثلا للأسطرجية) والسعيد الصبرى (ممثلا للجزمجية)^(٢٦).

لكن هذا التجمع لم يعمر طويلا وما لبث أن تفرق عندما أبعد الوفد عن الحكم وجاء زيور بإرهابه.

وثمة دلائل غير مكتملة تشير إلى أن بعض شعب الحزب الأخرى قد سارت فى اتجاه مماثل، مثل شعبية العطف.. لكن الاتجاه العام فى الحزب رفض هذه الفكرة وصمم على مواصلة النضال سرا.

لكن ذلك لا يعنى أن الحزب -الذى لجأ إلى العمل سرا- لم يستند من المنابر العلنية بمختلف أشكالها، بل على العكس من ذلك فإن اللجنة المركزية الجديدة قد سارعت إلى تأسيس مجلة «الحساب» كمئبر علنى للحزب بالإضافة إلى مجلة سرية^(٢٧).

وقد استطاع الحزب أن يتولى الإشراف على إصدار مجلة الحساب بعد أن صدرت كمجلة عادية لفترة من الوقت وابتداء من العدد الحادى عشر الصادر فى ٦ مارس ١٩٢٥ أعلنت «الحساب» عن نفسها كجريدة «الطبقة العاملة المصرية».

وفى المقال الافتتاحى لهذا العدد حددت مجلة الحساب أهدافها فقالت:

«لأجل الطبقة العاملة من فلاحين وعمال أنشأنا هذه الصحيفة، لأجل إسماع السلطات الحاكمة وباقى الطبقات فى مصر صوت هذه الطبقة البائسة المظلومة أقدمنا على هذا العمل الشاق الذى طالما عجلت النفس إلى خوض أمواجه المتلاطمة فصدمتها العقبات والموانع فأقدمت تارة بضع خطوات إلى الأمام وتراجعت طورا إلى الوراء بضع خطوات.. إن الطبقة العاملة فى مصر هى أكثر الطبقات عددا وبؤسا، وأقلها نصيبا من اعتناء الحكومة والعمل على رفع مستواها وإزالة المظالم عنها..».

وتمضى مجلة الحساب قائلة: «وهكذا نرى أن الفرق بين طبقات الشعب المصرى كبير جدا وبين وظاهر واضح. فمن فلاح مسكين يملك من الأرض لا شىء ويعمل فى أرض سواه بما لا يسد له رمقا ولا يقيه من جوع أو يرد من برد، إلى مالك غنى يحوز ألف فدان أو أكثر. من فلاح فقير يملك بعض الفدان أو فداناً أو اثنين أو ثلاثة على الأكثر، إلى ثرى

من كبار المالكين قد تتجاوز الفدادين التي يملكها العشرة آلاف أو أزيد. ومن ابن فلاح يعمل طول اليوم فى الحقل لقاء قرشين أو قرش ونصف القرش فى الأيام العادية.. إلى موسر غنى يصرف بلا حساب ويرمى الجنيهات كيفما اتفق.. ومن عامل إما يشتغل لحسابه فيعمل يوما ويعيش بلا عمل لعدة أيام مكرها فلا يزيد أجره اليومى عن سبعة قروش أو أربعة قروش.. أو يشتغل فى شركة من الشركات الأجنبية بريال كل يوم يخضم نصفه أو أكثر من نصفه ما بين جزاءات وغرامات وإجازات إجبارية وغلطات حسابية وألف ضريبة أخرى، من عامل هذا شأنه إلى صاحب عمل لو طحن الذهب وعجنه بدل الدقيق وأكله خبزا إبريزا لما تمكن أن يأكل هو وآله وأقاربه ويخدمه وحشمه رقيقاته وسراريه عشر دخله اليومى».

ولا تخفى مجلة الحساب نفسها فهى تلمح فى نفس المقال إلى أنها امتداد لنضال قديم «كنا ممن اندمج فى حركة العمال منذ تجديد نهضتهم إلى الآن، وجاهدنا معم وتمشينا وإياهم درجة درجة فاختبرناهم واختبرونا، فقد عزمنا على إصدار هذه الصحيفة كل أسبوع - مؤقتا».

ثم تأكيد آخر: «ستخصص جريدتنا هذه لمجرد خدمة العمال لتكون صوت العمال فلا يسمع من على صفحاتها صوت آخر، ولا تخدم هيئة غير هيئاتهم، ولا شخص غير أشخاصهم وأشخاص الذين يعطفون عليهم ويسعون فى متابعتهم وفى سبيل وصولهم إلى حقوقهم».

وقد اهتمت مجلة الحساب بالحركة النقابية اهتماما كبيرا فقدمت سلسلة من مقالات ابتداء من العدد ١١ حتى العدد ١٧ الصادر فى ١٨ مايو ١٩٢٥ حول كيفية تأسيس النقابات كمنابر نضالية لحركة الطبقة العاملة وكيفية ممارسة العمل النقابى على أسس ديمقراطية، وقدمت بشكل تفصيلى وجهة نظر الحزب فى مختلف القضايا النقابية.

وقد ناقشت «الحساب» سلسلة من القضايا المهمة وأعلنت سياسة الحزب فى كثير من المواقف، وناقشت قضية تأسيس حزب العمال والفلاحين.

لكن «الحساب» لم تكن الوسيلة الإعلامية الوحيدة للحزب. فقد كانت هناك المجلة السرية والكتب الماركسية التى ترجمها الحزب وأصدرها بأسماء مستعارة «أن أحدهم ترجم كتابا فى الشيوعية باسم محمد عنتر المصرى وظهر أن المترجم لهذا الكتاب هو رفيق جبور أفندى»^(٢٨).

وكانت منشورات الحزب توزع بكثير وتشير الأهرام «إلى منشور سرى ظهر مؤخرا واستخلص منه أن الحركة الشيوعية لا تزال قائمة في البلد»^(٢٩).

وتقول الأهرام أيضا: «تثبت من التحقيق في قضية الشيوعية أن المعتقلين كانوا يذيعون بين حين وآخر منشورات لاستمالة الجمهور إلى الشيوعية كلما حدث حادث مهم في مصر وقد ضبط كثير من أمثال هذه المنشورات التي كانت توزع خاصة بين الفلاحين»^(٣٠).

وخلال انتخابات زيور عمد الحزب إلى تأسيس منبر علني يخوض به معركة الانتخابات داعيا العمال إلى ترشيح أنفسهم وإلى انتخاب مرشحين عماليين ملتزمين ببرنامج أعدّه الحزب.. وسمى هذا المنبر الجديد لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحى، وقالت مجلة الحساب إنها «كانت مؤلفة من بعض الأشخاص الغيورين الذين يهتمون بشأن الطبقة العاملة»^(٣١).

وأصدرت اللجنة منشورا يتضمن برنامجا انتخابيا لكن البوليس صادّره من المطبعة فأعادت مجلة الحساب نشره^(٣٢).. وأكدت المجلة «أن أعضاء اللجنة لا يزالون متمسكين بمبادئهم وعند حسن ظن الطبقة العاملة بهم، ولكن الظروف ألجأتهم إلى استعداد تام للعودة إلى الجهاد».

كذلك استمرت «لجنة المعونة الحمراء» فى الوجود وهى لجنة تقوم بجمع تبرعات لتقديم معونات مادية للعمال المضربين، وقد استمر نشاطهم حتى عام ١٩٣١ عندما قدمت مساعدات لعمال مرفق مياه أسيوط فى إضرابهم^(٣٣).

كذلك فإن الحزب لم ينس فى غمرة المصاعب التى واجهها الاحتفال بعيد «أول مايو» فقد أصدر بيانا موقعا من «رفيق جبور» نشرته مجلة الحساب جاء فيه:

«إن أول مايو هو رمز التضامن المشترك بين عمال العالم الذين يجاهدون فى سبيل تحرير طبقتهم وتحسين أحوالهم».

ويبدو أن الحزب قد قرر أن ينتهز هذه الفرصة ليعلن عن برنامج مرحلى يناضل العمال من أجله فالبيان يتساءل «ما هى المطالب التى يجدر بالطبقة العاملة المصرية أن تطالب بها فى مثل هذا اليوم؟ ثم يجيب «عليها أن تطالب بجلاء الجيش الإنجليزى عن القطر المصرى، وباستقلال مصر الكامل، بإلغاء الامتيازات الأجنبية التى تقضى على حياة البلاد الاقتصادية والسياسية وبجعل ساعات العمل ثمانى ساعات فى اليوم، وبتحديد حد أدنى

لأجور كل طائفة من طوائف العمال، وأن تقاوم الحكومة غلاء الحاجات المعيشية الأولية ومعاقبة المضاربين فيها، على الطبقة العاملة أن تطالب بالبيوت الصحية، وبالعلاج المجانى، وبمقاومة البطالة بإنشاء مشروعات عامة فى البلدان لتشغيل العمال العاطلين، وبتوزيع بعض أراضى الحكومة على فقراء الفلاحين لإصلاحها واستغلالها مع تسهيلها عليهم هذا العمل، وبزيادة الضرائب على نسبة كبر الثروة والتعليم الإجبارى المجانى لطبقة الشعب». ثم يضى البيان مخاطبا جماهير الشعب المصرى كلها قائلا: «هذه هى المطالب والحقوق الأولية التى يجب على الشعب المطالبة بها. وعلى الشعب أن يكون شعاره: نريد أن نعيش فى بلاد حرة كمواطنين أحرار، ولكى تصل الطبقة العاملة إلى هذه المطالب يجب أن تنظم صفوفها فى هيئات ونقابات الخاصة وإلا فإنها لن تحصل على شىء».

وهكذا يحدد الحزب هدفه الأساسى «تنظيم العمال فى هيئات ونقابات خاصة بهم». ثم يحدد ما يسمى فى الأدبيات الماركسية باتجاه الضربة الرئيسية وهى عزل العناصر البرجوازية والرجعية عن هذه التنظيمات.. فيمضى البيان قائلا: «على كل عامل مصرى حقيقى أن يقول لنفسه فى يوم أول مايو إن واجبى أن أسعى لتقوية نقابتى لأتمكن مع رفاقى من وضع مطالبنا والسعى للحصول عليها، يجب أن أعلم أن هيئة الطبقات العاملة المنظمة هى وحدها التى تدافع عن حقوقى فيجب أن أسعى لطرده كل طفيلى غريب من العمال يندس بينهم لمصلحته الخاصة. على أن أفعل ذلك لأحرر نفسى وزملائى من الانحطاط الخلقى والمعنوى ولأحصل على حالة معيشية لعنلتى أحسن من حالتها الحاضرة ولأهين مستقبلنا حسنا إن لم يكن لى فلأولادى»^(٣٤).

ولم يكتف الحزب بإصدار بيان بهذه المناسبة، لكنه حاول قدر طاقته وبقدر ما سمحت به ظروف مصر فى ذلك الحين أن يحتفل بهذه اليوم احتفالا جماهيريا سجل نتائجه بصورة موضوعية خالية تماما من المبالغة «لا يزال عمال القطر المصرى مجهلون حقيقة أهمية عيد أول مايو، المغزى الذى فيه من تضامن عمال العالم بقصد اتحادهم على المطالبة بحقوقهم وإظهار حقيقة قوتهم المعنوية ويقظتهم ونهوضهم، ولذلك فقد مر هذا العيد فى جميع أنحاء البلاد دون أن يشعر به أحد اللهم إلا فى أماكن قليلة».

ثم يضى المقال أو بالدقة التقرير الذى تنشره مجلة الحساب عن نتائج الاحتفالات بتعداد الأماكن التى احتفل فيها العمال بهذا العيد «فى العاصمة اجتمع عدد من عمال

نقابة ترام القاهرة فى دار نقابتهم حيث تكلم أحد المدعويين عن أصل هذا العيد ومغزاه ومراميه وعن تأثيره وفوائده وما جناه العمال فى اتحاد كلمتهم على جعله عيدا عاما لهم». لكن الاحتفال فى بورسعيد التى كانت منذ البداية واحدة من قلاع الحزب قد اتخذ صورة أشمل «أما فى بورسعيد فقد انقطع جميع العمال عن العمل واحتفلوا بعيد أول مايو احتفالا شائقا إذ أقاموا فى حى الإفرنج سرادقا واسعا جدا اجتمعت فيه جماهيرهم لسماع الخطب القيمة.. وقبل الظهر بساعة خرج المجتمعون فى مواكب فخمة متلاحقة تتقدمهم الموسيقى وفرقة راكبي الدراجات والموتوسيكلات. وكانت كل فئة من العمال تحمل علمها الخاص بها وقد سارت هذه المظاهرة الهادئة المفرحة فى وسط شوارع المدينة حيث كانت تقابل فى كل مكان مرت به بالهتاف للعمال وبالتصفيق الحاد. ولم يتعرض أحد من رجال الإدارة للمتظاهرين فلم تقع أية حادثة ولو طفيفة وبسيطة وهذا أكبر دليل وبرهان على أن الحوادث التى تقع إبان اجتماعات الجماهير إنما سببها تعرض قوات الإدارة ومحاولة منعها بالقوة..

وبعد أن طافت الجماهير العاملة معظم أحياء المدينة المهمة حسب البرنامج الموضوع لها من قبل عادت إلى المكان الذى بدأت منه. وأخذ أفرادها يهنئون بعضهم بعضا بهذا العيد معربين عن أملهم بأن يروه ثانية ومصر متمتعة باستقلالها، حائزة على حقوقها من غاصبيها والطبقة العاملة على أحسن ما يرجى لها من الاتحاد والوئام»^(٣٥).

ويبدو أيضا أن الحزب كان يمارس نشاطا جماهيريا وسط البحارة إلى درجة أن أحد التقارير السرية المرفوعة من وزارة الخارجية المصرية إلى السفارة الإنجليزية فى ٨-١-١٩٢٥ يتحدث عما يسميه عملاء الكومنترن بمصر فيذكر شخصا اسمه مراد حافظ ثم يذكر «نادى البحارة بالإسكندرية»^(٣٦).

والقصة التى يرويها طاهر العربى عن علاقته بالحزب توضح أن الحزب كان جم النشاط فى هذه الفترة، فقد تعرف إلى كونستانتين فايس «أفيجدور» عن طريق رفيق جبور الذى قدمه له على أنه «مكاتب لجريدة عمالية دولية حضر لمصر لدراسة حالة العمال والفلاحين» وحدثه فايس طويلا بالإنجليزية «وأخذ يندد بالاستعمار والرأسمالية وسوء حالة العمال والفلاحين المصريين وأنهم أسوأ عمال وفلاحى العالم».

ويمضى العربى قائلا: «واستمرت الصلة بيننا وعرفنى بكثيرين من أصدقائه ومنهم

الإنجليزى واليونانى والفرنسى والسورى والمصرى وأكثرهم من رجال العلم والأدب والثقافة».

وقال العربى أيضا إن فايس قد أمده بعدد من المنشورات العمالية^(٣٧).

ولعل إشارة سريعة وردت فى خطاب نشر باسم محمد صديق عنتر فى مجلة «الحساب» توضح لنا موقف الحزب فى هذه الفترة الصعبة وفى مواجهة حملة الإرهاب العنيفة فالخطاب يسأل أو بالدقة يتظاهر بأنه يسأل كى يجد الفرصة لنشر الإجابة «لماذا لا تبذلون جهودكم فى سبيل إنشاء حزب للطبقة العاملة مع أن جميع الوسائل متوفرة لديكم من وجود جريدة تحت تصرفكم وجموع كبيرة من العمال تثق بكم ثقة لا حد لها»^(٣٨).

ولم يكن بإمكان الحزب أن يرد علنا على صفحات «الحساب» مؤكدا أن ثمة حزب العمال موجود بالفعل ولكنه يعمل سرا، واكتفى الحزب بأن نشر عددا من المقالات وقبعا بعض أعضائه مثل «رفيق جبور» والشاعر «محمد رمزى تنظيم» تؤكد ضرورة قيام الحزب كسلاح طبقى فعال فى يد العمال والفلاحين^(٣٩).

.. لكن اسم محمد صديق عنتر يستوقفنا، فهو كما تؤكد تحريات البوليس فى ذلك الحين الاسم السرى لرفيق جبور.. وعبر هذا الاسم قدم رفيق جبور أكثر من جهد نظرى وإعلامى..
فى أبريل ١٩٢٥ صدر كتاب مترجم عن الفرنسية بعنوان «المبادئ الاشتراكية» تأليف كارلوس رابويورت وترجمة محمد صديق عنتر المصرى..

وفى الصفحة الثانية برواز «نشر هذا الكتاب لأول مرة فى جريدة الأمانتيه سنة ١٩٢١ وترجم إلى عشر لغات فى ذات السنة» ثم مقدمة بقلم المترجم تقول فى تحذير «تشدد» إلى القارئ: ليس هذا الكتاب رواية فتطالعه على عجل، ولا صحيفة إخبارية فتلقى عليه نظرة سطحية، ثم تلقيه من تدك فى زوايا النسيان. إن هو إلا مبادئ قد سادت بلادا كثيرة شاسعة الأطراف ويجب أن تسود العالم يوما، فافقرأه، وهذه الفكرة أمام عينيك، ثم ارجع إليه كلما قرأت فى الصحف نبأ من أنباء انتصار هذه المبادئ فى العالم، وهى أنباء ستتوالى بكثرة كما سيريك المستقبل.

لقد كنت مثلكم حائرا فى معرفة نهاية الطريق الذى تدفعنا إليه الهيئة الاجتماعية الحاضرة، وقد عرفت هذه النهاية الآن وهى أننا واصلون يوما لا محالة إلى سيادة المبادئ التى عرضتها عليكم فى كتابى هذا، فترتاح الإنسانية من تنازع الطبقات وظلم الإنسان لأخيه الإنسان فافقرأوا هذه المبادئ وادرسوها، واحفظوها فهى ستسود بلا ريب»^(٤٠).

وفى نهاية الكتاب المترجم نقرأ خاتمة بقلم «طالب معرفتك- محمد صديق عنتر».. يقول فيها: «.. وإذا ظننت كما كنت أظن أنا نفسى فى زمن مضى أن هذه المبادئ ليست سوى مجرد نظريات خيالية قد لا يمكن تحقيقها فأرجوك أن تعيد قراءتها، وتأخذ كل فكرة منها على حدة وتقابل بين حال الهيئة الاجتماعية فى الماضى وبين حالتها اليوم، فترى بوضوح وجلاء كيف تسير الإنسانية بخطوات واسعة نحو تحقيق هذه الأفكار والمبادئ، وكيف أن ما كان فى الماضى مستحيلا قد حقق فيما بعد مع توالى الأيام»^(٤١).

ثم وعد من الحزب.. «وسأتبع كتابى هذا بكتب أخرى فكلما رأيت اسم رفيقك «محمد صديق» على كتاب أعرف أنه مقدمة منى إليك، وقد سميت نفسى رفيقك وأنا متأكد أنك حالما تقتنع بهذه المبادئ تصبح «رفاقا»، وإن كنا لم نتعارف بعد».

ويضيف: «أما أنت أيها العامل المصرى المظلوم، فلأجلك خصيصا قد ترجمت هذا الكتاب، ومن أجلك سأنشر كتابا أخرى فى هذا الموضوع.. فاسع إلى نشرها بين زملائك وأولادك وذوى قرباك، وجاهد فى سبيل سيادتها..

وكلما ساور اليأس نفسك من ظلم أخيك الإنسان لك، فانكر مبادئ هذه وتذكر أن لا خلاص لك إلا بنشرها وجدد همك ونشاطك فى سبيل رواجها ليقرب يوم الخلاص.

إن كاتب هذه الأسطر رفيق من رفاقك، وعامل من العمال مثلك، وهو يبذل جهوده فى سبيل سعادة الطبقة العاملة فى المستقبل، فهلا شاركتة فى هذا العمل؟»^(٤٢).

وبرغم ضالة المعلومات التى يمكن أن تبقى عن نشاط سرى لحزب مثل هذا الحزب فى ظل ذلك الإرهاب الشديد القسوة فإن الطبيعة الواسعة لهذا النشاط يمكن أن تتضح من الصورة التى حاولت الصحف البريطانية أن ترسمها له مع بعض المبالغة.

فالأهرام تنقل عن الديلى ميل تلغرافا لمراسلها بالقاهرة يقول فيه: «حدثت ضجة عظيمة من جراء عصبية شيوعية كبيرة فى مصر».

وينتقل أيضا عن الديلى كرونيكل تلغرافا لمراسلها بالقاهرة قال فيه: «قامت الدلائل على وجود مؤامرة بلشفية واسعة النطاق لتدبير ثورة شيوعية فى مصر تكون جزءا من مشروع يرمى إلى إثارة أفريقيا كلها فى وجه الدول الاستعمارية»^(٤٣).

وكانت الأهرام قد نشرت فى اليوم السابق مقالا بعنوان تجدد الحركة الشيوعية فى مصر وفلسطين أورد فيه تلغرافا لمراسله فى لندن يقول: «نشرت جريدة الديلى إكسبريس

تلغرافاً لمراسلها في القدس قال فيه «تبذل الشيوعية الدولية والجمعية التجارية الحمراء الدولية مجهودات عظيمة لتقويض أركان الحياة الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين.. وهم على اتصال وثيق بمصر بواسطة وكيل متنكر ينتقل باستمرار بين فلسطين ومصر...».

وتمضى الأهرام قائلة: «وقد وصلت إلى الحكومة المصرية في اليومين الماضيين أخبار هذه المجهودات التي تبذلها الشيوعية والجمعية التجارية الحمراء الدولية في فلسطين وأخبار المساعي التي تبذلها لبث الدعوة الشيوعية في مصر فبكر بوليس القاهرة والإسكندرية أمس حوالى الفجر بأمر النيابة العمومية ففتش في المدينتين في أحيائهما المختلفة مساكن طائفة كبيرة من الأشخاص الوطنيين والأجانب المشتبه في انتمائهم إلى الشيوعية، وبعضهم ممن سبق التحقيق معهم واعتقالهم في غضون السنة الماضية في قضية الشيوعية الكبرى المعروفة ثم أخلى سبيلهم واعتقل منهم نحو ١٥ شخصا في سجن الاستئناف في القاهرة ونحو هذا العدد في سجن الحضر في الإسكندرية»^(٤٤).

والواضح أن هذه الحملة كلها من تدبير سلطات الاحتلال التي أطلقت صحافتها لتثير الفزع في قلوب الحكام الرجعيين المصريين من مؤامرة بلشفية في مصر.. وتطوعت الأهرام أيضا بإيعاز من سلطات الاحتلال بالمشاركة في حملة إثارة الفزع هذه.

فكتبت في اليوم التالي لحملة القبض على الشيوعيين تقول: «وقد سبق للحكومة في العام الماضي أن عملت مثل عملها الحالي أيضا ولكن ذلك لم يدل دون عودة البلاشفة إلى استئناف الكرة هذا العام. وقد يستأنفون عملهم في المستقبل مرة أخرى فيجب أن يروا أمامهم سدا منيعا لا يستطيعون أن ينفذوا منه.

إن مصر محاطة بالدعاية الشيوعية من معظم أطرافها ففي فلسطين حزب شيوعي. وفي تونس تستفحل الحركة الشيوعية ويعظم بها الخطب. وفي جدة قنصل بلشفي مسلم.. فهذا السور البلشفي الذي يحيط بمصر من معظم جهاتها جدير بأن يوضع موضع الاعتبار في كل تدبير لمكافحة الشيوعية».

وكان الأهرام لم تكتف بكل تدابير الإرهاب التي اتخذتها حكومة زيور فإنها تواصل الحملة قائلة: «وما زال التشريع المصرى ناقصا من هذه الوجهة فجدير بالذين يتحملون المسؤولية عن التشريع أن ينظروا في جميع الأساليب التي يتخذها دعاة البلاشفة لنشر دعايتهم في مصر ويقيمون أمامها من التشريع سدا منيعا. فيحرم على كل من يشتبه به

باعتراف الشيوعية دخول القطر المصرى وتصدر تعليمات صريحة دقيقة إلى القناصل المصريين فى هذا الصدد ويعاقب من يثبت احتياله على مقتضيات هذه التعليمات عقابا شديدا. ويجعل للمنظمات الشيوعية درجة معينة من الجرائم التى ترتكب ضد النظام ويشمل هذا التحديد اجتماعاتها وكل عمل يعمل فيها»^(٤٥).

ومن الثابت أن سلطات الاحتلال كانت مهتمة اهتماما بالغاً بمكافحة الشيوعية، وقد تجاوزت معها الحكومات المصرية تجاوبا مع وزارة الخارجية المصرية إلى رفع تقارير بصفة مستمرة إلى السفارة البريطانية فى القاهرة عن نشاط الشيوعيين والإجراءات المتبعة فى مكافحة هذا النشاط. وتضمن مجموعة وثائق وزارة الخارجية البريطانية الموجودة فى المتحف البريطانى الآن عددا من هذه التقارير.

وعلى أية حال فقد نجح البوليس فى القبض على ثلاثين شخصا فى آخر مايو. ثم ما لبث أن ألقى القبض على آخرين فى منتصف يونيو. وتنتشر الأهرام خبرا من مراسلها بالإسكندرية: «اعتقل البوليس فى الإسكندرية اليوم (١٧ يونيو) أربعة من الوطنيين متهمين بالاشتراك فى الحركة الشيوعية وأرسلهم إلى القاهرة بقطار الساعة الثالثة بعد الظهر»^(٤٦).

ولا يحفظ لنا قرار الاتهام الذى أذاعته النيابة فى ٨ سبتمبر ١٩٢٥ إلا ثلاثة عشر اسما فقط أما الباقيون فقد أفرج عنهم لعدم توافر الأدلة^(٤٧).. والأسماء الثلاثة عشر هى كونستنتين فايس (افيجدور)، شالوم بولاك، ليون الكونين، ريدل هرشليك، محمد عبد السميع الغنيمى، رفيق جبور، شاكر عبد الحليم، شعبان حافظ، شارلوت روزنتال، إلهامى أمين، بيومى مرسى الباسوسى، سكلاراديس ياناكاكاس، هارون واينبرج.

وثمة أسماء أخرى من بين المقبوض عليهم فى هذه الحملة يمكن التقاطها من صحف هذه الفترة فقد اهتم «المصور» بنشر صور عدد من المقبوض عليهم معلنا سبقه الصحفى والصعوبات التى أحاطت بالتقاط هذه الصور مؤكدا أنها «لم تنشر قبلا».

وتحت عناوين مثل «خطر الشيوعية فى مصر» «البلشفية خطر يهدد العالم» «لن تنجح الشيوعية فى مصر»^(٤٨) ينشر المصور مجموعة من الصور التاريخية للمقبوض عليهم وبين الأسماء نجد بالإضافة إلى الأسماء التى وردت فى قرار الاتهام أسماء محمود طاهر العربى، محمود إبراهيم السمكرى، حسن قطب، حسن عبده، تيودوس كاليدس.

وهكذا يمكننا تجميع ١٨ اسما فقط بينما تشير الدلائل إلى أن عدد المقبوض عليهم حوالى ٢٤ شخصا، فأهرام ١-٦-١٩٢٥ يقول «واعتقل منهم نحو ١٥ شخصا فى سجن الاستئناف فى القاهرة ونحو هذا العدد فى سجن الحضرة».

ثم يذكر فى ١٨-٦-١٩٢٥ أنه قد قبض بالإسكندرية على أربعة من الوطنيين بل أن أحد تقارير وزارة الخارجية المصرية إلى السفارة البريطانية يشير إلى أن عدد المسجونين الشيوعيين فى القاهرة والإسكندرية قد بلغ حوالى خمسين شخصا فى فبراير^(٥٩) بما يوحي أن حملات القبض قد استمرت واتسعت إلى حد كبير.

وقد جرت المحاكمة سرية كما تشير الأهرام^(٥٠) إلا أن بعض لمحات نشرتها الصحف تشير إلى مواقف شجاعة اتخذها المقبوض عليهم.

فتشير الأهرام أثناء تحقيقات النيابة إلى أن بعض المقبوض عليهم «قد سئلوا عن علاقاتهم بالآخرين فأجابوا بانهم لا يتكلمون إلا عن أنفسهم وأنه لا يجوز لهم الكلام عن غيرهم إلا إذا أذنوا لهم بذلك»^(٥١).

وأشارت أيضا إلى أن أحد المعتقلين قال أثناء التحقيق «أنه لو كان العالم يدار بأيدي حكومات من العمال لكانت الحالة أفضل مما هى الآن كثيرا»^(٥٢).

وقد احتج المقبوض عليهم ومحاموهم على سرية الجلسات وقد تنبأت الأهرام بذلك قبل أن تبدأ الجلسات مستندا إلى تجربة القضية السابقة التى طالب فيها المتهمون بأن يسمع الشعب صوتهم وهم فى قفص الاتهام.. وقالت الأهرام «والمفهوم أنه ستقوم مناقشة حادة بين النيابة والدفاع فى سرية وعلنية محاكمة الشيوعيين قبل البدء فى نظر القضية»^(٥٣).

وفى الساعة التاسعة من صباح ١٠ يناير ١٩٢٦ بدأت المحاكمة «وقد حضر الدفاع عن المتهمين حضرات توفيق دوس باشا عن شارلوت روزنتال، وهيب دوس بك عن يانكاكايس، صالح جودت بك عن رفيق جبور، حسين عامر عن محمد عبد السميع الغنيمى، توفيق حداد عن إلهامى أمين، زهير صبرى عن الآخرين»^(٥٤).

ويلفت النظر هنا وضع زهير صبرى الذى حضر للدفاع عن ثمانية من المتهمين دفعة واحدة ويبدو أن زهير صبرى وهو محام وفدى كان على علاقة ما بالحزب فقد ظل اسمه يتردد دوما كمحام فى كل قضايا الشيوعية بعد ذلك، ثم وردت إشارات فى تقارير لاحقة تشير إلى علاقاته بالتنظيم السرى للحزب فى عام ١٩٣٧.

وقد واجه المتهمون سلسلة من الاتهامات غير تلك التى تضمنها قرار الاتهام فقد ادعت النيابة أن بين الأوراق المضبوطة ما يفيد «علاقة بعض المتهمين بالجمعية الشيوعية الدولية الثالثة بموسكو. وأن الجمعية كانت تنفق على متهمين فى قضية الشيوعية الأولى، كما كانت تنفق على عائلاتهم»^(٥٥).

كذلك واجه المتهمون ثمانية وعشرين شاهدا منهم ستة فقط من رجال البوليس أما الباقون فكان معظمهم من بين قادة الاتجاه اليميني الذى انسلخ عن الحزب عام ١٩٢٣، والذين لم يتورعوا عن الحضور للشهادة ضد زملائهم القدامى وهم فى قفص المحاكمة.. وبين هؤلاء الشهود «محمد عبد الله عنان والدكتور على العنانى وسلامة موسى».

كذلك حضر للشهادة ضد المتهمين «محمد فؤاد سكرتير اتحاد النقابات «الوفدى»^(٥٦).

وقد استغرقت المحاكمة أسبوعا كاملا وكانت الجلسة برئاسة حضرة صاحب العزة على بك سالم وعضوية حضرات كامل بك إبراهيم وعبد العزيز بك محمد وقد صدر الحكم فى الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء ١٩ يناير وهو يقضى بسجن كونستنتين فايس وشالوم بولاك وليون الكونين ثلاث سنوات. وشعبان حافظ سنة مع الشغل ورفيق جبور والشيوخ شاكر عبد الحليم وإلهامى أمين ستة أشهر مع الشغل (وهؤلاء يخرجون بعد الحكم لاحتساب مدة سجنهم احتياطيا) وبراءة كل من ريدل هارستيلت ومحمد عبد السميع الغنيمى وشارلوت روزنتال وبيومى الباسوسى واسكالاريوس وياناكاكاس وهارون واينبرج»^(٥٧).

وبرغم أن هذه القضية لم تكن تمثل فى ذاتها شيئا خطيرا لا بالنسبة لعدد المتهمين فيها ولا بالنسبة للأحكام التى صدرت عليهم، فقد اتخذت محورا لعدد من المؤامرات والمناورات السياسية المختلفة..

* فالإنجليز استخدموها كسبيل للضغط على مصر مطالبين بمزيد من الحزم أو بالدقة بمزيد من الإرهاب..

* واستخدمها الإنجليز أيضا كحجة لتوجيه ضربة لحزب الوفد، وقد شاهدنا فى فصل سابق كيف حاولت الصحف الإنجليزية أن تثير شكوكا غير صحيحة حول علاقة الوفد بهذه القضية وحول قيام تحالف بين الوفد والبلاشفة.

وقد ادعت الديلى كرونيكل «أن هناك علاقة بين محرصى البلاشفة فى القاهرة وحملة القتل «التي اتهم فيها عدد من الوفدين» وبين المقبوض عليهم رجل حكم عليه فى ١٩١٢

لاشتراكه في مؤامرة دبّرت لاغتيال اللورد كيتشنر، ولكن أفرج عنه في العام الماضي بأمر أحد وزراء حكومة زغلول باشا وينتظر أن تظهر أسرار خطيرة»^(٦٨). وهذا الشخص هو محمود طاهر العربي وقد نفينا من قبل علاقته بحزب الوفد بل واثبتنا أنه كان مجرد عميل للامن أما واقعة الإفراج عنه بأمر أحد الوزراء الوفديين فهي غير صحيحة على الإطلاق فقد أفرج عنه في ٢١ يوليو ١٩٢٣ بعد أن أوفى مدة العقوبة»^(٥٩).

كذلك انتهزت «المورنج بوست» الفرصة لتهاجم الوفد ولتدين «الوسائل التي يستخدمها بلا ضمير للحصول على المساعدة الأجنبية لتأييد دسائسه ضد البريطانيين»^(٦٠). * كذلك استخدمت حكومة زيور هذه القضية لتبرر إرهابها العنيف ضد كل القوى الوطنية والديمقراطية ولتبرر كل قراراتها الطائشة والمضحكة في هذا الصدد بحجة مقاومة الخطر البلشفي.

* كذلك فإن هذه القضية قد استخدمت في محاولة للضغط على الدول الأجنبية حتى تتنازل - إلى حد ما - عن بعض الامتيازات الأجنبية الممنوحة للمقيمين الأجانب. وتقول الأهرام إن «علاقات مصر بالدول الموالية لها شأن مهم في ما تقضى الحاجة بوضعه من التدابير، فاستفحال الشيوعية في مصر خطر على نظام مصر وعلى المصالح الأجنبية الكبيرة في مصر في وقت واحد. فجدير بالدول الموالية لمصر أن تكون عوناً لها على مكافحة هذا الداء لاسيما وأن الذين يحملونه إلينا أشخاص من الأجانب»^(٦١).

* بل إن «الأهرام» قد استخدمت هذه القضية كنذير لتهديد الإنجليز أنفسهم، وهكذا وكما حاولت سلطات الاحتلال أن تجعل من الشيوعية شبحاً تخيف به المصريين فإن بعض الدوائر التي تتحدث الأهرام باسمها حاولت أن تستخدم نفس «الشبح» لتخيف به سلطات الاحتلال. ففي افتتاحية الأهرام تحذير واضح للإنجليز.. «فعسى أن يكون الحكم الذي صدر أمس على دعاة الشيوعية خير نذير أيضاً للسياسة البريطانية لكي تسلك سبيل الولاء نحو الأمة المصرية وتتنظر نظرة إنصاف إلى حقوقها المهضومة استبقاء لولائها ورضائها.. فليس من المستحيل أن تكون السياسة البريطانية سبباً من أسباب انجراف الشيوعية فنرى نفراً من المتهوسين يعتقد أن الشيوعية وسيلة لتحقيق مطالب الأمة»^(٦٢). * وفوق ذلك فإن عدداً من الكتاب قد استخدم هذه القضية كسبيل للضغط على

الحكومة لبذل مزيد من الجهود لحل المشكلات الاجتماعية المعقدة ملوحا بأن تفاقم هذه المشكلات سوف يزيد من خطر انتشار الشيوعية، وعلى صفحات «المصور» وجنبا إلى جنب مع اخبار القبض على المتهمين ومع الصور التى تباهى «المصور» بانفراده بنشرها يكتب فكرى أباطة تحت عنوان «البلشفية فى مصر»: «هل مررت على القهوات العامة عقب نتائج الامتحانات؟ كرر هذا المرور شهرا أو شهرين أو ثلاثة شهور، «وخذ بالك» من جمعيات المتخرجين تجد «البلشفية» فى عيونهم وحركاتهم ونبراتهم واعتقد أن «البلشفية» فى مصر لن تنبئ من أكواخ الفلاحين أو مساكن العمال، وإنما ستنبئ وتترعرع بين أوساط المتعلمين.. الذين افنوا زهرة العمر فى عناء الدرس حتى إذا تخرجوا وجدوا ابواب العمل فى وجوههم مقفلة وجو المستقبل مكفهرًا ينذر بالأعاصير».

ثم يختتم فكرى أباطة مقاله بتهديد قاطع.. «لئن لم تعن الحكومة بهذه الحالة فلتتأكد أن البلشفية ستننتشر فى المدن أولا بين طبقات المتعلمين ثم تسرى إلى الأرياف وبين الفلاحين»^(٦٣).

* كذلك فإن وجود كونستنتين فايس «أفيجدور»^(٦٤) بين المتهمين قد أثار موجة عنيفة من الاتهامات بأن للكومنترن أصابع فى نشاط الحزب، وأن الكومنترن وممثليه هم الموجهون لنشاطه.

ويشير لاکور أيضا إلى شخص أمريكى يدعى Ignaz Semenyuk قام بتأسيس شركة تركية روسية فى القاهرة فى عام ١٩٢٥. وإلى Alexei Vasiliev الذى قام فى ١٩٢٧ بتأسيس وكالة تجارية باسم Textil Import وقال إن الاثنين قد بذلا جهودهما فى تنشيط عمل الحزب إلى أن طرد الأول فى عام ١٩٢٨ والثانى فى عام ١٩٢٩»^(٦٥).

وتشير مصادر الحزب الألمانى إلى أن شيوعيا ألمانيا اسمه هوجو رودولف Huga Ru-dolf قد وصل إلى مصر عام ١٩٢٥ ليدرس أوضاع الشيوعيين المصريين وظروف عملهم وأنه افتتح مصنعا للنسيج بالإسكندرية وظل مقيما بها حتى عام ١٩٢٩ ثم غادر مصر إلى موسكو حيث عمل كمندوب بالدولية الثالثة.

والذى لا شك فيه أن الكومنترن كان يقدم نوعا من العون السياسى والتنظيمى للأحزاب الحديثة التأسيس، وأنه كان يمدها فى بعض الأحيان بعدد من الكوادر المدربة. كذلك تشير الدلائل إلى أن الكومنترن وقد كان بمثابة هيئة مركزية بالنسبة لكل

الأحزاب المنتسبة إليه كان يرسل ممثلين سريين له فى عدد من البلدان التى تعانى الأحزاب فيها متاعب ما. وكان هؤلاء المندوبون «السريون» حتى على الحزب نفسه يعدون تقارير حول مشكلات معينة.

وفى وثائق المؤتمر الخامس للكومنترن ما يشير إلى شكوى بعض الأحزاب من أن اللجنة التنفيذية للكومنترن تتلقى معلومات غير دقيقة بطرق غير سليمة من الناحية التنظيمية.

وربما كان ذلك كله ضروريا فى البداية حيث كانت الأحزاب وخاصة تلك التى نشأت فى المستعمرات تفتقر إلى الخبرة وإلى الكادر المدرب. لكن وجود هذه العناصر الأجنبية فى صفوف حزب يعمل فى بلد يناضل أساسا ضد الاستعمار، ويعانى سكانه فى الأساس من التسلط الأجنبى ومن الامتيازات التى يعانى منها الأجانب كان سببا فى كثير من المتاعب. ولسنا هنا بصدد تقييم الدور الذى لعبه أشخاص مثل «أفيجدر» وهل كانت نتائجه سلبية أم إيجابية، لكن الشئ المؤكد أن وجودهم قد أثار بعض الاضطراب فى صفوف الحزب.

وما إن أفرج عن حسنى العرابى السكرتير العام للحزب وكان قد قبض عليه فى حملة عام ١٩٢٤، حتى رفع شعار الابتعاد عن الكومنترن.

وكان التصور العام الذى ينادى به العرابى هو أن الحزب ظل علنيا ونشيطا طوال الفترة التى كان يسمى نفسه فيها بالحزب الاشتراكى وأن الانتماء للكومنترن وإصرار الكومنترن على تغيير اسم الحزب إلى الحزب الشيوعى قد وضع الحزب فى مواجهة مباشرة وحتمية ضد الدستور والقوانين التى تنص صراحة على تحريم الشيوعية وتحريم إقامة أية تنظيمات تدعو لها.

وأن على الحزب كى يعيش أن يرفع من الشعارات ما يسمح له بالعلنية. ذلك أنه لا أمل فى إقامة تنظيم سرى.

يقول مارسيل إسرائيل «وعندما خرج محمود حسنى العرابى من السجن اقترح أن ينسحب الحزب من الدولية وطالب باتخاذ مواقف ذات مضمون انتهازى»^(٦٦).

لكن مجموع كادر الحزب قاوم هذه الفكرة ورفضها، فالرجعية المصرية ليست فقط ضد هذه الكلمة أو تلك لكنها ضد كل تجمع طبقى يمثل جماهير العمال والفلاحين..

ويبدو أن اتجاه حسنى العرابى قد هزم هزيمة ساحقة فقد انسحب وحيدا من الحزب ولم يخرج معه إلا إلهامى أمين (المخزنجى بالسكة الحديد والذى قبض عليه فى حملة ١٩٢٥ ثم أفرج عنه لاستيفاء مدة العقوبة).

وقد ظل إلهامى أمين على ولاء تام للعرابى فأصدر فى ١٩٢٧ كتيباً بعنوان «مقالات العرابى» قال فى مقدمته: «أعتقد عن يقين أن من أبلغ وأقوى وأمتن ما كتب بالعربية فى تقويض الرجعية ونشر الثقافة الجديدة ورفع لواء التجديد سواء أكان ذلك فى الأدب أم الاجتماع أم التاريخ أم الاقتصاد ما كتبه صديقى الأستاذ محمود حسنى العرابى. ولا أكون مغرقاً إذا قلت إن غير محمود حسنى العرابى فى مصر لا يقوى على صرخته الجريئة»^(٦٧).

وعلى أية حال لقد ابتعد العرابى عن الحزب محاولاً أن يشق لنفسه طريقاً جديداً هو طريق «العلنية» وسوف نحاول تتبع هذا الطريق الجديد فى صفحات قادمة فلنركز الآن انتباهنا على المسيرة الأساسية ولنتابع خطى الحزب بعد حملة القبض التى تمت فى ١٩٢٥.

وكما يحدث فى كل مرة فإن الرجعية قد تصورت أن القبض على هذه المجموعة الكبيرة من الكادر قد أوقفت نبض الحزب لكن التقارير السرية المرفوعة من وزارة الخارجية المصرية إلى السفارة الإنجليزية تكشف عكس ذلك.

فبعد التهليل لعمليات القبض وبعد التباهى الذى ظهر فى هذه التقارير بأن السجون تضم أكثر من خمسين من أعضاء الحزب فإننا لا نلبث أن نجد أحد هذه التقارير يشكو من «أن الشيوعية تنتشر بكثرة فى القاهرة وهناك شيوعيون كثيرون وسط العمال. إن هناك مطبوعات شيوعية سرية تصدر بكثرة»^(٦٨).

فلنحاول أن نبحث عن مصدر هذه الشكوى الجديدة.

والحقيقة أن النشاط الحزبى قد انطلق سريعاً بالرغم من حملات القبض التى استمرت من أواخر مايو حتى أواخر يونيو ١٩٢٥.

وبالرغم من النشاط العنيف الذى قامت به قوات البوليس المصرى تحت القيادة الأجنبية وبرغم الخبراء الذين سافروا إلى لندن عدة مرات لدراسة مكافحة «المبادئ المهمة» فقد استطاع الحزب أن يواصل نشاطه فى مواجهة هذه الصعوبات البالغة.

وكانت الخطة التي انتهجها الحزب بعد حملات الدعاية المضادة التي شنت عقب القبض على أفيجدور هي الاستغناء عن الكوادر الأجنبية والاعتماد قدر الإمكان على إفاد كوادر مصرية وعملية على الأخص للدراسة والتدريب في جامعة كادحي الشرق بموسكو حتى يعودوا إلى مصر ليقودوا نضال الحزب.

وفي هذه الفترة نجح الحزب في إفاد عدد من كوادره العملية للدراسة في موسكو ومن بينها عبدالرحمن فضل (نجار) محمد دويدار (عطشجي في السكة الحديد) عبدالعزيز مرعى (براد بالسكة الحديد) وآخرون..

وهكذا فإننا نرى أن الوثائق السرية لوزارة الخارجية البريطانية قد بدأت تقلل من حديثها عن مبعوثي الكومنترن وتركز الاهتمام على الطلبة المصريين العائدين من موسكو. ومع ذلك فقد ظلت بعض العناصر الأجنبية التي قيل إنها تمثل الكومنترن موجودة في مصر.. وثمة وثيقة تقول «منذ عام ١٩٢٦ كان هناك ٤٠ شيوعيا تحت مراقبة البوليس». ومن بين هؤلاء (مندوبا الكومنترن) ماكس كوجل Max Kogel وإلباهو تيبير Elliahou Teper^(٦٩).

لكن الشيء الجديد والملفت للنظر في هذه الوثيقة هو العبارة التي تشير إلى الكوادر المصرية العائدة من موسكو «إن خمسة من الطلبة المصريين الذين درسوا في مدرسة كادحي الشرق قد عادوا وهم يتصلون بنشاط بالعناصر اليسارية في حزب الوفد». وكان من بين العائدين من موسكو محمد عبدالعزيز.

وقد سارع «ياناكاكس» زعيم المجموعة الشيوعية اليونانية والذي كان فيما يبدو على علاقة مباشرة بالحزب الشيوعي اليوناني وبيع بعض مندوبي الكومنترن بمصر بترشيح محمد عبدالعزيز سكرتيرا عاما للحزب..

وتؤكد العديد من المصادر هذه الواقعة، ويؤكدها أيضا مارسيل إسرائيل (تشيريزي) وبعد ذلك عين عامل يدعى عبد العزيز كان قد تلقى دراسته في موسكو في منصب سكرتير الحزب وكان ترشيحه بناء على توصية من مناضل يوناني قديم يدعى «ياناكاكس»^(٧٠).

وكان محمد عبدالعزيز - كما تجمع مصادر عديدة - عميلا للبوليس منذ بدء انضمامه للحزب. وكان البوليس المصري مطعما بخبرة البوليس البريطاني قد لجأت إلى أسلوب التسلل إلى صفوف الحزب والانتظار الطويل سعيا وراء اصطياد أكبر عدد من الكوادر..

وتقارير البوليس السرية المرفوعة لوزارة الخارجية البريطانية تشير باستمرار إلى أشخاص موضوعين تحت المراقبة انتظارا لصيد أكبر عدد من الكوادر.. «منذ ١٦/٤/١٩٢٤ والمدعو أندرييف تحت مراقبة البوليس»^(٧١).
«منذ عام ١٩٢٦ كان ٤٠ شخصا تحت مراقبة البوليس وكانوا يقومون بتأسيس خلايا»^(٧٢).

وبرغم كل ذلك فقد استطاع الحزب أن يواصل المسيرة..
ولنحاول أن نستخلص بعض المعلومات عن أسلوب النشاط الحزبي من حوار مع محمود دويدار^(٧٣) وهو واحد ممن ضمهم الحزب في هذه الفترة.
«س: كيف انضمت إلى الحزب؟

ج: في سنة ١٩٢٧ كنت أعمل في طنطا وكان لى زميل اسمه أحمد عبدالعزيز كان هو أيضاً عطشجى بالسكة الحديد. وفي إحدى زياراتي له أطلعنى على خطابات وصلته من أخيه محمد عبدالعزيز الذى كان فى موسكو فى ذلك الحين وبهرنى وصفه للحياة فى الاتحاد السوفييتى. وقد دفعنى هذا إلى توطيد علاقاتى بأحمد عبدالعزيز حتى أطلع على المزيد من المعلومات عن الاتحاد السوفييتى.

ثم عاد محمد عبدالعزيز من موسكو وسعيت إلى التعرف عليه وفى أول مناقشة سألنى عن انتمائى الحزبى فقلت له أننى أميل إلى الحزب الوطنى لأنه يهتم بشئون العمال لكننى لا أعمل معهم.. وبعد عدة مقابلات ضمنى محمد عبدالعزيز إلى إحدى خلايا الحزب فى طنطا.

س: هل يمكن أن تشرح لى أسلوب عملكم الحزبى فى عام ١٩٢٧؟

ج: كان التنظيم سرى، لكننى كنت أعرف أن هناك خلايا فى القاهرة والإسكندرية وطنطا وفى أماكن أخرى. وكان شعبان حافظ يتصل بنا فى طنطا أحيانا. وفى أحيان أخرى كنت أسافر أنا إلى القاهرة لأقابل محمد عبدالعزيز. اتسع نشاطنا فى طنطا فأنا مثلا جندت عددا من العمال بينهم اثنان سافرا إلى جامعة كادحى الشرق بموسكو هما عبدالعزيز مرعى (براد فى السكة الحديد) والثانى اسمه عبدالمجيد (لا أذكر بقية اسمه) وكان أيضا عاملا فى السكة الحديد.

وكانت الخلايا تدرس الماركسية وتدور مناقشات عديدة حول الأوضاع فى الاتحاد السوفييتى»^(٧٤).

وفى مناقشة أخرى قال محمد دويدار: «بالإضافة إلى المعلومات التى أدليت بها فى الجلسة السابقة أذكر أننى جندت فى طنطا وكنت عضوا فى خلية عدد أعضائها خمسة، ولم أكن أعرفهم فقد كانت السرية مطلقة، وكنا نستخدم أسماء حركية. وأحيانا كنت استدعى لحضور اجتماعات القاهرة وأذكر أننى دعيت إلى اجتماع فى منزل بشارع كلوت بك حضره محمد عبدالعزيز وثلاثة من عمال العنابر لمناقشة بعض المشاكل العمالية. وكانت معظم الموضوعات الدراسية تتركز حول حالة العمال واستغلال الرأسماليين لهم. وكنا باستمرار نربط بين الرأسمالية والاستعمار»^(٧٥).

وقد نشط الحزب فى ذلك الحين لتأسيس فرع مصرى لعصبة النضال ضد الإمبريالية. ويبدو أنه قد نجح فعلا فى تأسيس فرع يضم عددا من الوطنيين والعناصر اليسارية والتقدمية ويسار حزب الوفد وعناصر الحزب الوطنى.

وقد وجهت الدعوة لحفاظ رمضان لحضور مؤتمر العصبة فى بروكسل وقد أعترض عن الحضور لكنه وجه رسالة تحية للمؤتمر نشرتها مجلة العصبة، وبناء على هذه الرسالة قرر المؤتمر الأول للعصبة ضم حافظ رمضان إلى اللجنة التنفيذية للعصبة.

وتشير الوثائق السرية لوزارة الخارجية البريطانية إلى اتصالات واسعة قامت بها عصبة النضال ضد الإمبريالية مع أوساط واسعة وشخصيات مهمة فى مصر.. وقد طالعنا فى فصل سابق بعض ما جاء فى وثيقة حصلت عليها المخابرات البريطانية من المخابرات الهولندية حول نشاط هذه العصبة^(٧٦).. ولنواصل الآن متابعة ما جاء فى هذه الوثيقة المهمة من المعلومات.

«وهناك فى القاهرة أيضا إيلياس يعقوب محرر جريدة Pilwan Tiomer التى تصدر فى القاهرة والتى صدر عددها الأول فى أكتوبر ١٩٢٧ وهو يعمل أيضا كمراسل لجريدة تصدر فى جاوه باسم pembrita Kemadjoean وهى جريدة شيوعية كانت تتسمى من قبل باسم Sinar Indonesia.

ومن المعروف أن إيلياس يعقوب هذا قد قام بعدة زيارات لرئيس جمعية الشباب المحمدى (عبد الحميد بك سعيد) يصحبه الشيخ محمود أبوالعبون مفتش الجامع الأزهر وعضو الحزب الوطنى المتطرف».

وتمضى الوثيقة قائلة: «وهنا يثور تساؤل هام هو: هل قامت موسكو عن طريق العصبة المناهضة للإمبريالية فى برلين بدور أساسى فى تأسيس جمعية الشباب المحمدى بهدف التأثير

فى الطلاب الهنود والإندونيسيين الذين يدرسون فى الأزهر، ومن ثم يمكن أن تتحول هذه الجمعية التى مقرها القاهرة إلى مركز الدعاية الموالية لموسكو والمناهضة لبريطانيا وهولندا؟ والحقيقة أن هناك ثمة عوامل ترجح أن الرد على هذا السؤال هو بالإيجاب..

ويبدو الذعر واضحا فى هذه الوثيقة من تلك العلاقة التى نجحت «العصبة» من خلال الحزب فى إقامتها مع بعض عناصر الحزب الوطنى المصرى ومع بعض رجال الدين والجمعيات الإسلامية.. ومع بعض القوى الوطنية وسط طلاب العالم الإسلامى. وفى المؤتمر الثانى للعصبة الذى عقد فى فرانكفورت فى ١٩٢٩ مثل مصر عضوان هما عبد الحميد سعيد وعبدالفتاح العزىزى.

وفى المجلة التى تصدرها العصبة باسم (Anti Imperiaism Review) كان يعمل مصريان هما إبراهيم يوسف وعبدالرؤوف مالك.

كذلك نجحت هذه العصبة فى إقامة علاقات واسعة مع المنظمات الإسلامية فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى وتشير مجلة السياسة الأسبوعية إلى هذه العلاقة فى مقال بعنوان: «الاضطرابات فى الهند الشرقية ونشاط الدعاة البلاشفة» قالت فيه: «إن الدعاة البلاشفة قد التقوا حول جمعية (رابطة الإسلام) حتى غلبت فيها العناصر المتطرفة.. ويبذل الدعاة قصارى جهدهم لكى يجعلوا من هذه الهيئة القائمة القوية آلة لدعوتهم فاتخذوا شعارهم تحقيقا لهذه الغاية «أرض الإسلام للمسلمين». وألف الدعاة عضدا قويا لتحويل التيار إلى تيار سياسى فى كون أصحاب الأعمال يضمنون بالعمل على العمال الذين يلتحقون بالرابطة وبذلك يظهرون أنهم أعداء الدين الإسلامى»^(٧٧).

كذلك نجحت العصبة فى إقامة علاقات وثيقة مع حركات التحرر الوطنى فى مختلف البلدان العربية.

وقد حضر المؤتمر الثانى للعصبة بالإضافة إلى مندوبى مصر حمدى الحسينى والعينى (الشام)، شبل بن مصطفى (تونس)، الجزائرى (الجزائر)..

وكان قد حضر المؤتمر الأول مظهر البكرى المناضل السورى المعروف.. وثمة وثيقة فى المتحف البريطانى عبارة عن ملخص لترجمة مقال منشور فى جريدة Bandra Islam الصادرة فى ٤ يوليو ١٩٢٧^(٧٨) تقول «تحدث المقال عن العصبة ونشاطها. وعن تقرير السكرتارية العالمية حول النشاط الذى قامت به خلال الفترة بين شهرى فبراير ومايو ١٩٢٧.

ويتضمن المقال معلومات تقول أن السيد مظهر البكرى قد اقترح تكوين فروع لهذه العصبة فى كل البلدان العربية، على أن تبذل جهود لتوحيد هذه الفروع وتكوين قيادة مركزية عربية يمكن أن تسمى «عصبة تحرير البلدان العربية».

كذلك اقترح السيد البكرى عقد مؤتمر عربى للنضال ضد الإمبريالية بالقاهرة. وذلك بهدف تعزيز النضال العربى ضد الاستعمار.

وقال إنه قد تم الاتصال بالفعل بعدد من الشخصيات المصرية لبحث مسألة عقد هذا المؤتمر معها، ومن بين هذه الشخصيات عضو فى البرلمان المصرى.

وسوف يدعى إلى هذا المؤتمر أيضا مندوبون من الصين وإندونيسيا وإنجلترا والهند...

وثمة مقال مثير للاهتمام والدهشة معا نطالع فقرة منه تقول:

«إن مصر تقبل الآن على بحر متلاطم الأمواج.. إنها تحتاج الان إلى حزب قومى قادر، وزعيم قومى ذى نفوذ واسع، حزب يرفع شعار «كل السلطة للجمهوريات العربية الفيدرالية فى الشرق الأدنى».. فهل يستطيع سعد زغلول باشا أن يلعب هذا الدور، نؤمل ذلك، وإن كنا نشك كثير فى إمكانية ذلك»^(٧٩).

والفقرة على قصرها تثير أكثر من تساؤل.. حول مسائل وردت سريعا دون إيضاح بل ولم تتكرر كثيرا فيما بعد - فيما نعلم - مسائل مثل «حزب قومى»، «زعيم قومى» «كل السلطة للجمهوريات العربية الفيدرالية فى الشرق الأدنى».

وقد نجح الحزب فى أن ينشر موضوعا مصورا عن المؤتمر الأول للعصبة فى مجلة اللطائف المصورة وقد تضمن الموضوع صورة لمظهر البكرى كتب تحتها «مظهر بك البكرى مندوب سوريا فى مؤتمر الشعوب المظلومة وهو شقيق نسيب بك البكرى الزعيم السورى المعروف».

وقد تضمن الموضوع بيانات مهمة عن المؤتمر جاء فيها: «عقد فى بروكسل عاصمة البلجيك فى شهر فبراير الماضى مؤتمر الشعوب المظلومة وفد تألف من ١٧٥ عضوا يمثلون جميع الشعوب المستعبدة ومعظم الأحزاب الاشتراكية والشيوعية وممثلى الأحزاب الاستقلالية فى تونس والجزائر وإفريقية الجنوبية والهند والصين وقد استمرت جلسات المؤتمر خمسة أيام ألقى فيها الخطب وتكلم مندوبو الشعوب عن استعمار الدول فى مختلف البلدان وكان أشد الأعضاء تحمسا مندوبو الصين، وقد قال أحدهم فى إحدى

خطبه: «نحن نعلم كيف يجب علينا أن نموت في سبيل الثورة». وكانت جدران قاعة المؤتمر مزينة بصورة كبيرة للثورة الصينية وبطائفة من الصور الأخرى. وكان بين مندوبى تلك الشعوب كثير من الزنوج والعبيد»^(٨٠).

وتشير إحدى وثائق وزارة الخارجية البريطانية عن هذه الفقرة إلى أن الحزب قد اتصل بالعناصر اليسارية فى حزب الوفد.. وتقول نفس الوثيقة «وقد تكون مصر فرعا لعصبة النضال ضد الإمبريالية»^(٨١).

كذلك فإن أحد التقارير السرية المرفوعة من السفارة الإنجليزية بالقاهرة إلى وزارة الخارجية تشير أن الحزب «حاول الاتصال بالشيخ عبدالعزيز جاويش (مات عام ١٩٢٩) لكنه فشل فى ذلك»^(٨٢).

وعندما منعت الحكومة المصرية النائب البريطانى الشيوعى سكلا تفالاً من دخول البلاد.. كشفت المناقشات التى جرت فى البرلمان حول هذا الموضوع عن اتصال بعض نواب الوفد والحزب الوطنى بفرع العصبة فى مصر الذى يبدو أنه نشط فى توزيع صور من خطاب كتبه سكلا تفالاً على عدد من النواب.

وقد قال النائب حسن سيد أحمد نافع «إنه قد ورد لأكثر من واحد من المصريين كتب شخصية من المستر سكالا تفالاً.. واسمحوا لى أن اتلوا على حضراتكم ترجمة إحدى الفقرات من بعض خطابات».

ويقول محمد حافظ رمضان فى نفس الجلسة إنه قد تلقى واحداً من هذه الخطابات..^(٨٣).

ولعل مسرحية سكلا تفالاً بكل ما كشفت عنه من صراعات كانت الفصل الأول من الحملة الجديدة ضد الحرب الذى استطاع أن يقيم إلى حد ما نوعاً من التجمع الوطنى المناهض للاستعمار.. والذى نجح إلى حد ما فى تحقيق المحاور الأكثر خطراً من وجهة نظر الرجعية المصرية والاحتلال البريطانى وهو إيجاد علاقات بين الحركة الوطنية المصرية وبين حركة اليسار العالمى المناهض للاستعمار والإمبريالية والسعى لإيجاد تجمع عربى مناهض للإمبريالية.

وكانت قصة المؤامرة الوهمية التى حاول فيها أحد عملاء البوليس اتهام الشيوعيين وحافظ رمضان بالاشتراك فى مؤامرة لاغتيال الملك فؤاد خلال زيارته لأوروبا^(٨٤) .. هى

الفصل الثانى من الحملة التى صار توجيهها ضد اليسار وضد القوى الوطنية التى تحالفت معه..

ثم بدأ الفصل الثالث بحملات التشهير والقبض ضد الزعماء العرب الذين شاركوا فى نشاط العصبة.. وإذا كان مظهر البكرى واحدا من أبرز القادة العرب الذين أسهموا فى نشاط العصبة، وصاحب الاقتراح الخاص بتأسيس «عصبة عربية مناهضة للإمبريالية وبعقد مؤتمر عربى للنضال ضد الاستعمار بالقاهرة.. فإن الضربة الأولى يجب أن توجه إليه.. ويجب أن تجد صدى لها على صفحات الجرائد المصرية لعلها تكون تحذيرا للوطنيين المصريين ورادعا لهم..

وتنشر الصحف المصرية الخبر التالى: «تحرى البوليس فى يافا دار السيد نسيب البكرى للتفتيش عن أوراق مهمة يقال إن لها صلة بعلاقة السيد نسيب وأخيه مظهر بقبض مبالغ من اللجنة الشيوعية باسم بعض الحملات.. وقد شاع قبل شهرين أن الحكومة عثرت على أوراق تشير إلى ذلك فى دار اللجنة الشيوعية بيافا. ويقال أيضا إن السيد مظهر البكرى سافر بأموال الشيوعيين إلى مؤتمر بروكسل»^(٨٥).

والآن فإن المسرح يبدو معدا لتوجيه ضربة جديدة للحزب فى مصر. ذلك أن كل نجاح جديد يحققه فى أى مجال من المجالات كان يستتبع بالضرورة حملة بوليسية عنيفة تستهدف إجهاض هذا النجاح..

وكذلك فإن توجيه الضربة للحزب كان يعنى بالضرورة إحباط المحاولات الجادة التى بذلها بوعى وكفاءة لخلق جبهة مصرية مناهضة للاستعمار ولخلق جبهة عربية ضد الاستعمار أيضا..

وكان ضروريا أن تشن حملات دعاية تكون بمثابة الموسيقى المصاحبة لحملات الاعتقال، وتركزت الحملات فى هذه المرة أيضا على العلاقات بالكومنترن، وعن العناصر الأجنبية، وأخيرا - وهذا هو المهم - حول دور يهود فلسطين فى الحركة.

وهكذا ومع أول علاقة ثورية ينظمها الحزب أو يدعو لتنظيمها مع القوى الثورية العربية تشن الحملة ضده من جانب ذكى يحاول فض التحالف العربى من حوله..

فيستخدم النشاط الشيوعى وسط يهود فلسطين وعلاقته بنشاط الحزب فى مصر. وكالعادة.. فقد بدأ أحد المراسلين الأجانب الحملة.

ففى أوائل مايو ١٩٢٨ كتب مراسل التايمز بالقاهرة مقالا حذر فيه من أن «الدعوة الشيوعية عادت تسرى فى مصر مسرى سريعا، وأنها ستلعب دورا خطيرا فى المستقبل القريب إن لم تتخذ احتياطات حازمة لقمعها...» وقال إن النشاط قد بدأ يدب فى أوساط الشيوعيين من جديد.. «وقد عاد من موسكو أخيرا شبان مصريون بعثوا إليها على نفقة السوفييت حيث تلقوا هناك المبادئ فى موسكو، وهؤلاء دعاة قادرين وسينظمون بروباجندا ناجحة. ومن المحتمل أن تستمر هذه البعثات فى السنوات القليلة القادمة، فمن الضرورى أن تنشط السلطات المصرية لمراقبة حركات هؤلاء الطلبة التى ينظمها السوفييت فى أوديسا وغيرها من الموانئ الشرقية، ثم يصل إلى بيت القصيد فيقول «ومما يزيد من مهمة السلطات المصرية صعوبة ومشقة أن فلسطين مركز قوى للشيوعية فهى بمثابة حلقة اتصال بين موسكو والقاهرة»^(٨٦). وعلى الجانب الآخر يرتفع أيضا صوت الموسيقى المصاحبة فتنهال المقالات فى الصحف المصرية تردد نفس النغمة وينشر البلاغ مقالا للدكتور محمد ابوطائلة يطالب الحكومة بأن «تزيد رقابتها على الأجانب الوافدين من فلسطين خاصة، فقد سرت أفكار الشيوعية بين المهاجرين الذى استعمروها حديثا وصاروا رسل البلشفية إلى هذه البلاد، والصلة بين روسيا والشرق.. ومن المصريين أيضا أفراد قلائل غرهم رونق المبادئ الشيوعية وحسن طلائها، أو دفعتهم الحاجة إلى أن يبيعوا أنفسهم للبلشفية ويصبحوا مأجوريهم فى مصر، ومنهم شبان يتلقون التعاليم البلشفية فى جامعة موسكو»^(٨٧).

أما «السياسة» فإنها تربط بين النشاط الشيوعى وبين مؤامرة عالمية واسعة النطاق فى «حوادث الأيام الأخيرة ما ينهض على أن الشيوعية تقوم بوثبة فى سبيل بث الدعوة الثورية. والظاهر أن هذه الوثبة عامة تشمل البلدان التى تأنس فيها الشيوعية ميدانا للعمل، وليس بعيدا أن مصر إحدى هذه الميادين، وإنها وثبة محكمة مدبرة تجمع بينها وحدة الوعى والخطط والمؤازرة المادية والمعنوية».

وبعد حديث مسهب عن النشاط الشيوعى المتزايد فى النمسا والمجر وفنلندا وبريطانيا واليابان تمضى السياسة قائلة: «وهكذا نرى ربح الشيوعية تعصف فى أنحاء مختلفة من أقصى العالم إلى أقصاه وبعيد كما قدمنا أن يرجع اتحاد هذه الفورات فى الظروف والأساليب والمقاصد إلى الاتفاق المجرد. فليس من ريب أنها حركة موحدة مدبرة، وإنها ترجع كلها إلى وحي واحد»^(٨٨).

وفى مواكبة هذه الموسيقى المصاحبة بدأت حملات القبض والاعتقال وفى ٥ مايو ١٩٢٨ تلقت حكمدارية بوليس القاهرة من وزارة الداخلية تعليمات خاصة بالقبض على ٢١ شيوعيا.

إن سرية الإجراءات التى تمت خلال عملية القبض توحى بأن البوليس طور إلى حد كبير أساليبه فى مكافحة الحزب.

«فأخذ جناب بيكر بك مأمور الضبط فى الحكمدارية فى وضع الترتيبات بمهاجمة منازل هؤلاء الشيوعيين وأصدر فى الحال دعوة إلى ضباط البوليس الآتية أسماؤهم بالحضور إلى فناء الحكمدارية فى الساعة الخامسة صباحا (وهم من ضباط الاقسام ٣ من ضباط قلم المكتب السياسى وضباط قلم الضبط الأجنبى).

ولما كانت الإجراءات والترتيبات سرية غاية فى الكتمان، لم يستطع أى ضابط من الضباط الوقوف على الأمر الذى دعى من أجله.

وعند الساعة الخامسة والثلاث من صباح أمس كان كل الضباط مجتمعين فى فناء الحكمدارية وهناك سلم بيكر بك إلى كل منهم أمرا مكتوبا باعتقال شخص معروف مبينة أوصافه ومميزاته وإقامته وتفتيش منزله وإحضاره هو وكل ما يعثر عليه فى منزله من صور فردية أو عائلية وصحف أجنبية وخطابات وبطاقات زيارة وأوراق خاصة»^(٨٩).

وهكذا هاجم البوليس فى وقت واحد ١٨ منزلا فى شوارع محمد على وكلوت بك وحارة السقاين وشوارع أخرى فى شبرا وعابدين والأزبكية.

وإلى هنا فإن الأمر يبدو بالنسبة لكثير من المؤرخين وكأنه خاتمة المطاف.

فقد اكتفى هؤلاء المؤرخون بالبحث عند هذا الحد معلنين أن ما بعد ذلك مجرد «لا شئ».

وهكذا أعلن رؤوف عباس أن «النشاط الشيوعى فى مصر ظل خلال الثلاثينات هزيعا فرديا يعتمد على جهود العناصر الأجنبية»^(٩٠).

أما عبد العظيم رمضان فقد أعلن بصورة قاطعة غريبة على أسلوب البحث العلمى «ومنذ ذلك الحين لم تقم محاولة تذكر لإعادة تأسيس الحزب الشيوعى المصرى»^(٩١).

بل إن عبد العظيم رمضان قد حاول استخراج ما يمكن تسمينه «بشهادة الوفاة» لهذا الحزب فافرد فصلا تحدث فيه عن أسباب فشل الحركة الشيوعية والاشتراكية فى تثبيت أقدامها فى التربة المصرية..

وعلى أية حال- ودون أن نكلف انفسنا عناء إثبات خطأ هذا الرأى- فإننا سنواصل البحث عن معلومات حول نشاط الحزب.

والذى لا شك فيه أن الحزب كان يعاني معاناة لا حدود لها، ليس فقط من المطاردات المستمرة والعنيفة من جانب البوليس، ولا من حملات الدعاية والتشويش التى نسجتها صحافة وكتب هذه الفترة، وإنما - وهذا هو الأكثر خطرا - من تسلل أحد عملاء البوليس ليصل حتى منصب السكرتير العام.

الأمر الذى مكنه من توجيه ضربات عنيفة للحزب «فأكثر كوادره وقياداته إخلاصا كانوا يقبض عليهم أو يختفون بطريقة غامضة، بل يبدو أن أحد مبعوثى الدولية الشيوعية قد اختفى هو أيضا لدى مروره بمصر، والبعض الآخر قبض عليه أو طرد من البلاد»^(٩٢). وبرغم ذلك كله فإن ثمة دلائل تشير إلى أن الحزب قد واصل- إلى حد ما- تقدمه..

ولنعد مرة أخرى إلى وثائق وزارة الخارجية البريطانية وإلى صحف هذه الفترة لنحاول أن نستجمع منها بعض إشارات أو لمحات حول نشاط كان يجرى فى سرية تامة..

وفى التقرير السنوى للسفارة الإنجليزية بالقاهرة المرفوع لوزارة الخارجية البريطانية عن عام ١٩٢٩^(٩٢) فقرة بعنوان: الشيوعية جاء فيها: «يوصل البوليس مراقبته الحذرة ضد الشيوعيين، ويحاول جهد الطاقة منع أى عميل شيوعى من التسلل إلى مصر.

وخلال عام ١٩٢٩ حاول ١٣ عميلا التسلل إلى مصر وقبض عليهم لكن الكومنترن لم يكف عن شاطه ومحاولاته لتحويل مصر إلى مركز للنشاط الشيوعى فى العالم العربى.

ويستخدم الكومنترن السفن السوفيتية فى عمليات التهريب كذلك يستند إلى النفوذ الشيوعى فى أوروبا «إيطاليا واليونان».

وقد قام الكومنترن بتوجيه الدعوة إلى عدد من المصريين للدراسة فى جامعة كادحى الشرق. وقد عاد من المصريين بعد أن اتموا دراستهم وبقي فى موسكو آخرون».

والحقيقة أن المحور الأساسى لتربية الكادر وإعادة كان يتركز حول إيفاد عدد جديد من أعضاء الحزب من الشباب للدراسة فى جامعة كادحى الشرق، وتشير الدلائل إلى أن الحزب قد استمر بنجاح فى عملية إيفاد الكادر للدراسة ثم أعادتهم إلى مصر.

وهكذا فإن الأمر قد أصبح وكأنه نوع من السباق الذى يدور فى حلقة مفرغة.. الحزب يفرز على الدوام كوادره جديدة ومخلصة ويستقدم باستمرار عناصره التى تربت فى جامعة

كادحى الشرق لكن كل ذلك يذهب إلى مصفاه البوليس التى نسجها الكسرتير العام «حمد عبد العزيز.

ومرة أخرى تتحدث وثائق وزارة الخارجية البريطانية عن عمليات قبض جديدة.

فثمة وثيقة بعنوان «التقرير السنوى للبوليس القاهرة عن ١٩٣٠» جاء فيها^(٩٣):

«ألقى القبض على مجموعتين للشيوعيين الأولى مكونة من الأرمن وقد سجل أعضاؤها أوناوا والأخرى من المصريين وقد سجنوا».

وتمضى الوثيقة لتورد عبارة ذات دلالة مهمة «ويقول رئيس بوليس القاهرة أن رؤساء هذه المجموعة كانوا من الفعالية بحيث إن نشاطهم كان مؤثرا فى أوساط واسعة».

والحقيقة أن النشاط الحزبى قد استمر برغم كل هذه الصعوبات ففى أول مايو ١٩٣٠

وزع الحزب على نطاق واسع منشورا دعا العمال إلى الاحتفال بعيد أول مايو. وقدم كعادته برنامج عمل للطبقة العاملة بهذه المناسبة. وقد قبض البوليس على أثر توزيع هذا المنشور على عدد من العمال من بينهم شعبان حافظ لكن شعبان حافظ أفرج عنه بضمان وتمكن من السفر سرا إلى الاتحاد السوفييتى وعاد سرا فى عام ١٩٣٤ حيث أقام بالزقازيق وكون خلية حزبية هناك^(٩٤).

وقد استطاع الحزب مرة أخرى إيفاد عدد من كوادره إلى الاتحاد السوفييتى وفى عام ١٩٣٠ سافر عدد من أعضائه العمال من بينهم يوسف حسن خضر^(٩٥).

ويبدو أن حملات القبض على الشيوعيين قد اتسعت مرة أخرى خلال عامى ٣٠-١٩٣١ بحيث بدأت الصحافة العربية فى الشام تطالب بالإفراج عن «العمال المصريين الذين يعانون فى السجن بتهمة الشيوعية»^(٩٦).

كذلك فإن وثائق المؤتمر السادس للكونترن (١٩٢٨) تشير إلى «أن الحزب الشيوعى المصرى يلعب دورا هاما فى حركة التحرر الوطنى.. ويعتمد فى تنظيمه على البروليتاريا. والنقابات التى تضم العمال المصريين هى مصدر الطلائع والقيادات بالنسبة له»^(٩٧).

لكن النجاح الأكبر الذى حققه الحزب فى ذلك الوقت هو اكتشاف خيانة محمد عبد العزيز وطرده من صفوف الحزب.

فمن هو محمد عبد العزيز هذا؟ إن جريد المصرى تروى قصته فتقول «إبان الثورة (سنة ١٩١٩) فصل محمد عبد العزيز الموظف بالسكة الحديد عقب الإضراب العام. وبعد

تركه الخدمة بعامين اتصل به بعض الأشخاص ممن كانوا يروجون للمبادئ الشيوعية فعرضوا عليه السفر إلى روسيا...».

«وما وافق عام ١٩٢٢ حتى كان في طريقه إلى روسيا مع صديق له من المصريين.. وألحقا بالمدرسة الشرقية الشيوعية وظلا يتلقيان العلوم الخاصة بالمبادئ الشيوعية وما يتبعها من علوم أخرى وفنون متنوعة.. وفي سنة ١٩٢٥ أتما علومهما وغادرا المدرسة إلى ميدان العمل..»

وعين محمد عبد العزيز على أثر تخرجه من المدرسة قاضيا بالمحكمة الثورية في موسكو وظل يقوم بمهمته كعضو في هذه الهيئة حتى نهاية ١٩٢٧ وتقول جريدة المصري في روايتها إن محمد عبد العزيز «لما وضع قدمه في مصر راح يتشرب دعايات ضد المبادئ الشيوعية خصوصاً وأنها تخالف الدين الحقيقي»^(٩٨).

وإذا كان مارسيل إسرائيل «تشيريزي» يلقي اللوم على ياناكاكس في اختيار محمد عبد العزيز سكرتيراً للحزب فإن د. عبد الفتاح القاضي يلقي اللوم على حسنى العرابي في اختياره أصلاً للسفر إلى موسكو.

«لكن حسنى العرابي كان قلبه طيباً ويخدع بسهولة وكان لا يحسن اختيار الأشخاص وخاصة الذين أرسلهم إلى موسكو للدراسة فقد أرسل مثلاً محمد عبد العزيز وهو الذى اختاره..»

ووفقاً لرواية د. عبد الفتاح القاضي - فإنه يؤكد أن محمد عبد العزيز كان جاسوساً منذ اليوم الأول.. وهو يؤكد ذلك مستنداً إلى مصدر هام هو اعترافات محمد عبد العزيز نفسه «أنا قرأت مذكرات محمد عبد العزيز وكان قد أودعها عند أحد المحامين. وكانت المذكرات خيانة حتى وهو في الاتحاد السوفييتي كان يخون. وهو يذكر ذلك صراحة في مذكراته وكانت مكتوبة بخط اليد في حوالى خمسة كراسات. وعندما كان في روسيا أرسل مثلاً إلى مسلمي الاتحاد السوفييتي لإقناعهم بالاشتراكية فكان يحرضهم ضد النظام الاشتراكي وأورد في مذكراته أيضاً سلسلة خياناته، وتسليمه لكل المندوبين الذين أتوا إلى مصر»^(٩٩).

ويقول عصام الدين حفننى ناصف في مناقشة معه: «الكومنترن أرسل شخص نمساوى اسمه فايس في عام ١٩٢٧ - على ما أظن - وعندما وصل قابله محمد عبد العزيز واستولى على نقوده وسلمه للمباحث»^(١٠٠).

وقد جرت عدة محاولات لاغتيال محمد عبد العزيز قال البوليس إن الشيوعيين هم الذين قاموا بها، وقال الشيوعيون إن البوليس هو الذى يريد التخلص من عميل اكتشف وأصبح مجرد عبء..

وعلى أية حال فإن المصادر جميعا تجمع على توالى محاولات الاغتيال.. وعلى أن محمد عبد العزيز قد مات بئسا وفى حالة قريبة من الجنون.

وإذا كان اكتشاف محمد عبد العزيز يمثل خطوة مهمة فى تاريخ الحزب بحيث مكنته بعد ذلك من أن يحاول من جديد بناء كوادره ومجموعاته بعيدا عن المراقبة المباشرة لعيون البوليس فإن استمرار عميل للبوليس فى موقع السكرتير العام للحزب طوال أربعة سنوات كان كفيلا بتوجيه ضربات بالغة العنف لحزب سرى.

إن الكوادر كانت تكتشف على الفور، والذاهبون إلى موسكو والعائدون منها يجدون أنفسهم بعد فترة أو أخرى فى قبضة البوليس.

وكان طبيعيا أن يصاب الحزب بضربات عنيفة وبضعف شديد، وأن يعاني كوادره من فقدان الثقة فى بعضهم البعض وثمة محاولة موجزة لتصوير حالة الحزب فى كتاب «الدولية الشيوعية قبل المؤتمر العالمى السابع» تقول «لقد سيطر البوليس على بعض المجموعات غير المبدئية فى الحزب الشوىعى المصرى، وهو يعمل من خلالها لتقسيم الحزب.. ولهذا فإنه يمكن وصف حالة الحزب المصرى بأنه غير نشيط»^(١٠١).

والحقيقة أن قصة ترشيح ياناكاكس لمحمد عبد العزيز تتردد من أكثر من مصدر.. ونيقولا بباريدوتى^(*) يقول «ياناكاكس قابل محمد عبد العزيز فى السجن وأعجب به..» ويقول «كنت أنا وعدد من الرفاق اليونانيين منهم جورج بيريدس ونيكوس نيقولايدس نجتمع كل يوم بعد الظهر فى محل ياناكاكس وأذكر أنه فى عام ١٩٢٨ أو حوالى ذلك مر شخص من أمام المحل فقال ياناكاكس: هذا هو محمد عبد العزيز.. كان معنا ثم عمل مع البوليس».

وإذا كان الاستناد إلى تحديد تواريخ دقيقة من ذكريات قديمة لأشخاص، يمثل مجازفة بالنسبة للمؤرخ إلا أن بباريدوتى يؤكد أن هذه الواقعة قد حدثت حوالى ١٩٢٨ ويقطع بأنها كانت قبل ١٩٣٠..

وإذا كان الأمر كذلك فإن معركة طرد محمد عبد العزيز من الحزب قد استغرقت وقتا طويلا وصراعا داخليا عنيفا.. وهو أمر يسبب لأى حزب أزمات ومصاعب جمة.

ولقد رأينا كيف حاول مارسيل إسرائيل «تشيريزي» أن يلقي اللوم على ياناكاكس لأنه هو الذى رشح محمد عبد العزيز كسكرتير عام للحزب عام ١٩٢٧.

وكيف أن عبد الفتاح القاضى حاول أن يلقي اللوم بدائه على محمود حسنى العرابى لأنه هو الذى رشح عبد العزيز أصلا للسفر إلى موسكو عام ١٩٢٢.

لكننا نعتقد أن الجزء الأكبر من اللوم يجب أن ينصب- أساسا- على أسلوب الكومنتر فى تعيين سكرتير عام للحزب، بقرار علوى يصدر بعيدا عن كادر الحزب وعن أعضائه.

وعلى أية حال فإن قرارا كهذا قد أصاب الحزب المصرى والعمل الثورى المصرى ككل بضربات عنيفة، واجهها أعضاء الحزب فى بطولة نادرة، محتملين فى شجاعة وصبر نتائج خطأ لم يرتكبه.

وبعد طرد محمد عبد العزيز قرر الكومنتر أن يحدد علاقاته بالحزب المصرى.

وقد ترددت شائعات كثيرة عن صدور قرار من الكومنتر بحل الحزب، لكن البحث فى وثائق الكومنتر ومجلاته لم يسفر عن وجود مثل هذا القرار الذى نشك كثيرا فى صدوره.

وعلى أية حال فإن كثيرا من الشواهد وخاصة تلك المتعلقة باستمرار ذهاب الكوادر للدراسة فى موسكو والعودة منها.. تدل على أن الكومنتر وإن كان قد «حد» إلى درجة كبيرة من علاقاته بالحزب إلا أنه لم يقطعها تماما، ذلك أن عدد من كوادر الحزب مثل محمد دويدار، وشعبان حافظ، وعبد الرحمن فضل، كانوا لا يزالون وحتى عام ١٩٣٧ يجدون العون من «الأحزاب الشقيقة، فى تسهيل مهمتهم فى العودة إلى أرض الوطن تحديا لقرار إسقاط الجنسية عنهم.

وعلى أية حال فإن الكومنتر وإن كان لم يصدر قرارا بحل الحزب، فإنه ابتداء من عام ١٩٣٥ لم يعد يعترف بوجود كعضو فى الكومنتر.

ذلك أن طبعة عام ١٩٣٥ من دائرة المعارف السوفيتية قد أسقطت اسم الحزب المصرى من قائمة الأحزاب الشيوعية فى العالم.

* * *

وبرغم ذلك كله فقد واصلت كوادر الحزب نشاطها، بل إن الحزب قد غمرته موجة من النشاط بعد أن تخلص من هيمنة محمد عبد العزيز.

يقول لاکور «لقد نسب إلى محمد عبد العزيز أنه نصح الشيوعيين بالألا يشتركوا فى مظاهرات مايو ١٩٣١ العظمى.

وبعد أن كشف أمره كجاسوس للسلطات بدأ الحزب وكأنه يدنو من النجاح وقد تبنى برنامجا سليما»^(١٠٢).

وإذا عدنا مرة أخرى إلى الوثائق السرية لوزارة الخارجية البريطانية فإننا نجد إشارة مهمة توحى بتجديد نشاط الحزب وبتمركز هذا النشاط وسط التجمعات العمالية المهمة. ففي «التقرير السنوى المرفوع من السفارة البريطانية إلى وزارة الخارجية البريطانية عن عام ١٩٣٣» نجد فقرة بعنوان «تقرير عن الشيوعية فى مصر عام ١٩٣٣، وقد تضمنت هذه الفقرة معلومات مهمة من بينها «يحاول الكومنترن معاودة تأسيس النشاط الشيوعى، وفى ورش الترسانة بالقاهرة بدأ النشاط الشيوعى هناك عن طريق عميل أساسى هو سالم يوسف واسمه الحقيقى وعيب المالك، وفى عنابر السكة الحديد هناك شخص آخر اسمه حسين الخراط واسمه الآخر على حسنين. والاثنتان كانا يدرسان فى موسكو ثم عادا سرا.

وقد حاول الخراط تأسيس خلية شيوعية وسط عمال العنابر وكان يعطى للعمال محاضرات عن النظرية الماركسية.

وفى يونيو ١٩٣٤ قبض على ٢٢ من العمال بعد أن وزعوا منشورات شيوعية فى عدد من المصانع»^(١٠٣).

وعلى أية حال فإن صحف هذه الفترة ظلت على الدوام تحمل أنباء القبض على خلايا الحزب أو محاكمة أعضائه، وفى كل مرة كانت الصحف تؤكد أن الخلية التى تم انقبض على أعضائها كانت «آخر خلية»..

ولعل تتبع مثل هذه الأنباء يقدم لنا بعض المعلومات عن نشاط المجموعات الحزبية التى ظلت تعمل طوال السنوات التالية وحتى نشأة التنظيمات الشيوعية الجديدة والتى ركزت جهودها أساسا وسط تجمعات العمال..

ففى ٢٠ مايو ١٩٣٥ خبر عن محاكمة مجموعة من العمال الشيوعيين أمام محكمة الجنايات وهم محمد وهيب المالك وعلى حسن حسنين ومحمود السيد على ومحمد على»^(١٠٤).

وبعد شهر واحد قضية أخرى تشير إليها الصحف تحت عنوان قضية المنشورات الشيوعية»^(١٠٥).

ثم قضية أخرى تشير إلى أن الكوادر العائدة من موسكو قد تركز بعضها في التجمعات الصناعية بعيدا عن القاهرة فعنوان آخر في الصحف «قضية الشيوعية بالحلّة الكبرى».

والخبر يقول: «نظرت محكمة جنايات طنطا قضية الشيوعية في جلسة سرية وبعد سماع الشهود واستعراض المنشورات المضبوطة تبين أن عزيز عبد الملك نيروز المتهم الأول كان منفيا بإجدي الدول الشيوعية عام ١٩٢٧ وجاء إلى مصر وأقام بالحلّة الكبرى. وأن المتهم الثاني محمد عبد الوهاب والمتهم الثالث مصطفى إسماعيل حافظ والمتهم الرابع مصطفى الحراج»^(١٠٦).

لكن أخبار القبض والاعتقال برغم أنها دليل لا يدحض على استمرار النشاط الحزبي فإنها دليل سلبي، بمعنى أنها تمثل أيضا وفي نفس الوقت قدرة البوليس على ضرب التنظيم الحزبي، وربما كانت- في ذاتها دليلا- على ضعف هذا التنظيم وعدم كفاءته.

ومن هنا كان البحث المصنّى عن أدلة أخرى أو دلائل أخرى على هذا النشاط الذي لا تعكس لنا صحف هذه الفترة عنه إلا أخبارا مقتضبة عن الاعتقالات والمحاكمات.

ومن حسن الحظ أمكن العثور على بعض ملاحظات دونها الرفيق «سبانو» وهو أحد قادة الحزب الشيوعي الإيطالي وقد حضر لمصر حوالى عام ١٩٣٥ حيث أقام لبعض الوقت هرباً من ملاحقات الحكم الفاشي^(١٠٧).

ويضم أرشيف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإيطالي عدة تقارير تتضمن ملاحظات مختصرة ورموزا وإشارات حول نشاط الشيوعيين المصريين في هذه الفترة وسوف نثبت فيما يلي بعضا من هذه الإشارات المختصرة، فهي على اختصارها تقدم دليلا هاما على استمرار النشاط الحزبي وعلى قيام تنظيم متماسك ذي قيادة مركزية وفروع مختلفة وقدرة على التأثير وسط الحركة العمالية والحركة النقابية وسط التيار اليسارى فى حزب الوفد.

إن هذه الملاحظات المختصرة التى أوردها «سبانو» والتي أمعن فى اختصارها ربما حفاظا على أمن وسرية العمل ذات دلالة مهمة بالرغم من اختصارها:

«سالمون سوريانو». منتدب فى الإسماعيلية كموظف فى شركة القنال.

نشاطه محدود فى الوقت الحاضر وقد «جند» مهندسا فرنسيا فى الشركة اسمه كورناكوفسكى. ثمة بعض اتجاهات طفيفة فى آرائه تمثيل إلى التروتسكية.

وهو فى سبيله لإنشاء مدرسة للاسبرانتو.
شقيقه إدوارد احتفظ دائما باتصالات فى بورسعيد. ولكنه حاليا مستقر فى القاهرة
حيث يدير I.i.s.c.a «لجنة مكافحة معاداة السامية» التى تضم ١٢٠٠ عضو.
*ومن أحسن الرفاق موز أصغر عائلة ماصارى عمره ١٩ سنة. يتكلم ويكتب العربية
والفرنسية والإنجليزية والاسبرانتو. نشيط وشجاع وجرىء له تأثير كبير بين موظفى
البلدة.

- أما إدوارد سوريانو فيتميز بنفس الصفات لكنه مثقف أكثر من اللازم.. ولا يعرف
العربية الفصحى.
- أما العشرون رفيقا الآخرون فهم مصريون وموزعون بين الزقازيق والسويس
والقاهرة والإسكندرية.

- من بين هؤلاء الرفاق يوجد «العجوز» وأبناءؤه.
- وشيخ من الزقازيق يعمل سكرتيرا للجنة السلام بالمدينة.
- وشيخ آخر هو سكرتير نقابة عمال السكة الحديد بالزقازيق.
- ومدير الشركة التعاونية للأوتوبيس.
- وآخر من اللجنة المركزية لنقابات عباس حليم.
- للحزب لجنة مركزية- من الذى انتخبها؟ - من ٧ أعضاء من بينهم «العجوز إبراهيم»
من الزقازيق سكرتيرا.

و«الجزار» الذى اعتبر عضوا لكنه لم يدع أبدا للاجتماعات. واثنان من المحامين من
القاهرة أحدهما يدعى زهير صبرى وكلاهما عضو فى الوفد والنقابات الوفدية. ومدير
الشركة التعاونية للأوتوبيس واثنان آخرين.
- طرح اقتراح بتوزيع منشورين فى المظاهرات الكبرى التى نظمها الوفد ولكن
«العجوز» رفض.

- وكان هناك استياء كبير فى صفوف عما النقابات الوفدية والاجتماعات قليلة والعمال
ليس لهم حق الكلام فيها. ومن ثم وزع إبراهيم من القاهرة ، واضح أنه غير «العجوز
إبراهيم» السكرتير وهو من الزقازيق) منشورا بين الجماهير عن طريق العلاقات
الشخصية، وقد أعيد نشر هذا المنشور بواسطة النقابات المستقلة للأوتوبيس وكان شعاره

الأساسى حرية الكلام والمبادرة العمالية داخل النقابات، والانتخابات الديمقراطية لقيادات النقابات بواسطة مجالس النقابات.

- وقد تلقى ٤ عمال من قيادة الحركة العمالية هذه الشعارات ثم طلبوا انعقاد اللجنة العليا «يقصد اللجنة الاستشارية العليا للنقابات التى أسسها الوفد» ولكن «العجوز» اعتبر هذه السياسة متناقضة مع القيادة.

- وإبراهيم العجوز من الزقازيق رفيق طيب ونشط جدا ولكنه متأثر جدا بحلقية الرفاق السوريين وكذلك بالمحامين الوفديين الذين فى القيادة المركزية وجمود الحركة.

- مراكز الثقل «الجزار» فى بورسعيد. إبراهيم يوسف فى القاهرة.

- إبراهيم من القاهرة (الصديق العربى الألمانى الذى كان على صلة بعصبة النضال ضد الإمبريالية) وقد أحضره الحاج^(١٠٨).

- هناك تجمع من الاستفزازيين والعناصر المشبوهة (عزيز ويحى) يقال أنهم كانوا فى موسكو. وقد حاولوا الاتصال بلجنة السلام فى الإسكندرية، ولجنة مكافحة معاداة السامية».

والآن فإن هذه الملاحظات المختصرة تفتح الباب أمامنا لنبحث عن تفاصيل نشاط هذا «الحزب» كما أسماه «سبانو» وعن أعضاء لجنته المركزية السبعة.. وعن «العجوز» السكرتير العام.

. وإذا كان من حق المؤرخ أن يطرح بعض الافتراضات فإننا نفترض أن «العجوز» من الزقازيق هو شعبان حافظ فهو الكادر المهم الذى استقر فى هذه الفترة بالزقازيق وقد قبض عليه البوليس فعلا فى عام ١٩٣٥ بالزقازيق^(١٠٩).

لكن الشئ الواضح هو أن هذا «الحزب» كان كيانا ذا قيمة، فله علاقات مهمة بالنقابات والتجمعات العمالية. وكانت له علاقات أيضا بالتجمعات الأجنبية «سوريانو» ولجنة مكافحة معاداة السامية (١٢٠٠ عضو بالقاهرة) وكانت له علاقات أيضا بيسار حزب الوفد وتجمعات الوفد النقابية والعمالية.

وإذا كان هذا «الحزب» قد عانى من بعض التردد والحلقية وعدم الإنتاج على الجماهير فإن ذلك طبيعى تماما كرد فعل لكل هذه الضربات البوليسية التى وجهت إليه.

وكان لهذا الحزب تجمع هام فى الإسكندرية لعب دورا هاما فى إدارة ملحمة عبد الرحمن فضل والانتصار فيها. وقد أشار إليه محمد دويدار فى مناقشة معه.

س: ماذا فعلت بعد وصولك إلى مصر؟

ج: اتصلت بالدكتور حسونة^(١١٠) بالإسكندرية الذى أبلغنى أن هنا خلايا حزبية وأن خلية الإسكندرية قررت استضافتى لعدة أشهر للاستجمام والراحة بعد هذه لفترة الصعبة وفعلا أقمت فى بيت يجليم يملكه الرفيق محمد عمر «عمرى ف».

وانضمت إلى مجموعة الإسكندرية وكانت تضم د. حسونة- عبد الرحمن فضل- محمد عمر- الشيخ صفوان أبو الفتاح.

وبعد ذلك انتقل عبد الرحمن فضل إلى القاهرة وقررت أنا أيضا أن أذهب للقاهرة لأبحث عن عمل، وفى القاهرة انضمت إلى المجموعة الحزبى فيها وكانت تضم شعبان حافظ. د. عبد الفتاح القاضى- وعبد الرحمن فضل وآخرين..

وبعد ذلك اتصلنا جميعا بهنرى كورييل وانضممنا إلى تنظيمه^(١١١).

ويروى د. عبد الفتاح القاضى قصة التقائه هو ومجموعته مع كورييل فيقول:

«ذات يوم عند عودتى لمنزلى إذا بأحمد إسماعيل جالس فى مطعم رينون ومعه عسكري إنجليزى، ونادانى وقدمه لى وكان اسمه سام باردل وكان متزوجا من فتاة اسمها جورجيت على ما أذكر كانت تعمل فى مكتبة الميدان التى يمتلكها كورييل (اسمها الصحيح هنريت أرييه). وقد قدم أحمد إسماعيل سام باردل لى على أنه عضو فى الحزب الإنجليزى، وبعد حديث طويل سألتنى سام: لماذا تعملون متخرفين؟ وأبلغنى أن هناك مجموعة أخرى.. وتعرفت بكورييل وابتدأنا العمل معه فى تنظيم ح. م^(١١٢).

وهكذا.. وأخيرا وبعد تضحيات تفوق الوصف وصعاب ومخاطر ومطاردات هى من أعنف ما شهدته مصر، استطاع هؤلاء الرجال الشجعان، أن يسلموا رايتهم التى حملوها منذ عام ١٩٢٤ إلى الطلائع الجديدة للحركة الماركسية المصرية فى الأربعينيات.

والحقيقة أن كل هذه التضحيات الغالية وكل هذا التحمل يأسل للمشاق والصعاب ليتضائل أمام روح التواضع وإنكار الذات التى دفعت رجالا كهؤلاء كى يقبلوا عن طيب خاطر تسليم زمام القيادة لآخرين غيرهم. بينما قنعوا هم بمكان فى القاعدة يواصلون من خلاله النضال من أجل بناء مصر الاشتراكية.

الهوامش

- (١) الدستور. تعليقات على مواده بالأعمال التحضيرية والمناقشات البرلمانية - الجزء الأول - مطبعة مصر - ١٩٤٠ - ص ١٤.
- (٢) المرجع السابق ص ٩٧.
- (٣) الأهرام ١٩/٦/١٩٢٥.
- (4) F.O. 372/2564 - T.5503 - 13 MAY 1929 - NO. 391 (371/777)
- مودعة بالأرشيف العام بالمتحف البريطاني بلندن..
- (٥) دار الوثائق المصرية - محفظة مجلس الوزراء ديسمبر ١٩٢٧ - مذكرة موقعة من محمد محمود باشا، مؤرخة ١١/٧/١٩٢٧.
- (٦) الأهرام ٨/١/١٩٢٥.
- (٧) دار الوثائق القومية - محفظة مجلس الوزراء نوفمبر ١٩٢٥ (بدون رقم) مذكرة يحيى باشا إبراهيم إلى مجلس الوزراء بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٢٥.
- (٨) الأهرام ١٦/٦/١٩٢٥.
- (٩) السياسة الأسبوعية ٣٠/٧/١٩٢٧.
- (١٠) السياسة الأسبوعية ٢٦/١١/١٩٢٧.
- (١١) الأمل - ١٧/١١/١٩٢٥.
- (١٢) رؤوف عباس - المرجع السابق ص ٢٦٢.
- (١٣) أحمد شفيق باشا - حوليات مصر السياسية - الحولية الخامسة ص ٣٧٨.
- (١٤) مجلس النواب. مضبطة الجلسة الثامنة عشر برئاسة سعد زغلول باشا جلسة ١١ يناير ١٩٢٧ ص ٢٤٥ من المضبطة الرسمية.
- (١٥) المرجع السابق - جلسة ٢٥ يناير ١٩٢٧ ص ٢٨٩.
- (١٦) أحمد شفيق باشا - حوليات مصر السياسية - حولية السنة الرابعة - ص ٥٩١.
- (١٧) الأهرام ٣٠/١٠/١٩٢٧.
- (١٨) المرجع السابق.
- (١٩) راجع محضر النقاش معه في درفعت السعيد - تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر - المرجع السابق. ص ٢٦٧.
- (٢٠) راجع محضر النقاش مع عبدالرحمن فضل. في المرجع السابق.
- (٢١) الأهرام ١/٥/١٩٢٥ مقال أحمد الصاوي محمد - على أطلال المذهب الشيوعي.
- (٢٢) أمين عز الدين - المنصوري، سيرة مثقف ثوري - دار الغد العربي - القاهرة - (١٩٨٤) - ص ٥٥.
- (٢٣) أحمد شفيق باشا - الحولية الرابعة. المرجع السابق ص ٩١.
- (٢٤) السياسة الأسبوعية - ١٧ - ٩ - ١٩٢٧.

- (٢٥) الأهرام - ١٠ - ٤ - ١٩٢٧.
- (٢٦) اتحاد العمال - ٢١ - ١٢ - ١٩٢٤.
- (٢٧) المرجع السابق ص ٣٦.
- (٢٨) الأهرام ١٧ - ٦ - ١٩٢٥ - فى تعليقه على نتائج التحقيق مع بعض المقبوض عليهم.
- (٢٩) الأهرام ١ - ٦ - ١٩٢٥.
- (٣٠) الأهرام ١٩ - ٦ - ١٩٢٥.
- (٣١) الغزالى - المرجع السابق - ص ١٣٣.
- (٣٢) راجع الملاحق.
- (٣٣) لاكور المرجع السابق - حاشية ص ٣٧.
- (٣٤) الحساب ١ - ٥ - ١٩٢٥.
- (٣٥) الحساب ٨ - ٥ - ١٩٢٥.
- (٣٦) مجموعة وثائق وزارة الخارجية البريطانية. محفوظة بالمتحف البريماى والوثيقة تحت رقم f.o 371.. egypt and sudan- piecc no. 11010
- (٣٧) محمد طاهر العربى - المرجع السابق - ص ١٨٧.
- (٣٨) الحساب ١ - ٥ - ١٩٢٥.
- (٣٩) الحساب ٨ - ٥ - ١٩٢٥.
- (٤٠) محمد صديق عنتر المصرى - (مترجم) - المبادئ الاشتراكية - ٢٠ أبريل ١٩٢٥ - المطبعة العربية بمصر شارع المزدن الموسكى - ص ٥.
- (٤١) المرجع السابق - ص ٦٦٣.
- (٤٢) المرجع السابق ص ٦٢.
- (٤٣) الأهرام ١ - ١ - ١٩٢٥.
- (*) كلمة الجمعية التجارية الحمراء ترجمة للعبارة الإنجليزية rad trade union وصحة الترجمة «الحركة النقابية العمالية الحمراء» وقد اخطأ الأهرام فى الترجمة ونقل عنه هذا الخطأ أيضا محمد عبد العظيم رمضان المرجع السابق - ص ٥٥١.
- (٤٤) الأهرام ٣ - ٦ - ١٩٢٥.
- (٤٥) الأهرام ٢ - ٦ - ١٩٢٥.
- (٤٦) الأهرام ١٨ - ٦٦ - ١٩٢٥.
- (٤٧) راجع نص قرار الاتهام فى الجناية رقم ٨٢٧ شبرا سنة ١٩٢٥ بالملاحق.
- (٤٨) المصور أعداد ٦ - ٢ - ٧، ١٧ - ٧ - ١٩٢٥.
- (49) f.o-371, etypt and sudan- piece no. 1101
- (٥٠) الأهرام ٨، ١١ - ١ - ١٩٢٦.
- (٥١) الأهرام ١٧ - ٦ - ١٩٢٥.
- (٥٢) الأهرام ١٩ - ١٩٢٥.
- (٥٣) الأهرام ٨ - ١ - ١٩٢٠.
- (٥٤) الأهرام ١١ - ١ - ١٩٢٠.

* تقرير سبانو أحد قادة الحزب الإيطالي وسوف نشير إليه تفصيلا فيما بعد.

(٥٥) الأهرام ١٧-٦-١٩٢٥.

(٥٦) الأهرام ١١-١-١٩٢٦.

(٥٧) الأمل ٢٣-١-١٩٢٦.

(٥٨) الأهرام ٣-٦-١٩٢٥.

(٥٩) محمود طاهر العربى. المرجع السابق ص ١٥٤.

(٦٠) الأهرام ٦/٣/١٩٢٥.

(٦١) الأهرام ٢/٦/١٩٢٥.

(٦٢) الأهرام - ١/٢٠/١٩٢٦.

(٦٣) المصور ٩/٧/١٩٢٥.

(٦٤) يورد والتر لاکور - الاتحاد السوفييتى والشرق الأوسط. المرجع السابق المعلومات التالية عن

أفيجدور فى ص ١٥٥:

أفيجدور: (بهيل كوسى) ولد فى أوكرانيا عام ١٨٩٢ والتحق بالحركة الثورية فى وقت مبكر وهاجر إلى الولايات المتحدة قنيل الحرب العالمية الأولى. التحق فى أمريكا بالفيلق الإيهودى -Jemish le- gion الذى كان قيد التزليف وقتئذ، ثم ذهب إلى فلسطين لوقت قصير عام ١٩١٨. وأقام فى مصر عاما ونصف ثم عاد إلى روسيا. أرسل إلى مصر مرتين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٢٤ لينظم أو بعبارة أدق ليبلشف الحزب الشيوعى المحلى. ولقد قبض عليه فى المرة الثانية فى القاهرة. وحكم عليه بالسجن لمدة طويلة. ولم يرجع إلى موسكو إلا فى أواخر العقد الثانى. وقد صار معروفا كثقة فى شئون مصر. ثم أرسل عام ١٩٣٢ ليتجول فى الشرق الأوسط ويفتش عن الأحزاب المحلية. وقبض عليه عام ١٩٣٦ فى موسكو بتهمة الاشتراك فى مؤامرة تروتسكى وحكم عليه بالسجن عشرة أعوام ومات فى أحد المعسكرات عام ١٩٣٨. وأعيد إليه اعتباره عام ١٩٥٥.

وقد تزوج أفيجدور من ابنة جوزيف روزنتال مؤسس الحزب الشيوعى - الاشتراكى فى مصر. والذى طرد من الحزب بتهمة انحرافاته القوضوية. أما زوجة أفيجدور فقد اعتقلت فى موسكو بعد اعتقال زوجها وأمضت ١٨ عاما فى معسكرات الاعتقال إلى أن أفرج عنها عام ١٩٥٦.

(٦٥) لاکور - الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط. المرجع السابق ص ٤٠.

(٦٦) مارسيل إسرائيل (تشيريزى) تقرير راجع النص الكامل بالملاحق.

(٦٧) محمود حسنى العربى. مقالات العربى. عنى بجمعها وترتيبها ونشرها إلهامى أمين - الطبعة الأولى. المطبعة الأهلية الكبرى. ص ٢.

(٦٨) مؤرخ فى ٣٠/٩/١٩٢٥ ومدرج فى مجموعة الوثائق السرية تحت رقم:

F.O. 371. Egypt And Sudan. File 29 - Piece No 10888.

(69) F.O. 371 - Egypt And Sudan - File 2037/230 - Piece No 1380.

- مودعة بالمتحف البريطانى-

(٧٠) مارسيل إسرائيل (تشيريزى). المرجع السابق.

(71) F.O. 371 - Egypt And Sudan - File 2037/230 - No 1380.

(72) F.O. 371 - Egypt And Sudan - File 29 - Piece No 10888.

- (٧٣) محمد دويدار عطشجي بالسكة الحديد - جند فى صفوف الحزب عام ١٩٢٧ - راجع محضر النقاش معه فى الملاحق.
- (٧٤) محضر نقاش معه بتاريخ ١٩٧٠/١/٢٢ - بالملاحق.
- (٧٥) محضر نقاش بتاريخ ١٩٧٠/٣/١٧ راجع النص الكامل بالملاحق.
- (76) F371/13417 - File 15/792 - W - 5302: 157/29.
- من وثائق وزارة الخارجية البريطانية - ومشار فى صفحتها الأولى إلى أنها مترجمة من تقرير سرى مكتوب باللغة الألمانية - مودعة بالمتحف البريطانى.
- (٧٧) السياسة - ٢٦ مايو ١٩٢٨.
- (٧٨) راجع النص الكامل للوثيقة بالملاحق.
- (79) F.O. 371 - Egypt And Sudan - File 2037/2730 - Piece No 1380.
- (٨٠) اللطائف المصورة ٢١/٣/١٩٢٧.
- (81) F.O. 371 - Egypt And Sudan - File 2037/230 - Piece No: 1380.
- مودعة بالمتحف البريطانى.
- (٨٢) التقرير السنوى للسفارة الإنجليزية المرفوع لوزارة الخارجية عن عام ١٩٢٩. ومودع بالمتحف البريطانى تحت رقم
- File 2862/38746 Piece No: 14652
- (٨٣) مضبطة الجلسة الثانية والعشرين لمجلس النواب يوم ٢٥-١-١٩٢٧ راجع النص الكامل بالملاحق.
- الأدب السياسة ١٢-١١-١٩٢٧.
- (٨٤) السياسة- ٢٠-٨-١٩٢٧.
- (٨٥) عبد العظيم رمضان- المرجع السابق. ص ٥٥٦٦.
- (٨٦) البلاغ- ٩-٥-١٩٢٨.
- (٨٧) السياسة- ٨-٥-١٩٢٨.
- (٨٨) السياسة ١٢-٥-١٩٢٨.
- (٨٩) رؤوف عباس- المرجع السابق ص ٢٤.
- (٩٠) عبد العظيم رمضان- المرجع السابق. ص ٥٥٨.
- (٩١) مارسيل إسرائيل تشيريزى- المرجع السابق.
- (٩٢) f.o. 371- egyby and sudan- file: 282/ 3874- piece no: 1452
- (٩٣) f.o. 371- egypt and sudan - file 3759 / 3789
- (٩٤) الأهرام ١٩-٦-١٩٣٥.
- (٩٥) المصرى - ٣٠- ١٠- ١٩٣٦. وردت هذه الإشارة عرضاً فى موضوع خاص بمحمد عبد العزيز.
- (٩٦) ألف ياء- تشرين ثانى- نوفمبر ١٩٣١.
- (٩٧) بروتوكول المؤتمر السادس للكونترن. الجزء الرابع ص ١٩٥ من الطبعة الألمانية.
- (٩٨) المصرى- ٣٠- ١٠- ١٩٣٦.
- (٩٩) راجع النص الكامل تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر- المرجع السابق- ص ٢٧٠.
- (١٠٠) راجع النص الكامل فى المرجع السابق- ص ٢٧٧.

- (١٠١) الدولية الشيوعية قبل المؤتمر العالمى السابع- الطبعة الألمانية ص٩٠.
- (*) نيقولا بباريدوتى شيوعى يونانى قديم. انضم للمجموعة الشيوعية اليونانية بالقاهرة سنة ١٩٢٥ وكان صديقا شخصيا لياناكاكس ويروى عنه ذكريات مهمة تدل على تعلقه الشديد به وعلى قوة ذاكرته. ولا يزال يقيم بالقاهرة حتى الآن (توفى عام ١٩٨٤). وقد قام بباريدوتى بكتابة مذكراته باللغة الفرنسية وادعها لدى المؤلف.
- (١٠٢) لاكور.. الاتحاد السوفيتى والشرق الأوسط. المرجع السابق ص١٢٢.
- (١٠٣) f.o 371- egypt and sudan- file 421/ 493- piece no: 19089
- (١٠٤) الأهرام ٢٠-٥-١٩٢٥.
- (١٠٥) الأهرام ١٩-٦-١٩٣٥.
- (١٠٦) الأهرام ١٨-٤-١٩٣٧.
- (١٠٧) يقول لاكور- الاتحاد السوفييتى والشرق الأوسط. «أقام سبانو فى مصر كلاجئ سياسى منذ قيام الفاشستية، وعاد إلى إيطاليا بعد الحرب». المرجع السابق- حاشية ص٣٢١.
- (١٠٨) أشرنا من قبل إلى اسم إبراهيم يوسف كأحد اثنين من المصريين كانا يعملان فى مجلة العصبية.
- (١٠٩) الأهرام ١٩-٦-١٩٣٥.
- (١١٠) اسمه الكامل حسونة حسين إسماعيل وقد تعلم طب الأسنان بالاتحاد السوفييتى. وقد ألف كتابا عن «النقابات العمالية فى مصر»- الأخبار ٧-٧-١٩٧٠.
- (١١١) راجع محضر النقاش معه بالملحق.
- (١١٢) راجع النص الكامل- تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر- المرجع السابق- ص٢٧٠.

العرايى - ناصف - القاضى - جماعة التمسك بالقانونية

قلنا فى فصل سابق: إن محمود حسنى العرايى قد نادى عقب خروجة من السجن بالاتجاه الإصلاحى القانونى الذى يطالب بالانسحاب من الكومنترن عدم إعلان شيوعية الحزب والاكتفاء بطرح برامج وشعارات تتماشى مع القانون والدستور بحيث يحافظ الحزب على علنيته ذلك أن العلنية هى السبيل الوحيد لتحقيق أية دعوة ناجحة. وقد قاوم الحزب هذا الاتجاه ورفضه بشدة وأدى الأمر بحسنى العرايى إلى الانسحاب وحيدا. ذلك أن كافة المصادر توضح أن أحدا من كوادر الحزب لم يخرج مع العرايى باستثناء الهامى أمين.

وخير دليل على ذلك أن حسنى العرايى سعى وراء تنفيذ فكرته لم يجد من يعاونه سوى اثنين من المثقفين اليساريين هما عصام الدين حفى ناصف والدكتور عبد الفتاح القاضى وكانا بعيدين حتى ذلك الحين عن صفوف الحزب.

والحقيقة أن كلاما كثيرا قد قيل عن حسنى العرايى.. أول سكرتير عام لأول حزب شيوعى مصرى. وسكرتير عام اتحاد النقابات وأول ممثل للحزب لدى الكومنترن، والرجل الذى تم على يديه انضمام الحزب للكومنترن.

فلما اختلف مع الحزب وابتعد عن صفوفه حاول أن ينفذ فكرته عن العمل «العلنى» بأن يتحول إلى كاتب ينشر أفكاره عن طريق الكتابة فى الصحف وفتحت له بعض الصحف أبوابها وبدأت مقالاته تتوالى فى الظهور ابتداء من يناير ١٩٢٧ على صفحات الهلال-المقتطف- الرقيب- الحياة الجديدة.. الخ.

وربما كان افتتاح المجال بهذه الصورة للعربى كى يكتب فى كل هذه المجالات دفعة واحدة نوعاً من المؤامرة المحبوبة التى استهدفت اصطلياد العربى بعيداً عن الحزب وتشجيعه على سياسته الانفصالية ومحاولة إيهامه بأن تحقيق فكرته أمر ممكن.. ثم بعد ذلك وبعد أن تحقق هدف المؤامرة أوصدت كل الصحف أبوابها فى وجه الرجل..

لكن الرجل لم يكن يريد بالفعل أن يتخلى تماماً عن القضية التى آمن بها. وربما كان يتصور أن انفصاله عن الحزب لا يعنى انفصاله عن النضال وهكذا حاول أن يخوض المعركة القانونية من أوسع أبوابها، باب إصدار الصحف.. واتفق مع عصام الدين ناصف ومع الدكتور عبد الفتاح القاضى إصدار مجلة «روح العصر»..

ويبدو أن تجمع العربى- ناصف- القاضى لم يكن وليد المصادفة ولم يكن موقوتاً بإصدار روح العصر. بل كان سابقاً عليها. فعصام الدين ناصف يقول فى محضر تحقيق أمام النيابة أجرى فى أبريل ١٩٣١ ما يلى:

س: هل تعرف محمود حسنى العربى؟

ج: نعم أعرفه وهو صاحبى.

س: من أى وقت تصادقه؟

ج: من بضع سنوات^(١).

ومجلة روح العصر صدر عددها الأول فى فبراير ١٩٣٠ .

وثمة شىء آخر يلفت النظر، ففى نفس الوقت الذى انسحب فيه العربى من الحزب وهو أواخر عام ١٩٢٧ أو أوائل ١٩٢٧ تصدر اسم عصام ناصف بياناً صادراً «اللجنة التحضيرية للحزب الاشتراكى المصرى».

فقد نشرت كوكب الشرق برقية واردة إليها من هذه اللجنة تقول «اللجنة التحضيرية للحزب الاشتراكي المصري تحتج بشدة على منع النائب الشيوعي البريطاني سكالاً تفالاً من دخول مصر، وتعلن أن اضطهاد الحرية الفكرية لا يمكن أن يدل على شجاعة الحكام الذين يخافون من ذيوع الحقائق».

السكرتير- عصام الدين ناصف».

وتتهمهم «كوكب الشرق» على هذا الحزب الذي «لم يسمع به أحد والذي نبت نبتا شيطانيا»^(٢). لكن المؤكد أن الرجعية المصرية قد كتمت أنفاس هذه المحاولة بالرغم من تمسكها بأهذاب العلنية ومراعاتها لنصوص القانون، وهكذا تعذر على العرابي أن ينفذ مشروعه بتأسيس حزب علني فلا بأس من أن يتواضع وأن يكتفى باستخدام الإمكانيات «القانونية» المتاحة. وهي الكتابة في الصحف ولا بأس من التجرؤ فيما بعد وإصدار «جريدة».

واعتقد أنه من الضروري أن نستعرض بعضاً من هذه الأفكار التي روجها العرابي ومجموعته واعتبروها بديلاً كافياً عن العمل الحزبي السري.

وأمامنا في البداية مجموعة مقالات العرابي التي كتبها فور انسحابه من الحزب.. وهي في مجموعها مقالات أدبية واجتماعية وتاريخية.. تمثل إلى حد كبير محاكاة متطورة وذكية لكتابات سلامة موسى التي تستهدف «التنوير» بشكل عام ولفت أنظار جمهور القراء إلى عديد من الحقائق الاجتماعية والاقتصادية بأسلوب يتمشى مع المنهج العلمي والجدلي.

ولنحاول أن نستعرض بسرعة بعض هذه الأفكار التي حاول العرابي أن يقدمها لقرائه. وثمة مقال بعنوان «الاكتشاف طليعة الاستعمار»^(٣) يعرض فيه كتاب السير صموئيل بيكر عن رحلته إلى منابع النيل.. وهو ينتهز فرصة عرض الكتاب ليدين الاستعمار ويكشف عن جذوره ويعبئ المشاعر ضده فهو يقدم مؤلف الكتاب قائلاً: «.. فالسير صموئيل ارستقراطي بحكم نشأته، مستعمر بحكم بيذته، مسيحي متعصب ناظم على الشرقيين والاسلام والمسلمين يراه القارئ في كتاباته ينعى على الديمقراطية، ويهزأ بصوت الشعب ويضحك من المساواة ويبرر الاستعمار ويستحسنه.. ويحمل على المصريين والأتراك حملات شعراء بدون مبالاة لفتاً لأنظار شعبه إلى استغلال وادي النيل».

لكن العرابي لم يكتف بالهجوم على الاستعمار والمستعمرين فهو يدافع عن حقوق العمال مطالباً لهم بأجور أعلى قائلاً: «إن في بلادنا عمالاً يجب البحث في شؤونهم

والتفكير فى سياستهم ولو من الوجهة العلمية البحتة إن لم يكن كذلك من الوجهة الاجتماعية، وإنه عن قريب سيظهر لهم أثر فى شؤون الدولة وستكون لهم دوائر تنطق عن لسانهم كما حدث فى الصين مثلاً، وأن دلائل الأمور تدلنا على صحة ما ذهبنا إليه بالمشاكل التى نسمع عنها ونقرأها كل يوم بين العمال وأصحاب رؤوس المال فى مصر تنذر بقرب هذا اليوم».

لكن الرجل لا يريد لكلماته أن تفهم على أنها دعاية أو تحريض، وهو حريص كل الحرص على ذلك فهو يؤكد فى مقاله «والذى نريد أن نبثه اليوم فى مقالنا ليس مذهباً سياسياً ولكنه نظرية اقتصادية حديثة دلت المدرسة الحديثة من الاقتصاديين على ضرورة الأخذ بها لصالح العمال والعمل أو قل لصالح الصناعة والدولة».

وبعد هذا الإيضاح- الذى يرى العرابى أنه ضرورى يمضى ليشرح نظرية اقتصادية تطالب بمنح العمال أجراً يوفر لهم «ضروريات الكفاية» وليس مجرد «ضروريات الحياة» ويتحدث طويلاً عن نضال العمال الأوروبيين والمكاسب التى أحرزوها نتيجة لنضالهم المستمر ثم يعرج على مصر قائلاً: «ما زالت أجور العمال عندنا بمنحطة لدرجة تكاد تكون تحت مستوى (ضروريات الحياة) فأجر العامل غير المدرب عشرة قروش تقريباً بينما عدد الأنفس التى يعولها ستة أنفس كما جاء فى أحد تقارير جمعية الصنائع- وأجور البنات والأولاد الذين يعملون نحو ١٥ ساعة فى اليوم زهيدة جداً فلا تزيد عن قرشين ونصف قرش وساعات العمل على العموم عندنا أطول منها فى كل البلاد المتقدمة. والثقافة معدومة. والمسائل الصحية وغيرها لم يأت دور التفكير فيها بعد».

ومرة أخرى يشعر الرجل أنه بحاجة إلى «إيضاح» موقفه وإلى تبرير دفاعه عن العمال بل وإلى دفع شبهة تحمسه للدفاع عنهم فيقول:

«ونحن لا نطلب للعمال شيئاً فهم أحق وأقدر على الطلب منا ولكننا إذا قصدنا من الكتابة شيئاً إنما نقصد أن نلفت أصحاب الصنائع ورجال السياسة فى مصر إلى الضرر المحقق الذى يحيق بالصناعة المصرية وهى فى مهدها من إضعاف الإنتاج على توالى الأيام بإهمال تحسين حال العمال اكتفاء بالربح القريب الموقت»^(٤).

ويستخدم العرابى فى مقالاته كل ما لديه من ذكاء ليهاجم الحكومة القائمة فى ذلك الحين وليهاجم الاستبداد والاعتداء على حرية الرأى...، وتحت عنوان برىء مثل «الجريمة

أسبابها وعلاجها» يشن هجومه العنيف قائلاً: «البيئة التى تقتل حرية الرأى وتعتدى على الحرية الشخصية خدمة لبعض أفرادها، لا بد وأن تبلى بالجمعيات السرية. والمؤامرات تدبر لتحطيمها فى الظلام وتحت الأرض، والبيئة التى تعمل على إفقار أفرادها لا بد وأن يكثر فيها اللصوص وقطاع الطريق...».

بل إنه يوشك أن يقدم نوعاً من «البرنامج» فيقول:

«فلو تدبرت البيئة فى العوامل الاقتصادية المحيطة بها لأمكنها أن تشل سير الإجرام، فمثلاً لو لاحظت إحدى البيئات الزراعية بعض إصلاحات كجعل إيجار الفدان لا يزيد عن نسبة مخصوصة من قيمة الضريبة كان تكون مثلاً أربعة أضعاف، وعملت على إصلاح الأراضى البور والمستنقعات وتوزيعها بعد الإصلاح على فقراء الفلاحين، وقربت بين الثروات بتخفيف الضريبة على المالك الصغير، وسن ضرائب على التركات الكبيرة، وعممت التعليم إلى غير ذلك. لكان من الصعب على الجريمة أن تجد مثل تلك البيئة محلاً للفقس والتفريخ.

أما البيئة التى تغض النظر عن الاعتبارات الاقتصادية، وتكتفى بإصدار القوانين الاستثنائية من وقت لآخر، وتشيد كل يوم سجنًا وتطلب اعتماداً جديداً من هيئاتها النيابية لأعمالها السرية فبشر حكامها وسؤاسها بتفشى الجريمة وازديادها على مر الأيام. وهذه هى الحال فى كل البلاد المتأخرة»^(٥).

فهل كان العربى يقصد فعلاً الحديث عن أسباب الجريمة أم أنه تستر تحت عنوان برىء ليقدم أفكاراً وبرنامجاً محدداً.

واضح أن الاحتمال الثانى هو المرجح.

كذلك فقد شن العربى فى مقالاته هجمات اجتماعية جريئة غاية الجراءة تناول فيها موضوعات مثل «الزواج الحاضر» الذى وصفه بأنه «بغاء مشروع» «أليس الزواج عندنا زفاف مجهولة إلى مجهول طمعاً فى ثروة أو إطفاء لشهوة؟ فإذا ترعزت الثروة لسبب ما ترعزت معها أركان الزوجية، وإذا أخدمت حرارة الشهوة فترت علائق الزوجية»^(٦).

بل إنه يتحدى مشايخ الأزهر مطالباً بإصلاح جذرى لشئون الأزهر وتحويله إلى كلية للاهوت ويقول «لقد كان الدين فى العصور الأولى صناعة احتكرتها طائفة من الناس فأطفأوا بها شهوة، ونالوا من ورائها جاهاً وسلطاناً، فشيّدوا المعابد، وأقاموا القصور

وقصموا ظهور الشعوب بما كانوا يجمعونه من كدهم وعرق جبينهم.. وقد جرى فى الإسلام شىء كثير مما جرى فى المسيحية فى القرون الوسطى فجلد المفكرون الأحرار وأحرقت كتبهم، وسجن الأئمة والمجتهدون».

ثم يوجه الهجوم إلى «المشايع» أنفسهم قائلاً إنهم «قطعوا حياتهم الدراسية يرتزقون باسم الدين بما ينفق عليهم من «الجرية» ويعيشون بعد أن تخرجوا من الدين. والأزهريون جيش كبير لو وجه به إلى عمل منتج فى أعمال الدولة لخطت البلاد خطوة وسعة إلى الأمام»^(٧).
ثم هو- فوق ذلك- يقدم دراسات فى تاريخ تطور المجتمعات ونشأتها متتبعا نفس الأسلوب الكلاسيكى الذى نهجه الماركسيون القدامى فى استعراض ما اسماه «تاريخ البشرية المادى» عارضا فكرة ماركس عن «المادية» التاريخية»^(٨).

وثمة سؤال آخر يطرحه العرابى ليجيب عليه «كيف يكتب التاريخ اليوم؟» وهو ينتقد فى إجابته المنهج «البرجوازى» فى كتابة التاريخ شارحا وجهة نظر الاشتراكيين فى ضرورة أن ينظر المؤرخ إلى «الشعوب نفسها وإلى المؤثرات الطبيعية فيها والطائفة عليها، ويحلل عاداتها وأعمالها ومدنياتها»^(٩).

بل إن مجلة «الرقيب» تطلب إليه أن يسجل ذكرياته فى السجن فتقدمه إلى قرائها قائلة: «الرجل الكبير النفس كالذهب، لا تذهب بقيمته الخطوب، ولا تقل من عزمه الكروب، فهو لا تبدله النعمى ولا البأساء، ولا تغيره الأيام السوداء، فالذهب فى التراب، هو الذهب فى أعناق الحسان وصدورهن.. ومن هؤلاء الأصدقاء الكرام الأستاذ حسنى العرابى الذى حوكم كزعيم للشيوعيين فى مصر ثم أفرج عنه منذ زمن قصير».

أما العرابى فقد قدم الحلقة الأولى من ذكرياته «فى الأسر وبعد الأسر» بعبارة لجول سيمون تقول: «فحرية الاعتقاد التى قتل فى سبيلها ذلك العدد العظيم من الشهداء ليست حرية التفكير الباطنى وإنما هى حرية إعلان الفكر».

أما الحلقة الثالثة والأخيرة من ذكرياته هذه فتصدرها عبارة أخرى لجول سيمون «فيا للشقاء لقانون مكتوب لا يكون صدق لقانون الأخلاق، ويا لضبيعة مجتمع يكون القانون فيه ممالئاً للأحزاب لا للعدل ويقع السيف فيه على رؤوس الشهداء مكان المجرمين»^(١٠).

ولقد تعمدت أن أورد بعضاً من كتابات الرجل لعلها تكون فرصة لنا لنتعرف على أول سكرتير عام للحزب الشيوعى المصرى وعلى أسلوب تفكيره ومستواه الثقافى والفكرى.

وعلى أية حال فإن الفرصة لم تتح طويلا أمام الرجل كى يكتب فما لبثت الصحف أن أغلقت أبوابها فى وجهه وكان هو كما أسمى نفسه فى ذلك الحين «الأسير الطليق» فقد أفرج عنه لكنه خاضع لحكم «الرقاب» يفرض عليه عدم مغادرة منزلة بعد الغروب وعدم مغادرة المدينة التى يقيم فيها «المحلة الكبرى» إلا بإذن خاص من البوليس.. وتنتهى فترة الرقابة، ويصل الرجل لى القاهرة ليبدأ مرحلة جديدة هى مرحلة «روح العصر».

و«روح العصر» تمثل خطوة جديدة فى نضال جماعة «الإصلاحيين» فهى تعلن عن نفسها صراحة بأنها «جريدة اشتراكية سياسية» وكان من المستحيل منح ترخيص بإصدار المجلة لحسنى العرابى أو عصام ناصف. فحصل د. عبد الفتاح القاضى على الترخيص باسمه وتولى رئاسة التحرير وصدر العدد الأول فى ١٤ فبراير ١٩٣٠. وتتمثل الأهمية الأساسية فى مجلة «روح العصر» فى أنها تكشف لنا بوضوح عن المدى الذى وصل به هؤلاء الرجال الثلاثة بفكرتهم عن «العنلية»، وإلى أى حد أصبحت «العنلية» والتقيد بها سبيلا لترويج أفكار خاطئة وانتهازية من وجهة النظر الماركسية. فالأفكار التى أمكن لها أن تتردد «علنا» فى ظل الظروف السياسية التى سادت مصر عام ١٩٣٠ كانت مجرد أفكار ليبرالية أو تكرار لمفاهيم الدولية الثانية. صحيح أنها تضمنت مقالات بالغة القيمة تتناول الفكرة الاشتراكية بالشرح والتحليل وتجيب على كثير من التساؤلات التى تثور حولها.. مثل ذلك المقال القيم الذى نشره عصام الدين ناصف فى أول أعداد «روح العصر» بعنوان «ما هى الاشتراكية؟» ويجيب على السؤال قائلا:

«الاشتراكية هى نظام اقتصادى واجتماعى يراد به:

١- منع الإنسان من استعباد الآخرين أو استغلال مجهوداتكم، فلا يسمح لرجل أن يمتلك مصنعا يستخدم فيه مئات العمال يتحكم فى أرزاقهم، ولكن يسمح له بامتلاك منزل صغير لسكناه.

٢- منع الأفراد والشركات الرأسمالية من التحكم فى كمية المحاصيل الزراعية والصناعية وفى تقدير ثمنها.. وذلك لا يتأتى إلا بجعل وسائل الإنتاج ملكا للأمة تديرها الحكومة أو المجالس البلدية أو النقابات التعاونية.

٣- منع الاستعمار والحروب التى تنشأ من الرغبة فى الاستعمار..

٤- منع الحروب التى تنشأ من التنافس التجارى، فإن الحرب العظمى التى قتل فيها ملايين الشباب ممن لا ذنب لهم والتى صرفت فيها الدول ألاف الملايين من الجنيهات، هذه الحروب نشأت بسبب التنافس التجارى بين الدول..

٥- تقليل تكاليف الإنتاج، فإذا كانت الأراضى الزراعية التى فى مصر تستثمر كلها على الطريقة الاشتراكية فإن وابورات الحرث وماكينات الدراس وغيرها تحل محل المحراث البلدى والتورج. فتقل تكاليف حرث الفدان فى المرة الواحدة من ٧٩ قرشا إلى ١٥ أو ٢٠ قرشا فقط.

وينشأ من ذلك أنه يمكن للزراعة أن تستغنى عن عدد من عمالها فيشتغل بعضهم فى بناء منازل صحية للفلاحين وإنشاء طرقات جميلة فى القرى ومسارح للتمثيل ومدارس ومستشفيات ودور للكتب.

٦- تقليل عدد ساعات العمل.. وقد خفضت روسيا ساعات العمل إلى ٧ ساعات فى اليوم.. والمأمول أننا نستطيع فى ظل النظام الاشتراكى أن نخفض ساعات العمل إلى ٤ ساعات فى اليوم على الأكثر حتى يستطيع العامل أن يجد الوقت اللازم لتثقيف ذهنه بالقراءة والدراسة وتربيض جسمه بالألعاب المختلفة، والشعور بالهناء العائلى وهو يقيم مع عائلته ويلعب أطفاله..»^(١١).

وصحيح أيضا أن «روح العصر» قد تعرضت لكثير من القضايا السياسية المحلية متخذة مواقف صحيحة تقف إلى جانب الشعب ومصالحه وتدين الرجعية ومؤامراتها على هذه المصالح.. فتحت عنوان «دسائس الرجعيين ضد التعليم الإلزامى» يهاجم د. عبد الفتاح القاضى الحملة الرجعية التى ترفض التعليم الإلزامى وتقاومه بحجة أن «السواد الأعظم.. إذا قرأ وكتب، لن يرضى بأن يعمل عمله الحالى فى الأرض أو المصنع ويرد عبد الفتاح القاضى على هذه الحجة بعنف وصراحة قائلا: «نحن لا ننكر أن انتشار التعليم والثقافة بين السواد الأعظم لهذا الشعب وهى الطبقة العاملة سيثير فى نفوسهم عدم الرضى بحالتهم الراهنة من أجور منخفضة لا تكاد تسد الرمق، إلى مسكن هو بالقبر أشبه منه بالسكن، إلى ازدراء وسوء معاملة، نعم لن يرضى العامل المصرى إذا ما تثقف وتعلم بهذه الحال»^(١٢).

وعندما توقفت المفاوضات بين الحكومتين المصرية والبريطانية تسأل «روح العصر» «قطعت المفاوضات. فماذا نحن فاعلون؟» وفى الإجابة على هذا السؤال تتحدث المجلة طويلا عن حقوق الشعوب ثم تؤكد أن السبيل للقضاء على الروح الاستعمارية هو انتصار الاشتراكية وانضواء الغالبية الساحقة للعمال فى العالم تحت لوائها.. ثم تقول «إن من يمعن النظر فى تطور المذاهب فى العالم فى السنين الأخيرة لا بد وأن يعترف معنا بأن المذهب الاشتراكى يكسب أنصارا ويزداد قوة اليوم بعد اليوم، وأن العالم كله صائر إلى الاشتراكية لا محالة، وهنا يتحقق ما تراه الإنسانية اليوم وتصبو إليه فتستعيد الأمم جميعا حريتها واستقلالها وتحل المعاهدات الاقتصادية محل القيود الاستعمارية فى ضمان تزويد كل شعب بما يلزمه من المواد الخام أو غيرها ليعيش عيشة هنية سعيدة فى سلام»^(١٣).

كذلك فقد جعلت «روح العصر» من صفحاتها منبرا تجمع حوله عدد من قادة العمال والنقابيين والثوريين الذين لم يكتفوا بتحرير صفحاتها بل كانوا يقومون أيضا بتوزيعها.. ومن بين هؤلاء النقابيين الذين التفوا حول «روح العصر» كمنبر اشتراكى، النقابى القديم سيد قنديل الذى كتب على صفحاتها مقالا بعنوان «كيف نكون اشتراكيين؟ ولماذا؟» جاء فيه «إن اتحادنا دليل قوتنا. ودليل عظمتنا. ودليل تقدمنا وباعث حضارتنا وفوق هذا فهو عنوان اشتراكيتنا، وحيث تكلمنا عن الاشتراكية فليكن منا أشخاص عاملون لها بكل قواهم بأذلون فى سبيلها جميع جهودهم، لا يرهبهم غير صوت الحق ولا يقعد بهم ما يلاقونه من عسف وجور فالحق فى أيديهم والله كفى به. والجور فى يد مضطهديهم والله غير راض عنه».

ثم يقدم سيد قنديل نوعا من «برنامج العمل» ويهيب بإخوانه العمال أن يلتزموا:

١- تشجيع صحافتنا الناطقة بلسان حالنا.

٢- ضم صوتنا لصوت إخواننا الاشتراكيين فى بلدان العالم وعلى الأخص العاطفين علينا منهم فى الشرق.

٣- مطالبة الحكومة بسرعة إصدار وطبع تشريع العمال - وضرورة سن قوانين تحميها من عسف الممولين وأصحاب الأعمال خصوصا وغالبهم من الأجانب.

٤- مطالبة الحكومة بسماعتنا لدى الممولين المصريين فى تشجيع العامل المصرى».

ثم يختتم سيد قنديل مقاله قائلا: «فإذا قمنا بما يجب علينا من ذلك نكون اشتراكيين «مع التحفظ» فما قصدنا من الاشتراكية إلا إصلاح حالنا نحن العمال جميعا. وإنى قلت جميعا فهذا دليل اشتراكيتنا الخالصة من ما فى ظنون محاربينا الذين لا غاية لهم إلا استثمار أموالهم باستغلال مجهودنا وعرفنا.. ولئن كنت أخص أحد بكلمتى هذه- وهذا واجبى- فلأخص بها إخوانى العمال المصريين»^(١٤).

لكن «روح العصر» قد فتحت صفحاتها أيضا أمام اتجاهات لا تمت للاشتراكية بصلة وإن ادعت الاشتراكية.. فثمة مثال بتوقيع «أحمد المصرى» بعنوان «اشتراكية الدولة- حكومة مصر تسير على نظام اشتراكى» «يتحدث فيه عن عيوب النظام الفردى ويدعو إلى تدخل الدولة فى إدارة المشاريع الإنتاجية ويقول: «وحكومة مصر تكاد تكون سائرة على نظام اشتراكى فهى تدير السكك الحديدية بأحسن نظام وها هى تدبر البريد والتلغراف...»^(١٥).

ثم مقال آخر لنفس الكاتب بعنوان «محمد على باشا- يطبق النظام الاشتراكى فى مصر»^(١٦).

لكن ذلك كله لم يعف «روح العصر» من هجوم عنيف شنته عليها جريدة «السياسة» واتهمتها بالشيوعية ويحاول عبد الفتاح القاضى أن ينفى عن مجلته وعن الجماعة التى تصدرها هذه «التهمة» فيكتب مقالا عنيفا بعنوان «أجهل أم تجاهل؟- كشف النقاب عن وجه السياسة» يؤكد فيه «أن روح العصر اشتراكية سياسية لا تختلف فى لهجتها ولا فى أبحاثها عن الدبلى هيرالد»^(١٧).

لكن ذلك أيضا لم يستطع أن ينفذ المجلة من سيف الإرهاب وأصدرت حكومة صدقى قرارا بإلغاء رخصتها ومنعها نهائيا من الصدور..

وهكذا انهار آخر أمل للعمل «القانونى» عند العربى وتبخرت نظريته التى انفصل بسببها عن الحزب تحت بطش إرهاب الرجعية المصرية التى لم تكن لتسمح حتى بإيجاد منبر مثل «روح العصر».

وتفرقت الجماعة..

عبد الفتاح القاضى سافر إلى ألمانيا للعلاج.. وحسنى العربى سافر هو أيضا إلى ألمانيا ولكنه سافر هربا من الضياع والماصرة والفقر وإنكار الناس له.

ويروى العرابى فى كلمات حزينة قصة سفره، والساعات الأخيرة التى قضاهـا متجولا فى شوارع الإسكندرية «أحب بلاد مصر التى فيها قضيت زهرة شبابى، فيها درست فى «العباسية الثانوية»، فيها ضاربت فى «البورصة» وجمعت عشرات الألوف من الجنيهات فيها، بدأت حياتى السياسية وخطبت فى الوف العمال..

طفت فى شوارعها ساعات أسأل الدور والمنازل هل أصابها ما أصابنى، وهل عدت عليها الأيام كما عدت على، فكان جوابها صريحا: لا، الشوارع نظيفة، والعمارات جددت شبابها، والشمس مشرقة ضاحكة.. والناس رائحون غادون وعلى وجهم مظاهر المرح والمسرّة- أما أنا فأسير وحدى كسير القلب، مهيبض الجناح، لا يآبه لى مار ولا مارة، كأن لم يكن لى فيها دولة.. أغريب أنا؟! (١٨).

هكذا وجد الرجل نفسه فجأة وحيدا، بلا أمل فقرر أن يهاجر.

وكانت هجرة العرابى إشهارا جديدا لإفلاس الفكرة «الإصلاحية» ولقد طالعنا فى فصول سابقة كيف سدت الرجعية المصرية بصلفها وتعنّتها ألباب أمام أية دعوة إصلاحية ولقد كان على العرابى أن يدرك منذ البداية أن الذين رفضوا بل وقاوموا الدعوات «الإصلاحية» لعبد الرحمن فهمى وإسماعيل مظهر، كان من الضرورى والحتمى أن يرفضوا دعوة صادرة منه بالذات.

وعلى أية حال لقد هاجر الرجل وأقام فى ألمانيا شهورا طويلة جرد خلالها من جنسيته بمرسوم ملكى. وفى برلين عانى الرجل كما روى فى مذكراته الكثير من التشريد والجوع والحرمان.. ثم عاد إلى مصر.

وهنا تتورّ تساؤلات عديدة حول عودة الرجل، وحول مدى تورّطه فى علاقة مع النازى.. ويؤكد الدكتور محمد انيس أن العرابى «قد انتهى به الأمر إلى أن أصبح من دعاة النازية الألمانية» (١٩).

لكن الشئ المؤكد أن الرجل قد عاد بواسطة حسن نشأت باشا.. والعرابى لا يخفى ذلك فهو يقول «فجددت مسعاى لدى الحكومة المصرية وكان وزير مصر المفوض فى برلين فى ذلك الوقت الرجل الألعى «حسن باشا نشأت» (*).

ويقول عصام الدين ناصف: إن حسن نشأت أعاد العرابى من ألمانيا خدمة للإنجليز حتى لا يستخدمه الألمان كبوق لهم إذا ما قامت الحرب..

وعلى أية حال- لقد عاد حسن العرابى ليجد أصدقاءه القدامى قد ينسوا من إيجاد أى سبيل لتنفيذ أفكاره الإصلاحية عن العمل العلنى وليجد أنهم قد لجأوا إلى العمل السرى.

وعندما هاجر العرابى والقاضى لم يثبت فى ميدان «العلنية» إلا عصام ناصف الذى أصدر عديدا من الكتاب وأسهم فى تحرير عشرات المجلات وشارك عباس حليم عمله وسط العمال محاولا جهد طاقته أن يكسب هذا العمل طابعا ثوريا.

وقد تصيد عصام ناصف كل نزعة «إصلاحية» يحاول جاهدا أن ينفخ فيها بعض الروح دون جدوى.

وهكذا وبعد أن أصدر العديد من الكتب وبعد أن كتب عشرات بل مئات المقالات فى صحف عديدة ابتداء من «الأهرام» «كوكب الشرق» و«الوادي» و«المقتطف» و«المجلة الجديدة» و«العصور» و«السياسة» إلى مجلات ربما لم يسمع عنها أحد مثل «شبرا» (**)
و«الشعاع» و«المصرية» إلخ..

وبعد أن تحالف مع كل دعوة إصلاحية، مع إسماعيل مظهر وعباس حليم والتجمعات المناهضة للفاشية والجماعات المعادية للحرب.. بعد ذلك كله عاد عصام ناصف والقاضى معا ليقنتعا أنه ما من سبيل إلا العمل السرى.

ويعود العرابى إلى مصر ليجد أن آخر فرسان «الإصلاحية والعلنية» قد تخطى عن تلك الفكرة القديمة التى تزعمها، وأنه قد شرع بالفعل فى تكوين تنظيم سرى..

وشارك حسن العرابى معهم فى هذا التنظيم السرى ثم ما لبث أن انفصل عنهم بعد أن اكتشفوا ميوله النازية فما أن اجتاحت جيوش هتلر أراضي روسيا وبدا للبعض أن روسيا قد هزمت حتى سارع العرابى مطالبا لتنظيم بتأييد ألمانيا ولما رفضت المجموعة انفصل عنها وأخذ فى الاستعداد لملاقاة جيوش روميل، بل ويقال أنه كون حكومة ظل استعدادا لوصول روميل^(٢٠).

أما بقية المجموعة فقد التفت من جديد مع مجموعة الحزب بالقاهرة وعملوا معا^(٢١).
.. وهكذا وبعد، رحلة طويلة، استغرقت سنوات عديدة وجهود ضخمة؛ كتب ومقالات ومجلات وقضايا وسجون، ومناورات ومحاورات مع الإصلاحيين، بعد ذلك كله عاد دعاة الإصلاحية والعمل القانونى من جديد ليعملوا فى نفس التصوف التى ابتعدوا عنها منذ ١٩٢٧.

وربما كانت عودتهم هذه كافية بذاتها لإثبات صحة خط الحزب فى تمسكه بضرورة العمل السرى فى مواجهة العنف الرجعى المتشدد وبالتمسك باخطرية الماركسية كاملة فى مواجهة دعاوى التحلل والتساهل النظرى.

الهوامش

- (١) ملف القضية ٢٤٤ كلى ١٩٣١ جنابات الإسكندرية- ص٢٤.
- (٢) كوكب الشرق- ٨-١-١٩٢٧.
- (٣) الهلال- يوليو ١٩٢٧.
- (٤) الهلال- أغسطس ١٩٢٧.
- (٥) الرقيب ١٩ - ٢- ١٩٢٨.
- (٦) الحياة الجديدة ١٥- ١- ١٩٢٨.
- (٧) الحياة الجديدة ١٩- ١- ١٩٢٨.
- (٨) المقتطف- مارس ١٩٢٩.
- (٩) الحياة الجديدة ٨- ١- ١٩٢٨.
- (١٠) مقالات العرابي- المرجع السابق ص١٦.
- (١١) روح العصر ١٤- ٢- ١٩٣٠.
- (١٢) روح العصر- المرجع السابق.
- (١٣) روح العصر ١٦ - ٥ - ١٩٣٠.
- (١٤) روح العصر- ١٦ - ٥ - ١٩٣٠.
- (١٥) روح العصر - ٢٨ - ٢ - ١٩٣٠.
- (١٦) روح العصر- ١٤- ٣- ١٩٣٠.
- (١٧) روح العصر- ٢٨- ٣- ١٩٣٠.
- (١٨) محمود حسنى العرابي- ٨٩ شهرا فى المنفى- مطبعة التوكل- القاهرة (١٩٤٨) - ص٧.
- (١٩) د. محمد أنيس الحركة الوطنية فى مواجهة الاستعمار الأوروبى سلسلة محاضرات المعهد العالى للدراسات الاشتراكية- مطبوعة بالرونو.
- (*) لا زالت شخصية حسن نشأت لغزا يحير الباحثين فى تاريخ هذه الفترة. فقد كان سفيراً لمصر فى برلين حتى قبل إعلان الحرب العالمية الثانية.
- وقد أكد هو أكثر من مرة أنه قام بالوساطة بين ألمانيا وإنجلترا وأنه حمل قبل اشتعال الحرب رسالة من هتلر إلى تشمبرلين. وكان نشأت يؤكد فى أحديثه الخاصة أنه كان صديقاً شخصياً لهملر وجورنج وكان يخرج معها كثيراً للصيد ومن سفارة مصر فى برلين إلى سفارة مصر فى لندن انتقل حسن نشأت ليعمل سفيراً فى لندن طوال الحرب، الأمر الذى يوحى برضى الإنجليز عنه.
- (**) مجلة شبرا.. أصدرها محمد عبد الحميد عبد الله المحامى لتعبر عن مشاكل حى شبرا. وقد صدر عددها الأول فى ٢٥ مارس ١٩٣٧ وابتداء من العدد الثانى الصادر فى أول أبريل ١٩٣٧ بدأ عصام

الدين ناصف بالكتابة فيها باعتباره من أبناء حي شبرا، وبالتدريج تحولت المجلة إلى منير للدفاع عن حقوق العمال وتوالت مقالات عصام الدين فيها ومن بينها مقالات- الاشتراكية والإسلام (١٥ - ٤ - ١٩٣٧) علاقة الاشتراكية بالمذاهب الاجتماعية الأخرى (٢٩ - ٤ - ١٩٣٧) وابتداء من ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٧ صدرت مجلة شبرا في حجم جديد معلنه في صفحتها الأولى أنها لسان العمال على مبادئ الزعيم عباس حليم.

(٢٠) راجع محضر النقاش مع د. عبد الفتاح القاضي، تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر- المرجع السابق- ص ٢٧٠.

(٢١) راجع محضر النقاش مع محمد دويدار بالملاحق.

جورج حنين - رمسيس يونان - أنور كامل هل الفن وحده يكفى...؟

كانت الثلاثينيات تقترب من منتصفها أو تتخطاه بقليل. وكانت جماعات المثقفين المصريين تقترب من حافة التوهج.. كانوا يحاولون أن يفهموا وأن يتمعنوا ألفهم.. وأن يحاولوا الاقتراب من قضايا المجتمع وتفهمها والاشتراك فى عملية المواجهة الاجتماعية الصاخبة. وبعض هؤلاء كانت معرفتهم بالثقافة الأجنبية نتيجة لنشأة اجتماعية متميزة أو لفرصة التعليم فى مدارس أجنبية تشدهم نحو المزيد من «التغريب» والانغماس فى النقاش الفكرى الصاحب حول المدارس والاتجاهات الفكرية التى تموج بها أوروبا. وبعض هؤلاء تلامس أو تواجد مع الأندية الأجنبية الطابع والمحتوى محتميا إما بوضعه الاجتماعى الراقى، أو بإتقانه اللغة الفرنسية، لغة هذه الأندية.. والبعض استمد من هذا التلامس اقترابا من الوعى الاجتماعى.. أقول: اقترابا وليس تفهما ولا إدراكا..

سئل واحد من هؤلاء.. هو أنور كامل «لماذا ارتبط نشاطكم بالفن؟» فقال^(١):
«لا يمكن تخيل حركة سياسية بدون ثقافة، السياسة بدون ثقافة تتحول إلى محاولات جافة، وهذا خطر على العمل الثورى. حركة سياسية بدون ثقافة يمكن أن تودى إما إلى

فشل أو إلى ديكتاتورية. والحقيقة أن العديد من الكوادر اليسارية المصرية لم تكن على قدر كاف من الثقافة. ربما كان البعض يعرف الكثير عن الماركسية لكن الماركسية وحدها ليست ثقافة. وربما فشلنا كحركة يسارية لأننا لم نوفر لأنفسنا قدرا كافيا من الثقافة قبل أن نخوض غمار تأسيس حركة جماهيرية.

وعندما يسأل عن العلاقة بين السيرالية والسياسية يقول: السريالية ترتبط بتوريد الاحلام، والحلم هو الرغبة في تحقيق الامانى وكانت أمانينا مقهورة، وعبر الفن السيريالى كنا نعبر عن أمانينا المقهورة. ومن هذه الزاوية يمكننى أن أعتبر السيرالية حركة ثورية. ولقد انضم إلى الحركة السيرالية المصرية يوسف العيفى وكامل التلمسانى، ورمسيس يوفان، فتحي البكرى، فؤاد كامل، أبو خليل لطفي.. وفى معارضنا كنا نعد كتالوجات برسوم وتعليقات ثورية، وفى مجال الشعر كان كلا من جورج حزين وكانتروفتش يمارسان أداء ثوريا، فقد كان مجرد تدمير الإطار التقليدى للشعر عملا ثوريا.. وهذا بذاته سياسة فليست السياسة مجرد معادلة ضيقة الأفق.. ولكن أعبر بدقة من مغزى أفكارى فإننى أقرر مثلا أن : ١+١ يكنها أن =٢، وأن تكون ١١ وأن تكون واحد كبير لقد كنت من البداية ماركسى حر، بلا دوجما، فأى شىء يتحول إلى دوجما ينتحر..»

ولعل القارئ ينتظر تعقيبا منى.. لكنى أمهله أتابع معه بعض أفكار هذه المجموعة، كتب جورة حنين الفارس الأول لهذه الجماعة مقالا «بالفرنسية» فى مجلة un effort بعنوان «قاموس للاستخدام البرجوازي» وقد نشر المقال مصحوبا برسوم كاريكاتورية لكامل الديب.. فقدم القاموس التالى:

فوضى = انتصار الروح على اليقين.

جمال = سلطة تنفيذية.

كرامة = افتراض جاهز لأيام الاستقبال.

امراة شريفة = احتكار جنسى.

فكرة = لعبة لا تنكسر، مجانية وأحيانا قاتلة.

شرعية = لجام الشعوب.

الأنا = الشىء الأكثر أهمية فى العالم.

متحف = أكبر مزبلة معترف بها رسميا.

عمل = كل شيء لا ترغب فى فعله.

وقد أثار هذا القاموس استياء ودهشة دفعت جريدة «البورص إيجيسىان» إلى أن تعلق عليه قائلة: «إنه كلام شاب مسكين بقلب ميت وروح جامدة». فرد حنين على كاتبة المقال قائلا: «تأكدى من فضلك أن نداءك المهتز يمثل هذه الاحتجاجات العنيفة قد وصلنى ولم يهزنى، لقد كان هؤلاء المتوحشون المدويون بالتحديد فى طريق الغرق فى الوحل، عندما وصلت رسالتك لتتقدمهم من ممارسة مهامهم»^(٢).

وبلا تعليق، نوقف أما شبان يتكلمون الفرنسية ويتجادلون بها، فارسهم الأنيق يقول إن الأنا «هى الشئ الأكثر أهمية فى العالم». حواراتهم المعقدة قد تشغل بالهم وحدهم وبال أمثالهم من المتفلسفين لكنها على أية حال لا تصل ولا يمكن أن تفهم من جانب الكثير من المصريين فما بالك بالطبقة العاملة؟..

ولكن أولا وقبل أى تحليل أو استطلاع من هم هؤلاء الناس؟

*جورج حنين:

ولد فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٤ لأب دبلوماسى هو صادق حنين باشا.. الأب مصرى قبطى والأم إيطالية تسمى مارى زانلى. كان أرسقراطيا إلى الدرجة التى منعتة من الذهاب إلى المدرسة، فقد تولى مرب خاص تعليمه حتى سن الثانية عشرة. وفى عام ١٩٢٤ عين والده سفيرا لمصر فى مدريد فصاحبه جورج والمدرس الخاص. وهناك فقط تعلم جورج اللغة العربية..

وفى عام ١٩٢٢ عين والده سفيرا لمصر فى روما فانتقل معه جورج حيث التحق بمدرسة شاتوبريان الثانوية، ثم انتقل مع أمه إلى باريس.. والتحق بعد ذلك بالسوريين حيث حصل على ثلاث شهادات ليسانس.. واحدة فى الحقوق والأخرى فى الاداب والثالثة فى التاريخ.. وقد استقر بالقاهرة ابتداء من ١٩٣٩^(٣).

وقبل ذلك التاريخ كان جورج حنين فى فترات انتقاله للقاهرة يمارس نشاطا ثقافيا ملحوظا.. ومنذ عام ١٩٣٣ التحق بجماعة المحاولين وكان سكرتيرها جابريل بقطر.. وكانت تصدر مجلة شهرية باللغة الفرنسية اسمها un effort وتصف نفسها بأنها «المجلة الوحيدة النزيهة فى مصر، وأنها مركز الفكر للحزب»^(٤).

ويبدو أن جورج قد أصبح أحد الكتاب الدائمين فى هذه المجلة.. وذلك برغم عدم إقامته الدائمة فى مصر.

ونتابع له عديدا من المقالات:

مقال بعنوان «العالم بدون روح» ويصف فيه بأسلوب فنى صورة العالم داخل نفسه^(٥) وقصة بعنوان «صنع فى أمريكا» وهى قصة شاعرية تدور فى أحد الملاهى، يعالج فيها العالم الداخلى لإحدى الغانيات^(٦) ثم يبدأ فى كتابات «لا واقعية» تعتمد على تدفق اللا وعى والتى يصعب فهمها أو فهم مغزاها كمقال بعنوان «النومين هارب ومنبعث»^(٧).

و ذات يوم سئل جورج حنين: ما أجمل أمنياتك؟ فأجاب «الوصول إلى نقطة الصفاء القصوى، حيث يحل الأدب محل الحياة، عندئذ، وعندئذ فقط ستكون هناك ضرورة للكلام، وستكون للكلمات سلطة ووحدة»^(٨).

وسريعا ما غادر حنين مصر فالأمر لا يعنيه كثيرا أن يقول هنا أو هناك.. وفى باريس استقر نهائيا وفى فرنسا صار يعتبر واحدا من أهم أدباء اللغة الفرنسية المعاصرين.. تحدث عنه الكاتب المغربى الطاهر بن جلون «إنه من الشعراء الذين يعبرون العصر على أطراف أقدامهم، صانعين من أجسادهم ظلا للكلمات، يملون بين شمسين فى طيران رقيق بنعمة الصمت، وبحياء المجهول».

* رمسيس يونان:

«ولد عام ١٩١٣ من أسرة بروتستنتية من مدينة المنيا توفى والده وهو فى الخامسة عشرة من عمره. فاضطر للعمل والدراسة فى آن واحد، تلقى تعليمه الثانوى فى المدرسة السعيدية، حيث تعرف على أستاذ الرسم يوسف العفيفى الذى أثر فى جيل كامل من الفنانين المصريين»^(٩).

وقد وازب رمسيس يونان على المشاركة فى معارض صالون القاهرة، والتى كانت تقيمها جمعية محبى الفنون الجميلة فى أعوام ٣٣ - ١٩٣٨.

وفى عام ١٩٣٥ بدأ اتصاله بجماعة الدعاية الفنية التى كان يرأسها حبيب جورجى. وعن طريق هذه الجمعية بدأ خاصة المثقفين فى التعرف على رمسيس يونان كناقد متميز، وقد توقف نشاط هذه الجماعة عام ١٩٣٩ بعد أن أقامت معرضين جماعيين فى عامى ١٩٣٨ و ١٩٣٩ وقد شارك رمسيس يونان فى المعرض الأخير^(١٠).

* أنور كامل:

لم يكن من بين أعضاء جماعة المحاولين «كانت علاقتى بهم ضعيفة جدا، ولم تتعد سوى زيارتين أو ثلاثة، لكننى لم أشعر بالقدرة على الاندماج معهم».

ولكن يبرز اسم أنور كامل فجأة فى ١٩٣ حيث أصدر كتابا اتخذ عنوانا غريبا هو «الكتاب المنبؤ» هذا الكتاب الذى لم يطبع منه سوى ٢٥٠ نسخة فقط أثارت ضجة كبيرة فقد تحدث عن مسألة الحرية الجنسية، وتلمس أيضا- كما يقول صاحبه- بعض الجوانب الاجتماعية. لكن الكتاب- وربما لأسباب أخلاقية- صودر بقرار من الحكومة. ومن خلال الضجة التى أحدثها كتاب تحدث عن الحرية الجنسية وطبع منه ٢٥٠ نسخة فقط صودر معظمها.. توجهت بعض الأنظار من هذا النمط من المثقفين نحو أنور كامل.. ويمضى هو قائلا:

«كان معى أخى فؤاد كامل- كامل التلمسانى- أحمد رشدى ونعيم جبالا وهو رسام تشكيلي يهوى الموسيقى وأسس جمعية الجرامفون..

وكوّنّا معا «جمعية المنبؤين» واتخذنا شقة صغيرة كمقر لجمعيتنا.. حيث كنا نجتمع لنداول فى همومنا، لكننا على أية حال كنا بغير نفوذ، ولم يكن لنا أى نشاط سياسى»^(١١). لنتوقف قليلا نجمع أطراف الموضوع.. ولنورد أسماء الجماعات والجمعيات والأندية التى تناثرت بكثرة غريبة فى أنشطة هؤلاء الثلاثة وبرغم اعترافهم جميعا بالعزلة عن الجماهير، وأنها كانت جماعات محدودة فى إطار محدود، هو صفوة المثقفين. المحاولين- جماعة الدعاية الفنية- صالون القاهرة- جمعية محبى الفنون الجميلة- جمعية الجرامفون- جمعية المنبؤين.

ونواصل متابعة مسار هؤلاء الثلاث.. نعم لم يكونوا وحدهم، لكنهم كانوا فى عزلة مهما تكاثروا، تعزلهم مواقفهم المتعالية على مشكلات الجماهير. والتى لا تتلمس مواقع وطن مستعمر ومستعبد وشعب فقير فقرا بلا حدود وهم منغمسون فى أحاديث مجدية مهما كانت براقة عن الفن والأدب، وبلهجة متفلسفة ومتعالية، وبلغة فرنسية فى غالب الأحيان.. وتعزلهم النزعة المترفعة عن الجماهير ومنظمتها، وأدواتها الجماهيرية نقابات، اتحادات، تجمعات فئوية وطبقية.. والانكفاء داخل المحاولين وجمعية الجرامفون. وصالون القاهرة.. إلخ.

وتعزلهم - وهذا هو الأخطر- النزعة التروتسكية الواضحة التى غفلت أية محاولة لتسييس مواقفهم المتباعدة عن الجماهير.. بضباب غير محتمل.. فهم ضد النازية وهم ضد الرأسمالية وهم ضد الاستعمار وهم أيضا ضد الاتحاد السوفييتى.. مع من هم؟ هذا

السؤال تردد كثيرا وهو يحيط عزلتهم القاسية بغموض من الشكوك والتوجسات وكم كان صعبا، شرح الفكرة التروتسكية مضافا إليها كل هذا التفلسف المنهجي والتعقيد اللغوي، والانعزال الفكرى يقول أنور كامل «الحقيقة أننا لم نتعلم من أية معلومات سابقة، أو مصادر أقدم، ولم تكن لدينا أية خبرة تنظيمية، كانت لدينا أفكار.. ولكن لا معرفة بالتطبيق ولا خبرة فى الممارسة»^(١٣).

وإذا كان أنور كامل ينفى عن نفسه الانتماء للتروتسكية فإنه يؤكد أن جورج حنين ولطف الله سليمان كانا كذلك.. «الحقيقة أننا كنا فى بداية الطريق للدراسة النظرية، كنا يساريين، ولكن لم تتح لنا فرصة دراسة أفكار ستالين وأفكار تروتسكى والمفاضلة بينهما لكننى متأكد أن جورج حنين وقد كان أكثر اطلاعا كان له موقف محدد هو ولطف الله سليمان وأعتقد أنهما كانا تروتسكيين»^(١٣).

وثمة تأكيدات على انتماء جورج حنين المبكر للتروتسكية، فقد حرص على الاستمرار فى مراسلة المجلة التروتسكية الفرنسية les humbles التى كان يحررها التروتسكى الفرنسى موريس ويلين، وفى عدد يونيو ١٩٣٥ من هذه المجلة نجد مقالا عنيفا لجورج حنين بعنوان «أغنيات رجل العنف» يطالب فيها البرولاتاريا بالثورة.. وبأقصى عنف ضد الرأسمالية^(١٤).

وفى أعداد لاحقة من ذات المجلة هاجم حنين ستالين بشدة، وهاجم رومان رولان متهما إياه بأنه مجرد عميل لستالين.. وفى مايو ١٩٣٦ نشرت له المجلة نفسها مقالا بعنوان «أحياء لذكرى الثابتون على مواقفهم» اتهم فيه رومان رولان، بأنه «مدير عام لا وعى اليسار»^(١٥).

ومن القاهرة أرسل جورج حنين سلسلة من القصائد إلى هذه المجلة يتابع فيها محاكمات موسكو ويهاجم ستالين بشدة.. وثمة قصائد بعنوان «عاشت كتالونيا» - و«لو أنهم يشنفوه» و«مشروع أثر دولى»^(١٦).

وإذا كانت التروتسكية سمة مشتركة، فثمة مشترك آخر هو الانتماء للمدرسة «السيرالية»

ففى عام ١٩٣٧ ألقى جورج حنين محاضرة فى القاهرة حاول أن يشرح فيها للمتقنين المحيطين به «السيرالية» وكالعادة أسرع بتأسيس جمعية «الجماعة السيرالية المصرية».

وانضم إليه كالعادة أيضا ذات الأصدقاء المحدودى العدد الذين ينضمون إلى أية جمعية من هذا القبيل «الشاعر أدمون جابى، الصحفى إيميل سيمون، الرسامين كامل التلمسانى، وانجلو دى ريز ورمسيس يونان».

وكان عام ١٩٣٨ عام الانطلاق لهذه المجموعة.

جورج حنين أصدر أول دواوينه بالفرنسية «لا معقولية الوجود» مرينا برسوم كامل التلمسانى. ورمسيس يونان أصدر عن طريق جماعة الدعاية الفنية كتابا تفجر كقنبلة فى ميدان الثقافة المصرية عنوان «غاية الرسام العصرى».

وفى نهاية العام بدأ أول عمل جماهيرى للمجموعة فأصدرت منشورا باللغتين العربية والفرنسية بعنوان «يحيا الفن المنحط» يهاجم منع هتلر للفن التشكيلى الحديث بحجة أنه فن منحط.. وقد وقع البيان ٤٠ من المثقفين منهم جورج حنين- رمسيس يونان- كامل التلمسانى- فؤاد كامل- أنور كامل- سلامة موسى- وعلى ظهر المنشور طبعت صورة «جرنيكا» لبيكاسو.. ويكون الأمر الآن أكثر نضجا فيعلن جورج حنين رسميا تأسيس جماعة «الفن

والحرية» فى ٩ يناير ١٩٣٩ ويعلن قانونها الأساسى من مادتين:

«المادة الأولى: تكونت فى يوم ٩ يناير ١٩٣٩ جماعة باسم «الفن والحرية» للأغراض الآتية:

أ- الدفاع عن حرية الفن والثقافة.

ب- نشر المؤلفات الحديثة، وإلقاء محاضرات وكتابة خلاصات من كبار المفكرين فى العصر الحديث.

ج- إيقاف الشباب المصرى على الحركات الأدبية والفنية والاجتماعية فى العام.

المادة الثانية: تمثل الجماعة لجنة دائمة تنتخب وفقا للقانون الداخلى- مقر الجماعة بشارع المدايح ٢٨ القاهرة»^(١٧).

وأصدرت جموع الفن والحرية نشرة، مطبوعة بالرونو، على غلافها رسم تشكيلي بتوقيع التلمسانى.

وفى العدد الثانى والأخير من هذه النشرة يكتب جورج حنين «بالفرنسية أيضا».. أن هدفنا ليس تغيير الرغبة، بل تغيير المجتمع، وتكيفه مع رغباتنا، ولا يمكن للفن أن يكون عاطفيا فقط، فهو ضد النظام القائم، وضد الطبقة الحاكمة، وضد الخنوع، وضد الورع البوذى، فالفن ليس سوى معمل بارود»^(١٨).

ومع اشتعال الحرب العالمية الثانية يستقر جورج حنين نهائيا فى القاهرة ليغارها نهائيا أيضا بعد الحرب مباشرة.

وفى عام ١٩٣٩ يسهم جورج فى إصدار مجلة أثارت لغطا شديدا فيما بعد هى «دون كيشوت» واللغظ مصدره أنه هو وهنرى كورييل أسهما فى إصدارها وفشلا فى اقتسامها فجورج أراد أن ينحو بها منحى تروتسكيا ورفض كورييل وتوقفت المجلة.. لكن ظلال «دون كيشوت» ظلت تلاحق كورييل لفترة من الوقت واستخدمها خصومه وهم كثيرون.

لكن متابعة أعداد دون كيشوت تؤكد أن صراعا مريرا دار بدخلها وأن هنرى كورييل قد أثار غضب التروتسكيين على جورج حنين فقد كان صوت كورييل هو الأعلى بينما صوت التروتسكية يوشك ألا يظهر.. وألا يلمس، ومن باريس أرسل هنرى كاليه «تروتسكى فرنسى» إلى جورج حنين يعنفه بضياك فيها، ربما كان انفرادك بمجلة صغيرة أفضل بالنسبة لك، إن مقالاتك هى وحدها ذات المستوى. إنها مجلة محلية جدا، وطفولية..

وتتوقف المجلة بعد أربعة أشهر لتعد قرائها إنها ستصدر شهرية بعد أن انفرد بها جورج حنين، لكنه يعجز عن إصدارها..

لكننا اختتمنا قصة «دون كيشوت» دون أن نبدأها. فكيف بدأت؟

فى ديسمبر ١٩٣٩ تجمعت مجموعة من اليساريين المصريين والأجانب (والأغلبية أجنبية) واستأجرت رخصة مجلة تصدر بالفرنسية كانت متخصصة فى سباق الخيل اسمها «دون كيشوت» وأعلنت المجلة عن نفسها كما يلى:

«دون كيشوت» أسبوعية، إخبارية، يحررها الشباب، صاحبها المسئول إدوارد الشدياق رئيس تحريرها هنرى كورييل - تصدر كل خميس - مقرها ١٦ شارع الجنية» ثم «نحن نناضل ضد الفوارق الطبقيّة، والمغالطة التاريخيّة، والتساهل، والممارسة التى لا يمارسها الناس بحرية، نناضل ضد كل التلفيقات وكل الكلمات المستترة»^(١٦).

وقد شارك فى تحرير دون كيشوت كل من هنرى روماني - مارسيل بياجيني - جوفارنا - اديث جاف، الكسندر باسكال - هنرى كاليه - إيزاك هرارى - إدوارد لينى.. وكان كامل التلمساني يشرف على توضيبيها ويرسم القصص والقصائد المنشورة بالإضافة إلى مقالاته عن الفن المصرى.

وكانت دون كيشوت تصدر فى ست أو ثمانى صفحات خصصت الصفحة الأولى للسياسة المحلية والعالمية والثانية للموضوعات الأدبية والفنية. والصفحة الثالثة بعنوان

«عروض حية» وتنشر فيها موضوعات متنوعة وكانت الصفحتان الرابعة والخامسة مخصصتان لسباق الخيل ذلك لأن رخصة الجريدة كانت صادرة على أنها جريدة لسباق الخيل..

وكان الاتجاه العام للجريدة يساريا معاديا للنظام الملكي ومدافعا عن العمال والفلاحين.. وقد نشرت المجلة فى أحد أعدادها قصة لتوفيق الحكيم ترجمها ادوارد الشدياق بعنوان «تابع الموت» وصحبها رسم لكامل التلمسانى^(٢٠).

وسرعان ما تفرقت السبل.. هنرى كورييل رافضا للتروتسكية، ورافضا وطن المثقفين، وتلمسا الطريق نحو الفهم والفعل الماركسى، ترك دون كيشوت وأسس النادى الديمقراطى ثم الحركة المصرية للتحرر الوطنى..

أما جورج حنين فقد ظل متشبثا بتروتسكيته، متشبثا معها بالاكتهاء بالفن كمعمل بارود.. فهل كان الفن وحده ودون نضال جماهيرى كافيا وحده ليصبح معملا طبقيا للبارود يجيب على هذا واحد من زملاء جورج حنين هو أنور كامل يقول: «.. لكن فكرا هكذا لم يكن من الممكن أن يظهر وأن يتبلور إلا من خلال تنظيم سياسى. ولكن جورج حنين لم يكون تنظيما سياسيا.. وأريد أن أشير إلى أن ارتباط هذه الموجة اليسارية بالفن والفنانين قد أعاف تحولها إلى تنظيم، فالفنانون عادة يحبون الدردشة، لكنهم لا يقبلون بسهولة الخضوع لقيود التنظيم»^(٢١).

وفارق كبير، بل هوة شاسعة بين الدردشة وبين متطلبات الصراع الطبقي.

الهوامش

- (١) محضر نقاش أجرته الباحثة الأمريكية سليما بوتمان مع أنور كامل على ٤ أبريل ١٩٨٠ - المحضر مدون بالالة الكاتبة الإنجليزية.
- (٢) alexndrian- georges henien. gditions seghers. paris (1981) p.14
- (٣) لمزيد من التفاصيل راجع: سمير غريب- السيرالية فى مصر- الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٨٨) - ص ١٢.
- (٤) المرجع السابق. ص ١٣.
- (٥) un effort- no: 38- 12- 1933
- (٦) un effort - no: 44- 6- 1934
- (٧) un effort - no: 52- 3- 1935
- (٨) savoer vivre- 1946
- (٩) سمير غريب - المرجع السابق- ص ١٢.
- (١٠) المجلة - فبراير ١٩٦٧- مقال لصبحى الشارونى بعنوان «الثقافة والتدرد ورمسيس يونان».
- (١١) محضر نقاش أجوته سليما بوتمان- المرجع السابق، وأيضا محضر نقاش مع المؤلف- بالملاحق.
- (١٢) محضر نقاش أجرته سليما بوتمان- المرجع السابق.
- (١٣) محضر نقاش أجراه المؤلف- بالملاحق- المرجع السابق.
- (14) les hambges- juin 1935
- (15) les hambles- maie 1936
- (١٦) لمزيد من التفاصيل راجع: سمير غريب المرجع السابق- ص ١٧.
- (١٧) التطور- العدد الأول- يناير ١٩٤٠.
- (١٨) الفن والحرية - نشرة مطبوعة بالرونيو- العدد الثانى.
- (19) Don Quichotte - 15/3/1940.
- (20) Don Quichotte - 11/1/1940.
- (٢١) محضر نقاش مع أنور كامل أجراه المؤلف - بالملاحق - (المرجع السابق).

بعض القضايا الأيديولوجية

فى بعض الأحيان، يصبح الموقف الأيديولوجى عنصرا حاسما فى تكوين الصورة العامة لأى حزب سياسى.

وثمة قضايا فكرية - معينة - تكتسب أهمية خاصة بحيث يصبح الموقف تجاهها العامل الفعال فى تحديد مستقبل الحزب والحكم عليه.

ولقد تنطفىئ الكثير من البطولات والتضحيات والنجاحات الباهرة. أمام وهج موقف أيديولوجى خاطئ.

وفى تاريخ - الرفاق المصريين - عدد من المواقف الأيديولوجية الفاصلة، لعلها حددت إلى درجة كبيرة مسار انطلاقهم العام، بل لعلها تركت بصماتها على جميع التقييمات التى قدمت حول دورهم.

ولعله من حقنا، ومن حق هذه الكوادر، أن نلقى بعض الضوء على عدد من المواقف الأيديولوجية المهمة.

ذلك أن بعضها رغم أهميته القصوى - غير معروف - بل وربما تداول الكتاب أشياء توحى بنقيضه مثل موقف الحزب من الصهيونية وقضية فلسطين. وبعضها الآخر يتطلب

النظر إليه فى إطار التأثير بالموقف العام للحركة الشيوعية العالمية التى كانت تمارس فى ذلك الحين تأثيرا حاسما وقاطعا على الأحزاب فى مختلف بلدان العالم. وفى إطار الفكر الماركسى العالمى الذى سادت فيه الاتجاهات الستالينية بصورة لا تقبل المعارضة ولا الانتقاد.. مثل الموقف من البرجوازية الوطنية فى المستعمرات والبلدان التابعة.

* * *

ولنبداً بموقف حقق فيه - الرفاق المصريون - نجاحا حقيقيا وفهما صحيحا لأوضاع الأمة العربية واستبصارا ذكيا بقضايا مستقبلها وهو الموقف من الحركة الصهيونية. فالحزب الذى حارب دوماً بتهمة أن لليهود نفوذا كبيرا وسط صفوفه وأن للأجانب اليد الطولى فى أعماله، هذا الحزب كان أول الأحزاب المصرية التى أدركت خطر الصهيونية وأعلنت عليها حرباً لا هوادة فيها.

وفى الوقت الذى كانت فيه صحف الأحزاب البرجوازية المصرية تنشر المقالات عن النشاط «الخيرى» للحركة الصهيونية وعن أعمالها المجيدة لتعمير فلسطين كانت جريدة «الحساب» تتصدى - وربما على انفراد - لكشف الصهيونية وإدانة مطامعها فى فلسطين ولفضحها كحليف للاستعمار.

وتحت عنوان «بلفور يزور ضحيته. وفلسطين تقابله بالإضراب العام» كتبت «الحساب» تقول: «احتفل الصهيوينيون فى فلسطين بتأسيس رجالهم وجميع الذين يعطفون على قضيتهم ويساعدونهم فى عملهم الاستعمارى وكان فى مقدمة المدعويين اللورد بلفور صاحب التصريح المشهور الذى أصدره باسم الحكومة الإنجليزية.. والذى بموجبه أعطت إنجلترا فلسطين لليهود الصهيوينيين رغم إرادة سكانها وضد كل شرع وعرف وقانون.

وقد لى بلفور الدعوة فقابله السكان فى كل مكان حل فيه بجميع الوسائل التى تعبر عن سخطهم وغضبهم واشتمزأهم من زيارته التى تشبه زيارة القاتل لآل القاتل، والمعتدى لضحيته.

فقد أعلن أهل فلسطين الإضراب العام بمناسبة وصول بلفور إلى بلادهم فأغلقت المتاجر والمصانع. والورش وحوانيت البقالة ووقفت السيارات وعربات الركوب وعربات النقل، وامتنع التلامذة عن حضور دروسهم والذهاب إلى مدارسهم.. ووضع أهل فلسطين شارات الحداد على دورهم ومتاجرهم».

«ولم يكن سخط الطبقة العاملة من اليهود على بلفور بأقل من سخط الفلسطينيين أنفسهم فقد شاركوا الأهالي بالإضراب وأرسلوا برقيات الاحتجاج، وأظهروا بكل الوسائل نفورهم من صاحب ذلك الوعد الاستعماري الذي يكرهه كل عامل لا فرق في المذهب والعنصر والدين...».

«وقد عرف أهل فلسطين الكرام أن ليس كل يهودى صهيونيا، وأن الصهيونية نوع خطر من الاستعمار يكرهه العامل اليهودى مثل ما يكرهه العامل الفلسطينى تماما، لأن العامل هو عامل قبل كل شيء وهو ضد الاستعمار ولو كان المستعمر أخاه كما قلنا.

وإننا نحى هذه النهضة البديعة فى فلسطين، ونأمل أن يواظب الفلسطينيون الكرام على أمجادهم وجهادهم فى سبيل استقلالهم بلادهم، وهم كمظلومين مرهقين عليهم أن يضعوا أيديهم فى أيدي كل طبقة من طبقات العمال فى أى بلد من البلدان فالطبقة العاملة مظلومة فى كل مكان، وكل مظلوم للمظلوم نسيب»^(١).

ولعل المشكلة الأيديولوجية الكبرى التى واجهت الرفاق المصريين فى ذلك الحين كانت تحديد الموقف من البرجوازية المتوسطة والصغيرة فى بلد كمصر، وطبيعة العلاقة مع كل منهما.

وبغير ما شك فإن كلمات ستالين كانت تمثل فى فترة كهذه بالنسبة لجميع الأحزاب بغير استثناء نقطة الانطلاق الأساسية فى أى عمل أيديولوجى فماذا قال ستالين...؟ فى عام ١٩٢٥ تحدث ستالين طويلا عن قضية المستعمرات قائلا: إنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام مؤكدا ضرورة معاملة كل قسم منها بأسلوب مختلف، وفى بلد كمصر والصين (مستعمرات الدرجة الثانية) «فإنه يتعين على الشيوعيين السعى لتأسيس كتلة ثورية (لاحظ الفرق الكبير بين الكتلة الثورية والجبهة الوطنية) من العمال والبرجوازية الصغيرة (يقصد بالبرجوازية الصغيرة الفلاحين أساسا)»^(٢).

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، إذ سرعان ما وقع الصراع الدامى فى الصين والذى تميز - إلى حد كبير - بطابع الغدر والخيانة من جانب البرجوازية الصينية ممثلة فى الكومنتانج.

وهكذا كان الموقف الجديد الذى تبناه مؤتمر الكومنترن السادس (١٩٢٨) والذى يعلن أن البرجوازية الصينية قد انتقلت وبصورة نهائية إلى معسكر الثورة المعادية وبصورة

تلقائية ارتبط تحليل الموقف فى مصر بالموقف فى الصين. وعملت البرجوازية المصرية تماما مثل البرجوازية فى الهند والصين باعتبارها مستعمرات من الدرجة الثانية وهى المستعمرات التى طالب ستالين شيوعيينها بأن يركزوا جهودهم لشن حرب لا هواده فيها ضد البرجوازية^(٣).

وهكذا فإنه وفقا لوجهة نظر ستالين والمؤتمر السادس للكونمترن فقد كان يتحتم على الحزب الشيوعى «أن يركز جهوده لشن حرب لا هواده فيها» ضد حزب الوفد. والحقيقة أن الحزب الشيوعى المصرى قد رفض ذلك وحاول قدر ما تسمح به طاقته وما يسمح به ثقله أن يقاوم هذا الاتجاه وأعلن من على منصة المؤتمر «عن اعتقاده أن البرجوازية الوطنية فى مصر لم تنتقل نهائيا إلى المعسكر العادى للثورة كما فعل الكومنتانج»^(٤).

والحقيقة أن الحزب المصرى لم يستطع أن يرسل مندوبا لحضور مؤتمر الكومنتانج السادس ولم يظهر فى وثائق المؤتمر اسم مندوب مصرى، لكنه يبدو أن الذى مثل وجهة النظر المصرية هو «حيدر» مندوب فلسطين ومن الواضح أن العلاقات بين الحزب المصرى والحزب الفلسطينى - السورى كانت وثيقة للغاية فى هذه الفترة.

وعلى أية حال فإن «حيدر» هو الذى تحدث حول مصر، وحول هذه القضية بالذات: قضية الموقف من البرجوازية الوطنية ومن حزب الوفد بالتحديد.. فماذا قال حيدر..

لقد بدأ حيدر تعليقه حول قضية الحركة الثورية فى المستعمرات بتوجيه انتقاد أساسى فقال: «أيها الرفاق: إن القضية العربية، والشرق العربى كله غائبان تماما عن هذه الجلسة، فقد تجاهلتهما التقارير المقدمة حول قضية المستعمرات».

ومضى حيدر ليتحدث عن أهمية القضية العربية وأعطى لمحة من ظروف المنطقة لكنه حاول أن يفند الفكرة التى سادت المؤتمر والتى سبق أن ذكرها ستالين ولم يجرؤ أحد على معارضته فيها وهى وضع مصر والصين فى مرتبة واحدة والنظر إليهما بمنظار واحد.

فقال حيدر: «إذا حاولنا المقارنة بين الحركة العمالية فى كل من مصر وسوريا وبين الصين لجابهتنا الحقائق التالية:

فى الصين نشط العمال وتحركوا كطبقة مع مطلع الحركة الثورية (حملة الشمال، هيئة شنگهاى) وكانوا منظمين بالفعل فى نقابات ولهم حزب متواجد بالفعل فى قلب الأحداث،

بينما نرى العكس تماما فى بلدان الشرق العربى حيث نجد أن العمال قد دخلوا الميدان متأخرين إلى حد كبير. لقد كان العمال مجرد وقود للمدافع خلال الانتفاضات الثورية فى كل من مصر وسوريا، بينما اختفى دورهم كطبقة مستقلة، كقوة منظمة، ولقد بدأ الحزب الشيوعى المصرى نشاطه، ليس بتكوين جبهة عامة «كومنتانج» وليس بمساندة زغلول باشا وإنما على العكس من ذلك بالهجوم عليه».

وبعد أن قدم «حيدر» تحليلا تفصيليا لحزب الوفد ودوره وموقف الشيوعيين منه قال: «إن الإمبرياليين يريدون الإبقاء على حزب الوفد كقوة معارضة، كجاء يكبحون به جماح العناصر الإقطاعية، لكنهم من ناحية أخرى يريدون للوفد أن يبقى داخل إطار معين ويرقبون بحذر بالغ «نفوذه الثورى»».

«والآن ما هو الموقف الذى يتعين علينا اتخاذه تجاه الوفد؟» هكذا يسأل حيدر ثم يمضى منتقدا موقف الكومنترن قائلا: «يتصور بعض الرفاق أن الدور الثورى لحزب الوفد قد انتهى تماما وأنه قد أصبح الآن قوة مناهضة للثورة، وأنه قد ربط نفسه بالقوى المناهضة للثورة، ولم يعد هناك ثمة مجال للحديث عن التحالف معه. لكننى أيتها الرفاق أعتقد أننا بمقاطعتنا للوفد سوف نقع فى النقيض الآخر وسوف نرتكب خطأ فادحا.

إننى أحدد واجباتنا فى مصر على النحو التالى: لا إعلان للتحالف مع حزب الوفد ولا إقامة لأية تنظيمات مشتركة معه، ولكن من الحتمى الاستمرار فى إقامة اتصال دائم مع الوفد، اتصالات مع قواعد الوفد للقيام بأعمال مشتركة محددة»^(٥).

لكن الاتجاه السائد فى الكومنترن كان هو أن الوفد مثله مثل الكومنتانج قد خان الثورة الوطنية و«ألقى بأعلام الحرية فى الوحل» كما قال ستالين.

وهكذا وبرغم المعارضة فقد كان الرفاق المصريون مضطرين لمسايرة الاتجاه، وقد كان استمرار اتخاذ الوفد موقف المتخاذل والمتهاون خير مشجع لهم على ذلك.

إن تتبع المقالات والدراسات التى تناولت دور الوفد فى هذه الفترة توضح لنا ذلك الصراع الذى كان يعتمل بين قرار الكومنترن وبين رؤية الرفاق المصريين للواقع المصرى. لكن ذلك لا يعنى أن الرفاق المصريين قد تناسوا أخطاء الوفد بل لقد ضاعفوا من هجومهم عليه وانتقادهم له، لرفضه الاعتماد على الجماهير.

«إن الوفد فى صراعه ضد حكومة محمود كان يرفع شعارا سياسيا محددا هو عودة الدستور، لكن الوفد لم يكن يضع فى اعتباره قوى الجماهير المصرية ونضالها ضد الديكتاتورية الحالية وإنما كان يعلق كل آماله على انتصار حزب العمال فى إنجلترا. بيد أن حزب الوفد قد حاول أن يلعب على الخلافات فى وجهات النظر داخل الوزارة البريطانية»..

«إن سياسى الوفد عندما يتحدثون عن الجماهير، فإنما يفعلون ذلك لمجرد تحقيق أهدافهم وبشرط أساسى وحاسم هو ألا تتمكن هذه الجماهير من ممارسة أى دور إيجابى للتأثير على أعمال الوفد.

إن رئيس الوفد النحاس باشا قد ركز فى خطابه الذى ألقاه بمناسبة مروة عشرة أعوام على تأسيس حزب الوفد، ركز على إصرار الحزب على عدم فتح الباب أمام الصراع الطبقي الذى وصفه بأنه يقود الشعب إلى الهاوية والهلاك»^(٦).

وتعليقا على الصراع الذى دار بين النحاس ومحمد محمود عقب الانقلاب الدستورى كتب أحد الرفاق المصريين مقالا بعنوان «بلا مخرج» جاء فيه: «بين رئيس الوزراء المصرى الحالى محمد محمود، ورئيس الوزراء السابق النحاس باشا (زعيم الوفد) توجد أزمة ذات طابع خاص. فمحمد محمود يقوم بجولات «مظفرة» فى أرجاء البلاد.. أما النحاس باشا الذى يحسد محمد محمود على هذا النجاح فقد أخذ يروج ويدعو لشعبيته الخاصة ولشعبية الوفد بين الجماهير..

إن هذه المسرحية ذات الخصائص الفريدة تجرى من أجل متفرج واحد هو المندوب السامى البريطانى اللورد لويد. فإن كلا من محمد محمود والنحاس باشا يحاول أن يقنع المندوب السامى البريطانى بأن حكم مصر ممكن بواسطته هو شخصيا».

ويمضى المقال مؤكدا: «لقد كانت إنجلترا بإهمالها لنداءات الجماهير العريضة فى مصر تعتمد أساسا على اعتقاد راسخ مؤداه أنه ما من جماعة من الجماعات السياسية المصرية تعارض معارضة حقيقية فى استمرار السيطرة البريطانية»^(٧).

لكن هذا الهجوم ضد حزب الوفد لم يكن هجوما مطلقا، بل على العكس من ذلك، فقد كان الرفاق المصريون يشعرون دائما أنهم أقرب إلى حزب الوفد من حكومة الانقلاب الرجعى، بل لعلهم كانوا يشعرون - فى بعض الأحيان - أنهم أقرب إلى الوفد منهم إلى

الحزب الوطنى، رغم أن الحزب الوطنى كان وفقا لتحليلهم الطبقي حزب مثقفى البرجوازية الصغيرة الراديكاليين.

«أما حزب المثقفين الراديكاليين (الحزب الوطنى) فقد تبعثر تماما بعد الانقلاب وقد قبض على مجموعة من أعضائه، لكن الجزء الأكبر من المجموعة المحدودة التى استمرت فى النشاط لجأت إلى حزب الوفد.

إن هؤلاء المثقفين الراديكاليين لم يستطيعوا اللجوء إلى الجماهير الشعبية، ولم يستطيعوا الاتصال بها، بينما استطاع الوفد أن يتصل بالجماهير وأن يحرك مشاعرها ونشاطها السياسى»^(٨).

وعندما ثارت قضية الأمير سيف الدين واستخدمت ضد الوفد بهدف إبعاده عن الحكم، كان الرفاق المصريون يعارضون حملة الحزب الوطنى على الوفد.

«لقد كان من الممكن بل من الواجب استخدام قضية الأمير سيف الدين كمادة لفضح الملك فؤاد كعميل للإنجليز. إن قادة الوفد (ومن بينهم النحاس باشا نفسه) دافعوا عن الأمير سيف الدين وأخذوا على عاتقهم هذه المهمة. أما قادة الحزب الوطنى فلأسباب مجهولة تماما عارضوا الوفد فى موقفه هذا. وفى البرلمان وقف زعيم الحزب الوطنى حافظ بك رمضان ليخطب قائلا: إن النحاس والمحامين الوفديين يقبضون أموالا طائلة ثمنا لتبنيهم قضية سيف الدين.»

وقد أمكن «فبركة» حملة واسعة وسط الرأى العام بواسطة الصحافة المصرية والانجليزية المأجورة حول هذه القضية. وكانت النتيجة سقوط حكومة الوفد.

وبعد ذلك حل البرلمان، وألغى الدستور، ووصل إلى السلطة عملاء الرجعيين عملاء المندوب السامى البريطانى. أما الراديكاليون من أعضاء الحزب الوطنى فقد ساعدوا الرجعية فى معركتها ضد الوفد، وبعد أن تحقق النصر للرجعية ذهبوا جميعا إلى أوروبا للراحة!!

وهكذا أصبح الميدان خاليا تماما للرجعية، ثم أعد مشروع معاهدة عار وذل مع إنجلترا»^(٩).

لكن هذا التعاطف المشوب بالحذر لم يرق أبدا إلى مرتبة الدعوة للتحالف أو التقارب أو حتى ما هو أقل من التحالف والتقارب.

فقد كان الرفاق المصريون لا يثقون مطلقا بالوفد، ولقد كان من حقهم ألا يثقوا فيه، فإن أعنف الضربات التي وجهت لهم وجهت في عهد حكومة الوفد.

لكن ثمة موقف يستحق الانتباه، فلقد انتقد الرفاق الوفد مرات عديدة لأنه لم يلجأ للجماهير لكنهم انتقدوه أيضا بل واتهموه عندما حاول - بطريقته الخاصة طبعاً - أن يحرك الجماهير..

«.. وفي مواجهة التحالف بين حزب الاتحاد (حزب كبار الملاك) وحزب الأحرار الدستوريين، كان الوفد يصّر على تأكيد إخلاصه لأهداف الأمة، ولعل أكبر مثال على ذلك حملة التوقيعات التي نظمها الوفد والتي انهالت فيها آلاف التوقيعات من مختلف أنحاء مصر على الملك مطالبة بعودة الدستور والبرلمان.

وقد شكل الوفد «مجموعة» من أعضائه لتنظيم حملة جمع التوقيعات هذه وقد نجحت هذه المجموعة بالفعل في تنظيم مسيرات ووفود يوم ١٥ مارس إلى القصر سار على رأسها نواب وشيوخ الوفد، وكانت المظاهرات الواسعة التي حشدتها الوفد تهتف «يحيا الملك». غير أن هذا الهتاف لم يمنع بوليس الملك من أن يصطدم بهذه المظاهرات.

إن المرء عندما يقرأ عن مظاهرات القاهرة في ١٥ مارس يتذكر على الفور المظاهرات الروسية التي حدثت في ٨ يناير ١٩٠٥. وهنا لا بد وأن يذكر كدمات ماركس «إن التاريخ يعيد نفسه في المرة الأولى كتراجيديا وفي المرة الثانية فارس»^(١٠).

ولسنا نعتقد أن هذا التشبيه كان صحيحاً.. فلا قادة الوفد كانوا مثل «القس جابون» الذي نظم مظاهرة ٩ يناير ١٩٠٥. والذي كان عميلاً للأوخرانا (البوليس السرى القيصرى) والذي دبر المظاهرة بإيعاز منها كسبيل لتوجيه ضربة للحركة العمالية وإخمادها^(١١) ولا مظاهراتهم كانت تدبيرا بوليسيا ضد مصلحة الجماهير.

لكن هذا التشبيه لم يكن مجرد موقف عابر ولا استعراض لمعلومات الكاتب، فقد تبلور فيما بعد في موقف بالغ الخطورة عندما انفجرت الإضرابات العمالية في هبتين عنيفتين ضد حكومة الديكتاتورية وكتصعيد عمالى وثورى لنداءات الوفد المتسمة بالاعتدال، فإن الرفاق المصريين قد اتخذوا تجاه الانتفاضتين العماليتين الثورتين موقفا سلبيا تماما بل وكما وصفه «أفيجدور» «موقف مشين للشرف الثورى».

«فالمنشور الوحيد الذى أصدره رفاقنا أيام الهبة لم يدع الجماهير لمواصلة النضال وإنما دعاهم إلى الاستسلام (دعوا هؤلاء الوفديين يخطبون ويطنطنون ويتصارعون ويموتون فانهم يفعلون ذلك من أجل مصالحهم الخاصة)، وهكذا لم يدرك الرفاق المصريون الأهمية الثورية القصوى لانتفاضة عشرات الالوف من العمال متبنين شعار الوفد الذى يدعو الجماهير للنضال من أجل الدستور.

ولم يستطع الرفاق المصريون أن يحشدوا قواهم (حتى تلك القوى التى يمتلكونها بالفعل) فى مشاركة نشيطة فى الانتفاضة ومن أجل قيادة حركة الطبقة العاملة والفلاحين»^(١٢).

وثمة مقال آخر يستحق الاهتمام كتبه ج. ب (جوزيف بيرجر) بعنوان «الموجة الجديدة من الانتفاضات فى مصر» يقول:

«ولكن ومهما كانت «الثورية» التى يتظاهر بها الوفد [كتب المقال أثناء معركة الوفد ضد قيام صدقى بإلغاء الدستور] فإنه يظل بعيدا عن تمثيل مصالح الجماهير، بل إن صحيفة مصرية قد شبهت مصطفى النحاس باشا بأنه «كيرنسكى».. إن الوفد ليس فى وضع يؤهله لحل المشكلات الاجتماعية للجماهير العريضة، إنهم يستغلون الجماهير، ثم يدعونها كى تبذل دماءها دفاعا عن الدستور.

ولكن ماذا يمكن للوفد أن يقدم للعمال فى صراعهم الاجتماعى الراهن؟

الإجابة: لا شئ. إنها خبرة ثلاث وزارات وفدية سابقة ١٩٢٤ - ١٩٢٨ - ١٩٣٠.

إن الوفد بقيادة تضم أمثال فتح الله بركات باشا وحمد الباسل باشا وهما يعتبران من أغنى أغنياء مصر لا يمكن أن يقدم شيئا للجماهير.. وفى ظل وضع كهذا يقع دور رئيسى وبارز على كاهل الشيوعيين المصريين، الذين يتعرض حزبهم لعداء كافة الحكومات المصرية أيا كانت.

إنه الحزب الشيوعى وحده الذى يستطيع أن يخلق الجيش الثورى للعمال، الذى سينهض بالثورة المصرية إلى مستوى جديد، مستوى النضال المباشر دفاعا عن مصالح الجماهير العاملة»^(١٣).

ونلاحظ فقط النسيان الكامل لطبيعة المرحلة، ولل قضية الوطنية..

وهكذا فقد أثمر هذا التصارع والشد والجذب بين موقف الرفاق المصريين وبين موقف الكومنترن، وذلك التردد المخيب للأمال دوما الذى وصم كل تحركات الوفد، وذلك الحقد

الذى كان يعتمل دوماً فى نفوس قادة الوفد ضد حركة الطبقة العاملة.. بالإضافة إلى تسلط محمد عبدالعزیز عمیل البولیس على مقدرات الحزب فى ذلك الحین.. أثمر كل ذلك موقفاً متخبطاً تجاه قضية من أعقد القضايا ومن أهمها على الإطلاق.

لكن هذا التخبط، وهذا الخطأ فى تفهم طبيعة الانتفاضة العمالية يجب ألا ينسيانا تلك اللامحات الذكية التى اتسمت بها بعض مواقف الرفاق المصریین تجاه الوفد والتى أشرنا إلى بعضها فى الصفحات السابقة..

وعلى أية حال فإن الموقف من البرجوازية المتوسطة ودمغها بأنها جزء من معسكر الثورة المضادة قد قاد بالضرورة إلى قضية أيديولوجية أخرى هى ما أسمى فى الأدبيات الماركسية فى هذه الفترة «بالكتلة الثورية».

فالجبهة والتحالف مع البرجوازيات مرفوضة، والبديل هو الكتلة الثورية من العمال والفلاحين». وحتى الحزب الوطنى الذى أسماه الرفاق حزب «مثقفى البرجوازية الصغيرة» فإن التحالف معه لم يستمر إلا فترة وجيزة جداً ثم ما لبثوا أن دعوا إلى «تفجير» من الداخل. «إن هذا الحزب الراديكالى ظل دوماً على الهامش بالنسبة لكل الأحداث السياسية المهمة، ولم يحاول أن يدرس أوضاع مصر دراسة جادة، ولم يقدم أية شعارات سياسية إيجابية، ولم يكن غريباً بعد ذلك أن يفقد احترامه، وأن يسقط من حساب الكثيرين كحزب سياسى حقيقى اللهم إلا بضعة مئات يشكلون مجموع عضويته».

«لقد مثل قادة الحزب الوطنى لسنوات طويلة دور حماة الجماهير الكادحة والمدافعين عنها. لقد حاولت البرجوازية الصغيرة الراديكالية عبثاً أن تقنع الجماهير بأن ممثلها لم يبتعدوا عن خشبة المسرح. لكن الصراع الدائر بين صفوف أعضاء الحزب أنفسهم، لم يكشف فقط عن مدى الضعف السياسى لقادة الحزب وإنما كشف أيضاً عن ضرورة البحث عن «مسارات» جديدة لحركة التحرر الوطنى.

وكلما تم الإسراع بعملية «تفجير» الحزب الوطنى من الداخل، كلما وجدت العناصر الشريفة داخل هذا الحزب بسرعة أكبر طريقها الصحيح نحو تأسيس الكتلة الوطنية الموحدة تحت قيادة حزب الطبقة العاملة»^(١٤).

والآن يبقى تساؤل مهم، كيف حاول الحزب أن يقيم هذه «الكتلة الثورية من العمال والفلاحين»؟

الحقيقة أن الرفاق المصريين قد بدأوا هذه المحاولة بداية واقعية تتفق مع حقيقة قواهم ومع إمكانياتهم.

فإذا كان من الصعب انتزاع جماهير الفلاحين من نفوذ الوفد للعمال ضمن كتلة ثورية سرية (بطبيعة الحال) فلا بد من إيجاد شكل من أشكال العلنية.

فأثناء انتخابات زيور حاول الرفاق تكوين نوع من التجمع العلنى باسم «لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين».

كانت مؤلفة كما تقول جريدة «الحساب»، «من بعض الغيورين الذين يهتمون بشأن الطبقة العاملة، وكانت قد عازمت على خوض المعركة الانتخابية بكل قواها إلا أنها ما باشرت إصدار منشورها الأول^(***).. حتى بادرت الجهات الإدارية إلى ضبطه ومنع طبعه وانتشاره، والتحقيق مع المسئول عن اللجنة مما اضطر أعضائها إلى السكوت حتى تظهر نتيجة التحقيق، وفى أثناء ذلك انتهت المعركة الانتخابية وتم للحكومة ما أرادت من الحيلولة دون انتشار حركة عمال كانت بلا ريب مفيدة لهم على أن أعضاء اللجنة لا يزالون متمسكين بمبادئهم وعند حسن ظن الطبقة العاملة بهم ولكن الظروف ألجأتهم إلى استعداد تام للعودة إلى الجهاد»^(١٥).

ثم عاود - الرفاق - المحاولة بشروعهم فى تأسيس حزب للعمال والفلاحين يكون واجهة علنية لتنظيمهم السرى.

وعلى صفحات مجلتهم «الحساب» بدأت الدعوة لتكوين حزب «العمال والفلاحين» وقد نجح مفكرو الحزب فى وضع صيغة مرنة - وطنية وثورية معا - لتكون أساسا فكريا للتجمع الجديد..

فإن الهدف الأساسى لتجمع - العمال والفلاحين - هو النضال لتحقيق الأمنى الوطنية.

«لقد تقهقرت الحركة الوطنية منذ أن خرجت من يد الطبقة العاملة من فلاحين وعمال وتسلمتها الطبقة الخاصة من الباشوات وأرباب الأموال والأراضى فإن هؤلاء قد انضموا إلى هذه الحركة بدافع من مصلحتهم الخاصة فبعضهم خاف نجاحها وانتقام أربابها منه وبعضهم رأى الاندفاع فيها جرا لمغنم وطمعا فى منصب، وبعضهم انساق مع التيار غصبا عنه، وبعضهم رأى الفرصة مناسبة لتسويد نفسه وجعل ذاته زعيما فاغتنم الفرصة وهلم جرا».

لقد كان من الضروري تقديم مبرر - وطنى - لإعلان منبر جديد.
فالجماهير التى التفت حول الوفد خلال ثورة ١٩١٩ ظلت لفترة طويلة تنظر بعين الشك
تجاه أى منبر جديد وتعتبره تجمعا «انقساميا».

كذلك فإن «القضية الوطنية» كانت تمثل - منطقيا - المنطلق الأول لأى تجمع وطنى وثورى..
ومن هنا فإن «الرفاق» ركزوا هجومهم على الأحزاب القديمة ومطالبتهم بتكوين تجمع
جديد ليس على أساس طبقي فقط، وإنما فى المقام الأول على أساس وطنى.. معلنين على
الملا فشل احزاب البرجوازية فى نيل الاستقلال الوطنى، ومن ثم فلا بد من قيام تجمع
جديد من أصحاب المصلحة الحقيقية فى الاستقلال.

«فأحزاب مصر اليوم ليست سوى جماعات سياسية تعمل بدون غاية ولا مبدأ وتسير
حسب الظروف وتقلب الأحوال فتكون تارة متطرفة وتارة معتدلة وتتحد تارة مع العناصر
الرجعية وتسكت حيناً عن بعض مطالبها وتغالى أحيانا فى الطلب ولا هم لأفراءها إلا
الحصول على الوظيفة والمنصب.

وأخيرا فإن «الطبقة العاملة من عمال وفلاحين لا يمكنها الانتظار إلى ما شاء الله حتى
يقضى حزب على آخر وينتصر الوطنيون الحقيقيون على الوضنيين المزيفين.. ثم يتفرغ
الظافرون للنظر فى شؤونها وإجابة مطالبها»^(١٦).

غير أنه من المتعين أن نلتفت باهتمام بالغ إلى المحتوى الطبقي للتجمع الذى سعى
«الرفاق» لتكوينه.

فبرغم أنه كان من ناحية المظهر التزاما بخط الكومنترن « لكثلة الثورية من العمال
والفلاحين» إلا أنه فى الواقع، ومع تسليمه الكامل بضرورة قيادة الطبقة العاملة وكسب
فقراء الفلاحين.. قد فتح أبوابه ليستقبل قوى طبقية أخرى غير العمال والفلاحين..

وهكذا وفى دراسة ممتعة ودقيقة قدمها «الرفاق» على صفحات مجلة الحساب حول
التقسيمات الطبقية فى مصر.. أكدوا أن الحزب المنشود «يجب أن يتألف من مختلف
طوائف عمال المدن ومن عمال الأرياف الذين يشتغلون فى الزراعة وتوابعها، على أن تكون
هاتين الطبقتين طبقتي عمال المدن وعمال الأرياف هما أساس وأركان وجدران الحزب.

وبعد ذلك لا بأس من قبول بعض أبناء الطبقات الأخرى الذين لا يتنافى وجودهم مع
الغاية التى أنشئ الحزب مع أجلها كما سنبين فيما بعد».

أما الطبقات الأخرى التى يمكن ضم بعض أبنائها فقد أشارت الدراسة إلى أنها تضم المثقفين، لأنه «معلوم أن فى مصر عدا كبيرا من الناشئة الجديدة المتعلمة لا تجد أمامها عملا إلا وظائف الحكومة لأن الصناعة غير متقدمة فى مصر.. ولأن المعامل التجارية بيد الأجانب الذين لا يستخدمون إلا أجانب مثلهم.. والحكومة لا يمكنها أن تستخدم كل تلميذ يغادر المدرسة كما لا يخفى. فهذه الناشئة المتعلمة متى كانت من أبناء غير الأغنياء تميل بطبيعتها وبدافع مصلحتها نحو الطبقة العاملة أكثر مما تميل نحو أية طبقة أخرى».

وهناك أيضا فقراء ومتوسطو الفلاحين الذين يعانون القهر والاستغلال بالرغم من أنهم يملكون أرضا..

«فكل أفراد الفلاحين الفقراء يندمجون طبعا فى حزب العمال وعدد كبير من طبقة الفلاحين المتوسطين.. مضطرا إلى الاندماج فيه أيضا وإن لم تكن مصلحته هى مصلحة طبقة العمال إلا أن عليه أن يختار بين الانحياز إلى كبار المالكين من أصحاب الأطنان وتعريضهم والاندماج فى مسلكتهم حتى يصبح عبدا لهم وذنبا لطبقتهم أو الانحياز إلى العمال فيربح هو من تعريضهم إياه ولا يكون مرؤوسا منهم على الأقل.

ثم أرباب الصناعات الصغيرة وأصحاب المهن الذين يعملون بأنفسهم دون استخدام سواهم فى اشغالهم».

ثم تمضى الدراسة لتقول «وهكذا نرى أن لدينا خمس طبقات من طبقات الأمة أو الأخرى خمس هيئات كبرى من هيئاتها يجب أن تندمج فى حزب العمال وهذه هى حسب قربها إليه: طبقة العمال فى المدن والأرياف، طبقة الفلاحين الفقراء.. طبقة الناشئة الجديدة.. طبقة أصحاب الصناعات الصغيرة طبقة الفلاحين المتوسطى الحال».

لكن الدراسة تعود فتؤكد مرة أخرى - وفى حرص بالغ «أن العمود الفقرى للحزب وماغه المفكر وقلبه النابض يجب أن يكون من العمال وعلى قانون الحزب الاحتياط الشديد لعدم تمكين بعض أفراد الطبقات الأخرى التى تندمج فى الحزب من السيطرة عليه والتلاعب بمصالحه بل يجب أن يكون الحزب حزب عمال، للعمال ومن العمال، أما من ينضم إليه من أبناء الطبقات القريبة جدا من الطبقة العاملة فيجب أن يبقى دائما تابعا للحزب إلى حد ما ولكن على كل حال يجب أن تكون وتبقى السيطرة فى الحزب للعمال وحدهم»^(١٧).

لكن كل هذا التشدد - الذى كان لا بد لإعلانه من أن يترك بصمة الانعزالية على الحركة لم يعجب البعض الذين راحوا يهاجمون فكرة «الحزب العلنى للعمال والفلاحين».

وفى نفس الوقت الذى كانت الرجعية المصرية تبذل أقصى جهدها لإجهاض المولود الجديد، والزج بدعائه إلى السجن وإغلاق صحيفتهم «الحساب».. فإن الانتقادات كانت تتصاعد من الناحية الأخرى.

ومن فوق منصة المؤتمر السادس للكونترن وقف «حيدر» ليهاجم هذه المحاولة قائلاً:

«حيدر» - لقد تكلم البعض حول تكوين حزب للعمال والفلاحين. وهذا خطأ وخيال محض. ليس فقط لما يحمله من خطر يهدد بتحويل الحزب الشيوعى نفسه إلى حزب للبرجوازية الصغيرة ثمنا لتحالفه مع الفلاحين، ولكن أيضاً لأن تكوين مثل هذا الحزب مستحيل.

ذلك أنه لا يوجد مثل هذا الحزب الشيوعى، ولا هؤلاء الكوادر التى تستطيع التصدى للقيام بواجب تنظيم الفلاحين، غير أن قضية الفلاحين يجب أن تعالج بطريقة أخرى تماماً، وأنا أعرض مثلاً فكرة تكوين لجان الفلاحين، جمعيات تعاونية.. وغيرها من المؤسسات الاقتصادية مثل جمعيات المعونة المتبادلة.. إلخ. وهى تنظيمات يمكن أن تضم عمال الزراعة وفقراء الفلاحين والمزارعين ويتعين علينا أيها الرفاق أن نضع فى اعتبارنا أن الفلاح المصرى يعمل ستة أشهر فى السنة كأجير والستة أشهر الأخرى كمالك ومن ثم فإنه من الصعب وضع خط فاصل يميز العامل الزراعى عن المالك الصغير.

«فاسيلييف» (من فوق المنصة): كيف يمكن ضم مثل هذه العناصر إلى الحركة التعاونية؟

«حيدر»: إن لهم مصالح مادية مشتركة، فالفلاح يعانى من المضاربين ويعتمد على المرابين، وثمة حركة تعاونية قوية موجودة بالفعل بمساندة الحزب الوطنى ويتعين علينا أن نستخدم هذه الحركة كمنطلق لنشاطنا^(١٨).

وهكذا ومن سياق الحديث يتضح أن النقاش كله كان يدور حول مصر وحول جهود الرفاق المصريين لتأسيس منبر علنى للعمال والفلاحين. فحيدر يشير إلى جهود الحزب الوطنى فى الحركة التعاونية المصرية.

وأخيراً..

وكمحصلة - طبيعية - لعوامل عديدة أهمها تزايد ضعف الحزب وتناقض كوادره تحت وطأة البوليس المستمرة، وكثيرا ما يؤدي ضعف الحزب وعزلته عن العمل الجماهيري إلى سيادة شعارات يسارية ومتشددة داخل صفوفه..

وتزايد تردى الوفد والحزب الوطنى فى هاوية التهادن والانعزال عن المصالح الحقيقية للوطن والجماهير..

وتزايد ضغط - كوادر - الكومنترن على الحزب لكى يتخذ من حركة الجماهير موقفا «ثوريا» بمعنى السعى لتصفية نفوذ الوفد فيها وإقامة كتلة ثورية من العمال والفلاحين..

كمحصلة - طبيعية - لكل هذه العوامل أصدر الحزب برنامجه عام ١٩٣١ تحت عنوان «برنامج عمل للحزب الشيوعى المصرى»^(١٩).

وبعد أن أورد البرنامج فى صفحاته الأولى وصفا بالغ الدقة والصدق للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع المصرى، وعن الحالة المعيشية لجماهير العمال والفلاحين والظروف الصعبة التى يعيشون فيها. أورد تحليلا للأحزاب السياسية الموجودة فى مصر فى ذلك الحين.

«حزب الاتحاد هو حزب عملاء السراى، وكبار البيروقراطيين وكبار الإقطاعيين. وحزب الشعب هو حزب أصحاب الملايين من البرجوازية الكومبرادورية ومصدري الأقطان. وحزب الأحرار الدستوريين هو حزب البرجوازيين من رجال الأعمال والمرايين ومضاربى البورصة. وكل هذه الأحزاب تخفى خلف أسمائها ووعدوها البراقة عبودية وخضوعا للإمبريالية الإنجليزية وللاتجاهات الأكثر رجعية.

وحزب الوفد هو حزب البرجوازيين والملاك الزراعيين من الوطنيين الإصلاحيين المعادين للثورة، وهو يضم فى صفوفه الرأسماليين الأغنياء والمحامين والمضاربين والملاك الزراعيين الليبراليين، الذين يلجأون من فرط خشيتهم من ثورة الشعب إلى التواطؤ إلى درجة كبيرة مع الذين يستعبدون مصر، طمعا فى أن يحصلوا فى المقابل على بعض الفتات.

إنه الحزب الذى يضلل جماهير الشعب، إنه حزب الخيانة الوطنية»^(٢٠).

وإذا كانت احزاب الإقطاع وأصحاب الملايين من الكمبرادوريين وكبار البيروقراطيين والمرايين، عملاء السراى والاستعمار قد حظيت من البرنامج بستة أسطر فقط، فإن حزب الوفد قد حظى بعشرات من الأسطر تهاجمه وتتهمه وتدينه.

وليس هذا غريبا وفقا لنظرية ستالين حول ما أُسمى «باتجاه الضربة الرئيسية» التي يجب أن تسد لعزل نفوذ البرجوازية عن جماهير العمال والفلاحين وهكذا يمضى البرنامج ليصم الوفد بأنه «يساوم للحصول على مكاسب تافهة وغير مهمة من الإمبرياليين ومن عصابة فؤاد فى مقابل تعزيز واقع الرأسماليين والإقطاعيين على حساب العمال والفلاحين.

إنه يخوض المعركة ضد فؤاد وضد صدقى باشا، لكنه فى واقع الأمر يحاول امتطاء حركة التحرر الوطنى التى تخوضها جماهير الشعب بهدف تميميع النضال الثورى، ومن أجل المساومة لحساب البرجوازية والإقطاع.

ان حزب الوفد لا يعارض فحسب أى نضال جاد من أجل استقلال مصر ومن أجل الإطاحة بالنظام الملكى ومصادرة أملاك الإقطاعيين ومن أجل يوم عمل من ثمانى ساعات بل إنه يسعى إلى امتطاء حركة الجماهير وقيادتها مستهدفا إضعاف هذه الحركة وسحقها ثم خيانتها وبيعها.

إن كل تاريخ الوفد منذ ١٩١٩ هو تاريخ صراعه ضد العمال لثوريين والفلاحين وضد كل الكادحين بوجه عام.

وعندما كان الوفد متوليا زمام السلطة قام بتدمير كل المنظمات الطبقيّة للعمال وكل المنظمات الثورية.

كما أن الوفد قد عقد صفقة مع الإمبريالية الإنجليزية فى عام ١٩٣٠ باع فيها حرية مصر واستقلالها، غير أن هذه الصفقة لم توقع بسبب الاختلاف على بعض المسائل الشكلىة الخاصة بالوزارة.

ولقد كان الوفد على أتم استعداد لعقد أية صفقة مع الإمبريالية بشرط أن تتخذ طابعا دستوريا.

إنه حزب معاد للجماهير، وينتهج سياسة معادية للثورة، حزب أعلن على لسان النحاس باشا استعدادة لخوض الحرب ضد الاتحاد السوفييتى لحساب المصالح الإمبريالية البريطانية. أن شعارات الوفد تساعد الإمبريالية والسراى على ضرب وسحق حركة الجماهير. ولقد تظاهر الوفد لسنوات طويلة بأنه يناضل من أجل استقلال مصر محذولا أن يخدع الجماهير بالوعود. وعندما لجأت الإمبريالية الإنجليزية إلى فؤاد لتستخدمه ستارا

لحكمها، تعالت صيحات الوفد بشن النضال من أجل «الحرية الدستورية» لكنه لم يجرؤ على دعوة الجماهير للنضال للإطاحة بالملكية الفاسدة. وعاد الوفد من جديد ليتظاهر بالعداء للإمبريالية الإنجليزية. لكنه فى واقع الأمر كان يسعى جنبا إلى جنب مع الإمبرياليين وعملائهم من المصريين للبحث عن مخرج من الأزمة من خلال مزيد من القهر والعبودية لجماهير الشعب. لكنه حرص فى نفس الوقت على إخفاء هذا الموقف خلف شعارات «معارضة»^(٢١).

وفى موضع آخر من «البرنامج» نرى هجوما أشد قسوة «الرأسماليين المصريين والملك الليبراليين» يريدون نوعا محددا من الحرية لمصر بحيث لا يمكن لأى عامل أو فلاح أن يستمتع بحريته فى ظلها، إنهم يريدون نوعا محددا من «الاستقلال» لمصر بحيث يمكنهم أن يلعبوا فى ظله دور العملاء الذين يقهرون الجماهير الكادحة لحساب الإمبرياليين.

والحقيقة، أنه لا يمكن أن يكون هناك نضال ثورى ناجح وقادر على الانتصار بغير انفصاله انفصالا تاما عن حزب الوفد، بل وبدون شن نضال عنيف وحاد ضده.

إن بين معسكر الوفد ومعسكر الشعب (معسكر النضال ضد الإمبريالية ومن أجل الثورة الزراعية الفلاحية) هوة سحيقة لا يمكن اجتيازها.

ولكى يمكن الإطاحة بالقهر الإمبريالى فإنه يتعين أولا أن ندمر نفوذ الوفد وسط الجماهير، نفوذه وسط العمال والفلاحين والبرجوازية الصغيرة.

وإذا كان البرنامج يرى أن الهوة التى بين الوفد وبين الجماهير هوة سحيقة ولا يمكن اجتيازها فإنه يؤكد فى موضع آخر «إن بين معسكر الوفد وبين معسكر الإمبريالية وعميلتها السراى توجد روابط قوية»^(٢٢).

ولسنا بطبيعة الحال بحاجة إلى تأكيد مدى «انعزالية» هذا البرنامج وبعده عن الواقع فى تحليل الوفد وطبيعة مواقفه.

لقد قاوم - كوادى الحزب - لعدة سنوات الموقف الستالينى الذى تبناه الكومنترن، لكنهم ما لبثوا أن استسلموا تماما فى النهاية، ولقد كان استسلامهم تعبيرا عن الضعف التنظيمى والفكرى الذى أصاب الحزب على إثر الضربات البوليسية المتتالية، كما أنه كان ايزانا بمزيد من الضعف التنظيمى والفكرى. ولعل خير دليل على أن هذا البرنامج قد

وضع تحت تأثير كوادركومنترن أن مقال أفيجدور السابق الإشارة إليه يطالب «بحل ثورى للأزمة» فإذا بالبرنامج يعنون فصلا كاملا فيه «النضال من أجل حل ثورى للأزمة»^(٢٣).

وبطبيعة الحال فقد انعكس ذلك كله على مطالب البرنامج..

«على البروليتاريا المصرية والكادحين والفلاحين المستغلين ألا ينتظروا أن يمن عليهم أحد بمطالبهم، ذلك أن برنامجهم هو برنامج ثورة، ثورة تتطلب تضحيات ونكران ذات لكنها توصل حتما إلى الهدف المنشود..

إن مطالبنا الثورية الأساسية هي:

- ١- طرد الإمبرياليين الإنجليز وقواتهم البرية والبحرية والجوية من مصر والسودان.
- ٢- الاستقلال الاقتصادى والسياسى التام وغير المشروط لمصر والسودان. مع الضمان الكامل لحق السودان فى تقرير مصيره.^(x) - النضال من أجل تحرير كل الشعوب العربية من القهر الاستعماري ومن أجل وحدة عربية شاملة تنتظم فيها كل الشعوب العربية الحرة^(xx) - إلغاء كل الامتيازات التى يستمتع بها الإمبرياليون - الإطاحة بالنظام الملكى وهدم الجهاز البيروقراطى العتيق الذى يضم العمد ومجالس المدبريات الزائفة والبوليس - الشعب هو الذى يختار القضاة - **تسليح الكادحين** حتى يستطيعوا الدفاع عن استقلالهم الوطنى ومكتسباتهم العمالية - **حرية الصحافة للعمال** - فصل الدين عن الدولة وفصل القضاء عن الدين.

(ولعل أوضح دليل على انعزالية هذا البرنامج هو تصميمه على أن القضية الوطنية لا تهم إلا العمال وحدهم.. فالعمال يتسلطون للدفاع عن استقلالهم الوطنى، وحتى حرية الصحافة لا تهم إلا العمال فهو لا يطالب بحرية الصحافة عموما.. وإنما حرية الصحافة للعمال، مع ملاحظة أن هذا البرنامج قد وضع فى عام ١٩٢١ فى ظل إرهاب صدقي الذى انصب على المصريين جميعا وفى ظل مصادرة كل الصحف غير الموالية للحكومة بغير حساب).

- ٣- حكومة سوفيتية للعمال والفلاحين. نظام سوفيتى.

٤- مصادرة جميع الأراضى والماشية والأدوات الزراعية المملوكة للإمبرياليين وللاك الأرض والمرايين والملك وكبار البيروقراطيين والاقواقف (بما فيها الاوقاف الأهلية) بدين أى

مقابل. وتوزيعها على عمال الزراعة وعلى فقراء الفلاحين ومتوسطيهم الذين لا يستغلون عمل الآخرين.

٥- تأميم جميع مشاريع الري وما يتعلق بها من آلات مثل (المضخات.. إلخ) وضمان رى أراضي فقراء الفلاحين مجانا.

٦- مصادرة وتأميم كل البنوك والمؤسسات الصناعية المملوكة للإمبرياليين. وإلغاء كافة الديون الخاصة بالدولة والامبرياليين.

(ويلاحظ هنا أن البرنامج يتخذ موقفا صحيحا من الرأسمال الوطنى فهو يطالب بتأميم بنوك ومؤسسات وإلغاء ديون الإمبرياليين وحدهم).

٧- إلغاء كافة الديون الربوية والديون المبنية على الغش - وإسقاط كافة الديون عن كاهل الفلاحين - وإلغاء الرسوم والضرائب التى تثقل كاهل الكادحين. فرض ضرائب تصاعدية على دخول الأغنياء.

٨- حرية العمال والكادحين فى تأسيس منظماتهم، وحرية العمل لجميع هذه المنظمات - يوم عمل ذى ثمانى ساعات - الأجر المتساوى للعمل المتساوى بغض النظر عن القومية أو الجنس - وضع حد أدنى للأجور - يوم عمل من أربع ساعات للأحداث من سن ١٤ إلى ١٦ سنة، وست ساعات من سن ١٦ إلى ١٨ سنة - منع تشغيل النساء والأطفال ليلا - تأمين اجتماعى ضد المرض والشيخوخة والبطالة والعجز - تطوير جذرى للإسكان - تنظيم وقاية العمال من إصابات العمل.

٩- التعليم العام المجانى للعمال والفلاحين.

(ويلاحظ أن المطالبة كان يجب أن تمتد لتشمل جماهير الشعب كله وليس مجرد العمال والفلاحين الذين لم يكونوا محرومين وحدهم من التعليم).

١٠- التحالف مع الاتحاد السوفييتى ومع الحركة الثورية للبروليتاريا العالمية، ومع نضال كادحي المستعمرات^(٢٤).

(ويلاحظ أن البرنامج لم يدع إلى التحالف مع حركة التحرر الوطنى فى المستعمرات وإنما فقط مع نضال كادحي المستعمرات).

وهكذا وبالرغم من اللمحات الذكية فى البرنامج، وبالرغم من تعبيره تعبيرا قاطعا عن كثير من المطالب العمالية والفلاحية التحتية، بحيث يعتبر إدراجها فى البرامج كافيا بذاته

على التدليل على التصاق الحزب بالمطالب الفعلية لجماهير العمال والفلاحين، إلا أن الموقف الأيديولوجى العام من البرجوازية الوطنية والتشدد العنيف تجاهها والتصميم على أن المجال الوحيد لأى عمل ثورى فى مصر لا يمكن أن يوجد إلا فى إطار «الكتلة الثورية للعمال والفلاحين» قد دفع البرنامج وحركة الحزب ككل إلى منعطف انعزالى.

إن الكلمات الحماسية مثل «إن العمال المصريين يتمسكون بحزم بقضيتهم قضية العمل.. قضية الأممية الشيوعية، أن عمال بورسعيد والسويس والقاهرة والإسكندرية أن عمال بولاق الذين أقاموا المتاريس فى الشوارع عام ١٩٣١ أن الآلاف المؤلفة من البروليتاريين من عمال الزراعة والفلاحين الفقراء ذوى الوعى الطبقي أن هذه القوى لا يمكنها مطلقا أن تفشل فى بناء حزبها الثورى البروليتارى المقاتل، حزبها الذى يقود نضالها من أجل ثورة مناهضة للإمبريالية والاقطاع من أجل نظام سوفيتى لحكم العمال والفلاحين، ذلك النظام الذى سيضع الأساس لتعزيز قوى الثورة وتعزيز النضال من أجل إقامة ديكتاتورية البروليتاريا والاشتراكية»^(٢٥). إن مثل هذه الكلمات وكل هذا الحماس الدافق، لم يكن ليغير من حقيقة الأمر شيئا، وهى أن مصر وهى بلد شبه مستعمر كانت ظروفها الموضوعية تفرض نوعا آخر من المجابهة لقضية البرجوازية الوطنية.

وإن حزب الوفد - بالذات - وبغض النظر عن كل أخطائه وبغض النظر عن كل تحفظاته ضد العمل الثورى الجاد، وعن كل حملاته ضد الاشتراكية، كان من المتعين النظر إليه نظرة أخرى..

وعلى أية حال..

فإن صفحات هذا الفصل لم تكن محاولة لاستقصاء أهم المواقف الفكرية للرفاق المصريين فى فترة صعبة ومعقدة.

وليس محاولة لإخضاع هذه المواقف للنقد والتحليل، بقدر ما هى محاولة لوضع هذه المشكلات الأيديولوجية فى إطارها البالغ التعقيد والبالغ الصعوبة.

لعل ذلك يمكننا من أن ندرك حقيقة المشاكل والصعوبات التى أحاطت بكوادر الحزب وهم يحاولون - برغم كل شئ - أن يؤسسوا وسط المناخ الفكرى المصرى خطا واضح المعالم للاشتراكية العلمية.

الهوامش

- (١) الحساب ١٠/٤/١٩٢٥.
- (٢) Joseph Stalin - Marxism and the National and Colonial question - Lon - don, 1947 - pp.216.
- (٣) M.S Agwani - Communism in the Arab East Asia Publishing House, Bombay - pp 6.
- (٤) Ibid - pp.7: Revolutionary Movement in the Colonies and Semi - Colonies: Thesis Adopted by the Six - th Congress of the Communist internaitonal, 1928 (Bomby, 1948) pp.33-5.
- (٥) International press Correspondence - The Discussion on Comarade Bukharin,s Be- port - No :72 - 17/10/1928 - pp7311.
- (٦) ريفولوسيوني فوستوك. (العدد ١ عام ١٩٣٢) مقال - أ.شامى بعنوان مصر بعد الانقلاب ص ٢٧٦ (مترجم عن النص العربى).
- (٧) أ. الجبالى. مقال «بلا مخرج» - مجلة ريفولوسيوني فوستوك المرجع السابق - راجع النص كاملا بالملاحق.
- (٨) أ.شامى. المقال السابق الإشارة إليه.
- (٩) أ. الجبالى - مقال «الحزب الذى يثرثر كثيرا» - مجلة ريفولوسيوني فوستوك - العدد ٢ - عام ١٩٣٢ ص ٢٨٨ (مترجم عن النص الروسى). راجع النص الكامل للمقال بالملاحق.
- (١٠) أ.شامى. المقال السابق.
- (١١) History of the Communist party of the Soviet - Second' revisee edition - Moscw - pp.88.
- (١٢) أنفيجيدور - مقال الأزمة والمد الثورى فى مصر - العدد ٢ لعام ١٩٣٢ من مجلة ريفولوسيوني فوستوك ص ١٠٢ (مترجم عن الاصل الروسى) راجع الملاحق.
- (١٣) the Labour Monthly - vol 12 No12 - December 1930.
- (١٤) أ. الجبالى. مقال «الحزب الذى يثرثر كثيرا» - المرجع السابق.
- (*) راجع النص الكامل فى الملاحق.
- (١٥) الحساب ١٠/٥/١٩٢٥.
- (١٦) الحساب ٨/٥/١٩٢٥.
- (١٧) الحساب ١٨/٥/١٩٢٥.
- (١٨) International press Correstpondence - No: 72. pp.1311.

(١٩) نشر هذا البرنامج كاملا بالانجليزية فى كتاب

Ivor Spector - The Soviet Union and The Musim World 1917 - 1958 - University of Washington Press Seattle, 1959 - pp: 141-156.

نقلا عن

Documents of The Programme of The Communist Parties of The East - Edited By: L. Madyar - P.MIF - M.Orakhelashvili - G.Safarov - Party Publication - Moscow - 1934. Revolyustionnyi Vostok.

وقد أورد «سبكتور» فى نهاية البرنامج أنه نشر فى مجلة (الشرق الثورى) عدد ٢٠١ لعام ١٩٣٢ - لكنه بالبحث فى هذين العددين لم يعثر على البرنامج. وبالرغم من غرابة هذا الأمر فإنه لا يقلل من قيمة هذه الوثيقة. ذلك أن التمعن فى دراستها يعطى انطبعا كافيا بصحتها. وربما خطأ «سبكتور» فى إيراد رقم العدد أو تاريخه. وقد نشر إلياس مرقص «الأممية الشيوعية والثورة العربية» - دار الحقيقة ببيروت، ترجمة رديئة وغير دقيقة للنص الكامل للبرنامج.

(٢٠) Spector - pp: 144.

(٢١) Ibid - pp: 145.

(٢٢) Ibid - pp: 147.

(٢٣) Ibid - pp: 146.

(**) عندما رفعت ح. م (الحركة المصرية للتحرير الوطنى) فى مطلع الأربعينيات شعار الكفاح المشترك مع الشعب السودانى مع ضمان حقه فى تقرير مصيره فى مواجهة شعار البرجوازية «تاج واحد، ملك واحد، نيل واحد» تصور الكثيرون أنها كانت البادئة برفع هذا الشعار التقدمى ولعل هذا يوضح كيف أن التراث الفكرى والنضال لرفاق الثلاثينيات كان مطموسا إلى حد كبير.

(***) إنها المرة الأولى التى يظهر فيها شعار الوحدة الشاملة بين الشعوب العربية الحرة فى أية وثيقة سياسية لأى حزب مصرى.

(٢٤) Ibid - pp: 151.

(٢٥) Ibid - pp: 144.

كلمة أخيرة..

اعتاد الكتاب أن يضعوا فى نهاية كتاباتهم نقطة تدل على الانتهاء. لكننا لم ننته بعد. بل ربما كانت الصفحات الماضية مجرد بداية لتفهم موضوع البحث. فثمة موضوعات كثيرة يجب أن تدرس. وثمة تساؤلات عديدة لم يجب عليها بعد. ومحاضر النقاش التى سجلت أقوال شخصيات مهمة لعبت دورا أساسيا فى تطورات الأحداث وصنعها بحاجة إلى من يخضع ما فيها من أقوال ومواقف للتحليل والمقارنة والانتقاد^(*) واستقصاء ما فيها من معلومات وبيانات بالغة الأهمية وبالغة الدلالة. لكننى قلت منذ البداية انى لا أريد أن أضع نفسى حكما بين هؤلاء الرجال. فما اسهل أن يمسك المؤرخ بقلم «المدرس» الأحمر ليشير بعلامة (صح) أو بعلامة (خطأ) غير مدرك أن هذا الحدث أو ذاك والذى لم يتمهل طويلا فى تقييمه هو نتاج عرق وجهد عشرات من الرجال البواسل خاضوا تجربة شاقة ومريرة لايمكن للإنسان أن يتخيل مدى قسوتها ومرارتها.

وإذا كنت لا أجد فى نفسى الشجاعة كى أمسك بالنسبة لهؤلاء الرجال بقلم «المدرس» فإنه يكفينى أننى كرسيت كل ما أستطيع من جهد لجمع هذه المواد وتقديمها للباحثين

والقراء معا.. فلعلها تحظى منهم بمزيد من الدرس والتقييم.
ولئن كان كل ما بذلت من جهد متواضع هو مجرد سبيل لجذب أنظار مزيد من
الباحثين والدارسين نحو هذا الموضوع البالغ الأهمية، فإن هذا يكفيني.. ويزيد.

(*) لقد حرص المؤلف أن يعرض وجهات النظر المختلفة لممثلي جميع الاتجاهات التي تواجدت في هذه
الفترة وقد نجح إلى حد كبير في التوصل إلى مقابلة ممثلي مختلف الاتجاهات باستثناء هليل شوارتز
الذي اتصل به المؤلف خلال وجوده في باريس لكنه رفض التحدث عن ماضيه في مصر قائلا: إنه قد
نسى كل شيء عنه.

القسم الثالث ملاحق

- ١- وثائق أيديولوجية
- ٢- أوراق قضائية
- ٣- وثائق حول موضوع سكلالات
- ٤- تقارير شخصية ومحاضر نقاش

(١) وثائق أيديولوجية

- برنامج لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين
- بلا مخرج - مقال - أ. الجبالي
- الحزب الذى يثرثر كثيرا - مقال - أ. الجبالي
- برنامج ديكتاتورية محمود فى مصر - مقال - ح. ب
- الأزمة والمد الثورى فى مصر - مقال - أفيجدور
- موقف اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى فلسطين وسوريا من الانقلاب فى مصر

لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلّاحين(*) «برنامج»

أولاً: الاستقلال التام لمصر والسودان بلا قيد ولا شرط.

ثانياً: رفع الرقابة الأجنبية عن المالية المصرية.

ثالثاً: إعادة العلاقات السياسية والتجارية بين مصر باعتبار أنها دولة مستقلة وبين جميع الدول على الإطلاق ومنها تركيا وروسيا وبلغاريا.. إلخ كما كانت الحالة من قبل الحرب.

رابعاً: إجبار الحكومة والمجالس البلدية على مشتري جميع الشركات التي تقوم بأعمال ذات منفعة عامة مثل السكن الحديدية والماء والغاز والترام والكهرباء.. إلخ.

خامساً: احترام كافة الحريات التي نص عليها الدستور وتنفيذ نصوصه، مثل: حرية الصحافة - حرية الأفكار - حرية الاجتماعات - حرية الأحزاب.

سادساً: تنفيذ نصوص الدستور بشأن التعليم الأولى الإلجبارى المجانى وتوسيع نطاق المشاريع الصحية وتعميم المستشفيات فى أحياء الفقراء والفلّاحين.

سابعاً: إلغاء الضرائب غير المباشرة على المواد الأولى الضرورية للمعيشة مثل الخبز والخضار واللحم والماء.. إلخ.

ثامناً: فرض الضرائب على المشاريع والأعمال الوطنية والأجنبية على السواء.

تاسعا: مكافحة أزمة غلاء المعيشة والسكن.

عاشرا: سن تشريع خاص للعمل.

حادي عشر: جعل يوم العمل ثمان ساعات تبتدئ وتنتهى فى آن واحد.

ثاني عشر: إنشاء مكتب للعمل فى وزارة الداخلية مؤلف من موظفين وممثلين للعمال وتأليف لجنة برلمانية للعمل.

ثالث عشر: التأمين على حياة العامل ومستقبله بواسطة المصلحة التى يشتغل فيها سواء كانت حكومية أو أهلية.

رابع عشر: إلغاء قانون منع الاعتصامات.

خامس عشر: حماية النساء والأولاد ومنع تشغيلهم ليلا فى أى عمل كان من الأعمال.

سادس عشر: إنشاء مشاريع حكومية جديدة وتوسيع نطاق المشاريع الموجودة بقصد تشغيل العمال العاطلين.

سابع عشر: توزيع أراضي الحكومة البور على صغار الفلاحين بعد توصيل المياه اللازمة لها.

ثامن عشر: جعل الانتخابات مباشرة بلا قيد ولا شرط.

تاسع عشر: تسليف الحكومة صغار الفلاحين ما يحتاجون إليه من الأموال بفوائد قليلة جدا وإنشاء مصرف زراعى لهذا الغرض.

عشرون: تعديل الضرائب على الأطيان بقصد تخفيضها على صغار المالكين وزيادتها على كبارهم.

واحد وعشرون: تسهيل رى الأطيان على الفلاحين الصغار الذين يملكون خمسة أفدنة أو أقل مع اعطائهم كفايتهم من الماء.

إلى الفلاحين والعمال:

لا تعطوا أصواتكم لأى شخص لا يقبل هذا البرنامج ويعد بتنفيذه.

لجنة الدفاع

عن حقوق العمال والفلاحين

(*) تكونت هذه اللجنة إبان الانتخابات التى اجراها زيور باشا كجبهة عمالية لمساندة المرشحين العماليين فى الانتخابات والعمل على ربطهم ببرنامج وطنى تقدمى. وقد قام الحزب الشيوعى المصرى بالدور الأساسى فى تكوين هذه اللجنة وقد هاجم البوليس مطبعة الدواوين حيث صادر نسخ هذا البرنامج، لكن مجلة الحساب اعادت نشر النص الكامل للبرنامج فى عدد (١٩٢٥/٥/١).

بلا مخرج (رسالة من مصر)^(١)

بقلم: أ. الجبالي

بين رئيس الوزراء المصرى الحالى محمد محمود، ورئيس الوزراء السابق النحاس باشا (زعيم الوفد) توجد الآن أزمة ذات طابع خاص.

فمحمد محمود يقوم بجولات «مظفرة» فى أرجاء البلاد وممثلى مجالس المديريات والعمد المعينين من قبل الحكومة يبذلون جهودهم فى خلق تجمعات حاشدة ويدفعون الشعب إلى مقابلة الديكتاتور بصيحات الترحيب.

والديكتاتور الخاضع تماما للمندوب السامى البريطانى يلقي خطبا طنانة تمنى الجماهير بالمكاسب التى ستتحقق فى ظل رئاسته. أما النحاس باشا الذى يحسد محمد محمود على هذا النجاح فقد أخذ يروج ويجهد نفسه للحفاظ على شعبيته الخاصة وشعبية الوفد بين الجماهير.

وتتوافد إليه جماعات ووفود تمثل لجان الحزب من كل أنحاء البلاد معاهدة إياه على الإخلاص الدائم للوفد. أما خليفة المرحوم زغلول فإنه يعدهم بدوره باسم الوفد وبصورة مسحية أن يستمر على الطريق لنيل استقلال البلاد.

إن هذه الأزمة ذات الخصائص الفريدة من نوعها تجرى أحداثها من أجل متفرج واحد

هو المندوب السامى البريطانى اللورد لويد. فقد كان كل من محمد محمود والنحاس باشا يحاول بهذه التحركات أن يقنع المندوب السامى البريطانى بأن حكم مصر ممكن فقط بواسطة هو شخصيا.

ويا له من جهد ضائع، فإنجلترا تعرف جيدا أن حزب «الاتحاد» هو حزب كبار الملاك وأن الليبراليين وعددهم لا يزيد كثيرا عن المجموعات السابقة هم جماعة من البيروقراطيين وأن أقصى ما تستطيعه هاتان المجموعتان هو تشكيل حكومة تابعة لبريطانيا.

كذلك تدرك إنجلترا أن الوفد يمكنه - حاليا - أن يعتمد بغير منازع على قوى البرجوازية المتوسطة والصغيرة والمتنفذين، كما أن له اتصالات قوية وكافية بالفلاحين، بل إنه يستطيع أن يستخدم شعبيته أيضا فى الأوساط البروليتارية.

وتعلم بريطانيا تمام العلم حقيقة علاقات القوى بين الأحزاب السياسية المتصارعة فى مصر غير إنها تعى بدرجة أقل الأوزان النسبية لهذه الأحزاب. وهكذا فإن حكومة الإمبريالية البريطانية بالسياسة التى تنتهجها فى هذا الصدد لم تدفع إلى معاداتها بجماهير الفلاحين المصريين وبروليتاريا المدن فحسب وإنما أيضا البرجوازية المصرية.

لقد كانت إنجلترا بإهمالها لنداءات الجماهير العريضة فى مصر تعتمد فى الأساس على اعتقاد راسخ مؤداه أنه ما من جماعة من الجماعات السياسية المصرية تعارض معارضة حقيقة السيطرة البريطانية.

إن الحركة العمالية فى مصر ضعيفة للغاية. وحزب الطبقة العاملة لا يمكن النظر إليه الآن على أنه عامل سياسى مؤثر، والجماهير الشعبية لا تسهم فى الحياة السياسية للبلاد وكلا الحزبين البرجوازيين المصريين غير قادر على قيادة الحركة الوطنية المناضلة ضد الاحتلال.

والوفد - الذى كان إلى حد ما - فى مركز الاهتمام فى مصر، والذى تمكن - إلى حد ما - من قيادة موجات الغضب الجماهيرى غير المنظم ضد الحكم القائم، وقادة الوفد - تلاميذ وأتباع زغلول - كانوا جميعا فى انتظار القول الفصل. لكن الوفد كان يخشى لحظة الجماهير خشية الموت.

والوفد الذى يتحدث دائما باسم الشعب المصرى مطالبًا بالاستقلال التام غير المشروط لمصر - يخشى أكثر ما يخشاه - الشعب، واحتمالات أن يصحح الشعب عقبة فى سبيل

التفاهم مع الحكومة الإنجليزية، منطلقا من اعتقاده أن الجيش الإنجليزي قد لعب دائما دورا رئيسيا في كل الصراعات الاجتماعية الحاسمة في مصر، وأن رحيله عن البلاد سوف يؤدي بالضرورة إلى تفجر الصراع الطبقي.

وبالنسبة لقيادة الوفد فإن النضال الطبقي مسألة غير مرغوب فيها.

ولقد قال النحاس باشا أثناء استقبله مؤخرا لأحد الوفود «منذ قيام الوفد تمكنا دائما من أن نتجنب صراع الطبقات الذي يقود الأمة إلى الفوضى والتقاتل».

وفي ظل كل مد للحكومة الوطنية، وفي ظل كل تحرك شعبي يحاول الوفد أن يقيد آفاق المعركة وحدودها، وأن يوجهها نحو إطار الشرعية. والوفد يبحث دائما عن إثارة الجماهير ولكنه يتجنب دائما أى تحرك فعال من جانبها. والشعار الذي يرفعه الوفد دائما هو مطالبة الجماهير بالهدوء.. «أيها المصريون.. أن زعماءكم سوف يحصلون لكم على الاستقلال»..

وحتى الآن، وعندما أبعد الوزراء الوفديون عن الحكم بطريقة مهينة، وحل البرلمان وأوقف الدستور ووصلت إلى السلطة العناصر التي تمثل قمة الرجعية الشرسة لم تغير تكتيك الوفد.

لقد أغلقت كل الصحف فيما عدا صحف الحكومة، ولجأ الوفد إلى إصدار طبعات سرية من جرائده، ولكنه حتى في مثل هذه الطبعات السرية ظل متمسكا بشعار زغلول القديم «الحق فوق القوة» موصيا الجماهير بالصبر والانتظار.

لكن حكومة الإقطاعيين أكدت أن «قوتها» فوق (حق) الوفديين. وبمجرد أن وصلت إلى السلطة دخلت في مفاوضات مع الإنجليز حول تنظيم استغلال مياه النيل، أى أنها تضع في أيدي الإنجليز مشكلة الري وهو عماد كل الاقتصاد المصرى.

لقد وعدت حكومة محمد محمود ببناء عشرات المستشفيات والمساكن الشعبية للعمال لكنها بدلا من أن تبني مساكن شعبية قامت ببناء سجون جديدة، أما الأموال التي أنفقتها بسخاء على البوليس السرى فقد كانت تكفى لتنفيذ مشروعات الصحة والإنارة.. إلخ.

كذلك فإن المشروع الذى أعدته الحكومة لقوانين العمل اكتفى بتثبيت وتقنين حالة العبودية التى تسود العمل واعتبروها ظروفًا عادية، وهو ينص فوق ذلك على وضع النقابات تحت رقابة الإدارة.

ولم يحتج الوفد على هذا القمع المدبر ضد بروليتاريا مصر، فهو نفسه كان يتفاعل مع

الطبقة العاملة بنفس الأسلوب عندما كان فى السلطة. وفى ظل حكومة الوفد قمع البوليس بعنف محاولة للإضراب السلمى قام بها عمال الإسكندرية واعتقد الكثيرون من العمال بتهمة «الشيوعية» وسجن العديد منهم وأبعد الكثيرين إلى أماكن نائية أما العمال الأجانب فقد نفاهم إلى إيطاليا واليونان.

لقد ركز محامو الوفد احتجاجاتهم بصورة أساسية على انتهاك الحكومة لحرية الصحافة غير أن الوفد كان - حتى فى ظل احتجاجه على إجراءات محمد محمود - لا يمانع فى فرض بعض القيود على الصحافة معلنا أن «الصحف التى تهدم البناء الاجتماعى القائم، يمكن أن تغلق بقرار إدارى ووفقا لأحكام الدستور».

إن الوفد فى مأزق حقيقى.. والرأسمالية والوطنية التى يمثلها الوفد تقف ضد الإمبريالية الإنجليزية باعتبار أنها المعوق الوحيد للصناعة المصرية لكنه فى حلمه بالسيطرة بغير شريك على مقاليد الحكومة، أخذ يساوم الإنجليز حول نصيبه فى استغلال جماهير الشعب. والحقيقة أن تعنت الحكومة البريطانية، ذلك التعنت الذى يعبر عن التناقض الكامل بين المصالح الإمبريالية الإنجليزية وبين مصالح مصر، وهو وحده الذى حال دون الوصول إلى تسوية مع إنجلترا.

وهكذا فإن التحرك الوفدى ضد السيادة الإنجليزية فى مصر وضد الحكومة المصرية الراهنة هو نوع من «مهلك سر». وحتى صراخ النحاس باشا وهو يردد عبارات زغلول «دولة الظلم ساعة، ودولة الحق حتى قيام الساعة» قد فقد تأثيره.

إن سياسة محمد محمود تجاه الحركة العمالية، واعتدائه على حرية واستقلال مؤسسات النضال الاقتصادى للبروليتاريا قد أعطى دفعة لمد جديد لنضال الحركة العمالية.

إن الحركة العمالية هى المعارض الحقيقى الوحيد لسيطرة الإمبريالية الإنجليزية وسياسة الحكومة المصرية تجاه الفلاحين والعمال تقود كادحى القرى والمدن بالضرورة إلى صدام حاد مع حكومة رأس المال والإقطاع، بل إن حركة التحرر الوطنى فى مصر مدعوة بأجمعها إلى الوقوف بكل قواها ضد هذه السلطة.

وإذا وضعنا فى اعتبارنا ذلك السخط المتزايد من جانب كل الجماهير العاملة فى مصر، وتساعد نضال هذه الجماهير من أجل مصالحها اليومية، وحشد الجماهير حول

مطالب الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية، فإن حركة الثورة الوطنية سوف تنتصر حتما على السيطرة الاستعمارية وعلى سلطة الأرستقراطية المالكة. إن التربية السياسية للجماهير الكادحة فى مصر تتقدم ببطء ولكن نشاطها يتصاعد فإن هذه الجماهير الكادحة هى القاعدة الأساسية للنضال ضد المحتلين وأعوانهم من المصريين وضد ديماجوجيى الوفد.

١. الجبالى

تحريرا فى نوفمبر ١٩٢٨

(١) مجلة ريفولوسيوني فوستوك «الشرق الثورى» عدد ١ - ١٩٣٢. ص١٤٦ (مترجم عن النص الروسى).

(*) تضمنت أعداد المجلة الروسية ريفولوسيوني فوستوك فى مطلع الثلاثينيات عددا من المقالات المهمة عن مصر كتبها عدد من خبراء الكومنترن فى شئون الشرق العربى أمثال أ. شامى، أفيجدور. وقد اهتمنا بنشر مقالى أ. الجبالى باعتبار أنهما أرسلتا من داخل مصر وأن كاتبها مصرى (والاسم حركى بطبيعة الحال) ولذلك فإنه من الممكن اعتبار أنهما أكثر إيضاحا لموقف الرفاق المصريين وتعبيرا عن مستواهم الفكرى والسياسى.

الحزب الذى يثرثر كثيرا (رسالة من مصر)

بقلم: أ. أ. الجبالى^(١)

إن الظروف السياسية ذات الطبيعة الخاصة فى مصر قد أدت إلى خلق حزب فريد من نوعه هو «الحزب الوطنى».

وهذا الحزب يمكن اعتباره من حيث المحتوى الاجتماعى حزب البرجوازية المصرية المثقفة.

وعلى عكس الأحزاب البرجوازية الأخرى التى تتبنى فكرة المساومة مع الإنجليز، فإن أعضاء الحزب الوطنى مصممون على أنه لا توجد أية إمكانية للتوافق بين مصالح مصر وإنجلترا. ولقد ظلوا على الدوام يرفعون شعارا يبدو راديكاليا للغاية «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» وعلى هذا الشعار يبنى كل برنامج الحزب.

والحقيقة أن الحزب الوطنى، هو وكل حزب من الأحزاب البرجوازية الأخرى قد حدد بدقة ووضوح سياسته الخارجية، لكنه كان من الصعب عليهم جميعا تحديد برنامج عملى للسياسة الداخلية، وذلك بسبب التناقضات التى تحكم تكوين هذه الأحزاب.

ولقد وجه أعضاء الحزب الوطنى انتقادات شديدة لتكتيكات الجماعات السياسية الأخرى، وهم يشعرون دوما بالاعتزاز بماضى حزبهم فهم أقدم الأحزاب المصرية وهم

يعتبرون أنفسهم الأمناء الوحيدين على دعوة مصطفى كامل، ابو الحركة الوطنية المصرية الحديثة.

غير أن هذا الحزب الراديكالى ظل دوما على الهامش بالنسبة لكل الأحداث السياسية المهمة، ولم يحاول أن يدرس اوضاع مصر دراسة جادة، ولم يقدم أية شعارات سياسية ايجابية ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يفقد احترامه، وأن يسقط من حساب الكثيرين كحزب سياسى حقيقى اللهم إلا بضع مئات يشكلون مجموع عضويته.

ولقد قام قادة الحزب الوطنى، تحت ضغط راديكالى البرجوازية الصغيرة، بسلسلة من الاستعراضات ذات المظهر الثورى، فشاركوا فى تكوين «عصبة النضال ضد الإمبريالية» لكن مثل هذه الاستعراضات المظهرية لم تغير ولو لأدنى درجة من الخط السياسى للحزب. ولقد تجسدت السذاجة السياسية والفراغ الفكرى لهذا الحزب - بشكل خاص - فى تصرفاته إزاء أحداث الأشهر الأخيرة.. فقد عرضت إنجلترا طريقا للاستقلال الشكلى لمصر وتولى الوفد - وهو الحزب القائد للبرجوازية المصرية والحدز على الأغلبية البرلمانية والحزب الحاكم السابق - تولى مهمة تهدئة الجماهير، ولقد هاجم الليبراليون موقف الوفد، لكنهم لم يكشفوا النقاب عن الرجعيين المفضوحين. وهكذا تعاون الحزب الوطنى مع قطاب الرجعية المفضوحين من أجل إسقاط الوزارة الوفدية.

وقد استخدمت قضية الأمير سيف الدين كمبرر لإسقاط حكومة النحاس باشا، وهذه القضية تعبر تعبيراً دقيقاً عن طبيعة العلاقات السياسية المصرية البريطانية (ثم أورد الكاتب بشكل تفصيلى قصة قضية الأمير سيف الدين، ومضى بعد ذلك قائلاً):

.. لقد كان من الممكن بل من الواجب استخدام قضية الأمير سيف الدين كمادة لفضح الملك فؤاد كعميل للإنجليز، أن قادة الوفد (ومن بينهم النحاس باشا نفسه) دافعوا عن الأمير سيف الدين وأخذوا على عاتقهم هذه المهمة. أما قادة الحزب الوطنى فلأسباب مجهولة تماماً عارضوا الوفد فى موقفه هذا. وفى البرلمان وقف زعيم الحزب الوطنى حافظ بك رمضان ليخطب قائلاً: إن النحاس والمحامين الوفديين الآخرين يقبضون أموالاً طائلة ثمناً لتبنيهم قضية سيف الدين.

وقد أمكن «فبركة» حملة واسعة وسط الرأى العام بواسطة الصحافة المصرية والإنجليزية المأجورة حول هذه القضية، وكانت النتيجة سقوط حكومة الوفد.

وبعد ذلك حل البرلمان، وألغى الدستور، ووصل إلى السلطة غلاة الإقطاعيين والرجعيين عملاء المندوب السامي البريطاني. أما الراديكاليون من أعضاء الحزب الوطني قد ساعدوا الرجعية فى معركتها ضد الوفد وبعد أن تحقق النصر للرجعية ذهبوا جميعا إلى أوروبا للراحة!!

وهكذا أصبح الميدان خاليا تماما للرجعية، ثم أعد مشروع معاهدة عار وذل مع إنجلترا وافقت الرجعية المصرية بموجبه على إعطاء الإنجليز الرقابة الكاملة على مياه النيل وبذلك يتم للإنجليز التحكم النهائى فى مصائر الفلاحين المصريين واستعبادهم بشكل كامل. وقد قوبل هذا المشروع بالامتناع والرفض من جانب المصريين جميعا.. وفى المقابل منعت الحكومة عقد أية اجتماعات وأخذت فى إغلاق الصحف الواحدة بعد الأخرى مانعة نشر أى نقد ولو متواضع موجه ضدها.

وفى شهرين اثنين فقط ضم إلى البوليس السرى - وفقا للأرقام السرية - ثلاثة آلاف شخص. وعزل من الأجهزة الحكومية ومن سلك القضاة كل العناصر غير المرغوب فيها ونظمت حملات للاعتقال الجماعى، ووضعت النقابات تحت إشراف الحكومة. وتضاعف السخط فى البلاد بصورة لم يسبق لها مثيل. غير أن الجماهير الساخطة سخطا تلقائيا كانت تفتقر إلى القيادة، أما قادة الحزب الوطنى فقد احتفظوا بصمت بليغ.

لقد مثل قادة الحزب الوطنى لسنوات طويلة دور حماة الجماهير الكادحة والمدافعين عنها. لقد حاولت البرجوازية الصغيرة الراديكالية عبثا أن تقنع الجماهير بأن ممثليها لم يبتعدوا عن خشبة المسرح. لكن الصراع الدائر بين صفوف أعضاء الحزب أنفسهم، لم يكشف فقط عن مدى الضعف السياسى لقادة الحزب وإنما كشف أيضا عن ضرورة البحث عن «مسارات» جديدة لحركة التحرر الوطنى.

وكلما تم الإسراع بعملية «تفجير» الحزب الوطنى من الداخل، كلما وجدت العناصر الشريفة داخل هذا الحزب بسرعة أكبر طريقها الصحيح نحو تأسيس الكتلة الثورية الوطنية الموحدة تحت قيادة حزب الطبقة العاملة.. وكلما أسرعت حركة التحرر الوطنى المصرية بالسير فى الطريق الصحيح.

تحريرا فى مايو ١٩٢٩

(١) مجلة ريفولوسينى فوستوك «الشرق الثورى» عدد ٢ - ١٩٣٢. ص ٢٨٨ (مترجم عن النص الروسى).

برنامج ديكتاتورية محمود فى مصر^(١)

بقلم ج. ب (القدس)

لم تمض سوى أقل من ثلاثة أشهر على انقلاب محمد محمود الذى وقع فى القاهرة ولم تستطع ديكتاتورية محمود بعد أن تحقق هدفها الأساسى وهو تحطيم حزب الوفد ذى الاتجاهات الوطنية وتجريده من نفوذه.

لكن محمد محمود قد استطاع أن يصمد أمام الهجوم الأول الذى شنّه الوفد ضده وهو الآن بصدد الاستعداد لشن الهجوم المضاد. ولكى نستطيع فهم تطورات الأحداث التى تجرى فى مصر فهما واضحا فإنه يتعين علينا أن نتعرض للبرنامج الذى طرحته ديكتاتورية محمود.

وكما هو واضح من سلسلة البيانات الرسمية وشبه الرسمية، ومما أعلنه محمود تفصيلا فى خطابه أمام أعيان طنطا، فإن هذا البرنامج يمكن أن ينقسم إلى ثلاثة أقسام: البناء الروحى - خطط للإصلاح - السياسة الخارجية.

وفيما يتعلق بالقسم الأول، فإن محمودا يحاول الإيهام بأن حكومته ترغب فى إنقاذ مصر من الهوة السحيقة للفساد والمحسوبية ومحابة الأقارب والفوضى الأخلاقية التى ترعرت فى ظل الإدارة الوفدية. وبدلا من «حكومة لصالح الحاكمين» فقد بشر محمود

«بحكومة لصالح المحكومين» ويزعم محمود فى شن «إرهاب عنيف» لتدمير جماعة الوفد التى لا تختلف معه فى أى موقف من المواقف السياسية اللهم إلا اهتماماتها العامة، وسعياً لتحقيق هذا الهدف فقد عطل محمود البرلمان وصادر حرية الصحافة وحرية الاجتماعات. وامتدت عمليات البناء الروحى إلى حد منع الطلبة من الاشتغال بالسياسة وذلك حتى يتظهروا من «التحزب السياسى الذى هو أردأ أنواع التحزب»، ولكى يصبحوا أعضاء نافعين فى المجتمع.

وحتى تستقر الأخلاقيات السياسية فى مصر، فإن محمود قرر أن يتفرغ نهائياً لتحقيق مصالح الشعب، وقد حدد خطته للإصلاح فى النقاط التالية:

١- **إصلاحات خاصة بالمزارعين الصغار:** وينطلق محمود من منطلق معترف به من الجميع وهو أن إصلاح حال الفلاح هو مفتاح مشكلة أية سلطة فى وادى النيل. ولهذا فقد وعد محمود الفلاحين بتقسيم كل الأراضى الزراعية المملوكة للحكومة إلى قطع صغيرة مساحة كل منها ٥، ٢ فدان (الفدان يساوى ٤٤٠٠ متر مربع) على أن يخفض الثمن بنسبة ١٠٪ ويسد على أقساط مدتها ١٥ سنة. كذلك وعد محمود بالعمل على بذل أقصى جهد ممكن لتزويد القرى بالمياه الصالحة للشرب. وعلى تدعيم أجهزة تنقية مياه الشرب بالمدن بحيث تستطيع مد القرى المجاورة لها بمياه الشرب. ووعده كذلك بتحسين وسائل الرى باستخدام القوى الكهربائية التى ستتزايد بإنشاء محطات لتوليد الكهرباء، وبناء ١٠٠ مستشفى بالريف خلال خمس سنوات وتخصيص ٤ ملايين جنيه لإقراض الفلاحين لمواجهة احتمالات تعثر تصريف محصول القطن.

٢- **إصلاحات خاصة بالعمال:** وتتضمن إصدار تشريع للعمل يحمى مصالح العمال ويعالج المنازعات بين العمال وأصحاب العمل، وبناء ٥٠ مستشفى بالمدن وإنشاء مدارس مهنية.

٣- **أعمال الرى:** وفى الدرجة الأولى تعليية خزان أسوان والعمل على بناء خزان جديد فى جبل الأولياء بالسودان وذلك بهدف التمكن من استصلاح ما لا يقل عن ٧٠٠.٠٠٠ فدان جديدة من الأرض الصالحة لزراعة القطن. وقيل إن العمل فى هذا المشروع الذى سيتكلف ألفا عديدة من الجنيهات سوف يبدأ فى الشتاء القادم. وكانت نقطة الضعف الأساسية فى برنامج محمود تكمن فى سياسته الخارجية فالصحافة الوفدية كانت تجمع

على أنه قد باع نفسه للإنجليز. وعلى أية حال فإن محمودا قد أعطى فى الأيام الأخيرة ردا حاسما على الدعوة الأمريكية للانضمام إلى «ميثاق كيلوج» معلنا فى نفس الوقت أن مصر لن تتقيد بأية تحفظات قد تتمسك بها بعض الحكومات المنضمة إلى هذا الميثاق، وهو إعلان يشير بطبيعة الحال إلى التحفظات البريطانية تجاه القضية المصرية. وهكذا برهن محمود أخيرا على أنه مستقل أيضا فى سياسته الخارجية.

وهذا البرنامج الممتلئ بالعبارات الطنانة والديماغوجية مثل «حكومة أصدقاء الفقراء» «الحكومة التى فوق الطبقات والخلافات الطبقية» «الحكومة التى تسعى للاستقلال»... إلخ إلخ. كان بالدرجة الأولى سلاحا فعالا فى يد محمود فى معركته ضد الوفد.

ويعتبر هذا البرنامج محاولة ذكية لخداع الجماهير. وهى لا تستهدف فقط «تخليص» الفلاحين والبرجوازية الصغيرة فى المدن من نفوذ الوفد، وإنما تستهدف أيضا حرف أنظار الحركة العمالية التى نهضت خلال السنوات الماضية نحو مسارات إصلاحية أو بالدقة العمل على تدمير هذه الحركة.

وعلى أية حال فإن أهم ما أدى إلى تعزيز مركز محمود هو عجز قادة الوفد عن انتهاج سياسة ثورية حقة. فإن كل هجومهم ضد محمود كان مجرد شعارات مكتوبة على الورق وهكذا تجرأ محمود إلى الحد الذى أصدر معه قرارات بتعطيل الصحف الوفدية. ومن ناحية أخرى فإن هناك اتجاها واضحا لدى بعض الدوائر الوفدية للقيام بمصالحة مع الدكتاتورية.

إن البرنامج الذكى الذى غطت به حكومة محمود تحالفها مع الإمبرياليين واستعداداتها لمواصلة خداع الشعب المصرى لا يمكن مواجهته مواجهة حاسمة من خلال نشاط أى من أحزاب البرجوازية الصغيرة القائمة الآن فى مصر وإنما فقط يمكن مواجهته من قبل الطبقة العاملة وحزبها.

الأزمة والمد الثورى فى مصر

بقلم: أفيجدور

(تحت هذا العنوان كتب أفيجدور دراسة وافيه عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والصراعات السياسية فى مصر. وقد استغرقت هذه الدراسة الصفحات من ١٠٢ حتى ١٣٢ من العدد ٢ لعام ١٩٣٢ من مجلة «ريفلولوسيونى فوستك» (الشرق الثورى) الروسية. ونحن نجتزئ هنا الفصل الأخير من هذه الدراسة لأهميته الخاصة).

«المد الثورى ومهام الرفاق المصريين»

لكى يمكن أن يتحول المد الثورى الموجود الآن فى مصر، نحو أزمة ثورية أى نحو وضع ثورى فإنه من الضرورى العمل لإيجاد العامل الموضوعى وهو الحزب الشيوعى القوى الذى يتعين عليه أن يجد لغة مشتركة بينه وبين الجماهير والذى يمكنه أن يقود نضالهم الثورى. ويمكن أن نؤكد بشكل قاطع أنه بالنسبة لمصر فإن القضية الأساسية تتمثل الآن فى ضرورة نهوض حزب شيوعى قوى يتمسك ببرنامج نضالى ثورى يمثل مصالح الجماهير العريضة ويعطى الإجابات الصحيحة على كل القضايا الرئيسية لنضال الجماهير وبحثها عن أكثر الحلول الثورية للخروج من الأزمة والتحرر من نير الإمبريالية والإقطاع.

لكننا يتعين علينا أن نقرر أن رفاقنا المصريين لم يجدوا بعد اللغة المشتركة بينهم وبين الجماهير ولذلك فإن تأثيرهم على الجماهير ضئيل.. إن دور رفاقنا المصريين في كل الهيئتين يؤكد أنهم كانوا سلبيين تماما، وهذا موقف لا يغتفر لحزب قائد للطبقة العاملة. وفوق ذلك فإن ما أبدوه من نشاط خلال فترة هبة يوليو ١٩٣٠ كان نشاطا مشينا للشرف الثورى.

إن المنشور الوحيد الذى أصدره رفاقنا أيام الهبة لم يدع الجماهير لمواصلة النضال وإنما دعاهم إلى الاستسلام «دعوا هؤلاء الوفديين يخطبون ويطنطنون ويتصارعون ويموتون فإنهم يفعلون ذلك من أجل مصالحهم الخاصة».

وهكذا لم يدرك الرفاق المصريون الأهمية الثورية القصوى لانتفاضة عشرات الألوف من العمال متبنين شعار الوفد الذى يدعو الجماهير للنضال من أجل الدستور.

ولم يستطع الرفاق المصريون أن يحشدوا قواهم (حتى تلك القوى التى يمتلكونها بالفعل) فى مشاركة نشيطة فى الانتفاضة ومن أجل قيادة حركة الطبقة العاملة والفلاحين. إن خبرة هبة يوليو، وكل ما تبعها من أحداث كان من المتعين لها أن تلقن رفاقنا المصريين الكثير من الدروس، لكنه لا تصاعد الحركة الفلاحية، ولا مظاهرات العمال المدوية استطاعت أن تنتزعهم من حالة السلبية المؤسفة واستمروا دائما يتحركون فى ذيل الحوادث، وفى ظل وضع كهذا فقد ظل الوضع الثورى فى مصر يعانى من أزمة ثورية تتطلب العمل الجاد لتصعيد النضال الذى تخوضه الجماهير العمالية والفلاحية من أجل حل ثورى للأزمة ومن أجل ثورة معادية للإمبريالية.

ولا بد لهذا الوضع أن يلفت أنظار رفاقنا المصريين، فهو يلقى عليهم مسئولية عظمى تجاه الجماهير العمالية والفلاحية فى مصر، وتجاه البروليتاريا العالمية والثورة العالمية ككل.

إن النتيجة الرئيسية التى يمكن أن نخرج بها من هاتين الهبتين والتى يتعين على رفاقنا المصريين أن يستنتجوها، هى أن الجماهير المصرية قد تلقنت درس الصراع، وأن هبتى يوليو ومايو تعتبران مجرد «بروفتين» للمعارك العظيمة التى ما زالت تنتظر هذه الجماهير فى المستقبل القريب.

إن آفاق المستقبل بالنسبة للأزمة الثورية ترتبط بالحركة الهائلة للجماهير، تلك الحركة

القادرة على تفجير كل الصراعات الطبقيّة في البلاد، وترتبط كذلك بتصاعد الإرهاب الحكومي وتزايد النير الإمبريالي، وبنمو الحركة الثورية في الاقطار المجاورة وبالنجاح في بناء الاشتراكية على أرض الاتحاد السوفييتي، ذلك النجاح الذي لم يعد من الممكن أن يحجب عن الصحافة البرجوازية المصرية.. كل هذه العوامل سوف تخلق حتما الظروف المواتية لانفجار جديد هائل يمكنه أن يصبح انفجارا حاسما إذا ما استطاع رفاقنا المصريون أن يخرجوا من عزلتهم، وإذا ما استطاعوا أن يرتبطوا بال جماهير وإذا ما استطاعوا أن يقيموا حقيقة حزبا شيوعيا ثوريا منظما وجماهيريا قائدا بحق للنضال اليومي للطبقة العاملة والفلاحين، وأن يكفوا عن تصورهم للنضال كمجرد دراسة ممتعة. إن الظروف الموضوعية ملائمة تماما لأداء هذه الواجبات، فالجماهير تبحث عن قائد، تبحث عن زعيم.

وعلى الرفاق المصريين، وعلى الدور الذي سيقومون به يتوقف ما إذا كانت الجماهير ستجد قائدها الحقيقي.

أفيجدور

أغسطس ١٩٣١

موقف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في فلسطين وسوريا من الانقلاب في مصر^(١)

وجهت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في فلسطين وسوريا الرسالتين التاليتين حول الانقلاب الرجعي الموالي للإمبريالية الذي وقع في مصر:

١- إلى رئيس الحكومة المصرية - محمد محمود باشا - القاهرة

إن الحزب الشيوعي في فلسطين وسوريا يستنكر أشد الاستنكار الإجراءات الديكتاتورية التي ترتكبها حكومتهم، والتي تستهدف القضاء على الحقوق الأولية للبرلمان وحرية الصحافة والخطابة والاجتماع، تلك الحقوق التي اكتسبت من خلال نضال مرير امتد لسنوات طويلة. إن أعمال العنف التي ترتكبونها لتضطبع بطابع إجرامي خاص لأنها ترتكب في حماية الحراب البريطانية ومن ثم فهي تخدم مصالح اللصوص الإمبرياليين ليس في مصر وحدها وإنما في كل أنحاء الشرق الأدنى.

إنك - بوضعك نفسك في خدمة المخططات البريطانية وباغتصابك لحريات الشعب المصري إنما تدمغ نفسك - بالرغم من كل ما تردده من شعارات - كعدو لحركة تحرير الجماهير الكادحة تلك الحركة التي هاجمتها هجوما وحشيا.

لتسقط ديكتاتورية الحراب البريطانية

عاشت الحرية السياسية

لتسقط الإمبريالية البريطانية

عاشت مصر مستقلة

٢- إلى رئيس الوفد مصطفى باشا النحاس - القاهرة

وإلى رئيس «الحزب الوطنى» حافظ بك رمضان - القاهرة

استنكارا للانقلاب الرجعى الذى قام به محمد محمود فقد قمذ بتوجيه الرسالة المرفق صورة منها إلى الحكومة.

ونحن إذ نبلغكم بذلك لنود أن نعرب لكم عن اعتقادنا عن أنه ما من سبيل لشن نضال ثورى ضد الإمبريالية البريطانية وعميلها «الديكتاتور» محمد محمود بهدف فتح الطريق لتحقيق الاستقلال التام والتحرير الاجتماعى للجماهير العاملة لمصرية إلا بقيام حركة مصرية تحررية ثورية قومية تقوم على أساس توحيد قوى عمال المدن والريف والمتقنين الثوريين.

إن الحزب الشيوعى فى فلسطين (ومصر)^(*) سوف يواصل جنباً إلى جنب مع كل البروليتاريا الشيوعية فى جميع البلدان العمل لمساندة النضال ضد الدكتاتورية الرجعية فى مصر ومن أجل إقامة جمهورية ديمقراطية حرة على أرضها.

٢٦ يوليو ١٩٢٨

(١). International Press Correspondence 17/8/1928.

(*) هكذا فى النص الإنجليزى. ولا شك فى أنها خطأ مطبعى. وأن صحتها الحزب الشيوعى فى فلسطين وسوريا.

(٢) أوراق قضائية

- تقرير الاتهام فى قضية الشيوعية سبتمبر ١٩٢٥
- مرسوم ملكى بإسقاط الجنسية المصرية عن ثمانية من المصريين.
(١٩٣١/٨/٢٣)
- حيثيات الحكم ببراءة عصام الدين ناصف فى القضية ٣٤٤ كلى
الإسكندرية لسنة ١٩٣١
- محضر تحقيق النيابة العسكرية مع أنور كامل
- مذكرة من حكمدارية بوليس مصر عن هنرى كورييل (مذكرتان)
- مذكرة حكمدارية بوليس عن «الجهة الاشتراكية»



قضية الشيوعية تقرير النيابة العمومية لقاضى الإحالة

مقدم من النيابة العمومية لحضرة قاضى الإحالة بمحكمة مصر الأهلية فى قضية
الجناية رقم ٨٢٧ شبرا لسنة ١٩٢٥.

تتهم النيابة العمومية:

- ١- كونستنتين فايس - سن ٣٦ سنة - محرر جرائد وقومسيونجى مولود فى النسما
ساكن بشبرا نمرة ٨ شارع فؤاد ومسجون الآن.
- ٢- شالوم بولوك - سن ٢٥ سنة كاتب مولود بموسكو مقيم بشبرا شارع فؤاد نمرة ٨
شارع محمد على ومسجون الآن.
- ٣- ليون ألكونين - سن ٣٩ سنة كاتب مولود بالروسيا ساكن بشارع المناصرة نمرة ٨
بشارع محمد على ومسجون الآن.
- ٤- ريدل هوشليك - سن ٣٢ سنة - كهربائى مولود ببولونيا ساكن بالمناصرة نمرة ٨
شارع محمد على ومسجون الآن.
- ٥- محمد عبدالسميع الغنيمى - سن ٣٠ سنة كاتب بوزارة المعارف مولود بشبرا
النخلة مركز بلبيس وساكن فى شارع أم الغلام بدرب الحمام نمرة ٣ بالجمالية ومسجون
الآن.

- رفيق جبور - سن ٤٣ سنة مولود بجبل لبنان مقيم بشبرا بشارع البعثة حارة محمد خليل نمرة ٣ محرر بجريدة النظام والحساب مسجون الآن.
- ٧- شاكِر عبدالحليم - سن ٢٦ سنة طالب بالازهر مولود بالمتانية مركز العياط مقيم بالمتانية بدرب الحصر حارة رشوان بك نمرة ١٨ ومسجون الآن.
- ٨- شعبان حافظ - سن ٢١ سنة مساعد أجزى مولود بالإسكندرية مقيم بشارع الكرداسى قسم عابدين نمرة ٢٦ مسجون الآن.
- ٩- شارلوت روزنتال سن ٢٦ خالية الصناعة ومولودة بالإسكندرية مقيمة بكوم الناضورة ومسجونة الآن.
- ١٠- إلهامى أمين - سن ٢٢ سنة مخزنجى بالسكة الحديد مولود بمصر مقيم بالعطارين بباب سدره شارع المرغينى ومسجون الآن.
- ١١- بيومى مرسى الباسوسى سن ٢٩ سنة خراط معادن مولود بالعطف ومقيم بالإسكندرية بغيط العنب ملك محمد عطية شرف ومسجون الآن.
- ١٢- سيكلاريدس يناكاكيس - سن ٣١ سنة بياع إسفنج مولود بكمونس مقيم بالإسكندرية بشارع عبدالمنعم نمرة ١٨ ومسجون الان.
- ١٣- أرون واينبرج - سن ٣٣ سنة بياع فرش مولود بالروسيا مقيم بالإسكندرية بشارع ابوالدرداء نمرة ٤ مسجون الآن.
- بأنهم فى المدة بين ٦ أكتوبر سنة ١٩٢٤ الموافق ٧ ربيع أول سنة ١٣٤٣ و ٣٠ مايو سنة ١٩٢٥ الموافق ٧ ذو القعدة سنة ١٣٤٣.

أولاً: اتفقوا اتفاقاً جنائياً بأن اتحدوا مع غيرهم على ارتكاب الجنايات والجنح الآتية وهى جنايات القتل العمد ونشر الأفكار الثورية المغايرة لمبادئ الدستور المصرى الأساسية وتحبيذ تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة والإرهاب وبوسائل أخرى غير مشروعة المنطبقة على المادة ١٩٤ و ١٥١ فقرتى ٢ و ٣ إلى ٣٢٧ من قانون العقوبات وقد حرضوا جميعهم على الاتفاق الجنائى المذكور وأداروا جميعاً حركته.

ثانياً: اشتركوا فى اتفاق جنائى الغرض منه ارتكاب جريمة تأليف عصابة من العمال وصغار الفلاحين لإرهاب طائفة من السكان وهى طبقة أصحاب الأعمال والملاك وهذه هى الجناية المنطبقة على المادة ٨٠ من

قانون العقوبات وقد حرصوا جميعهم على الاتفاق المذكور وتدخلوا جميعاً فى إدارة حركته.

ثالثاً: نشروا وهم متفقون جميعاً على ذلك أفكاراً ثورية مغايرة للمبادئ الأساسية لدستور الدولة المصرية وحذبوا تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية فى البلاد المصرية بالقوة والإرهاب وبوسائل أخرى غير مشروعة وذلك علناً بطريق بيع وتوزيع كتب وجرائد ونشرات مطبوعة وغير مطبوعة وإلقاء مقالات فى المحال والمحافل العمومية وبواسطة إشهار رسوم وتصاوير وهذه الكتب والجرائد والنشرات والمقالات والرسائل الأخرى تحوى أموراً وأفكاراً تخالف مبادئ الدستور المصرى الأساسية ومن شأنها تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية مثل إلغاء نظام الملكية الفردية المقرر فى دستور الدولة واستبداله بنظام شيوعى بطريق الثورة والقوة والتهديد. وذكر فيها أن النظم التى يسعون إليها أفضل من النظم الحالية وأنها حرية بأن تحقق وأنه يجب العمل والسعى لتحقيقها وقد ألفوا حزباً لهذا الغرض سموه بالحزب الشيوعى المصرى التابع للدولة الشيوعية الثالثة وقد عمل ذلك الحزب على مقتضى شروط تلك الدولية وبناء على تعاليمها التى ترمى إلى إلغاء الملكية الفردية ومصادرة الأملاك من أصحابها وحجزها عنهم وغير ذلك بطريق القوة والتهديد والطرق الأخرى غير المشروعة وأخذ الحزب المذكور بنشر دعوته الضارة المذكورة بطرق العلنية المختلفة المبينة آنفاً بين العمال وصغار الفلاحين وغيرهم.

بناء عليه:

يكونون قد ارتكبوا الجرائم المنصوص عنها فى المادة ٤٧ مكرر وفى المواد ٨٠ و٨٢ و٨٣ وفى المواد ١٤٨ و١٤٩ و١٥٠ و١٥١ فقرتى ٣ و٢ من قانون العقوبات.

من أجل ذلك

تطلب النيابة العمومية من حضرة قاضى الإحالة أن يحيل هذه القضية على محكمة الجنايات للحكم فيها طبقاً للمواد سالفة الذكر وقد تحررت قائمة بشهود الإثبات وهى مرفقة بهذا.

نحن النائب العمومى بالمحاكم الأهلية

نكلف أحد المحضرين بأن يعلن هذا التقرير والقائمة طيه للمتهمين الذين هم فى السجن.

(١٩٢٥/٩/١٠)

النائب العمومى

إمضاء

ملحوظة: نشرت جريدة «الأخبار» نصا موجزا لهذا القرار بتاريخ ١٩٢٥/٩/٩ أى قبل توقيع من النائب العمومى بيوم واحد.

مرسوم ملكى بإسقاط الجنسية المصرية عن ثمانية من المصريين

نحن فؤاد الأول ملك مصر

بعد الاطلاع على المادة ١٣ من قانون الجنسية المصرية رقم ١٩ لسنة ١٩٢٩.
وعلى المذكرة المرفوعة من وزارة الداخلية إلى مجلس الوزراء بتاريخ ١٨ أغسطس
١٩٣١.

وبناء على ما عرضه علينا وزير الداخلية وموافقة رأى مجلس الوزراء.
رسمنا بما هو آت.

المادة الأولى

تسقط الجنسية المصرية عن الأشخاص الآتية أسماؤهم:

١- محمد أحمد سلام المشهور حمدي سلام.

٢- عبدالرحمن فضل.

٣- حسن حسن الجزيرى.

٤- محمود مصطفى دويدار.

٥- عبدالعزيز محمد مرعى.

٦- على حسين حسنين.

٧- شارلوت روزنتال.

٨- شعبان حافظ.

المادة الثانية

على وزير الداخلية تنفيذ هذا المرسوم.

صدر بسرأى المنتزة فى ٦ ربيع الثانى ١٣٥٠هـ

٢٠ أغسطس ١٩٣١م

فؤاد

بأمر حضرة صاحب الجلالة

رئيس مجلس الوزراء

إسماعيل صدقى

وزير الداخلية

إسماعيل صدقى

١٩٣١/٨/٢٣

مرسل إلى وزارة الداخلية لتنفيذه

رئيس مجلس الوزراء

إسماعيل صدقى

حيثيات الحكم ببراءة عصام الدين ناصف(*) نص أسباب الحكم فى قضية الأستاذ عصام الدين ناصف

أصدرت محكمة جنايات الإسكندرية المشكلة علنا تحت رئاسة حضرة صاحب العزة محمد أنور بك وحضور حضرات صاحبه العزة محمد راغب بك وخلييل غزالات بك مستشارين بمحكمة الاستئناف الأهلية وفهيم إبراهيم عوض أفندى وكيل النيابة وحامد حسين عباس أفندى كاتب المحكمة، حكمها بالبراءة فى قضية النيابة العمومية نمرة ٥٧٣ المنشية سنة ١٩٣١ المقيدة بالجدول الكلى نمرة ٣٤٤ سنة ١٩٣١.

ضد

عصام الدين حفنئ ناصف أفندى عمره ٣٢ سنة وصناعته مدرس وسكنه شارع الأمير فاروق رقم ٤٨.
وحضر للدفاع عنه حضرة صاحب السعادة محمد على باشا وحضرة إبراهيم الهلباوى بك وحضرة مصطفى مرعى أفندى المحامون.
وقد وضعت المحكمة أسباب الحكم كما يلى:
بعد سماع أمر الإحالة وطلبات النيابة العمومية والاطلاع على أوراق القضية والمداولة قانونا.

حيث إن النيابة العمومية اتهمت المذكور بأنه فى السنين ١٩٢٩، ١٩٣٠، ١٩٣١ بالقاهرة والإسكندرية وبلاد أخرى بالدولة المصرية نشر أفكارا ثورية مغايرة للمبادئ الأساسية لدستور الدولة المصرية وحذب تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية فى البلاد المصرية بوسائل غير مشروعة وذلك علنا بطريق بيع وتوزيع كتب مطبوعة تحوى 'مورا وأفكارا تخالف مبادئ الدستور الأساسية ومن شأنها أن تؤدى إلى تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية مثل إلغاء نظام الملكية الفردية المقرر فى دستور الدولة ونزع ملكية الغير بغير الطرق القانونية المشروعة واستبداله بنظام آخر وذلك بطريق الثورة والقوة وأن النظم التى يسعى لتحقيقها أفضل من النظم الحالية وأنها حرية بأن تتحقق ويجب العمل والسعى لتحقيقها والكتب التى وزعت وبيعت هى «كتاب التجديد الاجتماعى» وكتاب «الاشتراكية الحديثة» وغيرها وطلبت من حضرة قاضى الإحالة إحالته على محكمة الجنايات لمحاكمته بالمواد ١٤٨، ١٥٠، ١٥١ فقرة أولى وثانية من نانون العقوبات.

وحيث أن حضرة قاضى الاحالة قرر فى ١٣ يونيو سنة ١٩٣١ إحالته على هذه المحكمة لمحاكمته بالمواد المذكورة آنفا.

وحيث إنه بجلسة يوم السبت ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣١ سمعت هذه القضية على الوجه المشروح بمحضر الجلسة وقد تأجل النطق بالحكم بجلسة اليوم.

عن القانون

حيث إن النيابة العمومية تطلب معاقبة المتهم بمقتضى المادة ١٥١ فقرة ثانية وثالثة من قانون العقوبات المعدلة بالقانون رقم ٣٧ سنة ١٩٢٣ وقد أثارت النيابة كما أثار الدفاع الكلام على المقصود من هذه المادة لأن كلا من الطرفين يركز فى دفاعه فى الدعوى على المعنى الذى يعتقد أن هذه المادة تؤديه، لذلك كان من الواجب البدء بتفهم معنى هذه المادة حتى يتيسر تطبيق الوقائع المنسوبة إلى المتهم عليها.

وحيث إن المادة المذكورة نصها:

يعاقب بالسجن لمدة لا تتجاوز خمس سنين كل من ارتكب فعلا من الأفعال الآتية وذلك باستعمال إحدى الطرق المبينة فى المادة السابقة:

أولا: التحريض على كراهة نظام الحكومة فى القطر المصرى أو على الازدراء بها.

ثانيا: نشر الأفكار الثورية المغايرة لمبادئ الدستور الأساسية.

ثالثا: تحبيذ تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة أو الإرهاب أو بوسائل أخرى غير مشروعة. وحيث إن الجريمة الواردة فى الفقرة الأولى لا شأن لها فى هذه الدعوى فلا ترى المحكمة موجبا لبحثها الآن لأن الجزء المطلوب معاقبة المتهم عليه منها هو ما ورد بعد ذلك فى الفقرتين ثانيا وثالثا.

وحيث إن مدار الخلاف القائم بين الطرفين ينحصر فى الحقيقة فى نقطة واحدة وهى هل الفعل المنصوص عليه فى الفقرة الثانية وهو «نشر الأفكار الثورية المغايرة لمبادئ الدستور الأساسية» يتضمن فى ذاته «القوة والإرهاب» أو الوسائل غير المشروعة ولو لم ينص عليها المشرع فى الفقرة المذكورة كما نص عليها صراحة فى الفقرة الثالثة أولا.

وحيث أن النيابة العمومية ذهبت فى تفسيرها لهذه الفقرة إلى أنها لا تتطلب ما تطلبته الفقرة الثالثة من تلك المادة من استعمال القوة أو الإرهاب أو وسائل أخرى غير مشروعة ملاحظة أن كلمة ثورية فى النص الفرنسى للمادة معبر عنها بلفظ Subversives لا بلفظ Revolutionnaires والدفاع يخالفها فى ذلك.

وحيث إن المحكمة ترى أن اللفظ الذى استعمله المشرع فى الفقرة الثانية المذكورة سواء فى النص العربى «الأفكار الثورية» أو النص الفرنسى Idées Subversives يتضمن فى ذاته معنى استعمال القوة أو الإرهاب أو الطرق غير المشروعة ولذلك لم ير المشرع ضرورة للنص عليها فى هذه الفقرة الثالثة والذى يدل على أن هذه هى نية المشرع هو ما جاء فى المذكرة الإيضاحية الخاصة بتعديل هذه المادة (قانون رقم ٣٧ سنة ١٩٢٣) حيث جاء فيها بالنص:

«أما الفقرتان الثانية والثالثة من المادة ١٥١ فالغرض منهما قمع الدعوى المضرة التى تقوم بها الهيئات الفوضوية أو الشيوعية» وبما أن واضع القانون هو أقدر الناس على بيان غرضه من وضعه فلا يكون هناك ادنى شك فى أن هذه هى نيته لأن الهيئات الفوضوية أو الشيوعية من وسائلها كما هو معروف القوة المسلحة والمشرع قال صراحة إنه يقصد بقانونه قمع دعوة هذه الهيئات الخطرة على أن الذى يؤكد نية المشرع هذه هو التعديل الذى أصدره للمادة المذكورة بالقانون رقم ٩٧ لسنة ١٩٣١ حيث أدمج الفقرتين الثانية والثالثة فى فقرة واحدة وهى الفقرة الثانية من المادة ١٥١ المعدلة بالقانون المذكور ونصها:

«تحبيذ ونشر المذاهب التى ترمى إلى تغيير مبادئ الدستور الأساسية أو النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة أو الإرهاب أو بأية وسيلة أخرى غير مشروعة». ويلاحظ أن المشرع بهذا النص قد أوضح بصراحة ما يمكن أن يكون محل اتهام فى النص القديم وأنه وإن كان شدد نوعا فى العقوبة فأضاف إلى السجن الغرامة من خمسين جنيتها إلى خمسمائة جنيتها إلا أنه لم يأت بشىء جديد بالنسبة للأفعال المعاقب عليها وإنما بينها تبينا بدليل ما جاء فى المذكرة الإيضاحية للقانون المذكور ما يأتى تعليقا على المادة ١٥١ «المادة ١٥١: تقابل المادة ١٥١ من القانون الحالى والتعديلات التى أدخلت عليها هي:

أ- ادمجت فى فقرة واحدة هى الفقرة الثانية الجديدة الأفعال التى كانت مذكورة فى الفقرتين «ثانيا وثالثا» من المادة القديمة فوصف الجريمة بحسب صيغة المادة الجديدة لا يقتصر على من يحبذ بنفسه استعمال القوة لتغيير نظم الهيئة الاجتماعية الأساسية أو مبادئ الدستور الأساسية بل يتناول كذلك من ينشر أو يحبذ المذاهب التى ترمى إلى تغيير هذه المبادئ أو هذه النظم بالقوة ولم لم ينصح هو نفسه باستعمالها أو صرح بأنه لا يشير باستعمالها، فمن يحبذ مثلا نظريات شيوعية كما تطبق فى روسيا، ومعنى هذه البلشفية أو يقرظ مذهب لينين يقع تحت طائلة العقاب ولو احتاط لنفسه وصرح بأنه لا يشير باستعمال القوة - وذلك لأن هذه المذاهب تنطوى على أن يستولى العمال مباشرة وبالقوة على مقاليد الأحكام فى الدولة إذ كانت تعتبر كل وسيلة أخرى لبسط النظام الشيوعى غير فعالة.

ب- شددت العقوبات بأن أضيفت إلى السجن الغرامة من خمسين جنيتها إلى خمسمائة جنيتها وظاهر بوضوح فى نص هذه المذكرة من أن المشرع أدمج فى فقرة واحدة الأفعال التى كانت مذكورة فى الفقرتين ثانيا وثالثا من المادة القديمة أنه لم يأت فيها بجديد من حيث الأركان المكونة للجريمة وإنما أبان غرضه من المقصود باستعمال القوة والإرهاب فقال إن هذا الركن لا يقتصر على من يحبذ بنفسه استعمال القوة لتغيير النظم. بل يتناول أيضا من ينشر أو يحبذ المذاهب التى ترمى بطبيعة مبادئها إلى أن يكون التغيير بالقوة ولو لم ينصح هو نفسه باستعمالها أو صرح بأنه لا يشير باستعمالها وهذا المعنى هو نفسه ما كان مفهوما من قبل من نص الفقرة ثانيا من المادة ١٥١ المعدلة بقانون رقم ٢٧ لسنة ١٩٢٣.

عن الوقائع

حيث إنه لا جدال فى أن المتهم نشر كتاب التجديد الاجتماعى الذى طبعه ووزعه سنة ١٩٢١ وهو معترف بهذا وقال إن هذا الكتاب هو عبارة عن مقالات سبق نشرها فى

الجرائد وإنه أراد بطبعها فى كتاب تسجيلها باعتبارها عملا قيما كما أنه اعترف بنشر بعض مقالات عن الاشتراكية فى مجلة روح العصر كما أنه معترف بترجمة وطبع ونشر كتاب الاشتراكية الحديثة سنة ١٩٢٨ فركن العلنية لا نزاع فيه.

من كتاب التجديد الاجتماعى

مقالة الفلاح المصرى

وحيث إن النيابة العمومية شرحت الدعوى أمام المحكمة وأشارت فى مرافعتها إلى المواضع التى تقول إنها تدل على وجود الأفكار الثورية المغايرة للمبادئ الأساسية للدستور المصرى وتحبىذ تغيير نظم الهيئة الاجتماعية فى البلاد المصرية بوسائل غير مشروعة وقد ظهر من مرافعتها أن كل ما تنسبه إلى المتهم من الدعوة إلى تغيير مبادئ الدستور وتغيير نظم الهيئة الاجتماعية ينحصر فى دعوته إلى إلغاء الملكية الفردية والاستعاضة عنها بنظام الملكية المشتركة وأن تنزع هذه الطرق بغير الطرق القانونية المشروعة وقد دلت على غرض المتهم ببعض فقرات أشارت إليها فى كتاباته تستنتج منها دعوة المتهم إلى هذا التغيير بطريق القوة فذكرت:

١- ما جاء بالصحيفة نمر ٩ من كتاب التجديد الاجتماعى ضمن مقالة الفلاح المصرى حيث اوضح المتهم الفارق بين الفلاح الأوروبى والفلاح المصرى بتمثيل الفلاح الأوروبى واقفا على أحد قدميه وهو يجيب المالك عن سبب وقوفه كذلك بأنه ليس فى قطعة الأرض الخاصة به مكان لقدمه الأخرى لأن باقى الأرض كلها ملك له ووصف حالة الفلاح المصرى بأنها مظلمة قاتمة ونفوس الذين ينظرون إليه باعتباره ثورا يضعون فى عنقه نيرهم إلى أن قال: إن الفلاح إنسان يجب أن يتمتع بحقوق الإنسان.

٢- ثم ذكرت النيابة ما جاء بالصحيفتين ١٠، ١١ من الكتاب المذكور «أن المتهم قال إن القوانين التى سنت لنا هضة انتشار المواد المخدرة لا يمكن أن يكون لها أثر فعال لأن العلة الأساسية باقية وهى البؤس والتعاسة والشعور بالظلم وأن الفلاح لا يطيق هذا الظلم فيركن إلى الفرار منه باستعمال هذه المغيبات ثم إن الكاتب عاب على من لا يهتمون بإسعاد الفلاح قولهم إنه قانع بعيشه ولا يشعر أن له حقوقا مهضومة وهو منطق عجيب لا يحل المسألة» ثم قال «لا بأس فلننتظر فستحلها الأيام» إلى أن قال الكاتب «أما نحن فلا نرتضى إلا أن تشعر الهيئة الاجتماعية بقسوتها وفضاعتها وإلا أن نهى السبيل لتحسين

نظمها وقواعدها ونحن إذا اقتنعنا فلن نحجم عن المضى فى مهاجمة جميع الأخطاء الحالية - الفلاح هو خير أبناء مصر فيجب أن تنظم خير ما فيها لمصلحة الفلاح».

٣- ثم أشارت النيابة إلى ما ذكره المتهم فى الصحف ١١، ١٢، ١٣ من الكتاب المذكور عن حالة الفلاح فى مسكنه وتعرضه للأمراض الخطرة كالبلهارسيا والانكلستوما والروماتيزم والبالجرا والرمد الصديدى وأنه قد يكون مستأجرا صغيرا ولكنه مع ذلك لا يحصل من الأرض على ما يحفظ كيانه العادى فهو فى الواقع عبد رق ينادى صاحب الأرض بلفظ السيادة ويقول له الأرض أرضك والزرع زرعك والعبد وما ملكت يداه - وإن الكثيرين من الملاك قد سلبوا الفلاح كل شىء ولم يتركوا له إلا أشياء تافهة - وإن فى الفلاح المصرى جميع الصفات الخاصة بأبناء الشعوب المستعبدة.

٤- ثم أشارت النيابة إلى ما ذكره الكاتب يندد به على أصحاب الأبعاد الذين يبعثون الآلاف فيما لا نفع منه وفى الفخفة القذرة ولا يسمحون للفلاحين بالمعيشة إلى جانبهم وهم يكونون ٧٠ فى المئة من سكان القطر وتقع عليهم اعباء الخدمة العسكرية فى الحرب وفى السلم ويأبون عليهم أن ينالوا قسطهم من القوت وأن يتمتعوا بنصيبهم من الحضارة والمدنية - إلى أن قال المتهم فكان أبائنا وأجدادنا ومئات الأجيال الماضية قد ظلوا يعملون فى بناء المدنية آلاف السنين ل يتمتع بها بضع مئات من الأغنياء والوارثين - لأن كان كذلك فسحقا لها وتعسا - أننا نريد حضارة تضىء بنورها للشعب كله، نريد أن يتمتع بها كل من يعمل على قدر ما يعمل إلى أن يقول الكاتب متحدثا عن فلاح مصر إنه يقدم لها طعامها فلا تقدم له إلا الذل والهوان - وإنه أدرك أن تجارة الرقيق لم تمنح وأننا لا نعيش فى القرن العشرين.

٥- ثم قالت النيابة إن المتهم بعد أن أشار إلى بعض طرق التحسين نرا للرماد فى العيون وإخفاء لحقيقة نواياه يقول فى الصفحة ٢٣: وأساس الإصلاح عندى أن يشعر الفلاح أن حقوقه مهضومة وأنه مظلوم بأئس مهان وأنه ينقصه الكثير ليكون إنسانا كما يجب أن يكون إنسانا. أهدهو إلى بداية الطريق الأصح فلا يلبث أن ينطلق فيه إلى آخره - ساعدهو على فهم حقيقة مركزه وأنتم ترون منه العجب العجاب - الفلاح يزرع فيجب أن يحصد والفلاح هو المنتج فيجب أن يكون هو المستمتع.

مقالة نزعة التجديد الحالية فى مصر

ثم قالت النيابة إن المتهم كتب فى مقالة أخرى تحت عنوان «نزعة التجديد الحالية فى مصر» يقول:

١- العالم لم يزل يتطور ويترقى ويتقدم إلى الأمام فى خطوات سرع فمن لازموه فى تقدمه فازوا فى معترك الكفاح لاجل الحياة ومن أبوا إلا أن يحتفظوا فى رؤوسهم بعقلية القرون الخالية وأفكار أهلها ونظراتهم إلى الحياة فهؤلاء هم الذين يتجاهل الجيل الحاضر وجودهم ويطوهم بقدميه، ولقد يتم تطور الشعور - كما يرى هيجل - بتأثير الأفكار العظيمة التى يبشر بها دعاة المذاهب الفكرية المختلفة ومن ذا الذى ينكر التمهيد المنظم الذى مهدت به كتابات جان جاك روسو وزملائه عقول الفرنسيين للقيام بثورتهم الكبرى، ومن ذا الذى ينكر ما أحدثته كتابات تولستوى وأضرابه من كبار كتاب الروس فى إعداد شعب غير مثقف كالشعب الروسى للقيام بتلك الثورة التى لفحت بلهيبها دول العامل أجمع. لقد أصبح من المسلم به أن الظلم لا يحدث الثورات ولكن يحدثها الشعور به وإنز فالدنى يدأب على لفت نظر أمة من الأمم أو طبقة من الطبقات إلى ما يصيبها من ظلم كانت غافلة عنه لا يقل اشتراكا فى إحداث ثورتها عن يتولى قيادة حركاتها المسلحة - ص٤٢ من الكتاب.

٢- وقالت النيابة إن المتهم بعد أن يشرح نظرية كارل ماركس الاشتراكية وتأثيرها فى ألمانيا وما قام به العمال هناك وكذلك فى إنجلترا، يقول فى صفحة ٤٨: ومتى كان من المسلم به أن الظروف الاقتصادية لا بد فاعلة أثرها أيتضح لنا أن من الحق محاولة المقاومة غير المجدية بل إن الواجب علينا أن نمهد الطريق أمام النظم الجديدة كى نوفر على أنفسنا تكاليف معركة نحن موقنون فيها بغلبة الجديد على القديم وببقاء الأصلح الملائم لروح العصر على الهرم الذى فات أوانه وأصبح من البله أن نتطلب عودة الشباب إليه.

٣- وبعد أن ذكر لمحة تاريخية عن الثورة المصرية الحديثة والتطور الحديث تطبيقا لنظريته قال فى صفحة ٥٠: وتتجلى الروح الجديدة فى مختلف مرافق الحياة الحيوية فقد بتنا نسمع الآن الاقتراحات بتحديد الملكية الزراعية وإلغاء الرتب والنياشين وإنشاء حزب للفلاحين أو العمال أو حزب اشتراكى أو غير ذلك، وكل هذا سهل ومفهوم إذا رجعنا فى

تفهمه إلى نظرية التفسير المادى للتاريخ - على أن ماركس لم يقصد بهذه النظرية أن يطبقها على الماضى فحسب بل انه يريد بها المستقبل قبل كل شىء وإذن فلنترك الخيالات والأوهام ولنبتعد عن مقاومة التجديد الذى لا بد أن يطرأ على جميع مرافقنا ما دامت ظروفنا الاقتصادية تتغير يوما بعد يوم.

وقالت النيابة بشأن ما نشره المتهم فى الكتاب المذكور تحت عنوان مقالة الاشتراكية من الوجهة العلمية إنه جاء فى المقالة صفحة ٥١ قوله: وألفت النظر من الآن إلى أن الغرض من الاشتراكية ليس رفع أجور العمال وتحسين أحوالهم تحسينا محدودا وإنما أن تحل الدولة محل طبقة مالكي الأراضى والمصانع وأن تمنع أصحاب رؤوس الأموال من التحكم فى الفقراء واستعمالهم عمالا أجيرين لا يتمتعون بكل ما ينتجه كدهم من الثمار. وأورد نقد ماركس للكونت لإسال الذى كان يريد تحقيق مبادئه عن طريق مطالبة الحكومة بإصلاح حال العمال - ثم أخذ يعرف ماهية الاشتراكية فقال فى صفحة ٥٢: الاشتراكية تلغى الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج كالأرض وأبنية المصانع وألاتها والمواد الخام وهذا من الوجهة السلبية أما من الوجهة الإيجابية فهى لا تصرح بالدخل الشخصى الذى بجىء من غير طريق العمل ثم إنه فى صفحة ٥٣ يعرف الشيوعية فيقول: إنها لا تقتصر كالاشتراكية على حرمان الأفراد من التصرف فى وسائل الإنتاج بل هى تجرمهم أيضا من التصرف فى وسائل الاستهلاك أى المحصول الزراعى أو المنتجات الصناعية فلا يستطيع المنتج أن يبيعها لمن يشاء وبالثمن الذى يشاء ولا أن يستعمل منها المقدار الذى يشاء، فالجماعة الشيوعية تحدد المقدار الذى يلزم كل فرد من الماكل والملبس. ثم ينطرق إلى وصف الفوضوية فقال: إنها ترغب فى تقوية حرية الفرد إلى أقصى حد وتطلب إلغاء جميع القوانين فيكون كل امرئ سيد نفسه. وبعد أن يبسط المتهم نظريات عدة للاشتراكية.. تراه يختم المقالة بقوله فى صفحة ٥٦: «ولا معنى للاعتراض بأن هذا النظام غير طبيعى فقد عاش هذا النظام مئات السنين فى الماضى ولا يزال سائدا فى روسيا وفى الجهات التى تعمرها الزمر الدينية فى أمريكا الشمالية فهو إذن لا يتنافر مع الطبيعة الإنسانية على أن المهم هو معرفة أوفق النظم لمصلحة الإنسان وأقربها إلى طبيعته».

عن كتاب الاشتراكية الحديثة

تقول النيابة: جاء فى كلمة المعرب وهو المتهم: الاشتراكية هى المحور الذى يدور عليه النزاع بين جميع الأحزاب السياسية فى العالم المتمدين.

وإنى أمل أن أخرج لقراء العربية غيره فى القريب العالج كما أمل بأن يقوم الكثيرون بالكتابة فى هذا الموضوع، ومتى فهم الشعب هذه المبادئ أمكنه أن يعرف مصدر نكبته والسبيل إلى الخلاص منها. ولقد نراه يشرح فى هذا الكتاب النظريات الاشتراكية والشيوعية ونظرية التوارث عند السلافيين ص ١١، ١٢ ونظرية ماركس وانجلز ص ١٢ وما يليها ويقول فى ص ١٣ إن النظام الرأسمالى أنتج حالات اجتماعية مروعة.. فالعامل يتحول إلى صعلوك والفاقة تنمو وتنتشر بأسرع ما ينمو الأهلالي والثروة وتلك حال تأبأها طبقة البروليتاريا، الآن كما كانت تأبأها وتكافح ضدها فى عصور النظم السابقة مكافحة علنية أو خفية - وستنتهى إما بانقلاب النظام الرأسمالى وإما بهلاك الطبقات المتنازعة ولن يكون غرض الطبقات المضطهدة من هذا الكفاح إلا تحويل نظام الإنتاج الرأسمالى إلى نظام اشتراكى وذلك يقضى بتحويل ما يمتلكه الرأسماليون من وسائل الإنتاج إلى ممتلكات عامة وإدارة الإنتاج تقوم على قواعد الاشتراكية أى بواسطة الجماعة ولأجلها: وشرح ماهية النظام الاشتراكى للإنتاج ونظام الإنتاج الاشتراكى فى الوقت الحاضر واشتراكية الدولة بكل أنواعها والمساعى الحاضرة لنشر النظام الاشتراكى. وحدد نظام الإنتاج الاشتراكى - ثم قال فى فصل الشيوعية الزراعية فى روسيا ص ٤٢ بأن لينين بجرة من قلمه اعاد مساحة الأطيان التى كانت مملوكة للأمرء والأشراف فى روسيا إلى ملكية القرى والبلديات وأنه محا الملك الخاص.

ثم قالت النيابة إن المتهم نشر فى مجلة روح العصر بتاريخ ٢١ فبراير سنة ١٩٣٠ مقالة قارن فيها الاشتراكية بالشيوعية والفوضوية والطرق المؤدية لتحقيق أغراض كل منها. وقد استشهدت النيابة بكتاب للمتهم أسماه متابعة التجديد الاجتماعى لم يكن قد نشر بعد وقالت إنه وإن كان ركن العلنية لم يتحقق بشأنه إلا أنها قالت إنها تسوق منه عبارات للتدليل على روح المتهم ونزعاته. هذا كل ما استندت عليه النيابة فى إثبات التهمة ضد المتهم وقد بينته فى مرافعتها الشفوية وقدمت للمحكمة فى نهاية المرافعة مذكرة كتابية تحصر فيها الأدلة بحسب البيان السابق إيضاحه.

وحيث إن المتهم ينكر التهمة وقد قرر فى التحقيقات أن مقالة الفلاح المصرى ليس فيها دعوة إلى تغيير نظام الملكية وأنه متحمل مسئولية كل ما جاء فيها وأن الإصلاحات التى

طلبها فى المقالة المذكورة لا تمنع من بقاء نظام الملكية وقال إن ما نشره بشأن الاشتراكية مسألة ثقافية يريد بها تنوير الأذهان عن مرامى الاشتراكية وأنه إذا فرض أن نشر مبادئ الاشتراكية يترتب عليه قلب نظام الملكية فإنه مادام هذا يحصل بواسطة الحصول على غالبية برلمانية وبطرق سلمية فليس هناك مانع من نشرها وأن اسموع هو أن يدعو المرء إلى ذلك بالعنف وقال أن الظروف فى نظره لاسيما الاحتلال الإنجليزى والدين الإسلامى تجعل قيام حركة اشتراكية حقيقية فى مصر من المستحيل وكل ما يريده أن الناس تحس وتعمل جانباً من الإصلاحات للفلاحين وأن الاشتراكية المعتدلة مثل فرض الضرائب على الدخل تتفق مع الدين الإسلامى لقوله تعالى: «وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» وأنه إن ذكر الشيوعية أو الفوضوية فذلك من باب توضيح معنى الاشتراكية لأن بعض الناس يلتبس عليها معناها.

وحيث إن الدفاع عن المتهم طلب الحكم ببراءته ويرتكز فى ذلك على أن المتهم لم يقل مطلقاً فى كتاباته كلمة واحدة يفهم منها أنه يريد إلغاء الملكية الفردية وأنه إذا قال فلا عقاب عليه لأنه لم يقل أن وسيلته الثورة وشرح مبادئ الاشتراكية ووسائلها شرحاً وافياً. وحيث إنه من اطلاع المحكمة على كل ما كتبه المتهم ونشره مما سبق بيانه وبعد سماع مرافعة النيابة والدفاع قد تبين لها أن مقالة الفلاح المصرى ليس فيها أية دعوى إلى إلغاء نظام الملكية الفردية واستبدالها بنظام اشتراكى وكل ما جاء فيها هو وصف حالة الفلاح التى يعتقد المتهم إنها سيئة جداً وبعض إصلاحات طلب إجرائها مُصلحته. صحيح أن المتهم فى وصفه بالغ فى سوء حالة الفلاح مبالغة قد لا تتفق مع الحقيقة إلا أنه على كل حال لم يأت فيها بكلمة تفيد أنه يدعو إلى تغيير نظام الملكية الفردية لا بطريقة سلمية ولا بطريق العنف والإصلاحات التى اقترحها موجهة إلى الحكومة. وعبرة العمل على زيادة ما يخص كل فرد من مساحة الأراضى المزروعة وهى موضوع الاقتراح السادس قد بين المتهم الطريقة العملية للوصول إليها بأن تقوم الحكومة بإصلاح الأراضى البور على نمط واسع ثم تبيعها للفلاحين بثمان يماثل متوسط تكاليفها فهو لم يقترح على الحكومة أن تأخذ من الملاك الحاليين أراضيه لتوزع على الفلاحين بثمان أو بغير ثمن. وأما الفقرات التى ذكرتها النيابة من مقالة الفلاح المصرى فليس فيها مطلقاً إشارة إلى أن غرض المتهم إلغاء نظام الملكية الفردية ولا نزع ملكيتها بطرق غير مشروعة إنما كلها مبالغة فى وصف الفلاح

بطريقة مثيرة للشعور كقوله: «إن حالته مظلمة قاتمة - ينظرون إليه باعتباره ثورا يضعون فى عنقه نيرهم - الفلاح إنسان يجب أن يتمتع بحقوق الإنسان - إنهم يفرون من الظلام إلى المخدرات والمغيبات، لا بأس فلننتظر فستحلها الأيام - أما نحن فلا نرتضى إلا أن نشعر الهيئة الاجتماعية بقسوتها وفظاعتها وإلا أن نهى لها السبيل لتحسين نظمها وقواعدها ونحن إذا اقتنعنا فلن نحجم عن المضى فى مهاجمة جميع الاخطاء الحالية - الفلاح خير أبناء مصر فيجب أن ينظم خير ما فينا لمصلحة الفلاح - أن فى الفلاح المصرى جميع الصفات الخابة بأبناء الشعوب المستعبدة فسحقا لها وتعسا - إننا نريد حضارة تضىء بنورها للشعب كله - نريد مدنية يتمتع بها كل من يعمل على قدر ما يعمل.. إلخ». كل هذه الجمل وما شابهها مما ورد فى مرافعة النيابة هى عبارة عن تعبيرات كلامية فيها كثير من المبالغة يقصد بها الكاتب إظهار ما يعتقدده وما يتأثر به مما شاهده على الطريقة التى يشعر بها - وأما تفسير النيابة لبعض هذه التعبيرات بأن المتهم يقصد نشر الأفكار الثورية وحث الفلاحين على القيام فى وجه الملاك أو الحكومة ففيه تخريج غير مقبول للألفاظ والتعبيرات عن معانيها وتحميلها غير ما تحتمل من المعانى والمقاصد.

وحيث إنه فيما يختص بما أشارت إليه النيابة مما جاء فى مقاله: نزعة التجديد الحالية فى مصر فإن فهم العبارات التى ساقها على حقيقتها لا يمكن أن يؤدى إلى ما ذهبت إليه النيابة من انه يريد استعمال القوة لأنه إنما يريد أن يبين مقدار ما لكتابة الكتاب من تأثير وأن الذى يوقظ شعور أمة أو طبقة من الطبقات وينبئها إلى ما يصيبها من ظلم كانت غافلة عنه يكون له من الفضل فى وصولها إلى غرضها مثل ما يكون لمن يتولى قيادة حركاتها المسلحة. كل هذا جاء بيانا لقوله قد يتم تطور الشعوب بتأثير الأفكار العظيمة التى يبشر بها دعاة المذاهب الفكرية فالسياق ليس سياق الوصول إلى حق استعمال القوة أو بالثورة المسلحة وإنما سياق حصول التطور بتأثير الكتابة ففكرة الكاتب إذن بعيدة كل البعد عن الدعوة إلى استعمال القوة. أما قول الكاتب «لا يقل اشتراكا فى إحداث ثورتها» فلا مانع من أن تكون ثورتها الفكرية كما يدل على ذلك فى سياق الكلام - فإن الكاتب بدأ مقالته بقوله إن العالم يتطور ويترقى ثم ذكر كيفية حصول التطور فقال قد يتم تطور الشعوب بتأثير الأفكار العظيمة.. إلخ، ثم قال بيانا للطريقة الأخرى إنها تطور الظروف

المادية والاقتصادية وهي نظرية التفسير المادى للتاريخ التى هى موضوع المقالة - فقال: يرى ماركس أن الأفكار المثالية ليست إلا انعكاس الظروف الاقتصادية - وإذن فليست هى الدافع الحقيقى الذى يثير الحركات الاشتراكية وغيرها إنما الدافع هو تغير ظروف الإنتاج- وقد انتهى الكاتب بعد بيان أن الظروف الاقتصادية متى تغيرت تغير تفكير الناس تبعاً لذلك وتحتم أيضاً تغيير نظمهم وعوائدهم إلى قوله: ومتى كان من المسلم به أن الظروف الاقتصادية لا بد فاعلة اثرها يتضح لنا أنه من الحمق محاولة المقاومة غير المجدية بل إن الواجب علينا أن نمهد الطريق أمام النظم الجديدة كى نوفر على أنفسنا تكاليف معركة نحن موقنون فيها بالغلبة للجديد على القديم.. إلخ - ولا يمكن أن يفهم من هذا تهديداً باستعمال القوة وإنما هو نصح اتقاء للنتائج التى هى حاصلة من تغيير الظروف الاقتصادية بحسب اعتقاد الكاتب فى صحة هذه النظرية - والمقصود بتعبير الكاتب هنا بلفظ معركة وغلبة ليس المعركة الحربية والانتصار فيها وإنما هذه كلها تعبيرات كتابية يعرفها من يفهم اللغة العربية.

وحيث إنه فيما يختص بمقالة الاشتراكية من الوجهة العلمية - وكتاب الاشتراكية الحديثة والمقالة التى نشرها المتهم فى مجلة روح العصر هى كلها متعلقة فى الكلام على الاشتراكية وبعض نظرياتها فإن المتهم يقول فى شأنها إنها دراسة علمية يريد بها توضيح معنى الاشتراكية للناس لأنه يلتبس عليهم معناها وهو لا ينكر أن نشر مبادئ الاشتراكية قد يترتب عليه قلب نظام الملكية الفردية، كما تقضى به مبادئ المذهب إلا أن وسائل هذا المذهب فى تنفيذ برامجها ليست وسائل العنف والقوة، وعمدة هذا المذهب نفسه كارل ماركس يرى أن تطور الظروف الاقتصادية وتغيير ظروف الإنتاج هى التى تؤدى إلى التغيير.

وحيث إنه معروف حقيقة عن علماء هذا المذهب أنه وإن كانت مبادئه ونظرياته غير محدودة، ولا متفق عليها بين كبار أقطابه إلا أنهم بوجه عام لا يقولون باستعمال القوة فى الحصول على تنفيذ مقاصدهم إلا المتطرفين منهم، والمتهم لم يشر فيما كتب أو نقل بصريح الترجمة إلى هذا النوع بل هو يتكلم عن الاشتراكية المعتدلة وهو مع هذا يعتقد أن الاشتراكية لم تجد لها أرضاً خصبة فى مصر للأسباب التى ذكرها. وعلى كل حال فإنه مع التسليم بأن مبادئ الاشتراكية على وجه عام من شأنها إلغاء الملكية الفردية فإن القوة

ليست من وسائلها وعلمائها لم يبينوا الوسائل التى تؤدى إلى إلغاء هذا النظام ويتركون تحقيقه للزمن تدريجيا - وأما كون المتهم لجأ أثناء كلامه عن الاشتراكية إلى الإشارة أحيانا وبطريقة مختصرة إلى الشيوعية أو الفوضوية فلم يكن ذلك بقصد نشر مبادئهما ولا تحبيذهما وإنما بيانا للفرق بينهما وبين الاشتراكية التى يتكلم عنها ورفعاً للبس إذ إن كثيرا من الناس يخلط بين الاشتراكية وبين الفوضوية والشيوعية فليس مجرد ذكر شىء طفيف منهما عرضا ليس فيه إشارة إلى وسائل القوة التى هى أساسها يكون الجريمة التى ارادها القانون، ولأن المشرع يعرف هذه الحقائق ذكر سواء فى المذكرة التفسيرية للقانون نمرة ٣٧ لسنة ١٩٢٣ أو المذكرة التفسيرية للقانون نمرة ٩٧ لسنة ١٩٣١ الخاصين بالمادة ١٥١ أن القصد هو قمع الدعوة الخطرة التى تقوم بها الهيئات الفوضوية والشيوعية، ولم يذكر عن الاشتراكية شيئا لأن المشرع يقدر أن الخطر يأتى من أن الهيئات الفوضوية والشيوعية تعتمد على القوة المسلحة لتنفيذ أغراضها والمتهم عندما أشار عرضا إلى الشيوعية أو الفوضوية لم يتعرض لدراستهما ولا لنشر مبادئهما وإنما اكتفى بإشارة ليمنع القارئ من الخلط بينهما وبين الاشتراكية ولا يمكن القول بأن الفصل الوارد فى كتاب الاشتراكية الحديثة ص ٤٠ تحت عنوان: الشيوعية الزراعية فى روسيا يعتبر نشرًا لمبادئ الشيوعية الروسية لأن المؤلف ذكر فى هذا الفصل أن الامتلاك الخاص للأراضى فى روسيا، بالمعنى المفهوم فى غرب أوروبا لم يكن موجودا من قبل تحرير الفلاحين - وأن إبادة الملك الخاص هو فى روسيا الأصلية حالة أصلية قديمة واقعة، فليس للفرد أن يملك أرضا وكل الأراضى فيما عدا تلك المشيدة فوقها أكواخ الفلاحين هى ملك للبلدية - فالملكية الرأسمالية الحقيقية للزراعة لم توجد فى روسيا إلا بعد تحرير الفلاحين إذا سلبت من البلديات أكثر من ثلث أراضيها أعطى ملكا خاصا للإشراف.. إلخ. من العبارات التاريخية السابقة على الثورة الروسية، إلى أن قال عندما نشبت الثورة البلشفية عام ١٩١٧ كان فى روسيا الكبيرة ٧٥٠ مليون فدان من الأراضى الزراعية العامة مقابل ٢١٥ مليون فدان من المزارع والغابات الخاصة - قد أعادها لينين بجرة من قلمه إلى ملاكها الأول أعنى القرى والبلديات - وظاهر من هذا الفصل أنه دراسة تاريخية لا توضيح لمبادئ الشيوعية ونظرياتها.

وحيث إنه مما تقدم يتضح أن ما كتبه جزء منه لا ذكر فيه لإلغاء الملكية الفردية ولا نزع

ملكيتها لا بالقوة ولا بغيرها وجزء منه وهو الخاص بالاشتراكية وأن كان يتضمن تغيير نظام الملكية الفردية إلا أن وسائله لا تتذرع بالقوة ولا بالتهديد ولا بطرق غير مشروعة. وحيث إنه بناء على ما تقدم شرحه من أن الفقرتين الثانية والثالثة من المادة ١٥١ القديمة تشترطان لتكوين الجريمة استخدام القوة أو التهديد أو الطرق غير المشروعة. وبما أن هذا الركن غير متوفر في الأفعال المنسوبة له غير معاقب عليها ويتعين الحكم ببراءته على أنه على فرض التسليم جدلاً «وجدلاً فقط» بأن الفقرة الثانية من المادة ١٥١ القديمة لا تتطلب توفر القوة فإن القانون نمرة ٩٧ لسنة ١٩٣١ الذي عدل هذه المادة قد اشترط هذا الركن صراحة. وبما أن هذا القانون يعتبر لمصلحة المتهم لأنه بتطبيقه على الأفعال المنسوبة له تعتبر الجريمة غير متوفرة الأركان أى أن الفعل الذى كان يعاقب عليه القانون القديم إذا لم تكن هناك قوة بحسب هذا الغرض أصبح غير معاقب عليه بمقتضى قانون سنة ١٩٣١ وهو قانون بلا شك يعتبر فى مصلحة المتهم وقد صدر قبل الحكم فى القضية وهو الواجب تطبيقه دون غيره عملاً بنص المادة الخامسة من قانون العقوبات ويكون الواجب الحكم ببراءة المتهم فى كلتا الحالتين عملاً بالمادة (٥٠) من قانون تشكيل محاكم الجنايات.

فلهذه الأسباب

وبعد الاطلاع على المادة ٥٠ من قانون تشكيل محاكم الجنايات حكمت المحكمة حضورياً ببراءة المتهم.

صدر هذا الحكم علناً بجلسة يوم الأحد ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ الموافق ١٢ رجب سنة ١٣٥٠هـ.

كاتب المحكمة

رئيس المحكمة

(*) نقلاً عن جريدة الجهاد ٣٠ نوفمبر ١٩٣١.

محضر تحقيق النيابة العسكرية مع أنور كامل

أقوال المتهم الأول/ أنور كامل

أمام النيابة العسكرية العليا

فى قضية الاشتراكية المتهم فيها

مع أعضاء جمعية - الخبز والحرية - بالاتفاق الجنائى على قلب نظام الحكم بالقوة -

يونيه ١٩٤٢.

استدعيت أنور كامل ويسؤاله قال:

اسمى أنور كامل

س: أذكر لنا تاريخ حياتك.

ج: تخرجت من الجامعة الأمريكية ١٩٣٢، ثم اشتغلت بمصلحة المساحة وكان لى نشاط سياسى محدود فى ذلك الوقت، وفى سنة ١٩٣٩ أصدرت بياناً عن العمال والفلاحين فصلت بسببه من الحكومة وقد حققت النيابة فى هذا البيان وقررت حفظ القضية. وفى يناير ١٩٤٠ أصدرت مجلة «التطور» عندما كنت عضواً فى جماعة «الفن والحرية» ثم حدثت ظروف اضطررت فيها إلى إغلاق هذه المجلة وفى سبتمبر ١٩٤٠ ألفت

جماعة «الخبز والحرية» للدفاع عن مصالح الطبقات العاملة فى هذه البلاد، وفى أواخر ١٩٤١ قبض على مع آخرين بتهمة الاتفاق الجنائى على قلب نظام الحكم بالقوة. ولكن هذه القضية حفظت لعدم وجود الأدلة، وأنا اليوم أمامكم لنفس التهمة كما يظهر لى.

س: هل التحقت رأسا بمصلحة المساحة؟

ج: نعم.

س: وهل كان لك شغف بالاطلاع على الكتب الاجتماعية فى ذلك الوقت؟

ج: أنا من طفولتى وأنا أفكر وأطلع ولعل بعض الأساتذة فى الجامعة الأمريكية يذكرون لى هذا.

س: ما هو الظرف المباشر الذى جعلك تصدر بيانا عن العمال والفلاحين؟

ج: لم يكن هناك ظرف مباشر وإنما هذا البيان كان بداية لفكرة أخذت تختمر فى رأسى مع الزمن.

س: ما هى الأسس التى قام عليها تفكيرك هذا؟

ج: أظن أن المسألة واضحة جدا وأن فى هذه البلاد ملايين يعيشون فى حالة تشبه البهائم بينما تتمتع أقلية بكل موارد الثروة فى البلاد.

س: ما الذى تناوله بيانك حتى حقق معك وفصلت بسببه؟

ج: تناول البيان حالة العمال والفلاحين وصغار الموظفين من جهة وحالة الملاك وأصحاب الصناعات وكبار الموظفين من جهة أخرى.

س: ألم يحتو البيان على تحريض لاتباع طريق معين للتخلص من هذه الحالة؟

ج: أنا لم أعرض طريقا معينا فى ذلك الوقت وكانت المسألة كلها مجرد مقارنة وعلى هذا حفظت القضية جنائيا.

س: هل كان لك شعبة أو جمعية حتى ذلك الوقت؟

ج: لم يكن لى شعبة ولا جمعية فى ذلك الوقت.

س: وما الذى فعلته بعد أن فصلت من المساحة؟

ج: أنا فصلت من المساحة فى يوليو ١٩٣٩ وفى يناير ١٩٤٠ أصدرت مجلة «التطور».

س: هل كان لديك رأس مال لإصدار هذه المجلة؟

ج: الواقع أن هذه المجلة لم تكن تحتاج إلى رأس مال كبير، والمجلة كانت تصدرها

جماعة «الفن والحرية» وقد كنا نجمع تكاليف الأعداد من أعضاء الجماعة.

س: كيف اتصلت بجماعة «الفن والحرية»؟

ج: كنت عضوا مؤسسا فيها.

س: من هم الأعضاء المؤسسون لجماعة «الفن والحرية»؟

ج: أذكر منهم جورج حنين وكامل التلمساني وفريقا آخر من الممثلين والفنانين.

س: وما هو الغرض الذى كانت ترمى إليه جماعة «الفن والحرية»؟

ج: غرض هذه الجماعة كان ينحصر فى نشر الثقافة المتقدمة، وإيقاف الشباب المصرى على الحركات الفنية فى العالم وتشجيع الآداب والفنون فى مصر وذلك عن طريق إصدار المجلات وإلقاء المحاضرات وإقامة المعارض العامة وما إلى ذلك من مختلف وسائل النشر المشروعة.

س: هذا الغرض يتمشى مع كلمة الفن فما الغرض من كلمة الحرية؟

ج: الفن أنواع فهناك فن رجعى يتأثر بالقيود والقيم البالية وهناك فن حديث يتحرر من هذه القيود. ومن هذه القيم فالفن الذى كانت تعمل على نشره جماعة «الفن والحرية» هو النوع الثانى بلا جدال.

س: من الذى كان يتولى تحرير هذه المجلة؟

ج: أنا كنت رئيسا للتحرير فى هذه المجلة وقد كان يكتب فيها العديد من الكتاب المتقدمين فى هذه البلاد أمثال جورج حنين ورمسيس يونان وكامل التلمساني وعبدالعزیز هيكل وغيرهم.

س: إلى متى استمرت مجلة «التطور»؟

ج: تسعة أشهر ووقف إصدارها بعدها لأسباب ترجع، أولا إلى غلاء أسعار الورق وعدم توزيع المجلة توزيعا كافيا ثم إلى عوامل أخرى خفية كضغط الحكومة وشدة الرقابة من ناحية أخرى كل هذا كان باعثا على إغلاق المجلة ولو إلى حين.

س: ولكنك ذكرت أولا أن المجلة لم تكن تحتاج إلى تكاليف إذ كانت تمدها إعانة

الأعضاء؟

ج: هذا صحيح ولكن من العبث أن تستمر فى إصدار مجلة تعمل جهات مختلفة على تحطيمها، وعدم اذاعتها بين الناس بحيث لا يباع منها إلا عدد ضئيل جدا مع العلم أنها

باعتراف أقطاب الأدب فى مصر تضارع المجلات المتقدمة فى أوروبا.

س: ما السبب الذى من أجله كانت الحكومة تحارب المجلة على النحو الذى تذكره؟

ج: هذا يمكن سؤال الحكومة عنه، وعلى كل حال أظن أن تاريخ العالم ملئ بحكومات بعضها متقدم وبعضها رجعى، والحكومة فى ذلك الوقت كانت بلا جدال حكومة رجعية.

س: ألم تكن تحوى المجلة فى ذلك الوقت مقالات مثيرة؟

ج: مسألة مثيرة وغير مثيرة أمر نسبى، فما تراه أنت مثيرا أراه أنا شيئا عاديا والعكس بالعكس وعلى كل حال إذا كان فى هذه المجلة بعض مقالات مثيرة مما يدخل تحت طائلة القانون فلماذا لم تحاكمنا الحكومة على ما جاء فى هذه المقالات.

س: هل استمرت جماعة «الفن والحرية» قائمة بعد غلق المجلة؟

ج: لا أعرف بالضبط ولكنى أعتقد أنها لا تزال قائمة دون أن يكون لها مقر فهى تقيم كل سنة معرضا، وآخر مرة أقيم هذا المعرض فى فندق الكونتنتال وكان عبارة عن لوحات فى الفن الحديث.

س: وهل استمرت عضويتك فى الجماعة بعد غلق المجلة؟

ج: لم تستمر عضويتى فيها لأن أصبح لى نشاط آخر.

س: هل كنت تتقاضى من مجلة التطور مرتبا؟

ج: لا.

س: إذن كيف كنت تقوم بأود حياتك؟

ج: كنت مقيما مع عائلتى.

س: ما هو النشاط الخاص الذى اتجهت إليه والذى كان أساسا لتركك جماعة «الفن والحرية»؟

ج: بدأت أتجه اتجاها اجتماعيا أكثر من الاتجاه الذى كانت تسير عليه فألفت جمعية «الخبز والحرية» للدفاع عن الطبقات العاملة ولكن بكل أسف قوومت هذه الجمعية من البوليس مقاومة عنيفة لم أفهم لها سببا حتى تحولت من جمعية اجتماعية سياسية إلى حلقة فكرية تضم بعض العناصر المتقدمة فى الفكر فكانوا يزورونى فى منزلى وكنت اتحدث إليه فى مختلف الشئون.

س: هل اتخذت لجمعية «الخبز والحرية» مقرا خاصا؟

- ج: اتخذت لها مكانا خاصا بشارع محمد على بعمارة المؤيد.
- س: من الذى كان يقوم بالاتفاق على هذه الجمعية؟
- ج: نفقات الجمعية كانت ضئيلة، بمعنى أنها كانت تكاد لا تتعدى إيجار مكانها وأظن أن مبلغا تافها كهذا..
- س: التفاهة مسألة نسبية فهل كان من أعضاء الجمعية من يستطيعون دفع هذا المبلغ مضافا إليه النور والخدمة والمطبوعات؟
- ج: نعم كان فى الجمعية من يكفى للقيام بهذا.
- س: من هم الأعضاء الذين اشتركوا فى تأسيس الجمعية فى ذلك الوقت؟
- ج: تألفت الجمعية فى بادئ الأمر منى ومن عبد العزيز فهمى هيكى وأسعد حلیم جرجس وفتحي الرملى وصالح عرابى.
- س: ما هو النشاط الخاص الذى أسست على أساسه جمعية «الخبز والحرية»؟
- ج: فى بادئ الأمر كان النشاط ينحصر فى إلقاء المحاضرات العامة ونشر بعض المؤلفات المترجمة دفاعا عن مصالح الطبقات العامة أو إيقاظا لنوع من الرأى العام سواء بالطرق المباشرة أو غير المباشرة.
- س: ألم تكن مجلة «التطور» ترمى إلى هذا الغرض؟
- ج: نعم ولكنها كانت مصطبغة بالصبغة الفنية إلى حد كبير بحيث إنها لم تكن مرتكزة فيما يتصل بالمسائل الاجتماعية.
- س: ما هو الطريق المباشر وغير المباشر الذى كانت الجمعية ترمى إليه؟
- ج: الطريق المباشر هو أن تنشر بحوثا تتصل مباشرة بشئون العمال وغير المباشر هو أن تنشر نوعا من الأدب يعالج مسائل المجتمع فتؤثر فى الرأى العام بطريقة غير مباشرة أو على درجتين كما يقولون.
- س: ما هو السبيل الذى كانت ستتخذه الجمعية لتحقيق هذا الغرض؟
- ج: توحيد الرأى العام حول «الخبز والحرية» وحول الأفكار التى تعمل على إذاعتها.
- س: وما هى الطريقة لإحداث هذا التوحيد؟
- ج: هى أن تقنع الناس بصحة الأفكار التى تنادى بها فإذا اقتنع بها الناس فإنهم بلا شك سيسيروا مع «الخبز والحرية» فى كفاحها من أجل بناء مجتمع أصلى.

س: ولكن ما هي الطريقة التي ستؤدي إلى توصيل مبادئ الجمعية إلى الناس؟

ج: بالخطب العامة وبالنشرات وبكافة الطرق المشروعة.

س: ولكن هذا يحتاج إلى مال فمن أين كانت سترد إليكم المادة المؤدية إلى تحقيق هذا الغرض؟

ج: الطبيعي أننا كنا سنتفق اتفاقاً يتناسب مع عدد أعضاء الجمعية وكلما زاد عدد الأعضاء أمكننا أن ننفق مقداراً أكبر من المال على إصدار هذه النشرات وإقامة هذه الاجتماعات العامة.

س: هل نشرتم عن الجمعية في المجلات والجرائد؟

ج: أرسلنا إلى جميع الجرائد والمجلات ولكنها لم تنشر شيئاً عنها والظاهر أن هذه الجرائد والمجلات تخشى هي الأخرى كل ما هو جديد، أما المحاضرات التي كنا نعلن عنها فقد كانت تشير إليها، إلا أن القلم السياسي - بكل أسف - كان يمنع هذه المحاضرات.

س: ألم ينشر خبر عن الجمعية في «المجلة الجديدة» أو «حرية الشعوب»؟
ج: لا أذكر.

س: إذا كان الأمر كذلك فقد سدت في وجه الجمعية طرق النشر والمحاضرات فما هي الوسيلة إذن لنشر الدعاية عنها؟

ج: قلت فيما سبق إن الجمعية تحولت تحت ضغط البوليس إلى حلقة فكرية. وقلت أيضاً إن بعض الأشخاص كانوا يترددون على وكانوا يستمعون إلى ما أقول من أحاديث ولقد كان هذا في الفترة الأخيرة هو نشاط الجمعية التي كنا نسميها جمعية بحكم العادة. وقد فاتني أن أذكر أننا أصدرنا نشرة عن «مشاكل العمال في مصر».

س: كيف كان تكون الجمعية في مبدئها؟

ج: أنا كنت رئيسها وكان هناك أربعة أعضاء آخرون ثم انضم إلينا بعد ذلك عدد آخر ولكن لا أعرف عناوينهم الآن، لأن هناك أوراقاً كثيرة صودرت بمن بينها استمارات العضوية.

س: ما هي البواعث التي أدت إلى ضبط الجمعية وعمل التحقيق الذي تقول عنه؟

ج: اعتقلت وقدمت للنيابة وحقق معي. وقد حفظت الأوراق لعدم وجود أدلة وأفرج عني.

س: ومن كان متهماً معك في هذه القضية؟

ج: مجموعة من الناس منهم عبد العزيز هيكل وأسعد حليم وفتحي الرملى وخضر محمود خضر ولييب حنا وغير هؤلاء وقد تعرفت بهم جميعا فى إدارة مجلة «التطور».

س: وما الذى حصل بعد أن أفرج عنك فى القضية المذكورة؟

ج: ظلت أواصل دعوتى إلى الإصلاح، وكان كثير من الناس يزوروننى فى المنزل وكنت أتحدث مع هؤلاء الناس ولكن الجمعية كما قلت كانت قد تحولت إلى حركة فكرية أو إلى تيار فكرى فلما رأيت أن عدد المترددين على قد كثر فكرت فى أن أعيد تنظيم الجمعية إما باسم «الخبز والحرية» وإما باسم آخر هو «الحزب الاشتراكى» وكنت قد فكرت أيضا فى أن أدعو إلى اجتماع عام يعقد فى ١٦ سبتمبر ١٩٤٢ يضم جميع العناصر ذات الميل الاشتراكية فى مصر لأعلن تأليف هذا الحزب.

س: هل اتخذت مقرا جديدا لجمعية «الخبز والحرية» بعد أن أفرج عنك؟

ج: أنا لم أتخذ لها مقرا جديدا وإنما اتخذت مسكنا لى بشارع قصر العيني رقم ٦٠ ألف.

س: ولكنك ذكرت أنك كنت تقيم مع أهلك؟

ج: أنا كنت أتحدث عن الزمن الماضى.

س: وكيف كنت تنفق بعد أن اتخذت هذا المكان الجديد حتى قبض عليك؟

ج: أنا تركت العائلة منذ سنة وفى هذه الفترة أصدرت كتاب «مشاكل العمال فى مصر» وقد ربحت من هذا الكتاب مبلغا من المال لا يقل عن الخمسين جنيها وأظن أن هذا المبلغ يكفينى كفرد عادى من أفراد الشعب.

س: كيف انتشرت الدعاية للجمعية حتى أقبل عليها أشخاص كثيرون كما تقول؟

ج: انتشرت بقوة الكلمة المنطوقة التى كنت أرسلها فى أحاديثى والتى كان المستمعون إلى ينقلونها عنى فى كل مكان.

س: هل كان لديك سجل تكتب فيه أسماء الأعضاء الذين يشتركون فى الجمعية؟

ج: كان لدى سجل ولكن عندما تحولت الجمعية إلى حلقة فكرية كما ذكرت كنت أكتفى بكتابة الأسماء فى مذكرة خاصة.

س: وأين هذه المذكرة؟

ج: أظن أنها فقدت إن لم تكن وقعت فى يد القلم السياسى.

س: هذه المذكرة لم توجد بين الأوراق المضبوطة فى منزلك مع أنه وجدت خطابات وأسماء بعض الأعضاء وعناوينهم تحت الإرسال مما يدل على أنها نقلت من سجل خاص الأمر الذى يدل على أن لديك سجلا تعمدت إخفاؤه.

ج: ليس فى هذا شىء من الحقيقة فأنا كتبت هذه الخطابات فى يوم الأربعاء مثلا والمذكرة فقدت منى فى نفس اليوم أو فى اليوم التالى.

س: أين كنت تحتفظ بهذه المذكرة؟

ج: هذه المذكرة كنت أحملها دائما فى جيبى والظاهر أنها سقطت منى بعد كتابة هذه الخطابات وقد تأسفت جدا على افتقادها بطبيعة الحال.

س: هل كنت تأخذ أسماء الأعضاء رأسا من هذه المذكرة.

ج: نعم وهذه المذكرة عبارة عن ورقة مطوية غير معتنى بها.

س: كم يبلغ عدد الأعضاء فى الفترة الأخيرة؟

ج: لا أذكر ولكنى أؤكد أنه عدد كبير.

س: وهل الورقة المطوية تكفى لتسجيل هذا العدد الكبير؟

ج: نعم. فقد كانت عبارة عن فرخ من أربعة أوجه وكانت مطوية فكانت تتسع لكتابة أسماء لأربعة أمثال الأسطر الموجودة فيها.

س: ألم تكن هذه الورقة مسودة تنقل ما فيها إلى سجل آخر تودعه جهة لا يصل إليها التفيتش؟

ج: هذا غير صحيح وهذه المسودة كنت أحتفظ بها لشىء واحد وهو الدعوة إلى اجتماع ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٢ الذى كنت أفكر فى عقده وأظن ألا داعى لإخفاء هذه الورقة لأننى أعتقد أننى لم أرتكب جريمة وأن الأشخاص الذين اتصلوا بى والذين يؤمنون بالأكفار التى أنادى بها لم يرتكبوا هم أيضا جريمة ولو أننى أريد أن أخفى انتشار الحركة لقلت لك إن عدد من اتصلوا بى صغير.

س: من هم الأعضاء الذين ظلوا فى الجمعية بعد أن أفرج عنك؟

ج: عبد العزيز هيكال كان يتصل بى دائما وأسعد حليم كان يتصل بى من حين لآخر وفتحى الرملى كنت أراه بطريق الصدفة وكذلك صالح عرابى. أما بقية الأشخاص الذين كانوا متهمين معى فى القضية فكانت أتصل بهم نادرا.

س: هل كان للجمعية فى الوقت الأخير مجلس إدارة؟

ج: أنا قلت إن الجمعية تحولت إلى حلقة فكرية. فلم يكن هناك إذن مجلس إدارة وإنما كان هناك شخص يتكلم إلى أشخاص، وقلت أيضا إننى فكرت عندما رأيت زيادة المترددين على منزلى فى تنظيم الجمعية من جديد أو فى تأليف الحزب الاشتراكى فى الاجتماع الذى كنت ساعقده فى ١١ سبتمبر ١٩٤٣ وبطبيعة الحال بعد تصريح من القلم السياسى.

س: ولكن الخطابات التى ضبطك عندك والتى ضبطت لدى بعض أعضاء الجمعية كلها موقع عليها بإمضائك تحت كلمة الرئيس مما يدل على أنه كانت هناك جمعية مثلا؟
ج: أنا قلت إن اسم الجمعية ظل يجرى على ألسنتنا بحكم العادة.

س: كنت توجه الخطابات إلى العضو باسم الزميل مما يدل على أن الجمعية كانت ذات اصطلاح خاص، الأمر الذى يدل على أنه كان هناك تنظيم خاص؟
ج: كل من كان يتصل بى ويستمتع إلى وأرى أنه يميل إلى المبادئ التى أنادى بها كنت أسميه زميلا.

س: كانت تحوى هذه الخطابات شيئا من التائب على عدم المحافظة على المواعيد بما يتنافى يصدوره إلا من زعيم إلى أعضائه.
ج: هذا كلام يصح أن يصدر من أى استاذ إلى أى تلميذ وهؤلاء الأشخاص جميعا هم تلاميذ لى بالفعل.

س: كنت تتكلم فى كثير من هذه الخطابات عن الحركة وهذا يدل من ناحية أخرى على أن الجمعية ذات نظام خاص يرمى إلى إحداث حركة معينة.
ج: الحركة يمكن أن توجد دون وجود جمعية ودون وجود تنظيم خاص ونحن مثلا نستطيع أن نقول الحركة الفكرية فى فرنسا فى القرن التاسع عشر دون أن يكون لهذه الحركة تنظيم خاص وتستطيع أن تقول إن الحركة الفكرية التى أنشأها فى مصر جمال الدين الأفغانى دون أن يكون لجمال الدين الأفغانى تنظيم خاص.

س: هذا التفسير فى الملابس التى تذكرها إنما يتأتى على لسان المؤرخين أو من يصفون عصرامعينا أما أن يقول شخص عن نفسه إنه زعيم الحركة فهو يدل على أنه يقود جماعة ترمى إلى عمل وتوصل إليه بتنظيم ما.

ج: أنا قلت إن هناك جمعية انقلبت إلى حركة فكرية ولما ازداد عدد أنصار هذه الحركة الفكرية فكرت فى تكوين الجمعية من جديد أو عقد مؤتمر لإعلان تأليف الحزب الاشتراكى.
س: هل كان للجمعية أمين صندوق؟

ج: فى الفترة الأولى كان لها أمين صندوق هو عبد العزيز هيكل أولاً ثم أسعد حلیم ثانياً، أما فى الفترة الأخيرة فلم يكن لها أمين صندوق.

س: ألم تكن تجمع تبرعات فى الإناء الأحمر؟

ج: كنت اجمع بعض التبرعات فى الإناء الأحمر فى بعض الأحياء بقصد المحافظة على إرسال بعض الخطابات أو ما إلى ذلك.

س: ما هى المحاضرات التى كنت تلقيها على الأعضاء؟

ج: كنت أتكلم عما أريد تطبيقه فى هذه البلاد وكنت أتكلم فى كثير من المواضيع الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية.

س: أذكر لنا بالتفصيل المبادئ التى كنت تذكرها.

ج: كنت أتكلم عن مشاكل المجتمع المصرى عن الفقر والمرض والجهل. كنت أشرح علة هذه المشاكل وأحصر هذه العلة فى نظام الطبقات كنت أقول إن الكتاب فى مصر ودعاة الإصلاح فيها ينظرون إلى هذه المشاكل دون أن يقفوا على العلة التى تنبى عليها. فهم يقولون مثلاً إن الستة عشر مليوناً من المصريين يعيشون بمتوسط ضئيل لا يزيد فى أحسن الظروف عن عشرة جنيهات فى السنة ثم ينادون لإصلاح هذه الزيادة ونحن ننادى بها بلا جدال- لكن الزيادة لن تؤخر ولن تقدم فى الحقيقة الرهيبة التى يصطبغ بها الواقع المصرى فالدخل فى هذه البلاد لا يوزع مثل هذا التوزيع وإنما يحضى بالنصيب الأكبر منه بضعة ألوف من الملاك والرأسماليين والتجار والممولين بينما يعيش سواد الشعب من عمال وفلاحين على دخول ضئيلة لا تكفى القوت وهذا التوزيع السيئ للدخل يرتبط بلا جدال بالتوزيع السيئ لوسائل الإنتاج (الأراضى الزراعية والمصانع) فإذا كنت وسائل الإنتاج مركزة فى أيدى فئة ضئيلة من الملاك العقاريين والرأسماليين فإن توزيع المنتجات لا بد وأن يتأثر بهذا التوزيع السيئ لوسائل الإنتاج فلكى نعالج الفقر الذى يخيم على أكثر من أربعة عشر مليوناً من المصريين لا بد إذن من إلغاء السبب الذى يؤدى إلى هذا التوزيع السيئ فى الدخل وهو نظام الطبقات أو بعبارة أخرى لا بد من توزيع عادل لوسائل الإنتاج بمعنى

أن تتولى الحكومة الإشراف على هذه الوسائل فيشتغل جميع الأفراد فى الدولة كل فرد منهم حسب قدرته وتعطى أجرا لكل فرد حسب العمل الذى يقوم به هذا فيما يتصل بمسألة الفقر.

أما المرض فإن الكتاب ودعاة الإصلاح فى هذه البلاد قد اعتادوا أن يقولوا إن فى مصر خمسين مليون حالة من حالات المرض المختلفة أو بعبارة أخرى إننا لو وزعنا مجموعة هذه الأمراض على أفراد الشعب لأصاب كل فرد منهم فى المتوسط ثلاثة أمراض وهم ينادون لعلاج هذه الحالة بحث الحكومة على إنشاء المستشفيات ولكننا نرى أن هناك وجها آخر لهذه المسألة فمشكلة المرض كمشكلة الفقر تتصل هى الأخرى بنظام الطبقات. فإذا كان الدخل يتناسب تناسبا طرديا مع مقدار ملكية وسائل الإنتاج فإن المرض يتناسب تناسبا عكسيا مع مقدار هذه الملكية، ولهذا فنحن نجد أن الأمراض تتركز فى جانب الأغلبية المجردة من الثروة بحيث يصيب فى بعض الحالات أفراد هذه الأغلبية أكثر من عشرة أمراض فى نفس الوقت وهؤلاء الكتاب وهؤلاء المصلحون الذين يطالبون الأغنياء بالعناية بصحة الفقراء يتصورون بهذا أن الأغنياء قد يمنون بجزء من المال ينفقونه على العمال والفلاحين الذين يشتغلون فى مزارعهم وفى مصانعهم وهذا عبث ما دام فى مقدور الجنس البشرى أن يتوالد ويتكاثر دون انقطاع فيعوض هؤلاء الأسياد عن عبيدهم الذى أفناهم المرض بجيل آخر من العبيد ينتظرهم نفس المصير، لهذا فنحن نرى أن المالك يستدعى الطبيب لعلاج جاموسه إذا مرضت بينما يترك الفلاح الذى يزرع له الأرض إذا مرض حتى يموت أو على الأقل لا يعتنى به العناية الكافية لعلاج المرض.

إن لا بد من حكومة شعبية تشرف بنفسها على كل شىء فى الدولة. وأما الجهل فقد اعتاد الكتاب ودعاة الإصلاح هؤلاء أن يقولوا أن عشرين فى المائة من أفراد هذا الشعب أو أقل هم الذين يحظون وحدهم بحق العلم. هذا إذا كانت القراءة والكتابة هى الحد الفاصل بين الجهل والعلم. يقولون هذا ثم يطالبون بالعناية بالتعليم ونشر المدارس وينسون أن هناك للمشكلة وجها آخر إذ تتصل هى الأخرى بنظام الطبقات فلو وزعنا عدد الطلبة الذين يدرسون فى معاهد العلم المختلفة تبعا لاختلاف مهن آبائهم لوجدنا أن أبواب المدارس لا تفتح إلا لأبناء الأغنياء بينما تغلق فى وجوه الفقراء وقد يقال إن أبناء الفقراء يتعلمون هم أيضا والمدارس ملأت بهم ولكن لهذه المسألة سر وهى أن أبناء الأغنياء لا

يكفون لإدارة شؤون الدولة الحكومية وغير الحكومية فهم يعمدون إلى تعليم فريق من أبناء الفقراء لكي يكملوا به جهاز الدولة حتى إذا امتلأت الوظائف الحكومية وغير الحكومية ارتفعت بعض الصيحات الرجعية وهى تمثل مصالح المستغلين بضرورة تحديد التعليم أما نحن فإننا نريد العلم لكل فرد من أفراد الشعب وهذا بدوره لا يمكن أن يتحقق إلا إذا قامت على رأس البلاد حكومة شعبية تسيطر على وسائل الإنتاج وعلى الحياة الاقتصادية التى هى أساس لجميع الغايات الاجتماعية المختلفة ومن بينها التعليم هذا فيما يتعلق بمشاكل المجتمع المصرى ومدى ارتباطها بنظام الطبقات وكنت أتكلم إلى جانب هذا عن طبيعة الاستغلال فى المجتمع الحاضر.

كنت أثبت أن كل ربح يحصل عليه صاحب رأس المال إنما يحصل عليه من جهود العمال فالعمل هو الذى يعطى للسلعة قيمتها والعمل يقوم به العمال وإذن فكل ثروة فى المجتمع الحاضر هى عبارة عن عمل متجمع وإذن فصاحب رأس المال إن كان يحصل على جزء من المنتجات فإن هذا معناه أنه يستولى دون وجه حق على عمل يقوم به العمال.. ولكى نلغى هذا لا بد وأن تضع الحكومة يدها على جميع وسائل الإنتاج حتى يعمل جميع أفراد الشعب وتأخذ من كل فرد منهم حسب قدرته وتعطى لكل فرد حسب عمله. وكنت أتكلم أيضا عن موقف الأحزاب المصرية من الشعب المصرى.

هل هى تدافع عن مصالح طبقات معينة أم تدافع عن مصالح هذا الشعب فكنت أقول إن هذه الأحزاب جاءت لتدافع عن مصالح الطبقات المستغلة فالذى أفاد من الحركة الوطنية هم الرسماليون المصريون ضد الرأسماليين الأجانب والذى أفاد من التيار الديمقراطى هم أعيان البلاد ورأسماليوها أما الشعب فإنه لم يمثل أبدا فى البرلمان. ولكن هذا لا يمنع من أن نقدر لهذه الحركة قدرها على أن تكمل الديمقراطية السياسية وتدعمها بنوع آخر من الديمقراطية الاقتصادية.

وكنت أتكلم أيضا عن الدور الذى ستلعبه «الخبز والحرية» فى تاريخ البلاد وهو تحقيق مجتمع لا أثر فيه لاستغلال الإنسان للإنسان، مجتمع تكون على رأسه حكومة شعبية تشرف على الإنتاج وتضمن عدالة التوزيع.

س: يؤخذ من مبادئك أنك تنادى بالغاء الرأسمالية؟

ج: بلا جدال.

س: ماذا يكون مصير الأموال المملوكة للأفراد؟

ج: رؤوس الأموال تنتقل كلها إلى حكومة الشعب فنبداً أولاً بنقل شركات الاحتكار إلى ملكيتها، وهكذا فى بقية وسائل الإنتاج الكبير إلى أن يتحقق بالتدريج تحول رأس المال كله إليها.

س: ألا يجوز أن يكون للشخص ثروة خاصة؟

ج: يجوز أن يكون للشخص ثروة خاصة بحيث لا يستغل عن طريقها الآخرين.

س: إذن أنت تريد بمبادئك أن تلغى النظام القائم؟

ج: نعم. أنا أريد بمبادئى أن ألغى النظام القائم. أنا أريد أن أحقق نظاماً أصح.

س: وبأى وسيلة تستطيع تنفيذ هذا؟

ج: سننشر هذه المبادئ على الناس وإذا اقتنعوا بها نستطيع أن ننفذها.

س: وبأى طريقة تنفذها؟

ج: بالطرق المشروعة.

س: وإذا أبى أولو الأمر هذه المبادئ؟

ج: كيف يأبون ما دامت الأغلبية ستكون معنا؟

س: وماذا يكون العمل لو أن الطبقات الحاكمة لا ترى هذا الرأى؟

ج: إذا رأت الطبقات الحاكمة غير هذا الرأى سنتقدم إلى البرلمان بعد أن يقتنع الشعب

بها. ويتقدمنا إلى البرلمان نستطيع أن نحقق مبادئنا لأنه ستكون لنا أغلبية فيه.

س: لقد ثبت من أقوال كثيرين ممن حضروا دعايتك أنك كنت تقول إنه عند تخرج

الحال ستنفذ الأمر بقوة السلاح؟

ج: هذا غير صحيح وربما أخطأوا السمع أو أخطأوا الفهم.

س: لقد ذكر أولئك الشهود وبعض المتهمين نص العبارات التى ذكرتها الآن فى أقوالك

وكثيراً من التفصيلات التى أيدت بها مشروعاتك مما لا يدع مجالاً للشك فى أنهم أساءوا

الفهم فى عبارات استعمال السلاح.

ج: أظنك تذكر أننى قلت إن بعض الأفراد لم يستطيعوا فهم نظرياتى كنظرية «قيمة

السلع».

س: هذه النظرية نقلها عنك تلاميذك فعلاً فى التحقيق بحرفياتها دون تفهم لحقيقة

المقصود منها أما مسألة استعمال السلاح فهي مسألة ليس فيها فلسفة أو منطق عميق بحيث يتعذر فيها الفهم أو يخطئها السمع.

ج: إننى أعود فأكرر أنه ليس فى برنامجى مطلقاً أن أستعمل القوة المسلحة وكل من يقول هذا القول أحد أمرين إما أن يكون خاضعاً لجهة ما أثرت عليه حتى يشهد شهادة زور، وإما أن يكون قد أخطأ الفهم.

س: لقد ثبت هذا من أقوال المبلغين عن الحادث وهم سعد زغلول عاشور وكمال الدين عزت وصلاح الدين محمد الذين تقدموا من أنفسهم مبلغين دون أن يدري أحد أنك ذكرت هذه العبارات.

ج: لست أدري إن كان هؤلاء قد بلغوا من تلقاء أنفسهم أم تلقاء غيرهم، ثم هناك شىء يدعو إلى الشك وهو أن مأمور القسم ذكر لى فى المحضر الذى أجراه معى أن شخصاً يدعى سعد زغلول عاشور ومعه زميلان لا أذكر اسميهما الآن يقررون أننى أعمل على القيام بحركة ثورية مسلحة كما حصل فى إسبانيا وشهادة مثل هؤلاء الشهود لا يمكن أن يؤخذ بها لأن هذا القول ملىء بالتناقض فالانقلاب الذى حدث فى إسبانيا انقلاب ناشئ ونحن معروفون بعدائنا للفاشية بدليل ما نشرناه من قبل، ففى جماعة «الفن والحرية» أصدرنا بياناً ضد الفاشية عندما أحرقت فى ألمانيا مؤلفات كبار الكتاب فى الميادين العامة، وهاجمناها أيضاً فى المقالات التى كتبت فى مجلتنا «النطور» وكذلك فى رسالة «مشاكل العمال فى مصر».

س: ذكر كل من إبرام ميخائيل ومحمد أبو السعد وأحمد عبد المجيد صيام ومصطفى إسماعيل سويف ومحمد سعيد عبد الله أنك ناديت فيهم بتحريض الشعب على اعتناق مبدأ إلغاء الرأسمالية على أن تكون قوة استعمال السلاح هى الوسيلة لتحقيق هذا المبدأ.

ج: لم أقل شيئاً من هذا. وإذا كان صدر منى هذا حقيقة فهل قال به جميع الذين استجوبوا فى التحقيق؟

س: لقد ذكرت هذه الأقوال من المقبوض عليهم محمد سعيد عبد الله وإبرام ميخائيل ومصطفى إسماعيل سويف وأحمد محمد أحمد.

ج: هناك أفراد آخرون إذن لم يقولوا هذا القول وهذا دليل على أن هذه الأقوال ليست صحيحة ثم هناك شىء آخر أريد أن أسأله وهو لماذا لم يعتقل سعد زغلول عاشور وزميلاه

الذان لا أذكر اسميهما مع أنه ثبت أنهم متصلون بنا على الأقل من الخطاب الذى أرسلته إلى سعد زغلول عاشور.

س: لقد أفرجت النيابة عن الأشخاص الذين رأت إلى الآن من التحقيق أنهم لم يتصلوا بالجمعية ويؤيدوا أفكارها أو انفصلوا عنها لما تبينوا مبادئها.

ج: ألا يجوز أن يكون هذا تهرباً؟

س: تقدم بعضهم بالبلاغ كدليل مادي على عدم أخذهم بمبادئ الجمعية وكذلك مركز بعضهم وما ثبت من عدم ترددهم أكثر من مرة واشتتين وانقطاعهم على أثر علمهم بالغرض الجنائى من قيام الجمعية.

ج: جميع المقبوض عليهم لم يترددوا على منزلى أكثر من مرة أو مرتين أما البلاغ فيمكن أن يكون قد قدم تحت تأثير معين.

س: الأشخاص المقبوض عليهم ثبت ترددهم عليك أكثر من خمس أو ست مرات.

ج: ليسوا جميعاً ومعظم هؤلاء الأفراد لم يترددوا أكثر من تردد المبلغ سعد زغلول عاشور، على أى حال فإننى أعود فأكرر أن ما قيل عن استعمال السلاح قول لا أساس له من الصحة.

س: ما هو موضوع الأسماء الـ ٢٩٩ التى ضبطت بالكراسة التى ضبطت عندك؟

ج: هذه مجموعة من الأسماء حصلت عليها من أشخاص مختلفين لكى أرسل إليهم بياناً أو نداءً قد أصدره.

س: ما وجه اختيارك لهؤلاء الأشخاص؟

ج: هذه الأسماء عرضت عن طريق سؤال بعض أصدقائى دون نظام ما.

س: هل لك علاقة شخصية بهؤلاء الأشخاص؟

ج: لا. وأنا لا أعرف أغلبهم وليست لهم علاقة بالجمعية.

س: هل تعرف شخصاً يدعى القنطراوى؟

ج: أنا لا أذكر هذا الخطاب ولا أذكر الاصطلاحات الواردة فيه.

س: وجدت عندك أوراق بها مقالات عن الفاشية وثورة الطبقة الوسطى والديكتاتورية والرأسمالية الضخمة والفاشية والثورة ومقالات أخرى عن هذا الموضوع.

ج: هذه سلسلة مقالات قام بإعدادها الزميل عبد العزيز فهمى هيكل عن الفاشية

وكيفية قيامها فى ألمانيا وإيطاليا وبعض دول أوروبا الوسطى.

س: وما هذه القصص (عرضنا عليه الأوراق المكتوبة بالآلة الكاتبة تحت نمرة ١٦٦ من محضر فحص الأوراق).

ج: هذه قصة روسية لأنطون تشيكوف.

س: ومن هو سعيد هذا الكاتب للخطاب المؤرخ ١٨/٣/١٩٤٢؟

ج: أنا متذكر هذا الخطاب ولكن لا أتذكر من الذى أرسله.

س: هل تعرف شخصا يدعى أنور شتا مرسل الخطاب نمرة ٢٠؟

ج: أنا أذكر هذا الشخص ولكن لا أعرف عنوانه.

س: هل لك علاقة بحزب مصر الفتاة؟

ج: كانت لى علاقة بحزب مصر الفتاة ولكنها انقطعت.

س: ورد إليك خطاب بإمضاء مصطفى نائب الحزب.

ج: هو مصطفى الوكيل نائب رئيس الحزب.

س: هل تعرف شخصا يدعى توفيق الإليلى؟

ج: أعرف هذا الاسم ولكنى لا أذكر صاحبه.

س: هل تعرف شخصا يدعى عباس فتحى رضوان؟

ج: لا أذكر هذا الشخص وربما يكون قد أرسل إلى هذا المقال فى مجلة «التطور».

س: أنت متهم بأنك أدت ونظمت اتفاقا جنائيا الغرض منه قلب نظام الحكم بطريق القوة والعنف.

ج: هذا الاتهام باطل من أساسه وأطلب من النيابة حفظ القضية لأن فى الأقوال التى أدليت بها ما يؤكد أن الحركة التى أقوم بها بعيدة كل البعد عن الوصول لأى غرض غير مشروع أو اتخاذ أى طريق لا يؤيده القانون فى التحقيق هذا الغرض.

تمت أقواله

انتهى

(١) الحساب ١٠/٤/١٩٢٥.

Joseph Stalin - Marxism and the National and Colonial question - Lon - don, 1947 - pp.216. (٢)

M.S Agwani - Communism in the Arab East Asia Publishing House, Bombay - pp 6. (٣)

حكمدارية بوليس مصر

مذكرة

عن هنرى دانييل كورييل(*)

هو هنرى نجل دانييل كورييل- الإسرائيلي المعروف وصاحب مصرف كورييل. وقد
تجنس بالجنسية المصرية فى سنة ١٩٣٩ والمذكور يشتغل من عام ١٩٣٨ بتغذية الحركة
الشيوعية فقد ألف جماعة الاتحاد الديموقراطى واتخذ المنزل رقم ١ شارع سكة الفضل
تبع قسم عابدين مقرا لها. وقام هو بأعمال الوكالة فيها. وكان من بين أعضائها.

ريمون أجيون إسرائيلى.

مدموازيل إستر ستون إسرائيلية.

مدموازيل هنريت أرييه إسرائيلية مدرسة بمدرسة الظاهر الفرنسية.

عزرا هرارى مهندس بشركة موصيرى.

وفى عام ١٩٣٩ ألف جماعة الفن والحرية بالاشتراك مع جورج حنين الموظف بشركة
مياه القاهرة وأنور كامل عثمان، وكان هذا الأخير قد تخرج من الجامعة الأمريكية سنة
١٩٣٢ بعد حصوله على شهادة الدراسة الثانوية قسم ثان ثم التحق بمصلحة المساحة فى
الدرجة الثامنة براتب قدره ستة جنيهات شهريا حيث نسب إليه «أى إلى أنور كامل» أثناء
وجوده فى خدمة الحكومة:

أولاً: العيب فى الذات الملكية غير أن التهمة لم تثبت قبله.

ثانياً: إصداره بياناً مقارنة عن حالة العمال والفلاحين وصغار الموظفين من جهة وحالة الملاك وأصحاب الصناعات وكبار الموظفين من جهة أخرى ففصل من عمله فى يونيو ١٩٣٩ وأحيل إلى النيابة العامة ولكن الدعوى لم ترفع عليه. وفى يناير ١٩٤٠ أصدر أنور كامل المذكور هو ومحمود فتحى الرملى - ممن قطعوا شوطاً فى التعليم الثانوى - مجلة «التطور» الشهرية لتكون لسان حال لجماعة الفن والحرية ومن بين ما ورد فى بعض أعدادها.

أ- الشعب يموت جوعاً فى ظل الحياة النيابية.

ب- يا عمال العالم اتحدوا.

وقد قررت إدارة المطبوعات شطب المجلة المذكورة من «أعداد الصحف» وذلك فى ١٧ ديسمبر ١٩٤٠ لعدم قيام صاحبها بدفع التأمين المنصوص عليه فى المادة ١٥ مطبوعات.

وفى عام ١٩٤٠ أسس المذكورون نادى «الثقافة والفراغ» بشارع الفلكى ثم بشارع أبو السباع، وكان يهيمن على النادى إسرائيلى هو مارسليو ماريو وزوجته جانيت وكانا على صلة بهيئة شيوعية فلسطينية وكانا يمدان أنور كامل عثمان بالمال وكان ظاهر النادى الرياضة والثقافة وحقيقته الدعاية للشيوعية إلى أن أغلق فى أغسطس ١٩٤١ وفى ١ سبتمبر ألفوا جماعة الخبز والحرية وكان معهم عبد العزيز هيكال الطالب وأسعد حليم وعبد الرحيم صالح عرابى الصحفيان وكان هذا الأخير مع فتحى الرملى يكونان جمعية «نحن أنفسنا» وأغراضها متفقة مع أغراض جماعة الخبز والحرية.

(*) واردة بملف قضية الشيوعية الكبرى عام ١٩٤٦. فى الصفحات ١٠٩٤ - ١٠٩٥ «المؤلف».

حكم إدارية بوليس مصر مذكرة معلومات عن هنرى دانييل نسيم كورييل*

سن ٣٥ سنة يقيم بشارع حسن صبرى باشا رقم ٣٦ بالزمالك وله مكتب بشارع الشواربى رقم ٦ بدائرة قسم عابدين، ووالده إيطالى الجنس ولكن هنرى حصل على الجنسية المصرية بتاريخ ١٩/١٠/١٩٣٩.

وهو شيوعى خطر يغذى الحركة الشيوعية بالقاهرة، ففى شهر يونيه سنة ١٩٤١ استأجر جريدة «حرية الشعوب» من صاحبها رجب أحمد عمر وأسند رئاسة تحريرها إلى أنور ماهر حسن فرج لاستغلالها فى الدعاية للمبدأ الشيوعى، وقد ألفت جمعيات تحت ستار الثقافة ضم إليها بعض الأشخاص المعروفين بميولهم الشيوعية وهى جمعية «الثقافة والفراغ» وجمعية «الخبز والحرية» * و«المركز الثقافى والاجتماعى» وكان كورييل يحركها من وراء الستار حتى قبض على زعماء الجمعية الأولى وهى «الثقافة والفراغ» فى تاريخ ١٥/١٠/١٩٤١ واعتقل رئيسها إسرائيل مارشليون ماريو الإيطالى وتولت النيابة التحقيق الذى حفظ إداريا فى تاريخ ٢٧/١١/١٩٤١، كما قبض على أعضاء جمعية الخبز والحرية بتاريخ ١١/٦/١٩٤٢، وهى برئاسة الشيوعى أنور كامل عثمان وأخطرت النيابة بالحادث وتقييد برقم ١٤٩ جنايات عسكرية سنة ١٩٤٢ ولم يتم نظرها بعد حيث أحيلت لدور مقبل

لم يحدد للآن، كما قبض على زعماء «المركز الثقافى والاجتماعى» وهم سلامون سليم سدنى وتوماس بلاموتس وعزرا هرارى بتاريخ ١٣/١/١٩٤٣ وصدر أمر رفعه الحاكم العسكرى العام باعتقالهم فى ١/١/١٩٤٣ وأفرج عن سلامون سليم سدنى فى ١٢/٦/١٩٤٣ وأفرج عن توماس بلاموتس وعزرا هرارى بتاريخ ١١/١٠/١٩٤٣ مع مراقبتهم لمدة ثلاثة أشهر قابلة للتجديد، وقد انتهت مراقبة سلامون سدنى فى ١٨/١١/١٩٤٥ وانتهت مراقبة توماس بلاموتس وعزرا هرارى فى ٥/٧/١٩٤٥.

وقد قبض على هنرى كورييل فى ٤/٨/١٩٤٢ بناء على أمر رفعه الحاكم العسكرى العام وقتئذ واعتقل بدارمعتقل الزيتون حتى أفرج عنه يوم ١١/١٠/١٩٤٢ ووضع تحت المراقبة العسكرية بمنزله لمدة ثلاثة أشهر قابلة للتجديد حتى رغعت عنه الرقابة فى ٥/٧/١٩٤٥ بناء على قرار دولة وزير الداخلية وفى شهر ديسمبر ١٩٤٤ أوعز هنرى كورييل إلى أحد أذنايه الشيوعى محمود فتحى الرملى بأن يتقدم لترشيح نفسه لعضوية مجلس النواب عن دائرة السيدة زينب وأمه بالمال اللازم، وعاونه معاونة صادقة بالاشتراك مع أتباعه رغم علمه باستحالة نجاحه وكان غرضه من ذلك نشر المبدأ الشيوعى وقد أبلغ ذلك إلى سعادة حسن فهمى رفعت باشا بكتابنا رقم ب/١٣٧ بتاريخ ٣١-١٢-١٩٤٤.

وهنرى كورييل يعمل جهد استطاعته على نشر الوعى الشيوعى يتبعه فى ذلك بضعة شبان أنشطهم كمال شعبان الطالب بمدرسة الفنون الجميلة العليا وحسين كاظم وعبد هب وعبد الماجد حسبو ومحمود العسكرى* وإبراهيم حافظ العطار.

(*) مذكرة المعلومات هذه قدمتها حكمدارية بوليس مصر للنيابة العامة عند القبض عليه فى عام ١٩٤٦. وهى تتضمن معلومات مهمة عن شخصيته ونشاطه وعلاقاته.

وهى مودعة فى ملف القضية فى الصفحات ١٠٨ - ١٠٨٧ - ١٠٨٨ (المؤلف).

(**) لم يكن كورييل من مؤسسى «الخير والحرية» (المؤلف).

(*) غير صحيح أن محمود العسكرى كان على علاقة ما بهنرى كورييل فالثابت أن العسكرى بدأ نشاطه اليسارى مع جماعة «الفجر الجديد» (المؤلف).

حكمادارية بوليس مصر

سرى سياسى رقم ب/١٣٧ - سنة ١٩٤٤

مذكرة عن الجبهة الاشتراكية(*)

حضرة صاحب السعادة حسن فهمى رفعت باشا:

إلحاقا لكتابنا لسعادتكم رقم ١٣٣٥ بتاريخ ٢١ يونيو ١٩٤٢ بشأن هنرى كورييل وتغذيته الحركة الشيوعية التى كانت تقوم بها جمعيتا «الثقافة والفراغ» و«الخبز والحرية» وقيامه ببيع بعض الكتب الشيوعية بمكتبته (مكتب الميدان) الكائنة بميدان مصطفى كامل باشا رقم ٥ قسم عابدين، وصدور أمر عسكرى وقتئذ باعتقاله وتنفيذ ذلك بتاريخ ٤ أغسطس ١٩٤٢، ثم الإفراج عنه مع وضعه تحت مراقبة البوليس عسكريا بالقاهرة لمدة ثلاثة شهور تجددت حتى الآن.

وبالنسبة لكتابنا لسعادتكم رقم ب/١٣٧ بتاريخ ١٦ يناير ١٩٤٣ بشأن قيام بعض زعماء المركز الثقافى الاجتماعى الذى كان مقره بسكة الفضل رقم ١، بنشر الدعوة الشيوعية والذى كان يستأجر داره ويديره هنرى كورييل وضبطهم وتولت النيابة التحقيق معهم وصدور أمر الحاكم العسكرى العام بإغلاق الدار المذكورة واعتقال زعماء هذه الحركة وهم:

- توماس بلاموتس.

- سلامون سليم سدن.

- عزرا هرارى.

ثم الإفراج عنهم ووضعهم تحت مراقبة البوليس عسكريا بمحال إقامتهم بالقاهرة لمدة ثلاثة أشهر تجددت حتى اليوم.

أتشرف بإبلاغ سعادتكم أننا علمنا أن هنرى كورييل المذكور ألف أخيرا جماعة أطلق عليها اسم الجبهة الاشتراكية، من بين أعضائها كل من(**).

محمود فتحى الرملى - صحافى ومقيم بشارع مجلس النواب رقم ١ قسم السيدة.

محمد فتحى الرملى - مدير دار التعاون الصحفى بشارع مجلس النواب وسكنه شارع مجلس النواب قسم السيدة.

رمسيس يونان - صحافى - ومكتبه بشارع علوى رقم ١٠ ومقيم بالمنزل رقم ٥ بدرب اللبانة قسم الخليفة.

لطف الله سليمان - موظف بمكتبة النهضة شارع المغربى وسكنه درب اللبانة رقم ٥ قسم الخليفة.

جورج حنين - موظف بشركة مياه القاهرة ومقيم بمنزل والده سعادة صادق حنين باشا بشارع الوابور بروض الفرج.

عبدالعزیز سالم هيكل - موظف بوزارة المعارف، ومن خريجى كلية التجارة ومقيم بشارع وهبى باشا رقم ١٠ قسم السيدة.

محمد ناهيد أبوزهرة - طالب بكلية الحقوق ومقيم بشارع فاروق حارة طود رقم ٥ قسم باب الشعرية.

أنور كامل عثمان - موظف بقسم الحدائق بحديقة الأورمان وسكنه شارع مراد بك رقم ٧ بالجيزة.

فؤاد كامل عثمان - طالب بمدرسة الفنون الجميلة العليا وسكنه شارع مراد بك رقم ٧ بالجيزة.

حسين صالح ذهب - سكرتير نقابة خدم المنازل - رقم ١٥ شارع سامى ويقيم بهذا العنوان أو بملك والده صالح ذهب بعطفة المكتب بالشيخ عبدالله قسم عابدين.

عبدالوهاب محمد - بمطبعة الرغائب.

إبراهيم إيليا مسعود - طالب بمدرسة الفنون الجميلة العليا ويقيم بشارع بين الجنانين رقم ١٢ - الوايلي.

خضر محمود خضر - خريج الهندسة التطبيقية وسكنه شارع السلمانية رقم ١٦ قسم بولاق، أو بطره البلد، أو طرف والده محمود خضر نجار أرانيك بشارع سوق العصر القديم قسم بولاق.

بخور منشة - وقد ضبط وهو يكتب على جدران المنازل بدائرة قسم عابدين والوايلي عبارات للدعاية الشيوعية وهي:

الاشتراكية ستقود العالم، الاشتراكية ضد الاستعمار - وبتفتيش منزله ومكتبه وجدت أوراق ومذكرات وكتب تدل على أنه متصل بمحمود فتحي الرملى ورمسيس يونان وآخرين وقد اعترف المتهم شفاهة بكتابة الجمل المذكورة لأنه من أتباع محمود فتحي الرملى ويروج لانتخابه ويدعو إلى الاشتراكية.

وقد تبلغ ذلك لسعادتكم بكتابنا رقم ٢٢٨٦ سرى سياسى بتاريخ ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٤٤ أو نمرة ٢٢٧٧ سرى سياسى بتاريخ أمس.

وقد تمادى محمود فتحي الرملى بطبع جملة منشورات تحت ستار الدعاية الانتخابية تتضمن المبادئ الاشتراكية والدعوة لها وقد أبلغنا ذلك لسعادتكم بكتابنا رقم ٣٣٦٤، ٢٢٧٦ بتاريخ ٣٠ ديسمبر ١٩٤٤.

ومما يتضح لسعادتكم أن محمود فتحي الرملى وأفراد هذه الجبهة يقومون بدعاية مثيرة للخواطر ومخلّة بالأمن العام وغرضهم الأساسى من ترشيح محمود فتحي الرملى هو نشر هذه الدعاية.

فنرجو سعادتكم النظر والتكرم بإفادتنا عما يتبع.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام،

تحريرا فى ٣١ ديسمبر ١٩٤٤.

حكمدار بوليس مصر

عنه سليم زكى (ختم)

(*) نص رسالة موجهة من سليم زكى حكمدار بوليس مصر بالنيابة إلى حسن فهمى رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية حول نشاط الجبهة الاشتراكية والرسالة مؤرخة فى ١٩٤٤/١٢/٣١. وهى مودعة بملف قضية الشيوعية الكبرى عام ١٩٤٦ فى الصفحات رقم ١٠٨٨ - ١٠٨٩ - ١٠٩٠ - ١٠٩١ - ١٠٩٢ - ١٠٩٣ (المؤلف).

(**) ليس صحيحا أن كورييل شارك فيما سمي بالجبهة الاشتراكية أو أنه تعاون مع كثير من الأسماء الواردة فى هذه المذكرة خاصة وأن معظمها كانت ذات ميول تروتسكية، ولعل هذا الخلط يوضح تخطيط معلومات رجال الأمن أو حرصهم على إلصاق كل تحرك بكورييل كمبرر لاضطهاده. (المؤلف).

(٣) وثائق حول موضوع س كلا ت فال

- معلومات عن س كلا ت فال (وثائق وزارة الخارجية البريطانية).
 - نداء من س كلا ت فال إلى شعب مصر (وثائق وزارة الخارجية البريطانية).
 - رسالة من س كلا ت فال إلى عدلى باشا يكن (وثائق وزارة الخارجية البريطانية).
 - مناقشات فى البرلمان المصرى (مضابط مجلس النواب المصرى).
 - ملخص لترجمة مقال فى جريدة «بندر اسلام» الملاوية
- (وثائق وزارة الخارجية البريطانية).

سكالا تفالالا

وثائق وزارة الخارجية البريطانية

مكتب السجلات العامة

ملف رقم ١٢٣٥٤/٣٧١

رقم الوثيقة ١٨٨٠

سرى للغاية

- شاربورجى دورابجى سكالا تفالالا.
- ابن أخت راتان تاتا.
- ولد فى بومباى فى ١٨٧١ وتخرج من جامعة بومباى.
- وصل إلى إنجلترا ١٩٠٥.
- تزوج فى ١٩٠٧.
- فى ١٩٠٩ انضم إلى فرع مانشستر فى I.L.P.
- فى ١٩١٦ انضم إلى الحزب الاشتراكى الإنجليزى الذى أصبح فيما بعد الحزب الشيوعى الإنجليزى.
- أسهم فى جميع الحركات والمؤتمرات والروابط المناهضة للاستعمار.

«انتهى»

نداء من سكالا تفاللا إلى شعب مصر

وثائق وزارة الخارجية البريطانية

مكتب السجلات العامة

ملف رقم ١٢٣٥٤/٣٧١

رقم الوثيقة ١٨٨٠

٣ يناير ١٩٢٧ لا يجوز تداولها ولا تصويرها إلا بإذن خاص،

إلى شعب مصر

أيها الإخوة والأخوات..

إننى رجل يؤمن إيماناً عميقاً بالشعب، بالشعب العادى. إن أفكار وآراء الناس الفقراء والمضطهدين هى عندى أكثر قيمة من آراء كبار الأغنياء وكبار رجال الدولة.

ولذا فإننى أتوجه إليكم بالحديث أنتم أيها الإخوة والأخوات يا أبناء أرض مصر العريقة، اتوجه إليكم أنشد مساعدتكم فى هذه المحنة المشتركة.

أنا رجل إنجليزى الجنسية، لكننى كرسيت حياتى كلها من أجل النضال دفاعاً عن كل البشر المضطهدين والذين اغتصبت حقوقهم الاقتصادية والسياسية.. اغتصبها هؤلاء الجشعون الذين يريدون أن يستحوذوا لأنفسهم على كل ما هو جميل فى هذا العالم، وأن يرفضوا سلطانهم، كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً - على الإنسانية جمعاء، والذين لا يتورعون عن اغتصاب أوطان الشعوب الأخرى وانتهاك حقوقها.

إن بريطانيا العظمى وهى دولة قوية مولعة ولعا شديدا بغتصاب حقوق الشعوب الأخرى، ويفرض سيطرتها عليها مستندة إلى مختلف الحجج والنرائع. لكنه وفى بريطانيا العظمى نفسها يوجد الملايين من أبناء الطبقة العاملة الذين لا يشاركون فى حكم بلادهم، ولا يرغبون مطلقا فى أن تفرض بلادهم نفوذها على شعوب بلدان أخرى.

ومن بين أبناء هذه الطبقة برز الحزب الشيوعى فى بريطانيا العظمى، ذلك الحزب الذى يطالب ويناضل من أجل المساواة والاستقلال للأمم جميعا، ومن أجل الحرية والمساواة بين أبناء الأمة الواحدة.

إن حى «نورث باترسى» هو واحد من أحياء الطبقة العاملة فى تلك المدينة الكبيرة، لندن، ويزخر هذا الحى بالمواطنين ذوى التفكير السليم، والذين علموا برغبتي فى النضال من أجل المظلومين فأبدوا سعة أفق وتخلصوا من كل الشوائب التى يثيرها كونى من أصل هندى ومن كل المخاوف الزائفة عن كونى أمثل الأممية الشيوعية، تخلصوا من كل ذلك وأرسلوا بى عضوا فى مجلس العموم البريطانى.

ولما كنت العضو الوحيد فى مجلس العموم الذى يمثل الحزب الشيوعى، ونظرا لكونى من أصل شرقى فإن عملى كعضو فى المجلس يواجه صعوبات شديدة. ذلك أننى أفكر وأتكلم بطريقة تختلف تماما عن بقية الـ ٦١٤ عضوا فى مجلس العموم.

ومصر المسكينة هى الأخرى واحدة من تلك البلدان التى تعانى المتاعب نتيجة لنهمهم وجشع عدد ضئيل من العائلات الغنية فى بريطانيا العظمى.

وفى البرلمان يدعى جميع أعضاء المحافظين أنهم يريدون اتخاذ موقف عادل فى مصر، لكن هذا الموقف العادل يجب أن يحافظ على استمرار حكمهم وتحكمهم فى مصر. أما الأحرار فإنهم يدعون اتخاذ موقف أكثر تحررا من المحافظين لكنهم مع ذلك يرون ضرورة الاحتفاظ بمصر والسودان من أجل مصالح بلادهم ومصالح الطبقات الغنية. وحتى حزب العمال الذى كان يوما حزبا اشتراكيا يؤمن بالإخوة والمساواة بين الأمم قد تحول بشكل سافر ومضحك تحت قيادة رامزى ماكدونالد الذى أصبح أكثر ولعا بالاستحواذ على السلطة لشخصه من ولعه بالاشتراكية للجماهير.

إن الخطاب الوقح الذى أرسله ماكدونالد إلى سعد زغلول باشا لهو خير تعبير عن وحشية وتعطش الغزاة إلى دماء شعب أعزل.

والحقيقة أنه ما من وزير للخارجية من حزب المحافظين أو الأحرار كان بوسعه أن يكتب مثل هذه الرسالة المخزية والوقحة التي وجهها ماكدونالد يوما إلى زغلول. وفي محاولة للتستر خلف الالتزام المزعوم بقرارات الحزب فإن قادة المجموعة البرلمانية لحزب العمال لا يتورعون عن المجاهرة بالعمل على انتهاك حريات شعوب العالم. ولا شك أن موقفا كهذا يثير الغثيان، لكننا يجب أن نتمسك بالأمل والثقة التي تبثها في نفوسنا نضالات الشعب العادى فى بريطانيا العظمى.

وعندما كان البرلمان البريطانى يناقش مسألة الغرامة التي فرضت ظلما على مصر ومقدارها ٥٠٠,٠٠٠ جنيه، أو عملية الاستئثار بالسودان لصالح المستغلين البريطانيين كان علىّ أنا وحدى أن أخوض نضالا منفردا ضد هذا الظلم الفادح. ليس هناك فحسب، لكننى توجهت بالنداءات العديدة إلى الطبقة العاملة فى بريطانيا العظمى لتعمل على منع قادة المجموعة البرلمانية لحزب العمال من ارتكاب مثل هذه اللصوصية ضد مصر.

وعلى هذا المنوال، فإننى قد وطدت العزم على الدفاع عن الحرية القومية لجميع الأمم وعن حقوق العمال والفلاحين فى أن يستمتعوا - هم وليس غيرهم - بثمار كدهم وكدهم. وعلى أية حال، فإنه من أجل الاستمرار بفاعلية فى مثل هذا النشاط سواء فى البرلمان أو فى أوساط الرأى العام فإن الإنسان يكون بحاجة ماسة إلى دراسة الأوضاع الحقيقية بنفسه. فربما كان الرسميون الإنجليز فى مصر مخلصين وجادين فى عملهم، لكنهم ربما كانوا أيضا يتمسكون بوجهة نظر خاصة، وهذه الوجهة النظر الخاصة هى التى تسيطر على تصرفات وزارة الخارجية البريطانية ومن حقى كعضو فى البرلمان أن أطلب الاطلاع عليها. وفوق ذلك، فإننى أرى أنه من الضرورى أن أطلع بنفسى على آراء الشعب المصرى ومواقفه، وتنظيماته وخاصة مواقف وتطلعات عماله وفلاحيه.

لكن المشكلة هى أننى رجل فقير ولولا ذلك لزرت بلدكم العريق مرات عديدة. ولقد تمكنت من أن أرتب نفسى لرحلة إلى الهند، وكان طبيعيا أن تتجه أنظارى لزيارة مصر، وأعددت برنامجا قصيرا لكنه مشحون بالعمل لهذه الزيارة التى رأيت أن تتم خلال شهر مارس أو إبريل خلال عودتى من الهند فى طريقى إلى لندن. وقد بدأت فى الحصول على تأشيرات السفر اللازمة لثلث هذه الرحلة وقد حصلت على جواز السفر بعد سلسلة الاتصالات بوزارة الخارجية البريطانية متضمنا الإذن بالسفر إلى الهند ومصر.

وبعد ذلك توجهت بنفس إلى المفوضية الملكية المصرية فى شارع تشارلس رقم ٧ بلندن

طالباً تأشيرة دخول إلى مصر وأخبروني هناك أنهم سوف يبرقون إلى القاهرة للاستئذان فى منحنى التأشيرة.

وفى اليوم التالى أخبروني أن سلطات القاهرة قد رفضت منحنى التأشيرة ومن ثم فقد قامت القنصلية فعليا بمنعنى من زيارة مصر، تلك الزيارة الضرورية لممارسة واجباتى البرلمانية سواء تجاه الشعب البريطانى أو الشعب المصرى المعذب.

أيها الرفاق... أيها الأصدقاء...

ما هو معنى ذلك كله؟ هل منعت من دخول مصر لأننى عضو فى الحزب الشيوعى؟ هل أيد أى حزب شيوعى فى أى بلد من بلدان العالم استغلال الإمبرياليين للشعب المصرى؟ هل ناضل أى عضو فى البرلمان البريطانى من أى حزب من الأحزاب مثلما ناضلت أنا بحماس وإخلاص دفاعاً عن حقوقكم؟ أنتم يا من كرمتم رامزى ماكدونالد وأهديته صينية قهوة من الفضة، أنتم يا من تكرمون وترحبون بأى عضو آخر من الأعضاء الستمائة والأربعة عشر فى البرلمان؟ هل صحيح أنكم تمنعون رجلاً فقيراً مثلى من دخول بلادكم لمجرد أننى أناضل من أجل الحرية الكاملة لشعب بلادكم ومن أجل تخلصه من أى تحكم أو استغلال أجنبى أيا كانت جنسية القائمين به؟ وهل من حق أصدقائى الهنود أن يفترضوا أن المصريين يضطهدوننى وأنا العضو الشرقى الوحيد فى البرلمان البريطانى بينما لا يمنعون أى عضو آخر فى البرلمان، هؤلاء الأعضاء الذين أيدوا فرض غرامة النصف مليون جنيه إسترليني على مصر والذين طردوكم من أراضى إقليمكم السودان؟ أم ماذا يا شعب مصر؟ هل برلمانكم مجرد ألعوبة، وهل كان وزراؤكم مجرد منفذين مطيعين لتعليمات بريطانية بمنعنى من دخول مصر؟ أم أن استقلالكم وبرلمانكم محدودا الأثر؟ أم تخشون أننى بعد زيارتى لمصر سوف أكف عن اعتقادى بعدالة قضيتكم؟

تكلّموا، تكلّموا يا أبناء مصر.. تكلّموا، تكلّموا بأعلى صوتكم. وبأصريح وبأسرع ما يمكن، حتى أستطيع أن أستمع إلى صوتكم وإلى إرادتكم من هنا، من بعيد من بومباى.. ولعلنى فى النهاية أستطيع أن أزور مصر فى طريق عودتى..»

شابورجى سكلاتفالا

عضو فى البرلمان البريطانى

وفى الحزب الشيوعى البريطانى

رسالة من سكتا تفضالا إلى عدلى باشا يكن

وثائق وزارة الخارجية البريطانية

مكتب السجلات العامة

ملف رقم ١٢٣٥٤ / ٣٧١

رقم الوثيقة ١٨٨٠

«سرى»

حضرة صاحب السعادة عدلى باشا يكن؛

رئيس الوزراء - القاهرة

يا صاحب السعادة

ربما وصل إلى علمكم أن طلبى المتواضع الذى تقدمت به طالبا منحنى تأشيرة الدخول لزيارة مصر قد قوبل بالرفض من قبل المفوضية الملكية المصرية فى لندن، التى أبلغتنى أن هذا الرفض قد تقرر بناء على تعليمات من القاهرة.

هل تسمحون لى أن أقرر لكم أن هذا موقف غير عادى وغير مقبول تجاه عضو فى البرلمان البريطانى؟ أننا لا نزعم لأنفسنا تعاليا على القانون ولا استثناء من أحكامه، وفى حالة قيام أى فرد منا خلال إقامته فى مصر بأى انتهاك لقانون بلادكم فإنه من المتعين إخضاعه للعقاب المقرر وفقا للقانون.

كما أن أحدا لا يطلب منكم انتهاك قواعدكم الدستورية من أجل تلبية رغبة أعضاء البرلمان البريطانى فى زيارة مصر.

وعلى أية حال فإن بريطانيا العظمى لا تزال تدعى - أن صدقا أو كذبا - سيطرتها

على مصر، ولا تزال تحتفظ بمندوبين رسميين - عسكريين ومدنيين فى مصر. ومن وقت قريب فرضت عليكم غرامة قدرها ٥٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني، ثم أحكمت - بشكل أو بآخر- سيطرتها الكاملة على السودان.

وفى مثل هذه الظروف فإن واجب عضو البرلمان البريطانى إزاء شعب بريطانيا العظمى وإزاء الشعب المصرى المضطهد هو أن يدين كل ما هو خاطئ. وإن منع عضو فى البرلمان من القيام بزيارة هذا هدفها لهُو تعنت لا يقبله أى عرف دستورى ولا أى تفكير متحضر.

هل تلتزم حكومتكم بمبدأ عام يقول إنه طالما أننى عضو فى الحزب الشيوعى فإن ذلك يجردنى من حقوقى كشخص انتخب عضوا فى البرلمان البريطانى؟
وفوق ذلك، هل تخلى الحزب الشيوعى فى بريطانيا العظمى يوما عن إعلان تأييده لحق مصر الكامل فى حريتها التامة غير المنقوصة؟

أم هل خفى عليكم أنه ما من عضو من مجلس العموم البريطانى من ممثلى أى حزب من الأحزاب الأخرى قد دافع عن قضية مصر فى جلسات البرلمان البريطانى الإمبريالى بنفس الحماس والإخلاص والتفانى التى دافعت بها أنا؟..

ألا تعلمون سعادتكم أن اتخاذكم قرارا بمنع من دخول مصر بعد أن منحتنى وزارة الخارجية البريطانية موافقتها على ذلك سوف يعطى الفرصة لأعداء بلادكم من البريطانيين لكى يشهروا بموقفكم هذا أمام العالم أجمع متخذين منه دليلا على «الاستبداد الشرقى الضيق الأفق» إذا قورن «بالديمقراطية البريطانية».

أم أنكم تتصورون - أنتم أيضا - أن عضوا فى البرلمان البريطانى يمكن أن يعامل بهذا الأسلوب طالما أنه من أصل شرقى بينما لا تجرؤون مطلقا على منع أى عضو آخر من أصل أوروبى بالرغم من موقفه المعادى لبلادكم؟

أم أن وزراءكم يخضعون لتعليمات الرسميين البريطانيين، وإن كان الأمر كذلك، أفلا يعتبر ذلك انتهاكا لكرامة مصر ولحرماتها؟

أم أن الدعاوى المصرية من الضعف بحيث تخشون من أن غير إيمانى بها بمجرد رؤيتى لواقعكم ولشعبكم، أنا الذى دافعت عنكم باستمرار دفاعا مستميتا؟
أم أن الأمر لا يعدو أن يكون خطأ ناجما عن التسرع فى اتخاذ القرار؟

وعلى أية حال - وأيا كان السبب فإننى أشعر بالأمل يحدونى وأنا أتوجه إلى سعادتكم بهذا النداء الحار بإعادة النظر فى هذا القرار الصادر من حكومتكم. وسوف أكون ممتنا غاية الامتنان لو تفضلتم وشرفتمونى بإرسال موافقتكم برقيا على عنوانى فى بومباى طرف البنك المركزى ببومباى، وذلك حتى أستطيع الإسراع باتخاذ الترتيبات اللازمة لزيارة بلادكم العريقة أثناء عودتى فى مارس. ولسوف أظل دوما - يا صاحب السعادة الصديق الوفى للشعب المصرى المضطهد.

شابورجى سكلاتالا

ملحوظة: أرجو أن تتفضلوا سيادتكم بإرسال نسخة من ردكم إلى سكرتيرى بمجلس العموم بلندن.

موضوع النائب البريطاني سكالا تفضلاً

مضبطة الجلسة العشرين لمجلس النواب

يوم الاثنين ١٧ يناير ١٩٢٧

المنعقدة برئاسة سعد باشا زغلول

صفحة ٢٧٤ وما بعدها من المحاضر الرسمية

... ثم تلى السؤال الموجه من حضرة الدكتور حامد محمود إلى حضرة صاحب الدولة وزير الخارجية ونصه: «هل صحيح أن المفوضية المصرية بلندرة رفضت التأشير على جواز سفر مستر سكالا تفضلاً العضو في مجلس النواب البريطاني بالتريخيص لجناحه بزيارة مصر؟» وهل تصرفت المفوضية المصرية بلندرة هذا التصرف من تلقاء نفسها أو بعد استشارة وزارة الخارجية المصرية؟ وهل لا يرى دولة الوزير أن الأجر بالحكومة المصرية أن تصدر الآن قراراً تلغرافياً بالتريخيص لنائب ينتسب إلى هيئة نيابية محترمة بزيارة البلاد؟».

وزير الخارجية:

في جدول أعمال اليوم استجواب خاص بنفس الموضوع وسيؤجل هذا الاستجواب.. فهل لا يرى حضرة العضو المحترم تأجيل هذا السؤال حتى ينظر مع الاستجواب المشار إليه في جلسة واحدة؟..

الدكتور حامد محمود:

أرى أن يجاب على السؤال الآن حتى يتنور المجلس ويستعد للمناقشة في موضوع الاستجواب..

وزير الخارجية:

هو كذلك.. والجواب على السؤال ما يأتى:

«نعم رفضت القنصلية المصرية العامة فى لندرة التأشيرة على جواز سفر المستر سكلا تفالا وقد كان ذلك بناءً على التعليمات التى تلقتها من وزارة الداخلية المصرية. أما الإجابة عن الفقرة الأخيرة من السؤال فبالنقى».

ثم أشير إلى الاستجواب المقدم من حضرة حسن سيد أحمد نافع أفندى إلى حضرة صاحب الدولة وزير الداخلية بشأن منع الحكومة المصرية المستر سكلا تفالا عضو مجلس النواب البريطانى من الدخول إلى القطر المصرى.

وزير الخارجية:

يطلب دولة وزير الداخلية تأجيل الإجابة على هذا الاستجواب ثمانية أيام.

الرئيس:

هل يمانع حضرة مقدم الاستجواب فى طلب التأجيل..؟

حسن سيد أحمد نافع أفندى:

لا مانع عندى من التأجيل..

الرئيس:

إذن تقرر تأجيل هذا الاستجواب ثمانية أيام.

موضوع النائب البريطاني سكلا تفالاً

مضبطة الجلسة الثانية والعشرين لمجلس النواب

يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٢٧

المنعقدة برئاسة سعد زغلول ثم

مصطفى النحاس من ٣١٦ وبعدها

من المحاضر الرسمية

... ثم تلى الاستجواب المقدم من حضرة حسن سيد أحمد نافع أفندى إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ونصه:

أ- ما هي الأسباب التي حدثت بالحكومة أن تمنع نائباً بريطانيا هو المستر سكلا تفالاً من الدخول إلى القطر المصرى مع ما اشتهر به هذا النائب من العطف على مصر والدفاع عنا فى مجلس العموم الإنجليزى، ومع أنه أعلن بأن حضوره إلينا إنما هو لدرس أحوالنا؟

ب- وهل يتفق هذا المنع وما أعلنته الحكومة فى خطبة الرئيس أولاً وثانياً من أطراد حسن التفاهم وتحسن العلاقات بيننا وبين الدول الأجنبية عامة وبريطانيا خاصة؟

ج- وهل يتفضل دولة رئيس الحكومة بأن يعد المجلس بإعادة النظر فى هذه المسألة؟

رئيس مجلس الوزراء:

المستر سكلا تفالاً نائب شيعوى وقد سبق لحكومة الولايات المتحدة أن منعت من دخول بلادها بسبب ما ألقاه من الخطب وما دعا إليه من الهياج والثورة، كما سبق أن حكم عليه من المحاكم الإنجليزية نفسها بتهمة التحريض على الإخلال بالأمن. ولا يخفى على حضرة المستجوب أن نشر مبادئ الشيوعية والدعوى إليها عمل معاقب عليه فى مصر بمقتضى

المادة ١٥١ من قانون العقوبات وقد جرت الحكومة على محاربة الشيوعية ومنعها من التسرب إلى البلاد بمنع المعتنقين لمبادئها من الدخول إلى القطر المصرى.

لذلك رأت وزارة الداخلية عدم السماح للنائب الشيوعى المذكور بالدخول إلى البلاد وأرسلت تعليماتها بذلك إلى القنصلية الملكية المصرية بلندن. وهذا المنع لا يخالف ما جاء فى خطاب الرئيس وأشار إليه حضرة العضو المحترم. ولا ترى الحكومة محلا لإعادة النظر فى هذه المسألة.

حسن سيد احمد نافع أفندى:

لم أوجه هذا الاستجواب دفاعا عن شخص المستر سكلا تفاللا ولا بسبب الاتحاد معه فى أية فكرة اجتماعية أو سياسية ولكن بالنظر لكونه نائبا فى أكبر هيئة نيابية تمثل أعرق أمة دستورية وقد منعت حكومتنا من دخول بلادنا. رأينا أن واجبنا حيال الشركة فى مبدأ النيابة عن الأمة يقضى علينا بمطالبة الحكومة بالتصريح بالأسباب الحقيقية التى دعت إلى منعه من دخول مصر لأنه لا يليق بنا ونحن أمة دستورية فى نظر الدول الأخرى أن نعتدى على كرامة النيابة فى حد ذاتها دون بيان الأسباب. لقد منع المستر سكلا تفاللا إداريا من النزول فى أرض مصر ولم يشر قرار المنع إلى أى شئ من البيانات التى أدلى بها حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء.

إن نائبا محترما مثل المستر سكلا تفاللا يشعر بقيمة المسئولية الملقاة على عاتقه بصفته ممثلا لأمة عظيمة وشعب راق لنا معه صلات كبيرة.

لا أظن أن نائبا مثله يأتى عملا منكرا أو يقوم بنشر أية دعوة ضد نظام البلاد. وهذا فضلا عن أن لنا من قوانيننا ما يقف سدا منيعا ضد كل محاولة للإخلال بأنظمة البلاد المربعة.

عبد الحميد سعيد أفندى:

هل أطلع حضرة العضو المحترم على التصريح الذى ألقاه المستر سكلا تفاللا فى الهند ومؤداه أن مصر جزء من الإمبراطورية البريطانية؟

حسن سيد احمد نافع أفندى:

ذكرت بعض الصحف أن المستر سكلا تفاللا صرح بأن مصر جزء من الإمبراطورية البريطانية وأنه يريد زيارتها ليقف بنفسه على إدارة دولته لهذا الجزء من الإمبراطورية

(مقاطعة). هذا ما ذكرته الجرائد ولكن ورد لا أثر من واحد من المصريين كتب شخصية من المستر سكلا تفالاً ينفي ما ذكرته الجرائد ويعبر عن آرائه الشخصية نحو مصر، واسمحوا لى أن أتلوا على حضراتكم ترجمة إحدى الفقرات من بعض خطابات:

«لا مزية أن البرلمان البريطاني لا يفتأ يدعى ظلماً واقتداراً حق الرقابة العليا على المرافق المصرية ويحتفظ بممثلين عسكريين فى الأراضى المصرية والسودانية. فبصفتى عضواً فى هذا البرلمان أجد من واجبى إزاء الشعبين البريطانى والمصرى أن أتى إلى مصر لدرس مسائل معينة فى مواقعها».

ويجمل بى أن أذكر لحضراتكم بهذه المناسبة أن المستر سكلا تفالاً انضم بعد انتخابه نائباً عن العمال فى سنة ١٩٢٢ إلى الهيئة المصرية الإنجليزية التى ألفت فى سنة ١٩٢١ لدفاع عن مصر وقد كان هذا من الأسباب التى دعت إلى تقديم الاستجواب لمعرفة أسباب منعه من زيارة مصر، حتى لا يقال إن دولته أباحت له الحضور إلى مصر ومكنته من الحصول على التصريح اللازم من وزارة الخارجية البريطانية ولكن حكومة مصر هى التى منعتة من دخول بلادها.

إننا لا نتهيب أى شخص مهما كانت آرائه لأننا نزن جميع الآراء والأفعال ونكرم كل الضيوف مع احترام قوانيننا ومبادئنا.

الرئيس:

هل تريد أن نصرح له بدخول مصر بعد أن حكمت عليه محاكم بلاده بتهمة التحريض على الإخلال بالأمن وبعد أن منعتة حكومة الولايات المتحدة من دخول بلادها؟

حسن سيد أحمد نافع أفندى:

إن إجابة دولة رئيس مجلس الوزراء دلت على أننا لم نتحد شخص المستر سكلا تفالاً.

محمد صالح حرب أفندى:

كنت أنتظر من حضرة الزميل حسن نافع أفندى بعد أن نقلت التلغرافات العمومية ما نقلت من تصريحات المستر سكلا تفالاً التى أراد أن يستعين فيها برئيس الوزارة البريطانية على دخول مصر باعتبارها جزءاً من الإمبراطورية البريطانية، كنت أنتظر أن يسحب استجوابه احتجاجاً على هذا التصريح.

(تصفيق)

إن هذا التصريح قد افقد المستر سكالاً تفالاً كل عطف فى هذه البلاد لأن مصر لم تكن يوماً ما ولن تكون تابعة للإمبراطورية البريطانية. إنه ليؤلنا سماع هذه النعمة الكريهة من وقت لآخر.. إن القلوب التى امتلأت بحب الحرية لا تزال فى صدورنا كما إن أشباح النفوس التى سالت دماؤها على حد السيوف وأسنة الرماح فى سبيل الحصول على استقلال البلاد لا تزال ماثلة أمام أعيننا..

(تصفيق)

إننا يا حضرات النواب الكرام نغار على استقلالنا أن يمس حتى ولو بالكلام ولهذا نحن لا يمكننا مطلقاً أن نقبل فى ضيافتنا رجلاً يريد أن يهبط أرضنا باعتبار إنها جزء من الإمبراطورية البريطانية.

لهذا أتقدم لحضراتكم راجياً أن تؤيدوا الحكومة فى تصرفها كما أطلب من الحكومة أن تصر إلى النهاية على منع هذا النائب من دخول بلادنا.

(تصفيق)

محمّد حافظ رمضان بك:

أردت أن أتكلّم فى هذه المسألة لأمرين:

الأول - هو أن النائب الوحيد الذى احتج فى مجلس النواب البريطانى على غرامة الخمسمائة ألف جنيه التى فرضت على مصر بسبب حادثة مقتل السردار إنما هو النائب الذى يمنع الآن من دخول القطر المصرى.

والثانى - هو أن هذا النائب الوحيد أيضاً الذى اعترض على الإجراءات التى اتخذت فى السودان ولست ألقى كلامى هذا على عواهنه فإن ما أبديه ثابت فى أعمال مجلس النواب البريطانى وفى خطاب خاص أرسله لى النائب المذكور جاء فيه:

«ليس هناك من شك فى أن البرلمان البريطانى مهما كان غير عادل - ما زال يريد أن تكون له الرقابة العليا على الشئون المصرية. ما زال يريد الاحتفاظ بممثليه العسكريين والمدنيين فى البلاد المصرية والسودانية ولكنى كعضو من أعضاء البرلمان البريطانى كان واجباً علىّ للشعبين البريطانى والمصرى أن أحضر إلى مصر وأن أدرس بعض المشاكل فى مكانها وأن أكون على علم وتجربة بالروح والحالة العامة للجماعات فى الأمة المصرية.

وبعد قليل من المناقشات حصلت على جواز سفر وأشرت عليه وزارة الخارجية البريطانية بالتصريح بزيارة مصر فذهبت إلى المفوضية الملكية المصرية بشارع شارلس نمرة ٧ بلندن للتأشير عليه يوم ٢٨ ديسمبر وهناك أخبرنى الموظف المختص المصرى أنه مضطر إلى طلب الموافقة من القاهرة».

لاحظوا يا حضرات الأعضاء أنه ليس من المعتاد دائما أن تطلب مفوضياتنا إذنًا من الحكومة المصرية فى أمثال هذه الأحوال فلا بد أن يكون قد أوعز إليه بذلك من الحكومة البريطانية. وجاء فى خطابه أيضا ما نصه: «وارسل أثناء وجودى إشارة برقية إلى مصر لأننى كنت راحلا إلى الهند فى نفس الأسبوع، وفى اليوم التالى (الأربعاء ٢٩ ديسمبر) أبلغت رسميا أن الحكومة المصرية لا توافق على منح الترخيص وأنها لا تسمح لى بزيارة مصر تأدية لواجب عام دون جزاء. هل رأيتم جهادى فى البرلمان البريطانى أثناء المناقشة فى غرامة النصف مليون جنيه الممقوتة التى فرضت على بلادكم. وأثناء انتزاع السودان منكم لصالح المولدين البريطانيين؟ فهل كان أى عضو من أعضاء البرلمان من أى حزب أكثر إخلاصا لكم وعدالة قضيتكم؟».

فى الواقع يا حضرات الزملاء إن هذا النائب لم يك نائبا بريطانيا فقط، بل الحقيقة أنه عضو جمعية أنشئت فى العالم الغربى وستجتمع فى يوم ١٠ فبراير القادم وهى ضد كل استعمار غربى، جمعية أعضاؤها فى جميع البلاد المحايدة كالسويد والنرويج والدانمارك وغيرها ونظريتها أن جمعية الأمم الحاضرة أنها هى جمعية حكومات تريد أن تقتسم بلاد الضعفاء، وإذا أريد أن توجد جمعية أمم حقيقية وجب أن تكون أعمال جمعية الأمم وتصريحاتها موجهة ضد كل استعمار وللأخذ بناصر الأمم المستضعفة.

ولم يك هذا النائب وحده فى هذه الجمعية بل كان فيها أيضا المستر لانسيرى النائب البريطانى وزميله المستر جيمس باكستى. أيعقل أن يحضر إلى مصر رجل هذا شأنه ليدافع عن الاستعمار البريطانى مع أنه حوكم فى بلاده من أجل آرائه ضد الاستعمار. ولو كانت حقيقة أحوال هذا النائب كما ذكر لمنع من الدخول إلى الهند كما منع من الدخول إلى مصر ولكن الرجل أراد أن يقيم الحجة على تدخل الحكومة البريطانية فى شئون دولة اعترف باستقلالها بأن طلب التصريح بالسفر بصفته نائبا بريطانيا. علينا أن نحذر آراء بعض الرجال السياسيين هنا وهناك إذا كانوا يعتمدون فى ترويح آرائهم على القوة والعنف.

أشير إلى قانون العقوبات ولكن متى يطبق هذا القانون؟ هل يطبق على كل رجل له مبدأ سياسى أو اجتماعى؟ الجواب بالطبع بالنفى لأنه لا يعاقب إلا من يستعمل العنف فى تنفيذ مبادئه. وتأييدا لقولى أذكر أن المحاكم المصرية قد برأت كثيرا من الشيوعيين الذين لم يرتكبوا أعمالا يعاقب عليها تنفيذا لمبادئهم ولا يمكن أن يحاكم الناس على آرائهم وعقائدهم فالآراء والعقائد يجب أن تكون حرة طليقة وليس يصح أن يحجر على الناس فى أفهامهم وعقولهم.

والخلاصة أنه لم يمنع من الدخول إلى بلادنا لأنه شيوعى به لأنه عضو فى جمعية ضد الاستعمار. ومن العار يا حضرات الزملاء أن نقف موقفا سلبيا فى مسألة تختص برجل هو الشخص الوحيد الذى دافع عنا فى وقت عصيب لم يأخذ فيه بناصرنا أحد.. ورأى الصريح أن نطالب حكومتنا بأن لا تستمر فى هذا المنع.

عبدالحليم العلايلى بك:

يقول حضرة الزميل بأن هذا النائب قد منع من الدخول إلى بلادنا لأن آراءه ضد الاستعمار فأسأل حضرته عن العلة التى لأجلها منعت الولايات المتحدة دخوله فى بلادها..؟

محمد حافظ رمضان بك:

ألا يعرف حضرة العضو المحترم إلى أى حد وصل نفوذ بريطانيا العظمى؟

عبدالحليم العلايلى بك:

حتى فى الولايات المتحدة؟

محمد حافظ رمضان بك:

ألا تعلم حضرتك إنه يوجد فى الولايات المتحدة من يعمل للمصالح البريطانية؟ هل لا يعلم حضرة العضو بوجود ما يسمونه فى العرف السياسى بالمجاملة الدولية؟ فإذا لم يكن قد منع بسبب آرائه السياسية فيماذا تعلق عمل المفوضية المصرية فى أخذ رأى الحكومة المصرية؟

رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية:

قد يحصل ذلك فى الأحوال الاستثنائية، وقد اتبع ذلك فى حالتنا هذه لأنه نائب بريطانى معروف بمبادئه الشيوعية وليس المنع لسبب آخر، أما دفاعه عنا فنحن نشكره عليه ولكنى أصرح بأننى لا أنتظر خيرا كثيرا من دفاع الشيوعيين عنا.

محمد حافظ رمضان بك:

ليست المسألة شيوعية، وإنما هي مسألة سياسية استثنائية فقد دافع هذا النائب البريطاني عن مصر ولذلك أوعزوا إلى المفوضية أن تأخذ رأى الحكومة المصرية ليفسحوا المجال لرفض التصريح بدخوله إلى مصر.

عبدالرحمن عزام أفندى:

أريد أن أستعلم أولا من دولة رئيس مجلس الوزراء هل حصل احتجاج من الحكومة الإنجليزية أو من أحد ممثليها على منع هذا النائب؟

رئيس الوزراء ووزير الداخلية:

لم يحصل أى احتجاج.

عبدالرحمن عزام أفندى:

أردت بهذا السؤال أن ألفت نظر حضراتكم أن الحملة التى أشهرت على المستر سكلاتفالا بأنه رجل يؤيد الاستعمار البريطانى ويدعو إليه فى مصر إنما هى حملة غير حقيقة أصلا ولا تستند إلى شىء من الصواب. والدليل على ذلك أنه لو منع نائب آخر لا يعتقد مبادئ المستر سكلاتفالا المتطرفة لاحتجت الحكومة الإنجليزية على هذا التصرف وإنى أرى هذا كافيا فى أن يزيل من أذهان حضراتكم آثار الحملة التى أريد بها أن تنزع من قلوبكم العطف على ذلك النائب المحترم. تقول الحكومة إن المستر سكلاتفالا منع من دخول هذه البلاد لأنه شيوعى دخل السجن مرارا ومنع من الدخول فى أمريكا وهذا القول غير مجد لأن الكثيرين من زملائى المحترمين أعضاء هذا المجلس قد حوكموا ودخلوا السجن فكان ذلك مدعاة لفخارهم وموضعا لاحترامكم وتقديركم.

.....

.....

نحن لا نريد أن ننشر دعاية ولكننا نطلب من الحكومة ألا تضطهد عقيدة وقد كان الأجدر بها أن تسأل المستر سكلاتفالا قبل كل شىء عن الغرض من مجيئه إلى بلادنا أما أن ترفض الحكومة التصريح بدخوله إلى بلادنا دون أية مخابرة كما ترفض مجرما شديد الإجرام مع إنه نائب منتخب رغم إرادة الأحزاب الإنجليزية كلها فى دائرة (باتريس) فهو إذا رجل عظيم، ولو لم يكن كذلك (وهو هندی الجنس) لما حاز فى إنجلترا أصوات الإنجليز أنفسهم وقد تألبت عليه الأحزاب كلها ضده.

لذلك أرجو من الحكومة أن تعيد النظر فى مسألة المستر سكلّا تفالّا وأن تتخذ فى الوقت عينه كل الإجراءات الكافية التى تكفل منع الشيوعية من التسرب إلى بلادنا لا سيما وأن بين أيديها قوانين شديدة لا توجد فى بلاد أخرى فلها أن تطبقها كما تشاء. أما أنها تمنع دون أن تسأل فهو فى نظرى تعسف يصح فيه ما قيل من أنه نكران للجميل ومخالفة صريحة لأبسط قواعد العدالة.

حسين هلال بك:

أؤيد الحكومة كل التأييد فى الخطة التى اتخذتها لمنع المستر سكلّا تفالّا من الدخول فى هذه البلاد، أؤيدها أولا للاعتبارات التى ذكرت أمام هذه الهيئة المحترمة وأخص بالذكر منها اعتناقه للأفكار الشيوعية التى نحاربها جميعا. وأرى أيضا أنه يجب علينا أن لا نطمئن مطلقا إلى أى إنجليزى مهما كانت صفته. (ضجة).

الدكتور محبوب ثابت:

يا حضرات النواب... إنى أرى من الخطر ومسألة العمال عندنا فى أول نشأتها والمجلس مهتم بها جد الاهتمام أن يسمح بالتهويز عليها باختلاطها بعناصر تدين بالشيوعية أو ينسب إليها اعتناق هذا المبدأ. وبصفتى نائبا تشرفت بالحضور إلى هذا المجلس للدفاع عن مصالح العمال مع زملائى الأفاضل من النواب ولمساعدة(*) الحكومة (ضحك) أرى ونحن فى وقت يراد فيه الصيد فى الماء العكر بكل الوسائل أن من واجبنا أن لا نمكن شيوعا كائنا من كان من الحضور إلى هذه البلاد.

حفى محمود سليمان بك:

لقد اتخذت الحكومة مع المستر سكلّا تفالّا تلك الإجراءات القاسية مستندة إلى أن مبادئه تختلف مع مبادئ ونظم البلاد ولكنى أشعر بأن فى هذه البلاد مبادئ تضارع فى تطرفها وخطرها مبادئ المستر سكلّا تفالّا، فإذا كان المستر سكلّا تفالّا شيوعيا متطرفا فإن هنا قوما متطرفين فى الرجعية يقومون فى جامعتنا الوحيدة بنشر مبادئهم وبثها فى أبنائها فهل لنا وقد سمعنا من الحكومة أنها منعت حضرة النائب الشيوعى من الدخول إلى القطر المصرى من أجل مبادئه. أن نطلب من الحكومة أن تذكر أن مبادئ أولئك القوم تناقض أول مبدأ من مبادئ الدستور وهو أن الأمة مصدر جميع السلطات (تصفيق).

عبد السلام عبدالغفار بك:

إننى أؤيد الحكومة بكل قواى فى الإجراءات التى اتخذتها ضد المستر سكلا تفالاً ولست أرى لحضرات النواب أى حق فى أن يغمزوا الحكومة ويلمزوها لأنها فعلت ما فعلته أمريكا وهى أغنى بلاد العالم. إن الحكومة باحتذائها مثال الولايات المتحدة فى تصرفها إزاء حضرة النائب الشيوعى المحترم قد رفعت من شأن مصر الناهضة. وعلى كل حال فالشيوعية مكروهة وأنا أحبذ تصرف الحكومة فى هذا الحادث وأرجو أن تؤيدوها وأن تطلبوا منها الاستمرار على اتباع هذه الخطة.

الدكتور عبدالخالق محمد سليم:

إن ما أعرفه من مئات الهنود الذين كنت أقابلهم بلندن يوم كنت طالبا بها أنهم يكثرون الشكوى من الإدارة البريطانية وبالفعل تكونت جمعيات مختلفة. وبما أن حضرة النائب الشيوعى هندي الأصل فإنى أرجو أن يقصر مجهوداته على بلاده الأصلية الهند وأن يحصر مساعيه فى الدفاع عن مصالحها.

أحمد رمزى بك:

قال بعض زملائى الأفاضل إن بلدنا ديمقراطى لا يجوز أن تحارب فيه حرية الفكر وعندى الديمقراطية شىء والشيوعية شىء آخر فإن الشيوعية تهدم المساواة.. وتجعل طبقة تعلو غيرها من الطبقات كما أنها لا تحترم الملكية ولا تعرف الحرمات التى أقرها الدستور. قالوا أيضا إن احترام الفكر واجب ولكن إذا كان الرجل يجىء إلينا ويخرج كما دخل فلا بأس من ذلك ولكنه سيجىء كما جاء فى خطاب حضرة النائب المحترم حافظ رمضان بك ليدرس الشئون الاجتماعية وكل خوفى من هذه الدراسة، لأنه لا يستطيع دراسة هذه الشئون إلا باتصاله بالعمال وبثه بينهم روح الشيوعية (ضجة).

.....

الرئيس:

لقد تكلم الآن جميع الخطباء الذين طلبوا الكلمة ولكن بعض الذين تكلموا يريدون إعادة الكرة.

أصوات بقفل باب المناقشة..

الرئيس:

تقدم اقتراح من عشرين عضوا بطلب إقفال باب المناقشة.. فهل يعارض أحد فى ذلك؟
أصوات: كلا.

الرئيس:

إذن يقفل باب المناقشة. والآن أتلو على حضراتكم ما قدم من الاقتراحات. تقدم اقتراحان أحدهما من حضرة عبدالرحمن عزام أفندى وحفنى محمود بك ونصه: «نقترح أن تعيد الحكومة النظر فى مسألة المستر سكلا تفالا وأن تسمح له بالدخول فى القطر المصرى إذا تعهد بألا يتكلم وبألا ينشر الدعوة الشيوعية فى مصر».. يخيّل إلى أن هذا الاقتراح غير مناسب فى صيغته لطبيعة الاستجواب لأن الاستجواب ينتهى بقرار من نوع آخر وأظن أن الأقرب إلى ذلك هو الاقتراح الثانى المقدم من حضرة محمد صبرى أبو علم أفندى وهذا نصه: «المجلس بعد سماع بيانات حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء يكتفى بإثباتها وينتقل إلى جدول الأعمال».

فهل توافقون على هذا الاقتراح الأخير..؟
وافق الحاضرون بالإجماع ما عدا أربعة أعضاء.

(*) وردت فى المضبطة «ولمساعدة» وطلب صاحب الكلمة فى الجلسة التالية تصحيحها إلى «و بمساعدة».

وثائق وزارة الخارجية البريطانية

«سرى»

رقم الملف ١٠١

التاريخ: ١٩٢٧/٧/٢٦

ملخص

**لترجمة مقال منشور فى جريدة «بندر إسلام» الملاوية الصادرة فى ٤ يوليو ١٩٢٧
بعنوان «عصبة النضال ضد الإمبريالية ومن أجل التحرر الوطنى»**

تحدث المقال عن العصبة ونشاطها وعن تقرير السكرتارية العالمية حول النشاط الذى قامت به خلال الفترة بين شهرى فبراير ومايو ١٩٢٧.

ويتضمن المقال معلومات تقول إن السيد مظهر البكرى قد اقترح تكوين فروع لهذه العصبة فى كل البلدان العربية على أن تبذل جهود بعد ذلك لتوحيد هذه الفروع وتكوين قيادة مركزية عربية لها ويمكن أن يطلق عليها اسم «عصبة تحرير البلدان العربية». كذلك اقترح السيد بكرى أن يعقد مؤتمر عربى للنضال ضد الإمبريالية فى القاهرة وذلك بهدف تعزيز النضال العربى ضد الاستعمار.

وقال إنه قد تم الاتصال بالفعل بعدد من الشخصيات المصرية لبحث الأمر معها ومن بين هذه الشخصيات التى تم الاتصال بها عضو فى البرلمان (*).

وسوف يدعى إلى هذا المؤتمر أيضا مندوبون من الصين ونيوزلندا وإندونيسيا وإنجلترا والهند.

(*) يعتقد أنه حافظ رمضان - لأن العصبة كانت على اتصال به وكان فى هذه الفترة عضوا فى البرلمان.

(٤) تقارير شخصية ومحاضر نقاش

- محاضر نقاش مع محمد دويدار.
- محاضر نقاش مع إدوار ليفى.
- محاضر نقاش مع إيلي ميزان.
- محاضر نقاش مع جاكودى كومب.
- محاضر نقاش مع ريمون أجيون.
- محاضر نقاش مع دينا فورتى.
- محاضر نقاش مع مارسيل ميسيكوا.
- محاضر نقاش مع راؤول كورييل.
- محاضر نقاش مع أنور كامل.
- تقرير مارسيل إسرائيل (بدايات الحركة العمالية فى مصر).
- محاضر نقاش مع فتحى الرملى.
- محاضر نقاش مع أسعد حليم.
- محاضر نقاش مع هنرى كورييل.
- محاضر نقاش مع عبده دهب.

محضر نقاش مع محمد دويدار(*)
جلسة المناقشة الأولى (القاهرة) ١٩٧٠/١/٢٢

س: كيف انضممت إلى الحزب؟

ج: كانت نقطة التحول في حياتي هي اطلاعي على كتابات شبلى شميل وقد اشتريت الجزأين بجنهين. ولك أن تتصور كيف أمكن لعامل بسيط مثلى أن يدخر من مرتبه مبلغا كهذا ليشتري كتابا. وقد أثرت في كتابات شميل تأثيرا كبيرا.

وكان لى أخ أصغر منى اسمه محمود دويدار كان يعمل صانع أحذية فى محل بالإسكندرية يمتلكه أخو الشيخ صفوان أبو الفتح. وكنت بطبيعة عملى فى السكة الحديد أكثر من التردد على أخى بالإسكندرية. وتعرفت هناك على الشيخ صفوان أبو الفتح. وكانت هذه نقطة التحول الثانية فى حياتى. فقد نظم لى الأفكار والخواطر التى كانت تموج بها نفسى وشرح لى كثيرا من مبادئ الاشتراكية وأفكارها لكنه لم يضمنى للحزب.

وفى سنة ١٩٢٧ كنت أعمل فى طنطا وكان لى زميل اسمه أحمد عبدالعزيز كان هو أيضا عطشجى بالسكة الحديد. وفى أحد زياراتى له أطلعنى على خطابات وصلته من أخيه محمد عبدالعزيز الذى كان فى موسكو فى ذلك الحين وبهرنى وصفه للحياة فى

الاتحاد السوفييتي وقد دفعنى هذا إلى توطيد علاقاتى بأحمد عبدالعزيز حتى أطلع على المزيد من المعلومات عن الاتحاد السوفييتي.

ثم عاد محمد عبد العزيز من موسكو وسعيت إلى التعرف عليه وفى أول مناقشة سألنى محمد عبد العزيز عن انتمائى الحزبى فقلت له إننى أميل إلى الحزب الوطنى لأنه يهتم بشؤون العمال لكننى لا أعمل معهم.. وبعد عدة مقابلات ضمنى محمد عبد العزيز إلى أحد خلايا الحزب فى طنطا.

س: هل يمكن أن تشرح لى أسلوب عملكم الحزبى فى عام ١٩٢٧؟

ج: كان التنظيم سرى، لكننى كنت أعرف أن هناك خلايا فى القاهرة والإسكندرية وطنطا وفى أماكن أخرى. وكان شعبان حافظ يتصل بنا فى طنطا أحيانا، وفى أحيان أخرى كنت أسافر أنا إلى القاهرة لأقابل محمد عبد العزيز.

واتسع نشاطنا فى طنطا فأنا مثلا جندت عدداً من العمال من بينهم اثنان سافرا إلى جامعة كادحى الشرق بموسكو هما عبد العزيز مرعى (براد فى السكة الحديد) والثانى اسمه عبد المجيد (لا أذكر بقية اسمه) وكان أيضا عاملا فى السكة الحديد. وكانت الخلايا تدرس الماركسية وتدور مناقشات عديدة حول الأوضاع فى الاتحاد السوفييتي.

س: كيف سافرت إلى الاتحاد السوفييتي؟

ج: كانت لى رغبة جارفة إلى مزيد من المعرفة عن الماركسية وعن الاتحاد السوفييتي وفى أحد الاجتماعات تحدثت إلى محمد عبد العزيز حول رغبتى فى السفر للتدريب فى الاتحاد السوفييتي فوافق على الفور وطلب أن أستخرج جواز سفر. وهكذا قررت أن أترك أسرتى وعملى (١١ سنة خدمة فى السكة الحديد) وسافرت.

س: كيف تمت ترتيبات السفر حتى وصلت للاتحاد السوفييتي؟

ج: سافرت أولا إلى فلسطين ثم إلى الاتحاد السوفييتي.

س: لم تعد هناك حاجة إلى اختزان مثل هذه الأسرار فهل يمكن أن تحكى لى تفاصيل

كيف سافرت من القاهرة إلى الاتحاد السوفييتي؟

ج: سافرت إلى فلسطين حيث كان معى عنوان أرسلت عليه خطابا أعلن فيه وصولي، وبعد أسبوعين حضر إلى شخص ونقلنى إلى منزل فى يافا وتسلم منى جواز السفر الخاص بى واستخرج لى فيزات السفر إلى سوريا ثم لبنان ثم تركيا للتغطية.

وبعد ذلك وصلت إلى يافا مركب سوفيتية فقطعوا لى تذكرة عليها على أساس أنى مسافر إلى إستانبول.. ثم سلمت رسالة خاصة إلى مسؤول السفينة فنقلنى إلى مكان سرى فى السفينة وشطب اسمى من سجل المسافرين لأن السفينة كانت ستمر ببورسعيد والإسكندرية فى طريقها إلى إستانبول وكان البوليس المصرى يفتش المراكب السوفيتية تفتيشا دقيقا وعندما وصلنا إلى الإسكندرية ألبسنى ملابس أحد البحارة ثم اختبأت فى عنبر البضائع حتى غادرت السفينة الميناء.

وأخيرا وصلت إلى أوديسا حيث بقيت أسبوعين ومن هناك إلى موسكو حيث انضمت إلى «جامعة ستالين الشيوعية لكادحى الشرق».

س: لن ادخل فى تفاصيل حياتك بالجامعة لكن ما هى انطباعاتك العامة؟

ج: الانطباع العام هو أن المجموعة العربية كانت محط اهتمام العناصر اليهودية الأصل، وكان المصريون أقلية (حوالى ١٢ شخصا) وكان هناك حوالى ٣٠ فلسطينيا وآخرين من الجزائر ومراكش والعراق وسوريا لكن هؤلاء كانت غالبيتهم من اليهود.. والمصريين فقط هم الذين لم يكن بينهم يهود.

وكان معظم موظفى القسم الإداريين والمترجمين من اليهود العرب أيضا.. وكانت لنا نحن المصريين وجهة نظر فى ذلك، وأعلنا أن هذا التكوين لا يتلاءم مع طبيعة ظروف البلدان العربية، وكذلك كنا نحن المصريين حريصين على أن نتعلم اللغة الروسية بسرعة فأدركنا أن المترجمين لا يعرفون اللغة العربية معرفة جيدة وأنهم يترجمون ترجمة رديئة.

وباختصار دخلنا نحن المصريين صراعا ورفعنا شعار «أربيزاتسيا» أى التعريب لكننا هوجمنا بشدة بل ونظمت لنا محاكمة فى الجامعة بحجة أننا شوفينيون وأعداء للسامية وللأسف فإن العناصر العربية الأخرى برغم ثورتها إلا أنها انجرفت فى التيار وشاركت الآخرين فى حملة الهجوم على العناصر المصرية الأمر الذى أدى إلى عزلنا وإلى هزيمتنا فى معركة التعريب.

(*) ولد فى مارس ١٩٠١ وعمل عطشجيا فى السكة الحديد.. انضم للحزب عام ١٩٢٧ سافر إلى موسكو طالبا فى مدرسة كادحى الشرق أسقطت عنه الجنسية المصرية - عاد إلى مصر متسللا عام ١٩٣٧ حيث واصل نشاطه فى صفوف الحزب - يعمل حاليا موظفا كتابيا فى النقابة العامة لأعمال الخدمات والإدارة (١٩٧٠) وذاكرته قوية إلى حد يثير الدهشة وأفكاره مرتبة تماما الأمر الذى يوحى بكثير من الثقة فى المعلومات التى أدلى بها.

محمد دويدار

جلسة المناقشة الثانية- (القاهرة) ١٧-٣-١٩٧٠

س: اتفقنا فى المرة السابقة على أن نعيد مناقشة ما سبق طرحه من موضوعات بعد أن تكون قد رتبت أفكارك حولها.. والآن اسمح لى أن أعود إلى نفس الأسئلة السابقة.. كيف انضممت للحزب؟

ج: بالإضافة إلى المعلومات التى أدليت بها فى الجلسة السابقة أذكر أنني جندت فى طنطا وكنت عضوا فى خلية عدد أعضائها خمسة، ولم أكن أعرفهم فقد كانت السرية مطلقة وكنا نستخدم أسماء حركية. وأحيانا كنت أستدعى لحضور اجتماعات فى القاهرة وأذكر أنني دعيت إلى اجتماع فى منزل بشارع كلوت بك حضره محمد عبد العزيز وثلاثة من عمال العنابر لمناقشة المشاكل العمالية. وكانت معظم الموضوعات الدراسية تتركز حول حالة العمال واستغلال الرأسماليين لهم. وكنا باستمرار نربط بين الرأسمالية والاستعمار.

س: هل يمكن أن تحكى لى تفصيلات عن فترة دراستك بجامعة كادحى الشرق؟

ج: كان هناك ١٢ مصرياً أذكر منهم حمدى سلام - عبد الرحمن فضل (وكان اسمه السرى هناك نميروف) والدكتور حسونة- شعبان حافظ- عبد العزيز مرعى (وكان اسمه السرى هناك سيرجيفتش) ذلك أننا كنا نتخذ هناك أسماء سرية.

وكان بالجامعة طلبة من جميع الشعوب الشرقية أترك وفرنس، وعرب وآخرين من مدغشقر وكان عددهم حوالى ٤٠٠٠ طالب.

وكان المسؤول عن القسم العربى يهودياً من أصل روسى هو أبو زيام واسمه الحركى (حيدر) وكانت له سلطات مطلقة وكان هناك أيضا مسؤول آخر هو جوزيف برجر. وقد عمل برجر على أن يدخل إلى الجامعة ٤ من اليهود ليعملوا كمشرفين على القسم العربى وكانوا عناصر تافهة وضعيفة ويضفون حول أنفسهم هالات من القدسية والزعامة لا يستحقونها.

وبعد أن ثارت مشكلة التعريب أحضروا من فلسطين أعداد كبيرة من العرب كثيرون منهم عناصر تافهة وغير متعلمة وإن كان هناك عناصر جيدة ولا زلت أذكر بعض الأسماء عبد الغنى الكرمى (مايخت) نجاتى صدقى (مصطفى) وأخوه.. (وكان يتسمى حركيا باسمى شاول) محمود الأطرش (مراد).

وكان المشرفون اليهود يقومون بتقييم الطلبة وكثيرا ما كانوا يقللون من شأننا. والحقيقة أننى لا أستطيع أن أتهم جميع اليهود لكننى أكاد أوقن أن بعضهم كان عميلا صهيونيا بينما كان هناك يهود مخلصون وقد دافعوا عنا وتبنوا أفكارنا وساندونا واضطهدوا معنا.

س: تقول إنكم اضطهدهم.. هل يمكن أن تحكى بعض التفاصيل؟

ج: الحقيقة أن العمال المصريين الذين وصلوا إلى الجامعة كانوا يثيرون كثيرا من النقاش والجدل ويكثرون من الإدلاء بآرائهم. ولا بد أن تعرف أن المستوى الثقافى للعامل المصرى الذى شارك فى ثورة ١٩١٩ والذى شارك فى النضال السياسى والنقابى لسنوات طويلة كان أعلى بكثير من مستوى الطلبة العرب الآخرين.

فأنا مثلا قلت لك إننى كنت قد درست كتابى شبلى شميل قبل انضمامى للحزب والحقيقة أننى من فرط إعجابى بشميل حفظت كتاباته عن ظهر قلب وهكذا أمكننى المشاركة فى النقاش أثناء المحاضرات متحدثا عن نظرية التطور وعن قوانين الجدل والديالكتيك وعن الثورة الفرنسية وأخطائها وعن الجذور الطبقيّة للاستعمار.. ويبدو أن هذا كان كثيرا بالنسبة لعامل عربى فى نظر المشرفين على القسم وكانوا هم لتفاهتهم يضيقون بأى نقاش حقيقى فاتهمونى بأننى لست بروليتاريا خاصة وأن خطي كان ممتازا

لأننى عملت خطاطا لفترة وأنا صغير وكنت أكتب اللافئات العربية فى احتفالات الجامعة بخط جميل. وفى أحد المرات قال لى أحد المشرفين أنت مدسوس على البروليتاريا، لم أر بروليتاريا عربيا يتكلم هكذا أو يكتب خطا كهذا.

ولكى تتصور مستوى الطلبة العرب الآخرين يجب أن تعرف أنه كان هناك فصل تحضيرى قبل بدء الدراسة وفى هذا الفصل الذى انضممت إليه فور التحاقى بالجامعة فوجئت أنهم يدرسون مبادئ القراءة والكتابة العربية ومبادئ الحساب.. وكنت أنا مثلا قد بدأت فعلا فى دراسة اللغة الروسية.

وباختصار فإننى أعتقد أن ثمة عناصر كانت تعتمد اختيار الطلبة العرب من مستويات فكرية وثقافية متخلفة، وكانت تضطهد كل عنصر متفتح. والاضطهاد لم يكن منصبا على المصريين وحدهم وإنما على كل عربى متفتح بل وعلى اليهود المخلصين أيضا. وفى أحد المرات وبعد أن ركزوا هجومهم ضدى على أساس أننى لست بروليتاريا قرروا إبعادى على الجامعة لمدة عام كى أعمل فى أحد المصانع حتى أخاط العمال وأتخلق بأخلاقهم ناسين أننى بروليتارى ابن بروليتارى.

س: هل يمكن أن تحدثنى عن نظام الدراسة فى الجامعة؟

ج: قلت إن هناك سنة تحضيرية اجتزناها نحن المصريين فورا ثم هناك بعد ذلك خمس سنوات دراسية. وأود أن ألفت نظرك إلى أن الجامعة كانت مقسمة إلى أقسام مختلفة حسب الجنسيات وأنا أتحدث عن القسم العربى فقط ولا أعرف نظام ولا ظروف الأقسام الأخرى. وكنا ندرس فى هذا القسم جغرافيا طبيعية- جغرافيا اقتصادية- جغرافيا سياسية- تاريخ الحزب البلشفى- الاقتصاد السياسى- الحركة النقابية ومهام النقابات وأسلوبها فى العمل- أخطار التروتسكية. وفى السنة الأخيرة درسنا الفلسفة الماركسية وأسس المادية الجدلية- وتحليلات للوضع فى العالم العربى- ونظرية النشوء والارتقاء.

وكان للجامعة بيت خاص لإقامة الطلاب وكل طالب كان يتقاضى ٥٠ روبل فى الشهر. وكان أسلوب الامتحانات جيد فقبل الامتحان يعرض على الطلاب عشرون سؤالاً تشمل المقرر كله وتترك لنا فرصة مراجعة دروسنا على أساس الإجابة على هذه الأسئلة. ثم بعد ذلك تكتب هذه الأسئلة فى أوراق منفصلة فى كل ورقة سؤال واحد ثم تطوى الأوراق وكل شخص يختار ورقة ليجيب على السؤال المكتوب فيها.

س: نعود إلى معركتكم من أجل «التعريب» أو كما قلت «أربيزاتسيا» ألم يشارككم الطلاب العرب الآخرون في هذه المعركة؟

ج: الحقيقة أن بعضهم شاركنا لكن الكثيرين كانوا يفضلون السكوت بدعوى الانضباط الحزبي، وأذكر أنني مثلاً أقمت علاقة وثيقة مع «شاؤول» (الاسم السري لأخو نجاتي صدقي ولا أذكر اسمه الحقيقي) وكان «شاؤول» هذا عضو في اللجنة المركزية للحزب الفلسطيني وقد حكي لي كثيراً عن اضطهاد الكوادر العربية في الحزب وكيف أن هناك عناصر كانت تقاوم التعريب مقاومة عنيفة، وطلبت منه أن يكتب تقريراً بذلك وبالفعل كتب لي تقريراً احتفظت به معي.

وبعد أن تعالت صيحاتنا بالتعريب فوجئنا بأبو زيام يحضر اجتماعاً عاماً بنفسه هو وعدد من قادة القسم العربي وعدد من مندوبي قيادة الجامعة لبحث ما أسموه بالطاهرة الخطيرة والتي تنادى بشعارات شوفينية. وكان واضحاً أن هذا الاجتماع هو نوع من المحاكمة للمجموعة المصرية.. ولم نتراجع أمام هجمات أبو زيام الذي تحدث حديثاً عنيفاً ضد معاداة السامية والشوفينية وطلبت الكلمة ونفيت عن أنفسنا تهمة معاداة السامية وقلت إننا نحن المصريين ساميين نحن أيضاً وتحدثنا عن التعريب كقضية ضرورية لتعبئة الجماهير العربية في المعركة ضد الاستعمار.

وتحدث عدد من المصريين أذكر منهم عبد الرحمن فضل وعبد العزيز مرعى وقد أوضحنا وجهات نظرنا بشجاعة ووضوح. أذهل الحاضرين.

وكنت في حديثي قد أشرت إلى بعض المعلومات التي ضمنها «شاؤول» في تقريره.. حول اضطهاد الكوادر العربية في الحزب الفلسطيني. وبناءً على إيماءة من رأس أبو زيام وقف شاؤول ليكذبني لكنني فاجأت الحاضرين جميعاً بأن أبرزت التقرير المكتوب بخطه والذي يتضمن كل ما أشرت إليه من وقائع. وأنهى أبو زيام الاجتماع الذي ترتب عليه فيما بعد أن كتب ضدّي تقريره بأنني بورجوازي صغير ومتقف ولست عاملاً. ونجحوا بناءً على هذا التقرير في إبعادني عن الجامعة لمدة عام وأنا وعبد العزيز مرعى حتى نعمل في أحد المصانع لتنتقل بالأخلاق البروليتارية.

لكنهم تركوني في المصنع ثلاث سنوات ونصف ولم أعد إلى الجامعة إلا بعد إلحاح شديد، والحقيقة أنهم لم يستطيعوا التنكيل بي كما أرادوا لأنني كنت أنا وعبد العزيز

مرعى الوحيد بين الطلبة العرب الذين تشرفنا بالحصول على عضوية الحزب البلشفي. لكنهم تعمدوا إرسالنا إلى مصنع يبعد أكثر من ٢٠٠ كيلو متر عن موسكو حتى يبعدونا عن الطلبة العرب ويفضل علاقاتنا بالحزب البلشفي نجحنا في الحصول على عمل في موسكو ونجحنا في الإقامة في بيت الطلبة. وقبل أن أنهى حديثي في هذه النقطة أود أن أشيد بمجموعة من الرفاق الفلسطينيين الواعين والمخلصين الذين شاركوا حملتنا من أجل التعريب وكان على رأسهم رفيق يهودي مخلص جدا ومناضل ثوري اسمه «الرفيق سبوتن» وقد اضطهد مثلنا وطرد من الجامعة طردا وانتهى الأمر أن عمل مدرسا للغة العربية في جامعة الدراسات الشرقية.

محمد دويدار

جلسة المناقشة الثالثة - (القاهرة) - ١٨/٣/١٩٧٠

س: الآن أستطيع أن أسألك كيف عدت إلى مصر..؟

ج: الحقيقة أن العناصر المعادية التي أشرت إليها فيما سبق كانت تضع العقبات أمام عودة الكوادر العربية إلى بلادها وذلك حتى تتاح لهم الفرصة هم وأعوانهم.. والذي يصمم على العودة كانت تسد في وجهه الطرق بحيث يدمر وهو في طريق عودته. فمثلا محمود حسنى العرابى كان فى موسكو عندما تقرر إبعاده من سكرتارية الحزب وتعيين الجاسوس الخائن محمد عبد العزيز بدلا منه وطلب العرابى أن يعود إلى مصر ليواصل العمل كعضو عادى فى الحزب فسلموه تذكرة سفر بالدرجة الثالثة بالقطار إلى برلين ولم يعطوه أى نقود وقالوا إنه سيجد التعليمات بالمساعدة عند الحزب الألمانى. ووصل إلى برلين ليجد أن الحزب الألمانى لم تصله أية تعليمات ورفض الحزب تقديم أى معونة له وهكذا وضع فى مصيدة فى برلين. واضطر إلى ارتكاب أخطاء.

وأنا لا أذافع عن حسنى العرابى لكننى أقول إن بعض الناس دمروا بهذه الطريقة.

وأنا نفسى تعرضت لنفس الأسلوب.

المهم أنه صدرت لى تعليمات بأن أركب السفينة المتجهة إلى بلجيكا عبر بحر البلطيق على وعد بأن يقابلنى شخص فى ميناء «جيليت» البلجيكى لسلمنى باسبور ونقود ويعدها

أسافر إلى باريس حيث سيتولى الحزب تنظيم عودتى إلى القاهرة لكننى وصلت إلى «جيليت» ولم أجد أحدا فى انتظار.

وصممت على أن أواصل الرحلة وفعلا وبعد مغامرات خطيرة وصلت إلى باريس دون نقود ودون جواز سفر.. وبعد مجهود كبير وصلت إلى مقر الحزب الشيوعى الفرنسى فى شارع «لافيت» لكنه كان مغلقا فالיום يوم أحد وقضيت طوال اليوم والليل فى الطريق وفى اليوم التالى قصدت مقر الحزب وقابلت السيدة جان وبعد مناقشة طويلة أبلغتنى أنه ليس لديها أية معلومات عن موضوعى. وعلى أية حال فقد ساعدونى على الإقامة فى أوتيل وأعطونى بعض النقود وقمت بالاشتراك فى تحرير مجلة «الشرق العربى» وهى مجلة كان يصدرها الحزب الفرنسى باللغة العربية. وأقمت فى باريس أربعة أشهر وبعدها أبلغتنى السيدة جان أن أسافر إلى مارسيليا حيث سيتصل بى شخص معين هناك. وفى مارسيليا قضيت أربعين يوما دون أن يتصل بى هذا الشخص الذى علمت أنه كان موجودا فى باريس وأرسلت خطابا مليئا بالشتائم والهجوم إلى جان واتهمتها أنها تتآمر ضدى وتمنعنى من العودة إلى بلدى وألحت إلى أنها (وهى من أصل يهودى) جزء من مؤامرة صهيونية ضد العرب.

واستدعتنى جان إلى باريس فوصلت لأجد جان تعاملنى بجفاف شديد وسلمتنى باسبوراً لأسافر به إلى حيفا ومنها إلى بيروت حيث طلب منى أن أتصل بفؤاد الشمالى وكلفت بأن أعمل لبعض الوقت مع الحزب الشيوعى اللبنانى.

لكننى وجدت أن الباسبور كان فى ذاته كافيا لكشفى وتسليمى للبوليس فهو باسم شخص يهودى أجنبى «جوزيف مزراحى» وأنا لا يبدو على وجهى أى سمات أجنبية وسن صاحب الباسبور ٢٤ سنة وأنا سن ٢٣ سنة والأخطر من ذلك كله أنهم قطعوا لى تذكرة تسافر على خط مارسيليا- الإسكندرية- حيفا أى أنه كان من الضرورى أن أمر على الإسكندرية.

وفى ميناء الإسكندرية كانت عمليات تفتيش السفن تتم بحرص شديد لمنع أى شيوعى من النزول وقبض البوليس على بالفعل وبعد التحقيق معى وتصويرى سلمت مع الجواز المزور إلى القبطان وفى حيفا كان البوليس فى انتظارى ولدهشتى وجدت هناك ضابط بوليس مصرى برتبة لواء اسمه حليم بساط ويبدو أن الإنجليز كانوا يقيمون نوعا من

التنسيق بين أجهزة الأمن فى المنطقة كلها. وبعد تحقيقات طويلة أبلغت أنى ممنوع من الدخول وأنى سأعود مرة أخرى على نفس المركب.. وهكذا عدت من جديد إلى مارسيليا وفى مارسيليا وبناء على نصيحة من اثنين من الشيوعيين المصريين الأرمن وكانا يقيمان هناك بعد أن قام البوليس بإبعادهما عن مصر عدت مرة أخرى إلى باريس لأقابل جان التى طردتنى من مقر الحزب بحجة أننى لم أنفذ التعليمات ولم أسافر وأننى أخشى من السفر وبعد مجهود كبير وبعد لجوئى إلى هيئة m.o.p.r وهى الهيئة الدولية للمعرفة الحمراء عادت جان من جديد واتصلت بى وأعطتنى باسبوراً باسم تاجر مصرى من سوهاج سنة ٣٦ وكان إلى بيروت. وعلى الحدود السورية جمع رجال البوليس الباسبورات وبعد فحصها أبلغونى أن لديهم صورتى وأوامر بمنعى من دخول سوريا وأعدت مرة أخرى إلى الحدود التركية. وفى إستانبول قبض على وحكم القاضى بإبعادى إلى الحدود السورية إما بالقطار على أن أسدد ثمن تذكرة السفر وتذكرتين لسفر جنديين لحراستى وتذكرتين لعودتهما وإما سيرا على الأقدام، ولما كنت مفلسا تماما تقرر إبعادى سيرا على الأقدام. جنديان يركب كل منهما حصانا وأنا أسير فى المقدمة مربوط بحبل واستغرقت رحلة العذاب أربعة أشهر كاملة فى كل قرية نتوقف ويسلمنى الجنديان إلى البوليس المحلى الذى يقوم بإيداعى الحبس حتى يرتب لى حرسا جديدا وقد تعذبت فى هذه الرحلة عذابا يفوق الوصف وتعرضت لأهوال شديدة.*.

وأخيرا وصلت إلى الحدود السورية وأمرنى الحراس الأتراك بالعبور. وعبرت الحدود خلصة بعد أن تغافل عنى متعمدا ضابط الحدود السورى الذى عرف قصة إبعادى سيرا على الأقدام ورثى لحالى وسرت متجها إلى الإسكندرية وعلى طول الشاطئ ست ساعات وكان معى أربع ليرات تركية هى باقى ثمن البالطو الذى بيعته لأحد الأتراك.. وركبت الأتوبيس حتى حلب.

وقررت أن أبقى فى حلب لأعمل وأكسب بعض المال وأشتري ملابس لائقة أقابل بها الرفاق اللبنانيين حتى أقابلهم بمظهر بروليتارى مشرف واشتغلت فى حلب عامل بناء وكنت أنام فى حمام يملكه شخص مصرى وأدخر كل قرش أحصل عليه وبعد ٢٥ يوما اشتريت بعض الملابس وسافرت إلى بيروت، وكان كل ما أعرفه هو أنه يتعين على تسليم نفسى لفؤاد الشمالى لكننى وبعد هذه الرحلة كنت قد فقدت عنوانه فقررت أن أعمل حتى أعثر عليه.

اشتغلت فى الميناء عامل فحم مستعينا فى ذلك بخبرتى كعطشجى فى السكة الحديد وكنت أنام فى قهوة يملكها شخص مصرى اسمه الرئيس يونس.. وأخيرا عثرت على فؤاد الشمالى الذى أبلغنى أنه فصل من الحزب لكنه مكنى من الاتصال بأحد أعضاء اللجنة المركزية. وأسند إلى الحزب مسؤولية المطبعة وإصدار المنشورات. واستمر العمل ثلاثة أشهر حتى قبض على وأعتقد أن فؤادى الشمالى هو الذى أبلغ عنى لأنه كان فى هذا الوقت متعاوناً مع البوليس.

لم يكن أمامى مجال للإنكار فقد ضبطت معى المطبعة والمنشورات فقررت أمام المحقق أن اسمى محمد دويدار وأنى شيوعى مصرى ممنوع من العود إلى بلاده بسبب إسقاط الجنسية عنى وأنه ليس لدى باسبور وأننى أناضل فى صفوف الحزب الشيوعى الشقيق واعترفت بأننى كتبت وطبعت المنشورات المضبوطة وقدمت إلى المحاكمة ووجهت لى تهمة دخول البلاد بدون إذن والعمل ضد الأمن العام.

كانت الجلسة سرية لكن هناك عدد كبير من المحامين والصحفيين ووقف ممثل الادعاء وهو فرنسى ليطلب بالحكم على بالسجن وطلبت أن أدافع عن نفسى وألقيت دفاعاً سياسياً طويلاً قلت فيه إن المدعى وهو أجنبى فرنسى مستعمر يتهمنى أنا العربى بأننى دخلت هذه البلاد بدون إذن وكأنما هو قد استأذن بالدخول، إن جريمته هى أننى دخلت هذه البلاد الشقيقة بدون باسبور بينما جريمته هو أنه اغتصب هذه البلاد بحد السلاح.

وحكم على بستة أشهر حبس. وقد رحلت إلى سجن طرابلس ثم إلى سجن زغرتا وبعد الإفراج عنى احتلت وهربت من البوليس حتى لا ينفذ حكم الإبعاد واتصلت برفيق أرمى اسمه أرتين مادويان الذى أجرى تحقيقاً معى فى ظروف القبض على وأصدر قراراً بأننى قد أهملت فى إجراءات الأمان وتقرر معاقبتى بإبعادى عن كنف الحزب لمدة ستة أشهر.

وبعد ذلك طلب إلى أن أسافر إلى فلسطين لأعمل فى صفوف الحزب الفلسطينى على أساس أننى كشفت للبوليس فى لبنان. وفى فلسطين عملت أيضاً فى مطبعة الحزب وعندما اشتعلت ثورة ١٩٣٦ شاركت فى تنظيم الاجتماعات الجماهيرية وفى تهريب الأسلحة وأصبحت معروفاً خلال أحداث الثورة وخاصة بعد أن خطبت كثيراً فى المظاهرات وصار الجميع يعرفوننى باسم محمد المصرى.

وقبض على ثلاث مرات وتقرر إبعادي لكننى فى كل مرة كنت أهرب من الحراس عند الحدود وأعود.

وفى آخر مرة كنت فى مزرعة تابعة لحكومة عموم فلسطين فى مجدل عسقلان وكان ناظرها الرفيق طاهر القبيج وقبض على وتقرر إبعادي. وفى هذه المرة سألت نفسى لماذا لا أعود إلى مصر. وكنت أشعر بحنيني الجارف لمصر للنضال على أرضها، وتسملت إلى العريش واستخدمت مرة أخرى مهنتي كعطشجي فى السكة الحديد للاختباء فوق سطح القطار وهو يجرى بأقصى سرعته وأخيرا وصلت إلى القنطرة شرق.. وصلت إلى داخل مصر ولم تعد أية قوة تستطيع إبعادي عنها.. وكان ذلك عام ١٩٣٨.

س: ماذا فعلت بعد وصولك...؟

ج: اتصلت بالدكتور حسونة بالإسكندرية الذى أبلغنى أن هناك خلايا حزبية وأن خلية الإسكندرية قررت استضافتي لعدة أشهر للاستجمام والراحة بعد هذه الفترة الصعبة.. وفعلا أقمت فى بيت بجليم يملكه الرفيق محمد عمر (عمروف).. وانضمت إلى مجموعة الإسكندرية وكانت تضم د. حسونة- عبد الرحمن فضل- محمد عمر (عمروف) الشيخ صفوان أبو الفتح.

وبعد ذلك انتقل عبد الرحمن فضل إلى القاهرة وقررت أنا أيضا أن أذهب للقاهرة لأبحث عن عمل، وفى القاهرة انضمت إلى المجموعة الحزبية فيها وكانت تضم شعبان حافظ- وعبد الفتاح القاضى- وعبد الرحمن فضل وآخرين.

وبعد ذلك اتصلنا جميعا بهنرى كورييل وانضممنا إلى تنظيمه وسافرت للعمل فى معسكرات الإنجليز بالقصاصين وهناك اتصلت بإحدى مجموعات التنظيم.

لكن الإنجليز ما لبثوا أن طردوني وأبعدت من القصاصين. فعملت فى شركة جونسون ريك أند بير وكانت تقيم قاعدة للأمريكان فى هايسكيب ثم عملت بمصنع كيماوى بالمطرية.

انتهى النقاش

(*) روى لى محمد دويدار تفاصيل كثيرة عن هذه الرحلة لكنها لا تتعلق بهذه الدراسة كموضوع علمي فهي أقرب إلى القصص الدرامي العنيف، وربما اتاحت لى الفرصة يوما لتقديمها لأحد الأذباء ليخلق منها عاملا درامياً أعتقد أنه سيصبح جزءا متما لجانب العلمى فى هذه الدراسة- المؤلف.

محضر نقاش مع إدوارد ليفى (*) تمت المناقشة فى باريس فى أوائل نوفمبر ١٩٦٨

س: ما هى معلوماتك عن نشاط الحركة اليسارية فى الثلاثينيات؟
ج: فى حوالى ١٩٢٥ تأسست فى القاهرة والإسكندرية جمعية ثقافية اسمها -essaay-istes وهى جمعية ثقافية ليس لها فى الواقع نشاط سياسى ولا علاقة لها بالتيارات ولا الخلافات السياسية وكان نشاطها منحصرا فى المحاضرات الثقافية وإقامة معارض وحفلات موسيقية وكان أعضاؤها أساسا يونانيين، يهود، شوام، وقليل من المصريين الأقباط وقليل جدا من المصريين المسلمين.

وكانت هذه الجمعية تصدر مجلة اسمها leffort (المجهود).
وفى داخل الجمعية بدأ يتجمع تيار يسارى، وأنا أذكر مثلا أن مجلة هذه الجمعية كانت تنشر مقالات عن الماركسية..

ومن داخل هذه الجمعية وتيارها اليسارى ظهرت فيما بعد شخصيات لعبت دورا فى تأسيس الاتحاد الديمقراطى والمنظمات التروتسكية والشيوعية.. وأذكر مثلا جورج حنين.

س: هل كانت هناك أية تجمعات أخرى؟

ج: مثلا كانت هناك مجلة يسارية أصدرها أخى زكى ليفى اسمها leberte (الحرية)..

وكان يرأس تحريرها شخص يسارى اسمه ليون كاسترو وهو محام شهير كان صديقا شخصيا لسعد زغلول.. وقد ظهر ليون كاسترو بعد ذلك ككادر يسارى يلعب دورا هاما فى اتحاد أنصار السلام عام ١٩٣٧ ويؤسس لجنة مكافحة العداء للسامية^(١) وكان يعمل فى هذه الجريدة أيضا روبير بلوم وكانت مقالاته ذات اتجاه يسارى واضح وأذكر أنه كان يشير دائما فى هذه المقالات إلى «الأومانتية» جريدة الحزب الشيوعى الفرنسى.

س: يفهم من كلامك أنه كانت هناك اتجاهات يسارية متفرقة وسط الأجانب وأود أن أعرف هل كانت لهذه المجموعات علاقة بالمصريين؟

ج: الحقيقة أن غالبيتنا كانت لا تعرف اللغة العربية.. وكان ذلك يمثل عقبة مهمة فى الالتقاء بالمصريين وفى البداية كانت المجموعات أجنبية أو شبه أجنبية ولم تكن لها علاقة بالصراعات السياسية فى مصر وذلك طبعا باستثناء مجلة «ليبرتية» التى كانت تؤيد الوفد وكانت تبدو كمحاولة من الوفد لعمل تيار يؤيده وسط الأجانب.. لكن بعد أن أسس جاكو دى كومب لجنة السلام أمكن لهذا التيار اليسارى الأجنبى أن يلتقى بالمصريين. فقد انضم إلى لجنة السلام هذه عدد من المصريين منهم شخصيات معروفة مثل هدى شعراوى، عبد الفتاح الطويل وغيرهما. وهذه الحركات كانت جزءا من حركة عالية اسمها التجمع العالمى من أجل السلام..

وكان لهذه الجمعية نشاط جماهيرى فى عام ١٩٣٥ عند نشوب حرب الحبشة عقدت الجمعية اجتماعا كبيرا لإدانة العدوان الإيطالى وقد حضرت هذا الاجتماع وأذكر أن الذين تحدثوا فيه هم عزيز أنطون، عبد الفتاح الطويل، ريمون كاسترو (ابن ليون كاسترو) وقد نشطت هذه اللجنة كثيرا فى الدفاع عن الحبشة والدفاع عن شعب الصين ضد الهجوم اليابانى وتأييد الجمهوريين فى إسبانيا.. وعموما فإن نشاطها كان مركزا ضد الفاشية والعنصرية والحرب..

وكانت الجمعية تصدر نشرة بالعربية والفرنسية..

وقد عقدت الجمعية اجتماعا جماهيريا آخر فى الإسكندرية تحدث فيه محام اسمه عبد الخالق العزوى وباختصار فإن هذه الجمعية قد نجحت فى أن تقيم علاقات جيدة وقانونية بين اليسار الأجنبى وبين المصريين.

س: هل اتصلت بأعضاء الحزب الشيوعى القديم؟

ج: التقينا مثلا بالشيخ صفوان وهو أحد قادة الحزب وكان يحضر اجتماعات جماعة السلام.

س: كيف اتصلتم به؟

ج: الذى بدأ الاتصال به أخى زكى ليفى فقد كان يجيد العربية ومن هنا كان هو مفتاح علاقاتنا بالمصريين وزكى ليفى كان فيما بعد عضوا فى (ح. م) (الحركة المصرية للتحرر الوطنى).

س: عندما اتصلتم بصفوان هل حاولتم تشكيل تنظيم؟

ج: لا.. لكن اكتفينا بالمناقشات وعقد اجتماعات للتشاور والدراسة.. لكن لم يصل عملنا إلى مستوى التنظيم بالمعنى المفهوم.

س: ممن كانت تتكون لجنة السلام؟

ج: فى الأساس عناصر يهودية ويونانية وكان هناك أيضا إنجليز كثيرون ولهذا أنا ترددت وخشيت من الاستمرار معهم.. لقد خشيت من وجود الإنجليز.

س: ما هى علاقاتكم بالصهيونية؟

ج: عندما تكونت رابطة مكافحة العداء للسامية وكان مؤسسوها من اليساريين بدأ الصدام بينهم وبين الحركة الصهيونية لأننا كنا نجند اليهود للكفاح ضد الفاشية ولم ندع إلى الهجرة لفلسطين.. كنا نرفع شعارا للإخلاص هو الكفاح ضد الفاشية أما هم شعار الخلاص عندهم الهجرة إلى فلسطين ومن هنا بدأ الصدام وكنت أنا رئيس فرع اللجنة فى الإسكندرية وإيلي ميزان (صهر بول جاكو دى كومب) سكرتير فرع اللجنة فى القاهرة.

س: هل هناك أشياء أخرى تريد ذكرها؟

ج: هناك عدة أشياء متناثرة.

- أود أن ألفت نظرك إلى أن البلد الأجنبى الوحيد الذى تنازل عن الامتيازات الممنوحة لرعاياه فى مصر هو الاتحاد السوفييتى بعد ثورة أكتوبر وقد ترك هذا أثرا كبيرا فى نفوس الكثيرين.

- سمعت عن شخص اسمه حيام شترن وكان عضوا بالحزب الشيوعى عام ١٩٢٢ وترجم مع شخص مصرى كتاب لينين «الدولة والثورة» إلى اللغة العربية ولكن الترجمة كانت رديئة جدا.. وقد غادر شترن مصر عام ١٩٣٠ (**).

- تذكرت الآن اسم شخص كان يلعب دورا نشطا فى جمعية السلام هو جاك طوبى وزوجته.

- فى بداية الحرب العالمية الثانية تشجعت قليلا وقمت أنا وصفوان وسامى كانترفتش (مدرس) بتأليف كتيب من ٢٠ صفحة عن «الزراعة فى الاتحاد السوفييتى» وقد طبعنا منه ١٠٠٠ نسخة وأصدرناه بدون توقيع.
أنا لم أنس مصر حتى الآن، بل أكتب رواية عن مصر اسمها «عيناي وشمسى».

انتهى النقاش (*)**

الهوامش

(*) إدوارد ليفى محام مختلط من الإسكندرية.. ولد عام ١٩٠٢ كان أحد قادة الاتجاهات اليسارية فى الثلاثينيات أصيب بالعمى على إثر اعتقاله عام ١٩٤٨.. أُبعد من مصر فى ١٩٥٦ عقب العدوان الثلاثى لأنه رعية فرنسية.. يقيم فى باريس.

(١) قال إدوارد ليفى أن ليون كاسترو قد أصبح فيما بعد صهيونيا وقطع الشيوعيون علاقاتهم به.
(**) يعتقد أنه يقصد كتابا مترجما صدر باللغة العربية عام ١٩٢١- بعنوان «مذكرات لينين» تأليف- لينين رئيس الجمهورية الروسية، عربها عن الفرنسية أحمد رفعت- شركة دار الطباعة الفنية- القاهرة.

(***) أُجرى هذا الحوار هو وعدد آخر من الحوارات الصديق ألبير أربييه الذى أسهم بذلك إسهاما جادا فى إنجاز هذا الكتاب.

محضر نقاش مع إيلي ميزان (*)
تمت المناقشة في «باريس» في منتصف شهر
نوفمبر سنة ١٩٦٨

س: ما هي معلوماتك عن التجمعات الاشتراكية في بداية الثلاثينيات؟
ج: في عام ١٩٣٣ وبعد وصول هتلر إلى الحكم في ألمانيا تأسست في مصر «رابطة مكافحة العداء للسامية» (I.i.c.a) برئاسة المحامي ليون كاسترو وكنت في ذلك الحين طالبا في مدرسة الليسيه فأسست فرعا لهذه اللجنة في المدرسة وكان هذا الفرع هو في واقع الأمر يمثل فرع الشباب لهذه اللجنة فمعظم الطلاب الأجانب كانوا متركزين في مدرسة الليسيه.

س: ما هي الحدود التي كانت تنشط فيها رابطة مكافحة العداء للسامية؟
ج: حملات دعائية ضد النازية، مقاطعة البضائع الألمانية، ومقاطعة الأفلام والمجلات الألمانية والتي تعطف على ألمانيا.. وكانت الرابطة مكونة أساسا من اليهود وعدد قليل من الأرمن واليونانيين ولهذا كان تأثيرها قليلا وسط الشعب المصري.

س: كيف تحولت هذه الرابطة إلى جمعية يسارية؟
ج: سير الأحداث هو الذي دفعنا، فقد بدأنا بمعاداة النازية.. ومن ثم كنا ضد غزو الحبشة وضد الملكيين في إسبانيا وكذلك تبنينا شعار «الجبهة الشعبية» لتكون أوسع جبهة

ضد النازية والحقيقة أن تبنيها لشعار الجبهة الشعبية «كان يمثل نقطة أساسية في موقفنا، وهكذا بدأنا كيهود يحاربون العداء للسامية ثم انتهينا شيوعيين».

ولا بد أن ذلك كان أيضا بتأثير عناصر يسارية ساهمت في تأسيس الجمعية.

س: كيف كانت علاقاتكم بجمعية السلام؟

ج: بعد أن أصبحنا يساريين انضم بعضنا إليها، لكن جاكو دي كومب كان يقيم حواجز ضدنا فقد كان يتشكك في كل الناس، وكان يخشى من أى نشاط حتى لا يلفت أنظار السلطات.

س: كنتم جمعية يسارية، يترجمها شخص ذو ميول وفدية، فكيف كانت علاقاتكم بحزب الوفد؟

ج: كانت هناك علاقات بالطبع أساسها ليون كاسترو وأذكر أننا بعض الأحيان اشتركنا في مظاهرات نظمها الوفد.

س: هل كانت لكم علاقات بالخارج أو بأية أحزاب شيوعية أجنبية؟

ج: لا أعرف، لكننى بهذه المناسبة أود أن أذكر واقعة ربما كانت تهكم، وهى أنني كان لى قريب هو «أدوارد سوريانو» كان يقيم فى الإسماعيلية.. ومات عام ١٩٣٨.

وبعد وفاته عثرت فى أوراقه على أشياء تفيد أنه كان على علاقة بالحزب الشيوعى الفرنسى وعثرت فى أوراقه أيضا على أشياء توحى أنه كان أحد مؤلفى كتاب أصدره الحزب الشيوعى الفرنسى عن مصر اسمه «الأدب والاستعمار.. مصر فى الأدب الفرنسى» والكتاب بدون توقيع لكن هناك إهداء من عدة أشخاص منهم الاسم التالى «ES» وأنا أعتقد أن هؤلاء الأشخاص هم المؤلفين وأن «ES» هو «أدوارد سوريانو».. وهذا الكتاب جيد جدا وهو دراسة ماركسية ممتازة عن موقف الأدب الأجنبى من مصر.

س: كيف تحولتم إلى العمل الشيوعى؟

ج: أنا اتصلت بالاتحاد الديمقراطى.. وهو كان تنظيم مفتوح بعكس جمعية السلام وأنا وهليل شوارتز عملنا لفترة من الوقت مع هنرى كورييل فى الاتحاد الديمقراطى.

وفى يناير ١٩٤٢ اتصل بنا «كيبريو» وهو «عديلى» وجمع عددا من أعضاء «الاتحاد الديمقراطى» وعددا من أعضاء «جمعية السلام» وأحضر لنا شخصا يونانيا ادعى أنه ممثل الكومنترن.. ودعانا هذا اليونانى إلى ضرورة العمل فورا على تكوين تنظيم شيوعى وعلى الفور قررنا البدء فى تأسيس تنظيم وكونا لجنة مركزية.

وبعد قليل اكتشفنا أن هذا اليونانى لا يمثل الكومنترن وأنه مجرد شيوعى سابق بالمجموعة اليونانية وفصل منها.. فلما واجهنا «كيريوى» اعترف وقال إنه اتخذ هذا الموقف ليحثنا على تكوين تنظيم.

س: ممن تكونت اللجنة المركزية الأولى لأسكرا؟

ج: أنا وهليل شوارتز وماكس اديريرت.

س: ألم يكن فيها هنرى كورييل؟

ج: كان من المفروض ذلك ولكن شوارتز اعترض على ذلك قائلا: إن كورييل سبق اعتقاله بتهمة الشيوعية وأنه مكشوف للبوليس.. وأنه لا يتبع قواعد الأمان. وهكذا استبعدنا كورييل من القيادة.

(*) إلى ميزان أحد مؤسسى تنظيم «أيسكرا» وهو أخو زوجة بول جاكو دى كومب. كان يعمل موظفا فى قسم الدعاية بشركة الإعلانات الشرقية واعتقل فى عام ١٩٤٨ وطرده من مصر عام ١٩٤٩.

محضر نقاش مع بول جاكودى كومب(*)
جلسة المناقشة الأولى
تمت المناقشة فى باريس فى أوائل نوفمبر ١٩٦٨

س: هل يمكن أن تقدم لنا موجزا لتاريخ حياتك وكيف أصبحت يساريا؟

ج: أنا من أصل سويسرى وقد ولدت فى القاهرة.. وكان أبى مهندسا مشهورا يمتلك شركة كبيرة للمساعد والمقاولات الكهربائية.. وقد تعلمت فى مدرسة أجنبية فى القاهرة ولم أعرف كلمة عربية فقد كان التكلم بالعربية مشينا بالنسبة للأجانب المقيمين فى مصر وفى أوائل الثلاثينيات ذهبت إلى ألمانيا لأدرس الموسيقى. وأثناء وجودى بألمانيا ارتبطت بالحزب الشيوعى الألمانى.. لكنى لم أصبح عضوا وإنما مجرد صديق لهم وكنت أشارك فى مجموعات الدعاية والإثارة التى كان الحزب ينظمها وكثيرا ما ذهبت مع الشيوعيين إلى المقاهى لنخبط ونغنى أناشيد شيوعية.

وفى عام ١٩٣٢ عدت إلى مصر كى أقيم عاما واحدا ثم أعود مرة أخرى.. وخلال هذا العام أرسلنى أبى إلى أسوان حيث كانت شركتنا تقيم مشروعا متعلقا بكهربية الخزان وكان أول اتصال حقيقى لى بالعمال والفلاحين المصريين.. ومن مخالطتى لهم بدأت أشعر أنه لا بد من كفاح منظم لإنقاذ هؤلاء الناس.. أدركت أن الاشتراكية شىء جميل لكن تطبيقه يحتاج إلى كفاح منظم..

وفى هذه الأثناء وصل هتلر إلى الحكم فقررت البقاء فى مصر.. وقررت أن أبحث عن الشيوعيين المصريين وأن أتصل بهم..

ولم أعر إلا على مجموعة من الشيوعيين اليونانيين وكانت مجموعة نشيطة جدا ومنظمة جدا وكل أعضائها من اليونانيين، لكن كانت لها علاقات بالعمال المصريين عن طريق بعض اليونانيين الذين كانوا يعملون أسطوات ورؤساء عمال..

وظلت لفترة أعمل مع هذا التنظيم دون أن أعرف من هو قائده وبعد أن وثقوا بى سمح لى قائدهم بمقابلته وعرفت أنه ياناكاكس.

وبعد ظهور الفاشية، وبناء على توجيهات الدولية الثالثة بدأ هذا التنظيم ينظم حملة للإفراج عن الزعيم الألماني تيلمان.

لكننى بمرور الوقت اكتشفت أننا معزولون عن الواقع المصرى وأن أساليبنا لا يمكن أن تؤدي بنا للالتقاء مع المصريين. وطالبت بسياسة جديدة وطرق جديدة تستهدف نشر الشيوعية وسط المصريين أنفسهم.. ولما رفضوا انقسمت عن هذه المجموعة وخرجت أنا وعدد من الناس بينهم «بيريس»^(١).

س: ماذا فعلتم بعد ذلك؟

ج: فكرت فى ضرورة إيجاد منبر قانونى للعمل نستطيع من خلاله الاتصال بالمصريين.. ورأيت أن الأسلوب الأفضل هو تأسيس منبر علنى معادٍ للفاشية حتى لا تعترض عليه سلطات الاحتلال.

وهكذا أسست فى القاهرة والإسكندرية «تجمع السلام» بمناسبة حرب الحبشة وقد ارتبط هذا التجمع بالتجمع العالمى من أجل السلام.. وقد عقدنا عدة اجتماعات جماهيرية تحدث فيها مصريون أذكر منهم عبد الفتاح الطويل.

س: ما هى حدود نشاط هذه الجمعية؟

ج: كانت تمارس نشاطا سياسيا وثقافيا وكنا ننظم محاضرات ومناقشات وكنا نصدر نشرة بالعربية والفرنسية.

وكانت المشكلة الأساسية التى تواجهنا هى عدم معرفة اللغة العربية ومشكلة الترجمة.. وعلى أية حال فقد كان أساس عملنا هو الحذر الشديد جدا..

والذين جندناهم كانوا أساسا يونانيين، يهودا، إنجليز، (معظمهم مدرسين).

س: هل تذكر أسماء؟

ج: أذكر بيريدس، سقراط كالياريكوس (محام مختلط بالإسكندرية توفى فى منتصف عام ١٩٦٨)، رفائيل دويك، جاك طوبى، سامى حنوكه (أخو زوجة ريمون أجيون وهو الذى أثر كثيرا فى جماعة الحزب المصرى فيما بعد) وراؤول كورييل، يوسف درويش، جورج حنين، مارسيل إسرائيل وعدد من التروتسكيين.

س: هل يمكن أن تذكر شيئا آخر عن نشاطكم؟

ج: فى عام ١٩٣٦ نشطنا لمساندة الجمهوريين الإسبان وفكرنا فى إرسال متطوعين فى الفرقة الدولية.

وفى عام ١٩٣٨ سافرت إلى أوروبا لحضور اجتماع التجمع العالمى للسلام وقابلت كريشنا مينون وأبلغنى أن نهرو يرغب فى زيارة القاهرة وفى مقابلة النحاس باشا، وعند عودتى اتصلت بعبد الفتاح الطويل وأبلغته بذلك وقد حضر نهرو فعلا ونزل ضيفا على النحاس باشا.

وقد تسببت هذه الزيارة فى مشاكل كثيرة لى، فقد هاجمنى جورج حنين وراؤول كورييل على أساس أننى مكنت نهرو من أن يقابل عناصر برجوازية وكان الأجدر أن نقابله نحن..

وقد تفاقم هذا الخلاف وأدى إلى انقسامهم وتكوينهم مجموعة مستقلة، والحقيقة أنها كانت مجموعة تروتسكية..

وأود أن أقرر الآن أن أحد أسباب الخلاف هو أنهم قد بدأوا ينشطون نشاطا واسعا وأنا خشيت أن يهدد نشاطهم كيان الجمعية وأن يكشفنا للبوليس المصرى.

س: ما هو مصير جمعية السلام هذه؟

ج: فى عام ١٩٣٢ بعد نشوب الحرب العالمية الثانية لم يكن من الممكن استمرار جمعية السلام فى العمل فتحوّلت إلى «مجموعة الدراسات le groupe etudes» وبدأنا فى إعداد دراسات عن الواقع المصرى والفلاحين..

وأصدرنا كتابا بالإنجليزية اسمه «مصر الآن» Egypt Now، وقد ألفه «هيلرى وايمان» وكان الهدف هو توزيع هذا الكتاب على جنود الاحتلال الإنجليز.

وأيام الحرب كنا ننظم سلسلة من المحاضرات فى مدرسة الليسيه بالقاهرة.

س: هل كان لكم اتصال بالكومنترن؟

ج: لا..

س: تردد كثيرا أنك كنت على اتصال بالكومنترن؟

ج: هذا غير صحيح والدليل أن جورج بوانتية (مدرس سويسرى الجنسية) تردد على جمعية السلام وكان يستهدف تحويل الجمعية إلى تنظيم شيوعى وأفهمنى أنه على علاقة بالكومنترن وأن لديه تعليمات بتأسيس تنظيم لكننى شككت فيه ورفضت.

س: هل تعتقد أن بوانتية كان على علاقة بالكومنترن؟

ج: أعتقد أنه كان فقط على علاقة بالحزب السويسرى.

وكانت هناك محاولة مماثلة قام بها الدكتور حسونة وكان حسونة يحضر إلى جمعية السلام بالإسكندرية وقد أبلغنى حسونة أنه على علاقة بالكومنترن.. وفى مرة علم أننى مسافر إلى أوربا فأبلغنى أنه يريد أن يرسل تقريرا إلى الكومنترن وتهربت منه لأنى كنت حذرا جدا ولأننى قلت لنفسى إذا كان متصلا بالكومنترن حقيقة لكانت له طريقته الخاصة بالاتصال بهم.

س: لماذا لم تحاول تكوين تنظيم ماركسى؟

ج: كنت أرى أن الأجانب لا يمكن أن يؤسسوا حركة شيوعية مصرية، وأن هذه المهمة يجب أن يقوم بها مصريون وأن مهمتنا هى دراسة الواقع المصرى وأن نبحث فى حذر عن مصريين قادرين على قيادة العمل ثم نترك لهم مهمة تأسيس التنظيم. والحقيقة أن هذا هو السبب الرئيس للخلاف بينى وبين هنرى كورييل لأن كورييل كان يرى أن على الشيوعيين الأجانب أن يؤسسوا حركة شيوعية مصرية وأن يقودوها.

(*) جاكو دى كومب أحد الشخصيات المهمة فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، وقد تردد اسمه كثيرا وسط هالة من الغموض فقال الكثيرون إنه كان مندوب الكومنترن فى مصر.. وإنه مؤسس أحد التنظيمات الشيوعية الأساسية (د. ش) (الديمقراطية الشعبية).

(١) بيريدس.. شاعر قبرصى شهير كان يتزعم حركة الشيوعيين اليونانيين فى مصر. أبعد عن مصر عام ١٩٤٦ خلال حكم إسماعيل صدقى وقد توفى فى رومانيا حيث أقام هناك مع مجموعات المهاجرين اليونانيين.

بول جاكودى كومب جاسة المناقشة الثانية - ٢٦ يناير ١٩٧٠ بباريس

س: بعد المناقشة السابقة وبعد الاستماع إلى كورييل وآخرين أود أن أوجه إليك سلسلة من الأسئلة حول الدور الذى قمتم به فى تأسيس أحد التنظيمات الشيوعية فى مصر.. فماذا تريد أن تقول حول هذا الموضوع وخاصة فيما بعد عام ١٩٤٠؟

ج: أولا أود أن أؤكد أنني منذ ١٩٤٠ قد شعرت شعورا قويا بأن دورنا قد انتهى. لقد كنا قد وضعنا البذور ويكفى هذا بالنسبة لأجانب وكان رأينا أن نترك الأمر للمصريين وحدهم وإذا احتاجوا إلى بعض المعلومات أو المساعدات مثل الترجمة وما إلى ذلك فإننا نقدمها لهم. لكن قيامنا نحن الأجانب بتأسيس منظمة شيوعية مصرية كان أمرا مرفوضا. وقد اعترض على موقفى هذا إيلى ميزان(*) وانسحب من مجموعتنا لينضم إلى مجموعة أخرى كانت تسعى لتأسيس منظمة.

س: حسنا، لنرجع إلى ما قبل ١٩٤٠ ولنبدأ مرة أخرى من البداية الأولى. كيف فكرت فى الثلاثينيات فى تكوين مجموعة ماركسية ومن حثك على ذلك؟ وهل كانت لعلاقتك بأحد الأحزاب الشيوعية الأوروبية صلة بذلك؟

ج: لم يحدثنى أحد على فكرة تأسيس مجموعة. وأنا لم أكن على علاقة بأى حزب

أوروبى. عندما كنت فى ألمانيا كنت مجرد عاطف على الحزب الشيوعى الألمانى وكنت فى مجموعة من الدعاة وكان نشاطنا قاصرا على الدخول إلى المقاهى وإلقاء الخطب والأناشيد الثورية لكن لم نكن أعضاء فى الحزب.

وعندما عدت من ألمانيا ذهبت إلى إدفو حيث كان والدى يقوم بمشروع هناك والتقيت بالعامل والفلاح المصرى ومن هنا كانت الشرارة الأولى، وبعد ذلك عدت إلى سويسرا وحاولت العودة إلى ألمانيا لكن هتلر كان قد تولى السلطة وعدت إلى مصر.

س: اسمح لى أن أقاطعك لكن كورييل يؤكد أنك كنت على علاقة بالحزب السويسرى؟
ج: لا.. ولكن جورج بوانتييه كان على علاقة طفيفة بهذا الحزب، وكان يعمل مدرسا فى الإسمايلية وبورسعيد.

س: كذلك يؤكد لأكور فى كتابه «الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط» أنك كنت ممثل الكومنترن فى مصر فما رأيك فى ذلك..؟

ج: غير صحيح والحقيقة أننا كنا كثيرا ما يتصل بنا أشخاص ليعلموا أنهم يمثلون الكومنترن لكننا لم نتأكد من صحة أى ادعاء من هذه الادعاءات ولم تكن لدينا بالفعل أى علاقة حقيقية أو رسمية بالكومنترن(**).

س: حسنا، لنعد إلى بدء نشاطك فى مصر فى الثلاثينيات..

ج: كنت فى الإسكندرية ولم أكن أعرف أحدا من اليساريين لكننى كنت أريد أن أفعل شيئا وقابلت بعض اليونانيين والإيطاليين وكانوا على علاقات بالعمال المصريين وكانت هذه أول علاقة حقيقية لى بالعمل السياسى فى مصر. ولم أكن أعرف أنهم منضمون إلى منظمات سرية لكننا كنا نتناقش بشكل عام. ومع تطور علاقاتى باليونانيين قالوا لى إن شخصا يريد مقابلتى وكان هذا الشخص هو ياناكاكس. وعلمت أنه مسئول المجموعة الشيوعية اليونانية. والحقيقة أننى حتى هذه اللحظة لم يكن لدى أى فكرة عن قيامى شخصا بتأسيس تنظيم. ومع استمرار الاتصال لاحظت أن نشاط ياناكاكس وكالياريكوس وبيريدس محصور تماما وسط الأجانب.

وخلال بعض المناقشات اقترحوا أن نصدر نداء للمطالبة بتحرير تيلمان لكننى سألت أنا وبعض الشباب ما علاقة هذا بالشعب المصرى؟ لا بد من عمل شيء لتحرير الشعب المصرى وتحريك الشعب المصرى.

وانفصلنا عن ياناكاكس وكونت أنا وأربعة من الشبان مجموعة جديدة تضم بيريدس، هاجي أندرياس (مصرى الجنسية من أصل يونانى كان يعمل فى مجال القطن وكان شاعرا. وقد نشر عددا من الدواوين والكتب ويعيش الآن فى اليونان). وقلنا إن هدفنا الأساسى هو الخروج من مأزق العمل وسط الأجانب ومن السرية المطلقة التى أحاط بها ياناكاكس العمل بحيث جعل المجموعة معزولة تماما عن كل ما يجرى فى مصر.

فقد أحسسنا أنه لا قيمة لأن يقوم ٣٠ أو ٤٠ من اليونانيين المقيمين فى مصر بعمل تنظيم سرى يحيط نفسه بسرية مطلقة وبدون أية علاقة مع المصريين. لعلاج أساليب العمل اضطرت المجموعة يوما لإصدار منشور باللغة اليونانية فأرسلوا لى عاملا يونانيا حتى أكتب المنشور بخطى فلا يستطيع البوليس الوصول إلى كاتب المنشور لأننى لست يونانيا.

ولكى نعمل ونتصل بالمصريين كان لا بد من البحث عن سند قانونى لتحركنا ولهذا أسسنا اتحاد أنصار السلام. وأقمنا علاقة مع الحركة العالمية المسماة Rassemblement Universel Pour la Paix وهكذا بدأنا الاتصال بالمصريين.

ولكن بعد أن أعلنت الحرب لم يكن من الممكن الاستمرار فى حركة السلام ولهذا أسسنا «مجموعة الدراسات» وكان هدفها تعريف الأوروبيين بأوضاع المجتمع المصرى. لقد أغلقت الحدود. وهكذا كان لا بد للأجانب المقيمين فى مصر أن يتجهوا لدراسة الواقع المصرى، وكانت لنا علاقة جيدة بالليسيه فرانسيه وبالفعل تمكنت مجموعة الدراسات من إعداد دراسات جيدة عن الفلاح المصرى - تاريخ مصر - ثورة عرابى - نهر النيل - إلخ. وكانت لنا أيضا علاقات بعدد من الإنجليز العاملين فى قوات الاحتلال ومنهم مثلا كولونيل أو كابتن Klugman وكان شخصا ممتازا ونشيطا. وقد تعرفت به عن طريق أستاذ إنجليزى شيوعى بالجامعة المصرية.

وقال Klugman إن علينا أن نضع كتابا بالإنجليزية موجهة إلى جنود قوات الاحتلال الإنجليزية نحدثهم فيه عن مصر وحضارتها وتاريخها وعن ظروف معيشة الفلاح المصرى، وبالفعل أعدنا هذا الكتاب وطبع طبعتين والحقيقة أن أحد العوامل المساعدة أن الإنجليز كانوا يرحبون بالتعاون معنا خوفا من اتجاه المصريين نحو الألمان.

س: هناك شخصية أود أن أسألك عن رأيك فيها هي ليون كاسترو. فهل كان كاسترو يساريا أم صهيونيا وما هي علاقتكم به؟

ج: كاسترو كان معاديا للنازية ومن هذه الزاوية اتخذ مواقف يسارية وتعاون مع اليسار لكنه كان أيضا صهيونيا. ومثل هذه التركيبة كانت موجودة بكثرة في هذه الأيام حيث اندفع كثير من اليهود للنضال ضد الفاشية في تعاون مع كل أعداء الفاشية بما فيهم الشيوعيين.

وعندما كنا في مجموعة الدراسات اتصل بى شخص وقال إنه موفد من قبل كاسترو وأبدى استعداده لمساعدتنا وتمويل أعمالنا لأننا ضد الفاشية ولم يقدموا أية شروط لكنهم أظهروا أنهم في خوف شديد من جماعة الإخوان المسلمين.

وقد رفضنا بشدة أى اتصال بهم أو قبول أى مساعدة منهم، ولكن هذا الموقف من كاسترو ومجموعته أدى إلى حدوث خلاف شديد في صفوف مجموعة الدراسات.

س: كيف كنتم تحصلون على الكتب الماركسية؟

ج: عندما عدت من سفرى في المرة الأولى أحضرت معى بعض الكتب وأذكر أننى عندما كنت في إدفو كان معى كتاب رأس المال لكارل ماركس. وفي ١٩٣٨ سافرت زوجتى إلى فرنسا وعادت ومعها عدة حقائب مليئة بالكتب. وفي هذه الفترة كان كل شخص يسافر للخارج يعود ومعهم كتب.

س: كيف أسست التنظيم؟

ج: أنا مصمم على أننى لم أؤسس تنظيما، أنا وضعت البذور ثم تركتها، أنا كنت من الناحية المبدئية ضد أن يقوم أجنبى بتأسيس تنظيم.. إننى أقر بوضوح أن تاريخ الحركة الشيوعية قد بدأ بعد أن تنحيت أنا عن العمل.

لقد عملت في مصر عشر سنوات من النضال الديمقراطي والماركسى بهدف نقل الفكر الماركسى إلى عدد من المصريين وهذا هو كل دورى وبعد ذلك تركتهم يفعلون ما يشاؤون.

لكن كورييل كان يرى أنه يمكنه وهو أجنبى أن يؤسس تنظيما. وعندما حضر أندريه مارتى إلى مصر ناقشه كورييل وأيد مارتى وجهة نظر كورييل. وهذا طبيعى فالحزب الشيوعى الفرنسى كان يرى أنه يمكن لكوادر أجنبية أن تقود العمل الحزبى في بلد مستعمر وكان هذا هو موقفهم العملى في الجزائر.

واستنادا إلى تأييد أندريه مارتى كَوْن كورييل « ح. م. » وطلب إلى رفاقي أن أعرف وجهة نظر الحزب الفرنسى فى هذا الموضوع وظللت أتصل لمدة أربع سنوات بالمكتب السياسى للحزب الفرنسى دون أن ألتقى ردا .

س: هل تريد أن تضيف شيئا حول النشاط فى الأربعينيات؟

ج: لا .. أسأل أصحاب هذا النشاط أما أنا فكان دورى قد انتهى تماما .

انتهى النقاش

(*) أخو زوجة بول جاكو دى كومب .

(**) خلال إحدى الجلسات رأى بول جاكو دى كومب معى بعض وثائق مصورة من International Press وهى النشرة التى كان يصدرها الكومنترن، فقال لقد كتبت عدة مقالات فى هذه المجلة. لكنه لم يعد إلى الإشارة إلى هذا الموضوع مرة أخرى.

محضر نقاش مع ريمون أجيون (*) أجريت المناقشة في باريس في ٤ إبريل ١٩٧٣

س: سأبدأ بسؤال تقليدي.. الاسم، الميلاد، المهنة حاليا..

ج: اسمي ريمون أجيون، مولود في عام ١٩٢١ بالإسكندرية، أعمل حاليا تاجرا للوحات التشكيلية وأقيم في باريس.

س: كيف ولماذا ومتى انتميت إلى الحركة اليسارية.. وعن طريق من؟

ج: الحقيقة أنه من الصعب أن أقدم إجابات دقيقة على سؤال دقيق كهذا فقد كنا مجموعة من الأجانب، كل واحد فينا يعرف الآخر. وكان عددنا قليلا، ومن ثم فقد كان كل منا يتحدث مع الآخر ويؤثر في الآخر. وفي البداية كنا نسرع بالاتفاق ثم نسرع بالخلاف مع بعضنا البعض.

س: المهم كيف اتجهت يسارا؟

ج: المسألة - بالنسبة لي على الأقل - لم تأت دفعة واحدة، لم أتخذ قرارا من جانبي بأن أصبح يساريا، كنا نعيش في مصر كأسرة أجنبية وكنت أتردد كثيرا على أوروبا، ولم يكن غريبا أن يذهب شاب ممتلئ حماسا إلى أوروبا وينبهر بها، ثم يعود إلى مصر فيشعر بأن الأمور لا تسير في الطريق الصحيح.. وهكذا تكونت لدى في البداية أفكار اشتراكية

خيالية.. وكأى شاب أجنبى ذى ثقافة فرنسية قرأت جان جاك روسو، والبؤساء لفكتور هوجو، كنت أقرأ ثم أنزل إلى الشارع فأشعر بأن كل ما يصفه هوجو من بؤس موجود فى مصر، لكننى لم أكن أعرف ماذا أفعل..

وخلال هذه الفترة - وكان سننى حوالى ١٥ سنة - وخلال زيارة لباريس سمعت عن النضال الاشتراكى وعن الجبهة الشعبية وكان من اليسير جدا على إنسان مثلى أن يتصل باليسار الفرنسى.

كذلك كانت هناك مسألة مهمة، كان ظهور هتلر وانتصاره فى ألمانيا يرعب اليهود، وأنا يهودى، وقد شعرت كما شعر كثير من اليهود بضرورة اللجوء إلى مساندة الحركة الديمقراطية المناهضة للفاشية. وهكذا ومن هذه الخلفية بدأت أقترب رويدا رويدا من العمل اليسارى.

وثمة منطلق آخر.. فأنا من أسرة غنية، وكنت أشعر وأنا شاب متحمس، وبهذه الخلفية الفكرية، أن أسرتى تستغل الشعب المصرى، ومن خلال هذا الشعور، ومن خلال التناقض بين الأجيال بدأت أيضا أتمرد.

وقد كنت طالبا فى المدرسة اليهودية بالإسكندرية، وهى مدرسة تضم طلابا من مختلف الفئات الاجتماعية، وكان بالمدرسة بعض المدرسين التقدميين من بينهم مدام أنا طوبى (التي تزوجت فيما بعد زربينى وأصبحت مدام زربينى). وكانت مدام طوبى زميلة لجاكو دى كومب، وتعمل معه فى اتحاد السلام، وكانت تدرس لنا التاريخ، وكنا فى هذه الفترة نقرأ كتب أندريه مارلو وغيره، وفى سن الرابعة عشرة وجدت نفسى طالبا فى مدرسة مديرها اشتراكى ومدرستها تقدمية وجوها العام كان ديمقراطيا ومعاديا للفاشية، وكان هناك فى المدرسة طلاب يهود فقراء إلى حد ما، وكانوا يشعرون بالتناقض مع الطلاب الأغنياء.

كل هذا خلق المناخ الذى تحولت فيه تدريجيا نحو اليسار وأصبحت ماركسيا. س: ولكن كيف كانت البداية الفعلية؟

ج: جذبتنى مدام طوبى إلى اتحاد أنصار السلام، وطلبت منى أن أدرس وأن أناقش وكنت صغيرا جدا، لكننى كنت متحمسا وبدأت فى النشاط لكننى وبعد فترة أحسست أننا أجنب نتحدث مع الأجانب عن الأجانب، والمصرى الوحيد بيننا كان يشعر بعزلة قاسية.

كذلك بدأت أشعر أن هؤلاء العاملين في اتحاد السلام كانوا حذرين أكثر من اللازم، خائفين دوماً، يخشون أى تحرك، وكانوا يتحدثون حتى فيما بينهم بحذر شديد، وخوف شديد، وقلت فى نفسى إذا كانت هذه هى الشيوعية فأنا لست شيوعياً..

وعندما أصبحت فى السابعة عشرة من عمرى وحصلت على البكالوريا بدأ حلمى القديم يراودنى.. أن أدرس الطب، وأصبح طبيباً يعيش فى ريف مصر ليعالج الفلاحين الفقراء.. وينشر الاشتراكية فى صفوفهم.. وتوجهت إلى باريس ودرست السنة الإعدادية فى كلية الطب، واتصلت بالشيوعية ولكننى لم أنضم للحزب الشيوعى رسمياً، وبدأت نذر الحرب العالمية الثانية فأسرعت بالعودة إلى القاهرة.. كانت سنّى ١٨ سنة ونصف ولم أجد سوى العمل مع ذات المجموعة القديمة «اتحاد أنصار السلام».. برئاسة بول جاكو الذى اعتبرنى هو وزملاؤه متطرفاً ومشاعياً، وفى نوفمبر ١٩٣٩ تركتهم أنا ومارسيل إسرائيل وراؤول كورييل وفتاة يونانية (لا أذكر اسمها) لكنها كانت تعمل بالصحافة وقد أسست معها بعد ذلك صحيفة «دون كيشوت» وكان مارسيل أكثرنا خبرة، لكن خبرته كانت هى أيضاً متواضعة، وعندما اتفقنا على ترك مجموعة بول جاكو كنا نعرب بذلك عن سخطنا على التردد والخوف وعلى انحصار العمل وسط الأجانب وحدهم وعلى الابتعاد عن المصريين وعن مشاكل مصر الحقيقية. ولهذا قررنا تأسيس حزب شيوعى.

وفى نوفمبر ١٩٣٩ اجتمعنا نحن الأربعة وقررنا أننا الحزب الشيوعى وكانت هذه سذاجة مفرطة، وربما كانت محاولة لبث الشجاعة فى نفوسنا لكنها لم تكن بأية حال تعبيراً عن واقع موضوعى.

وبدأنا..

كان مارسيل يعمل فى مصنع قرب حلوان، وكانت لديه بعض علاقات بالعمال، وبعضنا كانت له علاقات بعدد من الطلاب.. وفى نفس الوقت تأسس النادى الديمقراطى وانضممنا إليه لنعمل من داخله.

س: كيف؟

ج: ابتداءً من نوفمبر ١٩٣٩ كنت أعتبر نفسى شيوعياً، قبلها كانت لدى مجرد تطلعات اشتراكية. وعندما أسس هنرى كورييل النادى الديمقراطى قلنا لأنفسنا نحن حزب شيوعى وهم تجمع قانونى علينا أن نعمل فى داخله لنكسب قوات جديدة لصفوفنا، ثم كانت هناك أيضاً جماعة الفن والحرية فعملنا معها أيضاً..

أى أننا قسمنا نشاطنا فى الفترة إلى قسمين..

النشاط القانونى، وكان يتمثل فى العمل المناهض للفاشية والنشاط الديمقراطى العام ومقاومة الدعايات المناهضة للسوفييت، ومن هذا المنطلق أقمنا علاقات متشعبة.. مع النادى الديمقراطى (القاهرة) ومع اتحاد السلام (أساسا بالإسكندرية) ومع مجموعة الفنانين السيراليين الذين أسموا أنفسهم «الفن والحرية» ومنهم جورج حنين ورمسيس يونان وكامل التلمسانى، وهؤلاء السيراليون لم يكونوا متفقين معنا ١٠٠٪ لكننا قلنا إنه فى بلد كمصر وفى فترة كهذه لا بد أن نتعاون مع أية قوى مستنيرة، بينما كان بول جاكو وأمثاله من الجيل القديم ضد أى علاقة مع هذه المجموعة بحجة أنهم تروتسكيون.

وأصدرنا مجلة «دون كيشوت» باللغة الفرنسية وقد عارضها مارسيل بينما كنت أنا وراؤول كورييل نعتبرها مجرد وسيلة لتقريبنا من الناس.

وكانت افتتاحية العدد الأول عن الاتحاد السوفييتى وكان الموقف معقدا للغاية وقد كتبتها أنا وراؤول. وكانت فترة الوفاق السوفييتى مع ألمانيا، وكان الكثيرون يهاجمون السوفييت بعنف لهذا السبب، وقد حاولت الافتتاحية أن تقول بأن السوفييت لم يتحالفوا مع الألمان، وبأن الحرب الفنلندية ليست ضد «المعسكر الحر» وإنما هى ضد ألمانيا، وكانت هناك رقابة على الصحف، وكنا مضطرون أن نتلاعب بالألفاظ ولم يكن ممكنا أن ندافع صراحة عن السوفييت.

واختلف مارسيل معنا بسبب المجلة، وانقسمنا.

وتوقفت «دون كيشوت» وبدأت محاولة جديدة فى مجلة تصدر بالعربية هى «المجلة الجديدة». وعن طريق «دون كيشوت» تعرفت برمسيس يونان.. واتفقنا على العمل معا فى المجلة الجديدة وأصبحنا شركاء لسلامة موسى ثم اشتريت منه المجلة. وكان تكتيك رمسيس يونان وأصدقائه مما لآتى عندما كان الاتحاد السوفييتى يتراجع أمام الألمان، ولكن بعد معارك ستالينجراد وبداية الانتصار السوفييتى بدأوا فى الهجوم على السوفييت.. وانقسمنا، وبرغم أننى دفعت كامل ثمن «المجلة الجديدة» إلا أن العقود كانت باسم رمسيس يونان فأخذ المجلة لكنها لم تلبث أن توقفت.

وفى المجلة الجديدة كنت قد تعرفت بأُسعد حليم وأسست له دار نشر هى «دار الفجر» ولم يكن أسعد من مجموعتى لكننى كنت أساعد أى إنسان تقدمى. فلم يكن يهمنى إلا النضال.

وخلال تقدم القوات الهتلرية فى جبهة العلمين سافرت إلى فلسطين حيث التقيت بعدد من الرفاق الفلسطينيين فى حيفا.

وبعد عودتى إلى مصر بدأت فى الاهتمام بالمسألة اليوغسلافية، وكان هناك ٢٨,٠٠٠ مهاجر يوغسلافى، أتى بهم الصليب الأحمر ومنظمة «أونرا» وكدسوهم فى معسكر فى منطقة الشط بالقنال. وكانوا قد أتوا وبينهم تنظيم سياسى قوى اختيرت قيادته فى يوغسلافيا وقد حاول الإنجليز تدمير هذا التنظيم.

وقد اشتركت زوجتى مع عدد من السيدات الإنجليزيات فى تكوين لجنة للاهتمام بهم، وقامت اللجنة بجمع تبرعات مالية، ومساعدتهم على مواصلة نشاطهم السياسى، وقدمنا لهم مساعدات مهمة، وقامت علاقة بيننا وبين الشيوعيين فى صفوفهم. ولفترة ليست قصيرة كنت أركز نشاطى فى هذا الموضوع.

وكانت هناك أيضا مشكلة اليونانيين، كانت التشكيلات العسكرية اليونانية تقاوم سياسة الإنجليز المتأمرة ضدهم والتي تحاول تصفية الفرق العسكرية اليونانية التى تتمتع القوى الثورية فيها بنفوذ هام، وذلك بالزج بهم فى معارك غير متكافئة مع العدو وفى جبهات بعيدة عن الجبهة اليونانية. وقد قام الجنود اليونانيون بخمسة انتفاضات مهمة، وكنا نساعدهم مساعدات كبيرة. وفى إحدى هذه الانتفاضات حاصرتهم القوات البريطانية ومنعت عنهم الطعام، وتحركنا نحن لمساعدتهم، جمعنا تبرعات واشترينا طعاما واتصلنا بعدد من الجنود الإنجليز الشيوعيين وعن طريقهم كنا نهرب لهم الطعام والمعلومات وقدمنا لهم مساعدات جدية.

س: كيف ومتى تركت مصر؟

ج: فى عام ١٩٤٥ بدأت الحركة الشيوعية المصرية تزدهر، وأحسست أن جذورها بدأت تتعمق، وكنت فى هذه الأثناء أشعر أننى بثقافتى الأجنبية عاجز تماما عن تقديم المزيد. وكان هذا إحساسى بالنسبة لبقية الأجانب وقررت أن أترك مصر، وغادرتها إلى باريس حيث انضمت إلى الحزب الشيوعى الفرنسى.

س: هكذا أستطيع أن أصل معك إلى مرحلة أساسية فى الحوار وهى المجموعة

الطلابية المصرية التى تكونت فى باريس.. علاقتك بها؟ نشاطها؟ كيف تكونت..؟

ج: أتى إلى فرنسا طلاب مصريون كثيرون بعد الحرب العالمية الثانية وكان هناك

مصريون سابقون مقيمون أيضا في فرنسا وفي هذا الحين تواجدت في مجموعة حزبية كلفها الحزب الشيوعي الفرنسي للعمل في هذا المجال.. وهذا هو كل شيء.

س: هل تسمح بمزيد من التفصيل، ولكي أكون محددا فإن هناك اعتقاد بأنك كنت على علاقة بمجموعة ما، وأنت كنت توجهها سياسيا.

ج: كان كل هدفى هو العمل على توحيد الشيوعيين المصريين، وقد اتحدوا ولكنهم عاودوا الانقسام. أمام علاقتى بمجموعة ما فالحقيقة أنه كان هنا في باريس طلاب مصريون كنا على علاقة بهم بحكم نشاطى الحزبى، وبعد عودتهم لمصر كان بعضهم يأتى لزيارتى، وكنا نتناقش بطبيعة الحال، وربما جاء هذا الظن من أنهم كانوا يعودون إلى مصر فيقولون إن أصدقاءنا في فرنسا يقولون كذا وكذا. وتصور البعض إننى أوجه هؤلاء الناس من هنا. والحقيقة أنه ربما كانت لنا في فرنسا وجهة نظر معينة لكننا لم نكن ندخل فى أى تفاصيل.

س: وماذا عن تداخل الحزب الشيوعي الإيطالى فى الأوضاع المصرية؟

ج: الإيطاليون لم يهتموا بمصر إلا مؤخرا.. كان هناك مصريون سابقون أعضاء فى الحزب الشيوعي الإيطالى ولم تعد لهم علاقة جدية بمصر مثل ريناتو ميللى. والحقيقة أن الاهتمام بمصر عندما أتى متأخرا لم يأت عن طريقهم وإنما عن طريق بعض الصحفيين من الأونيتا الذين زاروا مصر وأقاموا علاقات هناك.

س: وأنت شخصا.. ماذا كان دورك؟

ج: ربما كنت أهتم أكثر من الآخرين، ربما كانت علاقاتى أوثق بأصدقائى القدامى من الطلاب الذين عادوا إلى مصر ومارسوا دورهم، ولكننى لم أكن أوجه أوامر أو تعييمات لأحد.. كنت فقط أقول رأى.. وأقرر أنه لم يكن هناك توجيه من الخارج لكن يمكن القول بأنه كان هناك ضغط من الخارج من أجل الوحدة.

س: ماذا إذن عن نشرة «الشرق الأوسط» التى كنت تصدرها فى باريس، والتى

انتهجت خطأ سياسيا مشابها لخط من أسميتهم أصدقاء القدامى..؟

ج: عندما فتحت السجون والمعتقلات فى مصر قررت القيام بعمل إعلامى لمساعدة المناضلين الشيوعيين المصريين والدفاع عنهم، ولكن لى يمكن لهذه المجلة أن تجد قراء كان لا بد من عدم الاكتفاء بالحديث عن المعتقلين وإنما أن نتحدث عن أوضاع مصر بشكل

عام، وقد كانت «الشرق الأوسط» مجلة جيدة.. وتضم موادا ممتازة وكان لها قراء كثيرون.

س: متى صدرت هذه المجلة.. ومتى توقفت؟

ج: صدرت في نهاية ١٩٤٩ وتوقفت في نهاية ١٩٥١ وكانت تصدر شهريا.

س: ماذا كانت الاهتمامات الأساسية للمجلة؟ وما هي علاقاتها؟ ومن كان يمولها؟

ج: كانت مجلة مستقلة، وكنت أنا الممول، وأصدرتها أنا وعدد من الأصدقاء وكان تركيزنا الأساسي على قضايا الشرق الأدنى، وكانت لنا علاقات بالشيوعيين الإسرائيليين وحتى بالمابام، لكن الشيوعيين السوريين كانوا ضدنا.

انتهى النقاش

(*) ظل ريمون أجيون منتسبا لفترة طويلة إلى الحزب الشيوعي الفرنسي وذلك بعد أن غادر مصر في عام ١٩٤٥. حيث مارس نشاطا حزبيا مع مجموعة من الطلاب المصريين الدارسين في فرنسا وحيث ارتبط اسمه بتأسيس منظمة الحزب الشيوعي المصري (الراية).

محضر نقاش مع دينا فورتى(*) أجريت المناقشة فى روما فى ١٩٧٣/٢/٢٤

س: متى بدأ نشاطك السياسى؟ وكيف؟ ومن خلال أية منظمات؟

ج: بدأت نشاطى السياسى فى عام ١٩٣٨، وكان ذلك فى اتحاد أنصار السلام.

س: هل يمكن أن تعطينى صورة عن تكوين اتحاد أنصار السلام، وأسلوب عمله؟

ج: كان الرئيس بول جاكوبى كومب، وكان هناك عدد لا بأس به، أذكر مجموعة من اليونانيين منهم فيو بيريدس الشاعر اليونانى المشهور الذى أقام فيما بعد فى قبرص والذى ترجمت أشعاره إلى العديد من اللغات، وأيضا زوجته ألكسندرا، وفى الإسكندرية كانت هناك مجموعة من الأجانب منهم كازيس Cazes ودورا ستوليار Dorra Stoliar وأخوها أبى ABY وهما من أصل روسى وأذكر أن أبى ABY هذا شارك فى الحرب ضد النازى ومات فى المعارك فى الجبهة الإيطالية.

وكانت المسئولة عن النشاط فى الإسكندرية أنا طوبى ANNA TUBY زوجة جاكوبى طوبى وكان شيوعيا.

س: وماذا عن نشاط اتحاد أنصار السلام؟.

ج: كان نشاطنا خلال ٣٨ - ١٩٣٩ يتركز أساسا فى تأييد الجمهوريين الإسبان، سواء

فى جمع تبرعات أو تنظيم حملات إعلامية ودعاية، وأذكر أننا نظمنا حملة واسعة لجمع تبرعات لمدرسة أطفال فى فالينسيا بالمنطقة المحررة.

وكنا ننظم محاضرات لتأييد الحرب الوطنية فى الصين..

س: هل كان معكم مصريون؟

ج: أذكر شخصا مصريا كان معنا اسمه صبحى وكان مدرسا، وقد سمعت أنه ترك النشاط بعد ذلك.

س: هل كان نشاطك يقتصر على العمل فى اتحاد أنصار السلام؟

ج: لا.. فقد كنت شيوعية وكنت مرتبطة بالحزب الشيوعى الإيطالى وكانت هناك مجموعة إيطالية أذكر منها ريناتو ميلى Renato Miely وزوجته إيزا ISA وأوجو ناكسون Ugo Nacson وريئاتو فرفره Renato Farfara.

وكنا ننشط وسط الجالية الإيطالية لتعبئة جماهيرها ضد الفاشية وكانت هناك مجموعة إيطالية نشيطة معادية للفاشية تضم أحد قادة الحزب الاشتراكى الإيطالى وهو باولو باتينو Pawll Patino. والحقيقة أن المجموعة الشيوعية الإيطالية كانت نشيطة للغاية ووسعت مجالات عملها إلى حد كبير.

س: وماذا عن علاقاتكم بالحزب الشيوعى الإيطالى؟

ج: كانت علاقتنا بفرع الحزب الشيوعى الإيطالى فى فرنسا وكانوا يرسلون لنا نسخا من جريدة كانوا يصدرونها فى باريس واسمها La Voce Delgli Italiane (صوت الإيطاليين) وكانت تصلنا بالبريد وكنا نقوم بدورها بتوزيعها بالبريد على الأسر والشخصيات الإيطالية المناهضة للفاشية، وكنا نصدر منشورات فى المناسبات والأحداث المهمة ونوزعها بالبريد.

وكانت المجموعة الشيوعية وخاصة ريناتو ميلى وناكسون وباتينو غاية فى النشاط فى مجال العمل المناهض للفاشية، وكان هؤلاء الثلاثة مدرسين بالمدرسة الإيطالية، ومارسوا نشاطهم على نطاق واسع فى المدرسة وخاصة فى فترة الحرب الإيطالية ضد الحبشة وفى الحرب الإسانية.

وقد كان ريناتو ميلى أستاذا فى جامعة بادوا ولكنه اضطر للهجرة إلى مصر فى أعقاب الردة العنصرية لأنه كان يهوديا وبدأ يعمل كمدرس فى اللبسيه اليهودية.

ومن بين العناصر التي نشطت نشاطا واسعا ضد الفاشية محام إيطالى اسمه مارسيل ميسيوكوا Messicwa.

س: ثمة معلومات مؤكدة أن الرفيق سبانو أحد قادة الحزب الشيوعى الإيطالى - فى ذلك الحين - زار مصر فى نهاية الثلاثينيات وأقام بها لفترة.. فما هى معلوماتك عن هذه الزيارة؟ وأسبابها؟

ج: فيما أعلم أنه وصل إلى مصر فى فترة الحرب ضد الحبشة وأنه أقام فى بورسعيد بهدف تنظيم نشاط وسط الجنود الإيطاليين المتجهين إلى الحبشة، وكان بالفعل ينظم علاقات معهم ويوزع عليهم بيانات معادية للحرب ضد الحبشة.

س: هل شعرت من خلال تواجذك فى اتحاد أنصار السلام بأن بول جاكو كان يسعى القامة لتنظيم ماركسى فى مصر؟

ج: لم أشعر، ولكن سمعت أنه كان يحاول ذلك.

س: وماذا عن المجموعات الشيوعية فى الأقليات الأجنبية الأخرى؟

ج: قلت لك كان هناك يونانيون وأذكر منهم بالإضافة إلى بيريدس شخص آخر اسمه حاجى بابانديرو وهو كاتب روائى مشهور واسمه الذى أشتهر به فى ميدان الأدب هو تسيركوس Tsirkos. وكانت المجموعة اليونانية نشيطة للغاية أكثر نشاطا منا لأن الجالية اليونانية كانت أكثر عددا والتأثير الفاشى فيها أقل.

س: هل كنتم تصدرون نشرات أو مجلات؟

ج: كنا تصدر مجلة باللغة الإيطالية مناهضة للفاشية وكنا نوزعها على أسرى الحرب من الإيطاليين وقد لعبت هذه المجلة دورا هاما واسمها Fausta Terni وكان يرأس تحريرها لارا ليفى Lara Levi زوجة راؤول مكاريوس.

س: هل أقامت هذه المجموعة المناهضة للفاشية فى مصر علاقات مع الإنجليز؟

ج: طبعا، واتفقنا معهم على طبع مجلة باللغة الإيطالية اسمها «الجبهة المتحدة» Fronte Unito لتوزيعها على أسرى الحرب الإيطاليين فى كل أنحاء العالم، وكانت فعلا توزع فى معسكرات الأسرى بالهند وجنوب أفريقيا وغيرهما. وكان اتجاه المجلة تقدما بشكل عام فكانت تؤيد وتمتدح موقف الاتحاد السوفييتى، وتشيد ببطولة السوفييت فى معارك ستالينجراد.. إلخ.

س: ماذا كان موقفكم تجاه قضايا الشعب المصرى؟

ج: كان خطأنا الأساسى أننا حصرنا أنفسنا فى الاهتمام بالأوضاع الإيطالية، كنا نناضل من أجل إيطاليا، ونتتبع أخبارها، وكنا نوزع نشراتنا على الإيطاليين، ونعمل بينهم، وأنا مثلا لم أهتم بدراسة اللغة العربية، ولم أهتم بدراستها إلا بعد أن وعيت سياسيا فحاولت أن أتلقي دروسا فى اللغة العربية على يد صبحى.. ولكن لم أستمّر طويلا.. هذا بينما كان ريناتو ميللى يتكلم العربية لكن طموحنا ونضاليتنا كانت تتركز فى العمل من أجل إيطاليا وكان النموذج الأمثل هو أن يعود الإنسان إلى إيطاليا ليقاوم الفاشية، وأذكر مثلا كارليتو مندل Corletto Mendel وكان مناضلا ممتازا غادر مصر إلى إيطاليا عام ١٩٣٩ ليناضل إلى جانب الشعب الإيطالى.. واستمر يناضل حتى قتل بأيدى الفاشست عام ١٩٤٣.

س: هل لديك أية معلومات عن نشاط المجموعات الشيوعية الأجنبية الأخرى فى مصر؟

ج: لم أكن على علاقة إلا بالإيطاليين واليونانيين.

انتهى النقاش

(*) دينا فورتي مناضلة شيوعية إيطالية، لعبت دورا هاما فى حركة اليسار وسط الجالية الإيطالية بمصر فى نهاية الثلاثينيات ومطلع الأربعينيات غادرت مصر إلى إيطاليا حيث ما زالت تمارس دورا نشيطا فى الحزب الشيوعى الإيطالى.

محضر نقاش مع مارسيل ميسيكوا أجريت المناقشة في باريس في ١٩٧٣/٤/٥

الاسم: مارسيل ميسيكوا.

تاريخ الميلاد: ١٩٠٧.

محل الميلاد: الإسكندرية.

المهنة: رجل أعمال. محام.

س: أود أن تعطيني فكرة عن حركة اليسار الأجنبي في الثلاثينيات: مكوناته منطلقاته، اتجاهاته.

ج: بالنسبة لى أنا بدأت النشاط فى عام ١٩٣٦ وكنا مجموعة من المثقين اليهود واليونانيين أذكر منهم شارل عيسوى(*) وإميل نجار(**).

وقد تركنا شارل واتجه يمينا، وكنا مجموعة أجنبية معزولة تماما عن الشعب المصرى. وأذكر أننى فى عام ١٩٣٦ تلقيت بالبريد طردا من الكتب الماركسية باللغة الفرنسية وكان مرسلا لى من باريس، واستولى عليه البوليس واستدعانى جيتس باشا مدير البوليس وحقق معى طويلا، ثم أعاد إلى الكتب بعد أن نبه على ألا أطلع عليها أحدا غيرى.. وقد ظللت لسنوات أدرس الماركسية، وأتناقش عنها مع بعض أصدقائى الأجانب لكننى لم أتصل مطلقا بأى مصرى..

س: هل يمكنك أن تتذكر بعض الأسماء التي كنت تتصل بها في هذه الفترة؟
ج: جاك توبى وكان زوج مدام توبى ثم انفصلت عنه، ريمون أجيون، وكان هناك سيريني وهو اشتراكي إيطالي وهو رجل ممتاز وكان أخوه أحد قادة الحزب الشيوعي الإيطالي..

وكانت هناك أيضا لارا ليفي زوجة راؤول مكاريوس، وأذكر أنها كانت تصدر مجلة إيطالية، وعندما مر تولياتي بالقاهرة قادما من موسكو بعد الحرب العالمية توجه إليها في منزلها وانتقد المجلة نقدا شديدا.

وكان هناك من اليونانيين الشاعر بيريدس والرسام أنزولو بولو وأندريه فاتيديس وهو الآن في أثينا..

س: ألم تكن لكم أية علاقات بالمصريين؟
ج: بشكل عام لم تكن لنا علاقة بهم ولا حتى اهتمام بالاتصال بهم، وإن كنت أذكر بعض علاقات عابرة مع توفيق الحكيم وزهير جرانه..

س: الآن أريد أن أفهم طبيعة هذه المجموعة التي تتحدث عنها؟
ج: كنا مجرد مجموعة من اليهود الديمقراطيين نتخذ موقفا ضد النازي، ولكن لم تكن لنا أية مبررات للتصادم مع الإنجليز أو للاهتمام بمشاكل مصر.. ومن هنا فقد تباعدنا عن الآخرين الذين قرروا الاهتمام بمصر وبمشاكلها.

س: أفهم من هذا أنه لم تكن لك أية علاقات بالشيوعيين أو المنظمات الشيوعية!
ج: كان هناك شخص إيطالي اسمه هنريكو تيرنى وكان على علاقة قديمة بالحزب الشيوعي المصري منذ عام ١٩٢١، وبعدها استمر يعمل كشيوعي وسط الإيطاليين، وكان يعطيني نشرات مكتوبة باللغة الإنجليزية تمتدح الاتحاد السوفيتي.

س: متى غادرت مصر؟

ج: في مايو ١٩٤٨.

انتهى النقاش

(*) شارل عيسوى: مؤلف كتاب واسع الشهرة عن الاقتصاد المصري.. وقد ألح ميسيكوه إلى أنه قد

أسهم في إعداد مواد هذا الكتاب.

(**) إميل نجار: سفير إسرائيل في روما (وقت النقاش).

محضر نقاش مع زاؤول كورييل (*)
تمت المناقشة فى باريس فى منتصف نوفمبر ١٩٦٨

س: أبلغنى جاكو دى كومب أنك عملت معه فى جمعية السلام فهل هذا صحيح؟
ج: نعم وكان معنا أيضا راؤول مكاريوس وزوجته (وهو الذى أسس فيما بعد مجموعة تحرير الشعب) وكان معنا أيضا سيدة إيطالية اسمها فاوستا تيرنى أصدرت فى مصر جريدة إيطالية سارية اسمها (الجهة المتحدة).
وكذلك ريمون أجيون (انضم بعد ذلك للاتحاد الديمقراطى وأسهم فيما بعد فى تأسيس مجموعة الحزب المصرى) ومارسيل إسرائيل وآخرين.

س: قال جاكو دى كومب إنك كنت تروتسكيا؟
ج: هذا غير صحيح على الإطلاق والحقيقة أننا اختلفنا معه لأنه كان يخاف من أى تحرك ويخشى أى ارتباط بالمصريين ويعمل فى حذر شديد جدا يصل إلى حد الشلل التام وكان يخشى من أى مظهر ماركسى.
والحقيقة أنه حتى جورج حنين لم يكن من الممكن اعتباره فى ذلك الحين تروتسكيا..
وإن كان قد أصبح فيما بعد أحد زعماء التروتسكيين..

س: ما هي أساليبكم في العمل بعد الانفصال عن جاكو دي كومب؟
ج: بدأنا في تكوين مجموعات صغيرة تدرس الماركسية.

انتهى النقاش

(*) شقيق هنري كورييل.

محضر نقاش مع أنور كامل(*)
تمت المناقشة بالقاهرة فى ١٢/١/١٩٦٩

س: هل أستطيع أن أسألك عن بدء علاقاتك بالاتجاه اليسارى؟
ج: فى البداية اتصلت بجماعة Essayistes «المحاولين» ولكن صلتى بهذه الجماعة كانت ضعيفة جدا ولم تتعد زيارتين أو ثلاثة، لكننى لم أشعر بالقدرة على الاندماج معهم.
وفى عام ١٩٣٦ أصدرت كتابا اسمه «الكتاب المنبؤ» وقد صدر عن دار نشر يملكها أحمد الصاوى محمد وهى دار «مجلتى».
وعن طريق هذا الكتاب تعرفت بى كامل التلمسانى وتدعمت العلاقات بيننا بشكل وثيق ومستمر.

وفى عام ١٩٣٧ أو ١٩٣٨ -لا أذكر بالضبط- أقام التلمسانى معرضا لرسومه وكان الطابع الغالب عليه هو الطابع السيريالى.. وقد أحدث معرضه ضجة وتجمع حوله عدد من المثقفين.

وعن طريق التلمسانى تعرفت بجورج حنين وتوثقت علاقتى به وكان يرتب فى ذلك الحين هو وعدد من المصريين للانفصال عن جماعة Essayistes.. وبعدها اتصلنا بالاتحاد الديمقراطى لكن لم نشعر بالارتياح معهم..

وهكذا انفصل جورج حنين مكونا جماعة «الفن والحرية» وكنت عضوا بها.

س: ألم تتصلوا بجماعة بول جاكو دي كومب؟

ج: هذا الاسم لا أتذكره مطلقا، ربما التقيت به ولكنني لا أتذكره مطلقا.

س: كيف سار النشاط في جماعتكم الجديدة «الفن والحرية»؟

ج: أصدرنا سلسلة من النشرات وكلها ذات طابع فني، والحقيقة أننا كنا جميعا نتجه إلى الفن.. وأذكر أن أولى نشراتنا كانت عنيفة جدا وتتضمن بيانا بعنوان «يحيا الفن المنحط» وقد طبعناها بالعربية والفرنسية وقد وضع هذا البيان سلامة موسى، جورج حنين، رمسيس يونان، فؤاد كامل، كامل التلمساني، وأنا.

وعلى ظهر النشرة طبعنا صورة «جرنيكا» لبيكاسو.

وهذه النشرة رغم صغرها كانت بالغة الأهمية.. والبيان كان اتجاهه العام معاديا للفاشية ودفاعا عن حرية الرأي وحرية الأدب والفن.. لكن لم تكن هناك اتجاهات اشتراكية بالمعنى المفهوم.. لكن أهمية هذا النداء أن موقعه كانوا جميعا من المصريين. وعقب نجاح النشرة الأولى تحمسنا لإصدار نشرة ثانية وكانت دراسة لأندرية جيد أعتقد أن عنوانها كان «دفاع عن الثقافة».

وعقب ذلك تجمع حولنا عدد من الشباب وأحسست أنه لابد أن تكون لنا مجلة، فحصلت على ترخيص مجلة «التطور» وكنت رئيس التحرير وكان يكتب في المجلة رمسيس يونان، كامل التلمساني، أحمد عبدالعزيز هيكل، وأنا، عصام الدين حفني ناصف، توفيق حنا، زكي سلامة، عبد المغنى سعيد، د. نظمي لوقا (وقد كتب مقالا بعنوان «إنى أتهم»).. وكانت هناك قصص يكتبها البير قصيرى وكان يكتبها بالفرنسية ثم نترجمها إلى العربية وبالرغم من ذلك فهي في اعتقادي أول قصص عبرت عن الجو الشعبى وعن الاتجاهات الجديدة.. والمجموعة كلها كما نرى كانت مصرية وهذا هام جدا لكن كان هناك قليل جدا من الأجانب منهم ألبير قصيرى وسام كنتروفتش.

س: يتهم الكثيرون مجلة «التطور» بأنها كانت مجلة تروتسكية، لكنني قرأت فيها عدة مقالات تدافع عن الاتجاه السوفييتي.. فهل لديك تفسير لذلك..؟

ج: الحقيقة أننا لم يكن لنا خط واضح في مجلة التطور، وفي المقال الافتتاحي لأول عدد أصدرناه، قلت: إن هذه المجلة ستكون بوتقة تنصهر فيها الأفكار المختلفة، لكن الخط

العام للمجلة كان الدفاع عن الحرية وعن حقوق الشعب الديمقراطية.. مع اتجاهات يسارية دون خط محدد.

وأذكر أننا هاجمنا فى أحد الأعداد الزينات التى أقيمت فى إحدى المناسبات الخاصة بالملك، عيد ميلاده أو عيد جلوسه لا أذكر.. وفى برواز فى صدر الصفحة كتبنا نقول «هذه الزينات فى الوقت الذى يجوع فيه الشعب».

وحول مجلة التطور تجمع عدد كبير من الشبان المصريين المتحمسين للإصلاح، وبدأت أشعر أننا بحاجة إلى حركة أكثر ارتباطا بمشاكل الجماهير.. وهكذا تزعمت مجموعة من أعضاء «الفن والحرية» لتكون ناديا جديدا أسميناه «الخبز والحرية».

س: هل كان معكم مارسيل إسرائيل فى هذه الحركة الجديدة؟

ج: لم يكن معنا أجنبى مطلقا. والحقيقة أنه قد حدثت محاولات عديدة من جانب العناصر الأجنبية للاتصال بنا منذ أن كنا فى «الفن والحرية» وكانت هناك محاولات للاندماج معنا، لكننى لم أكن أرتاح إليهم ولم أكن أتصور أن أجنبيا مهما كان إخلاصه يمكنه أن يصبح زعيما لحركة شعبية مصرية، وكنت أرى أنه يتعين على حركتنا أن تكون مصرية شعبية وإذا كان هناك أجنبى مخلص للقضية فعليه أن يقدم مساعداته وخدماته من الخارج.

ويذكرنى ذلك بمقال نشره عبد المغنى سعيد فى مجلة الثقافة العمالية منذ عدة أشهر قال فيه: إننى عندما كنت رئيسا لتحرير التطور خضعت لأموال هنرى كورييل وأنه نصحنى فى ذلك الحين بالابتعاد عن كورييل. وهذا الكلام غير صحيح على الإطلاق.

س: لدى تقرير كتبه مارسيل إسرائيل عن تاريخ الحركة قال فيه صراحة: إنه هو الذى أسس «الخبز والحرية» فما رأيك فى هذا؟

ج: لا جدال فى أن مارسيل اتصل بنا، وحاول أن يؤثر فىنا لكننى وزملائى جميعا صممنا على أن تكون «الخبز والحرية» حركة مصرية ١٠٠٪.

ولم يكن مارسيل إسرائيل وحده هو الذى حاول ذلك فقد حاول كورييل وشوارتز وآخرون الاتصال بنا لكننى رفضت ذلك رفضا قاطعا حتى إنهم بدأوا يتهموننى بالشوفينية.

وفعلا مارسيل اتصل بنا لبضعة أشهر وحاول أن يؤثر فىنا. لكنه لم يتزعمنا مطلقا وبعد عدة أشهر أوقف اتصالاته بنا.

وأود أن تتصور حقيقة أوضاعنا فى ذلك الحين.. كانت هناك تيارات عديدة وغير واضحة.. الاتحاد الديمقراطي.. حركة العداء للسامية وحركات وأندية وجماعات أخرى عديدة أجنبية وغير واضحة الاتجاه، ولم نكن نفهم ماذا يريدون بالضبط.. وكان طبيعيا أن نتشبت نحن بمصرية الحركة ١٠٠٪ ورفض أى أجنبى.

س: هل كانت «الخبز والحرية» تنظيما ماركسيا؟

ج: فى البداية كانت مجلة «التطور» مجرد مجلة تستهدف التقدم والدفاع عن الحرية والديمقراطية ولم نكن قد اطلعنا على المراجع الماركسية ولم تكن متاحة فى مصر فى ذلك الحين، لكنها بعد ذلك وصلت إلى أيدينا عن طريق جورج حنين ومارسيل إسرائيل ثم عن طريق كورييل.

س: ماذا كان مصير مجلة التطور؟

ج: لم يصدر من المجلة سوى سبعة أعداد ثم توقفت.

س: لماذا توقفت؟

ج: كان جورج حنين هو الضامن المالى للمجلة وعندما انفصلت عن جماعة «الفن والحرية» سحب الضمان فسحب ترخيص المجلة وتوقفت عن الصدور.

س: ماذا حدث بعد تكوين «الخبز والحرية»؟

ج: استأجرنا مكتب «للخبز والحرية» كنا نعتقد فيه اجتماعاتنا فقد كنا جمعية علنية لكن البوليس حاصر المكان ومنع أى إنسان من دخوله فاضطرت إلى تحويل مسكنى إلى مقر للجمعية وأخذنا نلتقى بالعديد من الشباب وطلبة الجامعات لنمارس نشاطا يساريا.

س: ما تقييمك «للفن والحرية»؟

ج: هناك حقيقة مهمة تستلفت النظر هى أن الاتجاه اليسارى المصرى نشأ فى البداية فى وسط الفنانين والكتاب وقد نشأ مرتبطا بالتيار السيريالى التشكيلى، وكان هناك لقاء غريب بين اليسارية وبين السيريالية فى الرسم والشعر، وفى اعتقادى أن الحركتين كانتا فى الجوهر تمردا على الأوضاع السائدة.

وفى عام ١٩٤٠ أقمنا معرضا تشكليا أسميناه «المعرض الأول للفن الحر» وكان شعاره Et Apres «وماذا بعد» وقد نظمنا دعاية ضخمة لهذا المعرض وسط المثقفين ووزعنا عدة آلاف من الدعوات.

وقد استمر المعرض أسبوعين وزاره عدد كبير جدا من الناس وأذكر أن كلمة Et Apres كانت تتردد وسط مثقفى القاهرة كثيرا جدا فى هذه الأيام كنتيجة لتأثرهم بهذا المعرض.

س: بعد تكوينكم الخبز والحرية هل استمرت علاقاتكم بالفن والحرية؟

ج: انفصلنا.. ولكننا ظللنا أصدقاء..

س: من كان معك فى الخبز والحرية؟

ج: فتحي الرملى.. أحمد عبدالعزيز هيكل وأسعد حليم وآخرين.. لكن أسعد حليم لم يستمر طويلا معنا والحقيقة أن عددنا كان قليلا لكننا أحدثنا ضجة كبيرة وأمكنا أن نهز الفكر المصرى هزة عنيفة، ولو جمعنا عدد أعضاء كل المنظمات التى نشأت فى ذلك الحين لوجدنا أنه قليل جدا بالنسبة للأثر الفكرى الذى أحدثوه، فقد كان هناك فراغ فكرى عجزت البرجوازية عجزا تاما عن ملئه، وفى هذه الفترة قدمنا نحن فكرنا الجديد.

وقد ساعدنا على ذلك ارتباط التيار اليسارى بالموجة التقدمية فى الفن وأسلوب التعبير.

س: لدى سؤال أريد إجابة صريحة عليه: ما هى علاقاتكم بالتروفسكية؟

ج: كان هناك أكثر من اتجاه وسط اليسار، كانت الغالبية ستالينية وعدد قليل تروتسكى وأذكر مثلا أنهم كانوا يقولون: إن جورج حنين تروتسكى وأعتقد أن هذا صحيح، لكن فكرا كهذا لم يكن من الممكن أن يظهر ويتبلور إلا من خلال تنظيم سياسى وجورج حنين لم يكون تنظيميا سياسيا.

وأريد أن أشير إلى أن ارتباط هذه الموجة اليسارية بالفن والفنانين قد أعاق تحولها إلى تنظيم، فالفنانين عادة يحبون الدردشة لكنهم لا يقبلون بسهولة الخضوع لقيود التنظيم.

س: أليست لديك أية معلومات عن التنظيمات التروتسكية أكثر من ذلك؟

ج: الحقيقة أننا كنا فى بداية الطريق للدراسة للنظرية، كنا يساريين لكن لم نتح لنا فرصة دراسة أفكار ستالين وأفكار تروتسكى والمفاضلة بينهما.. لكننى متأكد أن جورج حنين وقد كان أكثر اطلاعا كان له موقف محدد هو ولطف الله سليمان وأعتقد أنهما كانا تروتسكيين.

س: ما علاقتك بعادل كامل وبشخصيات قصته «مليم الأكبر»؟

ج: لقد نشأت هذه العلاقة بالصدفة.. فقد قبض على كمتهم أول فى قضية جماعة

«الخبز والحرية» وظللت محبوسا تحت التحقيق لمدة عشر أشهر ولم أؤكل محاميا للدفاع عنى فاختارت المحكمة أحد المحامين وكان عادل كامل.. وقرأ المحامى أوراق القضية والمضبوطات وتأثر بها، وأذكر أنه أعد دفعا ممتازا بعدم الاختصاص وقد قبلت المحكمة هذا الدفع.

ومنذ عدة أشهر شاهدت عادل كامل فى برنامج تليفزيونى يقول: إن قضيتى قد غيرت مجرى حياته لكننى لا أخفى عليك أننى لم أقرأ قصة «مليم الأكبر».

س: مرة أخرى أريد أن أرجع إلى سؤال أريد عنه إجابة محددة.. هل كان مارسيل إسرائيل عضوا فى «الخبز والحرية» أم لا؟

ج: أقطع أنه لم يكن عضوا، لكنه حاول لفترة من الوقت أن يسايرنا وفشل..

س: هل كانت الخلافات بينك وبين المجموعات الأخرى محصورة فى موضوع مصريين وأجانب؟

ج: لم يكن هذا هو الخلاف الوحيد، بل كان هناك خلاف جذرى آخر هو أنهم كانوا يسعون إلى تأسيس منظمات سرية ذات صبغة شيوعية أما أنا فكنت أرى ضرورة تأسيس حركة علنية والاستفادة من الإمكانيات القانونية وكنت أجهد نفسى بحثا عن تكيف قانونى، فالاشتراكية مثلا لا يعاقب عليها القانون ولهذا قلت: إننا اشتراكيون ولسنا شيوعيين.

وقد قبض على عدة مرات وفى كل مرة كنت أعترف أننى أسعى إلى تغيير نظام الحكمة وإقامة الاشتراكية لكننى كنت أؤكد أننى أسعى للتغيير بالطرق المشروعة.

وكنت أقول: إن هناك مادة فى الدستور تبيح نزع الملكية للمصلحة العامة إذا ما رأى البرلمان أن المصلحة العامة تقتضى تأمين وسائل الإنتاج فإن ذلك من حقه وفقا للدستور.

وكان مسلكى هذا سببا فى تناقض شديد مع الآخرين.

س: هل هذا هو سبب ضعف التنظيم الذى سعت لإنشائه ثم انهياره؟

ج: لا.. لكن السبب هو أننى اعتقلت مرات كثيرة جدا فى الفترة من ١٩٤٠ حتى ١٩٤٦ كنت أقضى شهرين أو ثلاثة أشهر بالخارج ثم اعتقل شهورا عديدة، وخلال وجودى فى السجن كان الأجانب ينتهزون هذه الفرصة لاجتذاب العناصر التى أجمعها حولى فأعود لأبذل جهدا فى اختيار عناصر جديدة. وبعد قليل اعتقل من جديد..

س: هل لك ملاحظات على دور الأجانب فى الحركة الشيوعية؟

ج: الشئ الذى أريد أن أؤكدته هو أنه كانت هناك عناصر مصرية متفجرة ومتطلعة إلى التغيير والبيئة المصرية كانت تخلق هذا فى نفوسنا بصورة موضوعية وليس صحيحا أن الأجانب هم الذين أحدثوا هذا التفجر أو هذا الاتجاه نحو اليسار، فأنا والتلمسانى وكثيرين من المصريين اتجهنا يسارا دون أن نكون لنا علاقة بالأجانب. وأنا لا أستطيع أن اتهم هؤلاء الأجانب، لكنى فقط أرفض تصميمهم على قيادة حركة مصرية والغريب أنهم لم يكتفوا بالمشاركة فى الحركة وإنما كانوا يصممون على قيادتها. وأود أن أذكر هنا حقيقة هى أن مارسيل لم يكن كالأخرين فلم يكن يريد أن يتزعم الحركة.

س: مرة أخرى أريد الرجوع إلى موضوع التروتسكية هل تذكر شيئا بخصوصها؟

ج: لقد حدثت تطورات بعد الفترة التى تحدثنا عنها.. فجورج حنين ورمسيس يونان تسلما «المجلة الجديدة» من سلامة موسى واستمرا فى إصدارها عاما ونصف بصورة عادية وبعد ذلك تحولت فجأة إلى مجلة تروتسكية سافرة وبدأت فى مهاجمة الستالينية وفى تقديم أفكار تروتسكى.

س: وسلامة موسى هل كان ينظم مجموعة؟

ج: لا.. إنما جمع حوله مجموعة من المريدين والمؤمنين بأفكاره وإن كان لم يسع إلى تكوين تنظيم.

انتهى النقاش

(*) أنور كامل: أحد مؤسسى تجمعات اليسار المصرى فى الثلاثينيات وتتميز محاولته بأنها فى جوهرها محاولة مصرية صرفة بعد صدام مع القوى الأخرى. وتحت تأثير علاقاته الشخصية بعناصر تروتسكية أصبح تروتسكيا، وفى منتصف الأربعينات توقف عن النشاط ثم أصدر بعد ذلك كتيباً يهاجم فيه الشيوعية ويصفها بأنها أفيون الشعب.

تقرير مارسيل إسرائيل (تشيريزي) (*)

(١) بدايات الحركة العمالية في مصر

وبينما كانت الحركة العمالية لا تزال تخطو خطواتها الأولى، كان هناك عاملان مساعدان، الأول هو بعض العناصر ذات الاتجاهات الماركسية بين العمال الأجانب في مصر (وبالأخص الأرمن واليونانيين) ومن المعروف أن اللجان النقابية الأولى في مصر كانت تضم بعضا من العمال الأجانب المتأثرين بالماركسية.

وكان هناك أيضا الكثير من المهاجرين الروس الفارين من الاضطهاد القيصرى (ومعظمهم من اليهود) وكان بعضهم من البلاشفة (وكان لينين خلال إقامته في فرنسا وسويسرا يجد أنه من الأفضل للتهرب من تعسف الرقابة القيصرية أن يستخدم بعض أصدقائه في مصر كوسطاء في مراسلاته مع روسيا).

أما العامل الثانى في مساعدة الحركة العمالية المصرية فهو المساندة التى حصلت عليها الحركة الوليدة من الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل والذى كان محمد فريد خليفته فى قيادة الحزب برجوازيا تقدما بالفعل وكان الحزب الوطنى يساعد الحركة العمالية فى الداخل ليزداد قوة فى صراعه ضد الإمبريالية وعملائها الإقطاعيين أما فى

الخارج فقد كان يسعى للحصول على مساندة الحركة الاشتراكية العالمية (أو على الأصح لقد قبل بارتياح المساندة التي كان من الطبيعي أن تقدمها له هذه الحركة). وقد ضم مؤتمر الحزب الوطنى الذى عقد فى بروكسل ١٩١٢^(١) مدعويين من أغلبية الأحزاب الاشتراكية الأوروبية وكان لاختيار الزعيم العمالى الإنجليزى الكبير كير هاردى فى الرئاسة الشرفية للمؤتمر مغزى خاص بالنسبة لحزب يناضل ضد إنجلترا.

.....

وعشية الحرب ولدت حركة ماركسية بين بعض المثقفين المتأثرين بثورة أكتوبر وبالحركات الاشتراكية خصوصا فى ألمانيا وإنجلترا (حيث كان الكثير من الطلاب المصريين يستكملون دراساتهم).

وهؤلاء المثقفون - الذين كانت أفكارهم عن الماركسية مشوهة بتأثير الاشتراكية الديمقراطية الألمانية والإصلاحية الإنجليزية - اشتركوا مع بعض الماركسيين الأجانب المقيمين فى مصر (وبالأخص يهود من أصل روسى) فى العمل من أجل تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى.

ولا يجب أن نقلل من تأثير ثورة أكتوبر على الحركة الوطنية المصرية التى كان جناح كامل منها (يتكون فى الأساس من العمال ومن مثقفى الطبقة الوسطى) يتخذها منارا له. وخلال الثورة الوطنية تأسست بعض السوفييتيات فى بعض القرى ولكنها دمرت بواسطة القوات البريطانية، وكفى القول هنا بأن الجنرال البريطانى ويلسون الذى كان فى ذلك الوقت على رأس قوات التدخل فى القوقاز قد كتب فى أحد تقاريره إلى الحكومة الإنجليزية ناصحا بالانسحاب الفورى من الأراضي السوفييتية بهدف التركيز على الدفاع عن بعض أجزاء الإمبراطورية (وهى الهند ومصر) من تهديد التأثير البلشفى.

وسرعان ما نشأ داخل الحزب الاشتراكى اتجاهاً أحدهما (بزعامة محمود حسنى العربى) اتخذ مسارا ثوريا، بينما كان الاتجاه الثانى إصلاحيا.

(٢) نشأة الحزب الشيوعى المصرى وتطوره

(١٩٢٢-١٩٣١)

فى عام ١٩٢٢ قرر الجناح اليسارى من الحزب الاشتراكى المصرى الاشتراك فى

المؤتمر الرابع للدولية الشيوعية. وأوفد محمود حسنى العربى إلى موسكو، وشارك العربى ايجابيا فى أعمال المؤتمر وقدم تقريرا عن أهداف ونشاط الحزب الاشتراكى المصرى، وجاء فى تقرير المؤتمر أنه قد تكونت لجنة لمناقشة ذلك التقرير انتهت إلى أن الجناح اليسارى للحزب الاشتراكى المصرى تتوفر فيه جميع الشروط اللازمة للانضمام إلى الدولية الشيوعية - تحت تحفظ بأن ينفصل عن الجناح الإصلاحي وينظم نفسه كحزب شيوعى - ويبدو أنه قد وجهت إلى العربى نصيحة بأن يبادر فور عودته إلى مصر بعقد مؤتمر يدعى فيه جميع التجمعات والشخصيات ذات الأفكار الثورية الموجودة خارج الحزب بهدف تأسيس الحزب الشيوعى وتحديد برنامجه.

ولكن لم يقدر لهذا المؤتمر أن ينعقد^(٢) وانفصل الجناح الموالى للعربى عن الإصلاحيين ووضع برنامجا للحزب واعتبر فرعا مصريةا للدولية الشيوعية. وأخذ الحزب على عاتقه مهمة تنظيم النقابات، وسرعان ما نجح فى توحيدها فى اتحاد عام (كان سكرتيره صفوان عضوا فى اللجنة المركزية للحزب فى نفس الوقت)^(٣) وكانت الإسكندرية هى الموقع القوى للحزب حيث كانت وقتذاك المركز الرئيسى للصناعة فى مصر.

وكان محمود العربى قد ترجم إلى العربية أحد أعمال ماكدونالد^(٤) ثم وضع كتيباً حول النقابات دورها.

ولم يكن الحزب غير شرعى بل إن برنامجه قد نشر فى الصحافة المصرية فى أوائل ١٩٢٤ (بما فى ذلك الجريدة شبه الرسمية وهى الأهرام).

وكان الحزب ضعيفا جدا فى الكوادر الماركسية وأهمل عمليا تكوين كوادر جديدة. وقد قام شخص يدعى رفعت بترجمة كتاب لينين «الدولة والثورة» ولكنه مدعى شرح وتفسير كل جملة من جمل لينين قد حول إحدى روائع النظرية الماركسية إلى رطانة غير مفهومة.

ولم يهتم الحزب - على عكس المفروض - بالمسألة الفلاحية، وهى مسألة كان يجب أن تكون فى بلد زراعى كمصر المحور الأساسى لنشاطه مما عزله عن الجماهير العريضة فى مصر.

وبطبيعة الحال فإن الحزب كان يناضل ضد الاستعمار ولكنه لم يعتبر ذلك واجبه الأساسى، الأمر الذى أدى بالضرورة إلى عزلته عن الحركة الوطنية وتركها فى أيدي البرجوازية (الممثلة أساسا فى حزب الوفد).

.....

.....

وكانت مصر (بعد تصريح فبراير ١٩٢٢) مستعمرة من الدرجة الثانية (كان ستالين قد صنف مصر في خطابه الشهير أمام جامعة كادحي الشرق على أنها مستعمرة من الدرجة الثانية). وأمام النمو المتزايد للحزب الشيوعي وتأثيره المتعاظم على الطبقة العاملة قررت الإمبريالية والبرجوازية العميلة توجيه ضربة قاسية له، وسهل لهم هذه المهمة (كما يحدث دائما) تطرف الحزب الشيوعي الناشئ.

وفي عام ١٩٢٤ وخلال معركة دائرة في الإسكندرية من أجل مطالب عمالية أطلق الحزب نداءً بالإضراب العام المصحوب باحتلال المصانع وتضمن النداء إحياءات مليئة بالعصيان والثورة. ونفذ عمال الإسكندرية توجيهات الحزب والاتحاد العام بحماس، واحتلوا مصنع الشركة الأهلية للغزل بالإسكندرية وهو مصنع يضم عدة آلاف من العمال ورأسماله أجنبي (أساسا إنجليزى).

وتدخل الاستعمار البريطانى مستندا إلى أحد التحفظات الأربعة الواردة فى تصريح فبراير ١٩٢٢ وهو التحفظ الخاص بالمحافظة على المصالح الأجنبية وأرسل مذكرة إلى الحكومة المصرية التى كان يرأسها فى ذلك الوقت سعد زغول مطالبا بوضع حد لهماج العمال مهددا بالتدخل المباشر للقوات البريطانية.

وخضع سعد زغول للضغط البريطانى، وبعد أن أجلى العمال عن المصانع مستخدما الوعود الكاذبة، انقلب على الحزب الشيوعي وأعلن أنه أصبح غير مشروع واعتقل قاداته (العرايى، صفوان، أنطون مارون وعددا كبير من الشيوعيين).

وأعلن بالإضافة إلى ذلك حل اتحاد النقابات. وحكمت المحكمة على عدد من المتهمين بالسجن ثلاث سنوات مع الشغل وعلى البعض الآخر بعقوبات أقل.

وعقب إضراب عن الطعام قام به المسجونون احتجاجا على نظام الحبس الانفرادى الذى فرض عليهم فى سجن الحضرة بالإسكندرية فقد أنطون مارون ألمع وأخلص قادة الحزب حياته. وكان بذلك أول شهداء الحركة الشيوعية المصرية.

وكانت الأحكام التى صدرت ضد قيادات الحزب الشيوعي المصرى موضوع بيان أصدرته الدولية الثالثة تدعو فيه جميع الأحزاب الشيوعية فى العالم إلى الاحتجاج على الإرهاب، وإلى التضامن مع المحكوم عليهم.

وكانت تلك الضربة ذات نتائج غاية فى الخطورة بالنسبة للحزب، فلم يكن الحزب يضم كوادر ثورية حقيقية (والذين سجنوا كانوا -برغم قلة خبرتهم- هم الوحيدين الذين يمتلكون بعض الخبرة).

ولم يكن الحزب مستعدا للعمل السرى، وكان معزولا عن الحركة العامة للجماهير، ولم تكن له أية صلة بالفلاحين، وصلته بالطبقة العاملة لم يكن قد توفر لها الوقت الكافى لتقوى.. هذا بالإضافة إلى أن تجربة الإسكندرية المتطرفة بما صاحبها من فشل ونتائج سيئة قد أصابت نفوذ الحزب وسط جماهير العمال أنفسهم، وقد انتهز الوفد الفرصة فشكل على الفور منظمة عمالية تحت قيادته.

أما سكرتير الحزب محمود حسنى العربى (وكان قد حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات) فقد سعى فى فترة تالية إلى إلقاء مسئولية الإضراب والعصيان الذى وقع بالإسكندرية على الدولية الشيوعية وادعى أنه قد صدرت إليه تعليمات بأن يتولى قيادة تنظيم الإضراب شخص موفد من قبل اللجنة المركزية للكونغرس، وسواء كان قد تلقى مثل هذه التعليمات أم لا (يجب أن نتذكر أنه كان يوجد - فى ذلك الوقت - عدد كبير من عملاء تروتسكى فى صفوف الدولية الشيوعية التى كانت فى تلك الفترة تحت قيادة الخائن زينوفيف) فإن مسئولية محمود العربى فى ذلك ليست ضئيلة، وعلى أية حال فإنه قد انتهى بأن أصبح عشية الحرب العالمية الثانية وخلالها رئيس الطابور الخامس النازى فى مصر.

لكن الحزب الشيوعى المصرى لم يتحطم تماما فى ١٩٢٤ بل استمرت الكثير من خلاياه فى مختلف المدن المصرية. وأعاد الحزب تنظيم نفسه، وكون لجنة مركزية جديدة ومن وقت لآخر كان بعض العمال يرسلون إلى مدرسة الكوادر فى موسكو، وقد أصدر الحزب ووزع عددا من الكتيبات. وكان الحزب على صلة بالحزب الشيوعى الفلسطينى، وظل باستمرار فرعا معترفا به من قبل الدولية الشيوعية، كذلك انضمت إلى الحزب التجمعات الشيوعية لليونانيين والأرمن، وانضم إليه عدد من المثقفين المصريين.

وفى بعض الأحيان كان يقبض على أعضاء من الحزب ويحكم عليهم بالسجن، وكان نشاط الحزب سريا تماما ولا يبدو أنه استطاع بأى شكل من الأشكال استغلال أية إمكانيات للنضال المشروع^(٥).

وباختصار واصل الحزب حياته فى وجه صعوبات بالغة.

وعندما خرج محمود حسنى العرابى من السجن اقترح أن ينسحب الحزب من الدولية وطالب باتخاذ مواقف ذات مضمون انتهازى.

.....

.....

وبعد ذلك عين عامل يدعى عبد العزيز كان قد تلقى دراسته فى موسكو فى منصب سكرتير الحزب، وكان ترشيحه بناء على توصية من مناضل يونانى قديم يدعى ياناكاكس. وتحت قيادة عبد العزيز أصيب الحزب بضربات عنيفة، فأكثر كوادره وقياداته إخلاصا كانوا يقبضون عليهم أو يختفون بطريقة غامضة، بل يبدو أن أحد مبعوثى الدولية الشيوعية قد اختفى هو أيضا لدى مروره بمصر والبعض الآخر (.....^(٦)) قبض عليه وسجن أو طرد من البلاد.

ولم يكتشف أمر عبد العزيز كعميل للبوايس السياسى المصرى إلا حوالى ١٩٣١. أما ياناكاكس فبالرغم من عدم توجيه أى اتهام إليه إلا أنه طرد من الدولية الشيوعية لترشيحه لعبد العزيز. وظل حتى وفاته يساعد الحركة الشيوعية فى مصر بعد أن أعيد تنظيمها، ولكنه رفض الانضمام إليها تمشيا مع قرار الدولية الشيوعية الصادر ضده.

أما عبد العزيز فقد أحس بخيائته فيما بعد ومات ميتة بائسة وهو نصف مجنون. وقد نجحت الخيانة من الداخل فى أن تحقيق بالحزب ما فشلت فيه الاضطهادات والملاحقات من الخارج.. فلم يعد للحزب وجود فعلى بعد ذلك ولم يعد معترفا به كفرع للدولية الشيوعية، وبذلك كسبت الإمبريالية البريطانية والرجعية المصرية الموقعة الأولى فى المعركة.

وبالرغم من جو الصمت المطبق الذى أحيط بالحزب من قبيل جميع المؤرخين فإن هذا الحزب قد ترك لدى بعض فئات العمال والمتقنين كثيرا من مشاعر الحنين.

وفوق ذلك فإن هذا الحزب بالرغم من أخطائه وما صادفه من تعاسة يشكل خبرة نضالية هامة عمرها عشر سنوات كان من الضروري دراستها على أساس من التحليل الموضوعى والنقد البناء والاستفادة منها فى المرحلة الجديدة فى الحركة الشيوعية، لكن ذلك لم يتم للأسف الشديد.

(٣) نشأة الجماعات الماركسية الأجنبية ونشاطها (١٩٣٤-١٩٣٩)

خلال سنوات عديدة ظلت مصر محرومة من أى نشاط شيوعى فعلى، وإن كان قد ألقى القبض ذات مرة على عدد من الشيوعيين الأرمن. ويبدو أن بعض أعضاء الحزب القدامى فى الإسكندرية كانوا جميعا معروفين للبوليس؛ بسبب خيانة عبد العزيز - قد احتفظوا بصلتهم مع بعضهم البعض دون أن يمارسوا أى نشاط.

وفى ١٩٣٤ قامت جماعة من الماركسيين الأجانب فى الإسكندرية بتأسيس جمعية أسموها «رابطة أنصار السلام» La Ligue Pacifiste وسرعان ما تأسست جمعية مماثلة بالقاهرة وكان أغلبية الأعضاء من اليونانيين واليهود من مختلف الجنسيات. وكان المحرك الحقيقى وراء هذا النشاط بول جاكو دى كومب وهو سويسرى كان على صلة بالدولية وبالـحزب الشيوعى الفرنسى.

وقد انضمت الرابطتان إلى «التجمع العالمى للسلام»

Rassemblement Universel Pour La Paix

وقد استطاعت هذه الجماعة الماركسية أن تنمى من نشاطها بشكل محدود خلال عدة سنوات، لكن نشاطها المحدود هذا اقتصر على أوساط الأجانب (حيث كان يقيم فى مصر إقامة دائمة حوالى ربع مليون أجنبى معظمهم مستقرون فى القاهرة والإسكندرية). وقد اتصفت هذه الجماعة بما يلى:

أ- اقتصر نشاطها على الأجانب. وهم أجانب يقيمون فى بلد مستعمر يخضع لنظام الامتيازات الأجنبية، الأمر الذى جعل منهم فى واقع الأمر دولة داخل الدولة، وكانوا معزولين إلى حد كبير جدا عن باقى السكان، ولم يكونوا يعرفون إلا القليل جدا عن واقع مصر الاقتصادى والاجتماعى والسياسى، وباستثناء عدد محدود جدا كانوا لا يعرفون اللغة العربية.

ب- كان الأعضاء اليونانيون فى هذه المجموعة يشكلون فى واقع الأمر إحدى خلايا الحزب الشيوعى اليونانى. أما باقى الأعضاء فقد كانوا بحكم ثقافتهم الفرنسية مرتبطين عاطفيا وسياسيا بالحزب الشيوعى الفرنسى.

ج: هؤلاء الماركسيون الأجانب لم يكن لديهم فى واقع الأمر أية خبرة فى النضال الشيوعى (لا من وجهة النظر السياسية ولا من وجهة النظر التنظيمية) وبحكم أنهم تقريبا

قد ولدوا جميعا فى مصر وأمضوا بها حياتهم فلم يكن بإمكانهم أن ينفلوا إلى الحركة الثورية المصرية خبرات النضال الدولى للبروليتاريا.

وقد تسلط على أذهان هذه المجموعة شبخ المصير المحزن للحزب الشيوعى المصرى (الذى خانه اثنان توليا سكرتيريته على التوالى) الأمر الذى دفعها إلى انتهاج موقف شديد التطرف يتسم بالتشكك فى كل الناس.

وبدلا من أن تفتتح هذه المجموعة على الجماهير متمسكة ببقظتها فإن هذه المجموعة قد نهجت نهجا حلقيا وانغلقت على نفسها بصورة شديدة بحيث لم تفتح أبوابها خلال أكثر من عشر سنوات إلا لعدد قليل جدا من الأجانب.

ولم تتحول هذه المجموعة المغلقة إلى تنظيم (له خلايا وقيادة) إلا عام ١٩٤٥. ولكن الخطأ الأكبر الذى ارتكبته هذه المجموعة كان فى تبنيها لتحليل غير صحيح يقوم على أساس أن فشل الحزب الشيوعى المصرى السابق كان نتيجة لأن الظروف الموضوعية فى مصر لم تكن قد نضجت لقيام مثل هذا الحزب.

وهكذا وبدلا من تحليل التجربة الأليمة، وبدلا من أن تصبح المشكلة المباشرة هى إعادة تنظيم الحزب الشيوعى المصرى (أو إعادة تأسيسه) فإن هذا التجمع الماركسى الأجنبى قد تجاهل الخبرات السابقة وتبنى خطأ ينادى بأنه يتعين على مصر أن تمر خلال تطورات اقتصادية وسياسية طويلة قبل أن تصبح الطبقة العاملة المصرية جديرة بتكوين حزبها، وحتى يتم ذلك فإنه يتعين على الماركسيين أن يؤلفوا تجمعا صغيرا مغلقا (كما حدث فى روسيا القيصرية قبل المؤتمر الثانى للحزب الاشتراكى الديمقراطى) وأن يكونوا بالتدريج جناحا يساريا لحزب الوفد (بما يشبه حزب المؤتمر الهندى) وظلت هذه الفكرة سائدة حتى عام ١٩٤٨-١٩٤٩ لدى جماعة «الفجر الجديد» وهى الجماعة التى تولدت عن هذا التجمع الماركسى الأجنبى.

وهذه الفكرة التى تخلت عن مهمة إعادة بناء الحزب وتجاهلت أهمية وضع برنامج ولوائح واستراتيجية وتكتيك (وهو ما يمكن اعتباره منشأ ما اتصفت به الحركة الشيوعية المصرية من تلقائية) ولكنها أيضا أدت إلى نشأة ما تعانىه الحركة الشيوعية المصرية من مظاهر الانقسام الدائم حتى اليوم^(٧).

وقد كانت السنوات الخمس السابقة على الحرب العالمية الثانية من الناحية الدولية ومن الناحية المحلية سنوات مواتية تماما من وجهة النظر الموضوعية لنمو حركة ثورية مصرية.

بينما كان هذا التجمع الماركسى الأجنبى الذى لم يكن يوجد غيره فى ذلك الوقت يعيش بعيدا تماما عن الواقع المصرى ويجهل كل شىء عن الجماهير المصرية، وظل منغلقا على نفسه فى أبراجه العاجية وليس له ميدان نشاط حقيقى سوى الأوساط الأجنبية فى مصر لكنه كان يمكن اعتباره فى واقع الأمر فرعا للحزب الشيوعى الفرنسى، فقد كان ينقل مبادئه كما هى دون أى اعتبار للواقع الموضوعى فى مصر.

وفى مثل هذا المناخ الذى كان موافقا من الناحية الموضوعية لنشوء تنظيم شيوعى قوى فإن غياب التنظيم الذى يمكن اعتباره بؤرة تتبلور حولها هذه التيارات الماركسية قد أدى بها إلى أن انبثقت فى وقت واحد تقريبا الواحدة تلو الأخرى.

وسرعان ما خاضت هذه التيارات الجديدة صراعات عنيفة ضد بعضها البعض، كل منها يدعى أنه وحده الثورى والبلشفى بينما الباقون انتهازيون ومنشفيك أو تروتسكيون.

ومنذ ١٩٣٤ - ١٩٣٥ حتى نهاية ١٩٣٨ كانت الجماعة التى يقودها بول جاكودى كومب هى الجماعة الوحيدة الموجودة فى مصر، واتخذ نشاطها شكل العمل من خلال رابطة أنصار السلام التى كانت تنظم مؤتمرات فى القاهرة والإسكندرية (يحضرها ما يقارب الخمسين شخصا من الأجانب) وكانت تصدر نشرة باللغتين اليونانية والفرنسية (متضمنة من حين لآخر مقالا باللغة العربية) وكانت أيضا تنظم حفلات موسيقية ورحلات.

وتجدر الإشارة أيضا إلى أنهم قد قاموا بدعايه جيدة للأسباب الجمهوريين فى الأوساط الأجنبية فى مصر. وجرى فى الإسكندرية محاولة لتجنيد بعض الشبان المصريين وضمهم للمجموعة، لكن كل ما أسفرت عنه هذه المحاولة من نتائج أنه قد تجند شخص واحد (ما لبث أن أبعد بعد فترة عن المجموعة). أما أكثر المحاولات جدية فكانت تلك المحاولة التى سعت إلى عقد صلات مع عدد من النواب الوفديين. وبالتعاون معهم عقدت ثلاثة لقاءات عامة لرابطة أنصار السلام فى القاهرة والإسكندرية. وبالإضافة إلى ذلك تكونت لجنة فخريه للتجمع المصرى من أجل السلام ضمت عددا من المصريين (وكان سكرتيرها العام بول جاكودى كومب). ولكن هذه المحاولات وإن كانت لا بأس بها إلا أنها لم تؤد إلى نتيجة إيجابية لأن التجمع الماركسى ظل أجنبيا صرفا ليس فقط من حيث

تركيبه العضوى وإنما أيضا من حيث الخط الذى يحكم نشاطه. وفى واقع الأمر فإنه كان يقدم نفسه للمصريين باعتباره تجمعا للأجانب الديمقراطيين وليس تجمعا مصريا.. وعلى سبيل المثال حين ألغيت الامتيازات الأجنبية فى مصر، صدر منشور باللغة الفرنسية والعربية يحمل توقيع «الأجانب الديمقراطيون» يحيى باسم الأجانب الديمقراطيين فى مصر إلغاء الامتيازات الأجنبية ويؤكد للشعب المصرى صداقة الأجانب.

وفى عام ١٩٣٧ قام أحد الأعضاء الإيطاليين فى رابطة أنصار السلام بالقاهرة (مارسيل إسرائيل) - وكان عضوا فقط فى رابطة السلام ولكنه بالرغم من كونه ماركسيا إلا أنه لم ينضم للمجموعة الماركسية التى كان يتزعمها بول جاكو دى كومب - قام بزيارة لبنان واتصل بالحزب الشيوعى اللبنانى وناقش مع بعض قادته نشاط رابطة أنصار السلام فى مصر، وقد نال هذا النشاط نقدا قاسيا من قبل هذه القيادات بسبب سماته الأجنبية التى لا تمت بصلة إلى مصر، وقد قدمت هذه القيادة اللبنانية النصح بضرورة أن تكون المهمة الأساسية لهذه (...^(٨)) فى مصر هو تكوين ماركسيين من بين الطلاب والعمال المصريين.

وقد كلفت هذه القيادات مارسيل إسرائيل بأن يظل على اتصال بالحزب السورى اللبنانى وعين مراسلا فى مصر لجريدة الحزب «صوت الشعب».

وعندما عاد مارسيل إسرائيل إلى مصر ناقش بول جاكو دى كومب فى هذه الموضوعات وكان رد «دى كومب» بأن عليه أن يهتم فقط بالنشاط فى رابطة السلام، ونظرا لمعرفته باللغة العربية فقد طلب إليه أن يعمل على ضم مصريين إلى رابطة أنصار السلام.

وحتى هذه المحاولة المتواضعة منيت بالفشل بسبب عدم الثقة التى كانت تبدو دائما من قبل غالبية أعضاء الرابطة الأجانب تجاه أى عضو مصرى جديد. وسرعان ما تكون داخل الرابطة تيار ينادى بالتمصير وينتقد قيادتها (دى كومب) لموقفها المناهض للتمصير، وكان الحديث بطبيعة الحال يجرى فى الظاهر حول رابطة أنصار السلام وإن كان يعنى فى واقع الأمر مسألة تمصير النشاط الماركسى.

وكانت المعركة الحاسمة تدور حول حادث مخجل؛ فعقب اتفاقية ميونيخ صدر بيان عن قيادة أنصار السلام لا يضع فى الاعتبار الواقع المصرى.

وانتقد أنصار التمسير هذا الخط الأجنبى للبيان واقترحوا نصا آخر يدين اتفاقية

ميونيخ، ولكنه يتحدث عن القضية الوطنية المصرية، ولكنهم هوجموا من قبل القيادة واتهموا بأنهم تروتسكيون وأجبروا فى واقع الأمر على ترك الرابطة.

وكان هناك سبب آخر أقل أهمية وهو رفض الرابطة قبول عضوية عدد من الإيطاليين المناهضين للفاشية بحجة أنهم مشاغبون وأن قبولهم قد يؤدى إلى تدخل البوليس (وكان هذا حقيقيا إلى حد ما).

وفى بداية ١٩٣٩ تكون فى القاهرة والإسكندرية تجمع جديد باسم «الاتحاد الديمقراطي» وكان مؤسسه هم أنصار التمسير من الأعضاء السابقين فى رابطة أنصار السلام بالإضافة إلى مجموعة الإيطاليين المناهضين للفاشية وبعض المصريين الذين اتصلوا برابطة أنصار السلام ثم تركوها لإحساسهم بالغربة داخلها.

وقد تضمنت لوائح الاتحاد الديمقراطي نصوصا تقول بأنه يتعين أن تكون غالبية اللجنة القيادية من المصريين. ولكن الشئ الهام هو أنه قد تكونت خلف الاتحاد الديمقراطي (كتجمع قانونى) جماعة سرية ماركسية (تتكون هى الأخرى من الأجانب وحدهم)، وحددت هذه الجماعة مهمتها الرئيسية بجذب أكبر عدد ممكن من الشبان المصريين إلى الاتحاد الديمقراطي بهدف تجنيد أفضل العناصر من بينهم كأعضاء فى الجماعة الماركسية السرية.

وبالإضافة إلى ذلك تقرر إخضاع الواقع المصرى لتحليل اقتصادى وسياسى واجتماعى. وكانت هذه هى المحاولة الأولى لوضع نصائح القيادات الشيوعية اللبنانية موضع التطبيق.

ونظرا لأن جميع أعضاء هذا التنظيم الماركسى الجديد لم يكونوا يعلمون بوجود تجمع ماركسى بقيادة بول جاكوبى فقد اعتبروا أنفسهم أول تجمع ماركسى منظم فى مصر بعد اختفاء الحزب، ولم يعلموا إلا بعد فترة أن ثمة جماعة ماركسية أخرى قد سبقته إلى الوجود.

ورغم أن هذا التجمع الجديد يعتبر خطوة إيجابية بالمقارنة بالتجمع الأول «نظرا لتبنيه خط التمسير» إلا أنه كان فى واقع الأمر يقصف بكثير من صفات التجمع القديم.. فقد كان مكونا فقط من المثقفين الأجانب ذوى المعرفة المحدودة جدا بالواقع المصرى والذين لا يمتلكون أى خبرات عن العمل الثورى، كما أنه قد ارتكب نفس الخطأ الفادح الذى ارتكبه

سلفه وهو تجاهل خبرات وتجارب الحزب الشيوعى المصرى وعدم اعتبار أن إعادة بناء هذا الحزب هى المهمة المباشرة والواجب العاجل.

ولم يبذل أى جهد لوضع برنامج ولائحة وخط إستراتيجى وتكتيكى وكان التمسير - أو كما أصبح يسمى فيما بعد تكوين الكوادر الماركسية المصرية - يعتبر فى رأيهم عملية طويلة المدى وسابقة على مهمة إعادة بناء الحزب.

وكان ذلك هو الطريق إلى التصفية والتلقائية والانقسام.

وتضمن برنامج الاتحاد الديمقراطى نفس ما تضمنه برنامج رابطة أنصار السلام مؤتمرات ديمقراطية ومناهضة للفاشية، أحاديث تقدمية عن الثقافة.. إلخ، ولكن على نطاق أكثر اتساعا مع اجتذاب عدد كبير من المثقفين والطلاب المصريين.

وقد عقد حفل الافتتاح برئاسة المدير العام لدار الكتب (وكان أيضا محاضرا بالجامعة) وبناء على شكوى من السفارة الإيطالية داهم البوليس الاجتماع لمنع أحد الإيطاليين من الحديث فتنازل هذا الأخير عن كلمته حتى لا يتسبب فى إفشال حفل الافتتاح.

وقد حضر الحفل أكثر من ٤٠٠ شخص من بينهم عدد كبير من المثقفين والطلاب المصريين.

وقد طلب الاتحاد الديمقراطى الانضمام إلى رابطة أنصار السلام ولكن طلبه ظل بدون إجابة «وهو ما يساوى الرفض». ومن ثم أعلنت الحرب بين الاتحاد الديمقراطى ورابطة أنصار السلام أو بالأحرى بين الجماعتين الماركسيتين اللتين توجهان كل منظمة منهما.

وتخطت هذه الحرب حدود مصر وعرضت على الحزب الشيوعى الفرنسى ومنظمات دولية مهمة مثل اللجنة الدولية لمعاداة الحرب والفاشية.

وفى أغسطس ١٩٣٩ عشية الحرب قرر المكتب السياسى للحزب الشيوعى الفرنسى - بالاشتراك مع سكرتارية اللجنة العالمية لمعاداة الحرب والفاشية - عقد لجنة فى باريس للاستماع إلى ممثلى كلتا الجماعتين والتحقيق فى الاتهامات المتبادلة ووضع حد للخلاف بينهما.

وكانت هذه هى المحاولة الأولى من قبل الحركة الشيوعية فى الخارج للمساعدة فى توحيد الحركة الماركسية فى مصر (فى مصر وليس المصرية ذلك أنها كانت مكونة من أجانب) لكن اشتعال الحرب أدى إلى إضاعة هذه الفرصة.

وخلال السنوات الأولى للحرب غيرت رابطة أنصار السلام اسمها وأصبح الاسم الجديد «جماعة الدراسات» le groupe etudes ومارست هذه الجماعة نشاطا تقدميا فى إطار ثقافى بحث وموجه دوما للأوساط الأجنبية.

وعلى العكس من ذلك فإن الاتحاد الديمقراطى قد نما وسرعان ما خضع لتطورات وتقلبات كبيرة فالمجموعة الماركسية التى كانت توجه نشاطه من خلف ستار قامت من الناحية العملية بسحب أفضل عناصرها من هذا التجمع العلنى لكى يركزوا نشاطهم فى إنشاء مدرسة سرية لتدريس الماركسية للمصريين الذين جندوا أثناء تردهم على الاتحاد الديمقراطى. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه المجموعة قررت تكوين تجمع علنى للفنانين والمتقنين المصريين سُمى «الفن والحرية» Art et liberte وهو تجمع ما لبث أن وقع تحت تأثير التروتسكيين.

وقد أدى هذا التشتيت فى الجهود إلى أن فقد هذا التجمع الماركسى سيطرته على الاتحاد الديمقراطى تحت تأثير قادم جديد هو هنرى كورييل الذى حوله إلى دائرة...^(٩) (أو كما قيل وقتذاك إلى اتحاد أرستقراطى).

ولكن هذا التجمع الماركسى كان فى طريقه إلى أن يعيش تطورا سالماً يفتتح به مرحلة جديدة فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية.

(٤) تمصير الحركة الماركسية (١٩٣٩-١٩٤٥)

ركزت المجموعة الماركسية التى تكونت عام ١٩٣٩ نشاطها على التكوين الماركسى للعناصر المصرية التى تم تجنيدها سواء عن طريق الاتحاد الديمقراطى أو عن طريق «الفن والحرية»، ونظمت دراسات سرية فى الماركسية باللغة العربية، وأعدت كتابا دراسيا باللغة العربية ليكون أساسا لتلك الدراسات.

وفى خلال عدة أشهر فقط استطاعت هذه المجموعة أن تجند وتنظم العديد من المصريين، وهكذا وبسرعة فائقة أصبح المصريون أغلبية فى صفوفها.

وفى ١٩٤٠ قررت هذه المجموعة أن تتحول إلى منظمة شيوعية وعقدت مؤتمرا تم فى خلاله مناقشة عدة تقارير حول الموقف العالمى والموقف فى مصر وتقرير عن التنظيم (قدمه مصرى كان يعيش فى فرنسا وكان عضوا فى الحزب الشيوعى الفرنسى) وسميت المنظمة التى أعلن تأسيسها «منظمة تحرير الشعب» liberation du peuple وانتخبت لجنة

تنفيذية (ضمت ثلاثة من المصريين بالإضافة إلى الإيطالي مارسيل إسرائيل) ونظم الأعضاء في خلايا وتم وضع برنامج للعمل.

وكانت منظمة تحرير الشعب هي أول تنظيم شيوعي في مصر بعد اختفاء الحزب القديم، وكانت منظمة بدائية ليست لديها خبرة حقيقية بتراث الحركة العالمية؛ وكان المستوى الثقافي لا بأس به ولكن دون أية خبرة في العمل السري.

ورأت المنظمة أن الاتحاد الديمقراطي الذي خرج من تحت سيطرتها لم يعد يتلاءم مع أهدافها فقررت أن تسحب أعضائها منه خاصة وأنه قد تحول إلى النشاط الاجتماعي. وفي نفس الوقت قامت العناصر الشيوعية داخل «الفن والحرية» بشن هجوم ضد العناصر الفوضوية والروتوسكية وأدى ذلك إلى إغلاق «الفن والحرية» وحلت محلها لجنة (بدون مقر) لتنظيم معارض سنوية للفنون التشكيلية.

كما قام أعضاء تحرير الشعب بوضع أيديهم على مجلة «التطوير» وأصدروها باسم «الفن والحياة» وحولوها من مجلة فوضوية وسيرالية إلى مجلة عمالية، وكانت بذلك أول مجلة يديرها الشيوعيون، لكنها لسوء الحظ لم يتسع أمامها الوقت لتدعيم تأثيرها فقد منعتها الرقابة بعد صدور عدة أعداد منها.

وبعد أن فقدت تحرير الشعب كل من «الاتحاد الديمقراطي»، و«الفن والحرية» كمنابر علنية كونت بدلا منها منبرين علنيين آخرين هما «الخبز والحرية» (والذي اختير اسمه بوحى من معارضة المثقفين الفوضويين في اختيارهم لاسم «الفن والحرية» أما التجمع الثانى فسمى «ثقافة وفراغ» culture et loisirs واقتصر التنظيم الأول على المصريين (اتباعا لخط التمسير ولكي يبعدوا عن الحركة التقدمية المصرية التهمة التى كانت قد التصقت بها بأنها ذيل للأجانب) وكان مقر «الخبز والحرية»، يقع فى أحد الأحياء الشعبية بالقاهرة (على العكس من التجمعات التقدمية الأخرى التى كانت تتخذ مقرا لها فى الأحياء الأوربية من المدينة) وسرعان ما اجتذبت «الخبز والحرية» كثيرا من العمال وخاصة عمال الطباعة، ومارست «الخبز والحرية» نشاطا متعدد الجوانب يجمع بين العمل السياسى الديمقراطى والدعاية النقابية والنشاط الثقافى واصطبغ كل ذلك بطابع يسارى واضح. ومنذ البداية تدخل البوليس ودون أن يغلق المقر أصدر قرارا بمنع الاجتماعات العامة بداخله وسرعان ما عرفت «الخبز والحرية» فى بعض الأوساط العمالية «وخاصة عمال الطباعة» وفى أوساط الطلاب كتتنظيم شيوعي مما أكسبها شعبية كبيرة.

لقد كان الاحتلال البريطانى لمصر الذى اتخذ أشكالا سافرة خلال الحرب، بالإضافة إلى الغلاء الفاحش سببا فى دفع قطاعات كبيرة من العمال والطلاب إلى التعاطف مع الاتحاد السوفييتى والشيوعية.

وفى ١٩٤١ أصدرت «الخبز والحرية» نشرة عن الحركة النقابية وأشير فيها إلى الدور الذى لعبه الحزب الشيوعى المصرى القديم فى تنظيم النقابات والدفاع عن مصالح الطبقة العاملة، فأغلق البوليس مقر «الخبز والحرية» ولكن التجمع ظل موجودا.

أما الدراسات الماركسية والتي كانت حتى ذلك الوقت قاصرة على المثقفين المصريين فقد امتدت لتشمل بعض العمال الذى جندوا من داخل وحول «الخبز والحرية». وللأسف فإن هذه الدراسات كانت تدور حول مسائل أيديولوجية معقدة وليست لها صلة مباشرة بالاحتياجات النضالية.

أما تجمع «ثقافة وفراغ» وهو التجمع الآخر الذى أنشأته الجماعة السرية «تحرير الشعب» فقد اقتصر فى البداية على الأجانب ولكن نشاط الخبز والحرية أدى بعدد من المثقفين والفنانين المصريين إلى التردد على مقر «ثقافة وفراغ» وأخذوا يمارسون فيها نشاطا وتأثيرا متزايدا. وقد أغلق البوليس مقر «ثقافة وفراغ» فى منتصف عام ١٩٤١.

أما الاتحاد الديمقراطى الذى أصبح تحت قيادة هنرى كورييل فقد كان يتردد عليه أيضا بعض المثقفين المصريين وأصدر صحيفة باللغة الفرنسية اسمها «دون كيشوت» نشرت بعض المواد التى تحمل طابعا فوضويا وتروتسكيا.

أما «جماعة الدراسات» فقد استمرت تحت قيادة بول جاكوب دى كومب فى نشاطها الثقافى الشديد الحذر والشديد الانغلاق مما جنبه متابعة البوليس.

لكن الجماعة الماركسية التى كان يقودها كورييل كانت قد توصلت هى أيضا إلى إقامة بعض الصلات مع بعض المصريين وبدأت فى تثقيفهم ثقافة ماركسية.

ولقد استمرت الحرب بين هذه التجمعات الثلاث، كل منهم يتسلط أخطاء الآخرين لى يتهمهم بالانتهازية والتروتسكية، وأيضا بالعمالة للبوليس.

وفى اليوم الذى غزت فيه قوات ألمانيا الهتلرية أراضى الاتحاد السوفييتى وجه تنظيم «تحرير الشعب» الدعوة إلى جميع التقدميين فى مصر لبذل جهود مشتركة دفاعا عن الاتحاد السوفييتى. وقد تمت الدعوة بشكل علنى عن طريق «الخبز والحرية» التى وجهت

الدعوة إلى التجمعات العلنية الأخرى «ثقافة وفراغ» و«جماعة الدراسات» و«الاتحاد الديمقراطي» وحتى «الفن والحرية» (التي كانت تتمتع بتأثير على أوساط الرسامين والنحاتين المصريين) واستجابت كل هذه التجمعات للدعوة باستثناء «جماعة الدراسات» التي رفضت بعناد أى تعاون مع الآخرين.

وبالفعل عقد اجتماع مشترك واتفق فيه على برنامج للعمل المشترك.

وكانت هذه هي المحاولة الثانية لتوحيد الماركسين فى مصر (الأولى حدثت فى باريس فى أغسطس عام ١٩٣٩ ولكن رفض جماعة الدراسات، لفكرة التعاون (بالرغم من أنها كانت قاصرة فقط على الدعاية للاتحاد السوفييتى) بالإضافة إلى الضربات البوليسية التى سرعان ما وجهت إلى قيادة «تحرير الشعب» قد أفشلت هذه المحاولة.

وكان أعضاء «تحرير الشعب» على درجة كبيرة من النشاط والإيجابية، لكن حماسهم سرعان ما أفقدهم الحذر ودفعهم إلى الإهمال فى قواعد الأمان. وعقب توزيع المنشور الخاص بالحركة النقابية قرر البوليس السياسى (بناء على أمر من المخابرات البريطانية) الهجوم.

وفى أكتوبر ١٩٤١ قبض على عشرة من أعضاء التنظيم وألقوا فى السجن. وأدى تحقيق النيابة إلى انتهاء ما يبرر إقامة الدعوى (ذلك أن التشريع القديم المضاد للشيوعية لم يعدل إلا فى عام ١٩٤٦) ومن ثم أطلق سراح جميع الأعضاء بعد شهرين، ماعدا الإيطالى مارسيل إسرائيل الذى أرسل إلى أحد معسكرات الاعتقال الخاصة بالفاشست.

واستأنف أعضاء «تحرير الشعب» نشاطهم بعد خروجهم من السجن. وتبنوا تكتيكا جديدا وهو إصدار صحيفة علنية توسع من نطاق حركتهم فاشتروا صحيفة كان يصدرها لسنوات طويلة كاتب ليبرالى^(١٠) وهى «المجلة الجديدة» وبدأوا يقومون -عن طريقها- بدعاية ماركسية استمرت طوال سنتين.

الأمر الذى جعلها منبرا لجميع المثقفين الطليعيين وأسهمت بالكثير فى نشر الماركسية بين الطلاب وبعض الفئات المتقدمة من البروليتاريا.

وكان يمولها ويشرف عليها الإيطالى «ريمون أجيون».

وقد أحدث العدد الخاص الذى صدر منها حول انتصار ستالينجراد دويا كبيرا.

وفى أوائل ١٩٤٢ صدرت صحيفة يمولها «هنرى كورييل» اسمها «حرية الشعوب، وقد ساعد فى إصدارها بعض البرجوازيين الوطنيين وقد بدأت هذه المجلة فى دعايات مناهضة للإمبريالية ولكن بشكل مهم وبانحرافات كبيرة نحو الشوفينية القومية.

ومن الطبيعى أن مجلتى «حرية الشعوب» و«المجلة الجديدة» لم تكونا على وفاق. وفى يونيو ١٩٤٣ قبض البوليس على حوالى خمسين من المصريين من أعضاء وأنصار «الخبز والحرية» وظلت أغليبتهم محتجزة دون محاكمة حتى نهاية ١٩٤٣ (بسبب القانون العسكرى).

وفى عام ١٩٤٣ تكونت جماعة ماركسية ثالثة تحت قيادة هنرى كورييل وهليل شوارتز وسيطرت هذه الجماعة على الاتحاد الديمقراطى الذى تصاعد نشاطه، وكانت هذه الجماعة على علاقة بالشيوعيين الإنجليز واليونانيين المجندين فى صفوف قوات الحلفاء المتمركزة فى مصر.

لكن هذه الجماعة سرعان ما انقسمت إلى مجموعتين جديدتين تحولتا فيما بعد إلى منظمتين كبيرتين «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» (ويقودها هنرى كورييل)، «إيسكرا» (ويقودها هليل شوارتز).

وفى يوليو ١٩٤٣ وأثناء تقدم روميل المكتسح نحو مصر لجأ أغلب الشيوعيين الأجانب إلى فلسطين وهناك دخلوا فى علاقات مع الحزب الشيوعى الفلسطينى الذى دعا ممثلين من كل المجموعات لبحث أسباب الانقسام ومحاولة توحيدهم، وحضر الاجتماع أعضاء من سكرتارية الحزب الشيوعى الفلسطينى.

وفى هذا الاجتماع أعلن أعضاء مجموعة بول جاكو دى كومب أن الظروف الموضوعية فى مصر لا تسمح بتأسيس حزب شيوعى، ولكن الحزب الشيوعى الفلسطينى رفض هذه الفكرة، وهذه المحاولة (وهى الثالثة) لتوحيد الماركسيين قد فشلت هى الأخرى بسبب العناد الشديد لجماعة بول جاكو دى كومب وإصرارها على اعتبار نفسها المجموعة الشيوعية الوحيدة فى مصر، هذا بالإضافة إلى سبب آخر يتمثل فى أن المحاولة نفسها قد جرت بشكل سطحي وبإشراف حزب كان هو نفسه خارجا لتوه من أزمة قاسية.

الهوامش

(*) مارسيل إسرائيل (تشيريزي): من أصل إيطالي، لعب دورا هاما في النشاط اليساري في نهاية الثلاثينيات وفي الأربعينيات. والوثيقة المعروضة عبارة عن ترجمة لصفحات من تقرير مكتوب على الآلة الكاتبة باللغة الفرنسية وهو عبارة عن محاولة لتأريخ لحركة اليسار المصري مرفوعة إلى قيادة الحزب الشيوعي الإيطالي كتبها مارسيل إسرائيل بعد إبعاده عن مصر مقدما نفسه إلى الحزب الشيوعي الإيطالي. وقد أوردنا النص كاملا باستثناء بعض صفحات لا تتعلق بموضوع الدراسة أو تناقش فترة لاحقة.

(١) الحقيقة أن هذا المؤتمر افتتح في ٢٢ سبتمبر ١٩١٠ - المؤلف.

(٢) عقد هذا المؤتمر وهو المؤتمر الثاني للحزب في ٦ يناير ١٩٢٣ - المؤلف.

(٣) الحقيقة أن الحزب قد نجح في تأسيس الاتحاد العام للنقابات منذ أن تأسس كحزب اشتراكي في أغسطس ١٩٢١ - المؤلف.

(٤) كتاب «الاشتراكية» - المؤلف.

(٥) أصدر الحزب في ذلك الحين مجلة علنية اسمها «الحساب» كان يرأس تحريرها رفيق جبور عضو اللجنة المركزية للحزب - المؤلف.

(٦) غير واضحة الأصل.

(٧) كتب هذا التقرير في أوائل الخمسينيات.

(٨) غير واضحة في الأصل.

(٩) غير واضح في الأصل.

(١٠) سلامة موسى - المؤلف.

محضر نقاش مع فتحى الرملى(*)
أجريت المناقشة بالقاهرة فى ٤-٥-١٩٧٥

الاسم: محمود فتحى عبد الله فكرى الرملى.

الشهرة: فتحى الرملى.

تاريخ الميلاد: ٢٨ - ٧ - ١٩١٩.

المهنة: صحفى.

س: كيف بدأت نشاطك السياسى؟

ج: كنت عضوا فى مصر الفتاة، وأنا طالب فى مدرسة المنيا الثانوية..

وقبل أن أدخل المدرسة الثانوية كنت طالبا فى المدرسة الصناعية فقد دخلت قسم النقش لأننى أهوى الرسم ثم ما لبثت أن اكتشفت أن الدراسة فى هذه المدرسة لا تشبع هوايتى فتركتهـا إلى المدرسة الثانوية حيث عجزت فيها عن سداد المصروفات، فأنا من أسرة فقيرة، وكانت أمى تعاني الكثير فى الإنفاق علينا بعد وفاة أبى، وكانت تستدين مصروفات المدرسة فقررت أن أترك المدرسة.. وأذكر أن أول عدد رأيته من «الصرخة» كان عبارة عن ورقة واحدة بحجم الجريدة العادية وهى عبارة عن منشور أثارى بعنوان «عشر سنوات من العمل من أجل مصر» واستهوتنى هذه الشعارات وانضمت لمصر الفتاة.

وبعد فترة من النشاط المتحمس استدعانى وكيل المديرية لمقابلته وكان اسمه إبراهيم فهمى السيد بك وفوجئى وكيل المديرية بى وأنا شاب صغير السن وفوجئى أكثر بأننى دخلت عليه وقد علقت فى سترتى شعار مصر الفتاة (الأهرامات الثلاثة المكتوب تحتها: الله. الوطن. الملك) وهاج بشدة لأننى تجرأت ودخلت عليه والشعار على سترتى واعتبر ذلك تحديا له واستدعى أحد الجنود وأمره بإيداعى الحبس والغريب فى الأمر أننى شعرت بحماس غريب وفخر لأننى دخلت السجن وعوملت معاملة الزعماء.

وفى هذه الفترة أيضا أصدرت منشورا سياسيا بعنوان «أرقام مخيفة» عبارة عن كلام إنشائى، نقلته أساسا من خطاب ألقاه هيكى باشا فى البرلمان.

كان يتضمن أرقاما مثل ٧٠٪ من أبناء الفلاحين معرضين للسل. وبعد ذلك سلسلة من الشعارات الحماسية تدعو الشعب إلى الثورة واستدعتنى النيابة أنا وزملائى وفوجئى وكيل النيابة وكان اسمه معروف محمد بأننا شبان صغيران لا نزال نرتدى الشورت وكان من بيننا شاب هو ابن أخ يسى باشا أحمد النائب العام فى ذلك الجين، وقد أسهم هذان العاملان فى حفظ القضية.

لكن البوليس قدر ضرورة إبعادى من المنيا وفعلا نفيت من المنيا ورحلت إلى القاهرة وكنت سعيدا بذلك أيضا لأننى سأنفى مثل الزعماء ولأن الحكومة سوف تتحمل نفقات سفرى..

وقبيل سفرى من المنيا كنت قد وجدت عملا فى مجلة إقليمية بالمنيا اسمها «الإنذار»، بدأت بمرتب ١٨٠ قرشا فى الشهر زيدت بعد عدة أشهر إلى جنيهين..

وهكذا فعند وصولى إلى القاهرة كنت أعتبر نفسى صحفيا، وبقيت فترة متعطلا، لكننى تقمصت دورى الصحفى وبدأت أكتب وأعرض كتاباتى على الصحف، وأذكر أننى أعددت موضوعا لآخر ساعة، وقابلنى مصطفى أمين وكان يعمل ساعتها مع التابعى فى آخر ساعة وأبدى إعجابه بالمقال ونشره فعلا لكنه لم يعطنى نقودا واعدا بإعطائى نقوداً فى المرة المقبلة، لكننى لم أعد إليهم واتجهت إلى مجلة منافسة لآخر ساعة اسمها «الشعلة المصورة» وهناك قابلت فرج جبران وكان سكرتير تحرير المجلة وشريكا لصاحبها واتفقوا معى على أن أعمل لديهم بالقطعة والمساحة أى أن أتقاضى أجرى وفقا للمساحة التى تنشر لى وقبلت لسببين: أولا لأنه لم يكن أمامى أى مورد آخر، وثانيا لأننى كنت سعيداً

بالعمل كصحفي.. وكنت قبل ذلك قد عملت فى مجلة مصر الفتاة وأغرونى بلقب سكرتير تحرير، لكن مرتبى كان «أنونات بريد» تأتى للمجلة سدادا للإعلانات وأذكر أن أقصى أجر حصلت عليه منهم كان عشرة أنونات بريد قيمة كل منها ٢٠ قرشا.

المهم أننى عملت فى مجلة الشعلة المصورة وهناك تعرفت بأسعد حليم.
س: كيف؟

ج: أسعد حليم هو ابن أخت فرج جبران، وذات يوم أحضره لى فرج جبران هو وأخوه حلمى حليم وقال لى: أسعد غاوى صحافة وحلمى غاوى سينما حاول أن تساعدنا واهتممت بأسعد وكان يترجم بعض المقالات فأقوم أنا بإعادة صياغتها بأسلوب صحفى، وبدأنا نتناقش أنا وأسعد حول الوضع السياسى ورويدا رويدا تكونت مجموعة من الاصدقاء أنا وأسعد حليم وصالح عرابى (سودانى) وعبد العزيز هيكل وموسى عبد الحفيظ (كان موظفا فى وزارة المعارف وأسس بعد ذلك شركات للإعلانات).. وأخذتهم جميعا وقابلنا مارسيل إسرائيل.

س: كيف تعرفت على مارسيل إسرائيل؟

ج: كنت عامل حركة فى مصر الفتاة تستهدف عزل أحمد حسين، وجمعت حولى عددا من الأعضاء يقاومون أحمد حسين ولا يعترفون بزعامته، وكنا نحاول عزله ونرشح فتحى رضوان للزعامة، أى أننا كنا نريد استبدال فاشستى بفاشستى آخر، وبعد فترة أحسنا أن فتحى رضوان يتحدث فى واد آخر بعيدا عن مشاكل الشعب، والحقيقة أن مصر الفتاة كانت مجموعة متناقضة متنافرة وعلى صفحات المجلة انعكس هذا التناقض فمثلا أحمد حسين يحرر صفحة ملتهبة تتحدث عن المقاومة والعنف والقوة، بينما يحرر فتحى رضوان صفحة أخرى تتحدث عن غاندى وسياسة التسامح، ومن هذا التناقض نشأت حيرتنا.

وفى هذه الفترة التقيت بشاب نوبى اسمه بدر عوض وكان معنا فى مصر الفتاة وأنا كنت أسعى لضمه لمجموعتنا المناهضة لأحمد حسين.. وسألنى لماذا؟ فقلت لأنه فاشستى.. وفى هذه الأثناء كان بدر عوض هذا على علاقة بمارسيل إسرائيل وكان يحرضه أيضا على أحمد حسين وعلى حزب مصر الفتاة فقال له بدران: فى الحزب تيار جيد يقاوم القيادة ويتهمها بأنها فاشستية وطلب مارسيل أن يرانى، وذهبت إليه لأول مرة أنا وبدر عوض فى منزله بالقرب من وزارة الأوقاف، وبعدها أخذت له أسعد حليم، وصالح عرابى

وعبد العزيز هيكلموموسى عبد الحفيظ وبدأ مارسيل يدرس لنا النظرية الماركسية وكان هناك أنور كامل وبعد فترة انضم إلينا ثابت أمين وهو أخو إلهامى أمين(**).

س: كيف سارت الأمور بعد ذلك؟

ج: بعد فترة من الدراسة قال لنا مارسيل: أنتم درستكم ويمكنكم أن تعملوا بأنفسكم وأسسنا جمعية «الخبز والحرية». لكننى لاحظت أنه برغم حديثه عن ضرورة تولينا أمور النشاط بأنفسنا إلا أنه مصمم على أن يضع الحركة تحت إشرافه وأحس مارسيل أن أهم شخصين فى المجموعة هما أنا وأنور كامل وحاول أن يكسبنا نحن الاثنين فاقترح أن يتولى كل منّا منصب السكرتير واحد للشئون الداخلية وهو أنا وآخر للشئون الخارجية وهو أنور كامل.

واستأجرنا شقة من حجرتين فوق مطبعة الرغائب فى شارع محمد على وكانت إحدى الحجرتين واسعة وتصلح كصاله للاجتماعات، وفعلنا قمتنا أنا وأنور كامل بشراء حوالى ٦٠ كرسي ومكتب.

س: من أين أتيتم بالنقود؟

ج: تمويل ذاتي، كنا نجمع اشتراكات شهرية ادخرناها لعدة أشهر، واشترينا هذه الأشياء، وبعدها عقدنا اجتماعا للمجموعة لنبحث كيف نبدأ العمل فى جماعة «الخبز والحرية» وبدأ البعض يطالب بإخطار المحافظة بأننا قد كوّننا جمعية حتى تأخذ وضعها القانوني، لكننى تمسكت بعدم إبلاغ المحافظة وقلت: إن علينا أن نمارس نشاطنا حتى نقف على أقدامنا وبعدها سيعلم البوليس بعد أن نضعه أمام الأمر الواقع، لكن إبلاغ السلطات منذ البداية معناه أننا ندعوهم كي يهدموا كل شىء، وبعد النقاش كانت الأغلبية معى لكنهم بعد الاجتماع اتصلوا بمارسيل إسرائيل الذى أيد الرأى الآخر وبعد يوم جاءوا جميعا وهم ضد رأىي.. وصممت على موقفى، وأبلغوا المحافظة بتأسيس الجماعة وحضر رجلان من رجال البوليس السرى - رابطا أمام مقر الجماعة يقومان بإحصاء عدد المتواجدين فى المقر حتى إذا ما بلغ خمسة أشخاص منعوا أى شخص آخر من الدخول على أساس أن القانون يعتبر أن اجتماع أكثر من خمسة أشخاص هو بمثابة تجمهر.. وفى هذه الأثناء وخلال أحد الاجتماعات قطع عنا النور؛ لأن جورج حنين كان قد سدد تأمين عداد النور ثم سحب التأمين ليمنعنا من النشاط وعندما أطفئ النور صحت فى

الحاضرين معلنا أن علينا أن نعتمد على أنفسنا.. وكانت الخلافات قد تشعبت بيني وبين المجموعة، وقد قررت أن أبدأ بداية جديدة فى مقر جديد وأسميت الجماعة «نحن أنفسنا» تحديا لمحاولات السيطرة علينا.

وهكذا أصبحت مستقلا عن مارسيل إسرائيل وجماعته، ودعيت إلى ما أسميته «أسبوع التفكير الحر» ودعوت عدة أشخاص كانوا معروفين بميولهم الليبرالية مثل د. إبراهيم ناجي وعبد المجيد نافع وغيرهما.

وبدأت فى هذه المرحلة حملة ضد اليهود وضد تواجدهم أو سيطرتهم على الحركة وألفت نشيدا ضدهم اتهمت بسببه بالشوفيتية وأذكر بعض كلمات النشيد وتقول:

فى أيامنا السـود

خـواجـات ويهـود

جـمـعـوا المـلـايـين

واحـنـا شـقـيـانـين

وبعد ذلك أغلقت دارنا.. وقررت العمل بطريقة جديدة..

وبدأنا نجتمع فى قهوة بحى الفوالة أنا وزملائي ونطالع صحف اليوم ونبحث عن المحاضرات التى ستلقى فى هذا اليوم. ونذهب إلى هناك بحثا عن التجمعات ومناقشتها والادلاء برأينا من خلال هذا النقاش.. وأذكر أننا فى يوم قرأنا خبرا عن محاضرة لعبد الفتاح عنايت فى مقر جبهة مصر (تنظيم أنشأه على باشا ماهر) وذهبت أنا وعدد من زملائي ووزعتهم فى القاعة حتى يساندونى بالتصفيق والحماس من أكثر من مكان فى القاعة، وطلبت الكلمة وساندنى زملائي فى القاعة حتى سمح لى بالكلام، وفعلنا وجدت فرصة للحديث وشرح وجهة نظرى وخرجت من المحاضرة ومعى معظم الجالسين الذين تبعونى إلى حيث ذهبت واستمرت مناقشاتي معهم إلى ما بعد منتصف الليل.

س: ما هى نوعية مجموعتك هذه؟

ج: كانت جماعة تسمى نفسها «الجبهة الاشتراكية».

س: هل كانت هذه الجبهة تنظيما بالمعنى المفهوم؟

ج: كانت شبه تنظيم.

س: ما معنى شبه تنظيم؟

ج: كنا مجموعة تعمل علنا وتنشط وتناقش دون أن تكون تنظيما بالمعنى المفهوم.

س: وما هي قصة ترشيحك في الانتخابات؟

ج: في الانتخابات البرلمانية ٤٤-١٩٤٥ انتهزت الفرصة السانحة وهي أن الوفد كان يعارض إجراء الانتخابات في ظل الأحكام العرفية على أساس أنها ستتم تحت قهر السلطة بينما أحمد ماهر كان يقول بإمكانية إجراء الانتخابات في ظل الأحكام العرفية وتعهده بعدم التدخل، لكن الوفد قاطع الانتخابات، وقررت أن أنتهر الفرصة وأرشح نفسي على المبادئ الاشتراكية، وكنت أول من تقدم للانتخابات البرلمانية في مصر كمرشح اشتراكي، وأحدث ذلك ضجة كبيرة جدا وأخرجت الحكومة أيما إحراج، لكنها لم تستطع منعي من الترشيح.

س: من الذي مول عملية الإنفاق على الانتخابات؟

ج: جمعنا أموالا من الناس، أنا مثلا في ذلك الحين كنت أدير معهد التعليم الصحافي بالمراسلة فأرسلت لتلاميذي خطابات أدعوهم للتبرع، وتحركت مجموعتي لمساندتي وجمعت أموال حتى من خصومي الذين هاجمتهم مثل هنري كورييل، لكنني أقرر أن الذي أمدنا بمعظم المال الذي احتجنا إليه هو لطف الله سليمان(***) .

س: في أي دائرة رشحت نفسك، ومن هم المرشحون الآخرون في نفس الدائرة؟

ج: دائرة محكمة السيدة [أقرب دائرة انتخابية لها الآن هي دائرة قصر النيل] وكان هناك عشرة مرشحين منهم أحمد حسين الذي ركز دعايته الانتخابية ضدى باعتبارى شيوعيا .

س: كم صوتا نلت؟

ج: ٣٢ صوتا .

س: فقط؟

ج: فقط.. ويجب أن تضع في الاعتبار أنه كانت هناك مقاطعة للانتخابات من جانب الوفد..

س: نعود إلى الجبهة الاشتراكية، كيف واصلت العمل؟

ج: كما قلت لك من قبل، كنا مجموعة من الأصدقاء ننشط كلما أتحت الفرصة أمامنا..

س: ماذا كانت علاقتك بالمنظمات الشيوعية؟

ج: كانوا حريصين على التباعد عني، ويتصيدون أي أخطاء لي. وأذكر أنني أصدرت بالتعاون مع عبد الفتاح الشرقاوي (الحزب الشيوعي لشعوب وادي النيل) منشورا ضد هنري كورييل نتهمه فيه بالصهيونية.. وقد أصدرت عدة نشرات ضدهم وزعتها علنا..

انتهت المناقشة

الهوامش

(*) تردد اسم فتحى الرملى كواحد من الدعاة اليساريين فى الأربعينيات، وقد بدأ نشاطه مبكرا فى حركة اليسار، وانسلخ منها مبكرا أيضا، وفى الوقت الذى بدأت فيه الحلقات الماركسية تتبلور فى منظمات شيوعية سرية، اتجه هو إلى تكوين حلقة أسماها الجبهة الاشتراكية اتسمت بالعفوية. وبرغم أن وثائق وزارة الخارجية البريطانية قد حاولت أن تضخم كثيرا من دوره إلا أنه يبدو أن هذا التضخيم كان متعمدا لإضفاء طابع معين على حركة اليسار ككل، وما لبث فتحى الرملى أن تورط فى كتابات معادية للشوعية ولتنظيماتها فى مصر. ومع ذلك فقد تعمدت إجراء حوار معه استكمالا لكافة جوانب الصورة، وأيضا فإن هذا النقاش يوضح أسلوب وطبيعة نشاطه وحقيقة وحجم ما سُمى بالجبهة الاشتراكية.. (المؤلف).

(**) إلهامى أمين شيوعى قديم حكم عليه بالسجن لفترة وفصل بعدها من عمله كموظف فى السكة الحديد، وعمل فى عام ١٩٣٠ مع حسنى العرابى ود. عبد الفتاح القاضى فى مجلة روح العصر وكان إلهامى أمين وثيق الصلة بحسنى العرابى. وقد أصدر مجموعة من مقالاته فى كتيب بعنوان «مقالات العرابى»- عنى بجمعها وترتيبها ونشرها إلهامى أمين- المطبعة الأميرية الكبرى. (المؤلف).

(***) لطف الله سليمان: تروتسكى النزعة مقيم حاليا فى باريس.

محضر نقاش مع أسعد حلیم (*)
أجرى النقاش بالقاهرة فى ٢٠ أكتوبر ١٩٦٩

س: ما هى معلوماتك عن النشأة الجديدة للحركات الاشتراكية فى أواخر الثلاثينيات؟
ج: يمكن تقسيم الاتجاهات اليسارية فى ذلك الحين إلى اتجاهين أساسيين تروتسكيين يتزعمهم جورج حنين ورمسيس يونان وتركز نشاطهم العلنى وسط مجموعات الفنانين وفى إقامة المعارض، وإصدار نشرات، وفى جماعة الفن والحرية. وتجمعات ماركسية يتزعمها ثلاثة أشخاص:

- بول جاكو دى كومب وكانت مجموعته تضم أحمد رشدى صالح ويوسف درويش وآخرين واتخذت عددا من المنابر العلنية «لجنة نشر الثقافة الحديثة» و«مجموعة الدراسات» واتحاد أنصار السلام.

- وهنرى كورييل وقد أسس مع شوارتز مارسيل إسرائيل وبولا العلايلى وغيرهم النادى الديمقراطى ومن هذه المجموعة خرجت فيما بعد ح. م. وإيسكرا.
- ومارسيل إسرائيل وقد أسس «حركة تحرير الشعب».

غير أن هذه التقسيمات غير قاطعة؛ ففى المنابر العلنية اختلطت عناصر من المجموعات المختلفة، وفى لجنة نشر الثقافة الحديثة مثلا كان هناك أناس من «حركة تحرير الشعب»

وفى جماعة الفن والحرية كان هناك التروتسكيون وتحرير الشعب وتحسين المصرى (ج. م فيما بعد).

كل ذلك كان فى مطلع عام ١٩٣٩ وقبل نشوب الحرب.

س: أريد بعض التفصيلات عن جماعة «الفن والحرية».

ج: نشأت الفن والحرية كجماعة يغلب عليها الطابع الفنى وكان محركها الأساسى جورج حنين ومجموعة من الفنانين الأجانب وبعض المصرين (أنور كامل - كامل التلمسانى). وقد ركزت هذه المجموعة جهودها على نشر الفن السيرىالى وأصدرت مجلة ذات أهمية تاريخية هى مجلة «التطور» وكان يرأس تحريرها أنور كامل وأنا اعتقد أن هذه المجلة قد لعبت دورا هاما فى تطوير الفكر المصرى وأبرزت إلى الوجود الشكل الأدبى السيرىالى وقدمت أشعارا وقصصا سيرىالية لعدد من الكتاب السيرىاليين لمع منهم رمسيس يونان.

س: لماذا السيرىالية بالذات؟

ج: فى العالم كله كانت السيرىالية تعبيرا عن التمرد على القوالب الكلاسيكية الجامدة. والحقيقة أن أعضاء الفن والحرية قد قاموا بنشاط كبير بحيث أصبحوا يمثلون قطاعا هاما فى الفن وشكلوا واحدا من أهم التيارات الأدبية وأحدثوا هزة عنيفة فى المفاهيم الفنية.

ولم تقتصر جهود الجماعة على إصدار المجلة وإنما أقاموا سلسلة من المعارض والندوات ومن خلال هذه الندوات برزت عدة شخصيات، رمسيس يونان، تحسين المصرى (وهو مهندس مصرى درس فى باريس وعاد متشعبا بالأفكار اليسارية) ومارسيل إسرائيل. واتفق هؤلاء الثلاثة على ضرورة تجميع عدد من خيرة المثقفين والتحدث معهم حول الماركسية واتفق كل واحد من الثلاثة على أن يكون مجموعة مستقلة لدراسة الماركسية.

س: كيف بدأت علاقتك المباشرة بالحركة؟

ج: كنت أنا وفتحي الرملى وصالح عرابى (سوداتى) نعمل فى مجلة وفدية أسمها «الشعلة» وكانت تطبع فى نفس المطبعة التى يطبع فيها أنور كامل مجلة التطور وتعارفنا ودعانا لحضور الندوات.

وبعد فترة ضم مارسيل فتحى الرملى إلى مجموعته الضيقة ولم أدع أنا. وحكى لى فتحى الرملى ما دار فى هذا الاجتماع المطلق حول دراسة الماركسية وفى الاجتماع التالى تحدث مارسيل عن أهمية السرية وضرورة عدم إبلاغ أى شخص بوجود مثل هذه الاجتماعات فقال الرملى: إنه فاتحنى فى الموضوع فعلا وهكذا اتفق على ضمى للمجموعة. س: ما هو شكل هذه المجموعة؟

ج: مجرد مجموعة دراسية ولم تكن تنظيما بالمعنى المفهوم وحتى كانت بغير اسم. س: كيف انقسمت الفن والحرية؟

ج: الحقيقة أن هذه المجموعة الضيقة التى شكلها مارسيل بدأت تنشط وكنا نحن شبانا نشيطين وبدأت الأفكار الماركسية تبهرنا فاندفعنا بكل قوتنا لجذب أكبر عدد ممكن من المصريين ومن العمال خاصة وبدأنا نجشده فى ندوات الفن والحرية عمالا وكادحين وخلق هذا رد فعل وبدأ التفاوت والتناقض واضحا، هم أغنياء أرسطقراطيون وأجانب ومثقفون ونحن فقراء. وحدث تمايز، وبدأ قادة المجموعة لا يرحبون بحضورنا لكننا اعتبرناها مسألة كرامة وصممنا على الحضور فلم يسدد الأرسطقراطيون رسم استهلاك الكهرباء وقطع التيار من النادى لكننا صممنا على الاستمرار وكنا نعقد ندواتنا على ضوء شمعة. ومن هنا برز التساؤل لماذا لا نؤسس ناديا خاصا بنا يكون مستقلا ومصريا ونستطيع أن نتحدث فيه بأفكارنا كاملة. وكان فتحى الرملى هو الذى اختار اسم «الخبز والحرية».

س: يقول مارسيل: إنه مؤسس «الخبز والحرية» ويؤكد أنور كامل أنه مؤسسها فما هى الحقيقة؟

ج: كلاهما صادق، نحن أسهمنا مساهمة إيجابية فى إنشاء «الخبز والحرية» وكان مارسيل يوجهنا ويقودنا، وأنور كامل كان الرئيس الرسمى، وكان مجلس إدارة الجمعية أنور كامل - د. عبد العزيز هيك - أسعد حليم - فتحى الرملى - صالح عرابى - وبعد مدة ضمنا عبد العزيز هيك إلى مجموعتنا الضيقة. وإذا كان مارسيل لم يضم اسمه كعضو فى مجلس إدارة «الخبز والحرية» إلا أنه كان مسئولا عن ثلاثة أشخاص من مجلس الإدارة. وكان مارسيل نشيطا فى اتجاهات عديدة فقد أسهم فى تأسيس جمعية أخرى يغلب عليها الأجانب، أنشأت ناديا أسمته «ثقافة وفراغ» وقد ضمت هذه المجموعة عددا قليلا من

المصريين منهم فوزى جرجس وكانت خطة مارسيل أن تعمل هذه المجموعة وسط المثقفين أما مجموعتنا فتعمل وسط العمال.

س: وما حدث للمجموعتين الآخرين؟

ج: رمسيس يونان استمر مع مجموعته لفترة قصيرة ثم تبعثرت، والحقيقة أن التروتسكيين كانوا شلة وليس تنظيما ولم يؤسسوا تنظيما حقيقيا وكانت لهم صلة ما بالدولية الرابعة لكن دون أن ينجحوا فى تأسيس تنظيم.

أما تحسين فقد استمر مع مجموعته لكنه سرعان ما انضم إلى النادى الديمقراطى ليشترك فيما بعد فى تأسيس ح.م.

س: وأنت هل شاركت فى تأسيسها؟

ج: لا..

س: يقول عبده دهب إنك كنت فى اللجنة المركزية للحركة المصرية

ج: لم يحدث، وأنا فى هذه الأثناء كنت أعمل مع مارسيل. وبعد مدة انقسمت «الخبز والحرية» فقد وقفنا ضد اتجاهات أنور كامل وخرجنا من «الخبز والحرية» لنكون تنظيما مستقلا ولم نسمه أولا ثم فيما بعد أسميناه «تحرير الشعب».

س: يقول مارسيل إسرائيل فى تقرير له: إنه مؤسس «تحرير الشعب» وإنه لعب دورا أساسيا فى هذه الفترة فما هو تقييمك لدوره؟

ج: هو فعلا مؤسس «تحرير الشعب» كان المحرك والمنظم الفعلى لنشاطنا، كان أكبرنا سنا وأوسع منا ثقافة وإدراكا. كانت الماركسية تبهرنا وكان مصدرها الوحيد هو مارسيل ومن هنا بهرنا به. والحقيقة أن مارسيل قد بذل خلال عام ١٩٣٩ جهدا خارقا فى تثقيف عدد من الكوادر المصرية. لقد ثقفنا مارسيل بسلسلة محاضرات ممتعة بذل جهدا كبيرا جدا فى إعدادها وكانت هذه المحاضرات تتضمن المادية والمثالية - المادية الجدلية - المادية التاريخية - تطور المجتمعات - المجتمع الرأسمالى وقوانينه - صراع الطبقات - الدولة - الحرب. إلخ.

انتهى النقاش

(*) أسعد حلیم واحد من المصريين الأوائل الذين انضموا إلى التجمعات الاشتراكية فى أواخر الثلاثينيات وقد لعب دورا هاما فى فترات حاسمة وقد ارتبط اسمه وسم زوجته - أسماء البقلی - بكثير من أوجه النشاط المبكر.

محضر نقاش مع هنرى كورييل(*)

جلسة المناقشة الأولى

تمت المناقشة بباريس فى الأسبوع الأول من نوفمبر ١٩٦٨

س: ما هى معلوماتك عن نشأة الحركة الشيوعية فى الثلاثينيات؟

ج: فى بداية الثلاثينيات بدأت الحركة عن طريق عدد من الشيوعيين الأجانب كانوا إما أعضاء فى بعض الأحزاب الشيوعية الأجنبية أو متأثرين بها.. وكان كثير من هؤلاء المثقفين الأجانب مدرسين بالمدارس الابتدائية والثانوية^(١).. وأذكر من بين هؤلاء المدرسين جورج بوانتيه وكان عضوا فى الحزب الشيوعى السويسرى.

وقد أبلغنى بوانتيه بذلك بنفسه، وقد كلفنى قبل سفره من مصر لينضم للفرقة الفرنسية فى الحرب العالمية الثانية أن أبلغ تقريراً لحزبه عن نشاطه لأنه ربما يموت فى الحرب وقد مات بوانتيه فعلاً فى الحرب..

والحقيقة أن ظهور الفاشية قد أعطى دفعة قوية للحركة الشيوعية فى مصر^(٢) كذلك كان الخط الذى تبناه المؤتمر السابع للكونترن وهو المشهور باسم (خط ديمتروف) ينادى بتكوين جبهات شعبية واسعة للكفاح ضد الفاشية وقد ساعد هذا الخط فى القيام بحركة واسعة لمعاداة الفاشية.

وقد تجمع عدد من اليساريين الإيطاليين فى مصر وبدأوا نشاطا واسعا واستغلوا عددا من المنابر منها مثلا الجمعيات الماسونية..

ويمكن تصوير حركة الأحداث كما يلى: شيوعيون أجانب قادمين من الخارج (مدرسين فى الأساس) يتصلون بأجانب مقيمين فى مصر.. (وبعد ذلك بمدرسين مصريين) وعن طريق هؤلاء يتم الاتصال بقطاعات من المثقفين المصريين..

س: كيف بدأ النشاط الفعلى؟

ج: فى البداية لجأ الجميع إلى أسلوب تكوين نواد علنية تستهدف جميع عدد من المثقفين حولها.

س: وأنت كيف أصبحت شيوعيا؟

ج: هناك أقوال إن أخى راؤول هو الذى جعلنى شيوعيا وهذا غير صحيح.. لكننى تأثرت تأثرا عميقا بالحركة الوطنية المصرية الجارفة فى عام ١٩٣٦..

وأول تصرف سياسى اتخذته هو أنه عندما بلغت سن الحادية والعشرين قررت اختيار الجنسية المصرية بدلا من الإيطالية.

وفى عام ١٩٣٧-١٩٣٨ اقتنعت بالماركسية وبدأت فى الاتصال بأخريين وفعلنا اتصلت بجورج بوانتية، راؤول كورييل (أخى) مارسيل إسرائيل وآخرين وبدأنا فى تأسيس الاتحاد الديمقراطى.. وكان معنا عدد من المصريين هم د. فؤاد الأهوانى ومحمد نصر الدين وكان مدرسا فى كلية البوليس.. واتخذ الاتحاد الديمقراطى مقرا علنيا له فى العمارة رقم ١ شارع سكة الفضل وقبل أن نتخذ هذا المقر عقد الاتحاد الديمقراطى أول اجتماعاته فى مقر إحدى الجمعيات الماسونية.

وعلى الفور بدأ الاتحاد الديمقراطى بنشاط واسع جدا وهذا هو الفرق بيننا وبين المجموعة الأخرى هم كانوا خائفين بينما انطلقنا نحن فى نشاط ماركسى واسع النطاق. والحقبة أن مهمتنا لم تكن سهلة فقد تحدثنا عن الشيوعية ثم سألنا أنفسنا: ما هى الشيوعية؟ وإذا بنا لا نعرف عنها شيئا..

والسبب أن الكتب الماركسية كانت نادرة جدا والشئ الغريب أنه كان مسموحا بالكتب التروتسكية أما الكتب الأخرى فلا.

وقد أصدرنا فى عام ١٩٣٨ نشرة اسمها «دون كيشوت»..

وعندما بدأت الحرب تبلور تياران أساسيان وأعتقد أنهما ظهرا فى كل المستعمرات وهذان التياران هما:

١- تيار يرى أن الأولوية يجب أن تعطى للخط المعادى للفاشية ومن ثم لا يستبعد التعاون مع الإنجليز على أساس أنه كان هناك تعاون بين الاتحاد السوفييتى والحلفاء.

٢- تيار آخر يرى الكفاح ضد الفاشية وضد الاستعمار معا وأنا كنت أؤيد هذا التيار. وقد ظهرت هذه المشكلة كما قلت فى عديد من البلاد ومنها الهند، فعندما اصطدم غاندى ونهرو بالإنجليز اعترض الشيوعيون الهنود على هذا الموقف وخسروا كثيرا من هذا الموقف..

والحقيقة أنه بعد إعلان الحرب اتصلت بنا السلطات الإنجليزية وعرضوا علينا التعاون ووعدوا بتقديم مساعدات لنا لكننا رفضنا ولما فشلوا تماما فى استخدامنا لجأوا إلى تأسيس تنظيم خاصم بهم هو «إخوان الحرية».

وقد أدى الخط الذى سرنا فيه إلى الاصطدام بالإنجليز أثناء الحرب وقد بدأنا فى الاتصال باليساريين الإيطاليين وكانوا قد اعتقلوا أيضا مع بقية الإيطاليين وبدأنا فى تنظيم بعضهم داخل المعتقلات..

كذلك اتصلنا باليساريين اليونانيين فى الفيلق اليونانى.. ثم حدثت تطورات مهمة اثرت جدا فى مستقبل مصر وأثرت فى أنا شخصيا.. وهذه التطورات المهمة هى أحداث يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ فهذه الحوادث دفعت الكثيرين إلى التيقظ وأعطت دفعة كبيرة للمسألة الوطنية وأبرزت مصر كبلد مستعمر لا إرادة له أهينت كرامته إهانة بالغة. والحقيقة أن كثيرا من الشيوعيين المصريين لم يدركوا أهمية هذا الحادث ونظروا فقط إلى الجانب الإيجابى فيه وهو تولى النحاس باشا الحكم.

والى جانب أحداث فبراير ١٩٤٢ كانت هناك أحداث مهمة ألهمت مشاعر الجماهير فعندما اقترب روميل من العلمين أحست الجماهير بأمل قرب خروج الإنجليز.. وعندما هزم روميل فى العلمين... فهمت الجماهير أن الفاشية يمكن أن تهزم وتحطمت أسطورة الفاشية..

ثم جاءت معركة ستالينجراد التى أضفت الدعاية المعادية للسوفييت ورفعت اسم الاتحاد السوفييتى وسمعته لدى جماهير المصريين..

وفيما بعد كان اعتراف الحكومة المصرية بالاتحاد السوفييتي وتبادل العلاقات الدبلوماسية معه.. وأقيم معرض للكتاب السوفييتي.. إلخ.

وقد تجمعت هذه الأحداث مجتمعة لتشكل خطوة حاسمة في تاريخ مصر وقد كانت الظروف مهيأة أمامنا تماما للعمل.. وبهذا انتقلت الماركسية من الطلقات والنوادي إلى العمل الجماهيري.. وإلى التنظيم الجاد.

والحقيقة أن المشكلة لم تكن مشكلة تجنيد وإنما مشكلة تنظيم هذه الأعداد التي تجمعت حولنا.. كانت المسألة الأساسية هي أن نستفيد من الإمكانيات التي خلقها تطور الأحداث لتبدأ عملا جادا..

س: كيف بدأت الخطوة الحاسمة؟

ج: في البداية كنا وحدنا.. ففي إبان حوادث فبراير وكانت القاهرة تموج بالمظاهرات طبعنا منشورا باللغة العربية.. قد وزعنا ٤٠٠٠ نسخة من هذا المنشور.
وفي هذه الأثناء قرر بوانتييه أن ينضم إلى الفيلق الفرنسي واستشهد في ١٩٤٤ أثناء تحرير فرنسا.

وفي ١٩٤٢ وقبل معركة العلمين اعتقلني الإنجليز وأرسلت إلى معتقل الزيتون وكان معظم المعتقلين من الموالين للفاشية.. وكان طبيعيا أن يكون هناك اتجاه معاد لي في المعسكر فقد كنت الشيعي الوحيد وكذلك بسبب يهوديتي.. والذي بدأ الهجوم على هو حسنى العربى وكان قد أصبح فاشستيا صريحا..

وفي المعتقل استفدت فائدة كبرى؛ لقد مارست احتكاكا مباشرا وحادا مع كثير من السياسيين هم في الأساس من أبناء البرجوازية الصغيرة..

وباختصار لقد أخذت في المعتقل حمام تمصير.. وأحسست إحساسا عميقا أن البرجوازية الصغيرة تموج بحركة وطنية عارمة وأنه يتعين الاستفادة منها..

وأنا أعتبر أن فترة اعتقالى في معتقل الزيتون كان فترة حاسمة في حياتي..

وبعد فترة قصيرة اختفى العداء ضدى ونظمت إضرابا عن الطعام لجميع المعتقلين.. وأثناء الإضراب اعتدى البوليس السياسى على أحد المعتقلين المضربين فتراجع الباقون إلا أنا استمررت في الإضراب عن الطعام حتى أفرج عني.

وبعد ذلك خرجت من جو النوادي والحلقات ذات الطابع الأجنبى وبدأت على الفور في

تأسيس حركة شيوعية منظمة.. وأسست ح. م.

واتصلت بمجموعة من المثقفين المصريين وانطلقنا فى عمل واسع سريع جدا ومنتشر..
فاتصلنا بعدد من العمال وعمال الطيران والسودانيين والنوبيين.

وفى يناير ١٩٤٣ عقدت أول مدرسة كادر.. تولى التدريس فيها د. زكى هاشم، تحسين
المصرى، جوماتالون، دافيد ناحوم والدمرداش التونى وأنا.

وكانت هذه المدرسة نقطة تحول مهمة فقد حضرها الكادر الأساسى الذى تولى قيادة
الحركة فيما بعد ولهذا فقد اعتبرنا هذا اليوم هو تاريخ تأسيس ح. م.

س: هل اتصلتم بالشيوخ القدامى؟

ج: اتصلنا بعدد منهم من بينهم الشيخ صفوان، عبد الرحمن فضل، ياناكاكس،
د. حسونة، د. القاضى وكانوا خائفين فشحجناهم وضممناهم للعمل.

س: بعد أن أسست ح. م. هل استمر الاتحاد الديمقراطى فى العمل؟

ج: ظهرت مجموعة جديدة تقود الاتحاد الديمقراطى منهم عزرا هارارى، هليل شوارتز،
سيدنى سلامون، إيلى ميزان وكنت مستمرا معهم.. وفى ١٩٤٢ تغير الاسم إلى المركز
الثقافى والاجتماعى وفى ١٩٤٣ أغلق البوليس الدار.

س: ما هى معلوماتك عن مارسيل إسرائيل؟

ج: كان معنا فى الاتحاد الديمقراطى لكنه كان يسعى دائما لعمل تنظيمات جانبية وفى
إحدى المرات دعانى إلى اجتماع لمجموعته وأحسست أنهم جميعا برجوازيون صغار ولم
أستمر معهم.

س: هل كانت لكم علاقات بالكومنترن؟

ج: لا.. والحقيقة أنه لم تكن هناك علاقة لأحد بالكومنترن، والذى يؤكد ذلك أنه فى عام
١٩٤٣ مر أندريه مارتى بالقاهرة قادما من موسكو فى طريقه إلى الجزائر ليقیم هناك
مثلا للحزب الشيوعى الفرنسى.. وعند وصوله للقاهرة اتصل بمقر فرنسا الحرة وكانت
زوجتى تعمل موظفة هناك فاتصلت به وحضر للإقامة عندنا فى المنزل.

وسألت مارتى عن الأوضاع فى الكومنترن وعن الموقف من النشاط فى مصر فقال لى:
إنه قبل سفره تلقى تعليمات من الكومنترن بألا يتصل بأحد من الشيوعيين المصريين -
أثناء مروره بالقاهرة - لأن فيهم عناصر بوليسية كثيرة.

س: من هم الأشخاص الذين تعتقد أن لديهم معلومات مفيدة وتنصح بمناقشتهم؟
ج: أنصحك بمقابلة أنور كامل - أسعد حليم - محمد نصر الدين - عبده دهب -
صالح عرابي - دكتور الأهواني.

(*) هنرى كورييل هو مؤسس الحركة المصرية للتححر الوطنى ثم الحركة الديمقراطية للتححر الوطنى، وقد ظل مستولا لهذه الحركة حتى أبعد عن مصر بقرار من وزير الداخلية فى عام ١٩٥٠.
(١) كان تدريس اللغتين الإنجليزية والفرنسية يقوم به أساسا مدرسون أجنب خلال هذه الفترة.
(٢) فقد حرك كثيرا من اليهود للعمل ضد النازية ومن أجل إقرار الحقوق الديمقراطية.. كذلك دفعهم إلى الاهتمام بتأييد كل الحركات المناهضة للنازية وتأييد الجمهوريين فى إسبانيا.. وقد تغاضى الاحتلال الإنجليزى عن هذا النشاط لأنه موجه ضد الألمان. (هذا التفسير أدلى به كورييل فى نهاية النقاش).

هنرى كورييل

جلسة المناقشة الثانية - باريس ٢٥ يناير ١٩٧٠

س: سنحاول الآن مواصلة النقاش الذى أجريناه منذ عدة أشهر وأود أن أحصل على إجابات تفصيلية على عدة أسئلة أولها هو متى وكيف أصبحت ماركسيا؟

ج: عندما بلغت من العمر ٢١ عاما كنا فى عام ١٩٣٥ وكانت مصر تموج بالمظاهرات الوطنية المعادية للاستعمار وتحمست أنا أيضا لمصر وللمصريين وقررت أن أختار الجنسية المصرية فأنا مولود فى مصر من أب مولود فى مصر ومن حقى عندما أبلغ من العمر ٢١ سنة أن أختار الجنسية التى أريد وقررت أن أختار الجنسية المصرية ولم يكن هذا أمرا سهلا ولا مقبولا وسط المجتمع الأجنبى لأن معناه أن أفقد حقى فى الاستمتاع بالامتيازات الأجنبية.. وقد قاوم أبى ذلك بشدة لكننى أصررت على موقفى.

وكان أبى صاحب بنك وكنت أعمل معه وكثيرا ما كنت أزور عزبتنا فى الريف والحقيقة أننى كنت ألس الفقر المنتشر فى المدينة لكن الفقر فى الريف كان غاية فى البشاعة. وتأثرت جدا بحالة الفلاحين وقررت أن أحاول إصلاح حال الفلاحين وكنت أنا وزوجتى نذهب مرتين أسبوعيا إلى عزبتنا القريبة من القاهرة.. كان معنا نقود ولنا أطباء أصدقاء أسهموا معنا فى المشروع لكننى اكتشفت بسرعة فشل المحاولات الإصلاحية.

وبدأت أبحث عن طريق آخر..

وفى أوائل ١٩٣٦ بدأت الحرب الأهلية فى إسبانيا وكان المثقفون الأجانب المستثمرون يتابعون أنباءها بعواطف تميل مع الجمهوريين. وبدأت أنا فى جمع تبرعات للجمهوريين وكان هذا أول نشاط جدى أقوم به.. وتعاقبت أحداث مهمة.. مثل حرب الحبشة والحرب الصينية وغيرها وبدأت عيني تتجه فى اتجاه اليسار.

وفى ١٩٣٧-١٩٣٨ كنت مريضا جدا وسافرت إلى باريس للعلاج.

وقبل سفرى مباشرة اتصل بى مارسيل إسرائيل وكان معه مجموعة من حوالى عشرة أشخاص كانوا مجرد برجوازيين صغار. وكنت أنا برجوازيا، والبرجوازية لها عيوب كثيرة لكن بها ميزة مهمة هى اتساع الأفق، وأحسست أنهم مجموعة من ضيقى الأفق مجرد موظفين صغار يعيشون على هامش المجتمع ولا يشعرون بما يدور فيه. وأحسست بالقرص منهم وقررت أن أعمل شيئا وبدأت فعلا فور عودتى من باريس فى ١٩٣٨.

س: وفى باريس ألم تتصل بالحزب الفرنسى؟

ج: لا. فقد كنت مريضا واكتفيت بالعلاج.

س: كيف بدأت العمل؟

ج: فى ١٩٣٨ كونت النادى الديمقراطى وكان هدفه الكفاح ضد الفاشية مسترشدا بخط المؤتمر السابع للكومنترن والذى يدعو لتكوين جبهة شعبية معادية للفاشية وانضم إلينا عدد كبير من الأجانب (إنجليز ويونانيين وإيطاليين وسويسريين) ومن المصريين انضم لنا أحمد فؤاد الأهوانى - محمد نصر الدين (مدرس بكلية البوليس) وكان معظم هؤلاء الأجانب من مدرسى اللغتين الفرنسية والإنجليزية بالمدارس الثانوية وكانوا بالتالى محتكين بالمجتمع المصرى وعن طريقهم انضم إلينا الأهوانى وكان فى ذلك الحين مدرسا فى مدرسة ثانوية.

س: كان اتحاد أنصار السلام موجودا فى ذلك الحين فما هو الفارق بينكم وبينهم؟

ج: الفارق أننا كانت لنا علاقات بالمصريين وقررنا الانفتاح على المصريين وهم كانت علاقاتهم بالمصريين قليلة جدا.

س: وماذا عن مارسيل إسرائيل؟

ج: قرر هو ومجموعته أن يعملوا من خلال النادى الديمقراطى لكنهم فشلوا وخرجوا

وكونوا مجموعة «الثقافة والفراغ» وكان معهم أسعد حليم وكان أسعد بالنسبة لمارسيل مظهر التمسير.

س: هل يمكن القول: إنك كنت فى ذلك الحين ماركسيا فعلا؟

ج: أنا كنت أعطف على الماركسية وأؤيد الاتحاد السوفييتى وعندما اشتعلت الحرب طلبت التطوع فى الجيش الفرنسى لأحارب الفاشية ولكن طلبى لم يقبل. والمسألة التى كانت تحيرتى فعلا هى أننى كنت أكره إنجلترا كرها شديدا بينما يتعين علينا مساندتها ضد الفاشية.

وفى هذه الأثناء اتصل بى مندوب من السفارة البريطانية اسمه فيما أعتقد «مستر جوديون» طالبا أن يعمل النادى معهم عملا موحدا ضد الفاشية وتحدث كثيرا عن أهمية توحيد القوى الديمقراطية ضد الفاشية وضد الشيوعية، لكننا رفضنا التعاون معهم، وقد طرح هذا علينا سؤالا هاما هو هل نتعاون مع الاستعمار ضد الفاشية أم نواجه الاثنين معا..؟

س: كيف سارت الأمور فى النادى الديمقراطى؟

ج: تعمدت منذ البداية ألا أدخل مجلس إدارة النادى وإنما كان فيه أحمد فؤاد الأهوانى لكنه انسحب من مجلس الإدارة بعد أن بدأت مطاردة البوليس لنا. وخلال العمل حدث خلاف بينى أنا وجورج بوانتيه من جانب وبين ٧ أعضاء فى مجلس الإدارة لكننا صممنا على رأينا حتى هزمتنا السبعة وكان هذا درسا مفيدا لى هو أن التصميم فى وجه العناصر المترددة سلاح فعال وكان الخلاف يدور أساسا حول هل نصبح شيوعيين أم لا؟. وعندما انتصرت وجهة نظرنا أعلننا أننا شيوعيون.. لكن ما معنى أن نكون شيوعيين؟ لا أحد يعرف، ما هو الشئ الذى يتعين علينا القيام به؟.. لا أحد يعرف. وقلت: علينا أن ندرس ولكى ندرس يجب أن تكون هناك كتب وهكذا كانت أول خطوة هى العمل على افتتاح مكتبة، وفعلا افتتحت مكتبة الميدان. وكانت تعمل فى المكتبة هنريت أرييه زوجة سام باردل (وهو ضابط إنجليزى عضو فى الحزب الشيوعى الإنجليزى) والحقيقة أنه كان هناك عشرات من الشيوعيين وسط القوات البريطانية لكن سام باردل تمكن من العمل معنا لأنه كان يعمل فى المخازن بالقاهرة.

س: هل كانت هناك أية اتصالات بأحزاب خارجية؟

ج: بالنسبة لى لا.. لكن بول جاكو كان على علاقة سابقة بالحزب الشيوعى السويسرى ومارسيل إسرائيل كان متصلا بالحزب الفلسطينى وجورج بوانتبه كان عضوا بالحزب السويسرى قبل حضوره إلى مصر.. وعندما اقترب الألمان من العلمين أعد الإنجليز قطارا خاصا ليهاجر فيه الأجانب التقدميون إلى فلسطين ورفضنا نحن السفر، وهناك اتصل مارسيل إسرائيل بالحزب الفلسطينى وأجرى معهم مناقشات طويلة.

س: ألم تتصلوا بالحزب الإنجليزى؟

ج: أول علاقة مباشرة كانت عن طريق مدرس إنجليزى يدرس فى السودان، وكان هذا المدرس يحاول تكوين تنظيم شيوعى سودانى. وخلال مروره بالقاهرة قال لى: إنه يجب ربط التنظيم السودانى بالحزب الإنجليزى فرفضت ذلك.

س: عندما شرعتم فى تأسيس ح. م. هل كانت هناك خلافات جدية بينكم وبين المجموعات الأخرى مثل مجموعة بول جاكو دى كومب. ومجموعة الإيسكرا، أو مع مارسيل إسرائيل؟

ج: نعم كانت هناك خلافات مبدئية.. فبالنسبة لجاكو دى كومب نحن كنا نرى أن الخطوة الحاسمة هى التمسير وهو أيضا كان ينادى بالتمسير لكن التمسير عنده كان يعنى مجرد ضم عدد من الأجانب المتمصيرين وكان يعوقه الحذر الشديد والمبالغ فيه من جانبه. أما نحن فكنا نرى الانفتاح على المصرين مباشرة وكذلك على النوبيين والسودانيين وعلى أوسع نطاق وكانت فكرتنا عن الأمان مختلفة تماما.

وقد نشطنا فى الأزهر وحققنا نجاحا وضممنا إلى صفوفنا عددا من طلبته وكان معنا أزهرى فى كلية أصول الدين صاغ قوانين الجدل شعرا على طريقة ألفية ابن مالك.. وكنا نختلف مع إيسكرا حول موضوع التقيد بالأخلاقيات، كنا نقول: إن المناضل الشيوعى يجب أن يتقيد بالأخلاق وأن تكون نموذجا فى الالتزام بها بينما إيسكرا أعلنت أن النظام البرجوازى هو الذى فرض هذه الاخلاقيات المزيفة وأن علينا التخلص منها.. وبالنسبة للتمسير.. الحقيقة إن أحدا لم يعترض عليه من حيث المبدأ لكننا نحن وحدنا الذين مارسناه بشجاعة وصعدنا إلى القيادة فورا عناصر مصرية وعمالية.

وكل هذه مسائل أساسية لأنه على ضوءها يمكن أن يتحدد مصير جماهيرية التنظيم واحترام الجماهير له والتفافها حوله.

س: متى ولدت ح. م. (الحركة المصرية للتحرر الوطني).

ج: تاريخ ميلاد ح. م هو تاريخ انعقاد أول مدرسة للكادر [لم يذكر التاريخ] حيث تجمع فى عزبة والدى ٢٥ من الكوادر الجديدة لحضور أول مدرسة كادر.

كان المدرسون فى المدرسة محمد زكى هاشم - أحمد دمرdash تونى - تحسين المصرى - موسى كاظم وانا. أما الطلبة فكان عددهم ٢٥ من بينهم ٢ أو أربعة من ميكانيكى الطيران أذكر منهم سيد سليمان رفاعى - يوسف مصطفى - المغربى - واثنين من الأزهرين [لم يذكر اسميهما] واثنين من طلبة الجامعات هما مختار العطار وكمال شعبان أما برنامج الدراسة فكان محاضرات حول تاريخ مصر (على ضوء المادية التاريخية) - جغرافية مصر - المادية الجدلية - الاقتصاد السياسى وكنا قد ترجمنا نشيد الدولية إلى اللغة العربية وكان مطلع بالغة العربية:

يا بؤساء الدنيا قوموا قوموا يا محرومين م الخير

وكان نظام المدرسة صارما وبروليتاريا حقا، الجميع ينامون على الأرض، يستيقظون

فى ساعة محددة لينشدوا عدة أناشيد ثورية بينها نشيد الدولية ثم تبدأ المحاضرات.

وفى المدرسة أعلننا نحن المدرسين للطلبة أننا قد نكون أناسا ثوريين لكننا لسنا الأصحاب الحقيقيين للقضية وأنهم أى الطلبة هم الأصحاب الحقيقيون لها.

وأذكر أن أول منشور شيوعى صدر عن ح. م. قد اشترك فى كتابته أربعة أشخاص هم جورج بوانتييه ومحمد نصر الدين ود. فؤاد الأهوانى وأنا وطبع منه أربعة آلاف نسخة وكان ذلك فى عام ١٩٤٢.

ثم أصدرنا بعد ذلك مجلة (حرية الشعوب) وأعدنا كورس محاضرات للأعضاء، كانت أول محاضرة فيه بعنوان «عيوب المجتمع» وكانت تقدم تفسيراً علمياً لعيوب المجتمع ومصادرها الحقيقية وأساليب التغلب عليها وكان الهدف هو أن نضرب منذ البداية الاتجاهات الإصلاحية التى كانت تنتشر فى ذلك الحين.

س: ما هى علاقاتكم بالمجموعات الأجنبية التى كانت مقيمة فى مصر؟

ج: كانت مصر فى أيام الحرب مركزا دوليا هاما وكان بها حوالى ١٠ أو ١٥ حكومة بالمنفى وأستطيع أن أقول: إننا حاولنا مساعدة جميع المجموعات الثورية والوطنية.. ساعدنا الألبانيين والأستراليين والإنجليز واتصلنا بمعسكرات الأسرى الإيطاليين وكنا

نهرب إليهم نشرات بالإيطالية وكتبنا ماركسية لنعزز نفوذ عناصر يسارية كانت موجودة معهم.. وكذلك اتصلنا بمعسكرات الأسرى الألمان وكان د. عبدالفتاح القاضى يكتب نشرات باللغة الألمانية ونرسلها إليهم لتوزع هناك.

وكذلك اتصلنا باليونانيين وكانت الفرقة اليونانية بمصر على خلاف مع قوات الاحتلال وكان يتزعمها شيوعى يونانى اسمه ذيقوليدس وقامت الفرقة بانتفاضة ضد الجيش الإنجليزى؛ لأنهم كانوا يريدون السفر إلى اليونان لتحرير بلدهم بينما الإنجليز كانوا يريدون إرسالهم إلى إيطاليا لإقصائهم بعيدا عن اليونان وحتى يتخلصوا منهم لأنهم شيوعيون.

وقد هاجمهم الإسكرا بحجة أنهم يعرقلون معركة الحلفاء ضد الفاشية أما نحن فقلنا: إننا لسنا قضاة فى هذا الموضوع وعلى اليونانيين أن يختاروا الموقف الذى يريدون لكن واجبنا أن نساعدهم كرفاق وقد حاصرتهم القوات الإنجليزية فى أحد المباني بالإسكندرية وجندت ح. م. كل أعضائها بالإسكندرية لمساعدتهم وكنا نهرب لهم الطعام والمياه.. والمعلومات.

س: لماذا أخذتم اسم الحركة المصرية للتححر الوطنى ولم تعلنوا من البداية تأسيس

حزب شيوعى؟

ج: الحقيقة أن الكثيرين طالبوا بذلك لكننا كنا نرى أن إعلان حزب يمكنه أن يعبر حقيقة عن آمال الجماهير المصرية يتطرق وقتا كثيرا وجهدا أكبر وإعدادا سياسيا وماديا ونضاليا لم يكن متوفرا لنا.. كنا فى بداية الطريق ولم يكن من السهل أن نعلن للجماهير أن هذا التكوين الضعيف هو الممثل الفعلى للبروليتارية المصرية.

وهكذا أعلننا أننا حركة للتححر الوطنى تستهدف تحقيق عدة أهداف من بينها:

١- تكوين حزب شيوعى مصرى.

٢- إصلاح زراعى.

٣- تنظيم الكفاح المشترك مع الشعب السودانى.

س: قامت ح. م. على أساس تنظيم فئوى فهل كان هذا الشكل الصحيح لتنظيم

شيوعى؟

ج: نعم قام تنظيمنا فى البداية على أساس أقسام فئوية بعضها قومى مثل قسم الأرمن وقسم النوبيين وقسم السودانين وبعضها اجتماعى مثل أقسام النساء والطلبة والشباب والعمال.

وقد يتصور البعض أن هذا خطأ لكننى أعتقد أن التنظيم أداة وأن هذه الأداة يجب أن تتشكل بالشكل الملائم..

فقد كنا مبتدئين وكنا بحاجة إلى فهم القضايا الاجتماعية فهما أكثر عمقا ومثلا مشكلات النساء لا يمكن فهمها فى ظل شكل الخلية العادية المشتركة وإنما من خلال تجميع النساء معا، كان يمكن خلق طليعة حقيقية لفئة معينة.

والسبب الثانى الذى دفعنا إلى ذلك هو الأمان فربط النوبيين معا والأرمن معا والطلبة.. إلخ. كان يمكن الكوادر من العمل بسهولة وفى ظل أمان أفضل ويمكنهم من اختيار أفضل العناصر وأكثرها إخلاصا.

ومثلا سنة ١٩٤٧ ووجهنا بمشكلة تنظيم أعضائنا فى كفر الدوار.. فعامل النسيج القادم حديثا من الريف ينشط ويعيش فى ظل مجموعات من البلديات وهذه المجموعة تربط العامل أكثر مما تربطه صالة العمل ولهذا أقمنا الخلايا ليس على أساس قسم العمل وإنما على أساس البلديات، مثلا خلية لأبناء المنوفية وكان هذا الشكل فى القاعدة فقط وكان فعلا مفيدا جدا ويحمى الخلايا من تسلل البوليس.

لكن مثلا فى شبرا الخيمة كان العمال أكثر تقدما ولم تكن مشكلة البلديات حادة مثل كفر الدوار فأقمنا التنظيم على أساس خلية المصنع.

وفى ح. م. كونا مثلا قسما للأزهر لأننا لو مزجنا المثقف الأزهرى مع المثقف العصرى فى بداية العمل فإن كلا منهما سيشعر بالتناقض. وكان تخصيص قسم للأزهر مسألة مهمة دفعت العمل إلى الأمام وأدى إلى أنه كان لنا قسم شيوعى كبير فى الأزهر تتبعه خلايا فى جميع المعاهد. وقد نجحنا فى الأزهر لأننا نفرض على العقلية الأزهرية تغييرا عنيفا.

س: وماذا عن نشاطكم فى الجيش؟

ج: بدأنا مع عمال سلاح الطيران ووجدنا أنهم خاضعون لنظام عسكري وليس من الممكن تنظيمهم مع زملاء لا يواجهون نفس الخطر. فأقمنا لهم قسما خاصا، وعلى أية حال كان لدينا فى ح. م صف ضباط فقط وبعد الوحدة قدمت إيسكرا ضابطا هو أحمد حمروش كان قد انضم إليها عن طريق تنظيم القلعة. وبعد ذلك توالى انضمام الضباط. فقد قام حمروش بتأسيس قسم الجيش فى وحدته.

وكان لدينا فى ح. م. تحليل طبقى لفئات الجيش هو:

الجنود - فلاحين.

عمال الجيش - عمال.

صف الضباط - برجوازية صغيرة.

الضباط - برجوازية متوسطة.

الضباط الكبار - برجوازيون مرتبطون بالمصالح العقارية والملكية.

وقد اتصلنا فى ح. م. بعدد من الضباط منهم محمد نجيب وقد اتصلنا به عن طريق أحد أعضائنا النوبيين (صالح عرابى) وقد اتصل بى صالح عرابى وقال: إن ضابطا من أصل سودانى يريد أن يعرف ما هو موقف الشيوعيين من السودان. وكان هذا السؤال فرصة لبحث الموضوع وأعدنا تقريراً مفصلاً عن وجهة نظرنا فى المشكلة وأعلنّا فيه أننا نرفع شعار الكفاح المشترك مع الشعب السودانى ضد العدو المشترك فى مواجهة شعار نيل واحد وملك واحد.. وبعد اتصالات عديدة مع محمد نجيب شعرنا أنه لم يكن له تكوين سياسى محدد لكنه كان يواصل اتصالاته بالنوادى النوبية - وبما أن النوبيين هم أكثر الفئات فقرا - فإنه كان قريباً من المفهوم الشعبى.

كذلك اتصلنا بصلاح سالم عن طريق الزميل الطيار إبراهيم العطار.

س: ما هى علاقة عبد الفتاح الشرقاوى بالتنظيم؟

ج: كان عضواً فى اللجنة المركزية للحركة المصرية وكان متديناً ويصلى باستمرار. والحقيقة أنه انضم إلينا وهو ضدنا لأننا غير مصريين، لكنه انضم إلينا ليكسب الخبرة ليؤسس تنظيمًا جديداً. وفعلاً انسحب الشرقاوى يوم ٦ أكتوبر ١٩٤٥ معلناً فلشنا ومؤكداً أن البلاد تمر بفترة جذر شديد. كذلك كان أحد أسباب الخلاف هو مسألة الدين فهو لم يكن يكتفى بموقفنا الإيجابى من الدين لكنه كان يفهم الماركسية فهما إسلامياً صرفاً.

س: يلفت نظرى أنك حددت يوم ٦ أكتوبر ١٩٤٥ للخلاف حول مسألة المد والجذر فى

الثورة المصرية فهل لهذا التاريخ صلة بهذا الخلاف؟

ج: طبعاً.. والحقيقة أننا عندما اقتربت الحرب من نهايتها طرحنا السؤال التالى هل ستشهد فترة ما بعد الحرب مداً ثورياً فى مصر أم العكس؟ كنا نحن نقول: إن الفترة القادمة فترة مد وأن المظاهرات الوطنية ستنفجر مطالبة بالاستقلال التام وأن علينا أن نستعد للتعلم دوراً أساسياً فى هذه الحركة.

لكن المنظمات الأخرى حلت الموقف بصورة أخرى فقالوا: إن الوفد مطرود من الحكم وإن حكومة أحمد ماهر قررت الدخول فى مفاوضة الإنجليز وإن الرجعية ترى أن معاهدة ١٩٣٦ تضمنت نقصا فى الاستقلال والمطلوب هو مفاوضات لاستكمال هذا النقص. وكان تقديرنا أن المظاهرات ستتفجر فى ٦ أكتوبر ١٩٤٥ وهو موعد بدء الدراسة فى الجامعة.

وفى ٥ أكتوبر أصدرت ح. م. منشورا إلى جنود الجيش والبوليس تقول لهم فيه: إنهم جزء من القوى الوطنية المعادية للاستعمار ويجب ألا يسمحوا لأنفسهم بأن يستخدموا لضرب مظاهرات الطلبة التى ستتدلع غدا..

لكن ٦ أكتوبر يأتى ولم تقم مظاهرات وتهكمت علينا كل المنظمات وثار عبد الفتاح الشرقاوى وقال: أنتم فشلتم وتحليلاتكم خاطئة لكننا قلنا نحن لم نهزم وإنما الذى هزم هو القيادات التقليدية للحركة الوطنية لأنها عجزت عن قيادة الحركة الوطنية فى ظل الشعارات الملائمة، وطرح علينا هذا واجبات جديدة هى العمل على تكوين قيادة وطنية جديدة تقود العمل السياسى والوطنى وبدأنا فى تكوين اللجنة الوطنية للطلبة والعمال. وطبعا قادت هذه اللجنة إضرابات ومظاهرات ضخمة جدا أكدت صحة تحليلنا السابق.

س: أريد أن تتحدث عن تجربة الوحدة بين ح. م. وإيسكرا؟

ج: كنا دائما نسعى للتوحيد. وكان من شروط الوحدة إبعاد الأجانب، وفعلا كونا قسما للأجانب أبعدنا إليه جميع الأجانب ما عدا أنا وهليل شوارتز وبهذا تم التمسير بشكل فعلى وحددنا رايات الكفاح الجديدة لنا وهى الديمقراطية والتحرر الوطنى وهكذا أسميننا التنظيم الجديد الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى ح. د. ت، ولكننا لم نكن نتصور أن «حدثو» هى الحزب بل كانت خطوة فى سبيل السعى لإقامة الحزب.

وبعد ذلك أعلننا هدف التعميل وتصورنا أنه يمكن إنجاز مهمة التعميل بنفس الأسلوب الذى اتبعناه فى التمسير. وهكذا كونا أقساما غير عمالية ثم قسما للعمال ابتعد عنه كل من هليل وأنا وقلنا إن مهمة قسم العمال ليس مجرد توسيع النشاط وسط العمال وإنما أن يتحول بنفسه ليصبح هو الحزب وكان على رأس القسم أربعة من المصريين: سيد رفاعى - محمد شطا - شهدى عطية - عبد المعبود الجبيلى.

وقد وقعنا فى خطأ كبير فإن عملية التمسير تمت بالتصعيد السريع لعناصر مصرية إلى القيادة وتدريبها وترتيبها من خلال الممارسة نفسها وتصورنا أنه يمكن التعميل بنفس الطريقة؛ أن نصعد عمالا بغض النظر عن مستواهم الفكرى إلى صفوف القيادة.. وضعدنا إلى القيادة عددا كبيرا من العمال بقصد أن نشعر العمال أنهم الملوك الحقيقيون للتنظيم. لكن من هم العمال؟ هذا هو السؤال الذى حاولنا أن نجيب عليه. وقلنا: إن التعميل بالمعنى النظرى والثورى هو ضم طلائع العمال فى المراكز العمالية الكبرى.. وهذا يعنى فى ظروف مصر ضم قيادات عمال النسيج وعمال النسيج المصريين كانوا فى ذلك الحين ثوريين لكنهم كانوا بشكل عام غير متعلمين وأدى التصعيد السريع للعمال إلى إضعاف التكوين الفكرى لقيادة التنظيم فى ظروف بدأ التنظيم يتعرض فيها لصعوبات تنظيمية وتواجهه مشكلات نظرية وفكرية خطيرة.

كذلك أعاق عملية التمسير أن المثقفين المصريين فى قيادة التنظيم قالوا: إن المسافة الواسعة بين الأجنبى والمصرى حتمت التمسير لكن هذه المسافة تقل كثيرا فيما بين المثقف والعمال المصريين.. وكان بعض المثقفين يشعرون بالخطر على مراكزهم من التعميل وكان البعض يشعر بمخاطر انخفاض المستوى النظرى للقيادة.. وعلى أية حال أدى هذا الموضوع إلى خلافات عميقة فى قيادة حدتو.

وفى هذه الظروف بدأت الرجعية فى الضغط على الحركة. وأدى الضغط بالضرورة إلى توليد اتجاهات متطرفة يسارا فانقسمت مجموعة م. ش. م واتجاهات متطرفة يمينا مثل مجموعة فوزى جرجس التى رفعت شعار «إحناء الرأس للعاصفة».

ومما أدى أيضا إلى ضعف مواجهة التنظيم للضغط الرجعى أن هذا الضغط وجه إلينا بعد ضم مجموعات ضعيفة من الناحية النضالية (مثل كثير من عناصر إيسكرا).

س: ما هى القصة الحقيقية لزيارة أندريه مارتنى لك فى القاهرة وما هى حقيقة علاقتك

به؟

ج: زوجتى كانت تعمل مترجمة لدى وفد فرنسا بالهجرة. وهناك قابلت مارتنى وكان قادما من موسكو، دعتة هو وزوجته للإقامة فى شقتنا فقبل على الفور وعندما سألتناه فيما بعد عن سر قبوله السريع قال: إنهم حذروه فى موسكو من أن القاهرة مليئة بالجواسيس ولهذا فضل ألا يقيم فى فندق. بدأت معه مناقشات حول الوضع فى مصر.

وأجبرته على أن يقابل قائد المجموعة الشيوعية فى الفرقة اليونانية المسلحة بمصر الرفيق نيقوليديس وكان مارتى مترددا فى إقامة أى اتصال بأى إنسان لكننى أصررت. وبعد ذلك سافر مارتى إلى الجزائر واستمررنا فى إرسال كتب ونشرات إليه. وفى ١٩٤٦ سافرت زوجتى إلى باريس وكانت صديقة لزوجـة مارتى فقابلتها ونقلت إليها وجهات نظرنا السياسية لتتقلها إلى الحزب الفرنسى وطلبت منها أن تتصل بجارودى ليكتب مقدمة للترجمة العبرية لكتابه الذى كنا قد قررنا طبعه فى سلسلة الكتب الخضراء وفعلا كتب جارودى مقدمة ممتازة.

وفى ١٩٥٠ عندما طردت من مصر إلى إيطاليا ثم طردت من إيطاليا فسافرت إلى باريس قدمت نفسى للمكتب السياسى للحزب الفرنسى فقالوا لى قابل مارتى فقابلته، وطلب تقريراً عن تطورات الظروف السياسية فى مصر فأعددت له التقرير وبعد ذلك فوجئنا بأن الحزب يطرد مارتى ويتهمه بالجاسوسية فكتبنا تقريراً إلى الحزب الفرنسى أشرنا فيه إلى مقابلتنا السابقة معه وشرحنا وجهة نظرنا فى اتهام مارتى..

وبعد أيام فوجئنا بالأومانيته تنشر تقريراً للمكتب السياسى يقول: إن مارتى كان على علاقة باثنين من المصريين مشكوك فيهما وهذا الاثنان هما أنا وزوجتى. وبعد ذلك كتبت إلى الحزب رسالة قلت فيها: إننا لا نوافق على رأيهم لكننا لن نقول شيئاً حتى لا نضعف مركز الحزب فى المعركة مع مارتى..

والحقيقة أن سبب الخلاف بينى وبين الحزب الفرنسى والإيطالى يرجع إلى اختلافى معهم فى المواقف والتحليلات السياسية إزاء مصر. فعندما ألغيت معاهدة ٣٦ قالوا: إن ذلك تعبيراً عن النفوذ الأمريكى ورفضنا هذا التحليل. وعندما قامت ثورة يوليو هاجموها بينما أيدتها أنا.

وهكذا فإن أسباب الخلاف هى فى الأساس أسباب سياسية.

انتهى النقاش

محضر نقاش مع عبده دهب حسنين(*)

تم النقاش فى الخرطوم ١٨/١٠/١٩٦٩

س: كيف بدأت علاقتك بالعمل السياسى فى مصر؟

ج: فى عام ١٩٣٥ بدأت حياتى السياسية وأنا شاب صغير فى وادى حلفا واتصلت بحزب مصر الفتاة وكان له فرع بوادى حلفا لقربها من مصر وللتعبير عن تصميم الحزب على وحدة وادى النيل. ولبست القميص الأخضر.. واستدعانى حاكم البلدة وهو إنجليزى وطلب إلىّ خلع هذا القميص فرفضت. فبدأ فى اضطهادى.. وبعد ذلك غادرت حلفا إلى القاهرة وعملت هناك مع حزب مصر الفتاة. وقد طلب إلى قادة الحزب أن أعمل لدى الإيطاليين (لتعزيز العلاقات بالفاشست) وعملت فعلا- فى حمام سباحة بالهزم- مملوكاً للإيطاليين.

وفى هذه الأثناء كنت متحمسا جدا ضد الإنجليز وشعر بمحاسى إيطالى شيوعى اسمه ماريو كان يعمل فى نفس النادى فسألنى: لماذا أنت متحمس ضد الإنجليز؟ فقلت لأنهم يستعمرون بلادنا، فقال ولماذا تحب إيطاليا؟ فقلت: لكى تخلصنا من الإنجليز. وضحك ماريو وأخذ يحدثنى طويلا عن فكرة الاستعمار وكيف أن الإيطاليين يحاولون طرد الإنجليز من مصر ليحلوا محلهم.

وبدأ ماريو تدريس الماركسية لى وافهمنى أن الدولة الوحيدة التى يمكن أن تساعدنا مساعدة جدية هى روسيا .

وفى سنة ١٩٣٩ بدأت حملة اعتقالات ضد الإيطاليين وعندما جاء البوليس ليقبض على ماريو قال لى: حاول الاتصال بهنرى كورييل أو مارسيل إسرائيل. لكنه لم يعطنى أية عناوين.. ولم أستطع أن أعثر عليهما.

وكانت الأفكار التى علمنى ماريو إياها تشكل حاجزا بينى وبين مصر الفتاة فبدأت فى الانشقاق عنها وفعلنا انقسمت عن مصر الفتاة أنا وعصام عبد المعصى وفهمى عقل وحسن كمال وآخرين مكونين تنظيما جديدا اسمه «كتلة الشباب المصرى» وأصدرنا مجلة اسمها «الجلء» كان مقرها شارع سليمان باشا.

س: هؤلاء الذين كونوا معك «كتلة الشباب المصرى» هل كانوا جميعا يساريين؟

ج: لا.. أنا وعصام عبد المعطى فقط.

س: وكيف اتصلت بالشيوعيين؟

ج: كنت أشعر أننى بحاجة إلى الثقافة وكنا نبحث فى الصحف عن الإعلانات التى تنشر عن المحاضرات والندوات فى الأندية المختلفة. وذات يوم من أيام عام ١٩٣٩ قرأت عن مناظرة ستجرى فى مقر النادى الديمقراطى بشارع سكة الفضل حول المرأة المصرية والمرأة الأوروبية بين الأستاذين سلامة موسى وزكى مبارك.. وذهبت لحضور هذه المناظرة واشتركت فى نقاش عنيف ضد زكى مبارك. وبعد أن انتهت المناظرة تقدم إلى شخص أجنبى وطلب منى أن أدخل معه أحد المكاتب حيث وجدت بعض الاشخاص. وسألنى هذا الشخص الذى علمت فيما بعد أنه هليل شوارتز. هل أنت عبده دهب؟

فقلت نعم.. فقال: إننا نبحث عنك من زمن طويل.

ودار نقاش حول الأوضاع فى السودان ونظم التعليم هناك لكن النقاش كان محصورا بينى وبين شوارتز، أما الآخرون فلم يشتركوا فيه وكانوا هنرى كورييل وبولا العلايلى ومارسيل إسرائيل.

وعندما كنت أوشك على مغادرة المكتب طلب منى هنرى كورييل موعدا.

وقابلته بعد أيام فى مكتبه بشارع الشواربى. حيث حدثنى طويلا عن رغبته فى تأسيس مجلة تعمل على نشر الوعي فى مصر.

وكلفنى أن أبحث عن مجلة مصرية لاستئجارها حيث يصعب على أشخاص مثلهم الحصول على رخصة مجلة. وفعلنا استأجرت مجلة «حرية الشعوب» وكان يصدرها شخص اسمه رجب أحمد وهو شخص عادى جدا لم تكن لديه أية ميول سياسية رغم هذا الاسم الذى أطلقه على مجلته وكان الإيجار المتفق عليه ١٥٠ قرشا شهريا ارتفعت إلى ٢٥٠ بعد أن بدأت مضايقات البوليس.

واحفظنا باسم المجلة وأضفنا شعارا يقول إنها «مجلة مصرية سودانية عمالية ثقافية».

س: من كان يعمل معك على إصدار هذه المجلة؟

ج: كثيرون جمعهم معى كورييل مثل سيد قنديل وهو نقابى مشهور ونقابى آخر اسمه زكى أبو الخير ومن السودانيين محيى الدين صابر وعددا آخر من أعضاء النادى الديمقراطى مثل يوسف درويش وايزاك عبود وقد اختيرا لأنهما يجيدان اللغة العربية.

س: هل اكتفيتم بإصدار المجلة؟

ج: لا.. فهنرى كورييل كان ينظم مع كل منا دراسات للماركسية ويطلب بإلحاح كسب المزيد من العناصر المصرية وفعلنا كسبنا معنا أسعد حليم، أنور كامل، مصطفى كامل منيب.

س: كيف تأسس التنظيم؟

ج: واضح أن النادى الديمقراطى كان تجمعا يستهدف خلق حلقات ماركسية بهدف تكوين تنظيم فيما بعد وواضح أنه كان هناك خلاف حول أسلوب البدء.. لكننا لم نكن نعلم أى شىء عن هذا الخلاف وفجأة وجهت لى الدعوة لحضور اجتماع فى منزل شخص عرفت فيما بعد انه جوماتالون وكان الاجتماع ساخنا جدا ودار فيه نقاش حاد. وفى البداية أحسست أننى لا أفهم شيئا وبالتدريج فهمت أن هناك خلافا بين كورييل وشوارتز. وقف هنرى كورييل وفى يده تقرير مكتوب باللغة الفرنسية لكنه كان يترجمه فورا إلى العربية وتحدث طويلا عن أهمية تشكيل تنظيم ليقود معركة التحرر الوطنى وتحدث عن أهمية تمصير هذا التنظيم بحيث تكون غالبية أعضاء اللجان القيادية من المصريين.. وقال إنه يعلم أنه لا توجد كوادر مصرية كافية لكنهم سيتدربون من خلال ممارسة المسئولية. وتحدث شوارتز فأيد فكرة تأسيس منظمة لكنه عارض فكرة اشتراط أن تكون غالبية المستويات القيادية من المصريين وأذكر أنه قال إن لينين كتب مقالا فى العدد ٣٨ من

«الإيسكرا» قال فيه إنه يمكن لطلّاع أجنبيّ أن تلعب الدور القياديّ في التنظيم في بلد متخلف.

وتحدث جورج حنين قائلاً: إن وجهه، نظر كورييل صحيحة بشرط أن يتم إبعاد كورييل نفسه لأنه أجنبيّ.

وتحدث كورييل قائلاً: بأنه مستعد أن يوجد في اللجنة المركزيّة كعضو مرشح بدون صوت وبعد مناقشات حادة انفض الاجتماع دون اتفاق. وبدأت بعده سلسلة من الاتصالات الفرديّة.

س: هل تذكر أسماء بعض الذين حضروا هذا الاجتماع؟

ج: أذكر البعض: عصام الدين، حفنى ناصف - بولا العليلى - جورج حنين - عبدالفتاح القاضى - وآخرين.

س: ماذا حدث بعد ذلك؟

ج: اتصل بى كورييل. واتصل بى «جورج حنين وعصام ناصف يعرضون فكرة تأسيس تنظيم مستقل بعيداً عن كورييل وشوارتز وشعرت أن لديهما ميولاً تروتسكية. وناقشنى شوارتز وكان يردد باستمرار روايته عن مقال لينين بالإيسكرا حتى أطلقنا عليه تهكماً اسم «إيسكرا» وأطلق هذا الاسم على التنظيم الذى أسسه فيما بعد. وبعد تفكير اخترت أن أعمل مع كورييل، وهكذا شهدت مولد الحركة المصريّة للحرر الوطنى (ح. م. ت. و).

س: هل أفهم من ذلك أنك شاركت فى التأسيس؟

ج: نعم.. كنت أحد أعضاء أول لجنة مركزيّة..

س: هل تذكر أسماء بعض من كانوا معك فى اللجنة المركزيّة؟

ج: أذكر تحسين المصري - د. عبد الفتاح القاضى - محمود كامل - د. زكى هاشم - أحمد الدمرداش تونى - هنرى كورييل - أسعد حليم - أسماء البقلّى.

س: وماذا فعل الآخرون؟

ج: شوارتز كون «الإيسكرا» ومارسيل إسرائيل كون «الخبز والحرية».

س: هل يمكن أن تسرد لى بإيجاز تطورات نشاط ح. م فى الفترة الأولى من

تأسيسها؟

ج: فى البداية بدأنا عملية تجنيد واسعة واتصالات على نطاق كبير وبعد سنة تقريبا رفع كورييل شعار «التعميل» ومؤداه أن تصعد إلى اللجان القيادية عناصر عمالية وكان لنا نشاط واسع وسط ميكانيكى السلاح الجوى ووسط عمال النسيج فصعد إلى القيادة سيد سليمان رفاعى وفؤاد حبشى (من السلاح الجوى) ومحمد محمد شطا (النسيج) والحقيقة أن سيد رفاعى وفؤاد حبشى قد استطاعا أن يؤسسا تنظيما قويا جدا داخل سلاح الطيران وبالذات وسط خريجي مدرسة ميكانيكا الطيران.

وبعد مدة امتد نشاطنا وسط اتحاد خريجي المدارس الصناعية وأذكر من بينهم يوسف بدير محمد على.

ومن خلال هذه التجمعات الكبيرة أمكن توسيع نشاطنا إلى حد كبير.

س: هل كنتم تصدرون مجلة فى ذلك الحين؟

ج: نعم استمرت مجلة حرية الشعوب لسانا لنا وكنت أنا المسئول عن المجلة وعن تحريرها. وعندما سافرت فيما بعد إلى السودان بتكليف من التنظيم تولت أسماء البقلى مسؤولية المجلة لكنها حولتها إلى مجلة نسائية الأمر الذى أثار انتقادات كثيرة.

س: كيف تطورت علاقاتكم بإيسكرا؟

ج: فى البداية لم نكن نشعر بالتناقض معهم. ولكن مع امتداد نشاط كلا التنظيمين فى مجالات عديدة الجامعة - الحركة العمالية وغيرها بدأ الاحتكاك بين قواعد التنظيمين.

س: هل كانت لكم علاقات بأحزاب أجنبية أو عناصر منضمة لهذه الأحزاب؟

ج: كان هناك ضباط وجنود شيوعيون فى قوات الاحتلال. لكنهم لم ينضموا للتنظيم وكانوا يتصلون بكورييل شخصيا. وأعرف أنهم قدموا لنا مساعدات كثيرة.

س: متى بدأت فى جذب عناصر سودانية إلى الحركة؟

ج: أذكر أنه فى عام ١٩٤٣ كلفنى التنظيم بالاهتمام بتجنيد عناصر سودانية. وبعد ذلك كلفت بالسفر إلى السودان للاتصال بمجموعة شيوعية سمعنا أنها موجودة هناك.

وفى ١٩٤٣ وصلت إلى الخرطوم وقابلت أحد مؤسسى هذه المجموعة وهو ضابط إنجليزى اسمه «استورى» وقد تحدث معى طويلا عن صعوبة العمل وسط السودانين خاصة وأنه ضابط فى قوات الاحتلال. وقال إنه رغم ما بذل من جهود لم يستطع أن يجند سوى شخصين فقط هما أحمد زين العابدين (طالب فى كلية غوردون وأصبح فيما بعد وزيرا) وحسن الطاهر زروق (مدرس).

وبقيت فى الخرطوم شهرين استطلعت خلالهما أن أتصل ببعض قراء مجلتنا «حرية الشعوب».

وقبل أن أغادر الخرطوم دعانى إلى منزله مهندس اسمه حسن أبو جبل وهناك وجدت ما يقرب من عشرين شخصا وطلبوا إلى أن أتحدث معهم عن الماركسية وبعد حديث طويل أعلن حسن أبو جبل اقتناعه وضمته إلى زين العابدين وزروق.

وأذكر أنه خلال مناقشاتى مع «استورى» قال لى انه يعلم أننا قد جئنا فى القاهرة عددا من الطلاب السودانين وطالب بضمهم إلى مجموعته التى يزعم أن يلحقها بنشاط الحزب الشيوعى الإنجليزى.

وعند عودتى عرضت ذلك على اللجنة المركزية وعارض كورييل بشدة وأثبت فى محضر الاجتماع أن السودانين الشيوعيين الموجودين بمصر هم جزء من الحركة المصرية وأن علينا أن نسرع بتكوين قسم مستقل لهم يعمل وسط السودانين فى مصر تمهيدا لتأسيس تنظيم مستقل فى السودان. وفعلنا نكون هذا القسم سريعا وكان اسمه الحركى «شركة الملح والصودا».

س: هل تذكر أسماء الأعضاء الأول فى هذا القسم؟

ج: د. عبد الوهاب زين العابدين - محمد أمين حسين - عبد الرحيم فودة - د. عز الدين على عامر وعبد الماجد أبو حسبو - حسن إسماعيل.

س: من كان مسئول القسم السوفى؟

ج: الحقيقة أن لجنتنا المركزية اتخذت قرارا بأن تضم إلى صفوفها باستمرار اثنين يمثلان القسم السودانى وأول اثنين كنا أنا وعبد الماجد أبو حسبو. وكنت أنا لفترة مسئولا عن القسم السودانى.

س: متى بدأ الاستقلال الفعلى للتنظيم فى السودان؟

ج: فى ١٩٤٥ وصل إلى مصر شخصان موفدان من قبل د. عبد الوهاب زين العابدين وهما حسن الطاهر زروق والمهندس عبد الحميد أبو القاسم.

وعقد اجتماع ضم قادة القسم السودانى بالقاهرة ومندوبى الخرطوم وعددا من المصريين منهم كورييل ود. عبد البتاح القاضى وتحسين المصرى. وكان الاجتماع فى منزل كورييل.

وقدم المندوبات تقريراً يطالبان فيه بتشكيل تنظيم مستقل له قيادة مستقلة ووافق المجتمعون على ذلك.

واتفق على أن يستمر السودانيون المقيمون في القاهرة أعضاء في ح. م. واتفق على أنه في حالة عودتهم إلى السودان ينضمون إلى التنظيم هناك في نفس المستوى الذي كانوا يعملون فيه في القاهرة.

واتفق أيضاً على أنه في حالة انتقال أى سودانى للإقامة في مصر ولو بصفة مؤقتة ينضم إلى المستوى المقابل في ح. م.

واتفق على تسمية التنظيم السودانى الحركة السودانية للتحرر الوطنى (ح.س.ت.و).

س: هل كان للتنظيمات الأخرى نشاط وسط السودانين؟

ج: لا أعتقد... وأذكر أن شوارتر عندما أحس بنشاط القسم السودانى وبتأسيس حسنة تقدم إلى ح. م. بطلب رسمى متضمن السماح للسودانيين بالعمل لفترة مع المنظمات المختلفة حتى يكتسبوا خبرات متنوعة.. ولكن طلبه رفض.

س: سمعت أنك كنت على علاقة بتأسيس القسم النوبى في ح. م. فهل هذا صحيح؟

ج: ساعدنى على الارتباط بالنوبيين أننى نوبى سودانى وقد اتصلت بعدد من النوبيين منهم محمد خليل قاسم وشخص آخر اسمه شريف. وعن طريقهما اتسع النشاط جدا وسط النوبيين وتكون قسم ضخم وساعد على ذلك ترابط النوبيين والأزمة التى كانوا يعيشون فيها عقب التهجير.

س: هل كانت هناك أقسام أخرى في ح. م.؟

ج: كان هناك قسم الأرمن. لكن لا علاقة لى به.

س: هل كان لكم نشاط وسط عناصر أجنبية أخرى؟

ج: كنا نسعى دوما للبحث عن عناصر تساعد على امتداد النشاط الماركسى إلى أى مكان في العالم.

وأذكر أنه خلال علاقتي بالطلبة السودانين في مدرسة حلوان تعرفت في ١٩٤١ بشاب حبشى متحمس اسمه «ملاس بوجوتى» وبدأت في المناقشة معه ولما علم كورييل طلب إلى الاهتمام به.

وأصبح بوجوتى عضوا في ح. م. وكنا نطالبه باستمرار بالتركيز على دراسة مشكلات بلاده، وتقديم أبحاث عنها. وفي ١٩٤٣ أتم دراسته الثانوية وقرر الالتحاق بالجامعة. لكن

كوريل اجتمع به وأقنعه بأهمية السفر إلى الحبشة لتأسيس تنظيم ماركسى هناك. وأذكر أننا قدمنا له مساعدات كثيرة جدا. يسافر بوجوتى وظل يرسلنا لفترة طويلة ويرسل لنا تقارير عن تطورات نشاطه وكنا طول هذه المدة نقدم له كل ما يطلب من مساعدات مالية وكتب وغيرها.

وبوجوتى هو الآن أحد قادة الحزب الشيوعى فى الحبشة. وأذكر أيضا أننا اتصلنا ببعض الطلاب اليمنيين وبعض اليمنيين الذين وصلوا للتدريب فى مصلحة البريد وحاولنا تجنيد بعضهم وأعطينا لهم كميات كبيرة من النشرات والكتب قبل سفرهم.

س: ما هى قصة تأسيس مجلة أم درمان؟
ج: كان هناك صراع بين شعاربن شعار يرفعه الشيوعيون «الكفاح المشترك - مع حق تقرير المصير» وشعار الأحزاب الأخرى «وحدة وادى النيل تحت التاج المصرى» وكان يؤيده من السودانين فى القاهرة على البرير. وعلمنا أن القصر الملكى سيصدر مجلة اسمها السودان وسيؤسس تحريرها على البرير للدعوة لشعار وحدة وادى النيل تحت التاج المصرى. فأسرعنا بإصدار مجلة لنا..

وفى البداية طلبنا ترخيصا لمجلة باسم «مجلة الكفاح المشترك» ورفضت وزارة الداخلية فقدمنا طلبا آخر لمجلة باسم «أم درمان» ورفض طلبنا أيضا. لكن أحمد الدمرداش التونى (هو زوج ابنة محمد محمود جلال استطاع أن يقنع صهره الذى كان نائبا فى البرلمان بأن هذه المجلة ستحمل لواء الدعوة لمبادئ الحزب الوطنى وتقدم النائب محمد محمود جلال بضمانة للمجلة أمام السلطات.

وبناء على وساطة محمد محمود جلال استقبلنى رئيس الوزراء حسن باشا صبرى فى كلوب محمد على وأبلغنى أنهم سيمنحونا ترخيص المجلة وضحك وقال وإن كنت أعتقد أن اسمها الحقيقى سيكون «موسكو» وليس «أم درمان» وصدر الامتياز باسم محمد أمين حسين لأنه كان أكبرنا سنا، وكنت أنا رئيس التحرير وقد لعبت الجريدة دورا كبيرا ضائق السراى. إلى حد أن أحد سكرتيرى الملك وهو حسن بك حسنى اتصل بى وعرض على ٢٠٠٠ جنيه مقابل أن أغلق المجلة وأن أسافر إلى السودان. فلما رفضت هددنى بالقتل.

وطلبت عقد اجتماع عاجل للجنة المركزية وعرضت عليهم الأمر وقررنا أن نتحدى هذا التهديد.

س: هل لعبت أم درمان دورا في السودان؟

ج: لعبت دورا كبيرا جدا. وقد صادرتها سلطات الاحتلال ومنعتها من الدخول إلى السودان لكنها كانت تهرب لبيع العدد الواحد بخمسة وعشرين قرشا. وفيما بعد قالت إحدى الصحف السودانية وهي «الرأى العام» إن أم درمان كانت حاملة لواء طرد الاستعمار من السودان.

س: ما هو رقم توزيع أم درمان؟

ج: في البداية كنا نوزع ٣٠٠٠ نسخة ثم ارتفع الرقم في ١٩٤٦ وعندما صارها صدقي كانت توزع ٨٠٠٠ نسخة وكان معظم التوزيع يتم بواسطة الأعضاء والعاطفين. س: ارتبط اسمك أيضا بمجلة الجماهير فما قصتها؟

ج: الجماهير كانت أصلا مجلة إيسكرا قبل أن نتحد معهم. وعندما اتحدنا في الحركة الديمقراطية كان الاتفاق أن يكون المسئول السياسى والتنظيمى فى جميع المستويات من ح. م. ومسئول الدعاية ومسئول العمل الجماهيرى من إيسكرا. ونتيجة للوحدة صار ضمى إلى «الجماهير» كمسئول سياسى لكن شهدت عطية المسئول السياسى للمجلة أيام إيسكرا لم يقبل هذا الوضع. وبعد صراع اتفق على أن تشرف ل. م. مباشرة على المجلة وقد بلغ توزيع الجماهير ١٢ ألفا.

س: كم كان عدد أعضاء ح. م.؟

ج: عند الوحدة مع إيسكرا قمنا بحصر للأعضاء وبلغ عددهم ١٨٠٠ عضو..

انتهى النقاش

(*) عبده دهب حنين: سودانى من وادى حلفا قضى فترة طويلة من حياته (١٩٣٥ - ١٩٥٠) بالقاهرة وكان من أوائل الذين انضموا إلى النادى الديمقراطى ثم إلى «الحركة المصرية للتحرر الوطنى». لعب دورا كبيرا فى تأسيس الحركة السودانية للتحرر الوطنى. عندما عاد إلى السودان مارس نشاطه لفترة من الوقت ثم ابتعد عن التنظيم بسبب بعض الخلافات. ويعمل الآن بالتجارة. يحتفظ بمذكرات يومية عن نشاطه وذاكرته قوية. من مواليد ١٩١٧.

المراجع

مراجع عربية ومترجمة

- أمين عز الدين - المنصوري سيرة مثقف ثورى.
- إسماعيل مظهر - الاشتراكية.
- السيد محمد عفيفى البقلى - فؤاد الثمرات الأحمدية فى المباحث الاقتصادية والسياسية.
- آثار الزعيم سعد زغلول - عهد وزارة الشعب - جمعها ورتبها محمد إبراهيم الحريرى.
- أحمد الصاوى محمد - ما قل ودل - الجزء الأول.
- أحمد شفيق باشا - حوليات مصر السياسية - الأجزاء، ٣، ٤، ٥.
- أمين عز الدين - شخصيات ومراحل عمالية.
- اليد القوية - خطب وأحاديث حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا.
- إلياس مرقص - تاريخ الأحزاب الشيوعية فى الوطن العربى - ١٩٦٤.
- إلياس مرقص - الأمية الشيوعية والثورة العربية.
- د. رفعت السعيد - عصام الدين حفنى ناصف - سلسلة طلائع الفكر الاشتراكى.
- د. رفعت السعيد - نقولا الحداد - سلسلة طلائع الفكر الاشتراكى.
- رؤوف عباس - الحركة العمالية فى مصر.
- سمير غريب - السيرىالية فى مصر.
- صالح على عيسى السودانى - الأسرار السياسية لأبطال الثورة المصرية، وآراء الدكتور محبوب ثابت.
- صديق رسول القادرى - الميجر جنرال - مذكرات القادرى - ترجمة القاسم العلوى.
- عبد المنعم الغزالى - تاريخ الحركة النقابية المصرية.

- عبد العظيم رمضان - تطور الحركة الوطنية فى مصر.
- عبد الوهاب بكر - أضواء على النشاط الشيوعى ١٩٢١ - ١٩٥٠.
- محمود طاهر العربى - هذا المجتمع الظالم.
- د. محمود متولى - مصر وقضايا الاغتيالات السياسية.
- محمد صديق عنتر (مترجم) - البادئ الاشتراكية.
- محمود حسنى العربى - ٨٩ شهرا فى المنفى.
- محمود حسنى العربى - مقالات العربى - عنى بجمعها وتريبها ونشرها إلهامى أمين.

- محمود عزمى - خبايا سياسية.
- مريت بطرس غالى - سياسة الند.
- قلبنى فهمى باشا - آراء وذكريات فى السياسة والاقتصاد والاجتماع.
- قسطاكي إلياس عطاره - تاريخ تكوين الصحف المصرية.
- والتر لاکور - الاتحاد السوفييتى والشرق الأوسط.

مراجع أجنبية

- Alexandrian - Georges Henien.
- Agwani - Gommunism in The Arab East.
- History of The Communist Party of The Soviet Union-Scond Revised Edition - Moscow.
- Ivor Spector - The Soviet Union And The Muslim World 1917- 1956.
- Walter Laqueur - Communism And Nationalism in The Middle East.
- Zaki Badwi - Les Problemes du Travail et Les Organisations Ovriers.

تقارير ووثائق ومخطوطات غير منشورة

- محفوظات دار الوثائق القومية.
- تقارير البوليس السرى المصرى إلى وزارة الداخلية المصرية (مجموعة وثائق وزارة الخارجية البريطانية - المتحف البريطانى - لندن).
- التقارير السنوية للسفارة البريطانية بالقاهرة إلى وزارة الخارجية البريطانية (المتحف البريطانى - لندن).
- تقارير مرسلة من السفارة الفرنسية إلى وزارة الخارجية الفرنسية - مودعة بأرشفيف وزارة الخارجية الفرنسية.
- قرار الاتهام فى قضية الشيوعية - الجناية رقم ٨٢٧ شبرا لسنة ١٩٢٥.
- مرسوم ملكى بإسقاط الجنسية المصرية عن ثمانية من المصريين.
- ملف القضية رقم ٢٤٤ كلى سنة ١٩٣١ - محكمة جنابات الإسكندرية دور يوليو.
- مضابط مجلس النواب المصرى عام (١٩٢٦-١٩٢٧).
- الدستور - تعليقات على مواده بالأعمال التحضيرية والمناقشات البرلمانية.
- إصدار مجلس الشيوخ أربعة أجزاء - مطبعة مصر - ١٩٤٠.
- المرسوم بقانون بتعديل قانون الجنسية، عام ١٩٣١.
- عايذة إبراهيم نصير - الكتب العربية التى صدرت فى مصر بين عامى ١٩٢٦ - ١٩٤٠.
- رسالة ماجستير (غير منشورة).
- سبانو - تقارير عن زيارته لمصر عام ١٩٣٥ - (أرشفيف اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الإيطالى - روما، باللغة الإيطالية). (غير منشور).
- مارسيل إسرائيل - بدايات الحركة العمالية فى مصر - باللغة الفرنسية (غير منشور).
- هانز بياشر - حول الدور التاريخى للكونترن - بحث مقدم للندوة العالمية التى عقدت بموسكو بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الكونترن - باللغة الألمانية (غير منشور).
- بروتوكول المؤتمر السادس للكونترن - الطبعة الألمانية.
- الدولية الشيوعية قبل المؤتمر السابع - تقرير بالألمانية.

- د. محمد أنيس - الحركة الوطنية في مواجهة الاستعمار الأوروبي - سلسلة
محاضرات المعهد العالي للدراسات الاشتراكية (غير منشور).

نوريات عربية:

اتحاد العمال

الاتحاد

التطور

الأحرار الدستوريين

الأخبار (جريدة الحزب الوطني)

الأخبار (الحالية).

ألف - باء (البنانية).

الفن والحرية (مطبوعة بالرونيو)

الإذاعة والتلفزيون

الأمل

الأهرام

البلاغ

التطور

الجهاد

روح العصر

الرقيب

روزا اليوسف

السياسة (الأسبوعية)

شبرا

العمال (١٩٢٤ - ١٩٢٥)

العصور

الفلاح الاقتصادي

كوكب الشرق

الكشكول
كل شيء والدنيا
اللطائف المصورة
اللواء
الطليعة
المجلة
المجلة الجديدة
المقتطف
المصرى
المصور
الهلال
دوريات أجنبية

Uneffor
The communist International
The Egyptian Gazette
International Press Correspondener
The Labor Monthly
Savoir Vivre
Les Humbles
Don Quichotte
Revolyutsionnyi Vostok

(باللغة الروسية)

صدر للمؤلف

- الأساس الاجتماعى للثورة العربية .
- تاريخ الفكر الاشتراكى فى مصر .
- كتابات فى التاريخ .
- صفحات من تاريخ مصر .

* فى سلسلة طلائع الفكر الاشتراكى :

- نقولا حداد .
- عصام الدين حفى ناصف .
- ثلاثة لبنانيين فى القاهرة .

* فى سلسلة قادة العمل السياسى فى مصر :

- محمد فريد ، الموقف والمأساة .
- سعد زغلول ، بين اليمين واليسار .
- مصطفى النحاس ، السياسى والزعيم والمناضل .
- حسن البنا ، متى وكيف ولماذا ؟
- أحمد حسين ، كلمات ومواقف .
- تأملات فى الناصرية .
- أوراق ناصرية فى ملف سرى للغاية .

*** فى سلسلة تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر:**

- تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠-١٩٢٥
- اليسار المصرى ١٩٢٥-١٩٤٠
- تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠-١٩٥٠
- منظمات اليسار المصرى ١٩٥٠-١٩٥٧
- تاريخ الحركة الشيوعية المصرية ١٩٥٧-١٩٦٥
- الصحافة اليسارية فى مصر ج١ ١٩٢٥-١٩٤٨
- الصحافة اليسارية فى مصر ج٢ ١٩٥٠-١٩٥٢
- اليسار المصرى والقضية الفلسطينية.

*** روايات:**

- السكن فى الأدوار العليا.
- البسقة.

فهرس الجزء الأول

* القسم الأول:

- 19 - مصر فى مطلع القرن العشرين
- 21 - التجمعات الطبية والقوى الاجتماعية المختلفة
- 53 - الحركة وسط الفلاحين
- 61 - النضال النقابى والسياسى للطبقة العاملة
- 77 - المثقفون.. طريقان تؤدى إليهما الليبرالية

* القسم الثانى:

- 93 - المنابع الفكرية للعمل الاشتراكى
- 99 - الفابية
- 117 - اشتراكية الدولية الثانية
- 145 - الماركسية

* القسم الثالث:

- 181 - من الفكر المجرد إلى العمل الحزبى
- 183 - الخلايا الاشتراكية فى مطلع القرن العشرين
- 217 - إعلان الحزب الاشتراكى
- 237 - الاشتراكية المصرية من الدفاع إلى الهجوم المضاد
- 259 - المؤتمر الأول للحزب.. الانضمام للكونغرس
- 271 - المؤتمر الثانى.. تغيير اسم الحزب
- 281 - موجة من النشاط العارم
- 301 - ثم بدأت المطاردة

* القسم الرابع:

- 311 - الملاحق
- 370 - المراجع

فهرس الجزء الثانى

379	- ليست مقدمة.....
	* القسم الأول:
387	- مصر الثلاثينيات...الصراعات الفكرية والسياسية بين اليمين واليسار.....
389	١- اليمين
391	- حرب الدعاية.....
403	- قادة برجوازيون للطبقة العاملة.....
421	-.. وللفلّاحين أيضا.....
433	- الفاشست ينشطون.....
441	٢- اليسار
443	- موجات من الدعاية الاشتراكية.....
463	- مسرحية سكلا تفالا.....
471	- عبد الرحمن فضل.. يعدل قانون الجنسية.....
485	- تهادنت قيادة الوفد فتحالف المستضعفون.....
503	* القسم الثانى
505	- وبرغم المطاردة المحنونه واصلوا المسيرة.....
555	- العربى - ناصف - القاضى. جماعة التمسك بالقانونية.....
569	- جورج حنين - رمسيس يونان - أنور كامل.. هل الفن وحده يكفى؟.....
579	- بعض القضايا الأيديولوجية.....
601	- كلمة أخيرة.....

* القسم الثالث:

603 - ملاحق

(١) وثائق أيديولوجية:

- 605 - برنامج لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين
- 607 - بلا مخرج - مقال - أ. الجبالي
- 613 - الحزب الذى يثرثر كثيرا - مقال - أ. الجبالي
- 617 - برنامج ديكتاتورية محمود فى مصر - مقال - ج. ب.
- 621 - الأزمة والمال الثورى فى مصر - مقال - أفيجدور
- 625 - موقف اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى فلسطين وسوريا من الانقلاب فى مصر

(٢) أوراق قضائية:

- 629 - قرار الاتهام فى قضية الشيوعية ٨ سبتمبر ١٩٢٥
- 633 - مرسوم ملكى بإسقاط الجنسية عن ثمانية من المصريين
- 635 - حيثيات الحكم ببراءة عصام الدين ناصف فى القضية ٢٤٤ كلى الإسكندرية لسنة ١٩٣١
- 649 - محضر تحقيق النيابة العسكرية مع أنور كامل
- 665 - مذكرة من حكمدارية بوليس مصر عن هنرى كورييل (مذكرتان)
- 669 - مذكرة من حكمدارية بوليس مصر عن الجبهة الاشتراكية

(٣) وثائق حول موضوع سكا لا تفالا:

- 675 - معلومات عن سكا لا تفالا (وثائق وزارة الخارجية البريطانية)
- 677 - نداء من سكا لا تفالا إلى شعب مصر (وثائق وزارة الخارجية البريطانية)
- 681 - رسالة من سكا لا تفالا إلى عدلى باشا يكن (وثائق وزارة الخارجية البريطانية)
- 687 - مناقشات فى البرلمان المصرى (مضابط مجلس النواب المصرى)
- 697 - ملخص لترجمة مقال فى جريدة «بندر إسلام» الملاوية (وثائق وزارة الخارجية البريطانية)

(٤) تقارير شخصية ومحاضر نقاش:

- 705 - محضر نقاش مع محمد دويدار

- 717 - محضر نقاش مع إدوارد ليفى
- 723 - محضر نقاش مع إيلي ميزان
- 727 - محضر نقاش مع بول جاكو دي كومب
- 737 - محضر نقاش مع ريمون أجيون
- 745 - محضر نقاش مع دينا فورتى
- 749 - محضر نقاش مع مارسيل ميسيكوا
- 754 - محضر نقاش مع راؤول كورييل
- 753 - محضر نقاش مع أنور كامل
- 761 - تقرير مارسيل إسرائيل «تشيريزى» (بدايات الحركة العمالية فى مصر)
- 779 - محضر نقاش مع فتحى الرملى
- 787 - محضر نقاش مع أسعد حليم
- 791 - محضر نقاش مع هنرى كورييل
- 809 - محضر نقاش مع عبده دهب
- 819 - المراجع



